




# أفريقيا منذ عام 1800

تأليف

رونالدو أوليڤر - أنتونى أتمور

ترجمة

فريد چورج بورى

مراجعة

عبد الله عبد الرازق إبراهيم

المشروع القومي للترجمة

948

المشروع القومى للترجمة

# أفريقيا
## منذ عام ١٨٠٠

تأليف

رونالد أوليفر وأنتونى أتمور

ترجمة

فريد چورچ بورى

مراجعة

عبدالله عبدالرازق إبراهيم




٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٤٨
- أفريقيا منذ عام ١٨٠٠
- رونالد أوليفر وأنتونى أتمور
- فريد چورچ بورى
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:
Africa Since 1800
Fifth Edition
By
Ronald Oliver & Anthony Atmore

Published by the Press Syndicate of the University of Cambridge

---


شارع الجبلاية بالأوبرا -الجزيرة -القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

# المحتويات

# تقديم المراجع

يعتبر كتاب أفريقيا منذ عام ١٨٠٠ للمؤلفين رونالد أوليفر وأنتونى أتمـور من أحدث الكتب التى تعالج تاريخ القارة الأفريقية منذ مطلع القرن التاسـع عشـر ويستمر حتى الألفية الثالثة وبالتحديد عام ٢٠٠٣، وبالتالى فهو يعالج أحداثا ساخنة لا تزال تجرى على أرض القارة الأفريقية خاصة الأزمة فى دارفور وغيرها مـن المشكلات التى تواجه القارة خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة والوضع الكونى الذى برز بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فضلا عن أنـه ينـاقش الآثـار المدمرة للأمراض التى تجتاح القارة مثل الملاريا والإيدز، وأيضا الصراعات التى شنها سادة الحروب والذين يحاربون من أجل السيطرة على موارد القارة النادرة.

يقع الكتاب فى ثلاثة وعشرين فصلا، يبدأ الفصل الأول تحت عنوان "أفريقيا شمال خط الاستواء"، ويعالج ضمن هذا الفصل بلاد ساحل البحر المتوسـط ودول منطقة السودان ودول أرض الأشجار والغابة وحصار القوى الأوروبية.

وجاء الفصل الثانى تحت عنوان "أفريقيا جنوب الصـحراء" ويعـالج بـلاد البانتو الغربيين والبانتو الشرقيين وتجارة بانتو أفريقيا، كما يتطرق إلـى جنـوب أفريقيا (البانتو والبوير) والساحل الشرقى الذى يضم العـرب والسـواحليين، ثـم يتطرق إلى الحديث عن البرتغاليين فى أفريقيا جنوب خـط الاسـتواء ومدغشـقر وظروف احتلالها.

جاء الفصل الثالث تحت عنوان "انفتاح أفريقيا من الشمال والشرق". يـدور الحديث فى هذا الفصل حول محمد على وإعادة إحيـاء تجـارة البحـر الأحمـر، والتوسع المصرى فى السودان، ومحمد على والقوة الأوروبية، والخديو إسـماعيل

(١٨٦٣-١٨٧٩) والسودان والمهدية (١٨٨٥-١٨٩٨) وإعادة توحيد أثيوبيا (١٨٨٥-١٨٨٩).

أما الفصل الرابع "انفتاح أفريقيا من الغرب" فيدور حول شمال غرب أفريقيا والقوى الأوروبية (١٨٠٠-١٨٣٠)، ثم يتطرق إلى الحديث عن الفرنسيين في الجزائر(١٨٣٠-١٨٧٩) والمغرب (مراكش ١٨٣٠-١٨٩٤) والسنوسية، وولاية تونس.

أما الفصل الخامس فيعالج "غرب أفريقيا قبل عصر الاستعمار" (١٨٠٠-١٨٧٥) ويدور حول جهاد الفولبى والجهاد السودانى الغربى وبدايات التدخل الأوروبى

الفصل السادس وعنوانه "غرب ووسط أفريقيا" (١٨٠٠-١٨٨٠) يدور حول البومبيروش البرتغاليين والمواثاكازمبى والأوفيمبوندو والشكوى والنياموزى والعرب، كما يعالج الفصل الزعيم الأفريقى "تيبوتيب" ومنطقة الكنغو الـ غلى وطريق نهر الكونغو.

الفصل السابع جاء تحت عنوان "شرق ووسط أفريقيا" ١٨٠٠-١٨٨٤، ويتطرق للحديث عن دخول السواحليين العرب إلى الداخل ثم دراسة النجونى والميرامبو والمنطقة الداخلية وشعوب كينيا وطرق تجارتها، مع التركيز على قمة ازدهار القوة العربية السواحلية فى شرق أفريقيا مع دراسة تاريخية لجزيرة مدغشقر.

الفصل الثامن وعنوانه "جنوب أفريقيا ١٨٠٠-١٨٨٥" يركز على النزاع بين البوير والبانتو وشاكا ودولة الزولو وعصر الاضطرابات فى ظل موشيش والباسوتو وتوسيع البربر والهجرة الكبرى ونهاية الدويلات الأفريقية المستقلة والطريق إلى الشمال.

الفصل التاسع وعنوانه "تقسيم أفريقيا نظريا" (١٨٧٩-١٨٩١)، يعالج هذا الفصل المصالح التجارية الأوروبية فى أفريقيا قبل التقسيم، وتطور المنافسة الأنجلو فرنسية فى غرب القارة، ودخول القوى الجديدة، والملك ليوبولد، والكونغو، وألمانيا تدخل عملية التكالب ١٨٨٣-١٨٨٥، واللورد ساليسبورى وعودة المبادرة البريطانية ١٨٨٥-١٨٩١.

الفصل العاشر وعنوانه "تقسيم أفريقيا (١٨٩١-١٩٠١)" يدور حول الصراعات الأوروبية فى أفريقيا والتقدم الفرنسى جنوب نهر النيجر، وأيضا التوسع البريطانى فى ساحل الذهب ونيجريا، والفرنسيون فى وسط السودان، والصراع مع رابح فضل الله، ثم إعادة فتح السودان وأزمة فاشودة، ثم دراسة شرق وحوض الكنغو والغزو الفرنسى لمدغشقر، ثم الحديث عن رودس ووسط أفريقيا، والحرب بين إنجلترا والبوير.

الفصل الحادى عشر وعنوانه "الحكم الاستعمارى فى أفريقيا المدارية" ويدور حول سياسات القوى الاستعمارية وغرب أفريقيا فى مجال المزارع المنتجة، وأيضا غرب أفريقيا الفرنسية والبريطانية، ثم دراسة ليوبولد فى حوض الكونغو وبريطانيا وألمانيا والبرتغال فى شرق ووسط أفريقيا.

الفصل الثانى عشر وعنوانه "الحكم الاستعمارى فى أفريقيا الاستوائية" وتأثير الحكم الاستعمارى والبعثات التبشيرية المسيحية والتربية الغربية وأخيرا ميلاد الحركة القومية فى القارة.

الفصل الثالث عشر عنوانه "أفريقيا بين الحربين (١٩١٨-١٩٣٨)" ويدور البحث فيه حول الحرب ونظم الحماية والسياسة المزدوجة فى أفريقيا البريطانية وفى شرق ووسط أفريقيا والتعليم فى المستعمرات البريطانية وسياسة المشاركة الفرنسية والاستعمار والوطنية .

الفصل الرابع عشر عنوانه "شمال وشمال شرق أفريقيـا" (١٩٠٠-١٩٣٠) ويدور حول حركة الجامعة الإسلامية والحكم الفرنسى فى المغرب وبدايات القومية فى المغرب الكبير والبريطانيون فى مصر والسودان ومناطق النفوذ الإيطالية فـى ليبيا والصومال وأثيوبيا.

الفصل الخامس عشر "جنوب أفريقيـا (١٩٠٢-١٩٣٩)" ويعـالج جنـوب أفريقيا بعد حرب البوير والاتحاد عام ١٩١٠، ثم الحديث عن سمطس وهرتـزوج والآلام الأفريقية وجنوب غرب أفريقيا.

الفصل السادس عشر وعنوانه "آخر أعوام الحكـم الاسـتعمارى والحـرب العالمية الثانية" ١٩٣٩ -١٩٤٥ وما بعدها وآخر مراحل الاستعمار، ثـم الحـديث عن التطور فى التعليم، وأخيرا التحضير للديمقراطية.

الفصل السابع عشر "الطريق إلى الاستعمار فى شمال وشمال شرق أفريقيا" ويدور حول مصر والسودان ودول منطقة القـرن الأفريقـى، ثـم دراسـة ليبيـا والمغرب.

الفصل الثامن عشر:الطريق إلى الاستقلال وأفريقيا مـن الصـحراء إلـى الزمبيزى وساحل الذهب والاختراق وتوابع استقلال غانـا فـى أفريقيـا الغربيـة البريطانية واستقلال غرب أفريقيا والماوماو وتعدد الأعراق والكونغـو البلجيكيـة مدغشقر.

الفصل التاسع عشر "الطريق إلى الاستقلال" ويدور حـول وسـط أفريقيـا واتحاد وسط أفريقيا الفيدرالى والحروب الاستعمارية فـى أنجـولا وموزمبيـق، وأخيرا الطريق إلى الاستقلال من روديسيا إلى زيمبابوى

الفصل العشرون وعنوانه "الطريق الطويل نحو الديمقراطيـة فـى جنـوب أفريقيا" يدور حول المحميات وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا) والاختراق فى جنـوب أفريقيا

الفصل الحادى والعشرون عنوانه سياسات أفريقيا المستقلة" ويدور حول الديمقراطية والأوتوقراطية والحكم العسكرى والانتقال من الحكم العسكرى إلى الحرب الباردة، والحديث أيضا عن الحرب الأهلية والحرب الباردة وضغوط التزايد السكانى.

الفصل الثانى العشرون عنوانه "الاقتصاد والمجتمع فى أفريقيا المستقلة" ويدور حول سنوات التفاؤل وسنوات الركود والانهيار والطريق الصعب نحو استعادة الأمل

الفصل الثالث والعشرون عنوانه "فى الألفية الثالثة" ويدور حول بقايا الحرب الباردة فى أنجولا والقرن الأفريقى ومأساة رواندا والكونغو، وأيضا دراسة أسياد الحرب فى ليبيريا وسيراليون، وأيضا الإسلام فى شمال أفريقيا، والطريق نحو الديمقراطية البرلمانية فى غرب أفريقيا، وأيضا فى شرق وجنوب شرق أفريقيا، وأيضا الديمقراطية فى الجنوب الأفريقى.

وأخيرا الخاتمة التى حللت كل الأحداث التى وقعت فى القارة فى مرحلة الكتاب، والمشكلات التى تواجه دول القارة الأفريقية سواء السياسية أو الاقتصادية أو الصحية.

يعد الكتاب بهذه الموضوعات التى عالجها على أكثر من قرنين مرجعا أساسيا شاملا لدول القارة الأفريقية بأسلوب سهل وشيق ودون الدخول فى تفاصيل وأحداث دقيقة ربما تحتاج إلى سجلات كبيرة، لكن نجح المؤلفان فى استعراض تاريخ القارة بشكل متكامل، واعتمد المؤلفان على عدد كبير من الخرائط التى أوضحت كل المناطق التى دخلت مجال الدراسة. والكتاب من أحدث المراجع التى عالجت قضايا فى الألفية الثالثة وحتى عام ٢٠٠٣ والحرب الباردة وأفريقيا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وانعكاس كل هذه الأحداث على القارة، فضلا عن معالجة قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان ومشكلات القارة الإثنية والعرقية خاصة أمراض الملاريا والإيدز.

لقد كان المؤلفان يعالجان القضايا فى إطار تاريخى دون التحيز لهذا الطرف أو ذاك، وكانت هذه النظرة الموضوعية تجعل من كتاب واحد من أهـم المراجـع التاريخية المتكاملة التى تثرى المكتبة العربية بعد ترجمة أحدث طبعات هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٥، ونأمل أن يساهم هذا العمل الضخم فى دعم التاريخ الأفريقى مـن وجهة نظر غربية. إن الشكر واجب للمؤلفين اللذين أصرا على ترجمـة الطبعـة الخامسة فى مارس ٢٠٠٥ وليس الطبعة الرابعة التى لم تصل إلى الألفية الثالثـة، وبالتالى فإن الطبعة الخامسة مزيدة ومنقحة ومتكاملة وعالجت قضايا معاصرة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر من وجهة نظر المؤلفين ونحـن حاولنـا ترجمـة وجهة نظرهما للأمانة العلمية.

*والله الموفق،*

**عبدالله عبدالرازق إبراهيم**

# تمهيد

يبدأ تاريخ أفريقيا الحديث عام ١٨٠٠ كنقطة البداية، فبالرغم من أنـــه فـــى ذلك الوقت قد أصبح الجزء الأعظم من داخل القارة معروفا للعالم الخارجى إلا أن معظم المبادرات للتغيير الاقتصادى والسياسى ما زالت فى أيدى الحكام الأفارقـــة وشعوبهم.

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء، حيث يصف الجزء الأول تاريخ أفريقيا قبل الاستعمار بينما يعالج الجزء الأوسط التقسيم والحكم الاستعمارى، أما الجزء الثالث فيشرح بالتفصيل بزوغ الدول القومية الحديثة فى أفريقيا وتاريخها، وطوال مـــائتى عام يتضمنها الكتاب فإن أفريقيا وليس غزاتها هى محور القضية، ويهتم المؤلفـــان باستمرارية التاريخ الأفريقى فضلا عن التغيرات التى وقعت طوال هذه الفترة.

تغطى الطبعة الجديدة الأحداث حتى منتصـــف عـــام ٢٠٠٣، كمـــا تشـــمل المفاهيم الجديدة التى نجمت عن نهاية الحرب الباردة، والوضع الكونى الجديد الذى برز بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ويهتم الكتاب أيضا بالاتجاهـــات الديموجرافية التى كانت فى قلب كثير من المشكلات الأفريقية اليـــوم مـــع الآثـــار المدمرة للأمراض مثل الملاريا والإيدز فضلا عن الصراعات التى شـــنها أســـياد الحروب والذين يحاربون من أجل السيطرة على الموارد النادرة.

# الفصل الأول

## أفريقيا شمال خط الاستواء

تسود الصحراء جغرافيا النصف الشمالى لأفريقيا. ويكون سقوط الأمطار أقل من خمس بوصات (١٣سم) سنويا عبر تلك المساحة الشاسعة ١٧٠٠ ميل (٢٨٠٠كم٢) من الشمال إلى الجنوب و٥٠٠٠ ميل تقريبا من الشرق إلى الغرب، حيث إن سقوط المطر لا يزيد عن ١٣سم (٥ بوصات) سنويا، كما أن الزراعة مستحيلة فيما عدا بعض الواحات القليلة حيث تصل إمدادات المياه الجوفية إلى سطح الأرض.

أما سكان الصحراء الوحيدون فمن الرعاة الرحل ويربون الجمال وينقلون حيواناتهم موسميا من منطقة رعوية خفيفة إلى أخرى. أما الساحل الخصب فيوجد على ضفاف البحر المتوسط شمال الصحراء وحيث يتركز سقوط الأمطار من يناير إلى مارس وحيث يكون القمح والشعير أهم المحاصيل من الحبوب، كما أن رعى الأغنام أهم ثروة فى مناطق الرعى العالية. وتقع المنطقة الاستوائية وأرض الأمطار الصيفية جنوبا، حيث يفضل زراعة محاصيل أخرى غير التى تزرع على ساحل البحر المتوسط. ويعيش العرب والبربر وهم من الشعوب الفاتحة اللون بطريقة أكثر أو أقل فى الشمال وفى الصحراء أيضا، ويتكلمون لغات من مجموعة اللغات الأفروآسيوية. وتبدأ أرض السود جنوب الصحراء ويسميها الإغريق "أثيوبيا" والبربر "عقال نيعجونيا، (غينيا) والعرب "بلاد السودان.

وكانت الصحراء دائما عائقا هائلا للمجتمعات البشرية. ولكن ولفترة ألفى عام على الأقل ومنذ وصول الجواد والجمل إليها أصبح السفر أكثر سهولة مما

ساعد الناس في التغلب على صعابه. ويستغرق السفر شهرين قبل عصر السيارة والطائرة ولكن وبالرغم من ذلك عبر الناس تلك الصحراء ليس فقط فى رحلات استكشاف منعزلة ولكن أيضا بانتظام عاما بعد آخر لأغراض التجارة والعلم والحج. وكان الوسطاء الأساسيون فى حركة الاتصال هم البدو الرعاة المتجولون فى الصحراء ذاتها.

وكانوا يربون الجمال ويدربونها على أعمال الحمل والنقل ومرافقة وحماية القوافل فى رحلاتها. وكانوا يسيطرون أيضا على معظم الموارد الصحراوية – حتى الاكتشافات الحديثة للبترول والغاز الطبيعى – ونعنى بذلك الملح الذى وجد بكميات هائلة لا نهاية لها تقريبا نظرا لتبخر أحواض البحيرات القديمة الموجودة فى منتصف الصحراء، وهى من عصور ما قبل التاريخ حينما كانت الأمطار أكثر غزارة. وكان الملح مطلوبا للغاية فى الشمال وأكثر طلبا فى جنوب الصحراء. وأحضر البدو العبيد للعمل فى استخراجه وقدموا الجمال لأهميتها الكبرى لنقله بكميات كبيرة. ولولا قوافل الملح التى استخدمت فى القرن التاسع مئات الآلاف من الجمال ونقلت عشرات الآلاف من أطنان الملح لما أمكن أبدا فهم أهمية تبادل العديد من السلع بين شمال وجنوب الصحراء بتلك السهولة. وكان الذهب فى الأودية الفرعية لنهر النيجر الأعلى وفولتا العليا وصحراء أكان Akan عنصرا مبكرا ومهما للتجارة عبر الصحراء. وكان العبيد الذين يجلبون على طول امتداد الحواف الجنوبية للحزام السودانى يصاحبون تقريبا كل قافلة متجهة إلى الشمال. وبمرور الوقت فإن السلع الجلدية والأنسجة القطنية المصنوعة فى السودان قد نقلت بكميات كبيرة شمالا. وكانت مواد التجارة المتجهة جنوبا هى المنسوجات الصوفية لشمال أفريقيا والأقطان وقماش الموسلين Muslins الثمين فى الشرق الأوسط والأسلحة والدروع وباقى المصنوعات من جنوب أوروبا.

ولذلك، وقبل فترة طويلة من إبحار أى سفينة من أوروبا إلى ساحل غرب أفريقيا، فإن الأراضى السودانية جنوب الصحراء كانت على اتصال بتلك الأراضى

الموجودة على سواحل البحر المتوسط، وليس فقط لمبادلة المنتجـات بـل لتبـادل الأفكار والمهارات أيضا. ولم تستطع المسيحية اللاتينية لولايات الغرب الرومانيـة أن تعبر الصحراء بالمرة، ولكن استطاع المبشرون الناطقون باليونانية سواء مـن الأرثوذكس أو أتباع المذهب الواحد Monophysite (المونـوفيزيتى) أن ينشـروا المسيحية عند أعالى النيل ومملكة أكسوم Aksum فى شمال أثيوبيا. أمـا الإسـلام فقد انتشر فى البداية فى القرن السابع للميلاد بفتح مصر وشمال أفريقيا ثم سرعان ما عبر الصحراء. واعتنقه بدو وسط غرب الصحراء فى القرن التاسع ثم بدأ فـى الانتشار فى الممالك السوداء جنوب الصحراء فى القرن الحادى عشر على الأقـل، وأعجب به بالذات المسافرون خارج بلادهم ومناطق لغتهم المحلية، واشتركوا فـى نظام تجارى عبر المناطق والأقاليم. وقدم لهم الإسلام آفاقا ثقافية ومعنوية أوسـع بالإضافة إلى الاشتراك فى أخوة عالمية تهتم فعلا بأعضـائها وبأسـاليب عمليـة للغاية. وبين القرنين الحادى عشر والثانى عشر على الأقل فإن سكان بعض البلاد السودانية قد تعلموا أن يكونوا مسلمين مثل العرب والبربر فـى الشـمال. وتعلـم الرجال المثقفون والأتقياء اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وقـام القليـل مـنهم أو بعضهم بالحج إلى مدن الإسلام المقدسة – مكة والمدينة – بعد أن يمـروا بمـدن مصر وبمدن شمال أفريقيا الكبيرة أثناء سفرهم. ولذلك عبد الحكام والأثرياء علـى جانبى الصحراء الإله الواحد وقرأوا الكتب نفسها وناقشوا الأفكار نفسها.

ولكن لا يجب الاعتقاد أن حضارة الحزام السودانى الأفريقى قد نبعت فقـط من اتصالها بالعالم الإسلامى. ونعرف الآن أنه قد وجد نظام فى الحياة المدنية فـى المدن ذات الأسوار فى مناطق متفرقة للغاية فى غرب أفريقيا قبل فترة طويلة من انتشار الإسلام. كما أن التكوين السياسى المميز "للمدن الدول" الصغيرة قد أدى إلى وجود مجموعات تتكلم كل منها اللغة نفسها وتتبع العادات والتقاليد نفسها، وأن ذلك كان تطورا محليا خاصا بالمنطقة. أما العملية الدورية أو المتقطعة لدخول "المـدن الدول" فى وحدات إدارية أكبر والتى وصفها الأجانب بالممالك أو الإمبراطوريـات

فإنها ظاهرة يجب رؤيتها على أنها إجابات أو تغييرا للعديد من العناصر المحلية مثل اختلافات الفرص الاقتصادية والقوة العسكرية وطموحات الحكام المحليين الشخصية. ولا ينقص ذلك أبدا بطبيعة الحال أهمية انتقال الأفكار السياسية من شمال الصحراء إلى جنوبها. ولكن كان الوجود المتزايد للإسلام وقلب العالم الإسلامى كأهم مرجع للعالم الخارجى قد ساعد على تقديم قدر معين من الوحدة مع النصف الشمالى لأفريقيا الممتد من البحر المتوسط إلى أكثر مناطق المحيط الأطلنطى فى غرب أفريقيا. ولكن، وفى داخل تلك المنطقة الواسعة وبالرغم من الاختلافات العديدة فى اللغة والثقافة، فإن التجارة عبر المناطق والأقاليم وسفريات الأفراد الذين كان معظمهم فى بداية فترتنا من المسلمين قد أدت كلها إلى وجود قاعدة أفكار مشتركة منتشرة من أقصى جهة إلى أقصى جهة أخرى.

ولكن يوجد جدل فيما يتعلق بامتداد الحدود الجنوبية لشمال أفريقيا فى مختلف عصور التاريخ. وربما شملت القرنين الثانى عشر والثالث عشر أكثر بقليل من منطقة المراعى المفتوحة، وكونت بالتالى حزاما عرضه من ٢٠٠إلى ٣٠٠ ميل (٤٠٠ أو ٥٠٠ كم$^{٢}$) جنوب حافة الصحراء إلى بحيرة تشاد، وشرقا من دارفور وكردفان إلى المرتفعات الأثيوبية. ويمكن للدواب الانتقال عبر تلك المنطقة كلها، كما يمكن لقوات الفرسان المسلحة السيطرة وجباية الضرائب من سكان المدن الكبيرة. ويقع حزام أرض الأخشاب إلى جنوبها ثم ينكشف تدريجيا ليتحول إلى غابات استوائية كثيفة ممطرة. ولكن نظرا لوجود ذبابة التسى تسى المسببة لمرض النوم فى أرض الأخشاب ونقص الأعشاب فى الغابة فإنه قد وجب نقل السلع كلها بواسطة حمالين، كما يضطر الجنود إلى القتال على أقدامهم. وكانت الدول والأسواق أصغر، كما قلت أعداد المدن الكبيرة التى تستطيع الديانة الإسلامية وتعاليمها أن توطد أقدامها بها. ولكن بدأت منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعض أنواع التجارة عبر الأقاليم ووصلت إلى تلك البقاع الجنوبية ووجد الذهب فى صحراء أكان Akan، كما أن الكولا Cola – وهو المنشط الطبيعى الوحيد الذى

يصرح به الإسلام – قد نما فقط داخل الحزام الصحراوى. وحينما اكتشف البرتغاليون ساحل غرب أفريقيا فإنهم قد وجدوا أن الحدود التجارية لتجار الماندى Mande قد امتدت من حزام نهر النيجر إلى سواحل غانا الحالية. وخلال القرون الثلاثة التالية دفع التجار الأوروبيون العاملون فى ساحل المحيط الأطلنطى حدود هذا الإقليم إلى الشمال مرة أخرى لمسافة ٢٠٠ أو ٣٠٠ ميل (٣٠٠ إلى ٥٠٠ كم[٢]). وبحلول عام ١٨٠٠ اتجهت معظم مناطق غرب أفريقيا ببصرها شمالا من أجل اتصالها بالعالم الخارجى وأكثر بكثير من اتجاهها جنوبا بالنسبة للتجارة المحمولة برا إلى أوروبا. وظلت كل المنطقة شرق بحيرة تشاد بدون وسائل اتصالات أخرى إلا بواسطة الشمال بطبيعة الحال.

## بلاد ساحل البحر المتوسط

بحلول نهاية القرن الثانى عشر فقد الناس فى العالم الإسلامى وفى معظم الأحوال الكثير من طاقتهم والشعور بالأهداف التى طالما حركتهم فى عصور الإسلام الأولى لبناء لتلك الحضارة الرائعة الزاهرة. فقد فشلوا تماما فى تتبع الاختراعات والأساليب الفنية الحديثة المكتشفة فى غرب أوروبا، وبالذات فى الشئون العسكرية والنقل (مثل التحسينات التى تمت فى السفن). وأثر هذا الفشل فى صناعة التطور على كل أجزاء أفريقيا التى نتكلم عنها فى هذا الفصل بطريقة أو بأخرى. وينطبق ذلك بالذات على بلاد شمال الصحراء من مصر شرقا إلى موريتانيا غربا. وكانت تلك البلاد باستثناء المغرب جزءا من الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر وعاصمتها إسطنبول. وبحلول القرن الثانى عشر تضاءلت وتدهورت القوة العثمانية كثيرا عن أوج مجدها الذى بلغته قبل قرنين. وتصرف حكام الولايات آنذاك بطريقة شبه مستقلة عن السلطان العثمانى، كما أن سداد الجزية قد أصبح اسميا فقط. وبينما اختلف الوضع فى التفاصيل من بلد إلى

آخر فإن صفوة الحكام بها كلها قد نشأت من أحفاد الحاميـات العثمانيـة السـابقة والذين ازدادت أعدادهم من جيل إلى آخر. ونما أيضا شعورهم بالانفصـال عـن السكان المحليين مما دفعهم إلى تجنيـد العبيـد الجنـود مـن الحـدود الشـمالية للإمبراطورية العثمانية من جنوب روسيا والقوقاز. وبواسطة جلب هؤلاء الجنـود استطاع السلاطين العثمانيون حكم ممتلكاتهم فى شمال أفريقيا.

ووجدت أعمق جذور نظام الحكم العسكرى فـى مصـر، وعنـدما هـزم العثمانيون السلطنة فى عام ١٥١٧ طبقوا نظاما سائدا منذ القرن الثالث عشر. وفى مصر عرف فرسان الصفوة، الذين تم استيرادهم كعبيد ولكن تم تعليمهم وتـدريبهم لشغل المناصب العليا، بالمماليك. ويتم إعتاقهم ويمنحون معاشا مجزيا فـى نهايـة خدمتهم ولكن يمنع أبناؤهم من الالتحاق بالجيش. وكان قادة المماليك وهم الأمـراء يديرون الدواوين العسكرية والمدنية فى الدولة، كما كان كل أميـر عنـد تعيينـه يستورد أعدادا جديدة من المماليك كحراس له أو لداره. وقسمت معظم الأراضـى الزراعية فى مصر إلى إقطاعيات لتمويل الصفوة العسكرية. أما بالنسبة للملايـين من المزارعين المصريين الذين يكدون ويسددون الضرائب فإن الحكـم المملـوكى كان قاسيا جائرا مستبدا. ولكنه أنتج مع ذلك طبقة مثقفة مرهفة مما جعل القاهرة– على الأقل– مركزا للعلم والحياة الرغدة تقارن أعظم مدن العالم الإسلامى.

وفى غرب مصر عرف العرب بلاد طرابلس وتونس والجزائر والمغـرب (مراكش) باسم عام وهو "المغرب" (الغرب). وهنا وبعكس مصـر فـإن سـلطة الحكومات نادرا ما امتدت خارج المدن الرئيسية. وفى الـداخل عاشـت وأقامـت القبائل القوية من البربر والبدو والعرب. وكان يمكن السيطرة علـيهم بشـكل مـا بتحريض إحداها على الأخرى. وفى طرابلس مثلت عائلة (القره مـانلى) المحليـة السلطة العثمانية منذ عام ١٧١١، وركزت جهودها أساسا لتطوير التجـارة عبـر الصحراء فى بورنو Bornu ودول الهاوسا Hausa ووصل إمداد مستمر من العبيد السودانيين ويتم إيفادهم بواسطة تجار طرابلس إلى، إسطنبول، دمشق، القاهرة وكل

أنحاء غرب العالم الإسلامى. وكانت طرابلس أيضا مركزا لتوزيـع المصـنوعات الجلدية الرائعة التى اشتهرت بها مدن الهاوسا، وكانت معروفة جيدا فـى غـرب أوروبا باسم "الجلد المغربى". أما صادرات طرابلس إلى الجنوب فكانت أساسا من السلاح والدروع والجياد العربية ولكنها شملت أيضا الجنود المرتزقة المدربة على استخدام الأسلحة النارية والذين انضموا إلى الحرس الخاص للحكام السودانيين.

لكن لم يكن لطرابلس مع ذلك احتكار للتجارة عبر الصحراء. وربما كانـت أهم منطقة فى حركة المرور الصحراوية هى واحة غدامس، حيث تلتقى الحـدود الحالية لتونس والجزائر وليبيا. وتجتمع هنا طرق القوافل فى وسط غرب السودان، كما ارتاد تجار طرابلس بلاد الهوسا ومدينة تمبكتو أيضا. وتنتقل بعـض تجـارة السودان من غدامس إلى تونس والجزائر. وكانت موانئ مدينتى تونس والجزائـر موانئ نشطة للغاية، ويمكن أن يتصل منها التجار بسهولة أكبـر بأسـواق غـرب أوروبا أكثر من طرابلس. ويسمى حكام تونس من الأسرة الحسينية بالباى منذ عام ١٧٠٥. وكانت قواتهم المسلحة الكبيرة تحمى السكان المستقرين كثيرى العدد مـن هجمات البدو والبربر فى شرق الأطلسى. وكان هؤلاء المزارعـون فـى السـهل التونسى من أكبر منتجى القمح فى كل حوض البحر المتوسط. ووجدت فى المـدن الساحلية طبقة متوسطة مثقفة من التجار والمسئولين، وتمتعت بتراث طويـل مـن الحضارة والعلوم الإسلامية، وأدارت نظاما فى الحكم أكثر تنظيما مما كان عليـه الحال فى أى بلد آخر فى المغرب.

عرف حكام الجزائر العثمانيون بالداى. وبعكس نظام الحكم فى تونس فـإن السلطة لم تقع أبدا فى أيدى عائلة واحدة وبحيث يتوارثها الابن عن أبيه. وكان يتم اختيار الحاكم عند وفاة الداى السابق بالانتخاب بين مجموعة من التجار والجنـود من أعظم رجال المدينة جاها. وسمى الأوروبيون هؤلاء التجار بالقراصـنة (هـى كلمة إيطالية بمعنى "أن يطارد") وكانوا يتاجرون بحـرا مـع الـبلاد الأوروبيـة ويستخدمون سفنا شراعية، ويقوم بالتجديف بها عبيد مسيحيون. ولكـن اختلطـت

التجارة القانونية أحيانا بأعمال القرصنة ضد الملاحة والسواحل الأوروبية ولـــذلك ساءت سمعتهم كثيرا. وخلال القرن السابع عشر كانت مدينة الجزائر مـــن أجمـــل مدن البحر المتوسط. وعلق الدكتور شو D'Show وهو أحد التجار الأوروبيين فى القرن الثانى عشر بحماس بالنسبة للمناطق المجاورة لها وقال:

"إن التلال والوديان حول مدينة الجزائر كلها جميلة وبهـــا حـــدائق ومنـــازل ريفية يتجه إليها سكان المدينة الأثرياء أثناء فترة القيظ فى فصـــل الصـــيف. إنهـــا منازل جميلة تظللها مجموعة متنوعة من أشجار الفاكهة والأشجار اليافعـــة والتـــى بالإضافة إلى الظل والعزلة فإنها تقدم أيضا منظرا جميلا تجاه البحر. أمـــا الحـــدائق فمليئة بأشجار الليمون والفواكه والأعشاب من كل نـــوع. ويعـــيش ســـكان مدينـــة الجزائر بسرور دائم، لأنه بالرغم من استبداد الحكومة فإن الأمر لـــيس كـــذلك فـــى الواقع".[1]

ووصفت أيضا حتى فى تاريخ استسلامها للفرنسيين عام ١٨٣٠ على أنهـــا أكثر مدن العالم تنظيما. ووجد الفاتحون الفرنسيون أن معظم سكانها أكثر ثقافة من معظم الفرنسيين المحليين. وحدث ذلك بعد نصف قرن من الاضطرابات السياســـية الخطيرة بسبب الثورات بين قبائل العرب والبربر التى دارت فوق الهضاب العالية فى الداخل خلف السهول الساحلية. ويقود تلك القبائل "مرابطون" من رجال الـــدين الإسلامى، ويصلون بهجماتهم إلى ضواحى مدن ساحل البحر المتوسط.

أما المغرب فلم تكن أبدا ضمن الولايات العثمانية. وتكونت معظم جيوشـــها من العبيد السود من السودان، ويقال إن عددهم قد بلغ فى منتصف القـــرن الثـــانى عشر حوالى ١٥٠,٠٠٠. ويقيم نصفهم فى مدينة عسكرية شيدت خصيصـــا مـــن أجلهم بينما توزع الباقى على حصون تحرس الأراضى المنخفضة الوســـطى فـــى الريف من هجمات البدو والبربر من طرابلس. ولكن نقصت مساحة الأراضى التى

---

(١) T'Show: Travels and Observations to several Parts of Barbary and levant (Oxford 1738) P.41

تسدد الجزية لخزانة السلطان كثيرا منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حينما امتدت المملكة لبعض الأعوام عبر الصحراء إلى تمبكتو. ولكن تمكنت جماعات من القبائل فى الأطلس الأعلى وحواف الصحراء، تماما كما فى الجزائر، من الهجوم على المناطق المأهولة بالسكان وجباية الضرائب منهم وبالذات من مزارعى السهول، ولم تستطع جيوش السلطان إيقافهم. ولكن استمر المغرب منطقة وصل لحركة تجارة رائجة مع الجنوب، فمازالت تجارة الملح التى يمارسها بربر الصحراء فى جوار الحدود الجنوبية تجذب الكثير من ذهب منطقة السنغال والنيجر العليا، وذلك بالرغم من محاولات الفرنسيين فى سانت لويس الحصول عليها. فما زال العبيد فى منحنى نهر النيجر يتجهون شمالا إلى المغرب وبأعداد هائلة. ولكن وبالرغم من انفتاح حركة الطرق البحرية فمازالت كميات كبيرة من المصنوعات الأوروبية وبالذات السلع القطنية الإنجليزية توزع فى غرب أفريقيا بواسطة التجار المغاربة الذين يشترونها عند موجادور Mogador على ساحل المحيط الأطلسى فى جنوب المغرب. ويعيش العرب أيضا عند كل الحواف الغربية للصحراء، كما أقاموا وانتشروا جنوبا إلى ضفاف نهر السنغال.

ومارس رجال الدين الإسلامى الطقوس المغربية المميزة وأصبحوا أتباعا لدعوات دينية مثل الرحمانية Ramanyya التى أنشئت عام١٧٧٠ فى منطقة القبائل (الجزائر) والتيجانية التى أنشأها عام١٧٨١ سيدى أحمد التيجانى فى عين ماضى بالقرب من الأغواط عند حافة الصحراء الجزائرية. ودرست تعاليم التيجانى فى جامعة فاس المغربية الكبيرة وازدهرت دعوته فى موريتانيا وبين قبائل الطوارق فى منطقة الصحراء الوسطى.

### دول منطقة السودان

وتأثرت معظم الدول الكبيرة القائمة جنوب الصحراء بدرجة أو بأخرى من

خمول العالم الإسلامى كله. وتناقص الأمن بصفة عامة للتجار والحجاج عما كان عليه الحال من قبل فقل الرخاء وأيضا العلم والدين. وكانت أثيوبيا من أكثر الدول تأثرا، والتى بالرغم من ديانتها المسيحية فإنها تقع بجوار الجزيرة العربية مهد الإسلام، وعانت كثيرا من تدهور التجارة فى البحر الأحمر. وازداد الأمر صعوبة لمعاناة أثيوبيا منذ القرن السادس عشر من التغلغل التدريجى والاستيطان فى ولاياتها الجنوبية والشرقية لجيرانها أورومو. وواجهت المملكة المسيحية ذلك الوضع بأن نقلت حاضرتها بعيدا عن قواعدها التقليدية فى العصور الوسطى من شوا Shoa (المنطقة حول مدينة أديس أبابا الحالية) إلى المنطقة شمال بحيرة تانا Tana، وحيث أنشأت فى نهاية الأمر عاصمة دائمة فى جواندار. ولكن لم تنجح محاولة التركيز المذكورة، إذ استمر ضغط الأورومو، كما لم يمكن الدفاع عن الحدود الجديدة إلا بجذب فيالق الأورومو المسلحة للخدمة فى القوات الملكية ومنحهم حق جباية الضرائب من المزارعين المسيحيين. وكان يسوع الثانى ( Jesus II (1730-1755) آخر أباطرة القرن الثامن عشر الذى مارس سلطة حقيقية خارج منطقة جواندار Gundar. ولكن أصبح الحكام الإقطاعيون فى الولايات الأخرى شبه مستقلين عمليا بعد وفاته، كما اعترفت فئات مختلفة بأباطرة متنافسين. وفى بداية القرن التاسع عشر فإن أحدهم قد حلت به الفاقة لدرجة أنه لم توجد أموال فى الخزانة العامة لسداد ثمن تابوته عند وفاته.

أما سلطنة الفونج Fonj فتقع على الحدود الأثيوبية ناحية الغرب، وحلت فى القرن السادس عشر محل أكثر الممالك النوبية المسيحية تطرفا ناحية الجنوب. وأقام الفونج عاصمتهم فى سنار Sennar على النيل الأزرق والتى أصبحت مركزا لتجارة رائجة فى الذهب الأثيوبى والعاج السودانى المصدر إلى جدة مقابل الأقمشة الهندية. ولكن زاد اعتماد الأسر الحاكمة على قوات العبيد السود بحلول القرن الثانى عشر. وحينما عبر الرحالة الأسكتلندى جيمس بروس تلك المنطقة فإنه كتب بعد ذلك وصفا رائعا لرحلاته الخطيرة فى أثيوبيا فى طريقه إلى منطقة أسفل النيل

الأزرق عام ١٧٧٠، وذكر أنه مازال يوجد جيش دائم يضم ١٨٠٠ فارس و ١٤,٠٠٠ من المشاة. ولكن فقدت السيطرة على ولاية كردفان الغربية كما تقلصت التجارة كثيرا. ولم يعجب بروس كثيرا بما رآه وكتب:" يبدو أن الحرب والخيانة هما الشغل الشاغل لهذا الشعب السيئ والذى فصلته الرعاية الإلهية بصحراء لا يمكن ارتيادها عن باقى البشر".(٢)

أما سلطنتا دارفور Darfour ووادای Wadai فلقد كانتا أكثر نشاطا من سلطنة الفونج، وكانتا على جانبى الحدود الحالية بين جمهورية السودان وتشاد. وكانتا إسلاميتين اسميا ولكن يتضح تماما فى كتابات محمد التونسى، وهو أحد العلماء العرب الأجلاء قام برحلات استكشافية فى البلدين فى بداية القرن التاسع عشر، أن الأفكار القديمة السابقة على الإسلام كانت مازالت حية تماما مثلما يحدث فى العديد من الدول الأخرى فى غرب السودان. ويصف التونسى احتفالا سنويا بمناسبة إعادة تغطية الطبول الملكية بعد تقديم طفل وطفلة كأضاحى، كما يصف السلاطين وهم يشتركون فى طقوس تكاد تكون فرعونية بمناسبة وقت البذر والحصاد، وفى بداية موسم بذر الحبوب يركب السلطان فى موكب مهيب وتصاحبه أكثر من مائة امرأة شابة وغلمانه العبيد وفريقا من الزمارين. وحينما يصل إلى الحقول فإنه ينزل من جواده ويأخذ أنواعا مختلفة من البذور ويزرعها بينما يقوم أحد العبيد بحرث الأرض.

وتنبع ثروة تلك الدولتين من العبيد الذين تجلبهم جيوش الفرسان من بين الشعوب الوثنية القاطنة فى الجنوب والذين ينقصهم أى نوع من تنظيم الدولة. وتتاجر السلطنتان بالنحاس من المخزون الهائل الموجود فى منجم نحاس بجوار منبع مياه بحر الغزال. ثم ترسله الدولتان شمالا بواسطة القوافل التجارية عبر درب الأربعين (طريق يمتد السفر به أربعين يوما) ويصل إلى وادى النيل عند أسيوط.

---

(٢) James Bruce: travels to Discover the Source of the blue Nile 1768-1773 (London 1970) Vol.4.p.437

وكانت إمبراطورية كانم - بورنو Kanem Bornu بأراضيها الشاسعة فـــى شرق وغرب بحيرة تشاد أكثر الدول السودانية استقرارا وحضارة فى نهاية القــرن الثانى عشر. ولكنها كانت قد فقدت آنذاك بعضا من الجاه الإمبراطورى الذى بلغته فى العصور السابقة حينما أرسلت قوافلها العسكرية شمالا لاحتلال مناجم الملح فى بلما Belma وأن تصل تلك القوات إلى الحدود الجنوبيـــة لطـــرابلس فـــى فـــزان Fezzan. ولكن ظل حكامها مسلمين أتقياء ومثقفين، كما كانت الشريعة الإســـلامية مصدرا للقانون والعدالة فى مملكتهم. أما التجارة عبر المناطق لكانم-بورنو فلقـــد اعتمدت تماما على غارات جلب العبيد الهائلة التى تقوم بها جيـــوش المـــاى Mai على الشعوب والدول فى جبال الماندارا Mandara وباقى المناطق الحدودية ناحية الجنوب. ولكن ساد السلام والرخاء نسبيا داخل حدود تلك الدولة مما أثار إعجـــاب الزوار الأجانب. وكانت العاصمة فى هذا العصر مدينة شيدت من الآجر وتســـمى نجازارموا N'gazarmo وتقع على مسافة ٩٠ ميلا (١٦٥كم٢) غرب بحيرة تشاد. ويمكن مشاهدة أطلالها اليوم وتشمل مساحة قطرها حـــوالى (٢ميـــل - ٣كـــم٢). ويعيش المايات هنا حياة كريمة ومنعزلة وينفقون من الجزية التـــى يجمعهـــا لهـــم ولاتهم المحليون مـــن ســـكان مملكـــة مســـاحتها تقريبـــا ٦٠٠ميـــل ×٣٠٠ ميـــل (١٠٠٠كم×٥٠٠٠كم) ومعظمها أراضى رعى خفيف ولكن تشمل أيضا المراعـــى الكثيفة السكان فى غرب بحيرة تشاد.

لكن لم تكن كانم - بورنو أنشط الدول فى مجال التجارة عبر المناطق فـــى وسط السودان، بل أيضا المدن العديدة لبلاد الهوسا الواقعة على حدودها الغربيـــة. وبالرغم من عدم اتحادها أبدا فإن مدن الهوسا تتميز تماما فى السودان لامتلاكهـــا صناعات مهمة. فلقد وجدت لديها صناعة النســـيج، الصـــباغة، صـــناعة الجلـــد، الزجاج، الحدادة والأعمال المعدنية من كافة الأنواع. ويقوم بـــذلك صـــناع عبيـــد يعيشون فى المدن ويقدم لهم المؤن عبيد زراعيون يقيمون فى قرى خاصـــة فـــى الريف المجاور. وفى نهاية القرن الثانى عشر كانت كاتسينا مازالت أهـــم المـــدن،

ولكن سرعان ما تتفوق كانو وتحتل مكان الصدارة، ثم تليها زاريا Zaria مباشرة. وخرجت من تلك المدن وليس فى نجازرجامو طـرق القوافـل الكبيـرة لعبـور الصحراء إلى طرابلس وغدامس، ومن هناك إلى تونس والجزائر. وكانت بورنـو بجيوشها من الفرسان ترسل معظم العبيد الذين يتم تصديرهم شمالا. أما الصناعات فكانت تأتى من بلاد الهاوسا ويتم توزيعها فى شمال أفريقيا كله.

ولكن بحلول القرن الثانى عشر انهارت الإمبراطوريات القوية فـى غـرب السودان جنوب الصحراء بعد ازدهارها فى العصور الوسطى، وانقسمت آنذاك إلى العديد من الممالك الضعيفة. وكانت إمبراطورية الصنغى والأسكاى التى امتدت فى القرن السادس عشر من أعالى السنغال إلى حدود نيجيريا الحديثة قد انهارت بعـد الغزو المغربى عام ١٥٩١م. واستخدم المغاربة فى موقعـة تونـديبى لأول مـرة الأسلحة النارية ضد الفرسان والمشاة السودانيين المسلحين فقط بالأقواس والسهام. واستقر المغاربة الفاتحون هناك، وكون حلفاؤهم طبقة حاكمة جديدة تسمى الأرمـا Arma (رماة أسلحة نارية ومدفعية) ولكنهم سرعان ما استقلوا عن سلطة سـلطان المغرب. وانتخب جنودهم بشواتهم فى تمبكتو وقضاتهم فى مدن الحاميـات حـول منحنى نهر النيجر من جنى إلى جاو.

وانسحبت بقية الطبقة الحاكمة فى صنغى Songhay إلى أسفل النيجر بعـد الغزو المغربى، ثم أنشأت حكومة مستقلة فى ولاية دندى Dendi الجنوبية. أما فى منطقة أعالى النهر شمال جنى وعلى الجانب الغربى لمنحنى نهـر النيجـر فـإن الرعايا الماندى Mandi لإمبراطورية صنغى قد عادوا إلى أحوالهم القديمـة قبـل عصر الإمبراطورية. ولكنهم انقسموا إلى عدد كبير من الدول الصغيرة وتعيش كل منها حول مدينة صغيرة ذات أسوار تسمى بالكانو. ولكن استطاع بعـض زعمـاء الحرب النازحين الذين استطاعوا الحصول على أسلحة نارية مقابل أسرى الحـرب أن يؤسسوا بعض الدول الكبيرة التى تشمل كانو. وحدث ذلك مثلا فى سيجو Segy وفى كارتا Kaarta. ولكن كانت منطقة أقصى الغرب هى أهم منطقة فـى غـرب

السودان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فلقد تكون هناك وفي فوتـاتورو Futa Toro خلال العصور الوسطى شعب مختلط من البربر والزنـوج وعـرف بالفولبى (وبالفرنسية بـول Paul وبالهاوسـا: فـولانى Fulani). وشـملت دول الفولبى- بعكس دول الماندى - عدة مجموعات من الرعاة البدو الذين قاموا برعى قطعانهم فى مناطق البلاد الجافة غيرالصالحة للزراعة حتى فى موسم الأمطار. ثم يحضرون تلك القطعان جنوبا إلى المزارع للرعى فى الحقول بعد حصاد محاصيل الحبوب. وهاجر الرعاة بعكس أقاربهم المزارعين إلى مسافات بعيدة بحثـا عـن مراعى جديدة، كما أقاموا علاقات مشابهة مع مزارعين يتحدثون لغـات أخـرى. وانتشروا منذ القرن الخامس عشر فى مجموعات صغيرة إلى كل منـاطق حـزام السافانا من غرب أفريقيا إلى بحيرة تشاد شرقا. وكانت قبائل الفولبى المتفرقة غالبا وثنية حتى القرن الثامن عشر. ولكن اعتنق الفولبى الباقون فى موطنهم الأصـلى فى فوتاتورو الإسلام بواسطة المرابطين فى موريتانيا فى القرنين السادس عشـر والسابع عشر، وانضموا إلى إخوانهم فى الإسلام وامـتلأوا بالحمـاس لإيمـانهم الجديد. وأصبحت فئة من هؤلاء الفولبى التورودبى مهتمة أساسـا بنشـر الـدعوة الإسلامية لكل شعب الفولبى. ولذلك توجه الدعاة التورودبى إلى كـل مكـان بـه الفولبى ودعوا إلى اعتناق الإسلام والإصلاح الإسلامى وطالبوا بالجهاد - الحرب المقدسة - للوصول إلى هذا الغرض. وكانت القاعدتان التوأمتان لحركـة الفـولبى هما فوتا تورو وماسينا Masina وهى دولة يحكمها الفولبى جنوب غرب تمبكتـو التى كانت تابعة سابقا للصنغى والمستقلة بعد الفتح العربى. وحمل دعاة التورودبى من ماسينا فى القرن الثامن عشر الجهاد إلى فوتاجالون Futa Jalon وهى الـبلاد الجبلية الواقعة على حدود غينيا وسيراليون وشرقا إلى منحنى نهر النيجر إلى ساى Say. ولذلك ومن تلك الخلفية الخاصة بحماس الدعوة والجهاد ظهر جهاد الفـولبى الكبير فى بداية القرن التاسع عشر.

وقيل كثيرا إن القرنين السابع عشر والثامن عشر كانا عصرا من التـدهور فى غرب السودان، وبالتأكيد تميز هذا العصر بالفوضى السياسية الكبيـرة. ولكـن

ظل الكثير من علوم السودان فى العصور الوسطى حيا ينبض بالحياة وذلك بفضل التوردبى والجماعات الدينية الإسلامية الأخـــرى. ويحتمـــل أن يكـــون الإســـلام والثقافة العربية قد انتشر أكثر مما كان عليه الحال فى عصر إمبراطورية العصور الوسطى، وذلك بحلول نهاية القرن الثامن عشر. كما اســـتمرت التجـــارة رائجـــة بالرغم من الاضطرابات السياسية. ولكن يبدو أنه قد حدث آنـــذاك انقطـــاع فـــى الاتصالات بين غرب السودان ووسطه، وحدث ذلك لأنه بعد هزيمة للصـــنغى لـــم تستطع قوة أخرى أن تكبح جماح البدو الطوارق الأشداء المقيمين فى شمال وشرق منحنى نهر النيجر. ولكن ظلت الطرق المارة من الشمال إلى الغرب مـــن تمبكتـــو وشمال السنغال مفتوحة ونشطة إلى مرحلة متقدمة من القرن التاسع عشـــر، كمـــا كانت أكثر نشاطا بكثير فى الطرق المتجهة غربا من تمبكتو إلى ساحل الأطلنطى.

## دول أرض الأشـجـار والـغـابـة

أدى انفتاح التجارة الأطلنطية بواسطة الأوروبيين بحلول القرن الثامن عشر إلى حدوث تغيير جذرى بين دول أرض الأشجار ومناطق الغابات جنـــوب حـــزام السافانا. وكانت تلك الدول قد اتجهت فى علاقاتها الخارجية إلى الشمال دائما منـــذ العصور القديمة. واتجهت دولة الأكان Akan فى غانا المعاصرة وســـاحل العـــاج دائما إلى مالى، وصنغى والدول التى خلفت الماندى، أما الـــدول المتحدثـــة بلغـــة اليوروبا ولغة الإيبو Ebo فى جنوب نيجيريا فلقد اتجهت إلى أرض الهاوسا.

وأشار صموئيل جونسون Johnston مؤرخ اليوروبا إلى ذلك قائلا:"يجـــب أن نتذكر دائما أن الثقافة والحضارة قد أتيتا إلى اليوروبا من الشمال، كمـــا كانـــت مراكز الثقافة والنشاط الاقتصادى والأعداد الكثيفة من السكان والصناعة كلها فـــى الداخل. ولكن ظلت قبائل الساحل قليلة العدد، جاهلة ومنحلة ليس فقط لابتعادها عن

المركز ولكن أيضا (فيما بعد) لاتصالها المحبط بالأوربيين وتجارة العبيد".[٣]

وحدث الشيء نفسه فى غانا وساحل العاج كما كان الحال فى نيجيريا. فلقد وجدت أهم دول منطقة الأشجار والغابات فى الشمال. ووجدت على الساحل الدول الأصغر والأكثر تأخرا أو سكنها فقط صيادو السمك وبائعو الملح.

وتحولت تجارة العبيد فى الأطلنطى إلى فيضان هائل فى نهاية القرن الثامن عشر بعد أن بدأها البرتغاليون فى القرن الخامس عشر بشحن بعض الأفريقيين عبر المحيط إلى أوروبا فى البداية، ثم إلى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فى العالم الجديد فيما بعد. واشتركت بها معظم الدول الأوروبية وبالذات بريطانيا وفرنسا. واشتدت المنافسة للحصول على العبيد بين الدول الأوروبية المتنافسة، ولذلك سنحت الفرصة تماما للدول الأفريقية القريبة من الساحل أو الواقعة عليه للحصول على الأسلحة النارية. واستخدمتها تلك الدول فى غزو جيرانها وأحيانا ضد الدول الأكثر أهمية فى الماضى فى الداخل. ولذلك حدث آنذاك تغيير كبير فى ميزان القوى داخل دول أرض الأشجار والغابات بحلول نهاية القرن الثامن عشر. ووجدت الدول الغنية الصاعدة بجوار الساحل وبالذات دولتى الأشانتى وداهومى Dahomy واللتان توسعتا باستخدام الأسلحة النارية والتى حصلتا عليها بواسطة التجارة الأطلسية. وظهرت أكبر آثار تغيير ميزان القوى عام ١٧٤٥ حينما هزم الرماة الأشانتى المسلحون بالأسلحة النارية فرسان الداجومبا Dajomba الذين يرتدون الدروع الحامية والذين كان يمكنهم فى الماضى مطاردتهم بضراوة فى أى منطقة منبسطة إذا ما تجرأوا على ارتيادها. وتطورت تلك الظاهرة التى بدأت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أكثر بكثير فيما بعد فى بداية القرن التاسع عشر.

---

(٣) Samuel Johnston: history of the yorubas (Lagos 1921) p.40.

وكانت القوة الإمبراطورية الوحيدة فى النصف الشمالى لأفريقيا فى نهاية القرن الثامن عشر هى تركيا العثمانية. وكانت ولاياتها فى مصر وطرابلس وتونس والجزائر "تحكم نفسها بنفسها" تقريبا، ولكنها كانت تساهم ببعض الدخل على الأقل للسلطان فى إسطنبول. ولكن لم تكن للقوى الأوروبية التى تتاجر مع شمال وغرب أفريقيا – بالعكس – إلا بعض مواطئ القدم القليلة فى صورة مراكز تجارية محصنة ومتفرقة على امتداد ساحل غرب أفريقيا من سانت لويس فى السنغال إلى "واداى Whydah" فى بنين.

وصممت تلك الحصون سواء كانت بريطانية أو دانمركية أو هولندية أو فرنسية أو برتغالية أساسا لحماية عمليات فئة أو جماعة واحدة من التجار الأوروبيين فى منافسة الآخرين. وقليل من الحصون كان يمكنها مقاومة هجوم قوى من الأفريقيين المحليين الآخرين وجب على حكامهم الحرص الشديد عند ممارسة أى سلطة خارج أسوارهم. وواصلوا تجارتهم بمساعدة الوسطاء الأفريقيين المقيمين فى المدن المجاورة. وبالرغم من أنهم بحلول نهاية القرن الثامن عشر كانوا يصدرون حوالى ١٠٠,٠٠٠ عبدا سنويا من غرب أفريقيا إلا أن الأوروبيين نادرا ما كانوا يقبضون على عبد بمفردهم، وباستثناء الفرنسيين فى السنغال كان من النادر على أى أوروبى التوغل أكثر من ١٢ميلا (٢٠كم) بمفرده فى الداخل. ولم يبد أبدا فى أى وقت خلال القرن الثامن عشر أدنى احتمال لتغيير أنماط تلك العلاقات الملائمة للجانبين التجار الأوروبيين والأفريقيين. ولكن من الحقيقى أيضا أنه بحلول نهاية القرن الثامن عشر أن تجارة العبيد قد تمت مهاجمتها فى بلد أو بلدين أوروبيين. فلقد أعلن أحد القضاة فى محكمة إنجليزية عام ١٧٧٢ أنه لا توجد عبودية على أى أرض إنجليزية. وبعد خمسة عشر عاما اشترت مجموعة من

محبى الإنسانية بعض الأميال المربعة فى شبه جزيرة سيراليون Sierna Leone[٤] لأغراض إسكان العبيد الزنوج المحررين فى إنجلترا وعبر المحيط فى كندا. ومن تلك البداية الصغيرة، والتى حدثت نتيجة لتأنيب الضمير لبعض الرجال الخيرين نما الطوفان والتكالب المتزايد للتدخل الأوروبى فى أفريقيا الاستوائية خلال القرن التالى. ولكن لم يتمكن أحد أن يتنبأ بذلك على الإطلاق.

ولكن كان تغير ميزان القوى بالنسبة للمعاصرين فى منطقة البحر المتوسط أهم بكثير من تزايد القوة الأوروبية فى أفريقيا الاستوائية. وكانت للهند لكل من بريطانيا وفرنسا وطرق المواصلات المؤدية إليها أهمية استراتيجية كبرى. وحينما تحاربت الدولتان فى نهاية القرن فلقد انساقتا معا للاستيلاء على منطقة رأس الرجاء الصالح من الهولنديين. وكان رد نابليون مفاجئا فى احتلاله لمصر، كما ظهر ضعف الإمبراطورية العثمانية أمام القوى العسكرية الأوروبية واستسلمت جيوش المماليك بعد معركة واحدة بجوار أهرامات الجيزة عام ١٧٩٨. ولكن خرج الفرنسيون من مصر بعد ثلاثة أعوام فقط بفضل المساعدة البريطانية الهائلة للدولة العثمانية. وكان ملائما للجبرتى وهو أحد مواطنى القاهرة وشاهد عيان لتلك الأحداث وآخر المدونين المسلمين التقليديين فى مصر أن يقول:

"لقد كان وجود الفرنسيس فى مصر غير محتمل على الإطلاق... وكان المسلمون يموتون من الخجل حينما يرون زوجاتهم وبناتهم وهن يسرن فى الطرقات سافرات الوجه وكأنهم ممتلكات للفرنسيس... وكان من الإساءة لهم أيضا مشاهدة الحانات التى ظهرت فى كل الأسواق، بل فى بعض المساجد أيضا... واستفادت حثالة السكان من الحرية الجديدة المتاحة لهم. ولكن عانت الصفوة والطبقة المتوسطة من كافة أنواع المضايقات".[٥]

---

(٤) وتعنى جبال الأسود بالأسبانية. (المترجم)

(٥) Chronique d'Egypt 1798-1804 ed and TvGastton Weit (cairo 1950) P.45

وكان ما حدث يمكن تكراره من جديد. ولكن الغريب أن ذلك لم يحــدث إلا بعد ثمانين عاما أخرى.

# الفصل الثانى

# أفريقيا جنوب الصحراء

## بلاد البانتو

إن جغرافية ومناخ أفريقيا جنوب خط الاستواء أقل بساطة بكثير من تلك الخاصة بالنصف الشمالى للقارة. ولكن، وباختصار شديد، فإن أراضى الإستبس المرتفعة الجافة تمتد جنوبا فى المرتفعات الأثيوبية عبر وسط شرق أفريقيا. ثم تعبر بعد ذلك فى اتجاه الجانب الغربى لشبه القارة وتنتهى فى صحراء كالاهارى فى الأراضى الجافة لبوتسوانا ودولة أورانج الحرة Orange Free State من جهة وأراضى ناميبيا Namibya من جهة أخرى. ولكن تمتد من جهة أخرى أراضى تتميز بالرطوبة والانخفاض من جنوب الكاميرون إلى النصف الشمالى لحوض الكونغو إلى بحيرتى تنجانيقا ومالاوى. وتستمر من هناك إلى وادى الزامبيزى جنوبا إلى ساحل المحيط الهندى وتلتف حول جنوب موزمبيق إلى ناتال. وبصفة عامة فإن بلاد الإستبس تلائم الرعى أكثر من الزراعة، وتكون بالتالى أقل سكانا. وكذلك فى الغابة الاستوائية فإن الزراعة لا تصلح إلا فى المناطق الخالية من الأشجار وبجوار شواطئ الأنهار وسواحل البحر حيث يمكن للضوء أن يدخل، وحيث يمكن المزج بين زراعة صغيرة وصيد السمك. كما أن أفضل ظروف إنتاج الغذاء توجد فى أراضى الحدود بين المنطقتين وبالذات فى منتصف شبه القارة، وتوجد هنا أكثر الكثافة السكانية. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر وجدت أعقد وأكثر النظم السياسية تركيزا.

وتوجد خاصية مهمة بالذات بالنسبة للشعوب القاطنة فى أفريقيا جنوب خط

الاستواء. وهى أنهم يتكلمون جميعا لغات قريبة للغاية من بعضها البعض من فرع لغوى يسمى لغات "البانتو" Bantu (من اسم عام "مونتو" Muntu) بمعنـى رجـل وجمعها "بانتو" Bantu الناس أو الشعب. وأقرب اللغات لها خارج المنطقـة هـى لغات جنوب غرب أفريقيا. والاستثناءات على تلك القاعدة أى الشـعوب التـى لا تتكلم لغات البانتو توجد كلها فى المناطق الجافة للشمال الشرقى (فى جهـات مـن كينيا وتنزانيا) والجنوب الغربى؛ حيث تكون أعمال الزراعة صعبة. ولذلك يبـدو بالتالى أن المتحدثين بالبانتو كانوا أول المزارعين فى ذلك الجزء من أفريقيا. أمـا "المهد" الذى تفرقوا منه فهو المنطقة ذات الأشـجار فـى شـمال غـرب الغابـة الاستوائية فى المنطقة التى هى اليوم وسط جنوب الكاميرون.

وربما بدأت الهجرة من حوالى ٣٥٠٠ عام، وانتشر البانتو الأوائـل جنوبـا من تلك المنطقة، بينما انتقلت جماعات أخرى عبر حوض نهر الكونغـو بواسـطة الأنهار إلى أن بلغوا أراضى السافانا جنوب الغابة، بينما وصل آخرون إلى مناطق الأشجار الخفيفة المجاورة للغابة، فى الشمال والشرق والجنوب. ومن تلك الخطوط الواضحة لانتشارهم تطورت فى البداية تقاليد بانتو غربية ارتبطـت بهـا القيـادة السياسية بالمهارة فى صناعة المعادن وبالذات فى صناعة الأدوات والأسلحة، ثـم (فيما بعد) تقاليد بانتو شرقية تميز بها الحكام بواسطة أملاكهم وقـدرتهم السياسـية على إدارة قطعان كبيرة من الماشية.

## البانتو الغربيون

أما بالنسبة للبانتو الغربيين فإن منطقة الأشجار الخفيفة الممتدة من٥٠٠ إلى ٧٠٠ ميل (٨٠٠-١٠٠٠كم) جنوب الغابة فإنها قدمت ظروفا تكاد تكون نموذجيـة لصناعة الغذاء فى عصر الحديد. وكانت الأمطار ملائمة ولكنها ليست كثيفة للغاية. ووجد صيد أسماك بوفرة فى الفروع الجارية شمالا لنظام ملاحة نهـر الكونغـو،

بالإضافة إلى صيد الحيوانات فى مناطق الغابات المجاورة لشواطئ الأنهار مع وجود مساحة أراض كبيرة دون أشجار بين مجارى المياه. وكانت المنطقة كلها ثرية بخام الحديد، كما وجدت رواسب وطبقات كثيرة من النحاس سواء شمال نهر الكونغو الأدنى فى ميندولى Mindouli وجنوبا فى كاتانجا. وفى ذلك الجزء من الإقليم شمال وجنوب الكونغو الأدنى أقامت شعوب تتكلم لغات الكونغو والمبوندو Mbundu والتى كونت دولا صغيرة تحت حكم أسر مالكة، وتخصصت فى تحويل الحديد والنحاس إلى أدوات وأسلحة. وفى فترة ما حوالى القرن الرابع عشر تمت هجرة محلية لمتحدثين بلغة كونغو مسلحين جيدا فى اتجاه الجنوب عبر نهر الكونغو الأدنى وهزموا المبوندو الشماليين. وأدى ذلك إلى إنشاء دولة كبيرة شملت معظم شمال أنجولا Angola الحالية. وعندما اكتشفها البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر كانت مملكة الكونغو فى عنفوان قوتها. وتوجد وثيقة من القرن السادس فى أرشيفات الفاتيكان تصف سلطة ملوك الكونغو بالعبارات التالية:

"يوجد على رأس مملكة الكونغو ملك للملوك وهو السيد المطلق لشعبه، ولا يجرؤ أحد أن يتدخل فى شئونه، ويحكم كما يريد، ولا يحكم لأى قانون، ويجب على رؤساء القرى بالذات الاهتمام بجباية الضرائب من أتباعهم والتى يستحقها الملك، ثم يحملها كل منهم إلى حاكم إقليمهم. ثم يحمل حاكم الإقليم بنفسه مرتب كل عام إلى العاصمة الملكية لسداد الجزية. وإذا ما سر الملك فيجيب بكلمة (ووت) أى لقد أحسنت. وفى تلك الحالة يفهم الحاكم أنه نال الرضا الملكى ويصفق كثيرا بيديه. وكتعبير عن سعادته فإنه يلقى نفسه أرضا ويغطى جسمه بالتراب. ويفعل خدمه الشيء نفسه ثم يأخذونه على أكتافهم ويسيرون به عبر المدينة ويمدحونه. ولكن إذا لم يقل الملك كلمة ووت فإنه يعود خائبا، ثم فى المرة التالية يهتم تماما بإحضار جزية أكبر. ولا تحدد قيمة تلك الجزية؛ إذ يحضر كل حاكم ما يقدر عليه. ولكن إذا لم يتصرف الحاكم بطريقة أفضل فإن الملك يوبخه بشدة ويعزله من

منصبه. ومثل هذا الرجل يتحول إلى فقر يضارع أفقر فقراء السود".[٦]

ولكن وبحلول القرن الثامن عشر فإن مملكة الكونغو قد تحولت إلى مجرد ذكرى. وخلال القرن الأول لاتصالها بالبرتغاليين فإنها قد مدت حدودها كثيرا بواسطة الحروب والغزو، ولذلك فإن البرتغاليين قد وجدوا شركاء أفضل فى تجارة العبيد فى ممالك المبندو المستقلة جنوب الكونغو، وأنشأوا بجوارها مستعمرة دائمة عام ١٥٧٥ على جزيرة لواندا Lunda، وهى نواة دولة أنجولا فيما بعد. وقام أوروبيون آخرون بالتجارة مع ممالك الفيلى Vili شمال نهر الكونغو، حيث نظم التجار المحليون طرق تجارة ناجحة تمتد لمسافات طويلة إلى الداخل، واستخدموا الأنهار كلما كان ذلك ممكنا. وتفككت مملكة الكونغو آنذاك إلى مكوناتها الأصلية فى البداية ثم إلى تقسيمات أصغر فيما بعد. وحينما توسعت المستعمرة البرتغالية ببطء شمال الساحل فإن الدول التى خلفت مملكة الكونغو قد أصبحت خلفية تجارية برتغالية حيث مارست عائلات من التجار نفوذا أكبر.

أما فى شرق منطقة الكونغو والميندو وعبر بحيرة تنجانيقا مباشرة فإن منطقة السافانا جنوب الغابة الاستوائية قد احتلها فرع آخر من شعوب البانتو الغربيين، وكان أهمها اللوبا Luba واللواندا.

وأقام اللوبا بجوار منابع نهر الكونغو المعروف هناك باسم اللوالابا والذى يتجه ناحية الشمال مع العديد من فروعه من هضبة كاتانجا الغنية بالنحاس، ويكون مجرى مياه بين نهرى الكونغو والزامبيرى. ويوجد شمال هذا الحاجز المائى وحيث يتجه نهر اللوالابا عبر مجموعة من أحواض الأنهار المعروفة بمنخفض الأويمبا Uyemba امتزاج ممتاز بين صيد الأسماك والزراعة، بالإضافة إلى وجود كفاءة متقدمة فى صناعة معدنى الحديد والنحاس مما أدى فى الألفية الثانية بعد الميلاد إلى وجود كثافة سكانية كبيرة للغاية. ونظم السكان أنفسهم فى مجموعات

(٦) Vatican document citedin Cuvelier and L'Jardin .L'Ancient congo d'apres les archives romaine (Brussels 1954) pp.33-4.

من الممالك الصغيرة تذكر المرء بنموذج الكونغو. ويبدو أن اللوبا قد كونـوا أول الدول. ولكن عند نهاية القرن الثامن عشر فإن أهم مملكتين قد كونتا مملكتا اللواندا على الغرب والجنوب. ومملكة مواتا يامفو التى شغلت كل الجانب الجنوبى الغربى لزائير الحالية، ومملكة مواتا كازمبى بجوار نهر لوابولا بجنوب كاتانجا الحاليـة. وكانت تلك الدولتان الكبيرتان ما هما إلا مركز مجموعة كبيرة من الدول الأصغر التى شملت كل جنوب زائير الحالية وشرق أنجولا وشمال زامبيا. وكـان ملـوك مملكتى اللواندا الكبيرتين والعديد من الدول المجاورة "ملوك الهيون" مثـل الـذين وجدوا فى دارفور ووادای (انظر فيما سبق الفصل الأول) والعديـد مـن الـدول الأخرى فى أفريقيا جنوب الصحراء، وكانوا يأكلون ويشربون سـرا، ويمارسـون الفحشاء الملكية مع شقيقاتهم الملكات، ويشاركون سلطة الطقوس أمهاتهم الملكات، ويستخدمون الوسطاء الروحانيين للاتصال بأجدادهم من الملوك. وكشعار لسلطتهم كانوا يستخدمون النار فى الفرن الملكى والتى كانت تنقل منه مشاعل مشتعلة إلـى مراكز حكم كل الزعماء التابعين. وكانت عواصم الملوك اللواندا، بالرغم من عـدم استمرارها مثل مدن غرب أفريقيا، مراكز هائلة للحكم والتجـارة. وكـان سـكان القصر عديدين لأن الملك كان لديه مئات الزوجات من كل عائلات البلاد الرئيسية. وكان رجال البلاط كثيرون، وأيضا العمال الفنيون المهرة مـن صـانعى الفخـار والحدادين والنساجين وصناع السلال وصناع الجعة وناقشى الأخشاب والصـيادين والتجار الذين يرتكزون حول العاصمة ويعيشون من الغذاء الذى ترسله الأريـاف المجاورة كجزية. ووصف الرحالة الألمانى "ليو فروبينيوس" Leo Frobinius تلك المدن عند زيارتها عام ١٩٠٦ بما يلى:

"حينما دخلت منطقة الكاساى Kasai وسانكورو وجدت قـرى مـا زالـت موجودة والتى تمتد طرقها الرئيسية على الجانبيين ولمسافة أميال وبها صفوف من أشجار النخيل. وكانت منازلها رائعة الزينة، كل منها تحفة فنية رائعة. وكان كـل رجل يحمل أسلحة فخمة من الحديد أو النحاس مزخرفـة مـن الـداخل وسـيوف

دمشقية. ووجدت فى كل مكان أقمشة وأنسجة حريرية. وكان كل كوب وكل أنبوب تدخين وكل ملعقة تحفة فنية أيضا يمكن مقارنتها بمنتجات أوروبا "(٧)

## البانتو الشرقيون

بالرغم أن شعوب البانتو الغربيين قد استقروا ناحية الجنوب إلى ناميبيا جنوب حزام نحاس كاتنجا فإنه قد وجد بينهم شعوب بانتو شرقية والذين توسع أجدادهم حول الحواف الشمالية الشرقية للغابة الاستوائية. وأحضروا قطعانهم من الخراف والماعز وأنشأوا نظاما مختلفا تماما من الاستيطان فى أوطان متفرقة وليس أبدا فى قرى مركزية.

وكانت مراكز استقرارهم المبكرة فى شرق أفريقيا هى "المنطقة الداخلية" بين بحيرات ألبرت وفيكتوريا وتانجانيقا. ومن هناك وخلال بداية الألفية الأولى بعد الميلاد انتشروا شرقا إلى ساحل المحيط الهندى وجنوبا إلى وسط وجنوب أفريقيا. وحينما زاد عدد السكان فإن البانتو الشرقيين تماما مثل أقرانهم الغربيين قد كونوا دولا ذات صبغ ملكية. ثم أدت عملية المنافسة والفتح بين الدول الصغيرة الأولى إلى ظهور دول أكبر. وفى المنطقة الداخلية وبحلول نهاية القرن الثامن عشر نمت ست دول كبيرة وهى بوجاندا وبونيورو وأنكولى وكاراجوى ورواندا وبوروندى مثلما يظهر فى خريطة (٤).

وبالرغم من عدم كونها فى حجم دول الحزام السودانى فإنها ربما كلها قد بلغ عدد سكانها نصف مليون إنسان أو أكثر. ومثل الدول السابقة على الإسلام فى السودان فلقد حكمهم ملوك مؤلهون يحكمون بواسطة حاشيات منظمة فى البلاط ورؤساء المناطق. مثل ما فى ممالك المواتا يامنو والمواتا كازمبرى، فلقد وجدت

(٧) L.Frobenius. Histoire de la citilization africaine (Paris 1952) P.15

عدة دول صغيرة حول الدول الأكبر، وسدد بعضهم الجزية لهذه المملكة الكبيرة أو تلك. ولكنها كانت عمليا مستقلة عنها كلها.

وشعر الرحالة الأوروبيون الأوائل عندما وصلوا إلى تلك المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر أنهم دخلوا عالما جديدا. فلقد ساروا ثمانمائة أو تسعمائة ميل (١٢٥٠-١٤٠٠ كم) من الساحل الشرقي عبر مناطق ضيقة وعرة لا يتعدى عرضها بضعة بوصات، وعبر أقاليم غير كثيفة السكان وحيث كانت المؤن صعبة المنال ومياه الشرب مشكلة كبرى. وفدوا في معظم سفرهم وكل يوم سفر إلى أرض أحد صغار الحكام واضطروا للتفاوض معه ليسمح لهم بالعبور. ثم وجدوا أنفسهم فجأة في عالم من الثراء والنظام. وهنا كانت رغبة الحاكم أو سلطته تمتد لمائة ميل بعيدا عن عاصمته. وكان رسله يسافرون عبر طرق عريضة مشيدة بطريقة حسنة إلى مركز الإقليم أو المنطقة التي يتوجهون إليها. وفي عام ١٨٦٢ أقام سبيك وجرانت Grant مع الملك رومانيكا من كاراجوى Karagwai الدائم الابتسام، بينما سارع الرسل بالسفر لإعلان وصولهم إلى كاباكا مويتسا Mutisa في بوجندا Buganda. وبعد منحهم جوازات سفرهم صاحبهم في بقية رحلتهم مرشدون ملكيون، كما تم إمدادهم بالطعام والمسكن في نهاية كل يوم سفر. وطورت شعوب البانتو الشرقية الأخرى دولا مركزية كبيرة في منطقة أخرى بين نهري الزامبيزي والليمبوبو في زيمبابوي وجنوب موزمبيق. وكانت منطقة غنية بالذهب والنحاس والعاج حيث تجار المحيط الهندي في القرن العاشر على الأقل. وبنيت في العصر نفسه تقريبا بعض المناطق السكنية كثيفة السكان والتي تحميها أسوار مبنية من الحجر مما يدل على كونها مدنا كبرى أو عواصم. وكانت أولى النماذج بجوار وادي الليمبوبو ولكن الموقع العالمي الشهير لزيمبابوي الكبرى قد شيد حوالي ١٥٠ ميلا (٢٤٠ كم) شمالا في منطقة ريمونة أساسا عند السفوح الجنوبية لهضبة زيمبابوي وأقام بها الناس. وتطورت تلك المدينة تدريجيا من منتصف القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الخامس عشر، وازدهرت إلى أن

تم هجرها فجأة. ثم ظهر مركز حكم جديد عند الحافة الشمالية للهضبة، وأشرف على وادى زيمبابوى حيث حكم ملك الملوك الذى يدعى المويني موتابا والذى امتلك قطعانا كبيرة من الماشية التى كانت ترعى فوق منطقة الهضبة، كما تسلم الجزية من صيادى الأفيال وتجار العاج فى وادى زيمبابوى. وبعد أن استعمر البرتغاليون الجزء الأسفل من الوادى فى القرن السادس عشر بدأوا فى التدخل فى صراعات الخلافة فى مملكة الموينى موباتا وساعدوا المرشحين الموالين لهم. ولذلك أصبحت الأسرة الملكية تحت التأثير البرتغالى فى نهاية القرن السابع عشر لدرجة أن أسرة حاكمة منافسة تسمى الروزفى Rozvi قد آل إليها الحكم فى دولتهم فى بوتوا Butwa وسيطرت على معظم هذا الإقليم فى القرن الثامن عشر. وبالرغم من أن العاصمة الوسيطة لزيمبابوى الكبرى قد وجدت فى تلك المنطقة إلا أنها لم تعد مهمة بالمرة. وشيدت عواصم الروزوى ناحية الشمال بين جويرو Gweru وبولاوايو Bulwayo. كما دلت دراسة آثارها مثل تلك الموجودة فى ناليتالى Nalitall والزولو إلى اكتشاف آثار من تلك الفترة.

## تجارة بانتو أفريقيا

تتميز دول البانتو وتختلف عن مثيلاتها فى الحزام السودانى لأفريقيا بأنها قد عزلت تماما عن العالم الخارجى ولم تحتك به أبدا. ووجدت دول البانتو الأكبر داخل القارة، وإلى القرن الثامن عشر لم تصلها أبدا أى تأثيرات إسلامية والتى كانت مهمة للغاية لكونها مظهرا مميزا للسودان. وانتشرت بعوضة التسى تسى لدرجة أن الدواب كانت غير متداولة بالرغم من وجود قطعان ماشية فى مناطق محدودة. ووجب حمل كل شىء على الأكتاف عدا النقل فى الأنهار. وبالقدر الذى نعرفه اليوم فإن الطرق المائية الوحيدة المتوغلة داخل القارة أثناء العصور الوسطى قد كانت تلك المنطقة بنهرى الزامبيزى والليموبو من ساحل جنوب

موزمبيق. وهنا كان العرب السواحليون فى كلوا Kilwa ومناطق أخرى شمالية يتاجرون بالأقمشة والأنسجة مقابل الذهب والعاج من القرن العاشر على الأقل. وحل البرتغاليون محل السواحليون العرب فى القرن السادس عشر فى الزامبيزى وبالتالى سقطت خطوط المواصلات بين أيديهم.

ولكن كان أهم مظهر فى المساهمة البرتغالية هو فتحهم للساحل الأطلنطى لبانتو أفريقيا على التجارة البحرية مع أوروبا وجنوب أمريكا. وكان أول أعمالهم فى ذلك الاتجاه الاتصال بمملكة الكونغو، حيث جعلوا من ملوكهم حلفاء لهم. كما أمدوهم أيضا بالمبشرين بالمسيحية والمعونة الفنية والعسكرية. ولكن تغيرت اهتماماتهم بعد مائة عام جنوبا إلى لواندا وبنجويلا حيث من الأسهل هناك جلب العبيد أكثر من الكونغو. فلقد احتاجوا إليهم بكميات متزايدة للعمل فى مزارع السكر فى مستعمرتهم فى البرازيل. وحصلوا على طلباتهم من العبيد من جهة بواسطة الحروب الصغيرة التى شنها حلفاؤهم الموبندو ضد موبندو آخرين مقيمين على بعد أكبر فى القلاع البرتغالية فى وادى كوانزا. كما حصل البرتغاليون على العبيد بواسطة الشراء من وكلائهم التجاريين الأفريقيين (ويسمون بومبيروس بالبرتغالية فى بومبى وهو سوق فى منطقة ماليبو) فى الأسواق الداخلية. ولاحظ تاجر الرقيق جيمس باربوت James Barbot عام ١٧٠٠ أنه:

"يمتلك هؤلاء العبيد عبيدا آخرين يتبعونهم، وربما كانوا مائة أو مائة وخمسين، ويحملون أغراضهم على رءوسهم إلى داخل البلاد. ويظل هؤلاء البومبيروس أحيانا لمدة عام فى الداخل ويحضرون معهم أربعمائة أو خمسمائة أو ستمائة عبد"(٨)

وبتلك الطرق اتصل البرتغاليون بطريقة غير مباشرة بمملكة اللواندا لمواتا يامبفو والدول الكثيرة التابعة لها. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر حصلت أهم

---

(٨) A.and J.churchill,Collection of voyages and travels (London 1732) vol. 5,p.522

ممالك اللواندا على الأسلحة النارية والملابس وباقى مواد الرفاهية الأوروبية، كمـا تطورت صناعاتهم بقوة من خلال التعلم من النماذج الأوروبيـة. فصـنع حـدادو اللواندا الفئوس الرائعة وأدوات قطع فى العصر التـالى للاتصـال بـالأوروبيين. وأصبح غذاء المانيوك (أوكاسافا) وهو محصول فـى أمريكـا الجنوبيـة أدخلـه البرتغاليون لإطعام العبيد المنتظر شحنهم إلى العالم الجديد سريعا، وقد كان الغـذاء الأصيل لكل منطقة جنوب زائير.

وكانت المنطقة المهمة التى ظلت بغير اتصال مع العالم الخارجى إلى نهاية القرن الثامن عشر هى المنطقة الداخلية. فتقع غربها الغابات الاسـتوائية، وشـمالا مستنقعات النيل، وشرقا هضاب كينيا التى يقيم بها الرعاة المحاربون مثل النانـدى Nandi والماساى Massiey. وكانت أسهل طرق الاتصال من الجنوب الشـرقى، ولكن مرت فترة طويلة حتى تطورت.

ولا يبدو أن المجتمعات العربية السواحلية على الساحل قـد كـان لهـا أى اتصال إلا مع الشعوب الساحلية ولم يتصلوا بغيرها من المقيمين شمال الزامبيزى. وبالتأكيد فإن البرتغاليين لم يعرفوا شيئا عن الداخل حتـى عـن طريـق الأخبـار المتداولة، وذلك عند احتلالهم لهذا الساحل في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ولم يبدأ الاتصال بالداخل فعلا إلا حينما استولى عرب عمان (فـى الخلـيج العربى) على شمال ذلك الساحل من البرتغاليين فى بداية القـرن الثـامن عشـر. وتطور الاتصال بالداخل آنذاك ولكن كان عملاء العمانيين هنا هم شعب النيماويزى فى غرب تنزانيا. والذين وجدوا طريقهم إلى الساحل لبيع العاج. وخـلال القـرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر استمر النيماويزى فى التنظيم والقيام بمعظم التجارة المحمولة فى شرق أفريقيا. وعبرت قوافلهم المنطقة كلها من كاتنجـا إلـى المحيط الهادى. وساروا مسافات طويلة بحمولات ثقيلـة، وكـانوا لا يـأكلون أو يشربون كثيرا فى الأحراش. ويروى الرحالة الأوروبيون الأوائل كيفيـة اسـتعداد

صبية النيماويزى لهذا الأسلوب الشاق فى الحياة بأن يحملوا حمولات صغيرة على أكتافهم عند تجوالهم فى قراهم. ويذكر التاريخ التقليدى أن أول شحنات الأطباق والأكواب والسكاكين والسلع القطنية قد وصلت إلى مملكة بوجندا فى قلب المنطقة الداخلية فى نهاية القرن الثامن عشر فقط.

كما تذكر التقاليد المروية أنه منذ ذلك العصر فصاعدا أن التجارة قد نمت باطراد وبسرعة كبيرة ووصلت فى جنوب بحيرة فكتوريا وعبر بلاد النيماويزى إلى ساحل زنجبار.

## جنوب أفريقيا: البانتو والبوير(٩) Boer

توجد منطقة أخرى من بانتو أفريقيا والتى لم يكن لها اتصال مباشر تقريبا بالعالم إلى نهاية القرن الثامن عشر ونعني بذلك منطقة جنوب الليمبوبو، وهى جمهورية جنوب أفريقيا اليوم. وأقامت هنا مجموعتان من الشعوب البانتو الشرقية وهما السوفو- تساوانا على الهضبة غرب جبال الدركنسبرج(١٠) Drahensberg وهى منطقة الترانسفال، ودولة أورانج الحرة فيما بعد وشعوب النجونى (الزولو والسوازى والبوندو والثومبو والإكسوزا (Xhosa) فى السهول الساحلية الخصبة المروية جيدا لناتال والترنسكاى Transkei. ولم تقم تلك الشعوب دولا مركزية مادام لها مجال للتوسع بقطع الأحراش واحتلال المناطق الهامشية. فلقد أقام السوفو

---

(٩) وتعنى كلمة Boer بالهولندية "الفلاح"، وهم المزارعون الهولنديون الذين استقروا فى جنوب أفريقيا. ويقابل تلك الكلمة Bonir بالألمانية. ويتكلم البوير أو الأفريكانز لغة مشتقة من اللغة الهولندية وتعتبر مجرد لهجة منها. ويتفاهم الهولنديون المعاصرون مع متحدثى الأفريكانز دون مشاكل ولا يتعدى الفرق إلا تبسيط قواعد اللغة الهولندية فى الأفريكانز. وتقترب منها كثيرا أيضا لغة الفلانيل Flanani فى شمال بلجيكا. وللغة الهولندية فى فروعها الثلاث أدب جميل يتميز بالحيوية والتعبير عن مجتمعات تتغير بسرعة فائقة. (المترجم)

(١٠) وتعنى Drahensberg جبال التنين بالهولندية. (المترجم)

فى تجمعات كبيرة شبيهة بالمدن ويسكن بها من حوالى ١٠,٠٠٠ إلـــى ١٥٠,٠٠٠ نسمة. وكثيرا ما شيدوا أسوارا من الأحجار حول تجمعاتهم ولكـــن ينمـــو إحـــداها لدرجة كبيرة فيتم إرسال مستوطنين لإقامة مركز آخر. أما النجومى فلقد أقاموا فى أماكن متفرقة ثم جمعت فى وحدات تحت قيادة زعيم يحكم حوالى ١٠,٠٠٠ مـــن رعاياه. ثم ينقسمون ثانية حينما يزداد عدد السكان كثيرا فى الوحـــدات السياســـية. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر فقط بدأت مجموعتان من النجومى اللتين تقيمـــان عند الحافة الشمالية لبلاد النجومى فى مواجهة مشكلة عدد السكان بتجنيـــد شـــبابهم فى كتائب عسكرية من أجل غزو وإخضـــاع جيـــرانهم. وســـوف تظهـــر تلـــك المجموعتان خلال بداية القرن التاسع عشر كأمم الزولو والسوازى. ولكن إلى ذلك العصر وبالرغم من النظم السياسية غير الثابتة الدعائم فإن بانتو جنوب أفريقيا يبدو أنهم قد عاشوا فى رغد من العيش نسبيا وبالذات بعد إدخال زراعة الشـــعير وهـــو محصول من العالم الجديد انتشر من محطات التجـــارة البرتغاليـــة فـــى جنـــوب موزمبيق. وعلق الزوار الأوروبيون الذين مروا بتلك المنطقة فى القرنين الســـادس عشر والسابع عشر ومعظمهم ناجون من سفن غارقـــة عنـــد الســـاحل المشـــهور بعواصفه الهائلة على القطعان الكبيرة للماشية. ولكنهم لاحظوا أيضا ندرة الأدوات الحديدية باستثناء المنطقة المجاورة لخليج ديلابوا. وأرســـل حـــاكم منطقـــة رأس الرجاء الصالح وهو سيمون فان در ستيل رسالة إلى رؤسائه فـــى هولنـــدا عـــام ١٦٨٩ يخبرهم فيها برحلة طاقم سفينة غرقت وهى الســـتافنيس. ووصـــف بـــلاد الماجوسيبى (وهم ذاتهم الأما خوسا) كما يلى:

"وتتكون ثرواتهم من الماشية والقطعان وأيضا النحاس والحديـــد. وتتميـــز بلادهم بالثراء، وهى كثيفة السكان ومليئة بالماشية. ولذلك لا تضـــطر الحيوانـــات الضارية لمهاجمة الإنسان لوجود الكثير من الماشية لالتهامها. ويحتفظون بمـــؤنهم تحت الأرض؛ حيث تظل صالحة وخالية من الحشرات لأعوام. وهم مهذبون للغاية فى علاقاتهم بالآخرين، ويتحدثون ويحيون بعضهم الآخر سواء كانوا شبابا أو كبار

السن، من الرجال والنساء حيثما يتقابلون. ويتساءلون من أين قدموا وإلى أين يتجهون؟ وما هى أخبارهم؟ وهل تعلموا أية أغانٍ أو رقصات جديدة. ويحب الرعايا ملوكهم ويحترمونهم كثيرا، كما يرتدون جلود حيوانات كاسرة كالفهود. ولا يجب القلق أبدا بشأن الطعام والشراب؛ إذ لديهم دار ضيافة للمسافرين فى كل قرية، حيث لا يسكنون فقط بل يطعمون أيضا ".(١١)

وسوف يمر أكثر من قرن قبل أن تتصل المستعمرة الهولندية التى أنشئت عام ١٦٥٢ فى منطقة رأس الرجاء الصالح بشعوب البانتو الشرقية. وكانت ولاية رأس الرجاء الصالح آنذاك مازالت بلادا للخوى Khoi (أو الهوتنتوت) أو السان San (البوشمان أو رجال الأحراش) وهم السكان الرعاة والصيادون السابقون فى وجودهم قبل البانتو والذين اقتصر وجودهم آنذاك على الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة، حيث كانوا سكانها الرئيسيين فى الماضى. ولم يتوسع المستوطنون الهولنديون فى منطقة رأس الرجاء الصالح داخل البلاد إلا ببطء، وطردوا البوشمان وحولوا الخوى إلى خدم ورعاة لهم بعد تحطيم نظامهم القبلى بالتأثير المزدوج للمستعمرين ووباء الجدرى. وازدادت قوة العمل بواسطة العبيد الذين أحضروا من السواحل الشرقية والغربية لأفريقيا والممتلكات الهولندية فى جزر الهند الشرقية. وازدادت أعداد المستوطنين الهولنديين وعبيدهم بنفس النسبة تقريبا؛ إذ وجد حوالى ١٧,٠٠٠ لكل منهما فى نهاية القرن الثامن عشر. وبدأ الزواج المختلط بين مختلف المجموعات القريبة فى ولاية رأس الرجاء الصالح: أوروبيون وزنوج وخوسيان ومالاويون، مما أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور السكان الملونين هناك. ولم يواجه الأفريكانز (هولنديو منطقة رأس الرجاء الصالح) والبانتو بعضهم البعض عبر نهر الفش إلا حوالى عام ١٧٧٠م. وكان كل منهما يسرق ماشية الآخر ليلا ثم يتجادلون لإعادتها نهارا. وفى عام ١٧٩٥ استولى البريطانيون على

---

(١١) D.Moodie, The Record ora Series of official porpers relative to the Condition and treatment of the Native Tribes of South Africa 1838-1842 (Amesterdem 1960) vol.Ip.431

مستعمرة رأس الرجاء الصالح من الهولنديين فى عصـــر الحـــروب النابوليونيـــة، وأصبحت مشاكل الحدود الشرقية آنذاك خطيرة ومثيرة للتهديد. ولكن كـــان يمكـــن حلها إذا توافر صدق النية عند الطرفين والإدارة الحاسمة فى الاحتفاظ بحدود دائمة بين مستعمرة رأس الرجاء الصالح وجيرانها البانتو. ولكن حينما عاد البريطـــانيون نهائيا عام ١٨٠٦ فإن الوضع على الحدود كان قد ساء لدرجة لا يمكن للمفاوضات السلمية حلها، كما أن السيطرة عليه قد أصبحت مستحيلة.

## الساحل الشرقى: العرب والسواحليون

وفى نهاية القرن الثامن عشر ظلت أفريقيا البانتو منطقـــة منعزلـــة للغايـــة مقارنة بمعظم أفريقيا شمال خط الاستواء. وكانت المنطقة الوحيدة التـــى اتصـــلت لفترة طويلة بحضارة متقدمة ذات آداب مكتوبة وديانة عالمية هى الساحل الشرقى لشرق أفريقيا. وهنا عرف الجغرافيون الإغريق وجود مناطق استيطان تجارية فى القرن الأول بعد الميلاد. كما وجدت آثار مساجد مبكرة مبنية مـــن الطـــين تثبـــت الوجود الإسلامى منذ القرن الثامن أو التاسع. وأنشأ التجار العرب القـــادمون مـــن البحر الأحمر أو الخليج العربى مناطق استيطان تجارية. وازدهـــر بعضـــها منـــذ القرن العاشر لدرجة أنها شيدت مبانيها العامة من كتل الأصداف الموجودة بكثـــرة على الساحل. وتعلم الشعب السواحلى وربما كان من عناصـــر البـــانتو الشـــرقيين المقيمين فى أقصى الشمال فى فترة مبكرة صناعة القوارب المبحرة فـــى البحـــر والسفن الصغيرة. كما تولى مقاليد التجارة الساحلية. وقدم العرب عناصر الإبحـــار طويلة المدى والعابرة للمحيطات. وأقام السواحليون الوطنيون - أكثر من العرب- ثلاثين أو أربعين مدينة ساحلية انتشرت على ســـواحل كينيـــا، تنزانيـــا وشـــمال موزمبيق. وتعتبر لغة السواحلى بدون شك لغة بانتو شرقية بـــالرغم مـــن وجـــود بعض المئات من الكلمات العربية والتى دخلت العديد منها تقريبا منذ فترة بسيطة.

واعتنق معظم سكان المدن السواحلية فى القرنين السابع والثامن الإسلام. وجعلهم هذا العامل أكثر من أى عنصر لغوى أو عربى آخر يشعرون بالاختلاف وبالتفوق على جيرانهم من شعوب البانتو الأخرى. ولكن كان تأثير تلك الحضارة السواحلية العربية محدودا للغاية ولا يتعدى الحزام الساحلى. ولكن سبق التجار السواحليون العرب البرتغاليين على الزامبيزى؛ حيث شيدوا موانئ نهرية مثل سينا Sena وتيتى Tete.

وهنا حرض السواحليون العرب المقيمون فى بلاط الوتابا موينى على قتل الرسول الكاثوليكى الرومانى جونز الودى سليفرا Silveira عام ١٥٦٩، مما أدى بالبرتغاليين إلى بدء حملة لإبادتهم. ولكن فى أماكن أخرى وإلى نهاية القرن الثامن عشر، فإنه لا تكاد توجد إشارة إلى أوجه نشاط السواحليين العرب إلى أكثر من بضعة أميال فقط من ساحل المحيط الهندى.

## البرتغاليون فى أفريقيا جنوب خط الاستواء

حضر البرتغاليون بعد السواحليين العرب وإن اقتصر نفوذهم على مملكة الكونغو، وأودية الكوانزا Kwanza والزامبيزى وعلى بعض الجزر القليلة أمام الساحل، ويشمل ذلك لواندا وموزمبيق وكيلوا Kilwa وممبسا. واعتنق بضعة الآلاف من الناس، ويشمل ذلك الأسرة الملكية، الديانة المسيحية. وكان ملك البرتغال يتراسل مع ملك الكونغو كمساو له ويخاطبه بـ"الأمير والملك القوى للغاية والمبجل شقيقى". وظل العديد من شعب الكونغو مسيحيين لثمانية أو تسعة أجيال إلى أن انقطعت آخر العلاقات والصلات مع أوروبا نظرا للحروب والصراعات التى نشبت داخل البلاد منذ نهاية القرن السابع عشر وبعدها. وعند كوانزا، وأيضا عند الزامبيزى فضل عشرات الآلاف من الأفريقيين أن يروا أنفسهم كرعايا أو حلفاء للبرتغاليين أكثر من أى دولة أفريقية وطنية. وربما اعتنقت

أغلبيتهم المسيحية ولكن لم تحصل إلا أقلية ضئيلة على ثقافـة لغويـة مكتوبـة أو اعتنقوا أساليب الحياة البرتغالية فى الحياة والحضارة. ولكن على أى الأحوال فلـم تكن العادات البرتغالية فى مناطق استيطان نائية فى أنجـولا وموزمبيـق مثيـرة للإعجاب [١٢]. وبطريقة أو بأخرى وسواء بالغزو أو فرض الحماية فإن البرتغاليين قد دمروا معظم الدول الأفريقية التى اتصلوا بها مباشرة. ولكن كان تأثيرهم غيـر المباشر أكثر بكثير على هؤلاء المقيمين على مسافة أبعد قليلا منـهم. ولكـن دون شك شجع انفتاح التجارة فى المحيط الأطلنطى على توسع الدول الأفريقية فى داخل أنجولا وموزمبيق تماما مثلما حدث فى غرب أفريقيا. وأصاب التدخل البرتغـالى الموانا موتابا بالتدهور، لكن ساعدت الظروف المواتية للأسرة الملكية فـى بوتنـا Butna فى أخذ مكانتهم وإنشاء أول نظام جمركى فعال، وترتب على إنتاج الذهب فى هضبة الزامبيزى. ومرة أخرى دمر البرتغاليون مملكة الكونغـو، ولكـن أدى وجودهم فى أنجولا بالتأكيد إلى صعود أسرة الموانا يامفو فى الداخل. فكـل مـن امتلك أسلحة نارية امتلك القوة. ومن امتلك الملابس المصنوعة من القمـاش فلقـد امتلك سلع الرفاهية ليكافئ بها رعاياه المخلصين.

ويحصلون على تلك السلع مقابل العبيد والعاج ويمكن إرسالهم ونقلهم إلـى أسواق الحدود البرتغالية بواسطة دول لديها صيادين مسلحين جيدا وطـرق قوافـل يمكن حمايتها. وكانت هذه الدول فعلا قد أقامها وحكمها حكام على أنماط أفريقيـة

(١٢)واستمر ذلك الأمر من نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا. ثـم بـدأت اللغة البرتغالية فى الانتشار داخل المستعمرات البرتغالية بعد زيادة الهجرة البرتغالية إليها ثم محاولـة السلطات الاستعمارية البرتغالية استمالة الطبقة الأفريقية المثقفة بمنحها الحقـوق السياسـية وبعـض المزايا الاقتصادية فى القرن العشرين، وهم الذين تقبلوا اللغة والحضارة البرتغالية وإن كـان عـددهم قليلا للغاية.

ولكن استقلت المستعمرات الأفريقية الخمس وهى أنجولا وموزمبيق وغينيا بيسـاو (غينيـا البرتغاليـة سابقا) جزيرتى فرناوبو وبرنسيبى ،و جزيرة الرأس الأخضر بعد ثورة عـام ١٩٧٤ فـى البرتغـال. وأدى ذلك إلى انتشار هائل للغة البرتغالية داخلها فى الثلاثين عاما الماضية، بل يكـاد يصـل كتابهـا الأدبيون إلى مستوى العالمية. ولذلك يبدو أن ما يحث فى أفريقيا الناطقة بالبرتغالية الآن يتشابه إلى حد كبير مع ما حدث فى البرازيل منذ القرن التاسع عشر. (المترجم)

بحتة. فلقد كانت دول المواتا يامفو والمواتا كازيبى والروزفى مامبو Mambo يحكمها "ملوك مؤلهون" كما كانت نظمهم السياسية ذات طابع أفريقى بحت. ولكن لا يمكنهم أبدا التطور مثلما حدث دون وجود البرتغاليين فى لواندا وعلى الزامبيزى.

## مدغشقر

تقع جزيرة مدغشقر الكبيرة على مسافة ٣٠٠ ميل (٥٠٠كم) من ساحل موزمبيق، وتقدم مثالا آخر على أنه من الأفضل الإقامة بعيدا عن الأوروبيين عن الاتصال المباشر بهم. وظلت مدغشقر غير مأهولة حتى بداية العصر المسيحى ثم وصل إليها مهاجرون بحريون فى منطقة جنوب شرق آسيا والأسلوب بنفسه الذى حدث فى جزر المحيط الهادى. فيسافر المهاجرون فى قوارب طويلة قوية ويحضرون معهم تقاوى نباتاتهم المحلية المدرة للطعام وبالذات الموز والأرز والتارو Taro. وسادت لغتهم المالاجانية وكانت أقرب اللغات إليها فى جزيرة بورنيو الإندونيسية – بحيث تكلم بها كل المهاجرين التاليين وسادت بينهم. وبالرغم من أن مدغشقر لا تملك عاجا ولا معادن ثمينة إلا أنها صدرت مواد غذائية فى إطار التجارة الساحلية للسواحليين العرب الذين أنشأوا مستوطنات فى الجزيرة فى القرن الحادى عشر. وربما كنتيجة لهذا الاتصال استقر مهاجرون أفريقيون من سواحل موزمبيق على الساحل الغربى للجزيرة.

واستورد البرتغاليون والهولنديون تموينهم من تلك الجهات فى رحلاتهم إلى الشرق الأقصى. ولكن لم تلعب مدغشقر دورا مهما فى تجارة العبيد إلا فى القرن الثامن عشر بعد إدخال زراعة البن فى جزر موريشيوس وريونيون[١٣] Riunion المجاورة.

---

(١٣)ويلاحظ أن جزيرة ريوينون Riunion فرنسية حتى الآن، حيث فضل سكانها هذا الوضع إلى أيامنا الحالية. (المترجم)

وكان رد فعل المالاجاسى لتلك التجارة شبيها برد فعلا الشعوب الأفريقية لكل أعمال التجارة. فلقد توسعت أقوى الدول تسليحًا من بين العديد من الدول الصغيرة على حساب جيرانهم الأضعف، ثم قاموا ببيع أسراهم كعبيد إلى الأوروبيين الذين يتكونون هنا من قراصنة من كل الشعوب البحرية الأوروبية، وظهرت بعض الدول القوية بمساعدة الأسلحة النارية الأوروبية وبالذات دولة شعب الهوفا والذى كان موطنه منطقة صغيرة جيدة الرى حول العاصمة تاناناريف فى منطقة مرتفعة فوق الهضبة الوسطى. وتوسع الملك المحارب العظيم نامبوينا فيما بين أعوام ١٧٨٧ و ١٨١٠ وقام بأعمال غزو منهجية وتوسع سياسى هائل. ولذلك سيطرت الدولة التى يحكمها الهوفا عند وفاته على معظم وسط الجزيرة. ورفع نامبوينا مركزه فى داخل الجزيرة، ومد خطوط المواصلات الداخلية ووطد دعائم مملكة قوية مركزية الحكم.

ولذلك ظل النصف الجنوبى لأفريقيا فى حياته العادية حتى نهاية القرن الثامن عشر تماما مثل النصف الشمالى. ولكن تعاظم وجود تأثير أوروبى أكبر فى الجنوب يوازى ذلك التأثير الإسلامى السائد فى الشمال. وكانت المناطق التى يحكمها الأجانب على الأرض الأفريقية – باستثناء واحد – قليلة الحجم وبدون أهمية تذكر. وأثبتت النظم الأفريقية من جهة أخرى إنها قادرة على التأقلم وإعادة التجمع لاستيعاب الفرص الاقتصادية الجديدة التى أحضرها الأجانب. ووجدت معظم الأسلحة الحديثة التى دخلت أفريقيا عن طريق التجارة طريقها إلى أيدى الحكام التقليديين واستخدمت لتدعيم النظم القائمة. ولكن كان الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة هو المستعمرة الهولندية عند رأس الرجاء الصالح، حيث إن غياب الاستيطان الأفريقى هنا والذى اقتصر على بعض الصيادين والرعاة المتجولين قد ترك فراغا سكانيا محليا لا يوجد ما يقارنه فى القارة. ولكن لم تهدف القوى الأوروبية حتى ذلك العصر إلا إلى إنشاء محطة إمداد وتموين فقط عند رأس الرجاء الصالح لتموين ملاحتها عبر المحيطات حتى يمكن الدفاع عنها بسهولة

ومنع الدول المنافسة من استخدامها. ولذلك تحول بعض المئات ثم فيما بعد بعض الآلاف من الأفارقة من خدمة تلك المحطات إلى مستوطنين أفريقيين، وبدأوا في النمو والانتشار تماما مثلما فعل المستوطنون الأوروبيون على سواحل أمريكا الشمالية. وكانت منطقة شبه جزيرة رأس الرجاء الصالح تتمتع بمناخ البحر المتوسط.

وأدى وجود منطقة مناخ البحر المتوسط حول شبه جزيرة رأس الرجاء الصالح إلى جعلها غير صالحة لمزارعي الحبوب الأفريقيين. وجعلها ذلك الأمر كعب أخيلاس[١٤] أفريقيا، ولكن لم يتنبأ أحد بالمرة لذلك الأمر في عام ١٨٠٠.

---

(١٤)أخيل أو أخيليوس بطل الملحمة الشعرية للشاعر هوميروس في القرن الثامن قبل الميلاد وهي "الإلياذة". وكانت والدته من الآلهة ووالده من البشر وكان لا يقهر ولا يهزم. ولكن كان موطن ضعفه الوحيد كعب قدمه وهو المكان الذي أطلق عليه عدوه سهما قاتلا وقتله. (المترجم)

# الفصل الثالث

## انفتاح أفريقيا (١): من الشمال والشرق

كتب المؤرخون تاريخ أفريقيا فى القرن التاسع عشر أساسا على أنها فترة زاد الأوروبيون بها نفوذهم وقوتهم استعدادا للغزو فيما بعد. ولكن يجب اعتبارها فترة ساعدت على تموين تزايد للغاية للأسلحة النارية فى أفران جديدة تعمل بالفحم وصناعات أقمشة رخيصة من مصانع تدار بالبخار فى البلاد الصناعية، حيث إن التجارة العالمية قد اندفعت بشدة إلى أفريقيا بحثا عن فرص التصدير فى إطار وسائل النقل القليلة المتاحة. وفى معظم القرن التاسع عشر كان وكلاء هذا الضغط هم الحكام وتجار المناطق الساحلية ويشمل ذلك أولا وبالذات حكام البلاد الإسلامية المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

### محمد على (١٨٠٥-١٨٤٩): إعادة إحياء تجارة البحر الأحمر

فى كل تلك المنطقة من العالم فإن غزو الفرنسيين واحتلالهم لمصر بين أعوام ١٧٩٨ و١٨٠٠ قد اعتبر نقطة تحول. وأظهر انتصار نابليون الحاسم فى معركة الأهرامات التدنى العسكرى الفنى للإمبراطورية العثمانية كلها. ولذلك، ومثل العديد من مثل هذه الانتصارات فى التاريخ، فلقد أدت إلى رغبة جامحة للمهزومين فى تعلم مهارات المنتصرين. ولذلك وبعد نهاية الحروب النابليونية بقليل وجد المعلمون العسكريون الفرنسيون فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها. وبالإضافة إلى كتبهم العسكرية فإن الأذكياء وأصحاب الطموح بين طبقة الضباط

الأتراك قد قرأوا كثيرا فى التاريخ الأوروبى والفلسفة السياسية. وقدمت مصر بالذات بعد عصر نابليون قائدا مميزا استطاع فهم معنى الأحداث وتطبيق الدروس التى تعلمها. ولذلك سيطرت شخصية محمد على باشا الكبير على التاريخ – ليس فقط تاريخ مصر – بل ذلك الخاص بكل شمال شرق أفريقيا ومنطقة البحر الأحمر أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر. وجمع هذا الرجل العظيم بين مهارات الحكام الشرقيين المستبدين وفهم عميق لعالم أوروبا المختلف تماما. وكان محمد على رجلا ذا طابع جذاب وعنف لا حدود له، مدير ناجح ودبلوماسى ذكى. وبالرغم من عدم كونه قائدا عسكريا فذا بنفسه إلا أن العديد من أبنائه كانوا قادة ممتازين. واهتم قبل كل شيء بتدعيم موقفه كوال عثمانى لمصر، وأن يجعل تلك الرتبة وراثية فى أسرته. ويضاف إلى ذلك إعادته للنظام والرخاء فى منطقة البحر الأحمر وقدم لمصر إطار الدولة الحديثة.

ولد محمد على عام ١٧٦٩ فى مقدونيا، إحدى الولايات العثمانية فى البلقان، ووصل مصر لأول مرة كضابط فى القوات العثمانية التى أرسلت هناك لصد الحملة الفرنسية، وبمساعدة فيالق الجنود الألبان الموالين له شخصيا بدلا من السلطان العثمانى البعيد فإنه استطاع بحلول عام ١٨٠٥ أن يكون أقوى القادة العسكريين فى القاهرة. وتم تعينه فى العام التالى واليا على مصر (كلمة تركية تعنى: نائب السلطان، الحاكم) بواسطة السلطان.

وكانت سلطته هشة فى بداية الأمر نظرا لوجود جماعات كثيرة معادية له. ولذلك تصرف بحزم بالغ، ففى عام ١٨١١ جمع معارضيه بدعوة كبار الأمراء المماليك إلى مأدبة فى القاهرة وقتل ٣٠٠ منهم فى زقاق ضيق يؤدى إلى خارج القلعة عند عودتهم. وقد عمق سلطته فى مصر آنذاك ولذلك كرس جهوده فى الأعوام الثمانى التالية فى تأمين منطقة البحر الأحمر. وكان يعنى ذلك قبل كل شيء القضاء على ثورة الوهابيين، وهم أتباع جماعة إسلامية متزمتة ظهرت بين بدو الصحراء العربية. ورفض القادة الوهابيون سلطة الحكومة العثمانية،وأربكوا

قوافل الحج السنوية المتجهة إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة. وقضت جيوش محمد على على تلك الثورة فى الحجاز وهزمتهم نهائيا فى قلب الجزيرة العربية عام ١٨١٨. وأعاد محمد الديار المقدسة لسلطة سيده السلطان. وظلت حاميات المدن العثمانية في سواكن ومصوع على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر تحت السيطرة العثمانية إلى نهاية حكم محمد على حينما أجرها السلطان إلى مصر عام ١٨٤٦. وتم ضمها إلى السودان المصرى نهائيا عام١٨٦٥ فقط.

ولكن أدت العمليات المبكرة لمحمد على فى منطقة البحر الأحمر إلى حدوث إحياء كبير للحج، بل ازدادت التجارة بطريقة أكبر. وبدأ البريطانيون فى استخدام طريق البحر الأحمر للاتصال السريع مع الهند، كما تحول ميناء جدة، الميناء العثمانى فى الحجاز، مؤقتا إلى أهم مدينة تجارية بين بومباى والقاهرة.

وأدى ذلك أيضا إلى إحياء طرق التجارة المحلية المتجهة للداخل على الجانب الأفريقى من البحر الأحمر وبالذات تلك المؤدية إلى الهضاب الأثيوبية. وأرسل الرقيق من النساء الغاليات الثمن إلى الحجاز وحيث يقوم بها طبقة الحجاج الأكثر ثراء. ووجد طلب كبير فى الحجاز وفى أماكن أخرى من العالم الإسلامى على المسك المستخرج من غدد القط الأرقط الموجود أساسا فى ممالك السيداما. كما حدث ازدهار مماثل فى تجارة الذهب من إيناديا فى الهضاب الجنوبية الغربية، وأيضا فى أشجار البن الرائعة التى تنمو فى كل منطقة الهضاب. وأدى هذا الرخاء الاقتصادى وبدرجة كبيرة إلى استعادة الدولة الأثيوبية (فى المناطق الشمالية لتيجرى وأمهارا Amhara) والدولة القوية التابعة لها فى شوا Shoa لعافيتها فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع العاشر. ومكنت زيادة التجارة حكام تلك البلاد من إعادة تجهيز جنودهم بالأسلحة النارية بدلا من الرماح.

## التوسع المصرى فى السودان

من البحر الأحمر وجه محمد على اهتمامه إلى السودان فى عام ١٨٢٠. ولقد استهلكت الحملات العربية العديد من القوات، ولذلك رغب فى الحصول على إمدادات كبيرة من الجنود الزنوج العبيد فى شرقى السودان لجيوشه. ولم تستطع سلطنة الفونج Fong إبداء أدنى مقاومة، وكانت قد فقدت كل سيطرتها على شمال السودان. كما أن دنقلة Dongola كانت فى أيدى مجموعة من المماليك الذين هربوا من بطش محمد على فى مصر. واستطاع ابنه إسماعيل أن يتقدم بسرعة محاذيا نهر النيل ثم هزم المماليك فى دنقله ودخل عاصمة الفونج سنار دون مقاومة عام ١٨٢١. وتم خلع سلطان الفونج وحصل هو وعائلته على معاش من مصر. ونشبت ثورة قصيرة عام ١٨٢٢ قتل بها إسماعيل. وبعد القضاء عليها تم إنشاء العاصمة السودانية فى الخرطوم عام ١٨٢٤ عند التقاء نهرى النيل الأبيض والأزرق، وظلت السودان تحت الحكم المصرى إلى ثورة المهدى فى ١٨٨١-١٨٨٤.

ولكن لم تمتد المزايا الاقتصادية التى حصلت عليها مصر وسواحل البحر الأحمر من حكم محمد على إلى السودان بصفة عامة. ولم تنجح محاولات الإدارة المصرية لزيادة أنواع الإنتاج الزراعى بواسطة توطين مزارعين مصريين فى الجزيرة حول سنار. وفرضت الحكومة أيضا ضرائب منتظمة على السكان المتحدثين بالعربية فى وادى النيل فى الشمال. وأصبح بعضهم ثريا للغاية عن طريق عملهم فى حركة الملاحة الهائلة التى نمت وتطورت على النهر. كما أصبح غيرهم أكثر ثراء من الاشتراك فى تجارة العاج والعبيد فى جنوب السودان. وقدمت القبائل البدوية فى الصحارى الشرقية والغربية لنهر النيل أعدادا كبيرة من الجمال وباقى الحيوانات الأليفة والتى - بعد العاج والعبيد - قد كونت معظم صادرات السودان. ولكن تركزت كل المجهودات المهمة للحكومة المصرية على المنطقة شمال الخرطوم. وكتب محمد على إلى أمين خزانته عام١٨٢٥ "أنت تعلم

أن غرض كل جهودنا وهذه التكاليف الهائلة هى الحصول على زنوج، فقم بتنفيذ أغراضنا فى هذا الموضوع الجوهرى ". ولذلك أرسلت حكومة الخرطوم سنويا حملات عسكرية جنوبا إلى دار فونج Fong وغربا إلى كردفان وجبال النوبة فى غارات رسمية لجلب العبيد. ثم تعود ومعها حوالى ٥٠٠٠ أسير لكل منها. ولكن أوقف الشيلوك بمملكتهم المركزية على النهر الأبيض شمال فاشودة، ولفترة،توسع المصريين ناحية الجنوب. ولكن كان محمد على – لرغبته فى اكتشاف الذهب – يحث ولاته دائما على الاتجاه جنوبا، وزار السودان بنفسه عام ١٨٣٨ لتشجيع تلك الجهود. واستطاع أحد قادته العسكريين البحريين وهو أحد الأتراك ويسمى سالم فى القضاء على مقاومة الشيلوك فى مجموعة من الحملات موازية للنيل الأبيض. وأثبت إمكانية الإبحار فى النهر لمسافة ٩٠٠ ميل(١٦٠٠كم) جنوب الخرطوم إلى جوندوكور وفى بلاد البارى بجوار الحدود السودانية – الأوغندية الحالية. ولكن لم يتم حلم اكتشاف الذهب. وبدلا منه ظهرت أهمية منطقة مساحتها مليون ميل مربع مليئة بالأفيال بينما سكانها لا يعرفون شيئا عن تنمية تجارة العاج. ولذلك تطورت التجارة وتوغل التجار بسرعة مع وجود شركات أوروبية فى الخرطوم أساسا. وقاومت تلك الشركات عن طريق قناصلها محاولة الحكومة المصرية احتكار تجارة العاج.

وتوازنت القوى المتاحة للتجار والسكان المحليين فى البداية تقريبا. وكان التجار فى قواربهم المسلحة أقوى ماداموا بجوار النهر ولكن تفوق السكان المحليون برا. وإذا استمرت تلك الأوضاع فإن تبادل السلع – بالرغم من عدم تكافؤ قيمته – قد ظل يتم بهدوء وسلام. ولكن سرعان ما وصل الأمر إلى عدم وجود أفيال بجوار شواطئ النهر، كما حصل السكان المحليون على كل حاجتهم من الأدوات النحاسية والأكواب الرخيصة. ولذلك وجب آنذاك مغادرة شواطئ النهر وإيجاد سلع جديدة تثير اهتمام سكان الداخل الذين كانوا أقل حضارة من أقرانهم بجوار النهر. ولكن واجه التجار الأحوال الجديدة بإحضار جماعات من

العرب المسلمين التابعين لهم وجندوهم فى وادى النيل شمال الخرطوم. ووضعوا هؤلاء الرجال فى معسكرات يسمى كل منها "الزريبة" والتى انتشرت فى كل مناطق السود عند النيل الأبيض وبحر الغزال. ولم يوجد فائض من الطعام لهم ولذلك، اضطروا للهجوم على القرى للتموين. وكان السكان المحليون أو معظمهم رعاة من شعوب النيل واحتياجاتهم المادية بسيطة للغاية ولم يملكوا إلا الماشية ولا شىء غيرها. وتوجهت عصابات مسلحة لنهب القطعان ثم تمت مبادلتها (كثيرا مع الناس الذين سرقت منهم) مقابل العاج والعبيد. ووصف بيثريك، القنصل البريطانى فى الخرطوم، الوضع عام ١٨٦٣ بما يلى:

"وبدلا من إحضار بضائع أكثر قيمة وحضارة مثل أدوات تناول الطعام، أو أقمشة لصناعة الملابس، كبنود لمبادلتها – وذلك حينما بدأت قيمة أدوات الزينة الرخامية والنحاسية فى فقدان قيمتها وجاذبيتها – إلا أن التجار قد أساءوا إلى أنفسهم بأن توجهوا للإثراء عن طريق نهب وتدمير قبيلة بعد أخرى".(١٥)

وفى نهاية ستينيات القرن التاسع عشر انتشر نظام "الزريبة" فوق كل المنطقة الواسعة لنظام مياه النيل والكنغو. وشمل ذلك ليس فقط جنوب غرب جمهورية السودان الحالية ولكن أيضا النصف الجنوبى لتشاد ومعظم جمهورية أفريقيا الوسطى. واستطاع أحد التجار المحاربين، ويدعى الزبير رحمت منصور، الذى انطلق من الخرطوم عام ١٨٥٦ أن يجند بعد عقد من الزمان ألف رجل مسلح، وأن يصدر حوالى ١٨٠٠ عبد كل عام، بالإضافة إلى كمية كبيرة من العاج مستخدما طريقا عبر كردفان بعيدا عن كل نقط التفتيش عند وادى النيل الأعلى. وفى عام ١٨٧٣ اعترفت به الحكومة المصرية وعينته حاكما لولاية بحر الغزال، ثم أمدته بحامية صغيرة من القوات النظامية مقابل جزية من العاج قيمتها حوالى ١٥٠٠٠ جنيه إسترلينى كل عام. وفى عام ١٨٧٤ قام الزبير بغزو مملكة كردفان

---

(١٥) J.Petherick,Travels in central Africa and Explortion of the white Nile Tributaries 1869 (London 1869) vol.I,p229.

وقتل سلطانها واستولى على طرق القوافل عبر الصحراء المؤدية إلى مصر وطرابلس.

## محمد على والقوى الأوروبية

فى عشرينيات القرن التاسع عشر أصبح محمد على أقوى من سيده السلطان العثمانى. وفهم أهمية القوة البحرية بين القوى العسكرية للدول الأوروبية، ولذلك قام بإنشاء البحرية المصرية فى البحر المتوسط وبتكاليف كبيرة. ونشبت أول ثورة كبرى عام ١٨٢١ فى الإمبراطورية العثمانية حينما ثار اليونانيون مطالبين باستقلالهم. ولم يكن السلطان على قدر كاف من القوة لإخماد الثورة، واستدعى محمد على لقمعها. واستطاعت القوات المصرية بسرعة التغلب على الثوار فى جزيرة كريت. وفى عام ١٨٢٤ أبحرت حملة عسكرية كبيرة تحت قيادة ابن محمد على الأكبر إبراهيم باشا من الإسكندرية إلى بلاد اليونان. وانتصر إبراهيم انتصارا باهرا فى المورة (جنوب اليونان) لدرجة أن الثورة اليونانية كانت على وشك الانهيار. وهنا هددت روسيا بالتدخل لصالح اليونانيين المسيحيين. ولتفادى ذلك أرسلت قوة بحرية فرنسية بريطانية مشتركة إلى بلاد الإغريق لفرض هدنة بين الثوار والجيش المصرى. ولكن نشبت المعركة بالصدفة تقريبا ودمر الأسطول المصرى فى موقعة خليج نافارين عام١٨٢٧. واضطر إبراهيم باشا إلى سحب قواته من المورة فى العام التالى وحصلت اليونان على استقلالها.

وكان ذلك أول هزيمة شديدة لمحمد على، ولذلك طلب مكافأة من السلطان مقابل حملته اليونانية الباهظة التكاليف. ولم ينفذ السلطان وعده بجعل إبراهيم باشا واليا على فلسطين وسوريا، ولذلك استولى جيش إبراهيم باشا على الولايتين عام ١٨٣١ من السلطة العثمانية المباشرة. وهنا شعر السلطان بالقلق الشديد من قوة واليه الهائلة ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لكبح جماحها. ولذلك اعترف عام

١٨٣٣ بمحمد على واليا على سوريا وفلسطين. ثم فشلت محاولة عثمانية أخرى لطرده من تلك الولايات عام ١٨٣٩، وهزم إبراهيم باشا قوات السلطان هزيمة نكراء. وبدا أن القوات المصرية قد استعدت للزحف على إسطنبول وإملاء شروطها على السلطان الجديد، وكان غلاما يافعا آنذاك. ولكن تدخلت القوى الأوروبية ثانية. وتعهدت بريطانيا بالحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية المتهاوية وذلك بالتعاون مع دول أوروبية أخرى. وبالرغم من التأييد الفرنسى لمحمد على فإنها قد أجبرته على الانسحاب من سوريا عام ١٨٤٠. ولكنه حصل فى نهاية الأمر على مكسب كبير؛ إذ حصل على ولاية مصر وراثة فى عائلته، كما اعترف السلطان ضمنا بسيطرته على السودان.

ومن أجل مواجهة نقص المجندين للجيش بعد الحملات العربية والسودانية، ونظرا لفشل مشروعه فى الحصول على عبيد زنوج كجنود، جند محمد على فى جيشه أبناء مصر من الفلاحين. ومنذ الفتح العربى فى القرن السابع للميلاد كان كل جنود مصر من الأجانب. ولكن بدأ المصريون آنذاك فى الالتحاق بالجيش ووصلوا فيما بعد فى أواخر القرن التاسع عشر إلى رتب الضباط. وأدى ذلك إلى حدوث تأثير كبير ونمو الحركة القومية فى مصر. واستعان محمد على أيضا بالمعلمين والمستشارين العسكريين – وبالأخص الفرنسيين – لإنشاء كليات للطب والمدفعية والهندسة. وكانت نتيجة ذلك ترجمة الكتب التعليمية الأوروبية إلى اللغتين العربية والتركية كما تعلم أذكى الضباط المصريين الشباب الفرنسية، مما جعلهم يحصلون على قدر وفير من الأفكار السياسية والعسكرية الغربية. وفى ذلك العصر كان للبلاد الأوروبية احتكار يكاد أن يكون كاملا لصناعة الأسلحة الحديثة، ولذلك كان محمد على يعتمد تماما على أوروبا للحصول على الأسلحة والمعدات العسكرية. ولكنها كانت مكلفة للغاية وباهظة الثمن، كما أن عنصرا مهما للغاية فى اتجاهه للإصلاحات الإدارية والاقتصادية التى ميزت معظم حكمه والباقى ذكرها حتى اليوم قد كانت حاجته للحصول على المال لسداد ثمن الأسلحة. ولكن اهتم محمد

على ووزراؤه أيضا بتحديث مصر لصالح شعبها الذى عاش طويلا تحت ظـروف قهر وإرغام. وازدادت مساحة الأراضى المزروعة كثيرا، كمـا أدخلـت زراعـة القطن والسكر كسلع اقتصادية، وتم التوسع فى زراعة الحبوب. وحلت أرستقراطية جديدة من عائلة الوالى والمقربين منه محل الأرستقراطية المملوكية القديمـة مـن ملاك الأراضى. ولكن لم يؤد ذلك أبدا إلى وضع نهاية للفساد والاستغلال، ولكـن أدى إلى نشر العديد من الأفكار الجديدة. ولـذلك يـرى المؤرخـون المصـريون وآخرون أن محمد على هو مؤسس مصر الحديثة فعـلا. وكـان الخطـأ الأكبـر لحكومته مع ذلك هو تركيز كل السلطات فى يد الوالى فقط. ولـذلك لـم يسـتطع حلفاؤه الضعاف والأقل كفاءة السيطرة على الأوضاع التى أنشأها.

## الخديوى إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)

توفى محمد على عام ١٨٤٩ وخلفه خلفاء ضعاف. وكـان إبـراهيم باشـا المتميز تماما قد توفى عام ١٨٤٨. أما عباس الأول (١٨٤٩-١٨٥٤) فكان حفيـد محمد على وتميز بالأفكار المحافظة وعداء للأفكار الأوروبية، ثم ابنه محمد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) عم عباس الأول وهو رجل ضعيف وقع كثيـرا تحـت تـأثير مستشاريه الأوروبيين. وبدأ حفر قناة السويس فى عصره عام ١٨٥٩. ولكن بـدأ فصل آخر لمصر ولشمال شرق أفريقيا كلها بتولى أحد أحفاد محمد علـى ولايـة مصر وهو إسماعيل باشا. فلقد تميز بأفكار كبيرة مستنيرة ولكنه لـم يتميـز أبـدا بالحكمة وحسن تقدير الأمور أو الحرص فى معاملاته المالية والاقتصادية. ولـذلك عاش إسماعيل حياة الحاكم المترف كما حصل على اللقب الفارسى القديم "خـديو" من السلطان العثمانى. وتمت سياساته العامة بالروح نفسها، واعتمدت تماما علـى المفاهيم الإسلامية لجده العظيم. فلقد وجب إدخال عالم السكك الحديدية والتلغرافات والمصانع والمدارس وتخطيط المدن إلى مصر. وأكمـل إسـماعيل إنشـاء قنـاة

السويس عام ١٨٦٩ والتى رفض محمد على دائما فكرة إنشائها لفهمه تماما أن مصر سوف تكون تحت رحمة الأساطيل الأوروبية الأقوى كثيرا. وطلب إنشاء أسطول من السفن التجارية للعمل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وفى ١٨٦٣ عام تولى إسماعيل الحكم وصل الرحالان البريطانيان سبيك وجرانت Grant إلى القاهرة ومعهما روايات عن الممالك الأفريقية الداخلية الثرية عند أعالى نهر النيل الأبيض، وسرعان ما بدأ خيال إسماعيل الخصب فى العمل. فسوف يتم تجاوز شلالات النيل بواسطة السكة الحديد، وسوف يضع السفن التجارية على نهر النيل الأبيض والبحيرات الاستوائية. وهنا سوف يتم تحويل كل تجارة العاج المنقولة شرقا إلى زنجبار إلى القاهرة. ولذلك، وفى عام ١٨٦٩، طلب من بيكر Baker، مستكشف بحيرة ألبرت، وبمرتب عشرة آلاف جنيه إسترلينى سنويا بتنفيذ تلك الخطة الطموحة. ولكن لم يفعل بيكر الكثير عمليا فى أربعة أعوام باستثناء جمع بعض السفن التجارية على نهر النيل الأبيض. ولكن أوضحت سجلات تقاريره فى جنوب الشمال وشمال أوغندا أن توغل تجار الخرطوم فى تلك المنطقة كلها قد كان له الآثار المدمرة لأوجه نشاط الزبير ورفاقه فى بحر الغزال. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر فإن تجار الخرطوم قد وصلوا جنوبا إلى بونيورو Bunyoro وبوجندا، واشتركوا كثيرا فى صراعات الخلافة فى بونيورو وحيث أيد التجار المتنافسون المرشحين المتنافسين مقابل هدايا قيمة من العاج. وحل شارلز جوردون محل بيكر عام ١٨٧٣ وأصر على أن إسماعيل لا يمكنه تنفيذ مشروعه الكبير إلا بإنشاء قاعدة على ساحل أفريقيا الشرقى. ولذلك كتب فى مذكراته يوم ٢١ يناير ١٨٧٥.

"لقد اقترحت على الخديوى إرسال ١٥٠ رجلا فى سفينة تجارية إلى خليج ممتاز على مسافة ٢٥٠ ميلا شمال زنجبار وإنشاء محطة هناك ثم الاندفاع منها إلى متيسا، وإذا استطعت أن أفعل ذلك فسوف تكون ممباز قاعدتى وأترك الخرطوم ومشاكل السفن التجارية. ويمكن هنا انفتاح وسط أفريقيا بطريقة أكثر

فاعلية، لأن المناطق الخصبة الوحيدة فى تلك المنطقة هى الهضاب بجوار متيسا. بينما المنطقة جنوب الخرطوم منطقة مستنقعات رديئة. وآمل أن يفعل الخديوى بما أشرت إليه".(١٦)

ووافق إسماعيل وأرسل حملة أخرى باهظة التكاليف فى أواخر العام نفسه، ولكن تلك المرة إلى قسمايو Kismayo عند مصب نهر جوبا، ولكن تم استدعاء تلك الحملة نتيجة للضغوط البريطانية لصالح سلطان زنجبار.

وفى الوقت نفسه احتلت قوات إسماعيل زيلع فى خليج عدن وجزيرة هرر ولكن الهجمات المرسلة إلى التيجرى (إقليم التيجرى) من مصوع قد هزمت تماما على أيدى إمبراطور أثيوبيا يوحنا.

ولقد استفادت مصر كثيرا من حكم هذا الخديوى العظيم بالرغم من انهيار أحلامه فى إنشاء إمبراطورية أفريقية كبيرة تكون مصر حاضرتها. فلقد تم إنشاء نظام كبير للغاية من المواصلات والتلغرافات والسكك الحديدية والبناء المعمارى من مختلف الطرز، بالإضافة إلى إتمام قناة السويس بطبيعة الحال. وفعل محمد على الكثير لتحديث مصر ولكن وصلت المدن المصرية – على الأقل – القاهرة والإسكندرية ومدن القناة إلى مظهرها الحديث فى عصر إسماعيل فقط. ولكن اعتمدت مصر كثيرا على رأس المال الأوروبى لتنفيذ تلك السياسات فى التطور، ولذلك اضطر الخديوى إلى اقتراض الأموال بمعدلات فائدة هائلة. ولذلك اضطر أن يبيع أسهمه فى قناة السويس عام ١٨٧٥ لتسديد ديونه الواجبة السداد. وأفلست الخزانة المصرية عام ١٨٧٩ وفى العام نفسه عزله السلطان العثمانى بناء على تدخل القوى الأوروبية. وتولت إدارة المالية المصرية لجنة تمثل الدول الأوروبية التى تدين لها مصر بأموال. كما تولى الخبراء الماليون الأوروبيون مناصب وزارية فى حكومة الخديوى توفيق وهو ابن إسماعيل وخليفته.

---

(١٦) General Gordon in central Africa 1874-79ed, G.bHill (London, pp.65-6)

وأدت الإجراءات الاقتصادية التى طبقها المستشارون الأوروبيون لتوفيق إلى الإضرار بضباط الجيش كثيرا، بالإضافة إلى طبقات أخرى من المصريين. وتسلم الكثيرون منهم نصف رواتبهم فقط، ولذلك ثارت جماعة منهم تحت قيادة عرابى باشا عام ١٨٨١ وأشرفوا عسكريا على حكومة الخديوى. وهددوا بعدم سداد الديون الخارجية، ولذلك أدت تلك الثورة العسكرية أخيرا إلى التدخل المباشر للقوى الأوروبية. وخططت بريطانيا وفرنسا معا للتدخل لإعادة سلطة توفيق الضعيفة وحماية المصالح المالية الأوروبية. ولكن لم تشترك فرنسا فى نهاية الأمر لحدوث أزمة داخلية لديها، بالإضافة إلى تطور الأحداث فى تونس والهند الصينية. وهكذا غزت بريطانيا مصر بمفردها عام ١٨٨٢ وهزمت قوات عرابى باشا فى معركة التل الكبير. وكان احتلال بريطانيا لمصر عاملا أساسيا فى تقسيم أفريقيا الذى حدث فيما بعد.

## السودان والمهدية (١٨٨١-١٨٩٨)

قبل عام واحد فقط من الاحتلال البريطانى لمصر ثار السودان ضد حكومته المصرية. ولم تنشأ تلك الحركة فى جنوب السودان حيث كان الحكم المصرى أشد قسوة، ولكن كان معظم الثوار من الجماعات الرعوية المقيمة غرب النيل وبالذات شعب البقارة، وهو شعب يمتلك ماشية فى كردفان وجبال النوبة ويتحدث العربية. وكان البدو أول من أنضم للثورة. وغضبوا من محاولات الحكومة المصرية لفرض ضرائب أكثر والسيطرة عليهم بأسلوب أشد مما حدث مع المزارعين المستقرين فى وادى النيل شمال وجنوب الخرطوم. وانتظر هؤلاء العرب المقيمون بجوار النهر، وهم أحفاد السكان القدامى لمملكة الفونج، حتى يتأكدوا من انتصار المهدى قبل الانضمام إليه. وكانت شكواهم أساسا اقتصادية، لأن الحكومة المصرية فى بداية عهدها قد جندت العديد من عبيدهم الذين يعتمدون عليهم فى حياتهم. وفى

تاريخ أحدث منعت الحكومة المصرية استيراد كميات إضافية من العبيد من الجنوب واحتكرت تجارة العاج فى أيديها. ووجدت أيضا أسبابا دينية مهمة. فلقد أحضر المصريون وبأعداد متزايدة معلميهم المسلمين وكبار المسئولين الدينيين أيضا بينما امتلك الإسلام السودانى شيوخه المحليين ورجال الدين الذين لم يوافقوا أبدا على الوافدين الجدد وأساليبهم المختلفة عنهم. وكان تعيين إسماعيل لجوردون، وهو مسيحى يعادى تماما تجارة الرقيق، كحاكم عام للسودان قد أغضب المسلمين المحليين أكثر. وكان البدو، على الأقل، مستعدين تماما لاتباع أحد الزعماء الدينيين الذى وعد بإنهاء الحكم المصرى والذى رأوا أنه لا يتميز بالتقوى كما يتسم بالهرطقة، بالإضافة إلى كونه شديد الوطأة أحيانا.

وظهر هذا الزعيم الدينى فى شخص محمد أحمد المولود عام ١٨٤٤، وهو ابن صانع قوارب بالقرب من الخرطوم. وبعد نشأة دينية مكثفة أصبح معلما وحصل على لقب "شيخ". وأعلن نفسه المهدى عام ١٨٨١، وأنه منقذ المسلمين، وأنه سوف يعيد الإسلام إلى طهارته الأولى. وفى البداية لم تهتم السلطات البريطانية فى مصر كثيرا بما بدا أنه حركة دينية محلية. ولكنهم أدركوا خطورتها حينما استولى فرسان المهدى من البقارة عام ١٨٨٣.على الأبيض ولكن كان الوقت قد فات لتدارك الموقف إلا بإرسال حملة عسكرية كبرى، وكان ذلك أكثر بكثير من قدرة الحكومة المصرية المفلسة. ولم ترغب الحكومة البريطانية آنذاك فى زيادة مسئولياتها فى مصر، ولذلك قررت أن السودان يجب عليه الانتظار إلى أن تعود المالية المصرية إلى عافيتها. ولكن أصبح من الواضح آنذاك أن المهدى قد حصل على التأييد الحماسى لمعظم الطوائف الإسلامية السودانية، واستولى على الخرطوم عام ١٨٨٥، وقتل جوردون الذى كان قد أرسل لسحب الحامية. وتوفى المهدى بعد عام من الاستيلاء على الخرطوم وخلفه قائده عبد الله والذى عرف أيضا بالخليفة. ولكن أقام المذكور حكما علمانيا قويا بدلا من حكم المهدى فى مجتمع قام على أسس دينية وثيقة مثل المجتمع الإسلامى فى عصور الإسلام الأولى.

واستمر حكم الخليفة لمدة ثلاثة عشر عاما. وكان يمكنه الاستمرار أكثر لولا أن القوى الأوروبية كانت تقسم أفريقيا آنذاك فيما بينها. ومهما كان الأمر استمر حكم المهدية للسودان إلى نهاية القرن التاسع عشر تقريبا. وكانت عملية استرداد السودان بواسطة القوات الأنجلو – مصرية الفصل النهائى لفترة التقسيم تقريبا. وكانت تلك إحدى الحالات القليلة التى هزمت بها حكومة وانهارت بواسطة جيش غازى لبدء الحكم الاستعمارى.

## إعادة توحيد أثيوبيا (١٨٥٥-١٨٨٩)

ربما كان أعظم تطور فى كل أفريقيا أثناء نهاية القرن التاسع عشر هو إعادة توحيد وتطور أثيوبيا إلى درجة لا يمكنها فقط البقاء بعد تقسيم أفريقيا، بل والاشتراك فى تلك العملية أيضا. وكما رأينا أتت الفرصة لهذا الإحياء بإعادة فتح المنطقة الأثيوبية للتجارة الخارجية أثناء الربع الثانى من القرن. واستمر الحكام المحليون الأكثر حنكة فى بناء قوتهم بشراء الأسلحة النارية. ولكن إلى ذلك الوقت لم يختلف الأمر كثيرا عما حدث فى أقوى الدول المحلية فى أفريقيا الاستوائية. ووجدت فى أثيوبيا أيضا ذكرى دولة عظيمة وجدت فى الماضى. كما استمرت الكنيسة المسيحية القديمة كتنظيم وطنى فى تيجرى وأمهارا وشوا Shoa بالإضافة إلى الولايات الأخرى شبه المستقلة للإمبراطورية القديمة. وعملت الكنيسة هنا كتأثير فعال للوحدة، وميزت قلب الدولة المسيحى فى المرتفعات عن الدول الإسلامية فى الشمال والشرق، ومن بلاد الأورومو والدول التى يحكمونها فى الجنوب والجنوب الغربى التى انتشر بها الإسلام بسرعة خلال بداية القرن التاسع عشر. ونظرا للتعليم الذى تقدمه الكنيسة فما زالت توجد طبقة قليلة من الأفراد المثقفين. وكان لتلك الطبقة المثقفة القدرة لمعرفة كيفية الدخول فى علاقات دبلوماسية مع العالم الخارجى وكيفية إعطاء الأجانب فكرة إيجابية عن دولتهم

المتحضرة. وقد وجدت كل تلك العوامل كامنة، وانتظرت فقط القائد الوطني في الوقت المناسب. وكان أول هؤلاء الزعماء رأس كاسا، وهو أحد القادة اللصوص النازحين من الحدود الشمالية الغربية، والذى استطاع تتويج نفسه إمبراطورا عام ١٨٥٥ بواسطة رؤساء الكنيسة في العاصمة القديمة أكسوم Aksum في تيجرى. وتلقب رأس كاسا بلقب ثيودور. وزاره قنصلان من وزارة الخارجية البريطانية بعد فترة تتويجه بقليل وسجلا انطباعاتهما في تقريريهما الرسمى:

"يتميز الملك ثيودور ببهاء الطلعة والأدب وحسن المحاورة مع رفقائه كما يبدى مفاهيم اللياقة واللباقة. ويعتقد تماما أن قدره هو إعادة مجد الإمبراطورية الأثيوبية والقيام بفتوحات كثيرة. ولا يكل أبدا عن العمل، كما لا يأخذ راحة ليلا أو نهارا، كما أن أفكاره واضحة ودقيقة. لا يعرف التردد ليس لديه مستشارين أو وسطاء. ويعشق البذخ ويستقبل دائما استقبالا رسميا حتى أثناء حملاته الحربية. ولا يروق له شيء ولا يرغب إلا بالحصول على ذخائر للحرب بجنوده".(١٧)

وبالرغم من تقواه الكبيرة وعنفه الهائل، إلا أنه اعتقد بدون شك أن رسالته هى إحياء الأمة الأثيوبية، ولذلك فعل الكثير من أجل تحقيق أهدافه فى الاثنى عشر عاما التالية بعد عام ١٨٥٥. ولكنه كان يتعرض أيضا لنوبات من الجنون عندما توقفت مسيرته وتوسعه حينما أرسلت بريطانيا حملة عسكرية ضده عام ١٨٦٧ لإساءته لمندوبين بريطانيين. وحاصرته القوات البريطانية فى قلعته فى مجدالا فأطلق الرصاص على نفسه منتحرا.

وحارب خليفته يوحنا الرابع من أجل الاستيلاء على العرش بأسلحة حصل عليها من البريطانيين الذين شجعوه ضد منافسه ثيودور. وفى السبعينيات من القرن التاسع عشر كان العدو الخارجى الرئيسى لأثيوبيا، والتى كانت ما زالت آنذاك مجموعة من الولايات شبه المستقلة أكثر من كونها دولة موحدة، هو مصر. فلقد

---

(١٧) Walter C.Plowden, Travels in Abyssinia and country (London 1868) pp.455-6

هددت السياسات التوسعية للخديوى إسماعيل فى البحر الأحمر والسواحل الصومالية بإعادة العزلة الطويلة السابقة للبلاد المسيحية فى الجبال الداخلية. وكما رأينا استولت مصر على سواكن ومصوع وحصلت عليها من السلطان العثمانى عام ١٨٦٥، كما احتلت معظم أرتريا. وفى عام ١٨٧٥ فرض الخديوى إسماعيل الحماية المصرية على حكام زيلع وهرر المسلمين، ثم شن هجوما مصريا على أثيوبيا من الشمال والشرق. ولكن استطاع الإمبراطور يوحنا إيقاف الغزو المصرى، ولكن استمرت مصر فى احتلال أهم موانئ البحر الأحمر والصومال مما أدى إلى منع أثيوبيا من استيراد السلاح والسلع الأخرى. وأدى ذلك إلى إضعاف موقف يوحنا فى صراعاته مع منيليك Menelik حاكم شوا الشاب القوى والذى اضطر إلى منافسته من أجل الحصول على لقب إمبراطور. وتقع شوا جنوب تيجرى وأمهارا وعانت كثيرا من هجمات الأورومو من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. وكان حاكما شوا قبل منيليك قد قاما خلال الخمسين عاما السابقة فى إعادة تسليح جيشها والتوسع تماما مثلما فعل ثيودور. وفى عام ١٨٧٨ اضطر يوحنا الاتفاق مع منليك وزوجه ابنته واعترف به كخليفة له. ولكن بالرغم من ذلك ظل العداء والمنافسة بينهما إلى وفاة يوحنا فى معركة ضد الخليفة عبد الله عام ١٨٨٩ وأصبح منليك إمبراطورا آنذاك. وفى الأعوام الأولى من حكمه على الدولة التى أقامها المهدى حاول عبد الله أن يمد سيطرته على كل الأراضى السودانية التى احتلها المصريون فى الماضى. وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى نزاعه مع أثيوبيا تحققت طموحات منليك.

وفى حكمه الطويل الذى استمر إلى عام ١٩١٣ أكمل منليك التطور الذى بدأه ثيودور. فلقد وحد ولايات تيجرى وأمهارا مع شوا ومد الحكم الأثيوبى على الدول الإسلامية والوثنية فى الجنوب. وفهم تماما أهمية الأسلحة الحديثة. وقبل أن يصبح إمبراطورا بفترة طويلة اشترى السلاح والذخيرة من كل مصدر ممكن وبالذات من الإيطاليين. ثم حل الفرنسيون محلهم (والذين عملوا فى مستعمرتهم

أوبوك على الساحل الصومالى) وأصبحوا فى ثمانينيات القرن التاسع عشـر أهـم مؤثر خارجى فى أثيوبيا. وأقام القناصلة الإيطاليون فى عدم اشتراكهم فى ترتيبات عام ١٨٧٩-١٨٨٠ مع منليك، وبعد إنشائهم مستعمرة إيطالية فى ميناء عصب عام ١٨٨٢ وصل المندوبون الإيطاليون بانتظام إلى بلاط منليك. وسوف نرى فيما بعد (الفصل العاشر) كيف أدى هذا الوجود الإيطالى فى أثيوبيا إلى معاهـدة ويشـالى Wichale عام ١٨٨٩.

ولكن هزم الإمبراطور منليك الإيطاليين عند محاولتهم غـزو أثيوبيـا مـن مستعمراتهم فى أرتريا فى موقعة عدوة عام ١٨٩٦. وللحصول على أموال لسـداد ثمن الأسلحة فإن منليك مثل كل الحكام المعاصرين فى شمال شرق أفريقيا والبلاد الداخلية قد اعتمد أساسا على أرباح تجارة العاج. ولذلك قام بغارات عميقة فى بلاد الشعوب الوثنية فى جنوب غرب وجنوب شرق شوا. ثم امتدت سيطرته السياسـية فيما وراء الجيوش الغازية. وأدى التوسع الأثيوبى على حساب صـومالبى هـرر والأوجادين Ogaden دورًا فى آخر هجـرة كبيـرة ناحيـة الجنـوب للشـعوب الصومالية. وفى بداية القرن العشرين كانوا قد انتشروا فى داخل الولاية الشـمالية الجافة لكينيا.

ولفترة طويلة قبل التدخل الأوروبى المباشر فى شرق وشمال شرق أفريقيـا فإن الحكام المسلمين والمسيحيين لأقوى الدول الأفريقية وأكثرها ثراء قد استخدموا الأسلحة النارية التى حصلوا عليها من أوروبا ليمدوا تجارتهم مع شعوب الـداخل. وأدى تطور نشاطهم التجارى إلى زيادة سـيطرتهم السياسـية. ويعتبـر التوسـع المصرى فى السودان وتوسع الشوا فى أراضى الجنوب والشرق للهضاب الأثيوبية أمثلة لهذا التطور فى شمال شرق أفريقيا. كما يعتبر التوسع السواحيلى العربى فى شرق أفريقيا المرتكز على سلطنة زنجبار مثالا آخر (فيما بعد الفصـل الثـامن). ولكن كان الحكام الأثيوبيون هم الوحيدون الذين تميزوا بالحنكة الكافيـة لاسـتخدام مزايا الاتصال مع العالم الخارجى مع تجنب المشاكل والعوائق المالية والدبلوماسية التى يمكن أن تؤدى إلى التدخل الأوروبى ضدهم.

# الفصل الرابع

## انفتاح أفريقيا (٢): من المغرب

## شمال غرب أفريقيا والقوى الأوروبية (١٨٠٠-١٨٣٠)

سبق أن رأينا أن شمال أفريقيا غرب مصر قد تكون من أربع دول إسلامية وكان ثلاث منها تابعة اسميا للإمبراطورية العثمانية وهي الجزائر وطرابلس وتونس. أما الرابعة فهى المغرب (مراكش) فلقد كانت دولة مستقلة. وبالرغم من تجارتها الكثيفة مع غرب أوروبا إلا أن ارتباطاتها الدينية والثقافية بالإضافة إلى أجزاء كبيرة من تجارتها قد كانت مع شرق البحر المتوسط من جهة ومع الدول الإسلامية فى غرب السودان من جهة أخرى. واستوردت الدول المغربية الأربع العبيد السودانيين بانتظام لاستخدامهم كجنود وخدم وزوجات وعشيقات، وعملت كلها أيضا - وبالذات طرابلس - كنقط عبور لإعادة تصدير العبيد إلى مصر وأيضا سوريا، وتركيا والبلقان. ولم يتغير هذا النمط كثيرا خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ولكن بعد ذلك بدأت القوة المتزايدة لغرب أوروبا تلقى ظلالها بأساليب متعددة وأدت إلى حدوث تغيرات مهمة فى حياة شعوب شمال غرب أفريقيا على المدى البعيد. ووجدت فى البداية الحملة البريطانية ضد تجارة العبيد فى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى. وقامت بعد ذلك حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢٠-١٨٢٩) التى تمت بمساعدة القوى المسيحية الأوروبية. وأدى نجاح اليونانيين إلى طرد الحكم الإسلامى من بلد مسيحى ومعه نظام العبودية، كما قدم ذلك مثالا سوف تحتذى به دول البلقان الأخرى فيما بعد. وأخيرا فإن اختراع السفن التجارية والنمو المتزايد فى قوة وتحرك الأساطيل البحرية الأوروبية قد أدى إلى

تركز القوى الأوروبية فى البحر المتوسط. وكان هذا البحر بالنسبة لبريطانيا وفرنسا طريقا إلى الدول الثرية فى الهند وجزر الهند الشرقية ومنفذا (عن طريق مضيق إسطنبول الضيق) للأسطول الروسى إلى البحر الأسود. وكانت بريطانيا قد تدخلت ضد محمد على فى بلاد اليونان عام ١٨٢٧ وفى سوريا عام ١٨٤٠ لمنع ظهور روسيا كقوة بحرية كبرى فى البحر المتوسط. أما اهتمام فرنسا بهذا البحر فقد نشأ من موقعها الجغرافى وكان أكثر محلية وأقل شمولية من الدور البريطانى العالمى. واهتمت فرنسا أساسا بأوجه نشاطها التجارى فى الشرق وشمال أفريقيا، ولذلك رحبت فعلا بظهور قوة أفريقية صديقة قوية فى شمال أفريقيا ومركزها مصر. وفى عام ١٨٢٩ – أى قبل فترة بسيطة من غزوها للجزائر– فإن الحكومة الفرنسية قد شجعت محمد على أن يكون المغرب كله محط أنظاره وإدخاله فى منطقة نفوذه. ولذلك فإن حكومات فرنسا وأسبانيا، وفيما بعد إيطاليا، قد اهتمت بشمال أفريقيا نظرا لقيمتها كعنصر فى لعبة القوى الكبرى التى نفذتها الدول الأوروبية وأيضا لإمكانياتها الاقتصادية والاجتماعية.

ولكن، وفى بداية القرن التاسع عشر، فإن الدول المغربية لم تدرك أبدا أن أوروبا المسيحية سوف تكون أهم تهديد لاستقلالها السياسى. كما لم توجد فيما بينهم أبدا فكرة قيام جبهة موحدة ضد التهديد الأوروبى. ففى طرابلس مثلا فإن الباشا الوراثى، يوسف قره مانلى، الذى حكم بلاده من ١٧٩٥ إلى ١٨٣٠، قد بدأ حكمه بمساعدة البريطانيين ضد الفرنسيين فى مصر. ثم تمتع بعد ذلك بالتأييد الأوروبى للاحتفاظ بحريته فى السيطرة العثمانية. واستخدم تلك الحرية لفرض سلطته على فزان. وهى بلاد نصف صحراوية تقع إلى جنوب طرابلس والتى تعبر منها تجارة القوافل إلى السودان الأوسط. وفى عام ١٨١١ استولى يوسف على فزان، وفى عام ١٨١٨ أقام علاقات ومعاهدات مع حكام بورنو وسوكوتو Sokoto أهم دولتين فى شمال نيجيريا. وأمدت طرابلس بورنو بأسلحة وذخيرة لحملاتها السنوية ضد شعوب ماندارا وباجرمى عند حدودها الجنوبية، وحصلت على إمدادات كبيرة من

العبيد لقاء ذلك. وبالرغم من علاقتها الوطيدة مع بريطانيا أصبحت مدينة طرابلس آنذاك أكبر سوق لتجارة العبيد فى البحر المتوسط. وحضر ١٠,٠٠٠ عبد سنويا عبر الصحراء ومر أكثر من نصفهم عبر طرابلس أو عن طريق بنى غازى ميناء برقة. وبطبيعة الحال فإن كل رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى السودان الأوسط للرحالة الأوروبيين، ويشمل ذلك رحلات كلابرتون، وبارث وناختيجال، قد استخدمت هذا الطريق، كما قدم لهم باشوات طرابلس الحماية والأمن وقدموا لهم الحراسات وخطابات التوصية إلى حكام بلاد الجنوب.

واعتمد حكام تونس أيضا - مثل حكام طرابلس - على شبه استقلالهم التام عن السلطان العثمانى على الصداقة مع بريطانيا. أما الجزائر، على العكس، فلقد ارتبطت بفرنسا أكثر. وأثناء الحروب التى قامت بها حكومة الثورة فى فرنسا ثم الإمبراطور الفرنسى نابليون ضد معظم القوى الأوروبية الأخرى فيما بين ١٧٩٢ و١٨١٥ فإن الجزائر قد أرسلت الحبوب إلى القوات الفرنسية ويشمل ذلك تلك التى هاجمت مصر. ولذلك فإن فرنسا كانت مدينة بديون حربية كبيرة لدايات الجزائر خلال تلك الأعوام. وبعد هزيمة نابليون عام ١٨١٥ فإن الحكومة الفرنسية قد رفضت سداد هذا الدين مما أدى إلى تسميم العلاقات بين البلدين.والغزو الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠.

وكانت المغرب (مراكش) هى الدولة الوحيدة التى لم يكن السلطان العثمانى أبدا سيدها الأسمى والذى يستوجب الأمر إيجاد حليف ضده. ولذلك فإن المغرب قد واجهت النشاط الأوروبى المتزايد فى البحر المتوسط والأطلنطى بأن عزلت نفسها عن العالم الخارجي. ومنع مولاى سليمان (١٧٩٢-١٨٣٢) رعاياه من مغادرة البلاد وأمرهم باختصار أعمالهم مع المسيحيين إلى أقصى درجة. أما القناصلة الأوروبيون فلقد اقتصرت إقامتهم فقط على موانئ طنجة وموجادر. ورفض السلاطين تماما كل رغبات القناصلة البريطانيين فى اتخاذ إجراءات معادية لتجارة العبيد، بل رفضوا دراسة هذا الموضوع أصلا. وفى عام ١٨٤١ رفض خليفة

سليمان وهو مولاى عبد الرحمن بشدة منع تلك التجارة التى وافقت عليها قوانين كل ملة وأمة "منذ أيام أبناء آدم إلى اليوم".

وكان العنصر الأساسى فى حياة معظم شعب المغرب الكبير ليس فقط علاقاتهم بالقوى الأوروبية البعيدة ولكن بالمجتمع الاجتماعى والدينى النشط الذى أقامه الإسلام. فلقد كان الإسلام، فى صوره العديدة، هو الذى ربط المغرب بأفريقيا جنوب الصحراء وبالبلاد العربية إلى الشرق. ونجحت الطريقة التيجانية والتى أنشئت عند الحافة الشمالية للصحراء (فيما سبق الفصل الأول) تماما فى نشر أفكارها ونظمها فى منطقة غرب أفريقيا السودانية ولم تكن إلا أكبر دعوات عديدة. وكان "المرابطون" من رجال الدين شخصيات مهمة للغاية فى النظم الاجتماعية للمغرب الكبير، وذاعت شهرة أكثرهم تقوى إلى مناطق واسعة. وكان المرابطون المغاربة (فى مراكش) يتمتعون بشهرة إلى منطقة السودان النيلية. وكانت الرابطة الإسلامية أيضا رباطا آخر بين منطقة البحر المتوسط وأفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بواسطة الجماعات القديمة الشهيرة فى القيروان والقاهرة وفاس التى جذبت طلبة البلاد الأفريقية من جنوب الصحراء ومن الشرق الأوسط أيضا. وبالرغم أن المرابطين والطرق الصوفية والجامعات الدينية قد أثرت تأثيرا كبيرا خارج حدود دولها غير محدودة بدقة إلا أنها لعبت دورا مهما للغاية فى الشؤون السياسية والمحلية والقومية على السواء. وتضاف تلك العوامل كلها إلى عامل الحج إلى مدينة مكة المكرمة والذى يجمع الناس من كل بلاد شمال أفريقيا ليشاركوا فى الرحلة الشاقة والتجربة الدينية. ولكن اندفع الفرنسيون إلى ركن من هذا العالم القائم بذاته حينما قاموا بغزو الجزائر.

## الفرنسيون فى الجزائر (١٨٣٠-١٨٧٩)

كان الغزو الفرنسى للجزائر حادثة من أسوأ الحوادث وأقلها أخلاقية فى

القرن التاسع عشر كله. فلقد تم بدون سبب وجيه إطلاقا ولكنه تم فقط من أجل صرف انتباه الشعب الفرنسى بإحراز نصر عسكرى فى الخارج نظرا للغضب الشعبى من سوء حكم الملكين لويس الثامن عشر وشارل العاشر. ولم ينجح هذا التصرف أيضا، إذ إنه بعد شهور قليلة من الهجوم على الجزائر خلعت ثورة شعبية الملك شارل العاشر عن العرش. ولكن بقى الفرنسيون فى الجزائر.

وكان تبرير الهجوم هى حالة من الغضب انتابت داى الجزائر، حسين، أثناء إحدى المناقشات التى لا نهاية لها والخاصة بديون الحرب الفرنسية، والذى قد ضرب القنصل الفرنسى على وجهه بمنشة طرد البعوض عام ١٨٢٧. وبعد ثلاثة أعوام أعلنت الحكومة الفرنسية أنها بصدد إنهاء أعمال القراصنة الجزائريين، وأنزلت قواتها العسكرية وهزمت قوات حسين. وسقطت مدينتا الجزائر ووهران فورا تقريبا وميناء الجزائر الشرقية فلقد سقط عام ١٨٣٢. ولكن بقى للفرنسيين عمل أكثر مشقة بكثير وهو حكم المناطق المفتوحة.

وتماما مثل كل فاتحى الجزائر فى الماضى اعتقد الفرنسيون أنه بإمكانهم مد سيطرتهم على الساحل فقط. وفعلا نجد أن سكان المدن الساحلية وتلك الجماعات الاجتماعية التى كونت تقليدا ما يعرف بالمخزان (بالعربية: الحلفاء) الموالون للداى بإبداء ولائهم للفرنسيين وقبول حمايتهم. وكان السبب ببساطة أن الفرنسيين قد نجحوا تماما فى الاستفادة من الصراع القديم بين سكان المدن ومزارعى المناطق الساحلية من جهة وسكان الهضاب والجبال من جهة أخرى. وكان قائد سكان الجبال هو عبد القادر، وهو ابن أحد المرابطين المشهورين، فى منطقة الأطلسى والذى أعلن عام ١٨٣٢ الجهاد ضد الفرنسيين (وضد المخزان أيضا) قائلا:

"لقد تولينا هذا المنصب المهام (منصب الأمير، القائد) آملين بأنها الوسيلة لتوحيد عموم المسلمين ومنع الانقسامات بينهم وتأمين كل المقيمين فى البلاد وطرد

العدو الذى غزا بلادنا من أجل أن يضع بطشه فوق أعناقنا".[١٨]

واستطاع عبد القادر بمهارة ودقة أن يجمع قبائل الداخل المتناحرة فى غرب وشرق الجزائر حوله، كما نظم إدارة شبيهة بإدارة الحكومة العثمانية القديمة وأنشأ جيشا ألحق دائما خسائر فادحة بالفرنسيين المرة تلو الأخرى. ولم يستطع الفرنسيون أن يقتصر احتلالهم على المنطقة الساحلية فقط، واضطروا رغما عنهم إلى التوغل فى الداخل ولم يختلفوا فى ذلك كثيرا عن كل الغزاة السابقين لشمال أفريقيا فى الماضى.

ولكن بدأ الجنرال بيجو فى الغزو المنهجى لأراضى عبد القادر عام ١٨٤١. واحتل منطقة بعد أخرى ووضع بها حاميات عسكرية بينما قام الفرسان العسكريون بالمرور الدائم بها. ولذلك لم يعد الأمر أبدا حربا بين جيوش متقاتلة فى الميدان بينما يظل السكان المدنيون آمنين. ولذلك كتب أحد أبناء الملك الفرنسى الذى كان يخدم آنذاك مع الجيش الفرنسى "ولقد شعر جنودنا العائدون من الحملة بالخجل من أنفسهم. فلقد تم قطع حوالى ١٨,٠٠٠ شجرة وأحرقت المنازل وقتل الرجال المسنون والنساء والأطفال". ورد العرب بالمثل ضد الجنود الفرنسيين والمدنيين أيضا كلما سنحت الفرصة. واستمرت المقاومة فترة طويلة بعد القبض على عبد القادر نفسه عام ١٨٤٧. ولذلك ولد العداء الدائم والمرارة الكبيرة فى العلاقات بين الغزاة والمهزومين.

وفى تلك الظروف لم تكن عملية استقرار المستوطنين الفرنسيين سهلة بالمرة وإن كان عددهم قد بلغ حوالى المائة ألف عام ١٨٤٧. ورأى بيجو وجوب توطين القادمين الجدد فى مناطق مركزية حيث يمكن للجيش حمايتهم. ويعنى ذلك طرد أو إزاحة السكان الأصليين فى أكثر المناطق الساحلية خصوبة إلى مناطق أخرى غير مأهولة وأقل خصوبة أيضا. ونفذت تلك السياسة بالقوة، ولذلك استمر

---

(١٨) Citedin Col Churchill: The Life of Abdel Kader (London 1867) p.28.

القتال دائرا فى الجزائر إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. وحكمت المناطق الإسلامية بعد غزوها بطريقة غير مباشرة بحيث تشابه هذا الأسلوب كثيرا مع الإدارة العثمانية السابقة. ولكن استعان الدايات فى الماضى بـ ١٥,٠٠٠ جندى لإقرار النظام فى أيامهم، بينما لزم الفرنسيين ١٠٠,٠٠٠ جندى. كما أن المناطق الداخلية ذات الحكم العسكرى لم تتحول أبدا إلى الحكم المدنى إلا بعد عام ١٨٧٩. ولكن ظل القتال دائرا بعد ذلك فى منطقة القبائل ومناطق الجبال الأخرى ولم يسد السلام أبدا.

ولم يحقق المستوطنون الفرنسيون الرخاء أبدا فى الجزائر وإن كان عددهم قد وصل عام ١٨٨٠ إلى حوالى ٣٥٠,٠٠٠ مستوطن. وكان معظم المستوطنين هنا من صغار مزارعى الكروم فى جنوب فرنسا والذين هاجم المرض كرومهم. أما فى المدن فلم يكن معظم السكان الأوروبيين من الفرنسيين أصلا ولكن وصل الأسبان والإيطاليون والمالطيون من بلادهم المكتظة بالسكان وحضروا للبحث عن عمل أو القيام بتجارة صغيرة. وبمرور الوقت غادر المستوطنون الزراعيون الفرنسيون أراضيهم وهاجروا إلى المدن تاركين الأراضى التى خصصت لهم بتكاليف باهظة فى أيدى بعض الأفراد والشركات الثرية والتى شيدت الضيع الكبرى. واختلف المستوطنون الفرنسيون عن باقى المستعمرين فى أماكن أخرى من العالم؛ إذ اتصلوا اتصالا وثيقا بموطنهم الأصلى عبر البحر المتوسط وبالذات الأثرياء منهم. ولذلك كان لهم نفوذ كبير على السياسة الفرنسية بنسبة لا تقارن بأعدادهم أو أهميتهم الحقيقية.

## المغرب (مراكش) ١٨٣٠-١٨٩٤

لقد تأثر المغرب كثيرا بالاحتلال الفرنسى للجزائر. فلقد قاوم عبد القادر أساسا انطلاقا من غرب الجزائر كما زوده السلطان عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩)

بالسلاح، وقدم له، عند الحاجة، الملاذ الآمن فى المغرب. وأدى ذلك إلى تدخل الفرنسيين ضده عام ١٨٤٥ حينما حارب المغاربة لأول مرة منذ القرن السادس عشر معركة حربية مع عدو أوروبى. هزمت القوات المغربية هزيمة ثقيلة فى موقعة نهر أيسلى Isly. ولكن لحسن حظ المغرب أن الفرنسيين كانوا منشغلين للغاية فى الشئون الجزائرية للاستفادة من انتصارهم. ودخلت المغرب فى حرب مع أسبانيا عام ١٨٥٩ إذ رأت الأخيرة أن رعايا السلطان كانوا يكررون الهجوم على مدينتى سبتة Ceuta ومليلة Milila التى تحتلها أسبانيا منذ القرن السادس عشر. وغزا الجيش الإسبانى المغرب وهزم قوات السلطان عدة مرات. وانتهت الحرب عام ١٨٦٠ بمعاهدة تطوان Titwan وتعهدت المغرب بسداد غرامة كبيرة لإسبانيا. وبسبب تلك الغرامة تعرض المغرب إلى تدخل أوروبى تال، فمن أجل سدادها اضطر السلطان للاقتراض من لندن بضمان الجمارك المغربية وقبول إشراف مسئولين أوروبيين عليها.

أما فى الداخل فلقد وجب على الحكومة تدعيم سلطة السلطان ضد الحركات الدينية مثل "المرابطون" وعداء القبائل البدوية. وقسمت المغرب تقليديا بين بلاد المخزان (البلاد الصديقة) المسددة للضرائب لخزانة السلطان وبلاد السيبا (البلاد المعادية) وحيث لا يمكن للدولة أن تفرض سلطتها إلا بواسطة التهديد والرشوة. وكانت المساحة النسبية لكل منها تعتمد أساسا على شخصية السلطان الحاكم. وكان مولاى الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤) آخر السلاطين العظام قبل الاحتلال الفرنسى فى حملات دائمة لتخفيض مساحة البلاد المعادية. ولأول مرة منذ القرن السابع عشر فإن سلطة السلطان قد امتدت إلى منطقة الأطلسى العليا وأيضا إلى داخل عمق كبير فى الصحراء الموريتانية. وحاول مولاى الحسن التأكد من هزيمة الجماعات المثيرة للاضطرابات والتى يمكنها التسبب فى مشاكل على الحدود مثل تلك التى أدت إلى الحرب الإسبانية. وتدين المغرب للسلطان مولاى الحسن وجهوده ومهارته بفضل بقائها مستقلة إلى عام ١٩١٢.

# طرابلس تحت الحكم العثماني (١٨٣٥-١٩١١)

## السنوسية

تنازع فردان لشغل وظيفة الباشا بعد وفاة يوسف القره مانلي عـام ١٨٣٠، وأيد البريطانيون أحدهما والفرنسيون الآخر. وبعد عدة أعوام من الفوضى وخروج بدو فزان عن سلطة الحكومة المركزية قررت الحكومة العثمانيـة إعـادة تأكيـد سلطتها على طرابلس، وذلك لمواجهة قوة محمد على فى مصر والوجود الفرنسى فى الجزائر. ولذلك وصل حاكم عثمانى إلى طرابلس عام ١٨٣٥ وأعلـن انتهـاء حكم أسرة القره مانلى. واستطاع الحكم العثمانى إخضاع معظم قبائل الساحل عـام ١٨٤٢، ولكنه لم يستطع أبدا السيطرة على فزان. ولذلك عانـت التجـارة عبـر الصحراء كثيرا من تلك الأحداث ومن الحروب التى نشبت حول حدود بورنو بعـد وفاة حاكمها عام ١٨٣٧. ولذلك وخلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشـر اضطربت الصحراء الوسطى لدرجة أن حركة النقل على الطـرق مـن بورنـو ووادای قد اقتصرت فقط على قافلة سنوية واحدة على طريق رئيسى ولكـن عـاد السلام إلى الصحراء الوسطى كنتيجة لنشأة طرق صوفية إسلامية أخـرى وهـى السنوسية. وكان منشئها محمد السنوسى الذى ولد فى الجزائر حوالى عـام ١٧٩٠ ودرس فى المدارس الدينية فى المغرب قبل قيامه بالحج إلى مكة المكرمة. وأقـام زاويته الأولى (بالعربية زاوية: مركز دينى) بين بدو برقـة عـام ١٨٤٣. وأدت تعاليمه البسيطة الداعية إلى العودة للبساطة الإسلامية الأولـى وكياسـته الكبيـرة ودبلوماسيته إلى إعجاب رجال القبائل المحاربين وربطت بينهم بطريقة لم يسـتطع الحكم القره مانلى أو العثمانيون القيام بها. وامتدت حركته بسرعة إلى الصـحراء وغرب السودان، كما ازدادت شعبيته حينما خلف محمد المهدى (ولا يجب الخلـط بينه ومهدى السودان المصرى) والده كشيخ للطريقة عام ١٨٥٩. وأقيمت الزوايـا السنوسية فى كل مكان فى برقة وفزان ووادای وكانم وبورنو، بل وإلـى تمبكتـو

أيضا. وارتبط أتباع السنوسى كثيرا بالتجارة وسددوا ضرائبهم من تجـارتهم ممـا أثرى الزوايا. ولذلك أصبحت مراكز للدعاية الدينية بالإضافة إلى بعثهـا للتطـور الزراعى والتجارى. وفى بداية القرن التاسع عشر كان الطريق من بنى غازى إلى واداى أقل الطرق التجارية نشاطا من بين الطرق العابرة للصحراء. وبعـد إنشـاء الحركة السنوسية فى برقة وواداى فى أقصى طرفيها أصبحت أهم الطـرق علـى الإطلاق. واضطر الحكام العثمانيون فى طرابلس إلى الاعتراف بسلطة الإخـوان (الزعماء) قادة الدعوة على شعوب الصحراء والاحتفاظ بصلات صـداقة وسـيطة معهم لسيطرتهم على التجارة التى تعتمد عليها طرابلس وبنى غازى فى رخائهـا. ونتيجة للضغط البريطانى على إسطنبول تخلت الحكومة العثمانية عن تجارة العبيد فى الإمبراطورية كلها (باستثناء الحجاز) عام ١٨٥٧. ولكن لم يمكن تنفيـذ هـذا القانون فى طرابلس وبرقة ضد الإرادة الصلبة للتجار السنوسـيين فـى اسـتمرار أعمالهم. ولذلك استمرت تجارة العبيد عبر الصحراء إلى عصر الاحتلال الفرنسى للنيجر وتشاد والاحتلال الإيطالى لبرقة فى بداية القرن العشرين.

## ولاية تونس (١٨٣٠-١٨٨١)

وكان بايات Beylekat تونس أكثر دول المغرب الكبير تقدما وانفتاحا علـى الغرب فى القرن التاسع عشر كله، ومنذ عام ١٨١٩ ألغى الباى أعمال القرصـنة. كما كان البكوات أيضا أول الحكام المسلمين الذين ألغوا العبودية وأول مـن طبـق نظام حكم دستورى. وكان اقتصاد تونس متنوعا بدرجة كافية لمواجهة آثار إلغـاء القرصنة والعبودية. فلقد قدمت وديان شمال تونس محاصيل غنيـة وثريـة مـن الحبوب والفواكه بينما أنتجت مدينة تونس وباقى المدن الساحلية عدة سلع صناعية مثل الأقمشة، المنتجات الجلدية والمعدنية. ولكن تأزم الوضع السياسى وبالذات بعد الغزو الفرنسى للجزائر وإعادة السلطة العثمانية إلى طرابلس، وشعرت الحكومـة

التونسية أنها بين شقى الرحى وفى فخ بين مصدرين مختلفين للهجوم عليها، ولذلك اتجهت لبريطانيا طالبة الحماية. ولذلك وفى عام ١٨٣٧ بعد الاحتلال الفرنسى لمدينة قسنطينة وهى القلعة الجزائرية المجاورة للحدود التونسية فإن الحكومة البريطانية قد وعدت بتأييد الباى ليس فقط ضد فرنسا بل أيضا ضد السلطان العثمانى. وأدى هذا الدعم البريطانى إلى إلغاء أحمد بك للعبودية فى مجموعة من القرارات التى أصدرها بين ١٨٤١ و١٨٤٦. وكان لحكومة الباى السلطة الكافية لتطبيق تلك القوانين فى البلاد كلها.

وأصدرت قرارات دستورية فى ١٨٥٧ و١٨٦١ بناء على اقتراح من القناصل الفرنسيين والبريطانيين من أجل ترضية طموحات الطبقة التونسية الوسطى الثرية والمثقفة بالإضافة إلى الجاليتين المؤثرتين الفرنسية والإيطالية. وضع الدستور المساواة لكل الناس أمام القانون وضمن جزية التجارة. وأنشأ أيضا مجالس معينة لتقديم النصح والمشورة للباى. ولكن كان الواقع مخالفا، إذ لم يستفد الناس العاديون كثيرا من ذلك الدستور الذى أعطى السلطة السياسية للأثرياء القليلين. وتجاهلت الحكومة الدستور كثيرا وسرعان ما طواه النسيان. ولكن ظلت ذكراه باقية بعد ذلك عند ظهور الأحزاب السياسية القومية فى تونس خلال القرن العشرين حينما اتخذت اسم "الدستور".

ولكن تضاءل النفوذ البريطانى فى تونس كثيرا خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر مقارنة بالنفوذ الفرنسى الذى قرر أنه لا يقبل أن تحتل أى بلاد أوروبية أخرى وضعا مميزا وقويا على الحدود الجزائرية. وبعد نزاع دبلوماسى وتجارى طويل مع إيطاليا التى كانت قد توحدت فى سبعينيات القرن التاسع عشر وبدأت بالاهتمام بشمال أفريقيا قررت فرنسا اتخاذ إجراء قوى. ووجدت فرنسا الذريعة فى نزاع شب بين حكومة الباى وشركة تجارية فرنسية بالإضافة إلى غارات قبائل الهضاب التونسية داخل الحدود الجزائرية. واحتلت القوات الفرنسية بنزرت وتونس عام ١٨٨١، واضطر الباى إلى توقيع معاهدة تسمح لفرنسا

باحتلال تونس وأن تكون مسئولة عن ماليتها وشئونها الخارجية. ولكن استمر الباى وحكومته قائمين تحت الإشراف الفرنسي بعكس حالة داى الجزائر قبل ذلك بخمسين عاما.

وكان الاحتلال الفرنسي لتونس والاحتلال البريطاني لمصر الذى تم في العام التالى إحدى الخطوات الأولى فى عملية تقسيم أفريقيا بين القوى الأوروبية. وحدث ذلك نتيجة لاتفاق غير رسمي تم عام ١٨٧٧ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا بحيث تأخذ كل منها "قطعة من الكعكة العثمانية" بالتأييد الضمنى للآخرين. وكان نصيب بريطانيا هى قبرص التى تنازلت لها عنها الحكومة العثمانية تحت الضغط.

أما نصيب روسيا فكان ثلاث ولايات عثمانية سابقة في جبال القوقاز. وبالرغم من اتفاق بريطانيا وروسيا على اعتبار الاتفاق يتعلق فقط بمنطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط إلا أن الفرنسيين كانوا يدركون تأثيراته الأفريقية تماما. وباحتلالهم تونس لم يقوموا فقط بحماية الحدود الجزائرية بل أنشأوا شمال أفريقيا الفرنسي والذى سوف يتصل سريعا بمناطق الاحتلال الفرنسي في السنغال والنيجر.

# الفصل الخامس

# غرب أفريقيا قبل عصر الاستعمار (١٨٠٠-١٨٧٥)

## جهاد الفولبى Fulbe

بالرغم من أن القرن التاسع عشر قد شهد تغيرات كبرى فى غرب أفريقيا جنوب الصحراء من الإلغاء التدريجى لتجارة العبيد عبر الأطلنطى وإحلال صور تجارية أخرى محله، إلا أن تلك التغيرات قد حدثت ببطء شديد ولم تؤثر إلا على منطقة صغيرة فى الإقليم كله لفترة طويلة. وبصفة عامة فإن النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد استمرارية للأنماط السائدة فى القرن الثامن عشر، مع إزدياد حجم تجارة العبيد، وتأثير العالم الإسلامى من الشمال على الأحداث الداخلية أكثر بكثير من الاتصالات البحرية مع أوروبا وأمريكا. وفى بداية القرن كانت أهم الأحداث فى المنطقة هى الحروب المقدسة أو الجهاد الذى قام به شعب الفولبى المنتشر فوق حزام السافانا من نهر السنغال إلى هضاب الكاميرون. ولم يكن للتدخل الأوروبى المباشر أى دور فى تلك الأحداث التى أثرت، مع ذلك، على كل السودان الغربى والأوسط.

وكما ذكرنا فى الفصل الأول فإن أصول الجهاد تعود إلى إحياء الإسلام فى غرب السودان والذى نشره المغاربة المتحدثون بالعربية القادمون من موريتانيا عبر الصحراء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ولم يكن ذلك مجرد إجراء وقتى، بل كان دفعة فى اتجاه الإصلاح الدينى الذى جدد نفسه فى كل جيل. وكان زعماء حركات الإحياء المذكورة يتركون حمى وطيس الحياة العامة والسياسة والتجارة ويذهبون للعيش فى أماكن نائية. ويمرنون جماعات قليلة من

التلاميذ المخلصين فى دراسة القرآن الكريم والتقاليد القانونية والفقهيـة الإسـلامية بالإضافة إلى أساليبهم الخاصة فى الصلاة والتقوى. وتنظيم التلاميـذ فـى طـرق صوفية تسمى باسم مؤسسها (مثلا سميت التيجانية باسم أحمد تيجانى الذى عـاش فى جنوب الجزائر فى نهاية القرن الثامن عشر). وقامت حركات الجهاد فى القرن الثامن عشر فى فوتا تورو وفوتا جالون عن طريق معلمين من فولبى، والذين كان معظمهم من طرق صوفية قديمة تسمى القادرية. وكان عثمـان دان فوديـو قائـد الجهاد فى شمال نيجيريا والنيجر فى القرن التاسع عشر عضوا فى تلك الطرق.

ولد عثمان دان فوديو فى عشيرة التورودبى Torodbe عام ١٧٥٤ فى جبير Gobir أكثر دول الهاوسا شمالا. ودرس على أيدى أستاذ شـهير فـى أغـاديس Agades عاصمة دولة الطوارق Tuarg فى إير Air فى الصحراء شمال موطنه. واتصل هناك بالأفكار الإصلاحية المنتشرة آنذاك فى العـالم الإسـلامى. وكانـت جزءا من رد فعل الإسلام بصفة عامة لتقدم الغرب المسيحى. وبدأ فـى الجزيـرة العربية بالحركة الوهابية فى القرن الثامن عشر، وأدى إلى إصلاح الطرق القديمة مثل القادرية وإنشاء طرق جديدة أيضا. وتعتبر التيجانية إحداها وأقواها بالذات فى السودان الغربى بالإضافة إلى الحركة السنوسية فى برقـة والصـحراء الشـرقية. ولكن لم يوجد تهديد أوروبى هناك لمواجهته فى غرب أفريقيا آنذاك. ولكن يبدو أنه بالإضافة إلى رغبة إصلاح الإسلام فى السودان أن الزعماء الدينيين قـد شـعروا أيضا بتهديد التوسع الأوروبى المسيحى للعالم الإسـلامى بصـفة عامـة. وقابـل المستكشفون الأوروبيون الأوائل فى منطقة الصحراء مثلا المعلمـين الإسـلاميين الذين سألوهم لماذا قام البريطانيون بغزو الهند (التى يوجد لديها أعداد كبيـرة مـن المسلمين بين سكانها).

وكان ذلك خلفية فوديو حينما عاد من أجادس Agades ليصبح مربيا لابـن ووريث زعيم الهاوسا ساركى (حاكم) فى جبير. واكتسب أيضا بتلك الصفة نفـوذا هائلا فى مجالس الدولة، واستخدمها لنشر دعوته للإصلاح الـدينى. وفـى عـام

١٨٠٢ أصبح تلميذ فوديو، وهو يونفا، حاكما عند وفاة والده. ولكنه كان خيبة أمل كبيرة لأستاذه السابق الذى انسحب من البلاط إلى قريته الأصلية، وحيث سرعان ما انضم إليه أعضاء من الحزب الإصلاحى. وازدادت أعدادهم لدرجة أن يونفا قد هدده باتخاذ إجراء عسكرى ضده. وأشار دان فوديو إلى هجرة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - من مكة ثم انسحب إلى منطقة جودو البعيدة (٢١فبراير ١٨٠٤). والتف مؤيدوه حوله هناك بأعداد هائلة لدرجة أنه وجد نفسه على رأس جيش عظيم من المجاهدين المزودين بالحماس الدينى والراغبين فى الجهاد. وأعلن دان فوديو أميرا للمؤمنين (بلغة الهاوسا ساركين مسلمين) وهو اللقب التقليدى للخلفاء. (وكان الخلفاء حكام الإمبراطورية العربية فى الأيام الأولى المجيدة لعصور الإسلام الأولى) وبعد انتخابه أميرا للمؤمنين أقسم فوديو بعدم اهتمامه بالشئون الدنيوية وقال:

"وإذا ما حاربت تلك المعركة لكى أكون أقوى من رفيقى، أو لكى يصبح ابنى أعظم من ابنه، أو أن يفوق عبدى عبده منزلة فليقض علينا الكفار فى بلادنا".

وبعد إعلانه للجهاد أقبل الرجال الغاضبون من كل دول الهوسا لإعلان ولائهم لأمير المؤمنين واستلام الراية الخضراء للمؤمنين. ووصف محمد التونسى (انظر الفصل الأول) الأهداف والنوايا السلفية لزعماء الجهاد، وكان ذلك فى واداى Wadia عام ١٨١٠، وسمع عن نجاح الحركة.

"ويتهم الفالاتا (ويقصد الفولبى Fulbe) باقى السودانيين كلهم بعدم التقوى والكفر، وذكروا أنه لا يمكن إعادتهم إلى الصراط المستقيم إلا بواسطة الحرب. ويؤكدون أن السودانيين الآخرين قد غيروا تعاليم الإسلام السمحة وأفسدوها. كما أنهم خالفوا الشريعة بقبول ديات مالية كتعويض من المجرمين. ويعتبر ذلك غير شرعى ويمنعه القرآن الكريم. ويؤكدون أن باقى السودانيين قد شوهوا ركائز العقيدة الإسلامية بإعلانهم شريعة البدع الجديدة وقبول عادات رديئة مثل الزنا

وشرب الخمر وحب الترفيه والتسلية والغناء والرقص، كما أنهم أهملوا الصلوات اليومية وامتنعوا عن تقديم الزكاة للفقراء والمحتاجين. وتستحق كل تلك الجرائم والتصرفات السيئة الانتقام والدعوة إلى الجهاد. وشكلت تلك الأفكار تفكير الفولا لأعوام طويلة إلى أن ظهر بينهم أحد الأفراد تميَّز بورعه وتقواه وطيبته وهو الزكى Zaki (أى الأسد بلغة الهاوسا) الذى أصبح مصلحا وأعلن الجهاد".(١٩)

ولكن لم يتميز كل المجاهدين أبدا بذلك الحماس الدينى الطاهر. أما الزعماء فلقد أتوا من السكان المسلمين المثقفين من سكان المدن الفولبين، (بلغة الهاوسا: فولانين جيددا) والذين احتقروا كما يقول التونسى عائلات الهاوسا الحاكمة القديمة المعروفة جميعا بالهابى لسلوكهم المنحرف الشبيه بالوثنية. وأيدهم العديد من سكان مدن الهاوسا الذين تعاملوا مع الحركة كفرصة للخلاص من حكام الهابى وأن يتحاربوا فيما بينهم. ولكن أيد كل الفولبى الرعاة (بلغة الهاوسا باروفى) فى الريف الجهاد. وكان معظمهم وثنيين ولكنهم شعروا بالقرابة العرقية مع سكان المدن من الفولبى، بل كانوا من العشائر ذاتها. وكان الغرض الرئيسى لمعظم التورودوب نهب ثروات مدن الهاوسا.

وعمت الثورة بلاد الهاوسا كلها، وانضمت المدينتان الكبيرتان كاتسينا وكانو إلى مجاهدى دان فوديو عام ١٨٠٧ وكانو عام ١٨٠٩. وحل أمراء الفولبى محل أسر الهابى الحاكمة وعين دان فوديو معظمهم فى ١٨٠٤ و١٨٠٥. أما فى شرق بلاد الهاوسا فإن أداماوا والتى توغل بها الفولبى الرعويون منذ فترة طويلة قد أصبحت جزءا من الإمبراطورية الجديدة بعد صراع استمر حوالى ثلاثين عامًا. وأدت الممارسات السياسية للدعاة الدينيين الفولبى إلى تمهيد توغل المجاهدين فى نوبى Nupe وبلاد اليوروبا Yoroba. واحتلوا الولايات الشمالية لإمبراطورية الأويو Oyo القديمة مثل إمارة اللورين التى أصبحت قاعدة لانتشار الإسلام بين

---

(١٩) Voyage au Oudday tr.Dr Perron (Paris 1851) p.163.

اليوروبا. أما فى الشمال الشرقى فإن الجهاد قد توقف فقط فى بورنو، حيث استطاع محمد الكانيمى، وهو محارب ورجل دين من شرق بحيرة تشاد، طرد الغزاة. وتولى الكانيمى إدارة شئون بورنو، ولكن سمح لماى الأسرة الحاكمة القديمة بالاحتفاظ بمراسيم بلاطه بالرغم من حرمانه من كل سلطة حقيقية ونزعها منه. وذكر الرحالة الأسكتلندى كلابرتون الذى زار بورنو عام ١٨٢١ حول وضع الماى.

"أصبحت سلطنة بورنو مجرد اسم. ولكن ما زال البلاط رائعا ويحتفظ بدقة بكل تقاليد الأبهة السابقة، ولكن يعتبر ذلك الامتياز الوحيد لهم. وحينما يستقبل السلطان الأجانب فإنه يجلس فى نوع من الأقفاص المصنوع من البامبو وينظر إلى زائريه عبر قضبانه.ولا يسمح لهم بالاقتراب أكثر من سبعين أو ثمانين ياردة من شخصه".(٢٠)

وبعد انتهاء فترة الفتح عاد عثمان دان فوديو إلى كتبه لكونه عالما أكثر منه حاكمًا. وقُسمت إمبراطوريته إلى قسمين؛ إذ حكم ابنه محمد بللو الجزء الشرقى من مدينته سوكوتو Sokoto التى أنشئت حديثا، كما حكم شقيقه عبدالله القسم الغربى من جواندو Gwando. وبعد وفاة عثمان عام ١٨١٧ اعترف عبدالله بيللو سلطانا لسوكوتو، وحكم هناك إلى وفاته عام ١٨٣٧. وفى ذلك العصر كان الحماس الدينى لحركة الفولبى قد زال معظمه. وتحول الفولبى من مصلحين دينيين إلى طبقة حاكمة. ولكن بالرغم أن منطقة هائلة قد كانت تدين نظريا بالولاء لأسرة مركزية فإن إمبراطورية سوكوتو لم تعد عمليا إلا اتحادا حقيقيا لجماعات حكم مشابهة والتى ظهرت بناء على طلب عثمان للانضمام إلى الجهاد. ولم توجد بيروقراطية مركزية ولا جيش مركزى. ولم تتمكن إمارات الفولبى من تنظيم دفاع جماعى ضد

(٢٠) Denham and Clarpentan and oudney Narrative of Travels and Discoveries in Northerm and central Africa (London 1826)

ترجم عبد الله عبد الرازق إبراهيم هذا الكتاب إلى العربية وصدر فى مجلدين فى المجلس الأعلى للثقافة تحت رقم ٤٢٢، ٤٧١

الهجوم الخارجي أكثر من دول الهابى Habe التى خلفتها. ولكن انتشـــر الإســـلام لأول مرة خارج المدن إلى الأقاليم الريفية. وكان حكمهم بصفة عامة أكثر تقــدما وفاعلية من أسلافهم الهابى، كما لم تتنه أهميتهم على الإطلاق حينما بدأت بريطانيا وفرنسا فى فرض سيطرتهما.

## الجهاد فى السودان الغربى

وكان لانتصارات الفولبى فى بلاد الهاوسا آثار مهمة فى الغرب. فلقد قــاد حمادو بارى Hamadu Bari (المعروف أيضا بأحمدو لوبو Lobbe) وهـــو أحـــد الأتباع الأوائل لعثمان جيشا فى اتجاه الغرب عبر منحنى نهر النيجر عـــام ١٨١٠ وطرد حكام البامبارا Bambara من موطنه وهى دولة الفولبى فى ماسينا.

وتم التمهيد لحركة الإصلاح هنا مثل فوتا تورو وفوتـــا جـــالون بـــدعوات الجهاد في القرن السابق. ولذلك عاشت تلك المنطقة كلها آنذاك فترة إحيـــاء نظـــرا لإنشاء حركة الصوفية التيجانية القوية الجديدة. وتوجه أحد رجال الدين الشباب عام ١٨٢٦ واسمه الحاج عمر للحج من فوتا تورو إلى مكة المكرمة. وانضم هناك إلى الحركة التيجانية، ثم عاد على مهل إلى بلاده عبر بورنو التى كانت آنـــذاك تحـــت حكم الكانيمى، ثم سوكوتو تحت حكم محمد بللو (و تزوج شقيقة هذا الأميـــر) ثـــم ماسينا تحت حكم حمادو بارى. وعرف آنذاك بالحاج عمر، واستقر فى فوتا جالون واستعد لأعنف حركة جهاد عرفت حتى ذلك الوقت. وجهز قواته بالأسلحة النارية التى حصل عليها من الأوروبيين على الساحل. ثم أرسل قواته عـــام ١٨٥٠ ضـــد ممالك البامبارا فى سيجو Segu وكاأرتا Kaarta ثم ماسينا. وكان يمكنـــه أيضـــا الاستيلاء على فوتا تورو أيضا لولا مواجهة الفرنسيين له. ولكنه اســـتولى علـــى تمبكتو عام ١٨٦٣ وامتدت إمبراطوريته وعاصمتها حمد الله Hamdullahi بالقرب من سيجو عاصمة البامبارا القديمة عبر المنطقة كلها من منحنى نهر النيجر إلـــى السنغال.

ولكن لم تستمر إمبراطورية الحاج عمر طويلا مثل إمبراطورية عثمان دان فوديو. فلقد استشهد عام ١٨٦٤، واستلزم الأمر حوالى عشرة أعوام لابنــه أحمـد وشيخو لاستعادة سيطرته على كل ممتلكات أبيه. ولكن استمر حكمه فقط إلى عـام ١٨٨٤. ولكن يدين استمرار الإسلام بنشاط تحت الحكم الاستعماري الفرنسي فـي معظم جهات تلك المنطقة التي تعيش بها الشعوب الناطقة بلغة الماندى إلـى تلـك الحركات التجديدية القوية التي قام بها الحاج عمر بقوة السلاح في ذلك الإقليم كله.

## دول الغابات والعالم الخارجي

بعكس الوضع في المنطقة السودانية فإن التغيرات فى بلاد الأخشاب وحزام الغابات فى غرب أفريقيا قد تمت ببطء وبطريقة متقطعة خلال الستين عاما الأولى من القرن التاسع عشر. ولكن الحقيقي أيضا أن وضع الأمم التجارية الكبيرة تجـاه غرب أفريقيا قد تغير تماما خلال الأعوام الأخيرة فى القرن الثامن عشر والأعوام الأولى من القرن التاسع عشر. وألغت الدانمرك تجارة العبيد بالنسبة لمواطنيها عام ١٨٠٥، وبريطانيا فى ١٨٠٧، وهولندا فى ١٨١٤، وفرنسـا فـى ١٨١٨. وفـى عامى ١٨١٥ و١٨١٧ فإن أسبانيا والبرتغال قد حظرتا وجود تجار العبيد التـابعين لهما إلا فى البحار جنوب خط الاستواء (وفيما يتعلق بالبرتغال فـإن ذلـك يعنـى تجارة العبيد بين أنجولا والبرازيل). ودعمت بريطانيا سياستها المعادية للعبوديـة لدرجة إرسال دورية بحرية فى مياه غرب أفريقيا وإعلان تحول المستوطنات التى لا يوجد بها عبيد فى شبه جزيرة سيراليون إلى مستعمرة تابعة للتاج عام ١٨٠٥.

ولذلك إذا رغبت تلك الدول فى الاستمرار بتجارتها فى غرب أفريقيـا فقـد وجب عليها البحث عن أسس جديدة لتجارتها. وكان البحـث عـن التجـارة أحـد الأسباب الرئيسية لقيام العديد من المستكشفين الأوروبيـين بـالحملات الخطيـرة والشاقة فى غرب أفريقيا خلال النصف الأول من القرن التاسـع عشـر. وكانـت

الأولى هى رحلات مونجو بارك فى النيجر الأعلى فى ١٧٩٥ و١٨٠٥. كما كانت أكبرها رحلة الألمانى هنرى بارث H. Barth بين أعوام ١٨٥٠ و١٨٥٦ وكتب بعدها وصفا رائعا لمنطقة وسط وغرب السودان. ونذكر هنا مثالا لدقة وصفه واهتمامه بالتفاصيل فى بعض ما كتبه عن منطقة تاساوا Tasawa وهى إقليم شمال بلاد الهاوسا (غير بعيدة عن جبير حاضرة عثمان دان فوديو) والتى وصل إليها بواسطة الطريق الصحراوى من أغاديس.

"وكانت تاساوا أول المنطقة الكبيرة فى بلاد الزنوج الخالصة التى شاهدتها وأعجبت بها كثيرا، إذ يدل كل شىء بها عن أسلوب الحياة الراقى والمريح الذى يحياه سكانها. ويحيط بالساحة سياج من الأغصان الطويلة بحيث لا يستطيع الناظر من الخارج رؤية شىء وتحجب الأنظار. ويوجد بجوار المدخل مكان جيد التهوية وبه ظلال حيث تتم الأعمال العادية واستقبال الأغراب... وتغطى الأشجار الزاهرة كل المنطقة السكنية، وتدب بها الحياة لوجود جماعات من الأطفال والماعز والطيور والحمام وجواد أو ثور تحميل. ويتلاءم طابع السكان تماما مع طابع منازلهم، إذ يميزون دائما بالطابع المرح السعيد، وينعمون بالحياة، وبحب النساء والرقص والغناء ولكن بدون التمادى والتجاوز السيئ. ولا يعتبر شرب المشروبات المخمرة معصية، حيث إن معظم السكان وثنيون. ولكن من النادر مشاهدة أحد السكارى. ويتمتع غير المسلمين بتناول مشروب الجعة المصنوع من الشعير المخمر، ويتم تناوله بالقدر الكافى الذى يمكنهم من التمتع بالحياة بسرور".[٢١]

وتتشابه تلك الأحوال تماما مع تلك التى اشتكى منها المصلحون الفولبى قبل ذلك بخمسين عاما ولكن بدون نجاح يذكر.

وبدأت آنذاك حركة التبشير المسيحى فى أفريقيا بالإضافة إلى بحث الأوروبيين عن الطرق التجارية وعن أعراف أخرى تصلح للتجارة الجديدة

---

(٢١) travels in Africa edm. London 1965 vol.1. pp.439-40.

القانونية. وشعر بعض المسيحيين الأتقياء فى أوروبا واهتموا اهتماما بالغا بأحوال الشعوب الأفريقية ومنها التمتع بمزايا الديانة المسيحية وحصولهم على المهارات المهمة والمعرفة التى قدمتها الحضارة المسيحية لغرب أوروبا. فلم تصل الجهود التبشيرية الرومانية الكاثوليكية الأولى إلا فى منطقة أو منطقتين منعزلتين فى غرب أفريقيا. ولكن شهدت بداية القرن التاسع عشر استقرار كنيسة إنجلترا الإنجيلية المزدهرة والبعثات التبشيرية الأخرى من الكنيسة المثيودية فى سيراليون. ولعب الأفريقيون المسيحيون فيما بعد دورا مهما للغاية فى تاريخ جنوب غرب أفريقيا كله. ثم وصل المبشرون البروتستانت من بازل إلى ساحل الذهب فى عشرينات القرن التاسع عشر. وفى أربعينيات هذا العصر فإن كل الكنائس البروتستانتية الرئيسية قد وجدت فى ساحل الذهب وداهومى Dahomy وغرب وشرق نيجيريا. ثم وصلت بعد ذلك البعثات الرومانية الكاثوليكية فى أربعينيات وثمانينيات هذا القرن.

ولكن كانت أوجه النشاط الأوروبى الاستكشافية والدينية مجرد المراحل الأولى لظهور النفوذ الأوروبى. فلقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر – بعكس النصف الثانى – من وجهة نظر التاريخ الأفريقى استمرارا وتدعيما لأحوال القرن الثامن عشر بين شعوب مناطق الأعشاب والغابات فى غرب أفريقيا. ولكن، وبالرغم من الدوريات البحرية المستمرة للأسطول البريطانى والقوانين المعادية لتجارة العبيد فى البلاد الأوروبية، فإن تلك التجارة قد استمرت، بل ازدادت حدة. وقدرت معظم السلطات المسئولة عدد العبيد المصدرين من كل غرب أفريقيا بحوالى ١٠٠,٠٠٠ سنويا فى نهاية القرن الثامن عشر. ولكن بلغ هذا العدد فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر حوالى ١٣٥٠٠٠كل عام. واستمرت العبودية – بشكل منفصل عن تجارة العبيد – قانونية فى ولايات الجنوب الأمريكى فى الولايات المتحدة إلى عام ١٨٦٣، ولذلك جلبت تلك التجارة أرباحا هائلة خلال تلك الفترة. واستمرت أيضا إلى البرازيل وكوبا وإن تناقصت أعدادها تدريجيا إلى ثمانينيات

القرن التاسع عشر حينما تخلى عنها التجار الأوروبيون والأمريكيون خوفا من العقوبات الرادعة آنذاك. ولكن تولاها بعد ذلك الزنوج البرازيليون (الأفرو برازيليون) وإن كانت أعمالهم من الصعب اكتشافها والقضاء عليها.

ولكن نخطئ تماما إذا ما اعتقدنا من تلك الأرقام أن كل دول منطقة الغابات الغينية قد رغبت فى استمرار تجارة العبيد. فلقد فقدت دولة الأشانتى مثلا اهتمامها بها بعد انتهاء فترة توسعها وبيعها لأسرى الحرب كعبيد مما أدى إلى حجب تصدير تراب الذهب والعاج مؤقتا. ولكنها اهتمت فى القرن التاسع عشر بالاحتفاظ بأملاكها الكبيرة أساسا. وكانت القوة العسكرية الكبيرة لدولة الأشانتى ذات تمويل ذاتى أساسا من عملية تبادل منتظمة لتراب الذهب مقابل أسلحة نارية مع الهولنديين فى إلمينا Elmina. وأدى ذلك الأمر إلى استنفار البريطانيين وحلفائهم الفانتى Fante فى المنطقة الوسطى لساحل العاج وبقائهم فى حالة تأهب دائم. وكانت تلك الحصون باهظة التكاليف، ولا يمكنها الاستمرار إلا بفرض رسوم جمركية على التجارة القانونية. ولكن تعرضت الطرق التجارية دائما للإغلاق نظرا للعمليات العسكرية للأشانتى ضد الدول التابعة لها فى الداخل. وتخلى الفانتى حتى عن الإنتاج الزراعى للتصدير نظرا لتهديد غزو الأشانتى الدائم. أما منطقة الحكم البريطانى المباشر فقد اقتصرت فقط على منطقة الحصون الساحلية، وحكمها فى معظم الوقت إلى عام ١٨٤٢ مجلس غير رسمى للتجار وحاكم من وزارة المستعمرات، وكان مقتصرا حتى ١٨٧٤ على القلاع الساحلية وكان مهتما بمقاومة الأشانتى، أما النفوذ غير الرسمى الذى مارسه البريطانيون على الدول الساحلية فقد اقتصر أساسا أيضا على مقاومة ضغط الأشانتى. وإذا كانت دولة الأشانتى العسكرية، والتى تمارس جزئيا تجارة العبيد، قد استمرت فى السيطرة على شئون ساحل الذهب، فإن الوضع فى ساحل العبيد شرقا قد كان مماثلا لما كان عليه الحال فى القرن الثامن عشر. ويلاحظ المسافر المعاصر فى الجو أن الساحل هنا عبارة عن شاطئ ضيق تتلاطم عليه الأمواج بينما يوجد خلفه نظام كثيف من البرك

المتصلة ببعضها البعض وتقدم منفذا آمنا للقوارب للوصول إلى كل أنحاء توجو Togo وداهومى (بنين) وغرب أفريقيا. ووصف ريتشارد لاندر Richard Lander أساليب تجار العبيد فى ثلاثينات القرن التاسع عشر على امتداد هذا الساحل كما يلى:

"فور وصول سفينة إلى شواطئها يقوم الطاقم بإفراغ حمولتها الخفيفة ومع مقابض الأيدى المخصصة للعبيد، وينزل القبطان فى الوقت نفسه. ثم تبحر السفينة عبر الساحل لتأخذ بعض الأقمشة المحلية والعاج وبعض تراب الذهب إلخ.... وإذا ما اقتربت منها سفينة حربية بريطانية فإن الطاقم لا يخشى شيئا لعدم وجود بضاعة ممنوعة لديه، ويقبل تفتيش السفينة أثناء تجارتهم مع السكان المحليين. ثم تعود السفينة إلى مكان إنزال حمولتهم الأصلية ويلتقى الطاقم بقبطانه على الساحل ويخبرهم آنذاك بموعد إبحارهم النهائى الدقيق. وتبحر السفينة ثانية هنا وهناك يمين ويسار الساحل إلى أن يأتى الميعاد المقرر وتعود لأخذ حمولتها من العبيد"(٢٢)

وكانت داهومى آنذاك تماما مثل أشانتى قد وصلت إلى أوج توسعها برا. وبعكس الأشانتى لم يكن لها مصدر للتصدير تحصل بواسطته على احتياجاتها من الأسلحة النارية اللازمة لاستمرار تفوقها العسكرى. ولذلك استمر الطلب على العبيد، فلقد مارس ملوك داهومى تلك التجارة رغم كرههم لها.

ولكن لم يأت معظم عبيد ساحل العبيد فى القرن التاسع عشر على الأقل من داهومى. فلقد أحضروا من أرض اليوروبا Yoroba، وتم تصديرهم من موانئ بورتو نوفو Porto Novo وبادجرى ولاجوس Lagos. وكانت كلها شرق واداى Whydoh داخل إطار نظام البرك. وبالرغم من وجود حصن أفرو برازيلى قوى فى لاجوس فإن السبب الرئيسى لذلك كان تدهور وتفتت إمبراطورية الأويو القديمة نتيجة لضغوط من الشمال والجنوب. فمن جهة نمت القوة العسكرية لدول اليوروبا

---

(٢٢) Records of Captain Clapperton to Africa (London 1830), vol.2p.238.

الجنوبية: إجبا Egba وإيجيبو Egebo وأوندو بطريقة متزايـدة نظـرا لاتصـالها بتجارة الساحل المزدهرة. ومن جهة أخرى فإن إيللورين وباقى المناطق الشـمالية للإمبراطورية قد غزاها الفولبى تماما مثل دول الهاوسا، ودخلت آنذاك فى حروب الجهاد. وحدثت بداية النهاية عام ١٨١٧ حينما أرسل زعماء الأويو الكبار وبقيـادة أفونجا Afonoga فى اللورين، صندوقا خاويا إلى الألفين (الملـك) أوولـى Aole ويعنى ذلك عدم الاعتراف بسلطته. وقبل أوولى تلك الإهانة بالطريقة التقليدية وهى الانتحار، ولكن بعد أن ألقى لعنته الشهيرة. فلقد أطلق من ساحة قصره ثلاثة سهام: واحدة إلى الشمال وواحدة إلى الجنوب وواحدة إلى الغرب قائلا:

"فلتنزل عليكم لعنتى لعدم إخلاصكم وطاعتكم. فليخلف أبناؤكم أوامركم، وإذا أرسلتموهم فى مهمة فلا يعودوا منها أبدا ولا تعلموا عنهم شيئا. فلتذهبوا كعبيد فى كل المواقع التى أرسلت إليها سهامى. وسوف تتقلكم لعنتى إلى البحر بل إلى وراء البحار. وسوف يحكمكم العبيد وأنتم – ساداتهم – سوف تكونون عبيدا لهم. ثم حطم طبقا من الطين قائلا إن الصندوق المحطم يمكن إصلاحه أما طبـق الطـين فـلا، ولذلك فليكن كلامى لا رجعة فيه".(٢٣)

وكان تأثير تلك اللعنة فوريا، فسرعان ما هجرت منطقة الأويو. أما الباقون فى تلك المنطقة فلقد أصبحوا أتباعا لإمارة إيللورين الإسلامية. ولكن هاجر معظـم الشعب وأنشأ بعضه مدينة الأويو الجديدة على مسافة ٩٠ ميلا (١٥٠كـم) جنـوب حافة الغابات بينما استقر آخرون فى أبادان Abadan التى نمت وازدهرت لتكـون أكبر مدينة لليوروبا فى منطقة حزام الغابات. وأصبحت دول وولايات إمبراطورية الأويو مستقلة عن السلطة المركزية، وسرعان ما نشب القتال والحروب فيما بينها لتوسيع الحدود والسيطرة علـى الطـرق التجاريـة. وكـان الأجبـا Egba أهـم المنتصرين فى تلك الحروب، وأنشأوا عاصمة جديدة فى أبيكيوتا Abeokuta عـام

---

(٢٣) Smuel. Johmoton, History of the Yorubas (London1921) .p192.

١٨٣٠، وسيطروا على الطرق المؤدية إلى بورتو نوفو وبادجارى وأيضا الأيجيبو الذين سيطرت أراضيهم على الطريق الرئيسي من أبادان إلى لاجوس. وأدت تلك الحروب الأهلية الدامية بين اليوروبا إلى وجود أعداد كبيرة من الأسرى الذين بيعوا كعبيد. ولذلك أصبحت لاجوس وبادجارى فى أربعينيات القرن التاسع عشر أهم موانئ تصدير العبيد فى غرب أفريقيا.

وكانت حروب اليوروبا مأساة. لأن معظم بلاد اليوروبا تقع فى داخل منطقة حزام الغابات حيث تنمو أشجار زيت النخيل بطريقة طبيعية، وحيث يوجد بالتالى بديل تجارى يسهل تسويقه بدلا من تجارة العبيد. ولذلك لم يتم استغلال موارد أشجار النخيل نظرا لتلك الحروب. ولذلك فإنه من عجائب تاريخ غرب أفريقيا أن المنطقة حيث يمكن بها التحول إلى تجارة شرعية قد حدثت فى المنطقة التى ازدهرت بها تجارة العبيد كثيرا فى الماضى. وتعتبر تلك المنطقة شرق دلتا نهر النيجر تقريبا والتى أرسلت ٢٠,٠٠٠ عبد سنويا عند نهاية القرن الثامن عشر. واعتاد قرويو الإيجب والإجرى هنا أخذ قواربهم الحربية الكبيرة إلى الأنهار للتوجه إلى أسواق عبيد الأيجيبو. ولكنهم أبدوا آنذاك اهتماما مماثلا لحث الأيجيبو على نقل مجموعات جوز الهند الكبيرة عبر الأنهار لبيعها إلى الأوروبيين. وبدأت المنطقة تعرف كأنهار الزيت بحلول عشرينيات القرن التاسع عشر. وفهم التجار الأوروبيون أنهم يمكنهم استخدام السفن البخارية (و التى أصبحت متاحة فى العشرينيات من القرن التاسع عشر إلا أنها حلت محل السفن الشراعية فى أعالى البحار بعد ذلك التاريخ بكثير) والصعود بها فى الأنهار الكبيرة إلى داخل منطقة الغابات حيث تنمو أشجار زيت النخيل، ويمكنهم بالتالى الشراء بسعر أرخص وإلغاء دور الوسطاء على الساحل. وكان ذلك المعنى الحقيقى لاكتشاف مصب نهر النيجر بواسطة جون وريتشارد لاندر Lander عام ١٨٣٠ نتيجة لرحلة قاما بها أسفل النهر بالقارب من بوسا Busa إلى الدلتا. وبعد ذلك بأحد عشر عاما أقنع الأفراد المحبون للبشر والتجار الحكومة البريطانية بإرسال حملة طموحة للتوغل

فى الداخل باستخدام الطريق المائى. ولكن كان الساحل الغربى غير صحى بالمرة للأوروبيين لدرجة شهرته أنه "مقبرة الرجل الأبيض". واستمر خطر بعوضة الملاريا خمسة عشر عاما أخرى إلى بدء استخدام عقار كوينونين Quinine الذى ساعد الأوروبيين على التغلب على تلك الحمى القاتلة. ولذلك كانت رحلة النيجر فى ١٨٤١-١٨٤٢ فاشلة تماما، إذ توفى سدس أعضائها الأوروبيين خلال شهرين. وتأخرت الملاحة التجارية فى نهر النيجر إلى ستينيات القرن التاسع عشر.

## بدايات التدخل الأوروبى

ولذلك فإن السمات الرئيسية لمجتمعات الجزء الجنوبى الذى به غابات فى غرب أفريقيا قد تغير قليلا للغاية فيما عدا إقليم أنهار الزيت وذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وحدث ذلك بالرغم من الإلغاء الرسمى لتجارة العبيد بواسطة الدول الأوروبية بالرغم من البحرية البريطانية والممتلكات الصغيرة والمتفرقة للفرنسيين والبريطانيين والدانمركيين والهولنديين، وبصفة عامة فإن تجارة العبيد كانت ما تزال مزدهرة، كما أن قوة الدول العسكرية الرئيسية، الأشانتى والداهومى كانت لا تزال تزداد. أما الزيادة الوحيدة فى القوة الأوروبية، حتى خلال الثلث الأول من القرن، قد كانت عبر الساحل نفسه. فهنا وعلى القطاع الشرقى لساحل الذهب اشترت بريطانيا الحصون الدانمركية عام ١٨٥٠ من أجل فرض رسوم جمركية على منطقة كافية من الساحل لسداد تكاليف احتلالها. أما فى عام ١٨٧٢ فإن الهولنديين قد وجدوا أن حصولهم على امتداد القطاع الغربى للساحل لم يعد مجديًا ومربحًا بالمرة ولذلك تنازلوا عنه للبريطانيين. أما العامل الآخر فقد كان التدخل البريطانى فى شئون لاجوس. فلقد أيد البريطانيون مطالب أكيتوى Akitoye فى لقب أولوجون (حاكم لاجوس الذى كان يعينه أوبا بنين Benin فى الماضى) وساعدوه على طرد ابن شقيقه ومنافسه كوسوكو Kosoko.

ووعدهم أكينوى مقابل ذلك بإلغاء تجارة العبيد فى لاجوس، ولكنــه لــم يســتطع الاحتفاظ بسلطته على المدينة القائمة على الجزيرة بدون دعم بريطـــانى مســـتمر. وفى عام ١٨٦١ حينما هددت داهومى بالهجوم علـــى أبيوكوتـــا Abeokyta فـــإن بريطانيا قد تخلصت من النزاع بين أكيتـــوى وكوســـوكو بـــأن ضـــموا لاجـــوس كمستعمرة. ولذلك أدت الأمور منذ ذلك الوقت إلى تدخل آخر، فمـــن جهـــة تمـــت الحملة التأديبية ضد الأشانتى عام ١٨٧٣ وتحويل الدول الساحلية إلـــى مســـتعمرة ساحل الذهب عام ١٨٧٤، ومن جهة أخرى أدى التوسع التدريجى للاجوس عبـــر الساحل إلى الشرق والغرب إلى زيادة تدخل القناصل البريطانيين فى شـــئون دول أنهار الزيت.

وبدأت رحلة جديدة من التدخل الفرنسى النشط فى المستعمرة الفرنسية فـــى السنغال بتعيين لويس فيدهرب Fedherbe عام ١٨٥٤. ومنذ عودة الفرنسيين إليها عام ١٨١٧ (فلقد ظلت فى أيدى البريطانيين أثناء عصر الحروب النابوليونية)، فإن المستعمرة لم تزد عن أكثر من دائرة فى القرى الزراعية حول ميناء سانت لـــويس St.Louis. وكانت التجارة النشطة الوحيدة هى الصمغ العربى مع القبائل العربيـــة المقيمة فى الصحراء شمال النهر. ورغب الفرنسيون كثيرا فى تطوير تجارتهم مع الداخل، ولكن منعتهم دولة الفولبى القوية لفوتا تورو الموجودة أعلـــى النهـــر فـــى الجانب الجنوبى. واقتنعوا تماما أن نهر السنغال سوف يثبت أنه الطريق التجـــارى الرئيسى للتجارة لمنطقة السودان الغربى كلها، ولذلك وجد لدى الفرنســـيين حـــافز أكبر من البريطانيين لغزو الداخل من إحدى قواعدهم الساحلية. ولذلك كانت سياسة فيدهرب المعلنة هى غزو وادى السنغال الأدنى، وأتم ذلك فى عشرة أعوام، وشجع الزراعات الاقتصادية مثل جوز الهند فى الأراضى المفتوحة، وأنشأ أيضا المدارس بالإضافة إلى الوحدات الإدارية فى كل منطقة تم غزوها.

ولذلك فإن أى نوع من التدخل الأوروبى كان سيؤدى إلـــى تـــدخل أكبـــر. ويعتبر توسع المستعمرات البريطانية حول لاجوس وساحل الـــذهب فـــى غـــرب

أفريقيا مثالا على ذلك. كما كانت سياسة فيدهرب من الغزو العسكرى البرى مثالا آخر. ولكن كان من الأصعب إيقاف الغزو الداخلى تماما مثل توسع الممتلكات البريطانية على الساحل. وكلما توغل الفرنسيون فى الداخل ازدادت نزاعاتهم مع الدول الإسلامية فى غرب السودان. ودخل فيدهرب فى صراعات مع قوات الحاج عمر بحلول عام ١٨٥٧. واستطاع القائد المسلم للجهاد إيقاف توغل الفرنسيين جنوب شرق السنغال مؤقتا، ولكنه لم يستطع إيقافه فى جنوب النهر. وكان استيلاء الفرنسيين على فوتا تورو ضربة قاصمة لهيبة الحاج عمر، فلقد كان معظم مجاهديه مهاجرون فى فوتا تورو التى كانت دولة جهاد الفولبى الأصلية. ولا يمكن أن ينتهى هذا الوضع إلا بهزيمة الفرنسيين وانسحابهم إلى سانت لويس أو بهزيمة المسلمين وتقدم الفرنسيين إلى تمبكتو وما بعدها.

ولذلك اتجهت الأحداث فى غرب أفريقيا فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر إلى زيادة تدخل بريطانيا وفرنسا. ولكن لم يوجد بعد عام ١٨٧٥ ما يوحى بسرعة تطور الأحداث التالية فى الخمسة وعشرين عاما التالية. ولكن إذا لم تدفع الدول الأوروبية الأخرى بريطانيا وفرنسا للتهافت على تقسيم القارة، فإن تدخلهم كان سيتم بالتأكيد بمعدل أسرع بكثير مما حدث. ولكن أثبتت القوات العسكرية التى دربت وسلمت بواسطة جنود محترفين من أوروبا ودخلت فى حروب ضد الجنود الأفريقيين للدول الأفريقية قبل عام ١٨٧٥ تفوقها فى استخدام الأسلحة والنظام العسكرى والتكتيكات وعلى قوات أكثر منها عددا بكثير. ولذلك، وفى غرب أفريقيا على الأقل، فإن النمط العريض للتقسيم التالى كانت قد وضعت أركانه فعلا قبل ذلك، ولا يمكن أن يؤدى ذلك إلا إلى زيادة مساحة الأراضى تحت الاحتلال الاستعمارى.

# الفصل السادس

## غرب وسط أفريقيا (١٨٠٠-١٨٨٠)

تضم المنطقة التى نسميها "غرب وسط أفريقيا " منطقة غابة الكونغو وبلاد الأشجار الخفيفة الواقعة خلفها تماما. وتشمل اليوم المساحة التى تشغلها كل من أنجولا وزائير وجابون وجمهورية الكونغو الشعبية وجمهورية أفريقيا الوسطى. وتشمل أيضا منطقة اللوبا-لواندا، وممالك الكونغو الأسفل فى لغة المصطلحات الأفريقية القديمة مستعمرة جديدة. وتأثرت تلك المنطقة بالبرتغاليين أساسا ولكن وجد غيرهم أيضا. ووصلت أقصى حدود مستعمرة أنجولا خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر شمالا إلى نهر لوجى Logi. ولذلك وجدت منطقة تجارية واسعة لا يسودها أحد من تلك المدينة فى الشمال تمتد من لوجى إلى جبال الكاميرون وشمال ضفتى مصب نهر الكونغو. وانتشرت الوكالات التجارية الإنجليزية والهولندية والأمريكية والفرنسية والأسبانية على الساحل. كما وجد خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر تأثير خارجى أقوى وهم العرب السواحليون والنيامويزى القادمون من شرق أفريقيا. ولكن لم تتصل تلك المنطقة الواسعة كلها بموانيها الطبيعية على ساحل المحيط الأطلنطى إلا خلال العصر الاستعمارى.

### البومبيروش البرتغاليون والمواتا كازمى

وصل النفوذ البرتغالى خلال الفترة المبكرة من القرن إلى الداخل بواسطة

طريقين رئيسيين. ويبدأ الأول في لواندا Luanda والثاني من بنجسويلا. ويعتبر طريق لواندا هو الأقدم، إذ كان في بداية القرن التاسع عشر بوابة القارة كلها. ولكن لا يغادر التجار البرتغاليون لواندا إلا نادرا؛ إذ حاولت الحكومة البرتغالية دائما منعهم من ذلك. فلقد رأت أن العلاقات مع الشعوب الداخلية تتم بطريقة أسهل بكثير إذا ما تمت مع وكلائها الملقبين بالبومبيروش. وكان هؤلاء - كما ذكرنا سابقا في الفصل الثاني - أفريقيين أو مهجنين يعملون كوكلاء للمستعمرة.

ولذلك استخدمتهم الحكومة البرتغالية أو التجار الأفراد لقيادة القوافل إلى الداخل والإقامة بعد ذلك في أماكن الأسواق، وتسمى فيراس Ferras وهي أسواق مسلحة بها حاميات عسكرية. ويحضر إليها الناس المقيمون خارج الحدود البرتغالية لبيع منتجاتهم. ويقع أبعد سوق Feira برتغالي على مسافة ٢٧٥ ميلا (٥٠٠كم) شمالا من طريق لواندا عند كاسانجي.

وكانت تلك المدينة الأخيرة قد تم إنشاؤها في القرن السابع عشر كعاصمة لدولة تابعة سمي سكانها بالإيمبجالا وهم شعب نشأ من تفرق اللوبا- لواندا.

ولذلك نظم الإيبمجالا التجارة إلى مملكة المواتا يامفو، وكان الأفيرون قد أرسلوا أيضا قوافلهم الخاصة إلى مناطق داخلية أبعد، ووصلوا إلى عاصمة المواتا كزيمي على نهر لوابالا واتصل المواتا كازيمي في نهاية القرن الثامن عشر بالمحطة التجارية البرتغالية عند تيتي على نهر الزامبيزي، أما الحمالون العاملون في المرحلة الأخيرة من الطريق فمن شعب البيسا Bisa الجزء الشمالي الشرقي في زامبيا الحالية. وحاول البرتغاليون في نهاية القرن الثامن عشر ومرات عديدة خلال بداية القرن التاسع عشر استكشاف هذا الطريق.

ورغبوا أن يمدوا سلطتهم ونفوذهم من ساحل إلى آخر، ولذلك وصلت حملة بقيادة لاسيردا عام ١٧٩٨ إلى عاصمة الكازيمي قادمة من تيتي ولكنها اضطرت إلى الانسحاب والعودة. ولكن سار اثنان من اليومبيروش ويدعيان بدرو جواو

باتيستا وأمارو جوزى فى لواندا عام ١٨٠٦ ليقوما برحلة ذهاب وإياب فى تيتى ثم العودة سيرا من بلاط المواتا كازيمى بدون مشاكل تذكر سوى حجرها لمدة أربعة أعوام فى البلاط. وكتب باتيستا فى مذاكراته:

"يعتبر الكازيمى ملكا قويا فى مملكته ويحكم العديد من الناس، ولكنه أقل مكانة فى المواتا يامفو. ويتميز هذا الملك بالآراء الصارمة ولذلك يخشاه كل كبار الزعماء الذين يعتبرون ولاة فى مناطقهم... ويقوم بالحصول على العبيد والعاج حينما لا يوجد تجار يتاجرون فى مملكته، كما يتوجه مع سفرائه لمعاقبة الزعماء الذين يتعرضون للتجار القادمين إلى بلاطه فى تيتى. وتمتاز بلاد الكازيمى بتوافر المؤن والطعام على مدار العام مثل الدقيق والذرة والشعير والفول وقصب السكر والبطاطس والبطاطا والقرع والفول السودانى، بالإضافة إلى الأسماك الوفيرة فى نهرى لوابالا وموفا القريبين. كما يمتلك هذا الملك ثلاث مناطق تنتج الملح بالإضافة إلى مخزن الطعام والمؤن والثيران... ويرسلها ملك الكازيمى ويشترى بدلا منها من شعب الهويزا (ويقصد البيسا.) العبيد... كما يمتلك الملك أيضا برادات الشاى والأطباق والملاعق والأشواك الفضية والنقود الذهبية. كما يتميز أيضا بالسلوك والآداب المسيحية مثل خلع قبعته عند التحية".[٢٤]

ولاحظ البومبيروش أن الكازيمى التى كانت عاصمته فى وسط القارة تقريبا يصدر عبيده غربا عبر مملكته المواتا يامفو إلى لواندا بينما يرسل العاج شرقا إلى تيتى، وربما كان ذلك تفكيرا دقيقا بالنسبة لسوق العبيد والعاج فى تجارة المحيطين الأطلنطى والهندى فى ذلك العصر.

---

(٢٤) Lands of cazembe:Lacerd's Journey to cazembe..Also the Journey of the Pombeiros, tr R.F Burton (London 1873) P.231.

## الأوفيمبوندو والشوكوى

حدثت تغييرات كبرى عبر الطريق القديم العابر للقارة عند منتصف القــرن التاسع عشر. فمن جهة، كما سنرى، تغير اتجاه التجارة الشرقية مــن البرتغــاليين على الزامبيزى إلى العرب السواحليين على ساحل زنجبار. ومن جهة أخرى فــإن طريق لواندا القديم إلى مواتا يامفو، والذى يستخدم الإيبانجالا كوسطاء، قــد حــل محله طريق أبعد جنوب بانجويلا، وكانت التجارة على ذلك الطريــق فــى أيــدى الأوفيمبوندو على هضبة البيهى، وكان الأوفيمبوندو مثل إمبناجالا شعوبا نظمت فى دول صغيرة بواسطة مهاجرين من منطقة لواندا، ولكن انضمت إليهم فــى القــرن الثامن عشر أعداد كبيرة بل هائلة من اللاجئين الأوروبيــين ومــنهم مســجونون هاربون وآخرون هاربون من الخدمة فى الجيش البرتغالى. ونشر هــؤلاء النــاس معارفهم ومهارتهم الخاصة بالأسلحة النارية إلى الأفريقيين ولــذلك ســاعدوهم أن يكونوا أكبر تجار فى كل المنطقة العليا الجافة لحوض نهرى الكونغو والزامبيــزى جنوب مملكة المواتا يامفو، وبحلول عام ١٨٥٠ توغلت قوافلهم التجارية المكونــة من مائتى أو ثلاثمائة حمال فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى بلاد اللوقالى واللــوزى عند وادى الأمبيزى الأعلى، وشرقا إلى منطقة بعيدة عند حزام النحاس الزامبى.

كما توغلوا شمالا عبر بلاد المواتا يامفو وجنوب الكاساى إلى منطقة بعيــدة عند الحواف الجنوبية لغابة الكونغو، ويعتبر التدهور فى طريق لوانــدا وازدهــار طريق بنجويلا تغيرا فى السلع المصدرة، وكان طريق لواندا قبل كل شىء طريقــا للعبيد، كما كان الإيمباجالا لمدة قرنين ونصف خبراء فى جلب العبيد، واســتمرت لواندا فى تصدير العبيد علنا وبنشاط إلى عام ١٨٣٨ حينمــا ألغــى البرتغــاليون رسميا العبودية فى مستعمراتهم. ولكن استمرت الشحنات غير القانونية لمدة عقدين ولكن فى موانئ أقل مرتبة وليس فى عاصمة المستعمرة، ولذلك انهار الإيمباجالا. وألغى البرتغاليون أيضا مع تجارة العبيد، احتكار الحكومة البرتغالية لتجارة العاج، ونتج عن ذلك مجال وفرص جديدة للتجارة والتى استطاع الأوفيمبوندو الاســتفادة

منها بطريقة أفضل من الإيمباجالا. ولقد كان الأوفيمبوندو تجارا أكثر منهم صيادين، ولكن كان جيرانهم الشرقيون، الشوكوى أكبر المتخصصين فى صيد الأفيال عند منتصف القرن التاسع عشر، وكانت وسائلهم وحشية للغاية، وكانوا يتسلحون جيدا بالأسلحة النارية، كما كانوا يحاربون دائما. ويعيشون بالنهب، وأخذ الأسرى كعبيد ثم يضمونهم إلى عصاباتهم الحربية ويستولون على مخزونات العاج. ويصطادون الأفيال دون هوادة من منطقة إلى أخرى.

وكان تجار الأوفيمبوندو يتقدمون فى الواقع خلف الصيادين والمحاربين الشوكوى ويشترون عاجهم مقابل الأسلحة النارية، ولذلك قام الشوكوى، وهم شعب صغير لم يسمع عنه أحد، عام ١٨٠٠ بغزو مناطق كبيرة عند أنهار الزامبيزى الأعلى، الكوانجو والكاساى الأوسط وغرب كاتانجا فى نهاية القرن التاسع عشر، وأخيرا وفى عام ١٨٨٥ استطاعوا القضاء تماما على مملكة المواتايامبو الكبيرة.

## النياموزى والعرب

وبينما كان الأوفيمبوندو الشوكوى يحلون محل اللواندا والإيمبانجالا فى النهاية الغربية للطريق عبر القارة فإن المواتا كازيمى فى وسطه قد أزاحهم قادمون جدد من شرق أفريقيا.

وسوف نذكر قصة توغل النياموزى والعرب السواحليين إلى شرق أفريقيا فى الفصل الرابع، ولكننا سنعالج هنا فقط جزء الحركة التى أثرت فقط على غرب وسط أفريقيا، وفى فترة مبكرة عام ١٨٣٢ طرد الكازيمبى وفدا تجاريا برتغاليا كان يزوره وقال إنه يحصل على كل السلع الأجنبية التى يحتاج إليها من ساحل زنجبار، وإنه لم يعد يرغب فى التجارة مع البرتغاليين عند الزامبيزى، ولو كان يعلم آثار تلك الاتصالات التجارية الجديدة مع شرق أفريقيا لكان بالتأكيد أكثر حرصا فى رفض الاقتراحات البرتغالية.

وفى حوالى عام ١٨٥٦ قام أحد التجار النياموزيزى ويدعى مسيرى (أى الباعوضة) بعدة حملات تجارية إلى كاتنجا، واستقر مع أتباعه المسلحين فى بونكيا عند الحافة الشمالية لمملكة الكازيمبى. واستطاع هنا أن يزيد من قوته ونفوذه إلى أن أصبح قويا، وامتدت سلطته أيضا إلى ممالك اللوبا شمالا، ولذلك أضاف مسيرى مع محاربيه النيماويزى الذين عرفوا فى كاتنجا Katanga باسم البايكى إلى أرباحه التجارية جزية إضافية منتظمة من العاج والنحاس التى فرضها على الزعماء الذين سددوها فى الماضى إلى الكازيمى ولملوك اللوبا مباشرة، وفعل مثل الكازيمى قبله بالضبط؛ إذ تاجر فى تلك المنتجات فى عدة اتجاهات، وبادل الملح والنحاس (الذى تم صهره فى سبائك أو صلبان صغيرة) عبر أنهار الكاساى واللوالوا مع الشعوب المقيمة على حافة الغابات مثل الكوبا والسونجى مقابل العاج، ثم تابعه مسيرى بعد ذلك بالأسلحة التى يحصل عليها من الأوفيمبوندو والبرتغاليين فى الغرب والعرب السواحليين فى الشرق.

وعرفت إمبراطورية مسيرى للمستكشفين الأوروبيين الأوائل بالجرانجازى، واستمرت إلى عام ١٨٩١ عند وصول البلجيك، ثم قتل مسيرى بعد اشتباك مع أحد الضباط البلجيك. ولكن استمر تابعوه فى البايكى فى لعب دور بارز فى سياسات شابا Shaba حتى بعد الاستقلال، فلقد كان بودفرى مونونجو مثلا وهو وزير الداخلية فى حكومة نشومبى الكونغولية فى اليكى ومن أحفاد مسيرى ذاته.

وتشابه ما فعله مسيرى فى جنوب كاتنجا مع ما فعلته جماعات أخرى فى الأفريقيين الشرقيين فى شمال كاتنجا ومنطقة كيفو وقادهم السواحليون العرب فى معظم الأحوال فى ساحل زنجبار، وعبروا فى البداية بحيرة تانجانيقا حوالى عام ١٨٤٠ فى ميناء أوجيجى حيث تبحر القوارب، ولذلك وفى حوالى عام ١٨٦٠ وجدت مستوطنة عربية منتظمة فى نيانجوى عند نهر اللوالابا (نهر الكونغو الأعلى) وسرعان ما تاجروا وأغاروا على المنطقة كلها والممتدة من بحيرة تانجانيقا إلى نهر اللوما، وهى المنطقة التى كان يغير عليها شعب الشوكوى القادم

من الغرب، وكان الغزاة الجدد تماما مثل سابقيهم يغيرون علـــى الجهـــات التـــى يرغبون بها دون مقاومة تذكر لامتلاكهم الأسلحة النارية. ولذلك كانت ممالك اللوبا والسونجى القديمة دون دفاع أمامهم تماما مثل ممالك اللواندا فى الجنوب، وتميزوا بالوحشية والقسوة مثل غزاة اليكى فى الجنوب والشوكوى فى الجنـــوب الغربـــى وسرعة استغلالهم لموارد العاج فى البلاد ثم اصطادوا الأفيال بأعداد كبيرة والتـــى كانت تعيش على حساب السكان المحليين، وأضروا بهم بفرض جزية على الطعام والعاج وجبب سدادها لهم. ولكن وبعد الموجة الأولى لتقدم صـــيادى الأفيـــال فـــإن غزاة شرق زائير قد استقروا ومارسوا أسلوب الحياة المستقرة المنظمة. ووجـــدت مساجد فى مدنهم والتى مازال العديد منها باقيا حتى الآن. أما منازلهم فلقد وجـــدت بها كل أدوات الرفاهية الصغيرة المستخدمة فى الحياة المدنية الراقية على ســـاحل شرق أفريقيا مثل الفراش، الأثاث، مواقد القهوة، بـــل أيضـــا الأبـــواب الخشـــبية المنحوتة بطريقة فنية راقية تماما مثلما فى زنجبار. وشيد العرب الضياع الزراعية المزدهرة حول مستوطناتهم، وتأثر بها الأوروبيون كثيرا وأعجبوا بتلك الإنجازات العربية مثلما سنرى فى الوصف التالى لكاسونجو الذى كتبه سيدنى هنـــد الطبيـــب الإنجليزى المصاحب لقوات دولة الكونغو الحرة التى غزت الأراضى العربية فـــى شرق زائير عام ١٨٩٣.

"تعتبر كاسونجو مدينة أكبر بكثير من عاصـــمة العبيـــد القديمـــة الكبيـــرة نيانجوى، وكان ينتظر حصار تلك المدينة، وحينما حدث ذلك فإن السكان قد توافر لهم الوقت لأخذ كل متعلقاتهم الثمينة، ل وحتى الأثاث إلى منـــاطق آمنـــة، ولكـــن اختلف الأمر تماما فى كاسونجو، فلقد اندفعنا تجاهها بسرعة مباغتة لدرجة أن كل شيء قد ظل فى مكانه، ووجدت قواتنا الغازية أغراضا جديـــدة وبكميـــات كبيـــرة لدرجة أن الجنود العاديين كانوا ينامون على مراتب مكســـوة بـــالحرير والقمـــاش الفاخر الثمين، وأيضا فى مضاجع خشبية منحوتة بدقة وتحميها الستائر الحريريـــة من لدغات الباعوض، أما الغرفة التى استوليت عليها فيلـــغ طولهـــا ســـتين قـــدما

وعرضها خمسة عشر، كما وجد لها باب يؤدى إلى بستان تكثر به أشجار البرتقال، ويمكن مشاهدة مناظر طبيعية خلابة لمسافة خمسة أميال من هذا المكان، كما وجدنا العديد من أدوات الترف الأوروبية التى كدنا أن ننساها تماما مثل الشموع والسكر والكبريت وأكواب الشراب المصنوعة من الفضة والزجاج والأطباق بكميات كبيرة، وامتلأت مخازن مدينة كاسونجو أيضا بكميات وفيرة من الأرز والبن والشعير، الرمان والأناناس والطعام الوفير، وكانت الحدائق والبساتين رائعة وزراعتها جميلة إذ امتلأت بأشجار البرتقال الحلو والمر والجوافة والمانجو والرمان والأناناس والموز وانتشرت تلك الأشجار فى كل مكان، أما قطعان الماشية التى وجدناها فى كاسونجو فلقد تكونت من ثلاثة فصائل مختلفة من الحيوانات.

ولقد أعجبت دائما بالعمل الرائع الذى قام به العرب فى المنطقة المجاورة، فلقد بنيت كاسونجو فى ركن من الغابة العذراء. ولكن ولمسافة أميال حولها فإن الأحراش ومعظم الأشجار قد تم إزالتها. ونمت فى المناطق التى نزعت منها الأشجار محاصيل رائعة من قصب السكر والأرز والشعير والفواكه. ولقد ركضت بجواد فى حقل أرز واحد لمدة ساعة ونصف.(٢٥)

## تيبوتيب

وفى الأيام الأولى لتلك المستوطنات العربية التى حكمها أحد السواحليين من أصل عربى وأتباعه والذين مارسوا نوعا من السلطة المرنة على الزعماء الأفريقيين المحليين، وكان الرجل الذى أحضر العرب إلى تلك المنطقة والاعتراف بسلطته ثم فى النهاية سلطة سلطان زنجبار هو محمد بن حمد المعروف أو الشهير

(٢٥) S.L Hinde: The fall of the Congo Arabs (London 1897), PP.184,187.

باسم تيبوتيب، ولقد ولد عام ١٨٣٠ فى زنجبار وكانت والدته من عرب مسقط من الأسر الحاكمة، أما والده وجده فكانا من السواحليين العرب الذين اشتركوا فى الحملات التجارية المبكرة فى الداخل، أما جدته لوالده فكانت ابنة أحد الزعماء النياموزى، كما أن رحلاته الأولى كانت مع قوافل النياموزى المتجهة جنوبا إلى الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا إلى كاتنجا. وتحالف لفترة مع مسيرى ولكنه انفصل عنه فيما بعد، وأقام معسكره عند كاسونجو على اللوابالا حيث أطلق على نفسه لقب سلطان أوتيتيرا، وحدث ذلك فى نهايات ستينيات القرن التاسع عشر وبداية السبعينيات. ومنذ ذلك التاريخ ولمدة عشرين عاما أخرى فإن تيبوتيب قد أصبح أقوى رجل فى زائير الشرقية، وتبع سلطان زنجبار ولكن بعكس معظم العرب فلقد كانت له علاقات ممتازة مع النياموزى. وكانت أراضيهم تقع بينه وبين الساحل الشرقي وتسيطر على طرق مواصلاته مع زنجبار. وقابل عام ١٨٧٧ المستكشف ستانلى فى نياجوى وصاحبه جنوب نهر اللوالابا إلى شلالات ستانلى (مدينة ستانلى فيما بعد).

ووسع بذلك صيده للأفيال وأنشطته التجارية الأخرى إلى منطقة غابات إيتورى. ويقال إن تيبوتيب قد امتلك ٥٠,٠٠٠ سلاح نارى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وتجاوزت أراضيه أراضى الشوكوى فى الجنوب الغربى بينما كانت محطته عند شلالات ستانلى على مسافة أربعة عشر يوما فقط بالنسبة للبواخر النهرية التى بدأ ستانلى تشغيلها عند بحيرة ماليبو بينما كان آنذاك فى خدمة الملك ليوبولد ملك بلجيكا. وأدرك تيبوتيب أن القوى الأوروبية قد وصلت إلى أفريقيا الاستوائية، ولذلك فمن عام ١٨٨٣ إلى ١٨٨٦ قام بمحاولات كبيرة لجمع العرب فى شرق زائير للاعتراف بالسلطة السياسية لسلطان زنجبار، واعتقد أن الدول الأوروبية سوف تعترف بسلطة الأخير على شرق أفريقيا.

وكان تيبوتيب يأمل فى استمرار حكمه على شرق أفريقيا بذلك الأسلوب، ولكن ذهبت جهوده هباء؛ إذ لم تعترف الدول الأوروبية في مؤتمر برلين بمطالب

السلطان الخاصة بشرق أفريقيا. وقضى تيبوتيب أعوامه الأخيرة فى زائير (١٨٧٧- ١٨٩٢) فى دور غير مقبول كحاكم تابع للملك ليوبولد على شلالات ستانلى وتم غزو أراضيه السابقة واعتزاله وعودته إلى زنجبار، واستولت القوات الأوروبية عليها كما رأينا سابقا، ولكن مثل حالة مسيرى فى كاتنجا فإن البلجيكيين قد أخذوا العديد من نظم الحكم العربى فى شرق زائير واستخدموا العديد من السواحليين فى الوظائف الصغيرة، واستمرت اللغة السواحلية - المعروفة محليا بالكنجوانا - اللغة المشتركة لتلك المنطقة فى زائير إلى الوقت الحالى.

## منطقة الكونغو السفلى وطريق نهر الكونغو

كانت أقل أجزاء غرب وسط أفريقيا معرفة للأوروبيين فى بداية القرن التاسع عشر هى المنطقة شمال وجنوب الكونغو الأسفل، والتى ستصبح فى نهاية القرن التاسع عشر المركز الرئيسى للاهتمام وللصراع من أجل السيطرة السياسية، وكان أهم عامل فى تلك المنطقة هو العامل الجغرافى، ويكون مسار نهر الكونغو وتوابعه التى تجتمع حول بحيرة ماليبو حوالى ٤٠٠٠ ميل (٦٥٠٠ كم) من المجارى المائية التى يمكن الإبحار بها دون توقف، أما الـ ٢٢٥ ميلا (٤٠٠ كم) من النهر بين بحيرة ماليبو والمحيط الأطلنطى فإنها تمر عبر منطقة عالية ووعرة وبها مجموعة من الشلالات الصخرية والشلالات المائية، وتعتبر تلك المنطقة من أشد مناطق العالم صعوبة فى السفر، ولكن استطاع ستانلى وباقى مسئولى دولة الكونغو الحرة وبمجهود وصعوبة هائلين فى إنشاء طريق عبر التلال الصخرية والوديان المليئة بالغابات لنقل أجزاء من السفن التجارية إلى بحيرة ماليبو من أجل تجميعها واستخدامها للملاحة فى الأنهار الصالحة لذلك. ولكن قبل ذلك وإذ استمرت عملية النقل على النهر الأعلى بواسطة القوارب ومادام الحمالون يستخدمون الوسائل الوحيدة للنقل فى منطقة الشلالات الصخرية فإن الإمكانيات

الاقتصادية لنظام أنهار الكونغو كانت محدودة، وفى بداية القرن حينمـــا احتفظـــت الحكومة البرتغالية باحتكارها لتجارة العاج فإن مقدارا من العـــاج وبـــاقى حركـــة المرور قد استخدمت الروافد المتجهة شمالا لنهر الكونغو من أجل تفادى الأراضى البرتغالية. ولم تصل تلك التجارة آنذاك إلى بحيرة ماليبوا؛ إذ لم تصبح بعد - مثلما سيكون الحال بعد ذلك - عنق الزجاجة التجارى. وعبرت بدلا من ذلك فى الأنهار إلى العديد من المحطات التجارية البرتغالية المتفرقة عبر الساحل إلى شمال الجزء الممتد فى المناطق (البرتغالية) فى أنجولا عبر العديد من الطرق المارة بالغابـــات وأسفل الجداول المائية التى تصب مباشرة فى المحيط الأطلنطى، وكانت التجـــارة تتعلق أساسا بالعاج ولكن بمرور الأعوام فى القرن التاسع عشـــر شـــملت أيضـــا أشجار زيت النخيل وأخشاب النخيل وشمع النحل والبن والقطن الخـــام والمطـــاط. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر فإن حجم التجارة البريطانية فقط من غـــرب وسط أفريقيا قد نافس دخلها من منطقة أنهار الزيت فى جنوب نيجيريا.

وكان العاج ركيزة تلك التجارة. وكان العاج هو السلعة الأعلـــى ســـعرا ولا تفسد أثناء النقل. وكان يأتى أيضا من أقصى المناطق البعيدة - فى الـــبلاد التـــى يسيطر عليها الكونغو وبين شعوب الغابات على النهر الرئيسي، ومن بينها عمـــل التيكى فى السواحل الشمالية لبحيرة ماليبو كأهم التجار والناقلين للمنطقة كلها خلف بولوبو.

وشمال بولوبو يأخذ البوبانجى مكانهم إلى مسافة بعيدة عند إيروبو Irubu ثم يتاجر بعدهم شعب النجالا إلى مسافة أبعد لتصل إلى ليسالا Lisala علـــى مســـافة ١٠٠٠ ميل (١٦٠٠ كم) من البحر، وتعتبر هذه أبعد مسافة من الساحل الغربـــى، حيث وجد ستانلى بضائع أوروبية أثناء رحلته أسفل الكونغو عام ١٨٧٧.

واحتاجت الأسلحة الأوروبية والأقمشة التى وجدها هناك إلى خمسة أعـــوام للوصول إلى تلك الجهات، أما شمال النهر الرئيسى وفى المنطقـــة الواقعـــة بـــين

الأوبانجي والساحل فإن الدور الذي قام به الشوكوى جنوبا، يقوم به شعب الفانجFang الذين هاجروا إلى غرب وسط أفريقيا من داخل الكاميرون واتجهوا جنوبا من السافانا إلى منطقة الغابات الممطرة وأصبحوا أهم شعب في صيد الأفيال. وبادلوا عاجهم بواسطة وسطاء أفريقيين بالسلع الأوروبية وبالذات الأسلحة عند المحطات التجارية عند ساحل الجابون، وتميز فانج في ذلك العهد بالشراسة الشديدة كما اشتهروا بكونهم آكلى لحوم البشر، ووصفت مارى كينسجلى، وهى سيدة إنجليزية جريئة سافرت في بلادهم عام، ١٨٩٤ كيفية بيع سكان قرية فانج لمخزونهم من العاج والمطاط الهندى، "ولم أرغب بتاتا فى تلك الأشياء آنذاك، ولكنى شعرت بالقلق الشديد فى الفانج Fang ولم أستطع ذكر ذلك بوضوح وصراحة. ولذلك اضطررت إلى الشراء... ووجدت نفسي مالكة لكرات من المطاط وبعض أنياب العاج وإن كاد مخزونى الصغير من القماش والطباق ينفد بسرعة للأسف... ويعتبر عدم توافر المال في قرية فانج من الأمور الخطيرة للغاية، لأنهم حينما تنفد البضائع من تاجر يبدأون بالتجارة من جديد بقتله واسترداد عاجهم ومطاطهم ويحتفظون به إلى قدوم تاجر آخر.[٢٦]

ولكن تهدد كل هذا النمط من التجارة التى وجدت طريقها بواسطة طرق جانبية أو فرعية إلى المحطات التجارية الأوروبية المنتشرة عبر الساحل فى جبل الكاميرون إلى أنجولا عندما قام ستانلى برحلته الشهيرة أسفل نهر الكونغو عام ١٨٧٧، وأثبت أنه توجد منطقة تمتد آلاف الأميال فى الأنهار السهل الملاحة بها بواسطة البواخر.

وكانت الحكومة البريطانية راضية بنمط التجارة القديم، ولم تتخذ أى إجراء عندما عاد ستانلى إلى إنجلترا ونشر استكشافاته، ومع ذلك فإن الملك ليوبولد ملك بلجيكا والذى قضى نحو عشرين عاما يدرس الأنشطة الاستعمارية للدول الأخرى،

---

(٢٦) Some unpublished Travels: Cited in Stephen Gwynn, The life of Mary Kingsley (London 1933) PP.109-110.

وكان يبحث عن فرصة لبناء إمبراطورية خاصة له. وأخذ الملك يستمع بشغف إلى قصص ستانلى وبالفعل ركزت عيون ليوبولد على حوض الكونغو، رغم أنه كان يخطط للوصول إليه من الشرق مستخدما طريق عرب السواحيلى. ولكن بعد أن وضع تقرير ستانلى أمام عينيه غير رأيه كلية وغير كل خططه، وأنه يمكنه عبور الشلالات على أسفل النهر عن طريق خط سكة حديد وسفن تجارية على النهر الأعلى، وسرعان ما صار الكونغو عنق الزجاجة فى تجاربه فى كل أنحاء هذا النهر الواسع.

إن العرب وإمبراطوريات النياموزى سوف تنتهى وسوف يتوقف الشوكوى، ولم تعد لهم أهمية تجارية وسوف تواصل المنطقة وحدتها الطبيعية تحت تنظيم للتجارة الأوروبية من جديد.

وكما سنرى، كانت خطة الملك ليوبولد بمثابة شرارة التدافع والتكالب على القارة الأفريقية، بل وضعت نهاية لفصل قديم من التاريخ الأفريقى.

وعندما جاء البرتغاليون إلى وسط وغرب أفريقيا فى القرن الخامس عشر فإنهم فتحوا طرق التجارة غربا إلى الساحل وإلى الأراضى عبر المحيط الأطلسى ومن خلال سعيهم وتركيزهم الدائم على تجارة الرقيق ومن خلال محاولاتهم غير المستنيرة للسيطرة على أسعار العاج باحتكار ملكى فإنهم سمحوا للحكام الأفارقة الشرقيين خلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر بتحويل معظم تجارة العاج بعيدا عن مخارجها الطبيعية عبر المحيط الأطلسى إلى نظام تجارى فى المحيط الهندى.

ومن وجهة النظر الجغرافية كان كل هذا خطأ، حيث إن شلالات ستانلى وبنكويا (عاصمة مسيرى) أكثر قربا للساحل الغربى عن الساحل الشرقى، لكن رحلة ستانلى ورؤية الملك ليوبولد التجارية كانت وراء تحويل بندول الساعة، والتى حولت وسط غرب أفريقيا إلى منطقة تابعة لشرق ووسط أفريقيا وكجزء من العالم الإسلامى.

# الفصل السابع

## شرق وسط أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٤)

تشمل شرق أفريقيا لأغراض هذا الفصل ليس فقط الدول الحديثة لكينيا وأوغندا وتانزانيا، ولكن أيضا شمال موزمبيق ومالاوى وبوروندى ورواندا، وسوف تئول تلك البلاد كلها بطريقة أو بأخرى إلى الحكم الأوروبى قبل نهاية القرن، ولكن لم تكن التأثيرات الخارجية السائدة من ١٨٠٠ إلى ١٨٨٤ أوروبية بل عربية سواحلية أو مصرية تركية، فقبل عام ١٨٨٤ لم تقم إلا مجموعة قليلة من الأوروبيين بأعمال تجارية خاصة بهم فى الداخل.

وبصفة عامة اقتصرت الأعمال الأوروبية والأمريكية، تماما مثل حالة الهنود فى الإمبراطورية البريطانية فى الهند، على إمداد التجار العرب والمصريين بالسلع المصنعة وبالذات القماش والسلاح مقابل العاج وبعض المنتجات الأقل أهمية مثل منتجات الأشجار وشمع النحل والصمغ العربى، وتاجر التجار المسلمون مباشرة مع الشعوب الأفريقية، وكان نشاط المبشرين المسيحيين أهم الأنشطة الأوروبية قبل عصر التقسيم، ولكن وصل المبشرون مع ذلك إلى تلك المنطقة بعد التجار المسلمين بكثير مما كان عملهم فى المرحلة الأولى فقط عند بدء العصر الاستعمارى، ولم يكونوا مسئولين أبدا عن السيطرة السياسية الأوروبية والتى أتت حينما حان الوقت نتيجة لأحداث حدثت خارج شرق أفريقيا.

## دخول السواحليين العرب إلى الداخل

وصفنا فى الفصل الثانى تطور السكان السواحليين والعرب على الحزام الساحلى لشرق أفريقيا وتنزانيا والجزر الأخرى أمام الساحل، وكيف كونوا فعلا أسس التجارة بين الداخل والساحل. وهذه التجارة فى الممالك الداخلية وفى كاتنجا قد قام بها أساسا النياموزيون، ويبدو أنها مجاورة سلمية أساسا. وتأثر الرحالة الأوروبيون الأوائل كثيرا بأنشطة رخاء واكتفاء المناطق الداخلية العديدة التى قاموا بزيارتها. وعلى سبيل المثال كتب السير ريتشارد بورتون الذى لم ينحز أبدا لأى إنجاز أفريقى بعد رحلته إلى بحيرة تنجانيقا عام ١٨٥٨ "يعيش الأفريقى فى تلك المناطق فى حالة رخاء ممتازة. فيرتدى ملابس جيدة، ويأكل طعاما جيدا، ويقيم بطريقة أفضل من (المزارع) فى الهند البريطانية.

ولذلك فإن وضعه، حينما انتهت تجارة العبيد، يمكن مقارنته بطريقة ملائمة لحالة المزارعين فى أغنى الدول الأوروبية. ولذلك سوف تنشأ تقاليد تصف تلك الأحوال بين الشعوب التى ستتعافى فيما بعد من العنف ولكن بالطريقة المبالغ فيها التى يتذكر بها الناس كثيرا الأيام الجميلة الماضية.

"وفى سالف الأيام، منذ وقت بعيد، فى ديارهم القديمة كان الياو متفقون وموحدون. وإذا نشب نزاع كانوا يحاربون بدون وجه حق ويتجنبون سفك الدماء، وإذا حضر غرباء إلى قرية، فهل كانوا سيدفعون ثمن طعامهم؟ لا، فلقد كانوا يحصلون عليه مجانا، وإذا ما سمع أحد الرجال أن غريبا على بابه فإنه سيشعر بسرور ويقول " لدى روح الضيافة على بابى، لجذب الضيوف"[٢٧]. ولكن حينما اقترب القرن التاسع عشر فإن عاملين قد تضافرا لزيادة سرعة التغيرات فى أسلوب الحياة القديم. وكان الأول هو الطلب المتزايد بسرعة عند الساحل على العاج والعبيد. أما الثانى فكانت الرغبة الكبيرة لشعوب الداخل فى الحصول على كميات

(٢٧) Yohnnah, B.Abdaulla.The Yaos ed.and tr M.Sandeoson (Zomba 1919) P.11

متزايدة من الأسلحة النارية، فما زال يوجد، مثلما كان الحال دائما، سوق رائجة لتجارة العبيد للعمل فى الضياع والمنازل فى كل المدن الساحلية وحولها، بالإضافة إلى عمان وباقى دول الجزيرة العربية والخليج العربى، كما ازداد الطلب على العبيد فى منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر نظرا لاحتياجات أعمال الفرنسيين الكبيرة لضياع البن والسكر فى جزيرة رنيون (وإلى عصر الحروب النابوليونية فى جزيرة موريشيوش) أما فى بداية القرن التاسع عشر فإن البرتغاليين، نظرا للقيود المفروضة على تجارة العبيد فى غرب أفريقيا شمال خط الاستواء، قد شحنوا أعدادا متزايدة من العبيد حول رأس الرجاء الصالح من موزمبيق إلى البرازيل وكوبا، كما شهد القرن التاسع عشر أساسا تطورا كبيرا فى زراعة ضياع العرب السواحليين، ونشأ معه طلب متزايد للعبيد من الداخل. ولكن بمرور الأيام خلال القرن التاسع عشر فإن الطلب على العاج - وبالتالى الأسعار المدفوعة ثمنا له - قد زادت عن أسعار العبيد. وكان السوق القديم لعاج شرق أفريقيا دائما هو السوق الآسيوى بالذات. ولكن وبحلول منتصف القرن التاسع عشر زاد الطلب عليه بدرجة هائلة فى أوروبا وأمريكا. فلقد أدى الثراء السريع النابع من الأعمال الصناعية والتجارية من البلاد الأوروبية وشمال أمريكا على السواء إلى زيادة هائلة فى الطلب على المنتجات العاجية، ونعنى بذلك أدوات الرفاهية مثل مقابض الخناجر المصنوعة من العاج ومفاتيح غرف البيانو وكرات البلياردو وأدوات الزينة المتنوعة.

واستجاب العرب السواحليون المقيمون منذ قرون على الساحل الأفريقى لذلك الغرض فى نهاية القرن الثامن عشر بعد أن فتح النياموزيون الطريق الداخلى أمامهم بقليل، ولكن لم يبدأ التوسع الكبير للشعب العربى السواحيلى إلا أثناء الحكم العظيم الطويل للسيد سعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦) إمام مسقط والحاكم الوراثى للمستوطنات العربية على ساحل زنجبار، وتميز سعيد بالحنكة السياسية والعبقرية الاقتصادية فى الوقت نفسه، ولذلك أدرك بسرعة أن إمبراطوريته فى شرق أفريقيا

أكثر جدارة بالاهتمام من صخور وصحارى دولته الصغيرة فى عمان الواقعة على الساحل الشرقى للخليج العربى، ولكن وجب عليه استعادة إمبراطوريته أولا، وفعل ذلك بواسطة قواته المسلحة القوية وذات الكفاءة العالية، وقدمت إليه بريطانيا سفنا لأسطوله بناء على معاهدة عقدت بينهما، أما جيشه فتكون من المقاتلة البلوش الأشداء المجندين من مناطق الحدود الإيرانية والهندية، واحتل بواسطتهم زنجبار، وحول سلطته الاسمية إلى واقع فعلى على المدن الساحلية من وارشيخ شمالا إلى ليندى جنوبا، وشمل ذلك أيضا المدن المهمة مثل ممباسا وكلوة التى ظلت مستقلة فعلا لفترة طويلة، وتحولت زنجبار تحت حكم سعيد إلى السوق المركزية لكل ساحل شرق أفريقيا، ثم تم إدخال زراعة الأشجار الآسيوية من جنوب الهند الشرقية مثل شجرة القرنفل، ولذلك أصبحت زنجبار دائما من أهم مصدرى القرنفل فى العالم، كما عمل العبيد في تلك المزارع واستمر استيرادهم من الداخل.

ولكن، وبعد أن قام السيد سعيد بزيارات طويلة ممتدة إلى ممتلكاته الأفريقية فور نقل عاصمته من مسقط إلى زنجبار حيث تلقب بلقب سلطان عام ١٨٤٠، انقسمت إمبراطوريته المتفرقة بعد وفاتة فى عام ١٨٥٦، وحكم أحد أبنائه فى مسقط والآخر ويدعى ماجد كسلطان فى زنجبار، وشجع السلطانان سعيد وماجد العرب على الاستقرار فى زنجبار كملاك للمزارع، كما شجعوا الشعب السواحيلى أيضا على الاتجار فى الداخل، وقدمت السلطنة الحماية السكانية للتجارة بعيدة المدى، حيث يمكن مثلا استلام الديون فى زنجبار وتنفيذ العقد هناك أيضا، وقام التجار الهنود فى زنجبار والمدن الساحلية – والذين كانت لهم علاقاتهم واتصالاتهم مع مواطنيهم عبر المحيط – باتخاذ الترتيبات المالية الخاصة بالتجارة.

فقدموا القروض إلى التجار السواحليين، وساعدوهم على تكوين قوافل محملة بالسلع والسفر إلى الداخل. ولكن لا تعود تلك القوافل أحيانا إلى بعد أعوام معهما مشترياتها من العاج والعبيد، وكتب الرحالة ليفنجستون عن هؤلاء التجار الهنود فى رسالة مؤرخة ٢١ نوفمبر ١٨٧٢ (والمرسلة إلى إنجلترا مع جثمانه). ويسيطر

البانيون تماما على إدارتي الجمارك والدخل العام. وقامت بواسطة أموالهم وأسلحتهم وذخيرتهم وسلبهم تجارة رقيق بشعة ورهيبة(٢٨).

وقاوم التجار النياموزيون منافسيهم الجدد، واستطاعوا الاحتفاظ باحتكار شبه كامل على الطرق التجارية فى وسط تنزانيا إلى كاتنجا. ولكن كان السواحليون أكثر تنظيما وتسليحا، كما وجدت لديهم موارد اقتصادية ومالية أفضل. فلقد تمكنوا فى تسليح الزعماء الأفريقيين بالأسلحة والزخائر التى لم تكن أبدا من أيدى التجار النياموزيين. ولكن مع تقدم الغرب وإعادة تسليح الجيوش الأوروبية بأنواع مختلفة من الأسلحة الحديثة فإن طرق الأسلحة الفنية البالية قد وجدت طريقها أكثر وأكثر إلى السوق الأفريقى، وتوغل التجار العرب بحلول ثلاثينات القرن التاسع عشر إلى بحيرة تانجانيقا، كما زار أول العرب بلاط مملكة بوجاندا عام ١٨٤٤. وكانت التجارة العربية فى الداخل كثيفة لدرجة أن شاعت إحدى النكات القائلة إنهم حينما يلعبون على المزمار فى زنجبار يرقص الناس على سواحل البحيرات الكبرى، كما أنشأ العرب المستوطنات فى مبنى الأماكن الإستراتيجية مثل تابورا فى بلاد النياموزى وأوجيجى عند بحيرة تانجانيقا، وكانت مستودعات تجارية فى البداية ثم تحولت بمرور الزمن إلى ممارسة نوع من السيطرة العسكرية والسياسة على الريف المجاور، وزار بورتون وسبيك تابورا عام ١٨٥٨، وكتب الأول: ويعيش العرب قبائل وبطريقة رائعة، والمنازل، رغم كونها من دور واحد إلا أنها فسيحة، كبيرة ويمكن الدفاع عنها، والحدائق واسعة ومزروعة جيدا، وينقلون المؤن بانتظام إلى الساحل، وتحيط بها قوات من العبيد الذين يدربونهم على مختلف المهن والحرف. ويمتلك الأثرياء حميرا للتجوال قادمة من زنجبار، كما يمتلك أفقر الفقراء قطعانا من الماشية.(٢٩)

---

(٢٨) Quoted in ZoeMarch, East Africa through Contemporany Records (Cambridge, 1961) P.44

(٢٩) R.F.Burton, lake Regions of central Africa (London 1860) Vol.I.P.328

ويحصل العرب بصفة عامة على عاجهم وعبيدهم من الحكام المحليين الذين يتسلحون بالأسلحة المستوردة ويرسلون محاربيهم لصيد الأفيـال وغـزو غابـات الشعوب المجاورة، وكثيرا ما يحصلون على العبيد أثناء ذلك، ولكن كانت تجـارة العبيد نتيجة ثانوية، فكان معظم شرق أفريقيا لتجارة العاج، ولم تكن أبـدا الهـدف الأول.

كانت المنطقة حول بحيرة مالاوى فقط هى منطقة جلب العبيد؛ حيث يقـوم الزعماء الأقوياء فى الياو بغزو الشعوب الأقل تنظيما ودفاعا عند ساحل البحيـرة الشرقى، وفعل البمبا ثم النجومى فيما بعد الشـىء نفسـه فـى الغـرب، وسـجل ليفجستون أبشع الفظائع فى تجارة العبيد التى شاهدها فى كل رحلاته فى الطريـق التجارى من بحيرة مالاوى إلى الساحل، وكتب:

"ثم مررنا بجوار امرأة ربطت من عنقها بشجرة وميتة... ثم رأينا آخـرين مربوطين بطريقة مشابهة وواحدة معلقة والأخرى ملقاة على الأرض بعـد طعنهـا وتسبح فى بحيرة من الدم. أما التفسير الذى حصلنا عليه دائما أن التـاجر العربـى الذى يمتلك تلك الضحايا قد استبد به الغضب لفقدانه أمواله لأن العبيد لا يستطيعون السير.. ومررنا اليوم بجوار رجل مات من الجوع.. وتجول أحد رجالنـا ووجـد عددا من العبيد مقيدين بعصى لربط العبيد، وتركهم سيدهم لعدم وجود طعام... ثـم مررنا قرية بعد أخرى وأيضا حدائق وكلها مهجورة". وكان التركيز على العاج فى مناطق أخرى بالرغم من شراء وبيع العبيد فى كل مرحلة عبر الطرق التجاريـة، ويشترى النياموزيون مثلا أعدادا كبيرة من العبيد ويستخدمونهم فى العمل الزراعى حينما يقيمون فى رحلات تجارية طويلة.(٣٠)

---

(٣٠) last Journals, ed.Horace waller (London 1874, Vol.I.P.70)

## النجوني والميرامبو

تعقد الوضع فى تانزانيا حوالى منتصف القرن التاسع عشر بغارات النجونى فى الجنوب. وكانت جماعات من المحاربين قد انفصلت عن مملكة الزولو لشاكا (انظر الفصل ٨) ثم انضمت إليها بقايا الشعوب التى هزمتها أثناء رحلتها الطويلة إلى الشمال، وانتشروا عبر معظم تانزانيا الغربية والجنوبية إلى شرق وغرب بحيرة مالاوى حيث استقروا فى النهاية كأرستقراطية مستقلة.

ولكن انضم محاربوهم الموجودون فى أماكن قاصية وأساليبهم العسكرية إلى مجموعات جديدة من القبائل التى استقرت آنذاك فى تانزانيا،وبعيدا للغاية عن منطقة استقرارهم. ولذلك تجولت جماعات من المحاربين تسمى روجا روجا فى بلاد النياموىزى ومافيتى ومجا ونجدا، وفى أماكن أخرى فى الريف، وهى تنهب عادة لحسابها الخاص ولكنها مستعدة تماما للعمل عند أمراء الحرب الأشداء والتجار العرب. وتكونت دولة الهيهى المركزية مثلا فى وسط تانزانيا بذلك الأسلوب، ولكن ظهر أحد الزعماء النياموىزيين الشباب، ويدعى ميرامبو، والذى أصبح قويا لدرجة كافية فى سبعينيات القرن التاسع عشر لينافس أمراء التجار العرب. واستولى فى ثمانينات القرن التاسع عشر على طريق التجارة الأوجيجى إلى بحيرة تانجانيقا، بل استطاع تهديد الطريق المؤدى فى الشمال الغربى إلى بوجندا، وتحالف تيبوتيب معه وليس مع رفاقه العرب فى استغلاله السياسى لشرق زائير كما وصف فى الفصل السادس.

## المنطقة الداخلية

وفى شمال بلاد النياموىزى فإن التجارة مع المنطقة الداخلية الثرية قد تطورت بسرعة فى أربعينيات القرن التاسع عشر تحت سيطرة التجار العرب

السواحليين، واتجه الطريق التجارى الرئيسى من تابورا عبر كاراجوى، حيث وجدت مستوطنة تجارية عربية فى كافورو بالقرب من العاصمة على نهر كاجيرا وانقسمت بعد ذلك إلى فرع غربى يتجه عبر وديان أنكولى الشرقية وفرع شرقى يتجه بجوار خط ساحل بحيرة فكتوريا إلى عاصمة بوجندا، وكانت مملكة التوتسى فى رواندا فى غضون قوتها آنذاك وترفض وجود الأجانب داخل حدودها، ولذلك فإن قوافل رواندا قد مرت بتجارتها الخارجية من وإلى كاراجوى، وكانت أنكولى معادية للأجانب تقريبا مثل رواندا، وكانت البلاد التجارية الكبيرة هى بونيورو وبوجندا التى بالإضافة إلى جيوشها القوية فإنها كانت القوة الملاحية الرئيسية عند بحيرة فكتوريا. ولذلك وبتقدم القرن التاسع عشر فإن أساطيل من قوارب بوجندا الكبيرة المصنوعة من أخشاب مربوطة ببعضها وذات مقدمات عالية يمكن رؤيتها من بعيد فوق المياه قد وصلت بانتظام إلى السواحل الجنوبية للبحيرة ونافست الطرق التجارية البرية، ولذلك استطاع كاباكاس سونا وموتيسا اللذان حكما فى منتصف القرن التاسع عشر من حوالى ١٨٣٢ إلى ١٨٨٤ أن يكونا مخزونا كبيرا من الأقمشة والأسلحة، واستخدموها لتسليح وسداد أجور جيوش أقوى والتى وقفت حاجزا منيعا أمام الباسوجا إلى الشرق والباهايا إلى الجنوب والتى أغارت عليها، ولكنها تعرفت بطريقة أكثر حرصا على القوة العسكرية المتجددة لبونيورو فى الشمال الغربى.

ولكن لم يتدخل العالم الخارجى فى شئون المنطقة الداخلية فقط من الناحية الجنوبية الشرقية، فكما رأينا فى الفصل الثالث فإن الحدود التجارية للسودان المصرى قد أنشئت منذ أربعينات القرن التاسع فى بلاد البارى جنوب مستنقعات النيل، وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر عمل تجار العاج فى قاعدتهم فى الخرطوم بين شعب الأشولى فى الولاية الشمالية لدولة أوغندا الحالية، وأقام المصريون اتصالاتهم الأولى ببونيورو بالتدخل فى الصراع على الخلافة بعد وفاة الحاكم كاموراسى عام ١٨٦٩، وأرسل الخديوى إسماعيل فى ذلك العام المستكشف

البريطاني صمويل بيكر ليكون حاكما على تلك الولاية الاستوائية في السودان، وحاول بيكر، دون نجاح، احتلال بونيورو، ثم اكتفى فقط بإقامة حصون عند حافتها الشمالية، وخلفه شارلز جوردون عام ١٨٧٣ الذى كانت لديه تعليمات محددة لمد النفوذ المصرى إلى منطقة البحيرات العليا، وهكذا وصل مندوبو جوردون إلى بلاط الكاباكا موتيسا حاكم بوغندا عام ١٨٧٤.

وكان موتيسا يعرف القدر الكافي عن أخبار العالم الخارجي لفهم الأوضاع بدقة، وحجز الكاباكا الحامية المصرية، وأظهر لها بوضوح قدرة بوغندا على المقاومة، ثم سمح لها بالانسحاب سالمة. ودعم موتيسا في الوقت نفسه صلاته بالأجانب على الساحل الشرقي واشترى أسلحة إضافية، كما استمع إلى التقاليد الإسلامية لأصدقائه العرب، وتعلم أيضا اللغة السواحلية بالحروف العربية، ووصف المبشر الإنجليزى ألكسندر ماكاى خوفه من المصريين، وذلك في سيرته الذاتية التي كتبتها شقيقته بعد بضعة أعوام.

"وكانت مصر دائما مصدرا لشكوك الباجاندا، ويروى الكابتن سبيك الذى تعرف على[٣١] موتيسا باثنى عشر عاما قبل ستانلى بحيث إن الملك قد اعترض على عبوره لأوغندا متجها إلى مصر عبر النيل... وكان موتيسا ينظر إلى المحطة المصرية في مرولى بغيره شديدة كما لم يترك العرب أبدا فرصة لإثارة غضبه وحنقه.

فلقد علموا يقينًا أن مجيء الرجل الأبيض يعني انتهاء فرصتهم في الأرباح الوفيرة، ولذلك أبلغوا الملك أن الكولونيل جوردون والأتراك (كما كانوا يسمون المصريين) سوف يحضرون قريبا ويفترسون البلد ولذلك سادت كلمة باتوركى على ألسنة الباجندا، ولم يكن موتيسا أبدا في أخبار ماكاى بل تعاملاته مع البيض، وكيف أحضر سبيك جرانت ثم أرسل بيكر بعده، ثم كيف حضر الكولونيل لونج (عميل جوردون) ثم تبعه ستانلى بعد ذلك.

---

(٣١) T.W.Mackay, The Story of the Life of Mackay of Uganda (London 1898) PP.132

وتسأل موتيسا ماذا يريدون كلهم؟ ألم يحضروا بحثا عن البحيرات لكي يضعوا [illegible] والمدافع عليها؟ ألم يحضر سبيك حينا بأوامر من الملكة (فكتوريا) لهذا الغرض أثناء وجود الوفد المصرى الثانى فى بلاطه أثناء فترة وجود الرحالة ستانلى ولذلك شجع موتيسا الرحالة ستانلى عام ١٨٧٥ على إبلاغ أوروبا فى حضور مبشرين مسيحيين إلى بلاده للاستقرار بها؟ وحدث ذلك بالتأكيد آنذاك عند وجود وفد مصرى ثان فى بلاده.

كان الملك رجلا ذكيا ومتفتح الذهن، كما أنه تأثر فعلا بما أخبره زائراه الأوروبيان - سبيك فى البداية (١٨٦٢) ثم ستانلى - عن المسيحية والحضارة الأوروبية. وفهم كرجل دولة أن التقدم المصرى من الشمال قد هدد بوجندا فعلا، ولذلك من الحكمة زيادة اتصالاته الأجنبية الأخرى لكى تساعده ضد المصريين، ولذلك وصل مبشرون من كنيسة إنجلترا من بريطانيا إلى بوجندا عام ١٨٧٧، ثم تلاهم المبشرون الكاثوليك الرومان من فرنسا عام ١٨٧٩، وحصل كلاهما على ترحيب كبير مادام التهديد المصرى، واستقرت المسيحية خلال الستة أو السبعة أعوام التالية بدرجات عميقة بين أقلية من دائرة البلاط، ولذلك استطاعت تجاوز اضطهاد قصير ولكن رهيب قام به خليفة موتيسا، ماونجا، عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦.

## شعوب كينيا وطرق تجارتها

ظل الطريق التجارى الرئيسى لبوجندا والدول الداخلية الأخرى هو الطريق الجنوبى الشرقى الذى يتصل بالطريق عبر تانزانيا، واستمر ذلك الوضع إلى بداية العصر الاستعمارى، وكان من الصعب جدا إنشاء طريق مباشر أكثر من بوجندا إلى الساحل عند ممباسا، نظرا للقبائل الرعوية والمقاتلة للعديد من الشعوب مثل الماساى فى منطقة كينيا الحالية، ولم يهاجم المساى الأجانب فقط، بل حاربوا باستمرار فيما بينهم خلال القرن التاسع عشر للسيطرة على أفضل أراضى

المراعى، ولذلك استمرت مناطق الهضاب العالية فى كينيا فى حالـــة قلـــق وعـــدم استقرار دائمين، كما يعبر التجار تلك المنطقة ويتعرضون لأخطـــار عديـــدة لهـــم ولبضاعتهم أيضا، كما لم يتمكن العرب الواصلون من إقامة صلات تجارية منتظمة مع البلاد الكثيفة السكان مثل اللوو والأبالوهيا فى منطقة كافيروندو شـــمال شـــرق بحيرة فكتوريا إلا بعد عدة عقود بعد استيلائهم على طرق النياموزى إلى جنـــوب وغرب البحيرة، وفيما بين كل الشعوب الكينية يشبه شعب الكامبا الذى يقـــيم فـــى الداخل على مسافة ١٨٠ ميل (٣٠٠كم) من ممباسا شـــعب النيـــامويزى. وأقـــاموا اتصالات تجارية مع الكيكويو من جهة ومع الشعوب الساحلية من جهة أخرى منـــذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

حدث ذلك حينما اضطرتهم مجموعة من المجاعات الرهيبة إلـــى مغـــادرة موطنهم بحثا عن الطعام. ولاحظ الرحالة والمبشر الألمانى يوهان كرايـــف كيـــف "يرسل السواحليون إلى الواكامبا المنسوجات القطنية (الأمريكية) والأقمشة الزرقاء والمنتجات الزجاجية والأسلاك المصنوعة من النحـــاس أو المشـــكلة، والصـــبغة الحمراء، والفلفل الأسود، والملح والزنك ويحصلون مقابل ذلك على الماشية والعاج أساسا، واستمر الكامبا فى احتكار التجارة بين بلاد الكيكويو وممباسا إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر حينما نقل العرب بفضل تنظيمهم الأفضـــل وأســـلحتهم تجـــارة الكيكويو إلى طرقهم الخاصة. ولكن لم يتقدم العرب إلى داخل أى مناطق كينية أو شمال تانزانيا إلى ستينيات القرن التاسع عشر، حينما استطاعوا فـــتح طـــرق إلـــى الشاجا فى منطقة كليمانجارو، واستطاعوا من هناك شق طـــريقهم عبـــر المنطقـــة الأضيق من سهل الماساى إلى كافيروندو، ووصل هؤلاء التجار العرب وصـــيادو العاج حوالى عام ١٨٨٠ إلى البلاد غرب بحيرة توركانا.

وهنا وفى آخر منطقة فى شرق أفريقيا التى لم تستغل بعد فى تجارة العـــاج اتصلوا بالمصريين من جنوب السودان وبالأثيوبيين الذين اهتموا بإثراء أنفسهم من تجارة العاج.

## قمة ازدهار القوة العربية السواحلية في شرق أفريقيا

رأينا أن أهم تطور أثناء الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر فى شرق أفريقيا هو التدخل التجارى للعرب السواحليين فى المنطقة كلها من الساحل الشرقي. وبدا لفترة بسيطة فى نهاية السبعينيات وبداية ثمانينيات القرن التاسع عشر أن الإمبراطورية التجارية لزنجبار قد تتحول إلى إمبراطورية سياسية، ورأى القنصل البريطانى العام، سيرجون كيرك، أن هذا التطور يرحب به للغاية، وأقام كيرك فى زنجبار منذ عام ١٨٦٤، وأصبح صاحب درجة كبيرة من النفوذ على السلطان ماجد فى البداية ثم بعد ذلك على شقيقه السلطان برغش، ولم يرغب كيرك أو سادته فى لندن فى التدخل البريطانى المباشر لشرق أفريقيا. ورأوا أن سلطان زنجبار الصديق سهل التأثير عليه هو أرخص وأفضل أسلوب للوصول إلى هدفهما الرئيسيان وهما إنهاء تجارة العبيد فى شرق أفريقيا ومنع تدخل القوى الأوروبية الأخرى فى تلك المنطقة. ولذلك تم إقناع برغش بإلغاء تجارة العبيد فى شرق أفريقيا ومنع تدخل القوى الأوروبية الأخرى فى تلك المنطقة. ولذلك تم إقناع برغش بإلغاء تجارة العبيد داخل أراضيه عام ١٨٧٣ واعتبارا من ذلك الوقت رحبت الحكومة البريطانية تماما بتوسيع ممتلكات السلطان. واستعان الأخير – بناء على اقتراح من كيرك – بأحد الضباط البريطانيين لزيادة أعداد وتدريب جيشه، وفى نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر بدأ فى إنشاء حاميات على امتداد طريق التجارة عبر تانزانيا، وشجع كيرك السلطان على زيادة مجهوده حينما رأى الاهتمامات المتزايدة للقوى الأوروبية الأخرى وبالذات تلك الخاصة بالملك ليوبولد ملك بلجيكا. وشجع بالتالى التجار العرب فى الداخل البعيد إلى التحول من التجارة إلى الغزو. وفعلوا كذلك فعلا: أولا تيبوتيب فى المنطقة حول بحيرة تنجانيقا، ثم العرب المقيمون حول الطرف الشمالى لبحيرة مالاوى وتبعهم العرب فى بوجندا، ووصل ممثل خاص من السلطان برغش عام ١٨٧٧ إلى بوجندا، حيث أعدم الكاباكا فى العام السابق عددا من المسيحيين فى بلاطه. وتآمر الممثل مع الحزب

الإسلامى فى المملكة لعزل موانجا عام ١٨٨٨ والاستيلاء على السلطنة لأنفســـهم. وتم فعلا إعلان أحد إخوة موانجا الصغار كاباكا. ولكن لــم يــدم هــذا الانتصـــار الإسلامى كثيرا؛ إذ استطاع موانجا استرداد حكمه عام ١٨٩٠ بمساعدة المسيحيين فى باجندا بالرغم من اضطهاده السابق لديانتهم.

وتعتبر إنجازات تيبوتيب وباقى الزعماء العرب قمة ازدهار القوة العربيـــة فى شرق أفريقيا، ولكن رأى المبشرون الأوروبيون المقيمون بطريقة متفرقة فـــى الداخل ذلك الأمر بعيون أخرى مختلفة تماما عما ظنه كيرك في زنجبـــار، وكـــان كيرك قد تخيل وجود سلطة لزنجبار تعترف بها الدول الكبرى، وبحيث تكون تلـــك السلطة تحت النفوذ البريطانى. وشاهد المبشرون القرى المحروقة واللاجئين الـــذين يتضورون جوعا، بالإضافة إلى ظهور تيار جديد بين العرب مضـــاد للأوروبيـــة والمسيحية فى الوقت نفسه ولذلك شعروا بالحنين، وفى بعض الأحوال عملوا مـــن أجل الاحتلال الاستعمارى الأوروبى لتلك الجهات، ولكن لم يســـتمر الاســـتعمار العربى السواحيلى طويلا على أى حال، فقبل أن يكون لإدانة المبشرين تأثير يذكر ظهرت جماعة من المغامرين الألمان والتى بينت أن سلطة سلطان زنجبـــار علـــى الداخل لم تكن إلا سرابا ووهما، ولم تطأ أقدام كارل بيترز ورفاقـــه فـــى جمعيـــة الاستعمار الألمانى أراضى شرقى أفريقيا قبل عام ١٨٨٤، ولكنهم فهمـــوا تمامـــا الواقع العملى، فهموا أنه على مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلا (٥٠ أو ٦٠ كم) فى الـــداخل توجد مجتمعات أفريقية لا تدين بأى نوع من الولاء لسلطان زنجبار، وفهموا أيضا أنه يمكن إقناع حكام تلك الجهات بالتوقيع على بعض الأوراق التى تضعهم تحـــت حماية قوة أوروبية وإتمام ذلك دون مشاكل تذكر. وهنا ومنذ تلك اللحظة تم القضاء فعلا على خطة كيرك، وبدأت عملية تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية الكبرى.

## مدغشقر

وضعت فتوحات الملك نامبيونا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أسس الدولة المارينية الكبرى، ويعتبر ذلك من أهم الأعمال السياسية الكبرى التى تمت فى أفريقيا لكنها قبل عصر الاستعمار، وحول خليفة نامبوينا وهو راداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) المملكة المحاربة إلى أمة تشبه فى نواحى كثيرة الدول الأوروبية الصغرى، وأتم فتوحات نامبوينا، ولذلك أصبح ثلثا مدغشقر تحت سيطرة الهوفا فى نهاية حكمه (الخريطتان ٣، ٤) واعترفت مملكة بتسيليو الثرية فى الأراضي المرتفعة حول فنياناراتسوا إلى جنوب تاناناريف بسلطة الملك راداما، وجهز جيش ميرينا بالأسلحة النارية بواسطة السفن البريطانية التى أرسلوها أساسا من جزيرة موريشيوس فى المحيط الهندى، كما نصح ثلاثى غريب يتكون من أحد الأسكتلنديين، وأحد الجامكيين وأحد الفرنسيين الملك راداما فى الشئون العسكرية، ولم يقصر الملك اهتماماته أبدا على الفتوحات والإصلاحات العسكرية، فلقد وصل أول المبشرين المسيحيين إلى إيميرينا عام ١٨٢٠ وبإذن من الملك، وكانوا من الجمعية التبشيرية البريطانية من لندن، وكان نجاح مجهوداتهم رائعا؛ إذ قدر عدد الهوفا الذين يستطيعون قراءة وكتابة لغتهم بعد سبعة أعوام فقط حوالى ٤٠٠٠ شخص، كما تم تدريب الكثيرين لممارسة المهن الأوروبية، وشعر الكهنة الوثنيون وطبقة الهونا العليا القديمة بتهديد أوضاعهم بطبيعة الحال من الديانة الجديدة والشباب المثقف، مما أدى إلى حدوث رد فعل لا مفر منه تقريبا، وخلفت أول ملكات القرن التاسع عشر فى دولة إيميرنا الملكة رانا فالونا الملك راداما الأول عام ١٨٢٨، وأغلقت مدارس جمعية المبشرين اللندنية، وسمحت بدخول مملكتها فقط للأجانب الذين يمكنهم المساهمة بطريقة مباشرة فى إنماء قوتها الاقتصادية والعسكرية، ولكن لم يمكن أبدا إزالة جذور المسيحية والتربية الغربية بسهولة، وبعد صراع عنيف على السلطة بعد وفاة الملكة رانا فالونا عام ١٨٩١ أصبح رجل ممتاز رئيسا للوزراء، وهو رايفيلا يريفونى، واستمر فى ذلك المنصب إلى مجيء الحملة

الفرنسية عام ١٨٩٤، ودعم موقفه تماما بزواجه من ثلاث ملكات متتاليـات، وعـاد عمل المبشرين وأصبح رافيلا يريفوني نفسه مسيحيا عـام ١٨٦٨، ولـذلك حـدث اعتناق كبير للمسيحية بحلول ثمانينات القرن التاسع عشر (وكان قد وصـل آنـذاك أيضا المبشرون الفرنسيون الرومان الكاثوليـك). كمـا أصـبحت نسـبة الأطفـال المالاجاس في المدارس مشابهة لتلك السائدة في غرب أوروبا، ولكن استمرت العقائد الوثنية، بل ازدهرت أيضا، وفي حالات كثيرة حتى بين الذين اعتنقوا المسيحية.

ويدل استمرار الإيمان بالعقائد التقليدية إلى ذلك التـوتر المتصـاعد داخـل الدولة المارينية. وغضبت الشعوب الخاضعة من الحكـم القاسـي للأرسـتقراطية الهوفا، كما استاء العديد من الهوفا أنفسهم من القوة الشخصية لـرئيس الـوزراء، ولكن بالرغم من أن معظم المسيحيين قد اعتنقوا المسيحية علـى أيـدى الجمعيـة التبشيرية اللندنية وبالرغم أن بريطانيا قد انتقلت بعلاقات دبلوماسـية وثيقـة مـع إيميرينا فإن نسبة كبيرة في التجارة الخارجية لمدغشقر كانت في أيدى الفرنسـيين، وكان الهوفا مستقلين تماما ولم يرغبوا أبدا أن يكونوا تحـت حمايـة بريطانيـا أو فرنسا، ولكن صمم الفرنسيون على حماية مصالحهم التجارية. وفي عام ١٨٨٥ بعد الحرب الفرنسية – الملاجاشية الأولى فرضوا معاهدة على إيميرينا، وتماما مثـل حالة معاهدة إيشالي بين إيطاليا وأثيوبيا (انظر الفصـل العاشـر) فـإن النسـختين الفرنسية والمالاجاشية لتلك المعاهدة قد اختلفتا كثيرا، فلقد فهم المالاجاسيون أنهم قد احتفظوا باستقلالهم بينما اعتقد الفرنسيون أنهم قد سيطروا على الشئون الخارجيـة للدولة، وأنهم بالتالي قد فرضوا حمايتهم على الجزيرة، ولذلك وتماما مثل ما فـي حالة أثيوبيا فإن سوء التفاهم الناشئ من تلك المعاهدة قد أدى إلى زيادة التوتر بـين فرنسا ومملكة إيميرينا.

# الفصل الثامن

## جنوب أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٥)
## النزاع بين البوير Boer والبانتو Bantu

كانت التجارة فى أفريقيا الاستوائية أساس اللقاءات الأولى بين الأفريقيين والناس من بقية أنحاء العالم. ولكن حدثت اللقاءات فى جنوب أفريقيا عادة بسبب الأرض. ففى أفريقيا الاستوائية أيضا تقابل التجار الأوروبيون والأفريقيون حتى عند اشتراكهم فى تجارة العبيد اللعينة على قدم المساواة. فلقد عامل كل منهم الآخر بمزيج من الحذر والاحترام.

واهتم الأوروبيون والعرب بإبداء اعترافهم بسلطة الحكام الأفريقيين واحترام عادات وتقاليد الشعوب الأفريقية. ولكن حضر الأوروبيون منذ البداية إلى جنوب أفريقيا ليس كتجار ولكن كمستوطنين. وحينما زادت أعدادهم وتوغلوا فى الداخل من مركزهم الأصلى عند شبه جزيرة الكاب Cape نظروا بحسد إلى أراضى الشعب المحلى خلال القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر لأن تلك الأرض كان يمتلكها الصيادون السان والرعاة الخوى khoi، ثم بعد ذلك لأراضى البانتو الكثيفة السكان وهم مزارعون ورعاة أيضا. ولذلك كان الغزو هو الوسيلة الوحيدة التى يمكن للبوير عن طريقها الحصول على تلك الأراضى الخصبة شرق مستوطنة رأس الرجاء الصالح، ويمكن أن يتم ذلك الغزو بواسطة جماعة من مزارعى الحدود الذين يركبون الجياد ومسلحون ببنادق الصيد ثم يطردون سكان قرية سان أو خوى أو حتى قرية للبانتو. كما يمكن أن يتم ذلك بواسطة القوات الرسمية للمستعمرة بعد حرب على الحدود التى تكون عادة نتيجة للغارات

والغارات المضادة للمزارعين الهولنديين. وشعر الغزاة بطبيعة الحال بتفوقهم على المهزومين وبرروا أعمالهم بهذا التفوق.

ونرى مشاعر تفوق البوير فى رواية أحد الرحالة الإنجليز الخاصة بأحد مزارعى الحدود الهولندية الذى سجنته وضربته بالسياط السلطات العسكرية البريطانية عام ١٧٨٨ لسوء معاملته لخادم من الخوى:

(استمر يندب طوال الليلة الأولى كما صرخ بصوت عال يا إلهى، هل هذا أسلوب يعامل به رجل مسيحى) ولم تكن تلك النداءات وليدة الألم الجسدى بل تعبيرا عن غضبه وحقده لمساواته بأحد الوطنيين السود. ويرى البوير أن الفرق بينهم وبين الأفريقيين يشبه تماما الفرق بينهم وبين ماشيتهم".

ونرى هنا جذور الأوضاع العرقية المميزة لجنوب أفريقيا، كما سبق أن رأينا فى الفصل الثانى كيف كان يمكن إيجاد حلول للنزاع الذى نشب بين الشعبين نظرا لطلبهما أراض أكثر إذا ما استمر كل منهما فى موقعه خلال الثلاثين عاما الأولى بعد اتصالهما ببعضهما البعض لأول مرة فى سبعينيات القرن الثامن عشر عند الحدود الشرقية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح. وكان يمكن آنذاك الوصول إلى اتفاق لوقف التوسع وإنشاء حدود دائمة يدافع عنها الجنود مثل تلك التى توجد بين الدول الحديثة. ولكن انتهى احتمال هذا الحل بعد العقد الأول أو الثانى من القرن التاسع عشر. فلم يمكن أبدا تلبية طلبات الناس على جانبى الحدود للحصول على أراض أكثر، ولذلك نشأ الصراع للاستيلاء على الأراضى فى جنوب أفريقيا على انتصار أحد الطرفين وهزيمة الآخر تماما.

## شاكا Shaka ودولة الزولو

حينما نشبت المعارك الأولى بين البيض والسود عند نهر فيش Fish كانت

أعداد شعب البانتو المتحدث بلغة النجونى يزداد تماما مثل البوير. ولذلك لـم تعـد توجد أراضى صالحة للحياة ورعى الماشية على جانبى الحدود، وذلك لاحتياج هذا الرعى مساحة كبيرة من الأراضى. ويعتبر ذلك أساسيا فى حيـاة بـانتو جنـوب أفريقيا؛ إذ كانت الماشية مصدر رزقهم ودلالة على ثرائهم وقوتهم، كمـا أنـه لا يستطيع أى شاب الزواج قبل إرسال ماشية لعائلة خطيبته، وفى العصور السـابقة أمكن مواجهة هذا الضغط السكانى والحيوانى على الأرض بالتوسع المستمر فـى اتجاه الجنوب الغربى على حساب شعب الخوى الأقل عددا عند غـرب مسـتعمرة رأس الرجاء الصالح. ولكن سد معظم هذا الطريق آنذاك لوجود المزارعين البوير الذين يرغبون أيضا - كما ذكرنا - فى الاستيلاء على المزيد من الأراضى. ولذلك وجب على البانتو الذين يريدون زيادة أراضيهم أن يهاجموا جيـرانهم والاسـتيلاء عليها بقوة السلاح.

وفى بداية القرن التاسع عشر قامت مجموعتان تقيمان فى الطرف الشـمالى فى بلاد النجونى وهما السوازى **Swazi** والزولو **Zulu** بعسكرة مجتمعهمـا فـى أعمال غزو. ولذلك دخل معظم جنوب أفريقيا آنذاك فى عصـر أسـماه أبناؤهـا "عصر الاضطرابات" (بلغة السوتو: **Difacni** ديفا كانى **Difacani** وبلغه الزولـو مفكانى **Mfecane**، وهو عصر عنف وخراب وتدمير.

ولم يكن الزولو فى البداية إلا عشيرة صغيرة تقيم على أراضى أحد الحكـام النجوانى فى ناتال Natal، وكان شاكا، المولود عام ١٧٨٧، أحـد أبنـاء زعمـاء عشائر الزولو ولكنه تخاصم مع والده فيما بعد ولجأ إلى بلاط الملـك دينجسـوايو حيث قوى مركزه ودعمه وأصبح قائدا للكتائب العسكرية. ثم نصبه الملك زعيمـا على عشيرة الزولو عند وفاة والده عام ١٨١٦. ولكن اغتيل دينجسوايو بعد عامين واستولى شاكا على الإمبراطورية العسكرية التى بدأ فى تشييدها، وأثبت شاكا أنـه قائد عسكرى من الطراز الأول وعبقرى فذ. وأعاد إصـلاح التنظـيم والأسـلحة والمناورات الحربية للإنبى دينجسوابو (وتعنـى إنبـى بلغـة الزولـو: الكتائـب

العسكرية). ثم نظم المحاربين الشباب فى كتائب طبقا لأعمارهم، ولم يسمح لهم بالزواج إلا بعد إنهاء خدمتهم العسكرية فى سن الثلاثين أو بعد ذلك، وكتب الرحالة الفرنسى أدولف فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر واصفا التحول والتغيير الذى قام به شاكا Chaka.

وقبل شاكا كان الزولو يرتدون الصنادل، أو يحاربون فى معاركهم بالأساجاى بالزولو: الرماح مثلما يفعل الأماكوسا (أى الخوسا) حتى اليوم، يهجمون فى البداية فى كتلة دون ترتيب. ولكن كون شاكا كتائب من ألف مقاتل فى كل منها ونزع الصنادل بالرغم من وجود أشواك فى الأحراش، ويأخذ كل محارب أسجاى واحد فقط، ثم يجب إبرازه بعد القتال وعليه دماء الأعداء. ولا يجب أن يكون القتال إلا بالالتحام المباشر. وسهل أسلوب القتال الجديد المجهول للشعوب المجاورة أعمال غزو شاكا بطريقة كبيرة.(٣٢)

وقام شاكا بتجربة الأساجاى الجديد قبل جعله السلاح النمطى للإيبى، وسمع هنرى فين أحد التجار الإنجليز والذى زار الملك الكبير عام ١٨٢٤ عن "القتال التجريبى" ووصفه فى مذكراته كنموذج لذكاء شاكا وعنفه البالغ.

ولم يوافق شاكا أبدا على أسلوب إلقاء الأساجاى. ولذلك جمع مجموعتين من رعاياه من أجل إحلال أسلوب هجوم مختلف بدلا من القديم وأمرهم بالحصول على أغصان من ساحل النهر وذلك للتأكد من تأثير السلاح عند استخدامه بالالتحام المباشر، وواجهت المجموعتان إحداهما الأخرى وألقت الأولى الأغصان بينما اندفعت الأخرى على منافستها وقاموا بضربها. وانتهت التجربة برضاء شاكا الكامل؛ حيث أصيب كثيرون من المجموعة الأولى، والكثير منهم كانت إصاباتهم بالغة. ثم أمر شاكا بذبح ستة ثيران وجمع أساجاى أتباعه وأمر بكسرها واستخدامها فى طهو اللحم. فوزع أفضل القطع على الذين تميزوا بشجاعتهم، أما

(٣٢) Voyage dans L,Afrique australe (paris 1847), Vol.2 p.218

الأجزاء السفلى وزعت – بعد وضعها فى الماء البارد – للذين ترددوا أثناء المعركة.[٣٣]

ولذلك أحاطت قوات شاكا من الإنبى العدو مثل قرون الثور، وكانت فعالة وذات تنظيم عسكرى دقيق لدرجة أنها كادت لا تهزم أبدا. وهزم زعماء النجونى القريتين واستخدم الزولو أراضيهم لرعى ماشيتهم. ولكن ضم شاكا العديد من الشبان والشابات إلى شعب الزولو الذى سيطر فى عصر هذا الملك وخليفته دينجان الذى اغتال شقيقه عام ١٨٢٨ على معظم أجزاء منطقة ناتال الحالية، ولذلك أصبحت سياسة الانفصال على امتداد حدود ثابتة ومتفقا عليها من الأمور المستحيلة نظرا لوجود تلك المملكةِ المقاتلة الشرسة والسريعة النمو خلف الحدود الشرقية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح مثلما سنرى فيما بعد.

## عصر الاضطرابات: موشش Moshish والباسوتو Basuto

شهد جنوب أفريقيا كله تقريبا آثار توسع الزولو بطرق غير مباشرة، فلقد عبر الهاربون من ناتال جبال الدراكنبرج أملا فى الهروب من شاكا وقوات الإنبى التابعة له. ولكن وجب عليهم أن يكونوا غزاة أنفسهم لإيجاد أراضى صالحة للإقامة، ولذلك قلدوا وسائل قتال الزولو. ولذلك اشتبكت شعوب السوثو – تساوانا– بتأثيرهم فى حروب دامية الواحد ضد الآخر تماما مثل انهيار الأحجار من فوق الجبل. وتجول آلاف من الناس النازحين عبر السهول Veld فى البرية أو لجأوا إلى الجبال. وأدى الجوع ببعضهم إلى الحياة بواسطة العنف والسلب والنهب، ثم بدأوا أعمال الغزو تماما مثل الزولو. أما أعتى الغزاة فكانوا شعب الباتلوكوا الذين حكمتهم ملكة شديدة البأس تدعى مانتاتيسى ثم ابنها سبيكوييلا من بعدها. أما

(٣٣) The Diary of Henry Fynn.ed J.Stuart and D.Mck. Malcolm (1950) P.283.

شعوب السوثو فإنها بعد استيعابها العديد من اللاجئين من ناتال فإنها قد هجمت على شعوب السوثو - تساوانا من غرب الترنسفال وبوتوسوانا وقسمتهم وأشاعت الفوضى بينهم. ولم تستقر مختلف شعوب التسوانا مثل الباكاتلا والباما نجواتو كممالك مستقرة إلا بعد منتصف القرن، ودفع البتسوانا بعد ذلك إحدى عشائر السوثو وهى البافوكنج أو الماكالولو تجاه الشمال، و يقال إن زعيمهم سبتوانى قد خاطب شعبه بالكلمات التالية عام ١٨٢٣.

"يا ساداتى، ترون الآن أن العالم ينهار فوق آذانكم، وطردنا نحن وشعوب أخرى من ديارنا القديمة، وتم الاستيلاء على قطعاننا، وقتل إخواننا وأبناؤنا، وخطفت زوجاتنا وبناتنا وجاع أبناؤنا، ولقد فرضت علينا الحرب، قبيلة ضد أخرى. وسوف نأكل بعضنا البعض، وعلمنا آباؤنا عبارة" كلوتسوكى نالا بمعنى السلام رخاء - ولكن لا يوجد سلام اليوم ولا رخاء! فماذا نفعل؟ هذه كلمتى يا ساداتي! فلنسر! ولنأخذ زوجاتنا وبناتنا وماشيتنا ولنذهب للبحث عن أراض حيث يمكننا العيش بسلام.(٣٤)

ولذلك ساد الماكولولو شمالا فى صراع مرير مع أعدى أعدائهم الندبيلى القاطنين شرقهم، واستقروا أخيرا حوالى عام ١٨٤٠ عند الزامبيزى الأعلى بعد تغلبهم على شعب اللوزى فى مملكة الباروتسى وجعلوهم أتباعا لهم. واستمر حكمهم على البارتسوى حوالى عشرين عاما فقط، ولكن كان هذا الوقت كافيا لتصبح لغتهم لغة الباروتسى لاند كلها.

كما استطاع زعماء أكفاء للغاية جمع شمل اللاجئين الهاربين من المفكانى فى منطقتين أخريين، وتم تشكيلهم فى أمم جديدة قادرة على مقاومة ضغط الزولو بل وفيما بعد الأوروبيين أيضا، وكانت إحداها مملكة السوازى التى أنشأها سوبهوزا وخليفته مساوزى، أما الأخرى فهى ليسوتو. وكان إنشاء تلك الدولة

---

(٣٤) Quoted in Edwin W.Smith, Greal Lion of Bechaunaland: The Life and Times of Roger Price (London 1957) P.367

إنجاز وتتويج حياة موشش أحد أكبر الزعماء الذين عرفتهم جنوب أفريقيـا كلهـا. ووصف ديوجين كاساليس المبشر الفرنسي الذى دخل البلاد عـام ١٨٣٣ وقضـى عدة أعوام كمستشار موشش للشئون الخارجية،

وكتب كاساليس عن موشش بلغة راقية مميزة للعديد من الأوروبيين فى هذا الصدد" ولموشش طباع جيدة ومثيرة للاهتمام، أما سلوكه فمبجل كما تدل ملامحـه على اعتياده التفكير والقيادة، وتوجد دائما ابتسامة عريضة على شـفتيه"، وأخيـرا عرف الملك كالساليس عصور السلام السائدة قبل غزو المفكاني قائلا:

"كانت بلاد الباسوتو كثيفة السكان فى العصر الذى ولد به موشش (حـوالى ١٧٩٠). وكانت الخلافات تنشب من وقت لآخر بين مختلف المجتمعات، ولكن لـم تصل أبدا إلى إراقة دماء كثيرة، ولا يزال الباسوتو يحتفلون حتى الآن فى أغانيهم بالمراعى الخضراء لبوتوبوتى موطن موشش والهضاب العالية المنحـدرة؛ حيـث كان يصطاد مع رفاقه. ولكن توقفت تلك الرياضات المفضلة فجأة، فى وقـت لـم ينتظره أحد، نظرا للغزوات الكارثة القادمة من ناتال، وعم الخـراب فـى وديـان ليسوتو المسالمة.

وظلت الحقول دون زراعة، وأضيفت ويلات المجاعة إلى ويلات الحـروب التى قضت أيضا على معظم الرجال الأكفاء، وواجه موشـش الموقـف الصـعب بشجاعة. فلقد رأى الأمور على حقيقتها وعرف كيفية المقاومة والمهادنة فى الوقت الملائم. وحصل على الحلفاء وحتى بين غزاة أراضية كما جعل الخلاف يدب بـين أعدائه ولكنه كان رحيما للغاية، ولذا احترمه حتى الذين أقسموا على تدميره.(٣٥)

وساعدت جبال بلادهم شعب الباسوتو فى حروبه ضد الزولو والبوير علـى السواء، إذ قدمت لهم المواقع الدفاعية المحصنة التى لا يمكن الاستيلاء عليها تقريبا حتى بواسطة القوات المسلحة بأسلحة نارية، وتظهر أسـاليب موشـش الحربيـة

---

(٣٥) Eugene casalis the Basuto (1861) (Cape Town 1965) PP.15-16

ومهارته الدبلوماسية التى مكنت الباسوتو من ممارسة نفوذ أكبر بكثير من أعدادهم وقوتهم العسكرية فى الطريقة التى عامل بها فرعا من الزولو على يدى النـديبيلى بعد فشلهم فى الاستيلاء على قلعتة الحربية الجبلية فى ثابا بوسيو عام ١٨٣١.

تقدم الزولو فى صفوف مترابطة لاعتيادهم النصر، ولم يلاحظـوا أن كتـل البازلت التى انهالت عليهم بصوت رهيب من قمة الجبل ولكن ما حدث انهيار عام، إذ انهالت عليهم عاصفة من الحجارة والرياح التى أدت إلى تراجعهم بسرعة تفوق تقدمهم وشوهد الزعماء يجمعون المنسحبين وينزعون عنهم الريش الـذى يـزين رءوسهم ويضعون أقدامهم عليهم من شدة العنف، ثم قادوا رجالهم ثانية تجاه القلعة المنيعة ولكن بدون جدوى، وانسحب الزولو من اليوم التالى وفى لحظـة رحـيلهم توقف أحد الموسوتو الذى يقود بعض الثيران السمينة أمام أول صفوفهم وأعطـى لهم تلك الرسالة. إن موشش يحييكم، ويفترض أن الجوع قد أحضركم إلى بـلاده، ولذلك يرسل لكم تلك الماشية لكى تأكلوا منها أثناء عودتكم لدياركم. ولم تهاجم تلك الشعوب موشش بعد ذلك أبدا.(٣٦)

وغادرت بعض جماعات الزولو التى تخاصم زعماؤها مع شاكا بلاد الزولو للقيام بأعمال غزو فى مناطق أخرى، فأخذ شعبه الشانجانى إلى جـازا لانـد فـى جنوب موزمبيق، وقام بغزو التوسنجا ثم ضمهم إليه، وكانوا السكان الأصليين فـى تلك المنطقة، ثم اندفع زعيم آخر وهو زفنجندابا ومحاربوه شمالا عبر نهر اللمبوبو ومنه إلى هضبة زيمبابوى حيث دمروا مملكة روزوى القديمة للشنجاير وهم حكام الهضبة القريبة، ثم تحرك زمنجدابا والنجونى التابعون له بعد فترة قليلة واسـتقروا فى النهاية على الهضاب العالية غرب بحيرة مالاوى ولكن وصلت بعض القـوات العسكرية للزولو من نجونى إلى مناطق بعيدة للغاية بعد أن ضمت إليهـا جنـودا جددا من الشعوب المهزومة وتوغلت شمالا إلى مسافات قاصية بلغـت السـواحل

---

(٣٦) I bid ,P.63

الجنوبية لبحيرة فكتوريا وشرقا إلى المحيط الهندى، ومثلما رأينا فى الفصل السابع كان لهم تأثير وشأن عظيم فى أحداث شرق أفريقيا، ثم قاد مزيليكالى فى نهاية الأمر عشائر الندبيلى التابعة له (وبلغه السوتو) وهم من بطون الزولو أيضا عبر جبال داراكنسبرج إلى منطقة المراعى العليا وتبعه فى ذلك عشائر المانتاتيسى والسبتوانى إلى أن هزمهم الغزاة البوير بالقرب من بريتوريا، ولم تهاجم تلك الشعوب موشش بعد ذلك وغادرت بعض جماعات الزولو التى تخاصم زعماؤها مع شاكا بلاد الزولو للقيام بأعمال غزو فى مناطق أخرى، بالقرب من بريتوريا الحالية عام ١٨٣٧، ولذلك انسحب الندبيلى شمالا عبر الليمبوبو واستقروا فى الجزء الغربى لهضبة زيمبابوى (أرض الماتابيلى) وحولوا معظم شعب الشونا المحلى الرعايا السابقين لمملكة روزوى إلى تابعين يسددون لهم الجزية.

## توسع البوير.. الهجرة الكبرى

هرب اللاجئون أيضا من جيوش الزولو الظافرة إلى مستعمرة رأس الرجاء الصالح الشرقية، مما زاد من حدة النزاع على الحدود مع المزارعين الهولنديين الذين ازدادت أعدادهم حينما وصل ٥٠٠٠ مستوطن بريطانى عام ١٨٢٠، وغضب دعاة الإنسانية وجماعات المبشرين فى بريطانيا من انعدام القانون عند الحدود، بالإضافة إلى المعاملة القاسية المذلة للمزارعين الأفريقيين شبه العبيد بواسطة البوير، وأجبرت تلك الجماعات الحكومة البريطانية على اتخاذ موقف أكثر مسئولية تجاه الشعوب غير البيضاء فى الإمبراطورية البريطانية، وذلك فى الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر، وكان أكثر المبشرين المسيحيين نشاطا فى جنوب أفريقيا هو جون فيليب من جمعية المبشرين اللندنية، ولذلك أصبح الخوى والسان بفضل مجهوداته فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح تحت حماية القانون عام ١٨٢٨، ثم وسع حملته بعد ذلك لتشمل العبيد السابقين بعد إلغاء العبودية عام

١٨٣٣، وهنا رأى البوير أن الحكومة البريطانية تهتم أكثر بحماية خدمهم أكثر فى توسعهم على حساب قبائل النجونى، واعتبر أن من حق كل مزارع هولندى امتلاك ضيعة مساحتها ٦٠٠٠ فدان عند زواجه، ولذلك سرعان ما نفدت الأراضى عند حدود المستعمرة، ولكن أعيدت منطقة كبيرة على الحدود الشرقية والتى ضمت سابقا إلى الأفريقيين عام ١٨٣٦، وذلك لعدم استعداد الحكومة البريطانية لسداد تكاليف إدارتها، ولم يحتمل البوير ذلك بالمرة ولذلك هاجر الكثيرون Trek (وتعنى تلك الكلمة بالهولندية رحلة أو هجرة) خارج الأراضى البريطانية وعبر نهر أورانج إلى الشمال، وذكرت أنا سيتنامب وهى شقيقة أحد زعماء الهجرة الكبيرة أحد أسبابهم الرئيسية لمغادرة مستعمرة رأس الرجاء الصالح.

"إنها تلك الإجراءات المخزية وغير العادلة فيما يتعلق بإعتاق عبيدنا، ولا يتعلق الأمر فقط بتحريرهم الذى أدى بنا إلى تلك الهجرة ولكن أيضا مساواتهم بنا – نحن المسيحيين – مما يخالف قوانين الرب والفرق الطبيعى النابع من الدين والعرف، ولذلك أصبح من المستحيل على أى مسيحى يحترم نفسه أن يخضع لتلك المذلة، ولذلك خرجنا من أجل ممارسة شعائرنا بحرية ونقاء، وعلق ليفنجستون فيما بعد لقد صمم البوير على إنشاء جمهورية لأنفسهم يمارسون بها دون مضايقة "معاملة السود بالأسلوب المناسب" وهذا الأسلوب المناسب قد احتوى دائما على عنصر أداء العمل دون أجر (أى العبودية).(٣٧)

وعلم المهاجرون البوير من الصيادين والتجار أن المناطق الخصبة فى ناتال قد هجرها سكانها هربا من الزولو الذين حولوها إلى مراعى، ولذلك قرروا دخول أراضى الزولو بعبور الترنسفال ثم النزول فى مضايق جبل الدراكنبرج إلى ناتال. ورغبوا بذلك تجنب لقاء أراضى النجونى الكثيفة السكان بين نهر فيش Fish وناتال. ونجح ملك الزولو دنجاى فى بداية الأمر باحتواء هذا الخطر، ولكن هزم

---

(٣٧) Quoted in John Bird, Annals of Natal (pietermarizburg 1888) Vol.I,P.459.

البوير تحت قيادة بريتوريوس ملك الزولو عام ١٨٣٩ وأنشأوا جمهورية فى ناتال، وأدى ذلك الأمر إلى دخولهم فى نزاع آخر مع الحكومة البريطانية التى رفضت تماما وجود أى قوة أوروبية منافسة على سواحل المحيط الهندى، كما خشيت أيضا فعلا من سيطرة البوير على ناتال وتهديدهم للنجونى المقيمين عند شرق مستعمرة رأس الرجاء الصالح ومضاعفات ذلك، ولذلك استولت بريطانيا على ناتال عام ١٨٤٥ وغضب معظم سكان ناتال البوير وعادوا إلى الأراضى المرتفعة؛ حيث كانت جماعات أخرى من المزارعين الهولنديين قد طردت عشائر النديلى عبر نهر الليمبوبو، واضطرت الحكومة البريطانية رغما عنها تقريبا لمتابعة البوير شمال نهر أورانج. ولكنها اعترفت فيما بعد على التوالى باستقلال جمهوريتى البوير فى الترنسفال ودولة أورانج الحرة فى ١٨٥٢ و١٨٥٤.

ولذلك تكونت جنوب أفريقيا فى منتصف القرن التاسع عشر من مستعمرتين بريطانيتين وهما مستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال وجمهوريتين للبوير والعديد من الممالك والعشائر الأفريقية المستقلة التى كانت أكبرها ممالك الباسوتو والزولو، ولم يزد السكان البيض كلهم عن ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، أما السكان الأفريقيون فكانوا بين مليون ومليونين من الناس، ومنحت بريطانيا مستعمرة رأس الرجاء الصالح دستورا وبرلمانا منتخبا عام ١٨٥٣، ثم منحتها الحكم الذاتى الكامل عام ١٨٧٢. وكان الانتخاب غير عرقى؛ إذ يمكن انتخاب النواب من كل الأجناس بشرط امتلاكهم قدرا معينا من الملكية، أو أن يكون لديهم قدر معين من الأجور ولكن لم يشارك باقى الأوروبيين فى جنوب أفريقيا فى ممارسة تلك السياسة الليبرالية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح. فلم يتم الاعتراف فى جمهوريتى البوير بالمواطنة إلا للبيض فقط، كما كان من حق الرجال البيض فقط ممارسة الحقوق الانتخابية.

## نهاية الدويلات الأفريقية المستقلة

وأدت عملية اكتشاف مقادير هائلة من الماس بجوار منطقة التقاء نهرى الأورانج والفال إلى حدوث تلك التطورات التى أدت إلى فقدان الشعوب الأفريقية المستقلة استقلالها. وكان ذلك أمرا لا مفر منه، وسرعان ما أصبحت تحت الحكم الأوروبى المباشر، وظهر أن الوضع كان رديئا بين عامى ١٨٥٦- ١٨٥٧ لخوسا والنميو المقيمين بالجوار المباشر لشرق مستعمرة رأس الرجاء الصالح أنهم اتبعوا نبوءة إحدى الفتيات نونج كيس التى وذكرت أنه إذا قتلت الماشية فى يوم معين وإذا دمرت الحبوب فى اليوم نفسه فإن أجداد القبائل سوف يرمون الأوروبيين فى البحر. وكانت النتيجة مجاعة هائلة مات بها الآلاف بينما غادر كثيرون أراضيهم وتوجهوا للبحث عن العمل والطعام فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح. وأدى افتتاح مناجم الماس إلى زيادة كبيرة فى الطلب على العمالة، ولذلك اتجه الأفريقيون من كل جهات جنوب أفريقيا إلى كيمبرلى، وزودت الشركات من الأيام الأولى من ممارسة أعمالها العمال بالأسلحة والذخيرة، ولذلك عاد الآلاف من الأفريقيين إلى ديارهم بالأسلحة النارية. وأدى ذلك إلى خوف مبالغ فيه بين الأوروبيين لقيام ثورة شعبية أفريقية موحدة. ولكن ولحسن حظ الجانب الأوروبى أن الحروب التى نشبت فيما بعد كانت مختلفة تماما ولكنها أدت أيضا إلى دمار رهيب، لأن الأوروبيين والأفريقيين قد امتلك كلاهما أسلحة نارية.

وتولت حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح السيطرة على الباسوتو عام ١٨٧١ بعد دخولهم فى صراع مرير على الأرض مع مزارعى الدولة الحرة، ثم قضت الحكومة فى النهاية على القوة القتالية للخوسا Khosa وباقى قبائل النجومى على الحدود الشرقية عام ١٨٧٧ وإن تم ذلك بتكلفة كبيرة من الأرواح والأموال. واستولت بريطانيا أيضا على الترنسفال Transvaal عام ١٨٧٧؛ حيث لم تستطع قوات البوير الحكومية الفقيرة مواجهة تطورات الحرب الناشبة ضد قبائل البابيدى Bapedi تحت قيادة زعيمهم سيكوكونى.

فلقد تورط البريطانيون هنا لكونهم أصدقاء الزولو فى ناتال فى صراع بين البوير فى الترنسفال وشيشوايو (تنطق كيتشوايو) وهو ابن شقيق وخليفته دنجانى Dingane حول قطعة أرض مراعى. ولكن تحدى سير بارتل فرير Sir Bartle Frere المندوب السامى البريطانى فى جنوب أفريقيا ششتوايو إلى الحرب. واستطاع الزولو سحق جيش بريطانى فى إساندوانا قبل أن تلحقهم التعزيزات البريطانية التى أرسلت إلى ناتال، وشهد العام التالى ١٨٨٠ بداية حرب كبيرة بين حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح والباسوتو التى بدأت بمحاولة نزع سلاح الأفريقيين. ولكن أنقذت حكومة المستعمرة من تلك الحرب الكارثة حينما تولت الحكومة البريطانية المسئولية المباشرة لإدارة أرض الباسوتو Basuto Land ولم تكن تلك الاضطرابات الوحيدة، فلقد تورط الأوروبيون أيضا فى نزاعات مع بعض قبائل التسوانا Tswana والكورانا Korana والخوى عند نهر الأورانج الأسفل، واشتعلت الخلافات المتميزة بين الهيرورو (بانتو) والناما Nama (خوى) فى جنوب غرب أفريقيا فى نشاطات التجار الأوروبيين، وكان الشعبان من الرعاة فى أرض جافة وأخذا مواقف متباينة مع الأوروبيين - الواحد ضد الآخر - وموّلهم الأخيرون بالأسلحة النارية والخمور، وقبل نشوب تلك الحروب كلها، بل أثناء استمرارها حاول وزير المستعمرات البريطانى لورد كانارفون فى بريطانيا وفى مستعمرة رأس الرجاء الصالح بواسطة فرير Frere توحيد كل الدول البيضاء فى جنوب أفريقيا فى دولة كبيرة واحدة تحت حكم حكومة واحدة. وفشلت عملية الاتحاد المذكورة فى نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر. ولكن لم يغفر للبوير فى دولة أورانج الحرة البريطانية أبدا لاستيلائهم على منطقة غرب جركوالاند الغنية بالماس عام ١٨٧١. ولذلك ثار سكان الترنسفال على الحكومة التى فرضتها بريطانيا عليهم قبل ثلاثة أعوام وهزموا القوات البريطانية المرسلة ضدهم لقمعهم فى تل ماجوبا عام ١٨٨١.

## الطريق إلى الشمال

أدى وجود المبشرين المسيحيين إلى زيادة العداء بين الحكومة البريطانية والبوير الذين نظروا إلى نشاطاتهم بين الأفريقيين بشك عظيم. وأُنشئت الإرساليات داخل حدود مستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال، وإن كانت لم تنجح كثيرا بين شعوب النجوني التي مازالت مستقلة وشديدة البأس في القتال وبالذات الزولو والنديبيلي، ولكن زاد تأثير المبشرين بين السوثو والتسوانا، وأقامت الجمعية التبشيرية البارسية علاقات وثيقة مع موشش، كما سبق القول وبالرغم من عدم اعتناقه المسيحية – ولا خليفته – فإن الآلاف في الباسوتو قد تعلموا القراءة والكتابة وأصبحوا مسيحيين، وعمل روبيرت موفات من الجمعية التبشيرية اللندنية بين الجريكوا (وهي مجموعة من أصول خوري وأوروبية مشتركة) والتسوانا عند كورومان عبر الحدود الشمالية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح منذ عشرينات القرن التاسع عشر. وأدى توغل البوير إلى أراضي التسوانا أثناء وبعد الهجرة الكبيرة إلى زيادة كرههم للمبشرين التابعين لحكومة الترنسفال، مما جعل المبشرين يصرون على فتح طريق إلى الشمال خال من سيطرة البوير. وبدأ يستخدم عمله في أفريقيا كمبشر ومستكشف وعمل لإنشاء طريق التبشير وهي قطعة الأرض الضيقة في بوتسوانا بين الترنسفال وصحراء كالاهاري التي تتجه شمالا إلى ماتابيلي لاند والباروتسي لاند.

وعلم التجار والمبشرون الإمكانيات المتاحة للمسيحية والتجارة في الأراضي شمال نهر الليمبوبو بعد رحلة ليفجستون الكبيرة من باروتسي لاند إلى لواندا، ومن هناك عبروا أفريقيا إلى مصب نهر الزامبيزي (١٨٥٣ – ١٨٥٦). وفهمت الحكومة البريطانية بالذات الأهمية الحيوية لطريق المبشرين "بين جنوب أفريقيا والداخل". وبعد استيلاء الألمان على جنوب غرب أفريقيا عام ١٨٨٣ وضمها إليهم أقام البريطانيون الحماية على بوتسوانا (التي عرفت في العصر الاستعماري كبتشوانا لاند). ومهد ذلك الطريق لرودس لاحتلال زيمبابوي بعد بضعة أعوام.

# الفصل التاسع

## تقسيم أفريقيا نظريًا (١٨٧٩ - ١٨٩١)
## المصالح التجارية الأوروبية فى أفريقيا قبل التقسيم

حدثت أحداث جليلة فى أوروبا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتى أدت إلى تغيير وجه أفريقيا. ولكن لا يمكن فهم هذه التغيرات إلا بالحديث عن أصولها وتطورها خارج القارة الأفريقية، ففى عام ١٨٧٩ كان الأفريقيون يحكمون أكثر من ٩٠ بالمائة من القارة "ولكن بحلول عام ١٩٠٠ تغير الأمر تماما وحكمها الأوروبيون كلها باستثناء بعض المناطق البسيطة. ولكن أثر هذا الحكم الأجنبى كثيرا على حياة كل الشعوب الأفريقية بحلول عام ١٩١٤. وقسم الأوروبيون فيما بينهم القارة الأفريقية بسرعة كبيرة كأنهم رياضيون فى لعبة شرسة عنيفة لدرجة أن تلك العملية قد عرفت "بالتهافت على أفريقيا" من أجل تقسيمها.

ولكن نبعت أسباب هذا التقسيم والدوافع الكامنة خلفه من صميم التاريخ الأوروبى وليس الأفريقى بالمرة، وأدت فى النهاية إلى تلك التصرفات الأوروبية، ولذلك يجب الالتفات إليها جيدا لمعرفة الدوافع الكامنة خلفها.

ويجب أن نتأكد – بادئ ذى بدء – أن القوى الأوروبية الكبيرة فى غرب أوروبا خلال الخمسة وستين عاما الأولى فى القرن التاسع عشر دولتان فقط وهما بريطانيا وفرنسا. ولم تكن ألمانيا وإيطاليا قد توحدتا بعد وبرزتا كقوتين أوروبيتين كبيرتين. وتخلت كل من هولندا والدانمارك وهما من القوى الأوروبية الصغرى عن ممتلكاتهما الأفريقية (المحطات التجارية على ساحل الذهب) خلال القرن

التاسع عشر، ولم يبق إلا البرتغال كمنافس صغير لبريطانيا وفرنسا - كما يجب أن نتذكر أيضا أن فرنسا برغم قوتها العسكرية الكبيرة للغاية قد تخلفت بالعكس كثيرا عن بريطانيا فى مجال التطور الصناعى والتجارى، ولذلك اتبعت سياسة الحماية بمعنى أنها خصصت تجارة مستعمراتها لتجارها فقط لكون منتجاتها أقل جودة أو أكثر سعرا من المنتجات البريطانية. ولذلك وجدت قواعد عسكرية وتجارية فرنسية لا يمكن للتجار غير الفرنسيين دخولها فى السنغال من عام ١٨١٥، وفى غينيا وساحل العاج وداهومى والجابون ومدغشقر منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن كانت تلك المناطق صغيرة للغاية. وفرضت بريطانيا الرسوم الجمركية على المنتجات البريطانية والأجنبية على السواء فى كل مستعمراتها الأفريقية. ولكن نعلم تماما أن تجار جميع الأمم كانوا يعملون فى أفريقيا فى المناطق الساحلية التى لم ترتفع عليها أية أعلام أوروبية بعد. ولذلك لم تجد بريطانيا أسبابا تجارية على الأقل تدفعها للاستيلاء على مساحات كبيرة من القارة وذلك طالما استمرت التجارة الحرة على السواحل متاحة للجميع، ووجدت فرنسا فى نهاية الأمر أن مناطق استيطانها المحمية قد كلفتها كثيرا وزادت أعباؤها وتكاليفها عن أرباحها وأصبحت بالتالى عبئا اقتصاديا ثقيلا.

## تطور المنافسة الأنجلو - فرنسية في غرب أفريقيا

لكن ظهر وضع جديد وتطور فرض نفسه بسرعة على مسرح الأحداث فى غرب أفريقيا بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، فلم تعد التجارة ساحلية فقط إذ ظهرت السكك الحديدية أو البواخر النهرية فى الأماكن الحيوية القليلة، ولذلك بدأت التجارة الأوروبية تتوغل إلى الداخل، وزحف الفرنسيون فى عمق وادى السنغال كما عرف أن هدفهم كان ربط السنغال والنيجر الأعلى بخط سكة حديدية من أجل جذب معظم تجارة الداخل الأفريقى إلى الأيدى الفرنسية. وأدى هذا التطور إلى

التأثير على المحطات التجارية البريطانية فى جامبيا Gambia ثم فيما بعد على الطرق التجارية المؤدية إلى سيراليون وساحل الذهب. وأدى تطور الأحداث عند النيجر الأدنى إلى ظهور فكرة وجوب تكتل الشركات البريطانية العديدة فى شركة احتكارية كبرى من أجل توحيد جهود العمل فى الأسواق الداخلية والوصول إليها بواسطة البواخر الخاصة. ويعتبر ذلك هو الأسلوب الوحيد لخفض التكاليف الاستثمارية الداخلية وتكوين جبهة موحدة تواجه إمارات الفولبى القوية فى الداخل، وفعلا جمع جورج جولدى الشركات البريطانية العاملة أعالى النهر فى شركة واحدة عام ١٨٧٩، ولكنه وجد التجار الفرنسيين ينافسونه هناك أيضا، ولذلك تعامل معهم بطريقة عنيفة شرسة للغاية فلقد خفض أسعاره لدرجة أدت إلى خسارته ولكنها أدت أيضا إلى إجبار منافسيه الفرنسيين على تصفية أعمالهم وبيعها إلى شركته التجارية، الخاصة ولذلك فهم الفرنسيون بالتأكد انه يجب أن تحصل على تأييد سياسى بالنسبة للمستقبل على الأقل.

## دخول القوى الجديدة

كانت بريطانيا وفرنسا قد فكرتا فى تقسيم القارة إلى مناطق نفوذ فى غرب أفريقيا بحيث تحتكر كل منهما تجارة منطقة نفوذها فى غرب أفريقيا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر، ولذلك قدم الفرنسيون اقتراحا بأن تتنازل بريطانيا لفرنسا عن جامبيا مقابل مد السيطرة البريطانية على الساحل من سيراليون إلى جبل الكميرون، ولكن تم تجميد هذا المشروع عام ١٨٧٥، ولولا تدخل القوى الأوروبية الأخرى لتم إحياؤه ثانية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر بحيث يسيطر الفرنسيون على النيجر الأعلى والطرق المائية المؤدية إلى ساحل غينيا الأعلى والبريطانيون على نهر النيجر الأدنى وسواحل غينيا السفلى. ولكن أدى تدخل قوتين أوروبيتين جديدتين و اللتين لم تبديا حتى ذلك الوقت اهتماما يذكر بأفريقيا

إلى حلبة الصراع إلى تغيير معدل سرعة تطور الأحداث، ولذلك ازدادت سرعة التفكير فى تقسيم أفريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا فى أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر نظرا لأهمية الحفاظ على المصالح التجارية فى الداخل، ولكن أدت التدخلات والمنافسات الجديدة إلى إجبار كل القوى الأوروبية جمعاء - حتى بريطانيا وفرنسا - إلى النظر أبعد بكثير من المصالح التجارية المباشرة.

وخشيت كل دولة أن يغلق منافسوها آفاق التجارة أمامها فى المستعمرات الجديدة وذلك بفرض رسوم (أو جمارك) عالية على منتجات الآخرين، ولذلك دخلت كل دولة حلبة الصراع وتهافتت للاستيلاء على الأراضى لكى تحصل على أكبر مناطق نفوذ لمصالحها الخاصة فى المستقبل.

## الملك ليوبولد والكونغو

وكان أول القادمين الجدد فردا وليس دولة وكان الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا وهى دولة صغيرة بين عملاقين أوروبيين هما فرنسا وألمانيا، ولم يشارك الشعب البلجيكى أبدا الأحلام التوسعية لحاكمه. وكتب ليوبولد فى تاريخ مبكر عام ١٨٦١: "إن البحر يجاور ساحلنا والعالم أمامنا، وألغى البخار والكهرباء المسافات ويمكن لكل الأراضى التى لا صاحب لها (ومعظمها فى أفريقيا) أن تكون مجالا لعملياتنا ونجاحنا، وكان ليوبولد دبلوماسيا فذا ورجلا ذا طموح رهيب، وتميز بالمثالية الحقيقية أثناء فترة شبابه والإيمان بالتقدم الإنسانى والحاجة إلى تحسين أحوال الشعوب الأقل حظا، ولكن، ومع تقدمه فى العمر، حَلّ الحب المتزايد للثروة والقوة محل مثاليته المبكرة، وأتت فرصة ليوبولد مثلما رأينا فى الفصل السادس عند ظهور خطط ستانلى Stanley لفتح حركة المرور النهرى فى حوض الكونغو، وكون المستشكف تلك الخطط بعد إبحاره على النهر عام ١٨٧٧ وإن كانت الحكومة البريطانية قد رفضتها. وعين ليوبولد ستانلى فى خدمته عام ١٨٧٩.

ولذلك أنشأ ستانلى فى الأعوام الأربعة التالية اتصالات برية ونهرية من بداية نهر الكونغو إلى شلالات ستانلى (مدينة ستانلى) وكيسانجاني. ورغب ليوبولد فى الكونغو تماما مثل جولدى فى النيجر فى الحصول على الاحتكار التجارى الذى سوف يجذب كل تجارة حوض الكونغو إلى بواخره الخاصة وسكة حديده الخاصة أيضا من بحيرة ماليبو إلى الساحل.

ولم يهتم ليوبولد فى تلك المرحلة بالحصول على معاهدات سيادة أو ملكية قانونية من الحكام الأفريقيين فى منطقة حوض الكونغو الأدنى. واعتمد هنا على سيادته على خطوط المواصلات. ولكن أدت أعماله إلى رد فعل سريع من منافسه "جماعة فرنسية" والتى عاد وكيلها وهو سافورجان دى برازا إلى أوروبا فى صيف عام ١٨٨٢ ومعه معاهدة وقعها ماكوكو Makoko زعيم بلاد البانيكى عند السواحل الشمالية لبحيرة ماليبو، ووضعت تلك المعاهدة أراضيه تحت السيادة الفرنسية، وتجول دى برازا فى فرنسا وحرك المشاعر الاستعمارية بنجاح باهر لدرجة إقناعه الحكومة الفرنسية بالتصديق على معاهدته مع ماكوكو، وبدا برنامجا كبيرا لعقد المعاهدات والضم عبر الساحل النيجيرى، وأدى ذلك الأمر بالحكومة البريطانية للانضمام إلى السباق الخاص بالأراضى النيجيرية، وأجبرت الملك ليوبولد للحصول على معاهدات تمنحه حقوق السيادة فى منطقة الكونغو الأدنى، وهنا بدأ التهافت على تقسيم غرب ووسط أفريقيا جديا.

وبعدها بدأ بضم الأراضى، وسعى الملك ليوبولد بمهارة للاعتراف الدولى بحقه فى حكم حوض الكونغو، وأقنع الحكومة الفرنسية بتأييده بوعد سرى أن المنطقة ستئول إلى فرنسا إذا لم يستطع إدارتها شخصيا، وحصل كذلك على تأييد المستشار الألمانى بسمارك فى اللحظة التى كانت ألمانيا تستعد بها الدخول إلى حلبة السباق الاستعمارى، وقدم وعودا مغرية إلى التجار الإنجليز بمنحهم عقودا قيمة، واستطاع بواسطتهم القضاء على خطة الحكومة البريطانية فى منع وصوله إلى الكونغو بالاعتراف بمطالب السيادة البرتغالية على مصب النهر، كما استطاع

وكيل وزارة المستعمرات الأمريكية ويدعى ساندفورد إقناع الولايات المتحدة بالانضمام إلى فرنسا وألمانيا والاعتراف بدولة الكونغو الحرة.

## ألمانيا تدخل عملية التكالب ١٨٨٣ - ١٨٨٥

حدثت ثورة اقتصادية وسياسية كبيرة في ألمانيا في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر،وتوحدت معظم الدول المستقلة الناطقة بالألمانية حول دولة بروسيا الألمانية الشمالية تحت قيادة بسمارك، وكان أساس الوحدة السياسية هو اتحاد جمركي يمكن ألمانيا من التقدم في التصنيع، وأدى الجمع بين الوحدة السياسية والنمو الاقتصادي الحديث إلى ظهور قوة كبرى في أوروبا، ولذلك استطاعت ألمانيا منافسة فرنسا عسكريا وبريطانيا صناعيا بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، وأدت المنافسة الفرنسية البروسية إلى نشوب الحرب بينهما عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ وهزمت فرنسا واضطرت للتنازل عن ولايتين على الحدود لألمانيا وهما الألزاس واللورين، ثم اتجهت بعض الجماعات السياسية في فرنسا وألمانيا من تلك الحرب إلى أفكار التوسع الاستعماري، ورأى الفرنسيون أن في ذلك تعويضا عن مهانة الهزيمة من الألمان نظرا لقوتهم الجديدة، ولكن رفض بسمارك شخصيا الاهتمام بالمسائل الاستعمارية لفترة طويلة، وترك الأمر لجماعات تجارية في المدن التجارية الشمالية لخلق الطلب الشعبي للحصول على مستعمرات ونجحت تلك الجماعات نجاحا باهرا لدرجة أن بسمارك قد غير آراءه بين ١٨٨٣ و١٨٨٥، وأخذ دبلوماسيي أوروبا على غرة بإعلانه الحماية الألمانية على أربع مناطق متفرقة تماما في أفريقيا وهي توجو والكاميرون وشرق أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا.

ولم ينبع طلب ألمانيا للحصول على مستعمرات من أي مصالح مادية تكونت في أفريقيا مثل ذلك، فلقد كان ذلك تأكيدا منها فقط لوضعها الجديد كقوة عالمية

كبرى، وتوجد حقيقة فعلية فى النظرية القائلة إن بسمارك قد اشترك بنفسه فى عملية التقسيم من أجل السيطرة على السياسة الدولية للقوى الأوروبية المرتبطة بها، ورغب أيضا فى إبعاد اهتمامات الفرنسيين لاستعادة الولايتين الضائعتين، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هى توريطها فى منافسات مع القوى الأخرى للحصول على أراضى عبر البحار ولذلك أيد المطالب الفرنسية فى غرب أفريقيا وحوض الكونغو وقام بعمليات الضم الألمانية فى مناطق تهدد المصالح البريطانية وليس الفرنسية أبدا.

وكان لوضع بريطانيا المميز فى مصر أهمية كبرى فى دبلوماسية التقسيم، ونذكر أن الاحتلال البريطانى لمصر (الفصل الثالث) قد خطط على كونه عملية بريطانية - فرنسية مشتركة لسحق ثورة عرابى باشا وإعادة سلطة الخديوى توفيق. وخطط هذا الاحتلال ليكون تدخلا مؤقتا، ولذلك لم يحدث تغيير فى سيطرة لجنة الدين الدولية على ماليات مصر. واعتمد الحكم البريطانى فى مصر بالتالى على الصوت الألمانى فى اللجنة التى كانت لها أهمية كبرى هناك، ولذلك أيد بسمارك الحكم البريطانى فى مصر وذلك خلال الأعوام الحرجة فى عملية التقسيم، ومن ثم حصل على موافقة بريطانيا لأعمال الضم الجديدة وتأييده لمطالب فرنسا والملك ليوبولد شمال وجنوب نهر الكونغو.

ولذلك سيطر بسمارك على الجولة الأولى من عملية التقسيم التى انتهت فى مؤتمر برلين (١٨٨٤ - ١٨٨٥). ومهد المؤتمر الطريق للقادمين الجدد على الساحة الأفريقية بالتركيز على أن تكون المطالب الخاصة بالمستعمرات أو المحميات أو أية منطقة من الساحل الأفريقى قد تم تبليغها رسميا إلى القوى الأخرى المشتركة فى المؤتمر، وبالتأكيد على أن تلك المطالب تعززها عملية إنشاء إدارة فعالة فى المناطق المختصة، وأنهت تلك المفاهيم الأفكار البريطانية عن إنشاء إمبراطورية بواسطة النفوذ فقط. وقرر المؤتمر أيضا أنه يجب أن توجد حرية الملاحة على نهرى النيجر والكونغو، مما أنهى المحاولات البريطانية لإغلاق

النيجر أمام الفرنسيين والكونغو أمام الملك ليوبولد ولذلك شهدت أعـوام ١٨٨٣ – ١٨٨٥ تراجعا أو مفاجآت أو توقف بريطانى فى جهة أفريقية بعد أخـرى – كمـا تأثرت منطقة النفوذ البريطانية الكبيرة فى غينيا السفلى بإقامة محمية فرنسية فـى داهومى (الآن بنين) ومحميتين ألمانيتين فى توجو والكـاميرون، وقسـم سـاحل الكونغو الجابون حيث ازدهرت التجارة البريطانية لفترة طويلة بين فرنسا والملـك ليوبولد، وانكسرت وحدة المناطق الساحلية الأفريقية الجنوبية التى سيطرت عليهـا بريطانيا طويلا أيضا لوجود محمية ألمانية فى جنوب غرب أفريقيا، ووقعت دولـة ميرينا فى مدغشقر معاهدة مع فرنسا بالرغم من أن النفوذ التبشـيرى البريطـانى هناك قد استمر فى الجزيرة منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما انهـارت فكـرة الإمبراطورية التى تمارس بواسطة النفوذ على سلطان زنجبار فى شـرق أفريقيـا باستيلاء الألمان على مناطق داخلية من دار السلام، ولم يتبق من القواعـد التـى يمكن لبريطانيا الانطلاق منها ثانية إلا مصر الممتلكات المتفرقة فى غرب أفريقيـا ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال ذات الحكم الذاتى فى الجنوب.

## لورد ساليسبورى وعودة المبادرة البريطانية ١٨٨٥ – ١٨٩١

كان إحياء الآمال البريطانية فى أفريقيا وتحولها من إمبراطورية النفوذ إلـى إمبراطورية رسمية من أعمال اللورد ساليسبورى، وكان رئيس وزراء بريطانيـا من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٢، ونافس بسمارك كدبلوماسى فذ.

وبدأ عمله بافتتاح طريق للتوسع شمالا من مستعمرة رأس الرجاء الصـالح بإعلان الحماية البريطانية على بتشوانا لاند (الآن بوتسوانا) وهى منطقة صحراوية تقريبا تقع بين جنوب غرب أفريقيا الألمانية وجمهوريـة البـوير المسـتقلة فـى الترنسفال (وعرفت آنذاك بجمهورية جنوب أفريقيا). وتدعم هذا الموقف فى العـام التالى ١٨٨٦ باكتشاف كميات كبيرة من الذهب فى ترسيبات فى الترنسفال، ولكـن

وبالرغم من كونها فى مناطق للبوير إلا أن الشركات الباحثة كانت كلها إنجليزية تقريبا من مستعمرة رأس الرجاء الصالح ومن بريطانيا ذاتها أيضا، وقادهم سيسل رودس الذى أثرى قبل ذلك من مناجم الماس فى كمبرلى وشارك فى الاعتقاد العام أنه سوف يتم إيجاد "راندا ثانيا" فى الهضاب العالية شمال نهر الليمبوبو، وقرر أن تسيطر بريطانيا على تلك المنطقة الثرية فعلا، وكانت بوتشوانالاند بالنسبة له" قناة السويس الخاصة به "إلى الشمال، ولذلك وجه إليها طوابير المستعمرين البيض لاحتلال منطقة جنوب روديسيا (زيمبابوى الآن). ولم يشعر ساليسبورى أبدا بالإعجاب برودس ولم يثق به على الإطلاق، ولكنه رغب فى استخدام ثرائه الفاحش وطاقته للاستيلاء على أراضٍ جديدة لبريطانيا فى الهضاب العالية الواقعة بين مستعمرتى أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين.

أما العمل الثانى لساليسبورى فكان إنقاذ ما تبقى من شرق أفريقيا بعد أعمال الضم الألمانية عام ١٨٨٤، ولذلك تفاوض مع بسمارك عام ١٨٨٦ لتقسيم المنطقة إلى منطقتى نفوذ فى منطقة الحدود الحالية بين كينيا وتانزانيا. وتنازل بعد ذلك عام ١٨٩٠ عن جزيرة هيلجو لاند الواقعة فى بحر الشمال إلى ألمانيا،واستطاع بالتالى إقناع بسمارك بالتوقيع على مجموعة من المعاهدات الشاملة للاتفاق على الحدود الأفريقية، واعترفت ألمانيا بالسيادة البريطانية على زنجبار وكينيا وأوغندا وشمال روديسيا (الآن زامبيا) وباتشوانالاند وشرق نيجيريا،وعقد ساليسبورى فى العام نفسه معاهدة مع فرنسا فيما يتعلق بحدود نيجيريا الغربية مقابل الاعتراف بالحماية الفرنسية على مدغشقر (والتى لم يعترف بها حكام الجزيرة الوطنيون أبدا) كما اتفق مع البرتغال عام ١٨٩١ فيما يتعلق بنياسالاند (الآن مالاوى) والروديسيتين.

ولذلك وعند انتهاء فترة خدمة ساليسبورى كرئيس للوزراء عام ١٨٩٢ كانت الخطوط العريضة لتقسيم أفريقيا بين القوى الأوروبية قد تم رسمها، ولم يتبق إلا رسم الخطوط الداخلية فقط، وكانت ركيزة السياسة الأفريقية لساليسبورى هى استمرار الاحتلال البريطانى لمصر، واعترف هو نفسه أن نتيجة ذلك هى

الاعتراف بمطالب السيادة الفرنسية في غرب أفريقيا والمطالب الألمانية في المناطق الأربعة التي استولت عليها، ولذلك تعلقت الممتلكات البريطانية في غرب أفريقيا عما كانت عليه في السابق، ولكن حصلت بريطانيا على نصيب وفير آخر في التقسيم في توسعها شمالا من جنوب أفريقيا البريطانية عبر بتشوانالاند إلى الروديستين ونياسالاند وفي منطقة في شرق أفريقيا ممتدة من ممباسا إلى أعالي النيل، وفهم ساليسبوري أن مصر، بمساعدة بريطانيا، سوف تبلغ قدرا كافيا من القوة لاسترداد السودان من الخليفة، وأن التوسع النهائي لبريطانيا سوف يسير في ذلك الاتجاه، واعترف ساليسبوري في مذكرة إلى البرلمان البريطاني أن عبارة " من الكاب إلى القاهرة كلها أراضي بريطانية" هي عبارة تقريبية لجوهر سياسته الأفريقية كلها.

ولكن يجب أن نتذكر دائما أن التقسيم الأوروبي لأفريقيا عام ١٨٩١ كان نظريا فقط، وبالرغم من إصرار مؤتمر برلين على أن المطالب على السواحل الأفريقية يجب أن يدعمها الاحتلال الفعلي فإن معظم المطالب التي اعترفت بها الدول قد استندت على أوراق حصل عليها القناصل والصيادون من زعماء أفريقيين لا يعرفون بالمرة ماذا يفعلون والذين لا تمتد زعامتهم إلا على منطقة صغيرة للغاية من المناطق المتنازع عليها من بين القوى الأوروبية، ولذلك لم توجد منطقة أفريقية واحدة وجد بها احتلال فعلي في وقت التقسيم، كما أن التقسيم النهائي لم يعبر أبدا عن قوة المصالح الأوروبية في تلك المناطق، بل عن القوة السياسية لتلك الدول. ولكن كان هذا التقسيم مهما؛ فلقد عبر عن الرغبة الحثيثة للقوى الأوروبية القوية في نقل نفوذها إلى أقصى المناطق الأفريقية الداخلية تماما مثلما فعلت تلك القوى في آسيا والأمريكتين وأستراليا وجزر المحيط الهادي بعد أن امتلكت القوة الكافية بطبيعة الحال ولكن تمت عملية التقسيم بالاتفاق المتبادل فيما بينها دون قيام حرب كبرى، وربما كان ذلك ذا فائدة بالنسبة لأفريقيا ولكل الدول الأوروبية نفسها على السواء.

# الفصل العاشر

## تقسيم أفريقيا عمليًا (١٨٩١ - ١٩٠١)
## الصراعات الأوروبية فى أفريقيا

تمت المراحل الأولى من التقسيم حينما طالبت الدول الأوروبيـــة بالمنـــاطق الساحلية والأنهار الملاحية وحددت نظريا الحدود الداخلية انطلاقا من تلك القواعــد الأساسية، فإنها فعلت ذلك بدون سفك دماء أو نزاعات، وكان السبب هــو وجــود أعداد قليلة للغاية من القوى الأوروبية فى أفريقيا آنذاك، وكانت جماعات الاحتلال الأولى مكونة من حملات صغيرة متحركة من الضباط الأوروبيــين أو مســئولى الشركات، ويصاحبهم بعض العشرات من الحمالين الذين لديهم أسلحة خفيفــة، ولا يكاد ذلك الأمر يختلف عن حملات المستكشفين الأوائل. وكانــت أفريقيــا واســعة وفسيحة لدرجة أن جماعات الأوروبيين الأولى نادرا ما التقت إحــداها بــالأخرى، وتميزت علاقتهم بالشعوب الأفريقية بصفة التفاوض ولم يتعرفوا كغزاة أبدا.

ولكنهم دخلوا فى السياسات المحلية لكل منطقة يرتادونها، وأيــدوا الفئــات والجماعات المناصرة لهم وتجنبوا المعادية لهــم، ولكــن ازدادت العلاقــات بــين الحملات الأوروبية المنافسة فى المراحل الأخيرة من التقسيم بحلول نهايــة القــرن التاسع عشر حينما ازدادت أعداد القوات العسكرية، ورســمت الحــدود الداخليــة النهائية، كما نشبت المعارك بين القوات المحتلة وقوات الدول الأفريقيــة الكبيــرة والأكثر تنظيما والتى حاربت بشدة وبأس من أجل استقلالها، وبلغت أعداد قــوات الدول الأفريقية نسبة مائة إلى واحد فى أحوال كثيرة ولكن كــان تفــوق الأســلحة الأوروبية كاسحا، فيمكن لمدفع رشاش واحد القضاء على جيش كامل من الرجــال

غير المنظمين والمسلحين فقط بالأسلحة القديمة والرماح، ولذلك ازداد سفك الدماء كلما اقتربت عملية التقسيم من نهايتها، وحدثت فى البداية بعض الحوادث الصغيرة فى غرب أفريقيا والكونغو وشرق أفريقيا، ثم أتت مرحلة "إرساء السلام الفرنسى" فى كل من مدغشقر والمغرب (مراكش) الحرب بين أثيوبيا وإيطاليا واسترداد السودان، وفى النهاية نشبت حرب دامية فى جنوب أفريقيا وحيث تقاتل فيها البيض فيما بينهم.

## التقدم الفرنسى جنوب نهر النيجر

اتخذ الفرنسيون خطوات جادة لتدعيم ممتلكاتهم على ساحل أفريقيا الغربى بعد مؤتمر برلين، وأنشأوا مستعمرات ساحل العاج وغينيا الفرنسية رسميا بحلول عام ١٨٩٣، ودخلت القوات الفرنسية داهومى (بنين) فى العام نفسه وأطاحت ببهانزين آخر ملوك داهومى المستقلة، ثم أصبحت داهومى مستعمرة فرنسية عام ١٩٠٠، ولكن التوسع الفرنسى الرئيسى فى غرب أفريقيا تم انطلاقا من حوض نهر السنغال، وأدى التقدم الفرنسى عبر النهر إلى الاتصال بإمبراطورية أحمدو شيخو بن الحاج عمر (فصل ٥) عام ١٨٧٩ واستمرت المعارك غير الفاصلة بين قوات الجنرال جالينى السنغالية وقوات أحمدو لأعوام عديدة ولكن انهارت إمبراطورية أحمدو بعد تدمير قواتها العسكرية ولذلك دخل الفرنسيون منطقة وادى النيجر الأعلى واستولت على باماكو عام ١٨٨٣. ولكن قابل الفرنسيون مقاومة شرسة من ساموری وهو أحد المسلمين الماندينجو من منطقة الحدود الداخلية لغينيا وساحل العاج. وكان هذا القائد قد استطاع بواسطة أعمال غزو عديدة بدأها فى بدايات سبعينيات القرن التاسع عشر توحيد معظم شعوب المنطقة الواسعة بين منابع نهر النيجر وحوض الفولتا الأعلى، وأصبح ساموری بطل الشعوب الماندى الجنوبية المتعلقة باستقلالها فى مقاومته العنيفة والشرسة للفرنسيين، وبالرغم من

احتلال الفرنسيين لمناطق موطنه حول بيساندوجو عام ١٨٩١، إلا أنه لـم يهـزم نهائيا وينفى بواسطة الفرنسيين إلا فى عام ١٨٩٨.

أجلت مقاومة ساموري التوغل الفرنسى أسفل نهر النيجر ولكنها لم توقفـه، واستولوا على تمبكتو عام ١٨٩٤ وساى عام ١٨٩٦،ولكـن أوقـف البريطـانيون الزحف الفرنسى بعد ساى فى منطقة بلاد الهاوسا. وبـدأ الفرنسـيون فـى نقـل اهتمامهم بعد سيطرتهم على النيجر الأعلى والأوسط إلى احتلال المناطق الواسـعة الواقعة بين وادى النيجر ومستعمراتهم على الساحل، وأتموا تلك المهمة فى بدايـة القرن العشرين، ولكن حدثت فى تلك المرحلة التاريخية - عند الانتقال مـن قـرن لآخر - أن نشبت الصراعات مع الحملات البريطانية المنافسة فى المناطق الداخلية لنيجيريا وساحل العاج، ثم ازدادت حدة.

## التوسع البريطانى فى ساحل الذهب ونيجيريا

رأينا فيما سبق (فصل ٩) أن بريطانيا لم تتمكن من الحصول على مكاسـب كبيرة فى منطقة واسعة من غرب أفريقيا نظـرا لأحـداث التقسـيم الدبلوماسـى لأفريقيا، وتمكنت فقط من توسعة مناطق احتلالها بالاحتلال العملى رسميا انطلاقـا من قواعدها فى سيراليون وساحل الذهب ونيجيريا، واعتمد الوضـع فـى سـاحل الذهب على الأحوال المحلية بين المستعمرة الساحلية وإمبراطورية الأشانتى التـى انفصلت المناطق عنها بواسطة حملات عقدت معها معاهدات حماية مما، أدى فـى نهاية الأمر إلى احتلال أشانتى نفسها عام ١٨٩٦ عسكريا، كما أعلنـت الحمايـة البريطانية على الأراضى الشمالية عام ١٨٩٨، والتى كـان جـزء منهـا تابعـا لساموري من أجل إيقاف الزحف الفرنسى من الشمال.

ولكن كان احتلال بريطانيا لنيجيريا أكثر تعقيدا، وتم من ثلاث جهات. وكان

المكان الأول هو لاجوس حيث توسعت مستعمرة الجزيرة الصغيرة إلى محمية تشمل معظم بلاد اليوروبا، أما المكان الثانى للتوسع فكان انطلاقا من أنهار الزيت حيث أيد القناصل البريطانيون شركات ليفربول فى القضاء على سلطة الزعماء المحليين الأفريقيين مثل جاجا فى أوبوبو حينما حاول هؤلاء الزعماء عقد معاهدات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكانت منطقة التوسع الثالثة انطلاقا من نوبى وجنوب بلاد الهاوسا وحصلت الشركة الأفريقية الوطنية التابعة للسير جورج جولدى، والتى أصبحت عام ١٨٨٦ شركة النيجير الملكية، على سلطات إقرار العدالة والنظام فى عقد إنشائها الملكى، وحصل جولدى على صداقة معظم بلاد الهاوسا بواسطة معاهدة عقدها مع سلطان سوكوتو عام ١٨٨٥، ولكن غزت قوات تلك الشركة نوبى وإمارة لورين وهزمت قواتها بواسطة قوات الحدود الأفريقية الغربية التابعة لها، ولكن تورط ضباط جولدى وبالذات الكابتن لوجارد فى منازعات مع الفرنسيين الزاحفين أسفل نهر النيجر والصاعدين من داهومى شمالا ولم تحتل قوات الشركة بورجو إلا بعد إجبار قوة فرنسية معسكرة هناك على الانسحاب، ولذلك رأت بريطانيا أن تلك العمليات العسكرية ضد دولة أوروبية استعمارية منافسة غالية بل فادحة الثمن وخطيرة للغاية بالنسبة لشركة خاصة، ولذلك أنهت الحكومة البريطانية عقد امتياز الشركة عام ١٨٩٨ وتولت إدارة شمال نيجيريا بعد ذلك بعامين ١٩٠٠ ثم استمر التوسع البريطانى فى اتجاه بورنو وبحيرة تشاد، واحتلت كانو عام ١٩٠٢.

## الفرنسيون فى وسط السودان: رابح

تحرك الفرنسيون فى اتجاه وسط السودان من ثلاث جهات: من وادى نهر النيجر ومن جابون ومن الجزائر، ثم اتجهت الحملات من الجهات الثلاث إلى بحيرة تشاد بحلول عام ١٩٠٠ تقريبا، ومنعت شركة النيجر الملكية التابعة لجولدى

الفرنسيين من احتلال أي مناطق إلا الحواف الصحراوية الشمالية لـبلاد الهاوسـا، وذلك عند تحركها شرقا في ساى على النيجر وبدأت الحكومة الفرنسية فى احتلال داخل جابون بعد مؤتمر برلين ولذلك وبحلول نهاية تسعينيات القرن التاسع عشـر بدأوا الزحف ناحية الشمال فى اتجاه حوض نهر شارى، ثم بـدأ الفرنسـيون فـى احتلال الواحات الرئيسية: توات وتامانراست أير وزندر وذلك بعد حملـة الكـابتن لامى الرائدة عبر الصحراء فى ١٨٩٨- ١٨٩٩، ولكن لم تتأثر قبائـل الطـوارق الرعوية فى الصحارى المجاورة بالوجود الفرنسى عمليا إلا فى عصـر مـا بعـد الحرب العالمية الثانية.

وقاوم السنوسيون المقاومة النهائية ضد الاحتلال الفرنسى للسودان الأوسـط من زواياهم المحصنة فى منطقة بلما وبالذات أيضا من رابح أحد الجنود العـرب فى سنار، وكان قد خدم الحكومة المصرية سابقا فى بحر الغزال ولكنه اتجه غربـا مع أتباعه المسلحين بعد رفضه الخضوع للمهدى، وأخفق فى هجوم ضـد سـلطنة واداى عام ١٨٨٧ ولكنه استولى على باجرمى ومعظم بورنو الشرقية بحلول عـام ١٨٩٢، وأنشأ دولة تتاجر فى العبيد وتصرف إنتاجها بواسـطة طـرق التجـارة السنوسية المؤدية إلى طرابلس وبنى غازى، ولكنه قاوم الفرنسيين مقاومة ضـارية ومنع تقدمهم حينما هاجمه الفرنسيون من كل الجهات ولكنه هزم فى النهاية وقتـل عام ١٩٠٠.[٣٨]

## إعادة فتح السودان: فاشودة

كان البريطانيون فى مصر قد أعادوا غزو الدولـة المهديـة قبـل هزيمـة

---

(٣٨) أسس رابح فضل الله دولة إسلامية ظلت تقاوم النفوذ الفرنسى لمدة سبع سنوات حتـى استشـهاده، ورغم قصر المدة إلا أنه أسس دولة إسلامية طبقت الشريعة الإسلامية وحرمت تجارة الرقيق فـى بلادها. (المراجع)

الفرنسيين لرابح، وكانت دولة المهدى مهددة من الإيطاليين فى إرتريا والتقدم الفرنسى من الكونغو، ولذلك تحركت قوة مصرية - إنجليزية والتى قام القائد البريطانى كتشنر بتدريبها إلى السودان عام ١٨٩٦ من أجل مواجهة تلك التحركات، وهزمت تلك القوة جيوش المهدى فى معركة أم درمان، وقتل بها ٢٠,٠٠٠ سودانى، ثم استولى كتشنر على الخرطوم، ثم علم بعد بضعة أسابيع أن قوة فرنسية من الجنود الأفريقيين بقيادة القائد مارشان قد استقرت فى فاشودة على مسافة ١٨٠ ميلا (٣٠٠ كم) ناحية الجنوب وذلك بعد زحف يكاد لا يصدق من جابون والذى استمر قرابة العامين، ولذلك أسرع كتشنر إلى أعالى النيل الأبيض ومعه قوات أكثر بكثير من القوة الفرنسية. وتواجد المعسكران المعاديان بعضهما البعض لمدة عدة أشهر بينما أرسلت البرقيات والرسائل التلغرافية من وإلى السودان وأوروبا. انسحب الفرنسيون فى النهاية وأنزل مارشان العلم الفرنسى ولكن كانت بريطانيا وفرنسا على خطوة بسيطة من قيام حرب كبرى بينهما.

وسوف نذكر هنا باختصار آخر منطقتين فى شمال أفريقيا تستولى عليهما القوى الأوروبية. فقامت إيطاليا بهجوم غير مبرر ولكن متوقع على ولاية طرابلس العثمانية عام ١٩١١، ثم زحفت منها فى العام التالى إلى برقة، ولكن واجه السنوسيون الجيوش الإيطالية بمقاومة عنيفة وشرسة بواسطة رجال القبائل البدو. واستمرت مقاومتهم إلى ثلاثينيات القرن العشرين (انظر فصل ١٤). وفى شمال أفريقيا استطاعت المغرب (مراكش) تجنب السيطرة الأوروبية حتى عام ١٩١٢ ليس بسبب قدرة سلطانها على المقاومة ولكن نظرا للخلافات الشديدة بين الدول الأوروبية عمن يحتل تلك المملكة، وكادت خلافاتهم تؤدى إلى نشوب الحرب فى أوروبا مرتين، ولكن قسمت الدولتان الأكثر اهتماما بالمغرب ذلك القطر فيما بينهما؛ إذ استولت عليه فرنسا بعد أن تركت جزءا صغيرا منه إلى أسبانيا، وتم شراء رضاء ألمانيا بمنحها أراض إضافية فى الكاميرون، وتم إعلان الحماية الفرنسية على معظم المملكة وإن ظل للسلطان السلطة الاسمية فى مملكته.

## شرق أفريقيا وحوض الكونغو.

كان العرب أشد المقاومين لقوات الاحتلال الألمانية والبريطانية والبلجيكية في شرق أفريقيا وحوض الكونغو. ولكن لم تأت تلك المقاومة مباشرة من سلطان زنجبار، فسوف تكون عاصمته هدفا سهلا لمدافع السفن الحربية الأوروبية، ولذلك وافق مضطرا على إعلان الحماية البريطانية على جزيرتى زنجبار وبمبا pemba عام ١٨٩٠ وتقسيم الأراضى على اليابسة، وقسمت تلك الأراضى بين الشركات الرسمية البريطانية والألمانية التى بدأت فى احتلال منطقة كينيا الحالية وتانزانيا والقارية وأوغندا، وأعلنت لجنة دولية عام ١٨٨٦ أن أراضى السلطان على اليابسة تمتد فقط عشرة أميال (١٦ كم) فى الداخل، ثم اشترى الألمان الساحل المجاور لمنطقة امتيازهم بمبلغ من المال، ثم أجرت الشركة البريطانية فى ساحل كينيا مقابل سداد أجر سنوى، ولذلك استمر علم السلطان الأحمر يخفق طوال العصر الاستعمارى على مومباسا وماليندى Malinde، ولامو Lamuo وباقى الموانى الكينية، وربما كان ذلك السبب أيضا فى عدم قيام أى ثورة عربية فى مناطق الاحتلال البريطانية الساحلية.

وأتت المقاومة النشطة للعرب السواحيلية من اتجاهين، كانت الأولى من الجزء الساحلى الألمانى والثانى من تجار العاج والعبيد السابقين المنتشرين فى الداخل من بحيرة مالاوى جنوبا وحول جانبى بحيرة تنجانيقا إلى أوغندا شمالا، وربما ظهرت تلك الحركة من محاولة السلطان برغش لتدعيم موقفه فى أراضيه على اليابسة قبل عملية التقسيم الأوروبية، ولكن انفجرت الأحداث فى مجموعات من الثورات المحلية وذلك بعد القضاء على رعايتها المركزية، ثم تعامل الأوروبيون معها الواحدة تلو الأخرى. وكانت أخطر حركات المقاومة وأقصرها أيضا بين عرب الساحل الشرقى والألمان عامى ١٨٨٨ - ١٨٩٨ تحت قيادة القائد العربى أبو شيرى Abushiri، واستمرت ثورات العرب ضد البريطانيين فترة أطول وإن تميزت بالانقطاع فى شمال نياسالاند Nyasaland وبدأت عام ١٨٨٧

ولم يتم القضاء عليها إلا بعد عشرة أعوام، وحارب العرب فى شرق زائير قوات الملك ليوبولد بين أعوام ١٨٩١، ١٨٩٤، أما المقاومة العربية للتدخل الأوروبى فى أوغندا مثل نياسالاند فإنها تأثرت بشدة بالاحتلال الألمانى للساحل ولكنها بدأت فى المنطقة حينما كان الأوروبيون الوحيدون بها هم المبشرون.

وكانت تلك المقاومة تغييرا عن الوضع السياسى المحلى. فلقد أيد المسيحيون الوطنيون والنفوذ الأوروبى بينما عارضه المسلمون، وانتصرت الأحزاب المسيحية فى بوغندا Buganda مما جعلها الحليف الرئيسى لبريطانيا فى احتلال كل المنطقة، وانسحب العرب والحزب الإسلامى المحلى على مملكة بونيورو Bunyoro المجاورة التى استمرت مركزا لمقاومة الحكم البريطانى، ولكن استولى عليها البريطانيون فى النهاية بمساعدة جنود من بوغندا فى سلسلة من الحملات العسكرية التى استمرت من ١٨٩٤ إلى ١٨١٩ (انظر فصل ١٢).

كانت أثيوبيا هى الدولة الوحيدة فى شرق أفريقيا التى قاومت محاولات الاحتلال الأوروبى بنجاح، وكانت الدولة الأوروبية المختصة هنا هى إيطاليا التى دخلت حلبة عملية التقسيم متأخرة، وكانت إيطاليا قد احتلت جزءا من الساحل الإرترى على البحر الأحمر عام ١٨٨٣ واشتركت فى عملية تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار على اليابسة وحصلت على جزء من الساحل الصومالى الشرقى عام ١٨٨٦، ووقع مينيليك Menelik معاهدة وينشال Winchale مع الإيطاليين بعد تتويجه إمبراطورا عام ١٨٨٩، وحددت تلك المعاهدة الحدود بين أثيوبيا وإرتريا الإيطالية، وذكرت المعاهدة فى نصها الأمهرى حق حكومة مينيليك – إذا رغبت – فى استخدام القنوات الدبلوماسية الإيطالية فى اتصالاتها مع العالم الخارجى، ولكن استخدمت النسخة الإيطالية لنفس المعاهدة تعبيرات أكثر تحديدا وذكرت أن مينيليك قد وافق على إدارة شئونه الخارجية دائما بواسطة القنوات الإيطالية، ولا يبدو آنذاك أن المفاوضين الإيطاليين قد رغبوا فى خداع الإمبراطور؛ إذ لم يكن فى نيتهم أبدا آنذاك فرض الحماية الإيطالية على أثيوبيا

ولكن أبلغت وزارة الخارجية الإيطالية بناء على تلك الجملة القوى الأوروبية التــى اشتركت فى مؤتمر برلين بحق إيطاليا فى المطالبة بالحماية على أثيوبيا بعد عامين من عقد المعاهدة، ولذلك حاولت إيطاليا فرضها عنوة علــى مينيليــك وتبلــورت المناوشات بين الجانبين إلى حرب شاملة بينهما عــام ١٨٩٦، وهزمــت القــوات الإيطالية هزيمة ساحقة فى موقعة عدوى Adewa وهى من أولى المعــارك فــى العصور الحديثة التى هزم فيها جيش غير أوروبى جيشا معظمه من الأوروبيــين وضباطه أوروبيون أيضا، ثم حول منليك انتباهه من الانتصار على الإيطاليين إلى تحقيق حلم حياته وهو امتداد مملكته إلى الجنوب.

وكانت معظم تلك البلاد قد دفعت الجزية إلى الملوك الأثيوبيين منذ العصور الوسطى المتأخرة ثم انفصلت بعد غزوات الأورومو فى القرن السادس عشر.

وضاعفت فتوحات منليك بعد وصوله إلى بحيرة توركانا Tuorkana جنوبا ومملكة كافا kaffa القديمة فى الجنوب الغربى أكثر من مرتين مساحة الأراضــى التى آلت إليه بالوراثة أو الزواج وجعل ذلك الأمر أثيوبيا شريكا تقريبا فى عمليــة تقسيم أفريقيا.

## الغزو الفرنسى لمدغشقر

وبدأت الدولة المارينية Marina فى الانهيار تحت ضغط النفوذ الدبلوماســى والتجارى الفرنسى فى نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولم يقبل رئيس الوزراء رافيليا ريفونى Rainireiafouly إبداء أن معاهدة ١٨٨٥ قد منحت فرنسا حقــوق الحماية على الجزيرة، ولكن اعتقد الفرنسيون ذلك فعلا.

ولذلك أرسلوا حملة عسكرية كبيرة إلى الجزيرة عام ١٨٩٤ طبقا لمفهومهم لنصوص المعاهدة، واستولت تلك الحملة على تاناناريف Tananaref فــى العــام

التالى وخلعت الوزراء ثم فرضت معاهدة حماية رسمية على المملكة، وأدى التدخل الأجنبى إلى نشوب ثورة تلو الأخرى فى مدغشقر كلها، وهاجم الوثنيون المسيحيين، واتهمت الديانة الجديدة أنها سبب المشاكل التى تتعرض لها الجزيرة، وتحرر شعب مملكة البتسيلا Betsilea القديمة من حكم الهوفا hova الكريه، وأدت ردود الأفعال الفرنسية لقمع الثورات إلى تعقيد الأمور بطريقة أكبر، ولم تبق إلا تاناناريف فى أيدى الفرنسيين أحيانا، ولكن حضر الجنرال جاليمى Galliemi عام ١٨٩٥ فى حملاته فى غرب أفريقيا لغزو مدغشقر (أو لإحلال السلام بها كما قيل) وأعلنت الجزيرة مستعمرة فرنسية.

ولكن انقضت تسعة أعوام كاملة قبل إخضاع جالينى ورئيس أركانه ليوتى Lyouty كل شعوب الجزيرة وإرغامها على قبول الحكم الفرنسى، وألغيت مملكة مرينيا كما تم نفى آخر الملكات رانا فالونا الثالثة Ranavalauna III عام ١٨٩٧.

وأدار الفرنسيون الجزيرة كوحدة إدارية واحدة وأنهوا بذلك عملية التوحيد التى بدأها نامبونا Nampoina قبل ذلك بأكثر من قرن.

## رودس ووسط أفريقيا

وتركت الحكومة البريطانية عملية احتلال أفريقيا الوسطى إلى درجة كبيرة إلى رودس وشركة جنوب أفريقيا البريطانية التابعة له، ونمت الشركة رسميا عام ١٨٩٩ ومنحت سلطة تطوير المنطقة بين متشوانا، لاند والزامبيزى والتى ستحمل اسم رودس فيما بعد، وسمح للشركة بالتوسع إلى الأراضى شمال نهر الزامبيزى عام ١٨٩١ والتى أصبحت روديسيا الشمالية (زامبيا Zambia الآن) وحصل وكلاء رودس على امتيازات من خليفة فريليكازى Mzilikazi وشهو لوينجولا Lobangula فى منطقة جنوب الزامبيزى.

ولذلك أرسلت جماعة من المزارعين وعمال المناجم إلى ماشونا لاند mashona land عام ١٨٩٠، حيث أنشأوا العاصمة الرودسية الجنوبية في قلعة ساليسبورى fntselioblury وناقش عملاء رودس فى الشمال وكلاء الملك ليوبولد للاستيلاء على كاتانجا Katanga ولكن كان ذلك الموضوع قد تم حله مسبقا بواسطة الاتفاق الدولى لعام ١٨٨٥، والذى حدد مجرى نهر الكونغو - الزامبيزى كحدود لممتلكات الملك ليوبولد، ولذلك ضم ليوبولد معظم مملكة مسيرى maini (انظر الفصل السادس). وقتل أحد الضباط البلجيكية مسيرى أثناء صراع نشأ من عقد المعاهدة، ولذلك أصبحت الأراضى الواقعة على الجانب الزامبيزى فى مجرى النهر بريطانية وازدادت قيمتها كثيرا فيما بعد لوجود جزء كبير من حزام النحاس الثرى بها، وكانت المنطقة الوحيدة لوسط أفريقيا التى خرجت عن سلطة الشركة هى نياسا لاند Nyasa land (مالاوى الآن) حيث عمل المبشرون والتجار البريطانيون بها أواخر القرن التاسع عشر وكانوا يعادون شركة جنوب أفريقيا البريطانية تماما.

ولذلك تحول هذا الجزء إلى محمية تحت الحكم البريطانى المباشر عام ١٨٩١.

وكان عصر الاستقرار الأول للمستوطنين فى جنوب روديسيا عصرا للحروب المستمرة، كما نشبت أيضا حروب غير رسمية بين المستوطنين والبرتغاليين على حدود موزمبيق، واضطر المستوطنون إلى قتال وهزيمة النديبلى Ndebele الذين خافوا دائما من وجودهم فى ماشونا لاند Machuna land المجاورة.

ولا تزال تتعجب حتى الآن من الأسلوب الردىء الذى اتبعه المستوطنون لإشعال الحرب مع النديبلى، ولكن الحرب كانت قادمة لا محالة نظرا للاستيطان الأوروبى المتزايد، وتوفى لونجولا Lobengola بعد فترة بسيطة من هزيمة قواته

عام ١٨٩٣. وأدى استيلاء المستوطنين المستعمرين على الأراضى والماشية إلـى قيام حرب جديدة بينهم وبين الندبيلى والماشونا فى محاولة أخيـرة منهـا لطـرد المستعمرين الغزاة عام ١٨٩٦.

ولكن انهارت آخر المحاولات الإفريقية هنا أمام الرجل الأبـيض المسـلح بالمدافع الرشاشة.

## الحرب بين إنجلترا والبوير

كان رودس رئيس وزراء حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦ وأدار بالإضافة إلى منصبه الرسمى أعمال شـركة جنـوب أفريقيـا البريطانية فى المناطق الشمالية، ووجدت لديه آمال وطموحـات واسـعة لتوحـد جنوب أفريقيا كلها – وشمل ذلك جمهوريات البوير، فى وحدة إدارية واحـدة ذات حكم ذاتى Dominion تابعة للتاج البريطانى.

وتحدث عن الحقوق المتساوية لكل الرجـال المتحضـرين جنـوب نهـر الزامبيزى، ويبدو أنه يعنى تحالف بين البوير والبريطانيين لتنمية ثـروات الـبلاد الهائلة وتشجيع الهجرة البيضاء الإضافية ولكن كان لرئيس جمهورية الترنسـفال، بول كروجر Baul Kruger، أفكار مختلفة بالمرة، فلقد رغـب بجنـوب أفريقيـا يسودها البوير الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية الأفريكانو afrikano (وهـى لغـة نشأت فى اللغة الهولندية لغة المستوطنين الأوائل) ووسائل حياتهم الرعوية الأولية ورفضهم التام لمنح حقوق المواطنة إلى الأفارقة أو الملونين. وبالرغم من مـروره فى ثروة مناجم الذهب فى ويتواتر وwitwatwunr، إلا أن كروجر قد أدرك تمامـا أن العاملين بها من المهاجرين البريطانيين فى الترنسـفال والـذى سـرعان مـا سيصبحون أغلبية السكان البيض. ولذلك رفض منحهم حق الانتخاب بالرغم مـن

سدادهم الضرائب الباهظة. ولكنه استخدم الثروة التى جلبوها له من جهة أخرى لبناء دفاعه وصلاته بالسكك الحديدية مع العالم الخارجى.

وحاول رودس إقناع المهاجرين الغاضبين (بالأفريكان، ويتلاندرز - Uitlanders) بإعلان الثورة وخلع حكومة كروجر. ولكن فشلت غارة على الترنسفال من بتشاوالاند عام ١٨٥٩ تحت قيادة جيمسون Jameson، أحد رجال المهام الصعبة لرودس، ولم تنشب الثورة على الإطلاق. وأنهت تلك الغارة حياة رودس السياسية ولكن قررت عناصر فى الحكومة البريطانية المتورطة فى الحادثة اتخاذ قرار حاسم بالتنبه للترنسفال، ولذلك حرض المندوب السامى البريطانى فى جنوب أفريقيا سير ألفرد ملنر sir Alfred milner، عمدا الترنسفال لإعلان الحرب، ونشبت تلك الحرب فعلا عام ١٨٩٩ ووقفت خلالها جمهورية أورانج الحرة مع شقيقتها الترنسفال، وحاربت جيوش البوير - وبعد هزيمتها قوات المقاومة غير النظامية - قوة بريطانيا الهائلة بمفردها بشدة وبأس وحزم وشجاعة لأكثر من عامين، وانتشر الخراب كما كانت الخسائر فادحة على الجانبين. ولذلك وقبل إحلال السلام ازداد كره البوير لبريطانيا والنظم السياسية أكثر بكثير عما سبق. ولكن أصبحت جنوب أفريقيا كلها آنذاك فى أيدى البريطانيين.

# الفصل الحادى عشر

## الحكم الاستعمارى فى أفريقيا المدارية
## ١- المنظورات السياسية والاقتصادية
## (١٨٨٥ - ١٩١٤)

استمر عصر الاستعمار فى أفريقيا الاستوائية حوالى سبعين عاما. ويمكن تسمية الثلاثين عاما الأولى من تلك الفترة بعصر الإنشاء، والثلاثين عاما التالية أعوام التطور النشط، والعشرة أعوام الأخيرة أعوام الانسحاب، وسوف نعالج فى ذلك الفصل أعوام الإنشاء من وجهة نظر الحكومات الاستعمارية أساسا، وسوف ننظر إليها فى الفصل التالى من وجهة نظر الشعوب الأفريقية أساسا مع ذكر التغيرات التى أدخلتها حقبة الاستعمار على الحياة اليومية.

### سياسات القوى الاستعمارية

فقدت الحكومات الأوروبية معظم اهتمامها السابق بالقارة الأفريقية بعد تقسيمها فيما بينهم، ووجدت أربعة مناطق أفريقية من المتوقع إنتاج الثروة بها فعلا، وقسمت الدول الأوروبية أفريقيا فيما بينها لكى لا تستبعد من مناطق يمكن أن تبرز قيمة فى المستقبل، ولذلك اهتمت تلك الدول أساسا بالملكية وليس بالتنمية.

وكانت مفاهيم حكم الدول الأوروبية ضعيفة للغاية بالنسبة لواجباتها الحكومية حتى فى بلادها الأصلية عما هو الحال اليوم فما بالنا إذن فى نهاية القرن التاسع عشر، فلم توجد لتلك الدول آنذاك مثلا برامج خدمة صحية عامة أو

معاشات شيخوخة، كما لم توجد خدمات الإسكان العام فيما عدا أماكن العمل. وما زالت نظم التعليم التابعة للدولة من الأمور الحديثة للغاية، بل ولم ينتظم بها كل الأطفال بعد، وكانت الضرائب أقل بكثير من اليوم، وكان نواب الشعب يشرفون تماما على الأعمال الحكومية وإن كانوا يمثلون فى معظم الأحوال الأفراد الأثرياء فى كل مجتمع.

ولا تتعجب إذا ما رأت أوروبا أن واجبها الأول فى المستعمرات الأفريقية الجديدة هو الاحتفاظ بالقانون والنظام، وأن يتم ذلك دون تكليف دافع الضرائب شيئا، وتركت أمور التعليم من جهة والتطور الاقتصادى من جهة أخرى كلها تقريبا فى أيدى العمل الخاص للبعثات التبشيرية والشركات الخاصة، وتم تفويض عمل الحكومات أحيانا إلى الشركات الرسمية التى حصلت على سلطة تجنيد مسئوليها ورجال شرطتها بالإضافة إلى جباية الضرائب وإقرار العدالة. وحينما تولت الحكومات الأوروبية المسئولية المباشرة لحكم مستعمراتها الجديدة فإنها اقتصرت تماما فى الإنفاق وقلت أعداد المسئولين، كما أن قوات الشرطة العسكرية والمدنية كانت سيئة التدريب والتسليح فى الجنود المحليين تحت قيادة بعض الضباط الأوروبيين.

وشعرت تلك الحكومات فى البداية باضطرارها للبحث عن حلفاء بين رعاياها الجدد، ودخلت فى صميم السياسات القبلية التقليدية، وتركت الجماعات المعادية بمفردها كثيرا لأطول مدة ممكنة، وإذا ما أخطرت الحكومة للتدخل ضد تلك الجماعات فإن القوات الاستعمارية الصغيرة بمساعدة حلفائنا المحليين تحرق قراها وتستولى على ماشيتها، واستمرت تلك الغارات الحكومية إلى الاعتراف بسلطة الحكومة الاستعمارية، ولم تتمكن الحكومات الأوروبية الاستعمارية فى استخدام خدمات مدنية منتظمة وقوات عسكرية يمكنها احتلال إدارة كل الأراضى الموجودة تحت سلطتها إلا بعد ازدياد الدخول المحلية فى الرسوم الجمركية وضرائب الرأس، ولكن لم يتم الوصول إلى تلك الحالة فى معظم المستعمرات الأفريقية عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

وكانت أهم العقبات أمام أى نوع مـن التطـور الاقتصـادى للمسـتعمرات الأفريقية الجديدة هى عدم وجود أى نظام سابق للعمل بأجر يمكن اسـتخدامه فـى الأشغال العامة قبل البناء والتشييد وإنشاء الطرق وأعمال النقل.

ولذلك استخدمت كل الحكومات الاستثمارية فـى تلـك الظـروف العمـل الإجبارى بطريقة كبيرة مما يعنى عمليا عدم الاهتمام بمشاكل محلية كبـرى مثـل العبودية أو الرق والعمل دون أجر، وحدث ذلك لكى يسـتطيع "الزعمـاء" تلبيـة احتياجات العمل للمديرين الاستعماريين. وأدى ذلك إلى حدوث تجاوزات فى معظم الأحوال. ولكم تم أداء الكثير فى تلك الفترة فى المستعمرات الأفريقية، وهـذا مـن عجائب الأمور التى أدت إلى رفع ركائز التطور النشط الذى سيحدث فيمـا بعـد. وأدى بناء الطرق والسكك الحديدية إلـى وصـول حركـة المـرور بالسـيارات والقطارات إلى معظم جهات أفريقيا الاستوائية، وذلك بحلول عام ١٩١٤ ممـا أدى إلى سرعة نقل وتصريف المحاصيل النقدية بسهولة، وجمعـت المنـاطق القبليـة الصغيرة العديدة إلى حوالى أربعين منطقة مختلفة. وكان معظمهـا قـادرا علـى التطور إلى مصاف الدول الحديثة القادرة تماما على الوقوف على قدميها بواسـطة مواردها الخاصة، وكانت أعظم ميزة والتى أثرت كثيرا على معظـم الأفـريقيين الذين شاهدوا وعاشوا الأحداث السابقة على العصر الاستعمارى هى تلك النية مـن السلام والهدوء والسكينة التى سادت وفرضـتها الحكومـات الاسـتعمارية حتـى الأشدها قوة، وأدى السلام الاستعمارى قبل كل شىء إلى إطلاق الطاقات من أجـل أداء أوجه النشاط الجديدة والتى أدت ليس فقط إلى التطور الاقتصادى والتقدم ولكن أيضا انتشار الديانات العالمية مثل المسيحية والإسلام بالإضافة إلى التربية والتعليم الحديثين، ولذلك يجب دراسة مختلف أنواع الحكم الاستعمارى التى ظهـرت فـى مختلف أنحاء أفريقيا الاستوائية أثناء الفترة بين التقسيم والحرب العالمية الأولى فى إطار تلك الخلفية العامة المذكورة سابقا.

## غرب أفريقيا: مجال المزارع المنتج

وتتميز تلك المنطقة بأن شعوب الساحل قد تاجرت مع الشعوب الأوروبية لأكثر من ثلاثة قرون، وتوطدت التجارة الأوروبية بينهم وحاجاتهم للسلع والبضائع الأوروبية لدرجة أنهم قاموا بمجهودات هائلة لتنمية المحاصيل النقدية التى يمكن معادلتها مع الاستيراد الذى أصبح آنذاك من الضروريات وذلك بعد إلغاء تجارة الرقيق، ويعنى ذلك أن الحكومات الاستعمارية فى غرب أفريقيا قد كانت لها ميزة كبرى عن الحكومات فى مناطق أخرى من القارة، فيمكنها مثلا زيادة مواردها فى فرض ضرائب على تجارة رائجة سابقة، ويمكن بفرض بعض الضرائب الخفيفة على الخمور والأسلحة النارية الحصول على الأموال اللازمة لسداد أجور الهيئات الصغيرة الأولى من المسئولين والقوات العسكرية، ويمكن أن تمونها بالأصول اللازمة التى يمكن الاقتراض بضمانها، ويعتبر ذلك الأمر أكثر بكثير من أى اختلافات مناخية عن أماكن أخرى فى أفريقيا التى أدت بالحكومات الاستثمارية للبحث عن موارد وإيرادات بتشجيع الإنتاج الزراعى بدلا من جذب الشركات الأوروبية أو المستوطنين بمنحهم قطعا من الأرض، ولذلك ورثت تلك الحكومات فى غرب أفريقيا نظاما اقتصاديا يمكن البناء على أساسه ونفهم أن معظم الإدارات الاستثمارية فى أفريقيا تفضل تماما بناء اقتصادياتها على الإنتاج الزراعى، ومكنتها الظروف فى جنوب أفريقيا من فعل ذلك فعلا، ولكن تأثرت أجزاء صغيرة من المنطقة، حتى فى غرب أفريقيا، من نمو الإنتاج النقدى، واقتصرت أوجه النشاط الاقتصادى الأساسى للناس فى إنتاج المحاصيل الزراعية الاستهلاكية ومواد البناء والوقود والملابس ومعظمها للاستهلاك المحلى، ويسمى هذا الأسلوب من الحياه الذى يقتصر على مقدار كبير من التجارة المحلية بل ويعطى التجارة على المسافات الطويلة بانتفاء الكفاف عند الاقتصاديين بعكس الاقتصاد النقدى.

وقدرت أوجه النشاط تلك عام ١٩٠٠ بحوالى٩٠ بالمائة من الإنتاج النيجيرى و٧٥ بالمائة من إنتاج ساحل الذهب، ولكن، وبالرغم من سيادة اقتصاد

الكفاف، إلا أن بدايات الاقتصاد النقدى قد وجدت واعتبرت قاعدة للتطور في المستقبل.

## غرب أفريقيا الفرنسية

طور الفرنسيون أفضل نظم حكمهم الاستعمارى فى منطقة ممتلكاتهم فى غرب أفريقيا، ولم يتم ذلك طبقا لخطة استعمارية مسبقة بل فقط لأن المستعمرات السبع الحديثة فى السودان وموريتانيا وفولتا العليا والنيجر وغينيا وساحل العاج وداهومى قد كانت كلها امتدادا أساسا لمستعمرة السنغال القديمة، وكان الوصول إلى الأربعة الأولى منها عن طريق السنغال أساسا، كما تم احتلالها كلها بالقوات العسكرية وأساسها القوات السنغالية التى دربها فيدحرب Faidherbe وجالينى: Gallienii خلال حروبهم مع الحاج عمر وأحمد وسيفو وساموري فى المنطقة بين السنغال الأعلى ونهر النيجر (انظر الفصلين ٥، ١٠).

واستمر القتال مع ساموري إلى عام ١٨٩٨، ونظرا لاعتياد الفرنسيين على الحرب لاحتلال أراضيهم فإنهم لم يهتموا كثيرا بالتفاوض مع الزعماء الأفريقيين مثلما فعل البريطانيون والزعماء المستعدون لذلك، وتم تقسيم مملكة داهومى دول الموسى Moss فى واجا دوجو WAGAOLUFU ياتنجا Yatenga ودول مهمة أخرى، وحلت محلها وحدات إدارية فرنسية (تسمى دوائر Cercles) وكانت أكثر تناسقا وتحت إدارة مباشرة محكمة بواسطة ضباط عسكريين فى البداية ثم بواسطة المدنيين أكثر مما حدث فى المناطق البريطانية.

وأنشأت السياسة الاقتصادية للمستعمرات غرب أفريقية الفرنسية الجديدة على النظام السنغالى، حيث جعل فيد هرب وخلفاؤه الإدارة الاستعمارية مستقلة ماديا بتشجيع السكان الأفريقيين على زراعة المحاصيل النقدية فى أراضيهم،

ويعنى ذلك أن المزارع السنغالى سوف يكون لديه محصول يبيعه نقدا ويسدد منه ضريبة الرأس التى فرضتها الحكومة، ومع مقدم القوات الفرنسية إلى الداخل فإن الإدارة المدنية التى أنشئت فى المناطق المفتوحة حديثا قد أمرت فورا بزراعة تلك المحاصيل النقدية.

ووجدت آمال كبيرة بالذات لتطوير زراعة القطن فى حوض نهر النيجر ولكن كان نقص وسائل النقل من أكبر العوائق فى كل المناطق الأفريقية الداخلية، وكانت أول خطوط السكك الحديدية قد بناها العسكريون للربط الاستراتيجى بين السنغال الأعلى والنيجر الأعلى قد توافقت تماما مع أعمال نقل الجنود والمعدات ولكنها لا تصلح إطلاقا للأغراض التجارية. فلا يمكن الوصول إلى محطاتها النهائية إلا بواسطة البواخر الصغيرة ذات الغاطس القليل، كما لا يمكنها السفر إلا فى بعض فصول العام دون الأخرى، وتم التغلب على صعوبة الملاحة على نهر السنغال بعد انتهاء الخط من داكار إلى كايس kayes عام ١٩٤٢ فقط، واستمرت صعوبات الملاحة على النيجر حتى أيامنا الحالية، وازدهرت باكورة محاصيل زيت النخيل والكاكاو وباقى منتجات الغابات فى بعض المناطق الساحلية فى غينيا وساحل العاج وداهومى. انتظر افتتاح الداخل بناء السكك الحديدية ولم يتم ذلك إلا فى بدايات القرن العشرين، ولم تحدث تطورات مهمة فى السكك الحديدية إلا حوالى عام ١٩١٤، وكانت أوائل الأجور المالية النقدية لشعوب السودان وفولتا العليا هى أجور العمال المهاجرين الذين توجهوا للعمل فى مناطق زراعة الفول السودانى فى السنغال وزيت النخيل والكاكاو فى ساحل العاج وساحل الذهب.

وأدت مشكلة الاستغلال الاقتصادى إلى توحيد الفرنسيين لكل مناطقهم الأفريقية فى غرب القارة فى وحدة إدارية واحدة بحيث تستطيع المناطق الأكثر ثراء ومواصلات أن تدعم وتساعد المناطق الأفقر والأبعد، ولذلك منح حاكم السنغال سلطات الإشراف على زملائه عام ١٨٩٥، وتم ذلك من أجل ضمان التنسيق العسكرى فى عصر حاربت به القوات الفرنسية مع ساموري حول الحدود

الداخلية للسودان وغينيا وساحل العاج، وصدرت قـوانين فرنسـية عـام ١٩٠٢ و١٩٠٤ عند بداية العصر الكبير لإنشاء السكك الحديدية، وجمعـت فرنسـا كـل أراضيها فى غرب أفريقيا تحت إدارة حاكم عام مقره داكار Dakar فى السـنغال، وتكون هذا الحكم من الحاكم العام وموظفيه والمجالس الاستشارية، ولكن كلف ذلك كثيرا من قيمة الرسوم الجمركية المفروضة فى كل المستعمرات الساحلية.

واستطاع الحاكم العام بهذا الدخل التفاوض للحصول على قروض للسـكك الحديدية المؤدية إلى الداخل، ويعنى ذلك أنه فى الأيام الأولى للحكم الاستعمارى أن السنغال وداهومى قد ساهمتا معا بثلاثة أرباع الميزانية الاتحادية لكل غرب أفريقيا الفرنسية، ولكن تم ذلك لمصلحة المنطقة كلها بالتأكيد.

## غرب أفريقيا البريطانية

وظهرت الأراضى البريطانية فى غرب أفريقيا فى بداية الفترة فى صـورة غير متجانسة بالمرة. فلقد كانت منفصلة جغرافيا إحداها عن الأخرى وإن جعلهـا تاريخها الأطول والأكثر إنقاصا تحت حكم نوعين مختلفين من الحكومات. ولـذلك وجدت - كما شرحنا فى الفصل السابق - أربع مستعمرات تابعة مباشـرة للتـاج البريطانى وهى جامبيا، سيراليونو، مستعمرة ساحل الذهب، ولاجوس، كما وجدت محمية أنهار الزيت فى شرق نيجيريا تحت إدارة وزارة الخارجية البريطانية، ثـم وجدت فى النهاية تلك الأراضى التى تديرها شركة النيجـر الملكيـة نيابـة عـن الحكومة البريطانية، ولكن لم تكن تلك الخلافات مهمة كما يبدو لأول وهلـة، فلقـد تنازلت شركة النيجر الملكية عن امتيازها عام ١٨٩٨، كما أصبحت شمال نيجيريا محمية بريطانية عام ١٩٠٠، وهو العام الذى تولت فيه وزارة الاستعمارات حكـم شرق نيجيريا. ولذلك تشـابهت المسـتعمرات البريطانيـة فـى غـرب أفريقيـا بالمستعمرات الفرنسية أكثر من أى مستعمرات أوروبية أخرى. وحدث هذا التشابه

لاعتمادها اقتصاديا على زراعة المحاصيل النقدية بواسطة المزارعين الأفــريقيين، وتشابهت أكثر فى أن رخاء المناطق الساحلية قد اســتخدم لبنــاء الإدارة وتشــييد حركة المواصلات فى الداخل، ولكن تماثل ثروة غرب أفريقيا البريطانية بــالرغم من صغر مساحتها ثلاثة أو أربعة مرات الثروة الموجــودة فــى غــرب أفريقيــا الفرنسية، ولذلك تطورت بسرعة أكبر. وكانت المشكلة السياسية الكبرى هنا هــى استمرارية وحدة وقوة أمة الأشانتى التى تعافت كثيرا من هزيمتهــا عــام ١٨٧٤. ولذلك أرسلت بريطانيا حملتين كبيرتين عــام ١٨٩٦ و١٩٠٠ لهزيمــة الأشــانتى وإرغامهم على قبول السلطة الحكومية البريطانية، ثم بدأت أعمال حفــر المنــاجم العميقة للبحث عن الذهب بواسطة الشركات البريطانية وأماكن جنوب أشانتى والتى ضمتها بريطانيا إليها بعد عام ١٨٧٤ حتى قبل هزيمة الأشــانتى النهائيــة، وأدت أعمال المناجم إلى إنشاء أول خط سكة حديد فى المستعمرة والــذى وصــل إلــى منطقة مناجم الذهب فى تركوا Tarkwa فى سيكوندى SEKANDI عــام ١٩٠١ ولكن تناقصت صادرات الذهب من ساحل الذهب فى نهاية القرن التاسع عشر من ٨٠,٠٠٠ (ثمانين ألف جنيه إسترلينى) عــام ١٨٩٧ إلــى ٢٢,٠٠٠ عــام ١٩٠١ وحينما وصلت السكة الحديدية إلى تركوا TARKWA ازدادت القيمــة بســرعة: ٩٧,٠٠٠ عــام ١٩٠٢، ٢٥٥,٠٠٠ عــام ١٩٠٣ – ١,١٦٥,٠٠٠ عــام ١٩٠٧ و١,٦٨٧,٠٠٠ جنيه إسترلينى عام ١٩١٤. وكانت الأهمية الثانية الكبرى للســكة الحديدية بعد أعوام قليلة من وصولها إلى كوماسى KOMACY لضمان الســيطرة العسكرية والسياسية على أشانتى هى انفتاح منطقــة الغابــات علــى العــالم أولا للحصول على المطاط، وثانيا لزراعة جوز الهند، وبلغت قيمــة صــادرات تلــك السلعة عام ١٩٠١ فى المستعمرة ٤٣,٠٠٠ جنيه إسترلينى ثم بلغت ٩٥,٠٠٠ فــى ١٩٠٢ و٥١٥,٠٠٠ عام ١٩٠٧ و٢,١٩٤,٠٠٠ عام ١٩١٤. ووصل تصدير جوز الهند فى ذلك العام إلى ٤٩ بالمائة من كل الصادرات، كما كان دخلها كافيا لســداد تكاليف كل صادرات ساحل الذهب. كما تم تصدير الخشب الثمين وبلغــت قيمتــه

١٦٩,٠٠٠ جنيه إسترلينى عام ١٩٠٧، ونتج ذلك عن إنشاء خط السكة الحديديــة. ولذلك جعلت صادرات جوز الهند والذهب وخشب الزان الثمين ساحل الذهب أغنى المستعمرات الأفريقية على الإطلاق عام ١٩١٤.

وكان المزارعون المنتجون فى المناطق الساحلية فى نيجيريــا مثــل بــاقى غرب أفريقيا يموّلون برسوم الجمارك المفروضة علــى اســتيرادهم أكثــر مــن ضرائبهم المباشرة الدخل اللازم الذى استطاعت بواسطته الإدارة الاستعمارية بناء نظام حكم حديث ونظام مواصلات حديث أيضا ثم امتداد ذلك إلى الداخل.

ثم تم ضم محمية لاجوس فى الجنوب الغربى ومحمية جنوب نيجيريا (أنهار الزيت القديمة) فى الجنوب الشرقى عام ١٩٠٦ لجنوب نيجيريــا ذات الاســتقلال الاقتصادى الذاتى. ولكن ظل الشمال بسكانه الكثيرين منعزلا عن الأسواق العالمية إلا بواسطة خط المواصلات النهرى الطويل والذى لا يمكن الاعتماد عليــه دائمــا لنهرى النيجير والبنوى BENUOE. ولم تستطع الإدارة الاســتعمارية الاســتمرار هناك حتى بواسطة المنح المالية المستمرة من الخزانة البريطانية وباستخدام أساليب حكم شعب الفولبى بأكثر سرعة ممكنة، فلقد استمر أداء الفولبى فى إقرار النظــام، فرض الضرائب وإقرار العدالة على أتباعهم من الهاوســا، وذلــك تحــت الحكــم البريطانى مع قبول نصائح المندوبين البريطانيين فى البلاط، ونجح هــذا النظــام بالرغم من كونه من عصور سابقة وتنقصه عناصــر الحداثــة، وفهــم لوجــارد LUGARD وهو أول حاكم بريطانى للشمال (١٩٠٠ - ١٩٠٦) المسئول عن هذا النظام أن شمال نيجيريا لا يمكن تحديثه إلا بضمه سياسيا مــع الجنــوب وربطــه بالساحل بواسطة السكك الحديدية، ثم عاد لوجارد إلى نيجيريا عام ١٩١٢ وأصــبح الحاكم العام لنيجيريا كلها بعد ذلك بعامين (١٩١٤)، ولكن ازدادت الاختلافات بين الشمال والجنوب واستقرت لدرجة لا يمكن تعويضها بسرعة. ولكن كان التوحيــد الإدارى لنيجيريا خطوة كبيرة إلى الأمام.

## مجال الشركة صاحبة الامتياز: فرنسا والملك ليوبولد فى حوش نهر الكونغو

كانت منطقة أفريقيا التى يجرى بها نهر الكونغو وروافده مختلفة للغاية عن منطقة غرب أفريقيا كما سبق القول. وسادت الغابات الاستوائية وأقامت بها أقل الشعوب الأفريقية تحضرا والأكثر انعزالا عن العالم، تعيش أكثر المجتمعات كثافة وتعقيدا حول حافة حوض النهر، وتتصل تجاريا فى بعض الأحيان ناحية الشمال مع ليبيا ومصر وشرقا مع ساحل زنزبار وأحيانا غربا مع لواندا البرتغالية، ولكن لم تمر تجارة كثيرة بواسطة النهر فى قلب الغابات إلى مصب نهر الكونغو، ولم يتغير ذلك إلا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر مع ظهور البواخر النهرية فى النهر، ولكن حدث اضطراب كبير فى التجارة الخاصة بالساحل الأفريقى الأوسط الغربى فى جبل كاميرون إلى لواندا والتى استمرت فى القرن التاسع عشر نظرا لأعمال ونشاط ضباط دولة الكونغو الحرة عند نهر الكونغو الأدنى وأيضا الفرنسيين فى الجابون، كما لم توجد فيها منتجات محلية أفريقية لمبادلتها بالبضائع الأوروبية وبحيث ينتفع منها المستعمرون مثلما فعلوا فى غرب أفريقيا، كما لا يمكن لأى حكومة هنا أن تمول نفسها بنفسها بفرض الضرائب على التجارة المارة ببوما Boma أو ليبوفيل Libeoville أو للحصول على ترخيص لبناء خطوط السكك الحديدية حول جداول نهر الكونغو أو جنوبا من منطقة الكاساى العليا kasi إلى كاتانجا. وكانت الأموال المخصصة لمثل تلك المشروعات أموالا ذات مخاطر كبيرة ولا يمكن أن تتوافر إلا بتقديم فرص أرباح لفترات طويلة نظرا لعدم إمكانية وجود العائد السريع.

وتم فى النهاية اتباع حل ناجح تمثل فى إنشاء خطوط السكك الحديدية فى شمال وجنوب أمريكا؛ إذ جذبت رءوس الأموال الخاصة بمنح حقوق امتياز فى الأراضى والمناجم المراد تطويرها واستغلالها.

وكان ذلك أصل نظام الشركات ذات الامتيازات التى ستصبح من السمات المميزة للتاريخ الاستعمارى لتلك المنطقة. وقام الملك ليوبولد بأول عقد من هذا النوع عام ١٨٨٦ مع شركة الكونغو للتجارة والصناعة، ووافقت الشركة بمقتضاه ببناء خط سكة حديد حول جداول نهر الكونغو الأدنى من ماتادى MATADY إلى ليوبولدفيل LEOBOLFULE وذلك مقابل الحصول على ١٥٠٠ فدان (أكثر قليلا من ١٤ كيلو متر مربعا) لكل كيلو متر يتم إنشاؤه من الخط، ويعنى ذلك أن بناء خط سكة حديد الكونغو الأدنى كانت تعنى تخصيص حوالى ٨٠٠٠ كيلومتر مربع لشركة واحدة، وفور إنشائه عام ١٨٩٨ تم عقد عقود مشابهة مع شركتين أخريين، وقامت تلك المؤسسات ببناء خطوط سكك حديدية من نهر الكونغو الأعلى إلى بحيرة تنجانيقا ومن حدود الملاحة على الكاساى KASAY إلى داخل كاتالجا، وتوجد صورة مختلفة من امتياز السكة الحديدية ومنحت عام ١٨٩١ إلى شركة كاتنجا، وحدث ذلك فى العصر الذى هدد به رودس باحتلال كاتنجا من الجنوب، ولما لم يتمكن الملك ليوبولد من احتلال المنطقة عمليا، منح حقوق امتياز إلى شركة كاتنجا بأن تقوم بذلك فعلا مقابل حقوق امتياز خاصة بثلث الأراضى والمناجم فى المنطقة كلها.

واعتبرت كل الأراضى الممنوحة بتلك الطريقة "أراضٍ ضائعة" وإن خرجت عنها القرى الكونغولية والأرض المزروعة فعلا، ولكن لا توجد قيمة للأرض بدون عمل، ولذلك تم الضغط بكل الأساليب الممكنة على السكان المحليين للعمل فى الشركات صاحبة الامتيازات.

وحدثت أسوأ التجاوزات فى الفترة من عام ١٨٩٥ إلى ١٩٠٥ حنيما أدى اختراع العجلات المطاطية للسيارات والدراجات إلى حدوث طلب هائل على المطاط. وتم مواجهة هذا الطلب الرهيب على المدى الطويل بتنمية مزارع المطاط فى جنوب شرق آسيا، ولذلك تم الحصول على أرباح هائلة للشركات صاحبة الامتيازات فى الكونغو مادام الطلب على المطاط الخام. واستخدمت تلك الشركات

نظريا، ولكنها أجبرت عمليا، جيرانها الكونغوليين لاستخراج المطاط فى الغابات مقابل مكافآت صغيرة للغاية، وأدت تلك الأرباح الهائلة إلى إثارة جشع الملك ليوبولد الذى استولى وأدار بنفسه مساحات كبيرة من أراضى المستعمرة، ولكنه أجر أيضا مناطق أخرى لشركات خاصة على أساس المشاركة فى الأرباح، وأثبت هذا النظام نجاحه لدرجة انتشاره وتطبيقه فى أفريقيا الاستوائية الفرنسية، ورأت الحكومة الفرنسية فى ذلك الأمر وسيلة لتجنب الخسائر السنوية الكبيرة المتراكمة منذ بداية الحكم الاستعمارى، ولكن انتهت أسوأ مظاهر الاستغلال فى هذا النظام بين أعوام ١٩٠٦، ١٩١٠ حنيما تصادفت عملية الإزهار العالمى، وأجبر الملك ليوبولد على التنازل عن مستعمرة الكونغو إلى الدولة البلجيكية. وقامت فرنسا بضم المناطق الأربعة فى جابون والكونغو الأوسط وأوبانجى شارى Qubangi Chari وتشاد فى اتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية وذلك فى محاولة لخفض النفقات والقيام بإدارة موحدة مباشرة، وتم ذلك بناء على نموذج الحكومة العامة لغرب أفريقيا الفرنسية، وكانت العاصمة هى برازافيل BRAZZAVILLE ولكن كان للحكومتين الفرنسية والبلجيكية عقود مع الشركات صاحبة الامتيازات ولا يمكن تنفيذها إلا بترك مساحات كبيرة من الأرض واحتكارات تجارية على مناطق أكبر، ووجدت ديون هائلة على الكونغو البلجيكية والتى حصل عليها الملك ليوبولد باقتراضه الأموال من حساب الكونغو وإنفاقها على قصوره وباقى المبانى العامة فى بلجيكا، وبلغت قيمة الفائدة على ذلك الدين فى وقت واحد حوالى خمس إيراد الكونغو.

وكانت عملية إنشاء المستعمرات في حوض نهر الكونغو مختلفة تماما عن تلك التى حدثت فى غرب أفريقيا بالنسبة لمشاكلها، فلقد كانت تلك المنطقة فقيرة للغاية، كما أن الناس الذين يعيشون بها لم يكن لديهم مصادر دخل يمكن فرض ضرائب عليها لمواجهة نفقات الحكومة والمواصلات العامة. وكانت الوسيلة الوحيدة لخلق مثل تلك الثروة هى بإعادة تنظيم عمل الناس، وقامت الشركات صاحبة الامتيازات بذلك بطريقة فجة للغاية.

## مجال المستوطن الأوروبى: بريطانيا وألمانيا والبرتغال فى شرق ووسط أفريقيا

لم توجد فى المستعمرات الجديدة فى شرق ووسط أفريقيا فى عصر احتلالها تجارة إلا تجارة العاج المتهورة، ولذلك لم توجد مصادر دخل للحكومة الاستعمارية، وذلك تماما مثل منطقة حوض الكونغو وبعكس غرب أفريقيا. تمر بها سلسلة من المناطق المرتفعة الممتدة فى هضاب كينيا فى الجنوب الغربى فى اتجاه راس الرجاء الصالح، ووجدت هناك بعض الأراضى التى يقيم بها بكثافة قبيلة الرعاة الأفريقيون، ويمكن للمستعمرين الأوروبيين الاستقرار كمزارعين، ولذلك وبالنسبة للحكومات الأوروبية الباحثة عن الدخل فإن سياسة استقرار بعض السكان البيض الأوروبيين والذين يمكنهم استخدام وإدارة العمالة الأفريقية قد ظهرت على أنها سياسة مغرية للغاية.

ولكن كانت رغبة الحكومة الألمانية أصلا فى تشجيع الهجرة فى أصل ذاتها، فلقد امتلكت ألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر سكانا ريفيين كثيرين ويزدادون بسرعة، ولذلك هاجر الفلاحون الألمان بمئات الآلاف إلى الولايات ولعدة أعوام. وكان أحد الأهداف الرئيسية لأنصار الحركة الاستعمارية الألمانية هو إرسال هؤلاء المهاجرين إلى أراضى ألمانية عبر البحار، وشجعت الحكومة الألمانية المستوطنين الألمان بطلب الأراضى فى شرق وجنوب غرب أفريقيا كاميرون وتوجو، ولذلك خصصت لهم الأراضى وبالذات فى المناطق التى ستدخلها السكك الحديدية.

ولم تهتم الحكومة البريطانية فى لندن كثيرا بأمور الهجرة الأوروبية ولكن شجعت شركة جنوب أفريقيا البريطانية استقرار المهاجرين فى شمال وجنوب روديسيا، وحدث ذلك لسببين، أولا: لأن الفكرة تتفق مع آمال سيسل رودس حيث مرتفعات وسط أفريقيا سوف تكون موطنا ممتازا لمزارعين يتحدثون الإنجليزية،

وثانيا: أن منح الأراضى كان الوسيلة لسداد أتعاب المستوطنين الذين بدون الأراضى وجب السداد لهم نقدا من خزانة الشركة، ولكن حينما أعلنت الحماية البريطانية الرسمية على نياسالاند عام ١٨٩١ وأيضا فى أوغندا وكينيا حينما استولت الحكومة البريطانية على كل من أوغندا وكينيا عام ١٨٩٤ - ١٨٩٥ فإن حكام المستعمرات قد تُركت لهم حرية حل مشاكلهم بطريقتهم الخاصة، ويلاحظ أن خط السكة الحديد الأوغندى الذى ربط ممباسا بكيموسو kimuosu على بحيرة فكتوريا عام ١٩٠١ قد سددت تكاليفه الحكومة الإمبراطورية بواسطة قرض بلا فائدة ثم تنازلت عنه كله كهدية فيما بعد، أما فى أوغندا وبعد خمسة أعوام من الأعمال العسكرية فإن الحكومة الاستعمارية قد سوت أوضاعها مع حلفائها من الباجنديين Bagedan ووقعت معهم اتفاقا خاصا عام ١٩٠٠ وحولت تلك المعاهدة الزعماء البوجانديين إلى أرستقراطية مالكة للأرض، ومنحت دولة بوجندا درجة من الاستقلال الذاتى جعل من المستحيل استقرار أى مستوطن أوروبى بها.

واستفاد البوجانديون من ذلك الوضع لأقصى درجة بزراعتهم للقطن وبكميات كبيرة أيضا، مما جعل بوجندا مستقلة اقتصاديا ولا تحتاج لمنح للمساعدة، ولكن اختلف الأمر فى كينيا ونياسا لاند؛ حيث تم حل مشكلة العوائد والدخل بتشجيع قيام مزارع المستوطنين فى تلك الجهات.

وأدت عملية التكالب على أفريقيا بين الأمم الأوروبية إلى بعث الحياة فى مستعمرتى أنجولا وموزمبيق العريقتين البرتغاليتين، وتم تشجيع المستوطنين الجدد على مغادرة البرتغال ليكونوا مزارعين فى تلك المستعمرتين.

ولكن رغب البرتغاليون هنا فى السيطرة على مستعمراتهم الأفريقية الشاسعة أساسا ولم تكن الهجرة البرتغالية أبدا بهدف التنمية والإصلاح، ولذلك أصبح صاحب الأرض فى أنجولا وموزمبيق يشبه شركة صاحبة امتياز تتكون من شخص واحد أكثر بكثير من نظيره البريطانى أو الألمانى.

فلقد كان يقوم بجباية الضرائب وتطبيق العدالة فى ضيعته على مستأجريه الأفريقيين ويحصل منهم على عمالته وقوة شرطته الخاصة، ويعتبر ذلك استمرارية لأوروبا القرون الوسطى فى أفريقيا القرن العشرين.

وكان الأوروبيون المستقرون فى شرق ووسط أفريقيا أثناء الفترة حتى عام ١٩١٤ قليلين للغاية عدديا، فلقد أقام حوالى ١٠,٠٠٠ فى زيمبابوى الحالية، وحوالى ٣٠٠٠ فى زامبيا وكينيا وتانزانيا وناميبيا الحالية فى كل منها، ولم يزد العدد عن ذلك كثيرا فى أنجولا وموزمبيق ولم يزد عدد المستوطنين على بضعة مئات فى مالاوى وأوغندا، واستقر عدة آلاف من الفرنسيين فى هضاب مدغشقر وكونوا أكبر جالية من المستوطنين colons الفرنسيين خارج منطقة شمال أفريقيا، وكان المستوطنون الأوروبيون أقل عددا بكثير من الهنود الذين استقروا بعد الاحتلال العسكرى كحرفيين وتجار صغار فى شرق أفريقيا كلها وفى مناطق من شرق أفريقيا أيضا، واستقر الهنود فى المدن والقرى وعاشوا بعملهم وكدحهم. ولكن نافس الأوروبيون، من جهة أخرى، الأفريقيين فى الأراضى وعاشوا يستخدمون العمالة الأفريقية، ولكن لم تتأثر إلا مناطق قليلة مباشرة من تلك الأمور، كما أن معظم مناطق الكثافة السكانية الأفريقية على سبيل المثال حول بحيرة فكتوريا وبحيرة مالاوى لم تتأثر على الإطلاق، وفى معظم تلك البلاد عاشت المجتمعات الأفريقية حياتها العادية وحكمها الحكام الاستعماريون تماما مثل غرب أفريقيا، ولكن وبعكس تلك المنطقة الأخيرة وبدلا من تشجيع السكان على زراعة المحاصيل النقدية فى أراضيهم لزيادة دخلهم فإن الأفريقيين هنا قد تم تشجيعهم على كسب قوت يومهم وسداد ضرائبهم بالعمل كعمال موسميين متنقلين فى الضياع الأوروبية.

وتماما مثل الشركة صاحبة الامتياز فى حوض نهر الكونغو فإن المستوطن الأوروبى المزارع فى شرق ووسط أفريقيا فى ذلك العصر قد كان مهما للغاية بالنسبة للدور الذى يلعبه فى تنظيم العمالة الأفريقية وإدخال مفاهيم اقتناء السوق

إليها، ولكن اهتمت الشركة أساسا بأرباحها ولكن فكر المستوطن أساسا بأولاده وبأحفاده والوضع الذى سيحصلون عليه فى المجتمع، وأدى ذلك إلى خلق مشكلة نمت كثيرا بعد الأعوام التالية للحرب العالمية الأولى، فلقد وجب التحديد آنذاك عما إذا كانت تلك الجهات فى أفريقيا الاستوائية يجب تطويرها لمصالح المستوطنين أو للسكان الأفريقيين الأصليين، وكانت النتيجة مجموعة من الحلول الوسطى غير الكافية، مثلما سنرى فى الفصل الثالث عشر.

# الفصل الثانى عشر

## الحكم الاستعمارى فى أفريقيا الاستوائية (٢): التطورات الاجتماعية والدينية

### تأثير الحكم الاستعمارى

اختلف تأثير الحكم الاستعمارى على المجتمعات الأفريقية كثيرا ليس فقط من منطقة لأخرى ولكن أيضا من جزء من منطقة لآخر.

وتتبع أسباب هذا الاختلاف إلى حد ما فى التنظيم الاجتماعى لتلك المجتمعات أو أسلوب كسبها لميعشتها، ولذلك نجد أن الرعاة المتخصصين مثل الماساى masay فى كينيا أو الهيريرو herero فى جنوب أفريقيا قد وجدوا أنه من الصعب للغاية التأقلم مع رغبات الحكومات الاستعمارية أكثر بكثير من المزارعين المستقرين، كما أن الشعوب المحاربة مثل الندبيلى Nadebele فى جنوب رودسيا أو النجونى Ngoni فى شمال رودسيا ونياسا لاند وهم المستعمرون فى العصور السابقة قد وجدوا أنه من الصعب قبولهم العمل وسداد الضرائب مثل رعاياهم السابقين الماشونا Mashona والشيو Chuona ولكن الأهم بكثير من الأسباب الاجتماعية هى تلك الظروف المرتبطة بالهدنة التى اتصلت بها كل مجموعة فى منطقة معينة لأول مرة مع الحكومة الاستعمارية.

فلقد استفادت بعض الشعوب من الحكم الاستعمارى، فلقد وحدت شعوب منظمة فى كل منطقة تقريبا والتى نظرا لحسن خلقها أو تفكيرها الصائب قد تلاءمت مع القوة المستعمرة وحصلت بالتالى على معاملة مميزة.

ولم تحدث فترة العصر الاستعماري في البداية لتلك الشعوب أي نوع من الخجل ولكن على العكس فلقد توسعت حدودها، وزادت هيبتها وشعرت بالرخاء والإنجاز، ففي شمال رودسيا مثلا حصل الباروتسي Barotse الذين بفضل تأثير المبشر وكولكفوند Coilcfond طالبوا بالحماية البريطانية قد حصلوا فعلا على معاملة خاصة للغاية من شركة جنوب أفريقيا البريطانية، وتم الاعتراف بهم كسادة على منطقة واسعة مجاورة لهم نظرا للاستعداد للتوقيع على معاهدات وتقديم تنازلات، ولكنهم استطاعوا أيضا حماية بلادهم من معظم أنواع التدخل الأوروبي بتوقيعهم على معاهدات تمنح حقوق امتياز على الأراضي والمناجم للشعوب التابعة لهم.

وفضلت الحكومة الاستعمارية الألمانية في شرق أفريقا الألمانية السواحيليين المقيمين في المدن الساحلية، وكان السواحليون الحضريون أول من تعامل مع الحكم الفظ والقاسي لمسئولي شركة شرق أفريقيا الألمانية، ولذلك نشبت الثورة ضدهم عام ١٨٨٨ بقيادة أبوشيري Abushiri وهو أحد مزارعي القصب العربي في منطقة بانجاني تبعه الحراس المسلحون السابقون لحركة تجارة القوافل الداخلية. وكانت الثورة خطيرة لدرجة أن الحكومة الألمانية ألغت امتياز الشركة وقامت بالقضاء عليها بنفسها بتجنيد ٦٠٠ مرتزق سوداني من مصر. ثم تحركت القوات إلى الداخل وتم إنشاء نوع من الإدارة المدنية للمدن الساحلية بطريقة ملائمة للمشاعر الإسلامية والاستعانة بالزعماء التنفيذيين، ونجحت تلك السياسة لدرجة أن الألمان قد قرروا تركيز كل مجهودهم التعليمي على إنشاء مدارس ناطقة بالسواحلية في المدن الساحلية، ولذلك نشأت تدريجيا في تلك المدارس طبقة مميزة للغاية من رجال الشرطة السواحليين والكتبة والمترجمين الذين ساعدوا مسئولي الإدارة الألمان وصاحبوهم حينما امتدت أوجه النشاط في المدن الساحلية إلى الداخل، وفهم هؤلاء الناس نظام الحكم الجديد واستطاعوا الاستفادة منه بمختلف الطرق والأساليب.

وقام الباجندا Bagenda بدور الوسيط بين البريطانيين وباقى شعوب المحمية فى أوغندا، وحاربت جيوش باجندا مع البريطانيين فى عدة حملات مبكرة وحصلت على مكافآتها بامتداد حدود بوجندا على حساب جيرانها، وبالإضافة إلى تلك الحدود الممتدة للغاية فإن البوجانديين قد صاحبوا إدارة المحمية النامية بسرعة، وعملوا لفترة كزعماء فى كل منطقة فى البلاد تقريبا، وحصلت بوجندا على الأفضلية فى كل أعمال تنمية وتحسين تقوم بها السلطة الاستعمارية، ونبعت الطرق الجديدة فى بوجندا، كما شيدت أول المدارس والمستشفيات هناك كما زرعت أول المحاصيل النقدية هناك من البن والقطن.

ونذكر مثالا آخر من نيجيريا، فلقد وجدت جماعتان مميزتان تماما وهما طبقة الفولب Fulbe الحاكمة فى الشمال وسكان المدن المثقفين فى الساحل مثل اليوروبا Yourbba فى لاجوس والإيفيك Efik والإيجوس Ejaws فى مدن دول الدلتا، والإيجبو من الموانى النهرية على نهر النيجر الأدنى، وكان الفولبى من أول المعارضين للاستعمار وحاربوا بضراوة ولكنهم اتفقوا مع الغزاه مما أدى إلى تأييد المستعمر لنظم حكمهم وتوسيعها، بل جعلها أكثر قدرة على النجاح المادى مما كان عليه الحال فيما قبل، ويتشابه نجاح سكان الساحل هنا مع نجاح السواحليين فى شرق أفريقيا، فلقد كانوا هم الكتبة والتجار ومديرى المدارس الذين يصاحبون رجال الإدارة البريطانية حينما يتوجهون إلى داخل البلاد، وساعدوا أيضا على تغيير نظم حكم مدن دول اليوروبا والمجتمعات القروية للإيجبو Ejebo إلى أنماط يمكن للحكومة الاستعمارية قبولها.

وكان هؤلاء هم المستفيدون من الحكم الاستعمارى ولكن وجد أيضا الجانب الخاسر مثل الذين أدى بهم حظهم التعس أو سوء التقدير أو فقط الوطنية المفرطة إلى الوجود فى صفوف الخاسرين، ففى جزيرة مدغشقر مثلا انتهزت عدة شعوب معادية لنظام حكم الهونا Hona انهيار قوة الأخيرة أثناء عصر الغزو الفرنسى للثورة ضدها وضد الفرنسيين على السواء، ولكن قضى الفرنسيون على تلك الثورة

بعنف بالغ مما أدى إلى تدنى أحوال تلك الشعوب، ولم تكن أحوالها تحت الحكم الفرنسى أفضل بالمرة من عصر حكم الهونا. وثارت شعوب النديبلى Ndeble والماشونا Mashona بطبيعة الحال فى محاولة لطرد المستعمرين البيض الذين استولوا على أراضيهم واستقروا بها فى جنوب رودسيا، وأدت نتائج حرب عام ١٨٩٣ وثورات عامى ١٨٩٦، ١٨٩٧ إلى طرد معظم النديبلى والماشونا من الأراضى السابقة التى زرعوها أو استخدموها للرعى، وأقاموا منذ ذلك الوقت فى محميات خاصة بهم ووجب عليهم هنا بدء حياتهم فى جدية وكثيرا بدون ماشيتهم وكثيرا بدون مساعدة جماعاتهم الاجتماعية القديمة التى انهارت نتيجة للحرب والقتال، وكان مصير شعب الهريرو herero فى جنوب أفريقيا أسوأ بكثير حينما ثاروا ضد المستوطنين الألمان عام ١٩٠٤ الذين استولوا على أراضيهم، ونقل ثلثا عدد هذا الشعب فى إجراءات القمع الألمانية، وأعلنت بلاد الهريرو على أنها أرض تمتلكها الدولة الألمانية ومنع الناجون من الاحتفاظ بماشية إذ لم يعودوا يمتلكون أى أراض كمرعى لماشيتهم. وهربت مجموعات منهم إلى متشوالاند، أما الباقى فدخل فى خدمة الأوروبيين، ولكن لم توجد أماكن أخرى فى أفريقيا الاستوائية حيث تفاقمت الاحداث بطريقة سيئة للغاية بين الاستيطان الأوروبى والمقاومة الوطنية عندما كانت المناطق المطلوبة للاستيطان الأوروبى شمال نهر الزامبيزى صغيرة للغاية، ولذلك ترك سكانها الأصليون حيثما كانوا أو تم نقلهم لمسافة بضعة أميال فقط، وكانت أكبر عملية انتقال لشعب الماساى Masai الشمالى من المنطقة الوسطى فى الهضاب الكينية، ولكن تم ذلك بالاتفاق المتبادل وليس بالقوة ولكن لم تكن الجماعات التى نفدت أجزاء صغيرة من أراضيها هى التى عانت من الحكم الاستعمارى فلقد حدثت تلك المعاناه لتلك الشعوب التى لم تؤيد أبدا النفوذ الأوروبى لسبب أو لآخر وكان شعب البانيورى banoyres فى أوغندا مثالاً حيا على ذلك، فلقد عارض البريطانيين أساسا لكونهم حلفاء أعدائه التقليديين وهم الباجندا، ولذلك أصبحت بونيورو ملاذا للتجار العرب والسواحليين فيما بين أعوام ١٨٩٠، ١٨٩٦

وأيضا لمسلمى باجندا ولكل المعارضين للحكم البريطـــانى وللأحـــزاب المســـيحية المسيطرة على السياسة البوجندية، وشمل اللاجئون أيضا ثوار الكاباكـــا Kabaka فى بوجاندا وهم الموانجا Muanga ولذلك رغب البريطانيون فى غـــزو بونـــورو طبقا لنصائح حلفائهم البوجانديين، وتم ذلك فعلا بمساعدة الجنود البوجانديين، وخلع البريطانيون الحاكم عام ١٨٩٩ واستولوا على المناطق النائية فى مملكته وأعطوها لبوجندا، كما أجبرت الحكومة البريطانية لمدة عشـــرة أعـــوام أو أكثـــر حكومـــة البونيورو من تشغيل أعداد من الزعماء البوجنديين فى وظائف حيوية مهمة، وأدى ذلك إلى انتشار شعور الإحباط والتعاسة، واستمر ذلك طـــول عصـــر الاســـتعمار وجعل يونيورو دائما آخر منطقة فى أوغندا تقبل أى تجديـــد مفيـــد مـــن الحكـــم البريطانى، وتشابهت مملكة أوهيمى Uhehe فى تانزانيا حالـــة بونيـــورو تمامـــا، ومملكة لوق للموانا يامفو Gamvo Lcouele فى زائير، ومملكة بنين Benine فى نيجيريا، ومملكة داهومى فى غرب أفريقيا الفرنسية ومملكة أشانتى Ashanty فـــى غانا..إلخ.

وكان الموضوع الرئيسى فى التاريخ الاجتماعى والدينى لأى شعب أفريقـــى معين فى بداية العصر الاستعمارى هو: هل كان يسبح مع تيار الاستعمار المتدفق آنذاك أو يعارضه، ولا شك أن كل المجتمعات الأفريقية قد عانت ضـــربة قاضـــية عند ضاع استقلالها، وحينما استقر حكم الحكومات الاستعمارية فى بلادها وتمكنت منها، وكانت الديانة الركن الأساسى المصاحب للسلطة فى كل المجتمعات الأخرى، ولكن بدأت تلك السلطة الدينية فى التخاذل بعد انتهاء نظام الحكم المطلـــق، ولكـــن استمر الإنسان العادى يعيش حياته تماما كما كان فى الماضى، كما اســـتمر تحـــت حكم زعيم القرية فى كل شئون الحياة العادية ولكنه سوف يكتشف عاجلا أو آجـــلا أن السلطة الكبرى التى تحدد مصيره قد تغيرت تماما، فقد يتم ارتكاب جريمة قتـــل مثلا عاجلا أو آجلا أيضا ثم يرسل المتهم والشهود إلى محكمة الزعيم مثلما كـــان فى الماضى ولكن إلى محكمة السلطة المستعمرة بإجراءاتها وعقوباتهـــا الغريبـــة

وسرعان ما سيظهر المسئول الأوروبى عن المنطقة أثناء تفقده للأمور ويظهر الزعيم المحلى تابعا له، ثم سوف تظهر طلبات العمالة من أجل بناء الطرق للحمالين لحمل الأمتعة أو مواد البناء أو سلع للتجارة وسوف يتم الحديث عن الضرائب القادمة والتى تدفع عينا فى البداية ثم بالعملة غير المألوفة فيما بعد، ولذلك يضطر الأفريقى إلى العمل عند غيره من أجل كسب قوت يومه أو يتاجر فى أسواق بعيدة للغاية عن منطقة قبيلته، ولا يمكن لسلطة القرية تقديم أى حماية من تلك الطلبات ولذلك زالت سلطاتها الدينية تدريجيا.

## البعثات التبشيرية المسيحية والتربية الغربية

كان التنصير المسيحى فى ذلك العصر، وفى بعض مناطق أفريقيا الاستوائية الداعية المسلم أيضا، موجود لحسن الحظ لإعادة بناء ما تم تدميره سابقا. ورأينا أن المبشر المسيحى قد دخل معظم أنحاء أفريقيا الاستوائية قبل الحكومات الاستعمارية. ولذلك كان وجها مألوفا فى المناطق الريفية على الأقل، أكثر من المسئول الحكومى وذلك إلى عام ١٩١٤ وربما إلى ما بعد هذا التاريخ بكثير، ولكن ازدادت أوجه نشاطه فى العصر الاستعمارى فى كل مكان. ويوجد موضوع مهم للغاية ولم يتم الاهتمام به كثيرا خلال عصر الاستعمار فى القرن التاسع عشر. فلقد حرك المشاعر بين الشباب والشابات فى أوروبا الراغبين فى الحكم ولكن أيضا بين هؤلاء الذين يرغبون أيضا فى خدمة الناس فى أكثر مناطق العالم تخلفا، ولذلك وصلت طلبات الالتحاق للبعثات التبشيرية بطريقة تفوق الوصف كما حصلت على التأييد المالى مما أدى إلى تدعيم موقف كل البعثات التبشيرية العاملة فى أفريقيا الاستوائية بطريقة كبيرة للغاية بين ١٨٩٠ و١٩١٤.

وكان غرض كل المبشرين إدخال الشعوب الأفريقية إلى الكنائس التى ينتمون إليها، وشهد هذا العصر بداية نجاحهم الباهر فلقد انضم الناس فى كل

المناطق الوثنية فى أفريقيا الاستوائية الواقعة جنوب خط العرض السابع شمالا إلى الكنائس المسيحية ثم خدموا بها أيضا بهمة ونشاط فى أعمال التبشير والتعليم الدينى بل وتولى المناصب الكهنوتية، ولم يقابل التبشير المسيحى مقاومة إلا فى المناطق التى استقر بها الإسلام جيدا فى السنغال وغينيا فى السودان، والنيجير، وفى شمال نيجيريا وتشاد وفى شمال السودان والصومال بالإضافة إلى ساحل شرق أفريقيا، وتوسع الإسلام كثيرا فى تلك المناطق وانتشر من قواعده فى المدن إلى الريف المجاور، ثم تدعم بانتشار المدارس القرآنية والجمعيات الدينية وتجلت الظاهرتان معا فى الوقت نفسه فى جنوب نيجيريا وبلاد اليوروبا الواقعة بين الشمال الإسلامى والسواحل المسيحية.

استخدمت كل البعثات التبشيرية المسيحية فى تبشيرها عملية إنشاء المدارس فى القرى، وحيث يحصل بها الأطفال من جميع الأعمار على ثقافة بسيطة للغاية تشمل القراءة والكتابة والحساب، بالإضافة إلى التعليم الدينى الذى يؤدى إلى التعميد والدخول والانتماء إلى الكنيسة، ولم تتميز قرى الأحرش أبدا كما كان يطلق عليها، بالعمارة الملائمة، ويمكن أن يكون هذا الوصف الذى كتب فى شمال رودسيا عام ١٩١٢ منطبقا على معظم أفريقيا آنذاك "تتكون المدرسة من سور من الأعشاب المرتفعة البالغ طولها ستة أقدام وتحيط بشجرة كبيرة وبعض الدعائم الموضوعة وبوص صنعت منه مقاعد. كما توجد مجموعة من الأطفال الصاخبين يحضرون الدروس. ولكن وبعد هذا العصر بقليل سوف تتطور تلك المدارس البدائية إلى مبنى بسيط مثل الذى وصفه الأسقف كتشينج فى شمال أوغندا والذى استخدم فى أيام الأسبوع العادية كمدرسة وككنيسة فى أيام الآحاد وكتب كتشينج وتصور وجود مبنى دائرى مصنوع من الطين والقش والعشب ويمكنه: "أن ينحنى بالتأكيد من جميع الجهات ولذلك تدعمه بعض الدعائم الإضافية الموضوعة فى مختلف الزوايا. وتركت بعض الفتحات فى الطين وهى النوافذ والأبواب ولكن ترتفع الأرض فى إحدى نهايات المبنى لوجود بعض الدعائم الخشبية عليها لوحة

مصنوعة من البوص كمكان لإجراء الطقوس. أما فى كل جانب فيوجد تجويف تحيط به دائرة مصنوعة من الطين وتستخدم كمكان لشرح الدروس ومكان مكتب المعلم. أما السطح فعليه أعداد لا تحصى من عشش النمل، وأيضا بعض الخفافيش. وتوجد بعض الخطافات الصغيرة على الجدران والتى تتدلى منها بعض الأوراق والتى كتب عليها بعض الحروف الأبجدية أو صفوف من الحروف المتحركة ولكن أكل الجدى بعض جوانب الأوراق والحروف او نهشتها الحشرات. وحينما تبلغ الساعة حوالى الثامنة والنصف صباحا فسوف نجد مجموعة من الأطفال من الجنسين يجلسون على الأرض أمام الأوراق ثم يقرعون جميعا فى صوت واحد الحروف المتحركة بصوت يشبه الغناء ولكنهم يحفظون الحروف والحروف المتحركة بطريقة ما ولذلك يتم ترقيتهم لقراءة الكلمات المطبوعة المتتالية.(٣٩)

وكان ذلك بداية التعليم الغربى فى أفريقيا الاستوائية. وكان المدرسون الأوائل آنذاك من المشرفين الأوروبيين بطبيعة الحال ولكن تم تدريب أفضل الطلبة المتخرجين فى هذا النظام ليكونوا معلمين للدين أو مدرسين ولذلك سرعان ما انتشر التعليم وتحول إلى حركة شعبية حيث شغل بها المبشرون الأجانب الوظائف الإشرافية فقط وحيث تولى الأفارقة معظم التدريس والوظائف الدينية. ولذلك كون هؤلاء الناس زعامة جديدة وحقيقية للغاية ينافسون بها الزعماء التقليديين وشعر مدرسو البعثات التبشيرية من الرجال والنساء فى أفريقيا فيما بين ١٩٠٠ و١٩١٤ بتجانسهم مع العالم الجديد فى الفترة الاستعمارية وأضافوا إلى المعتقدات القبلية لأهاليهم إيمانا أو عقيدة جديدة والتى يشاركهم بها الناس من كل الألوان وكل المناطق المناخية. وعلمتهم ديانتهم الجديدة أن كل البشر لديهم القدرة نفسها على التحسن فى تلك الحياة الفانية والحصول على الخلاص فى الحياة الأبدية.

ولذلك لم يخشوا أبدا التغييرات التى تواجههم ولكنهم نظروا إليها على أنها

(٣٩) A.t.Kitching, From Darkmess to Light (London 1935), P.31

فرص يمكن الاستفادة منها. وأدى تطور الإدارات الاستعمارية والشركات التجارية والمناجم والمزارع الأوروبية إلى زيادة الطلب على الموظفين والكتبة والحرفيين المهرة وبالذات هؤلاء الذين يعرفون لغة أوروبية. ولذلك ظهرت المدرسة التبشيرية على أنها الطريق الصحيح الواضح من أجل التقدم، وحيث يمكن للطموح أن يخرج من إطار نظام الحياة الضيق فى قريته ليدخل عالما جديدا واسعا والعمل فى وظائف جيدة الأجر فى المدن.

## ميلاد القومية

تميزت البعثات التبشيرية المسيحية فى عملها الدينى والتعليمى بأنها عرفت الأفريقيين بالعالم الجديد الذى يدخلونه آنذاك. كما بينوا لهم كيفية النجاح فى هذا العالم. وساعدوهم أيضا ليكونوا مواطنين صالحين فى عصر الحكم الاستعمارى ولكن حدث فى الوقت نفسه، وإن كان ذلك بطريقة غير شعورية، أن المبشرين قد علموا الأفريقيين كيف يفهمون وينقدون أوروبا فى الداخل. وكانت معارضة الاستعمار فى السنوات الأولى من الحكم الاستعمارى فى أقل الجماعات تأثرا بالحضارة الغربية، ورغب زعماؤها فقط فى طرد الأوروبيين والعودة بالأوضاع إلى ما كانت عليه سابقا. ولكن ظهرت طبقة جديدة معارضة للحكم الاستعمارى حتى قبل عام ١٩١٤ ولم ترغب تلك المعارضة فى إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقا، بل على العكس رغب الأفريقيون الذين تعلموا فى المدارس التبشيرية فى قبول النظم السياسية والدينية الغربية التى أدخلها الغرب إلى أفريقيا. كما رغبوا فى تحقيق ذلك بأسلوبين: إما الاستيلاء على تلك المؤسسات من الداخل ليحلوا محل الأوروبيين تدريجيا، أو بتقليدهم وإنشاء مؤسسات مشابهة كبديل عن المؤسسات الاستعمارية.

وكان هؤلاء المسيحيون المتعلمون فى المدارس التبشيرية أو الوطنين

الأفريقيين الحقيقيين. واعتقد بعضهم أن وسيلة التقدم هى بالانضمام إلى الكنائس التى تمثلها البعثات التبشيرية، ثم بالبحث عن عمل أفضل فى خدمة الحكومات الاستعمارية والشركات التجارية. وكانوا يأملون بطبيعة الحال أن يصل أبناؤهم وأحفادهم إلى الوظائف الكبرى، ولكن اعتقد آخرون أن ذلك الأمل كان وهمًا، وأنه من الضرورى للأفريقيين إنشاء كنائسهم المستقلة الخاصة والاستعداد لمواجهة نهائية وثورية مع السلطات الاستعمارية. ولكن نفهم أنه فى الحالتين أن هؤلاء الوطنيين الجدد كانوا يفكرون بالمفاهيم الحديثة وليس أبدا طبقا للمعتقدات القبلية القديمة وتنظيماتها، بل طبقا لمفاهيم الكنائس المسيحية تحت زعامة أفريقية، ويتم حكمها طبقا لمفاهيم غربية وليس أفريقية تقليدية أبدا.

ويوجد منشور كتبه أحد الأفريقيين فى نياسالاند عام ١٩١١، ويسمى شارلز دومنجو، يعطى صورة جيدة للغاية كما يراه هؤلاء القوميون المبكرون، ويقول دومنجو:

"يسود الفشل الكبير بين كل الأوربيين فى نياسالاند. إن الهيئات الثلاث المشتركة: البعثات التبشيرية، والحكومة، والشركات أو مكتسبى الأموال يشتركون جميعا فى النظر إلى الأفريقى بسخرية، ونتعجب كثيرا أحيانا حينما نرى أن تلك الهيئات الثلاث فى أوروبا، ولكن لا توجد بينهم إلا مسيحية قليلة، وإذا ما قارنا بين التعاليم المسيحية السامية ومن يروجون لها فإنها قد تثير فى الأفريقى عدم الرغبة فى قبولها، وإذا كان لنا إمكانية الاتصال مع أوروبا فإننا ننصحهم بعدم إطلاق اسم مسيحيين عليهم بل أوروبيين فقط. ولذلك فإن حياة تلك الهيئات الثلاث تتميز بالخديعة والسرقة والسخرية. ويقولون بدلا من "أعط" "خذ من" ولذلك توجد انتهاكات كبيرة لكلمة الرب مثلما نرى فى إنجيل يوحنا الفصل الخامس، الإصحاح الرابع.[٤٠]

---

(٤٠) George Shepperton and Thomas Price Independent Africa (Edinburgh 1958). PP163-4

وكما نرى لم يكن شارلز دومنجو رجلا مثقفا للغاية. وكانت أفكاره بسيطة، كما أن إنجليزيته لم تكن جيدة بالمرة. ولكنه فهم تماما أنه يحكم على الأوروبيين الذين قابلهم بنفس معاييرهم الأخلاقية أى العهد الجديد.

ولم يشك أبدا بطبيعة الحال أن إنجيل يوحنا، يعبر عن "كلمة الرب الصادقة" ولا أيضا الناس الذين يكتب إليهم واستنتج من فشل الأوروبيين فى التعبير الصحيح عن المسيحية ليس بأن يتخلى عنها الأفريقيون بل إنهم يجب أن يطبقوها بطريقة أفضل تحت قياداتهم الأفريقية الخاصة ولكن يعتبر شارلز دومنجو وأمثاله فى كل أفريقيا الاستوائية فى ذلك العصر "أكثر" العناصر الأفريقية تأثرا بالحضارة الغربية فى المجتمعات الاستعمارية. وكان يرتدى معظمهم كل الملابس المنمقة الشائعة فى أوروبا فى بداية القرن العشرين وذلك حتى فى منطقة خط الاستواء. وعبروا فى كل مظاهر حياتهم عن الأذواق والتقاليد الأوروبية وكانوا من روادها. وكانت الكنائس المستقلة التى أنشئت فى ذلك العصر أكثر أوروبية فى طقوسها وإجراءاتها من كنائس البعثات ذاتها. ولكن تعلم هؤلاء الوطنيون الأفريقيون الأوائل بالرغم من تقليدهم أمرا مهما للغاية من تعليمهم فى البعثات التبشيرية وهى رغبتهم فى إدارة شئون حياتهم بأنفسهم.

وبالرغم أن المؤرخين يعرفون تماما الآن أن أفكارا مشابهة لما سبق قد تكونت فى داخل المجتمعات الأفريقية إلا أن الأوروبيين العاملين أو المقيمين فى أفريقيا لم يلموا بها إطلاقا فى الأعوام السابقة لعام ١٩١٤. ولكن تم التعرض للمساوئ الاستعمارية بوضوح فقط فى المدن الساحلية فى غرب أفريقيا، حيث كانت العائلات الثرية تعلم أبناءها تعليما غربيا لفترة جيلين أو ثلاثة، وظهرت هنا جرائد وطنية يديرها أفريقيون، وعبروا تماما عن تلك المساوئ الأوروبية الاستعمارية. وظهرت هنا أيضا بوادر حركة أفريقية جديدة فى أشخاص مثل السير صموئيل لويس الذى صعد إلى أعلى مناصب السلك الوظيفى الاستعمارى فى سيراليون، أو جيمس جونسون أسقف اليوروبا لأبروشية دلتا النيجر الإنجيلية

وكانت آراؤهم مهمة للغاية ولا يمكن تجاهلها إطلاقا. ولكن من جهة أخرى سيطرت الحكومات الاستعمارية والمبشرون والمستوطنون والشركات التجارية تماما على مقاليد الأمور كل فى مجاله. وحلت الإدارة المدنية محل المرحلة الأولى من الاحتلال العسكرى للبلاد الأفريقية.

ودخلت المواصلات العامة فى معظمه المناطق، كما تم زراعة المحاصيل النقدية. وتحرك العمال المهاجرون بحرية ولمسافات طويلة للعمل عند الأوروبيين. وتم سداد الضرائب وتم فى النهاية الاستغناء تماما عن الإعانات التى كانت ترسلها حكومات الدول الأوروبية. واعتقد معظم الأوربيين أنهم دعموا دعائم إمبراطورية سوف تستمر ألف عام. كما أنهم بالنسبة لطبقة الأفريقيين الذين تعلموا فى المدارس التبشيرية، أى الطبقة المثقفة النامية ببطء، فإنهم قد تجاهلوها تماما وزعموا أنها مجرد أقلية غير مهمة ولا تمثل إطلاقا مجتمعها. ونظر إليهم لوجارد مثلا وهو من أكفأ رجال الإدارة البريطانية على أنهم مجرد سود يرتدون سراويل يجب حماية الأغلبية الأفريقية غير المثقفة منهم لفترة طويلة مقبلة، فلقد اهتمت الإدارات الاستعمارية تماما بالزعامات التقليدية والفئات الحاكمة القديمة وإن كانوا هنا وبطريقة غير واعية يدمرون نفوذهم وسلطتهم. فلقد تجاهلت تلك الإدارات الرجال والنساء الجدد الذين سيعتمد عليهم مستقبل أفريقيا.

# الفصل الثالث عشر

# أفريقيا بين الحربين (١٩١٨- ١٩٣٨)

## الحرب ونظم الحماية

تعتبر الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨ مرحلة تحول مهمة فى تاريخ المناطق الأفريقية الاستوائية. ولقد كانت مناطق نائية فعلا قبل الحرب ولا تتصل بحركة الاتصالات العالمية إلا بواسطة قناة واحدة تربطها بهذه الدولة الاستعمارية أو تلك. ولم توجد سياسة عامة مشتركة بالمرة. فلقد اعتبرت كل مستعمرة منطقة مستقلة بذاتها ولا تخرج الاهتمامات بها إلا بالاكتفاء فى مواردها الذاتية الاقتصادية، ولكن تحركت الأوضاع بسرعة بعد الحرب. فلقد حدث استقرار آنذاك فى معظم المستعمرات الأفريقية بطريقة كافية لكى تزداد الأمور الواجب الاهتمام بها أكثر من مفاهيم الاستمرارية فقط. فلقد بدأت مواردها الذاتية تدر فائضا قليلا يفوق تكاليف إقرار القانون والعدالة. ولذلك استطاعت الحكومات الاستعمارية ولأول مرة تخصيص نفقات للتعليم والصحة والخدمات الزراعية والبيطرية والتطور الاقتصادى فى كافة الأنواع. وبدأت القوى الاستعمارية فى الاهتمام الكبير بمسئولياتها الاستعمارية بعد الحرب، ولذلك حاولت إقرار سياسات مستمرة لها طابع الاستمرار والدوام فى مستعمراتها الأفريقية، ولذلك طورت داخل وزارتها الاستعمارية إدارات أو أقسام متخصصة مهمة، وهيئات خدمات استشارية من أجل مساعدة كل الحكومات الاستعمارية الموجودة تحت إشرافها. ولذلك أدت تلك المركزية المتزايدة إلى إنهاء العزلة السابقة للمناطق المختلفة.

وجعلت الحرب القوى الاستعمارية مسئولة إلى حد ما أمـام الـرأى العـالم العالمى، وقسمت المستعمرات الألمانية السابقة بين الـدول المنتصـرة. وحصـلت بريطانيا على معظم أفريقيا الشرقية الألمانية السابقة وهى أرض تنجانيقـا، بينمـا استولت بلجيكا على الباقى وهى رواندا وبوروندى، وأخذت جنوب أفريقيـا منطقـة جنوب غرب أفريقيا الألمانية السابقة، بينما حصلت كل من بريطانيا وفرنسا علـى مناطق كاميرون المجاورة لها وأيضا توجو وسمى البريطـانيون جـزءهم "أرض توجو" أو بلاد توجولاند بينما أسماها الفرنسيون توجو فقط). ولم تكن تلك التغيرات عمليات ضم مباشرة مثلما حدث أثناء التقسيم الرسمى. فلقد رغبت الدول المنتصرة من أجل تفادى صراعات أخرى فى إنشاء هيئة عالمية تسمى عصبة الأمـم وتـم الاتفاق بناء على مبادرة من الرئيس الأمريكى ويلسون أساسـا أن الـدول التـى استولت على المستعمرات الألمانية تكون وصية عليها نيابة عـن عصـبة الأمـم، وطلب من الدول الوصية الاعتراف أن مصالح السكان لها مثل قيمة مصالح "دولة صاحبة الحماية، ولكن لم يوافق مجلس الشيوخ الأمريكى على اشتراك أمريكى فى العصبة بالرغم من إلحاح ويلسون على ذلك، وأدى ذلك الأمر إلى إضـعافها منـذ بدايتها بشدة.

ولكن تم إنشاء لجنة للوصايات بتأييد بريطانى كبير حينما تقدم العمـل فـى العصبة، ووافقت الدول الوصية على أن تحكم مناطقها "كعهدة مقدسـة للحضـارة" إلى أن يحين الوقت الذى تقف فيه على أقدامها لمواجهة الظروف الصـعبة للعـالم المعاصر، ولذلك وجب إرسال تقارير سنوية إلى العصبة فى مراكزها فى جنيـف بالنسبة لكل منطقة تحت الحماية على حدة، بالإضافة إلى لجنـة الوصـايات فـى العصبة، ومكن ذلك للرأى العام العالمى أن يكون له بعض التأثير على سياسة دول الحماية.

## السياسة المزدوجة فى أفريقيا البريطانية

ولكن اتضح فيما بعد أن الدول صاحبة الوصاية هى التــى أدارت جلســات اللجنة، ويعتبر ذلك مهما لأنه يبين أن تلك القوى لم تهتم فقط بالدفاع عن أعمالهــا فى المناطق تحت الوصاية، ولكنها أيضا تبحث عن سياسة تدافع بها عن الاستعمار والتى يمكن تطبيقها فى كل مستعمراتها عبر البحار.

وكان أهم المفكرين العمليين لحركة الاستعمار هو اللورد لوجــارد، الــذى أنهى خدمته كحاكم مستعمرات وأصبح المندوب البريطانى الرئيســى فــى لجنــة الوصايات، ونشر كتابا عام ١٩٢٢ بعنوان "الوصــاية المزدوجــة فــى أفريقيــا الاستوائية البريطانية" والذى ألهم جيلا كاملا من الإداريين الاســتعماريين وقبلــه رجال السياسة والحكم فى بريطانيا كدليل، وبدأ لوجــارد مــن المبــدأ أن الدولــة المستعمرة لديها مسئولية مزدوجة من جهة تجاه الشعوب المستعمرة تحت حكمهــا ومن جهة أخرى تجاه العالم الخارجى، وتدين للشعوب المستعمرة بواجــب تقــديم التقدم المادى والمعنوى الذى يؤدى فى النهاية إلى الحكم الذاتى، أما بالنسبة للعــالم الخارجى فلديها مسئولية تطوير الموارد الطبيعية لمستعمراتها، وأن تجد طريقهــا إلى الأسواق العالمية، وذكر لوجارد أن هذين الالتزامين عنــد إدارتهمــا بدقــة لا يتعارضان أبدا مع بعضهما البعض، ولذلك ومن أجل ضمان الوصول إلى تــوازن دقيق بين هذين المجالين وجب التأكيد على تشجيع الشعوب المستعمرة علــى إدارة أعمالها بنفسها لصالحها كلما أمكن ذلك سواء فى المجال الاقتصادى أو أيضا فــى مجال الحكم.

ولذلك أوصى لوجارد بقبول نظام الحكم غير المباشر عامة والــذى طبقــه لأول مرة فى شمال نيجيريا ثم طوره إلى الظروف المختلفة تماما فــى الجنــوب، ويعنى الحكم غير المباشر الحكم بواسطة الزعماء التقليديين، ويقــول لوجــارد "إن المسئول الاستعمارى لا يجب أبدا أن يصدر أوامر مباشرة إلى مــواطن أفريقــى

عادى تماما مثل اللواء قائد الفرقة الذى لن يتصل بالجندى العادى إلا عن طريق قادته المباشرين" ولكن لا يعتبر نظام الحكم غير المباشر أبدا وسيلة لإخفاء ممارسة السلطة بواسطة الحكومة الاستعمارية وفهم لوجارد تماما، ولكن لم يفهم المسئولون التابعون له ذلك الأمر، أى أن الحكومة المحلية التقليدية للزعماء يجب تحديثها تدريجيا، وكان الغرض أن تتمكن من الحصول على مسئوليات أكثر وأكثر وبالذات المسئولية المالية وإنفاق الموارد العامة، ويقوم الزعماء التقليديون فى نظام الحكم غير المباشر بجباية الضرائب ثم يرسلون معظمها إلى الحكومة الاستعمارية لاستخدامها على نطاق عام، ولكن سمح للزعماء أيضا الاحتفاظ بنسبة من الضرائب "لخزائنهم الوطنية" الخاصة وإنفاق المال على الاحتياجات المحلية، وطبقا لما يرونه مناسبا عامة. ويشمل ذلك الإنفاق رواتب الموظفين الحكوميين المحليين مثل الكتبة والرسل ورجال الشرطة، وأيضا القيام بأعمال الأشغال المحلية مثل المكاتب والمحاكم والمستشفيات أو المستوصفات والأسواق والطرق الريفية والمعابر العادية، ورغب لوجارد فى الوصول إلى وقت تتحد به الزعامات التقليدية الصغيرة مع جيرانها لتكوين وحدات أكبر، واعتقد أن طبقة جديدة من الناس سوف تظهر تدريجيا بواسطة هذا الأسلوب ولديها الخبرة الكافية لتولى المسئولية على المستوى القومى.

وأصر لوجارد فيما يتعلق بالتطور الاقتصادى أن تترك أقصى الحرية للأفريقيين لإدارة الأعمال فى بلادهم، ولكنه فهم بطبيعة الحال أن الاستثمارات الاقتصادية الكبيرة على المدى الطويل مثل تلك التى يحتاج إليها فى إنشاء السكك الحديدية والموانئ قد كانت أكبر بكثير من إمكانيات المجتمعات المحلية، ورأى أيضا أن مشروعات من هذا النوع مهمة للغاية ولا يمكن تركها أبدا للقطاع الخاص، ولذلك كان من أوائل من عبروا عن مفهوم ملكية الدولة. ولكنه رأى إمكانية مساهمة رأس المال الخاص فى المجالات الصناعية الأخرى مثل التعدين؛ ولكنه أكد أيضا أن الحكومات الوطنية المحلية يجب أن تشترك فى الأرباح وليس

فقط الحكومة الاستعمارية، ولكنه عارض تماما مشاركة رءوس الأموال الأجنبيـــة فى إنشاء مزارع لزراعة المنتجات الزراعية فى بـــلاد غـــرب أفريقيـــا، ولكـــن استخدمت تلك الشركات الأوروبية ذرائع مثل تلك التى ذكرها اللورد ليفرهالم عام ١٩٢٤ حينما قال: "سوف يكون الأفريقى أسعد، وينتج أكثر ويعيش فـــى ظـــروف رخاء أفضل إذا ما أدار ونظم عمله شقيقه الأبيض الذى يسبقه ملايـــين الأعـــوام، ولكن ندد لوجارد بسياسة الاستيطان الأبيض فى شرق أفريقيا فى عشرينيات القرن العشرين والتى نادى بها بنفسه فى تسعينيات القرن التاسع عشر، فلقـــد رأى أنهـــا تقف حائلا أمام أعمال الشركات الأفريقية التى ازدهرت بنجاح تام تحت نظام إنتاج المزارع فى غرب أفريقيا. وأدى نفوذ لوجارد فى نهاية الأمر إلى عـــدم حصـــول شركة أفريقيا المتحدة التابعة للورد ليفرهام على أيه مـــزارع فـــى المســـتعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا.

## السياسة المزدوجة فى شرق ووسط أفريقيا

من الواضح أن شرق ووسط أفريقيا هى المنطقة الاستوائية الأفريقية الأكثر صعوبة فى تطبيق تلك السياسة الثنائية، فلقد تم تشجيع الأوربيين على الاســـتقرار وطالبوا آنذاك بالحصول على نصيب متزايد فى الحكم، ووصل هذا الاتجـــاه إلـــى مدى بعيد للغاية فى روديسيا ولم يمكن إيقافه، ولذلك حينما طلبت شـــركة جنـــوب أفريقيا البريطانية إعفاءها من مسئولياتها الحكومية عام ١٩٢٣ فإنه تم نقل السلطة الفعلية إلى الـــ ٣٣,٠٠٠ مهاجر أبيض ولكن بدأت الحكومة البريطانية فـــى تغييـــر آرائها فى المنطقة شمال نهر الزامبيزى آنذاك، فلقد أدت السياسة المطبقة منذ عـــام ١٩١٨ بتشجيع ضباط الجيش المتقاعدين على الاستقرار فى كينيا إلى حدوث أزمة حادة فى القوى العاملة خلال ثلاثة أعوام، وكانت الحكومة الاستعمارية قد أشـــارت إلى ضباطها الإداريين بالضغط على الزعماء الأفريقيين لحث أتباعهم على العمـــل

عند الأوروبيين، وأدى ذلك الأمر إلى اضطراب شديد قام به المبشرون والضباط الإداريون أنفسهم مما أثار الرأى العام البريطانى، وحينما طلب المستوطنون سلطات سياسية أكبر عام ١٩٢٢- ١٩٢٣ فلقد تمت مقاومتهم، ولذلك أصدرت الحكومة البريطانية مذكرة رسمية فى يوليو ١٩٢٣ ونذكر بها:

"إن كينيا بلاد أفريقية قبل كل شيء". ولذلك ترى حكومة صاحب الجلالة أنه من الضرورى أن تعبر عن رأيها فى أن مصالح السكان الأفريقيين يجب أن تسود تماما، ولكنه إذا تعارضت تلك المصالح مع مصالح الأجناس المهاجرة فإن مصالح الأفريقيين لها الأولوية المطلقة، ولا يمكن أبدا التعرض فى مستعمرة كينيا تماما مثل محمية أوغندا بمبدأ الوصاية على الأفريقيين من أجل رعاية مصالحهم تماما مثل تنجانيقا تحت الانتداب".(٤١)

ولذلك أرسلت الحكومة البريطانية فى العام التالى ١٩٢٤ لجنة برلمانية مكونة من جميع الأحزاب تحت رئاسة أحد المعجبين بلوجارد، وهو ويليام أورمسبى- جور لورد هارليش فيما بعد لبحث المبادئ الرئيسية للسياسة البريطانية فى شرق أفريقيا وأعادت اللجنة التأكيد فى تقريرها أنه لا توجد حاجة إلى النزاع بين مصالح المستوطنين وتلك الخاصة بالأفريقيين، ولا يجب للاستيطان الأبيض أبدا أن يمنع تعليم الأفريقيين أو تدريبهم فى المهارات الاقتصادية، وبالذات تدريبهم على أحسن استخدام لأراضيهم الخاصة، ولكنها وبالرغم من عدم مهاجمتها للاستيطان فإن لجنة أورمسبى- جور قد طالبت بالتوسع الكبير فى وظائف الحكومات الاستعمارية، وفى إنشاء الخدمات الصحية، التعليمية والزراعية والبيطرية أيضا. وكانت كل تلك الإجراءات لصالح السكان الأفريقيين فى المستعمرات، وأدى هذا التقرير إلى أن تسير السياسة البريطانية فى شرق أفريقيا تماما مثلما تسير تمامًا المطبقة فى غرب القارة.

---

(٤١) Indians in Kenya Memrandum (Hmso London 1923) P.6

## التعليم فى المستعمرات البريطانية

استدعى أورمسبى- جور وهو آنذاك وكيل وزارة المستعمرات البريطانية حكام المستعمرات البريطانية فى شرق وغرب أفريقيا إلى لندن عام ١٩٢٥ وأمرهم بتطبيق سياسة أكثر نشاطا فى التعليم والمشاركة مع البعثات المسيحية من كافة الاتجاهات وتقديم الدعم إلى المدارس التبشيرية بشرط أن تحتفظ دائما بمستوى كفاءة راق. ولكن لم يؤد ذلك إلى زيادة كبيرة فى العدد الإجمالى للأطفال الأفريقيين الذين يحضرون المدارس ولم يزدادوا أبدا عن ثلث الذين فى المرحلة العمرية المدرسية، ولكن استمر معظم الحاضرين فى المدارس لمدة أربعة أعوام على الأقل. كما وجدت إدارات تفتيشية حكومية فى كل مستعمرة منذ ذلك الوقت، وقدمت الإعانات فقط بشرط تدريب المدرسين واتباع المناهج المقررة. وأنشئت مدارس تابعة للسلطة المحلية فى المناطق الإسلامية مثل شمال نيجيريا وعمل بها مدرسون دربتهم الحكومة ولذلك تحسن مستوى التعليم الابتدائى كثيرا من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٣٥، كما شعر مجال الاستخدام الوظيفى بذلك تماما. وتمت ملاحظة ارتقاء المستوى فى الحكومة وبالذات فى الحكومة المحلية فى الكنائس وفى التجارة وفى الصناعة. وفى كل مراحل الحياة التى احتاجت إلى بعض المهارة الوظيفية وبعض المعرفة القليلة بأحوال العالم.

وكان التقدم فى التعليم الثانوى أهم بكثير ولكن كانت الأعداد هنا صغيرة للغاية. وربما كانت نيجيريا المستعمرة الأفريقية الوحيدة فى أفريقيا البريطانية التى امتلكت أكثر من أثنتى عشرة مدرسة ثانوية عام ١٩٣٩ وكان عدد الطلبة المتخرجين من تلك المدارس من ١٠٠ إلى ٢٠٠ طالب سنويا، ولكن أثبت هؤلاء المئات القليلون من طلبة المدارس السنوية أن الأفريقيين الاستوائيين يمكنهم شغل العديد من وظائف المهارة والمسئولية والتى اعتقد سابقا أنه يجب توظيف الأوروبيين بها فقط. وظهر أول الرجال المهنين من ذلك الجيل باستثناء بعض أبناء غرب أفريقيا من العائلات الثرية الذين تربوا فى الخارج.

وظهر أول الأطباء وأول الأطباء البيطريين، وأول مسئولى الزراعة والغابات، وأول مديرى محلات البيع بالتجزئة، أول نظار المدارس الثانوية وبالذات أول الزعماء ومسئولى الحكم المحلى المثقفين ولكن لم يوافق كل طلبة المدارس الثانوية على شغل الوظائف المخصصة لهم بواسطة السلطات الاستعمارية، وكان معظم زعماء الثورة الوطنية فيما بعد من هذا الجيل الذى أتم تعليمه الثانوى مثل كنياتا، وباندا، أزيكيوى فى بدايتها تقريبا ثم نكروما، تافاوا باليوا وأجنجا أودنجا حوالى نهايتها.

ولذلك يحتمل تماما أنه إذا لم تقدم الحكومات الاستعمارية والبعثات المسيحية إمكانيات التعليم الثانوية أثناء فترة ما بين الحربين لما قامت الثورات الشعبية الناجحة إلا بعد فترة طويلة من نهاية الحرب العالمية الثانية.

## سياسة المشاركة الفرنسية

إذا وضع لوجارد وأورمسبى- جور أسس السياسة الاستعمارية البريطانية فيما بين الحربين فإن نظيرهما الفرنسي هو ألبرت ساروت وزير المستعمرات فى ١٩٢٠- ١٩٢٤ و١٩٣٢- ١٩٣٣. وكان مفهوم ساروت مختلفا تماما عن مفاهيم الإنجليز، فلم يحترم كثيرا الشخصية الأفريقية، ولكنه كان أكثر أخوية حيالها، ولم يذكر ساروت أبدا عن "السماح للأفريقى بالتطور طبقا لمعاييره الخاصة" وكان رأيه الأساسى هو أن تظل فرنسا ومستعمراتها متحدة فى السلام كما كانت فى الحرب، وكان جوهر خطته هو التطور الاقتصادى السريع للمستعمرات لكى تمون فرنسا بالمواد الأولية وأسواقا للسلع الصناعية الفرنسية، وكتب: "يجب أن تكون مستعمراتنا مراكز للإنتاج وليس أبدا متاحف لعرض العينات"، وكانت سياسة اندماج الأفريقيين فى الحضارة الفرنسية هى الهدف النهائى وإن لم تتم أبدا مجهودات خاصة للإسراع بها، ولذلك وفيما عدا الدوائر الساحلية للسنغال مع

مواطنيها السود الـ٨٠,٠٠٠ (أى المواطنون الذين لديهم كل الحقوق السياسية) فإن ٢٠٠٠ فقط من الـ١٤,٠٠٠,٠٠٠ أفريقي فى غرب أفريقيا الفرنسية قد حصلوا على الجنسية الفرنسية، وكان التركيز المباشر على "المشاركة" بمعنى المشاركة الشاملة للمستعمرات الفرنسية مع فرنسا ولذلك وجب أن تكون الإمبراطورية الفرنسية مركزية اقتصاديا مثلما هى عليه إداريا ولم يوجد أدنى تفكير فى استقلالها يوما ما، وكان الزعماء الأفريقيون مجرد وكلاء عن الإدارة الفرنسية، ولم توجد أدنى نية لزيادة سلطاتهم، وكان الرؤساء الكبار مسئولين حقيقيين من الإدارة الفرنسية، ويتم اختيارهم عادة من بين الكتبة والمترجمين الأكثر كفاءة فى الجهاز الإدارى وليس أبدا طبقا للوراثة.

واختلفت السياسة الفرنسية عن البريطانية بالذات فى مجال التعليم وبالرغم أن بعض المدارس التبشيرية قد استلمت إعانات حكومية لكفاءتها الممتازة إلا أن تسعة أعشار التعليم الرسمى فى أفريقيا الفرنسية بين الحربين قد قدمته الدولة. كما كان كل التعليم باللغة الفرنسية. وكان غرض التعليم قد حدده أحد الحكام العامين لغرب أفريقيا الفرنسية بما يلى "تعليم الجماهير واكتساب ولاء الصفوة" وقدم التعليم الابتدائى فى "المناطق الإقليمية" التى بلغ عددها حوالى الثمانيين عام ١٩٣٦ وتفرقت عبر غرب أفريقيا الفرنسية، واقتصر التعليم الثانوى على تلبية احتياجات الجهاز الحكومى، وقدم معظم هذا التعليم الثانوى فى أول أفضل ثلاث مدارس ثانوية فى داكار وكان أفضلها على الإطلاق سواء أكاديميا أم لتخريجها أعدادا كبيرة من الزعماء الوطنيين فيما بعد هى مدرسة تدريب المعلمين المسماة بمدرسة ويليام بونتى.

واتبع البلجيكيون فى الكونغو بين الحربين سياسة تشبه السياسة الفرنسية فى الحكم المباشر الذى فضلوه عن غير المباشر، وحكمت المستعمرة عام ١٩١٩ فى ٦٠٠٠ منطقة إدارية مختلفة. ولكن نقص هذا العدد فى عام ١٩٣٤ إلى ٢٥٠٠ بعد دمج الوحدات الإدارية ببعضها، ولكن لم يتساو الزعيم الأفريقى حاكم الوحدة أبدا

مع نظيره الفرنسى حتى بعد عملية الدمج ولكن كان مثل زميله فى غرب أفريقيا الفرنسية وكيلا عن الحكومة الاستعمارية، وكانت الوحدات الإدارية فى نظام الحكم الاستعمارى البلجيكى أصغر بكثير من معظم المناطق البريطانية، كما كان عدد الموظفين الإداريين أكبر ولذلك وجد هنا إشراف أدق وأكثر إحكاما. ولكن فضل البلجيكيون تماما مثل البريطانيين صرف إعانات للمدارس التبشيرية بدلا من تنظيم وإنشاء خدمة تعليمية ثابتة للدولة، ولكنهم باختلاف البريطانيين فإنهم دعموا فقط المدارس "الوطنية" أى الرومانية الكاثوليكية. وكانوا أكثر صرامة من الفرنسيين إذ اقتصر التعليم عندهم على التعليم الابتدائى فقط، وكان غرضهم المعلن هو تقدم سكان المستعمرة على المستوى نفسه ومنع استغلال الأقلية للأغلبية، وكانت النتيجة مثلما ظهر فيما بعد أن بلجيكا قد تركت الكونغو بالقليل من الزعماء الأكفاء عند الاستقلال، كما لم توجد أعداد كافية من المثقفين لإدارة الدواوين الحكومية.

## الاستعمار والوطنية

تمت إدارة المستعمرات الأفريقية الاستوائية لكل القوى الأوروبية لصالح سكانها الأفريقيين ولو جزئيا بحلول عشرينيات القرن العشرين. ولكن أشرف الحكام الأوروبيون تماما على كل أعمال التطوير بالإضافة إلى المديريين ولجان التحقيق، ولم يتخذ الأفارقة أى قرارات مهمة ولذلك وجد أعداد أقل من الأفريقيين ذوى الأهمية فى تلك الفترة عما كان عليه الحال قبل عام ١٩١٤ حينما ظل بعض الزعماء من عصر ما قبل الاستعمار. ولكن توفى معظمهم أو اعتزل الخدمة بحلول العشرينيات من القرن العشرين وحل محلهم رجال يدينون للأوروبيين بترقيتهم وكانوا فى الواقع أصحاب حظوة لدى الإدارة الاستعمارية. ووجدت أعداد صغيرة ولكن مهمة من الرجال والنساء المثقفين الذين ينهون دراستهم الثانوية ولكنهم ما زالوا صغار السن وبدون خبرة ولذلك حصلوا على الوظائف الصغيرة

فقط فى الحكومة والأعمال التجارية، وتمكن عدد قليل للغاية من الدراسة فى أوروبا وأمريكا وأصبحوا أطباء ومحامين ولكنهم لم يحصلوا أبدا على الوضع الاجتماعى المميز الذين يستحقونه بمؤهلاتهم عند عودتهم إلى أفريقيا، ورأى معظمهم أنهم يستحقون أفضل بكثير مما حصلوا عليه، ولذلك نشأت من تلك الظواهر الفردية حالة استياء عام بالنسبة لأسلوب حكم بلادهم.

بطبيعة الحال نظرا لاتصال سكان السواحل بالأوربيين لعدة قرون، وحيث تمتعت أقلية صغيرة بالثقافة الغربية لمدة عدة أجيال. وتكونت أول الاتحادات أو المؤسسات السياسية فى غرب أفريقيا واشتركت عائلات العبيد المحررة فى سيراليون والكريول (ذرية الزواج بين الفرنسيين والأفريقيات) فى السياسات المحلية منذ منتصف القرن التاسع عشر.

كما ظهرت اتحادات صغيرة فى ساحل العاج ولاجوس أثناء بداية القرن العشرين بين المحامين والأطباء ورجال الأعمال. كما انشأ أحد محاميى ساحل الذهب كيسلى هيفورد عام ١٩١٨ المؤتمر العام لغرب أفريقيا البريطانية والذى وصل إلى نيجيريا عام ١٩٢٠. وطالب المؤتمر باشتراك الأفريقيين فى الحكومة، ولكن اقتصرت أعمال هؤلاء السياسيين المبكرين على الأعمال المحلية فقط، ولم يكن لهم إلا تأثير ضئيل على الحكومات الاستعمارية. واقتصر الوعى السياسى فى غرب أفريقيا الفرنسية على الدوائر الساحلية الأربع فى السنغال، حيث انتخب الـ ٨٠,٠٠٠ مواطن أحد السنغاليين السود، بليز ديانيان، بمجلس النواب فى باريس عام ١٩١٤، وأصبح ديانيان وكيل وزارة المستعمرات الفرنسية مما أدى إلى ظهور مفاهيم أن السنغاليين المهتمين بالسياسة يمكنهم الانضمام إلى الأحزاب السياسية الفرنسية، ولكن تم انتخاب حكومات يسارية فى فرنسا منذ عام ١٩٣٦، وتمكن الاشتراكيون والشيوعيون منذ ذلك الوقت من الحصول على وظائف فى المستعمرات وبالذات فى مجال التعليم، ولذلك انضمت أعداد كبيرة من الأفريقيين من غرب أفريقيا الفرنسية إلى الحزبين الاشتراكى والشيوعى، وكانت المنظمات

الطلابية فى بريطانيا وفرنسا الوسائل الرئيسية فى تحويل الشكاوى المحلية والفردية إلى روح وطنية خالصة، وذلك فى مجال السياسات الأفريقية العامة ونبعت مفاهيم تلك المنظمات من كتابات وأوجه نشاط الأفريقيين الأمريكيين وفى جزر الهند الغربية مثل إدوارد بلايدن وماركوس جارفى الأفريقيين الذين ركزا على تشابه أحوال السود على جانبى الأطلنطى، وبدأ الأفريقيون تحت تأثيرهم فى التفكير بالاستيلاء على الوحدات السياسية التى أنشأتها القوى الاستعمارية وتوحيدها بنفس أسلوب الولايات المتحدة الأمريكية أو جمهوريات اتحاد الدول الاشتراكية السوفيتية، وبرز من بين التنظيمات الطلابية اتحاد الطلبة الأفريقيين الغربيين الذى أنشأه النيجيرى لاديبو سولانكى عام ١٩٢٥ فى لندن، وأدى الغزو الإيطالى لأثيوبيا عام ١٩٣٥ إلى زيادة حدة المشاعر القومية، وكان الحادث الفاصل فى تاريخ الوطنية فى غرب أفريقيا البريطانية دون شك هو عودة نامدى أزيكيوى عام ١٩٣٥ من دراساته فى أمريكا وتأسيسه فى ساحل الذهب أولا ثم فى وطنه نيجيريا ثانية صحافة شعبية، ويعتبر ذلك الخطوة الأكثر أهمية فى نشر الأفكار السياسية التى قبلتها الجماهير بالنسبة للوحدة الأفريقية، وساعد أزيكيوى بعد عودته بقليل فى إرسال ثمانية نيجريين وأربعة من ساحل الذهب للدراسة فى أمريكا. وسوف يصبحون كلهم فيما بعد من الشخصيات الأكثر أهمية فى الثورة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أهم شخص فى تلك المجموعة شابا يافعا مدرسا من ساحل الذهب ويدعى كوامى نكروما، وكان معظم السياسيين من غرب أفريقيا رجالا انفصلوا عن جذورهم القبلية ونظموا أوجه نشاطهم بالأسلوب الأوروبى وبالذات الجرائد والقلاقل الشعبية، ونظموا أحيانا أعمال شغب ولكنها كانت غير عنيفة فى معظم الأحوال، أما فى شرق أفريقيا فإن الاستياء من الحكم الأوروبى قد أخذ شكلا قبليا حتى ذلك الوقت، ولذلك فإن تاريخ الحركة الوطنية فى كينيا هو أساس تاريخ استياء ومقاومة شعب الكيكويو، وكانت أعداد الكيكويو تزداد بسرعة. ولكن سد المستوطنون الأوروبيون طريق توسعهم الطبيعى خارج الغابات حول جبل كينيا.

ولذلك تحول العديد منهم إلى عمال موسميين ومـزارعين فـى المـزارع الأوروبية بينما غادر آخرون الأرض وانضموا إلى أعداد العاطلين الكبيـرة فـى نيروبى وأنشأ أحد الموظفين الحكوميين، هارى ثوكـو، اتحـادا سياسـيا وجـذب الاهتمام لتلك المشاكل عام ١٩٢٢. ولكن فصل من عمله وتم القبض عليه ولـذلك احتشد جمهور كبير فى نيروبى للاحتجاج، ثم أطلقت عليهم الشرطة النيران ونفـى ثوكو إلى منطقة الحدود الشمالية النائية، ولكن انتشرت الجماعات السياسية كثيـرا بين الكيكويو، وحينما حاولت الجمعيات التبشيرية التـدخل فـى بعـض طقـوس الكيكويو فى نهاية عشرينيات القرن العشرين ترك عدة مدرسين مدارس البعثـات وكونوا اتحاد مدارس مستقل وبرز جومو كينياتا فى البداية بصفته الأمـين العـام لحزب الكيكويو الرئيسى المسمى الاتحاد المركزى للكيكويو وذلـك قبـل سـفره والعمل فى بريطانيا فى ثلاثينيات القرن العشرين، ثم أنشأ ثوكو بعد إطلاق سراحه عام ١٩٣١ حزبا معتدلا دخل فى صراع عنيف مع الاتحاد المركـزى للكيكويـو. وذلك لم يستطع الكيكويو أبدا تكوين جبهـة واحـدة متحـدة لمواجهـة الحكومـة والمستوطنين البيض، وإن كان ذلك لصالح الأوروبيين تماما.

ولذلك ظهرت كينيا على أنها المستعمرة المضطربة الوحيـدة فـى شـرق أفريقيا ولكن كان الهدوء الظاهرى السائد فى باقى المستعمرات هادئا وحدث تدهور كبير فى السياسة الاقتصادية والاجتماعية والاستعمارية نتيجة للانهيار الاقتصـادى العالمى فيما بين ١٩٢٩- ١٩٣١ مما أدى إلى تدهور رهيب فى أسـعار المـواد الخام وبالتالى تأثرت كل دخول الحكومات الاستعمارية كثيـرا. واضـطرت تلـك الحكومات إلى إجراء تخفيضات كبيرة فى كل الخدمات العامة ويشمل ذلك خدمات الإدارة الأساسية والأمن، وتم تخفيض عدد المـوظفين الحكـوميين فـى بعـض المستعمرات إلى أكثر من النصف. ويرى بعض المؤرخين أن ذلك العصـر هـو بداية تدهور الحكم الاستعمارى وفقدانه للسيطرة وبالذات فى المنـاطق الحضـرية التى بدأت فى التحول إلى مدن عامرة، ولكن استعادت السلطات الاستعمارية بعض

سطوتها بعد عودة الرخاء الاقتصادى فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين وإن حدث ذلك تدريجيا. ولكن كان المجتمع الأفريقى يتغير آنذاك بسرعة كبيرة وليس أبدا طبقا للأسلوب الذى رغب به لوجارد فلقد سيطر "الأفريقيون السود بالسراويل" على زمام الأمور بدلا من الزعماء القبليين ذوى الأرواب الطويلة. وسادت الأفكار الجديدة والآمال الطموحة أفريقيا كلها واستعدت لفرض إرادتها فى معارضة الحكومات الأوروبية ولكن ولولا التغيرات الجذرية التى أحدثتها الحرب العالمية الثانية لتأخر الانسحاب الأوروبى كثيرا عن التاريخ الذى تم فيه، ولواجهت الحكومات الأوروبية التحدى حقا.

# الفصل الرابع عشر

# شمال وشمال شرق أفريقيا (١٩٠٠- ١٩٣٠)

## حركة الجامعة الإسلامية

كانت شمال أفريقيا والأراضى الإسلامية فى شرق أفريقيا كلهـا فـى أيـد أوروبية بحلول عام ١٩١٤. وتمسكت أثيوبيا فقط باستقلال صعب الاحتفـاظ بـه. ولكن كان اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية فى تلك المنطقة هائلا، فلقد كان الاختلاف بين الرعاة الصوماليين من جهة ومواطنى القاهرة الأثرياء مـن جهـة أخرى رهيبا ولكنهم امتلكوا كلهم إيمانا مشتركا وتقاليد ثقافية مشتركة تفرق بيـنهم وبين معظم سكان أفريقيا الاستوائية. ووجب على القوى الأوروبية أن توفق بـين سياساتها ووسائل إدارتها لنظم المجتمع الإسلامى، وكانت هـذه عميقـة الجـذور لدرجة أنه لا يمكن تجاهلها. ولكن تعرضت تلك المناطق إلى الحروب والصـراع السياسى أكثر من أى منطقة أخرى فى أفريقيا خلال العصر الاستعمارى.

وازدادت المقاومة لفقدان الاستقلال نظرا للعداء الدينى الشديد الذى يشعر به المسلمون تجاه شعوب أوروبا المسيحية، ولذلك استمرت الثورات بقيـادة الشـيوخ ورجال الدين فى ثلاثينيات القرن العشرين حينما نظمت المقاومة الوطنيـة آنـذاك طبقا لأسس سياسية حديثة وتأثرت الوطنية هناك، مثلما تأثرت فى أماكن أخـرى، بالأفكار السياسية الأوروبية التى درست فى المـدارس الاسـتعمارية والجامعـات الأوروبية، ولكن تأثرت تلك المنطقة كلها أيضا بحركة إصلاح الجامعة الإسلامية.

وكانت تلك الحركة رد فعل ضد التدخل المتزايد لأوروبا المسيحية فى بـلاد

الإسلام، وبدأت بين جماعات من الأتراك المثقفين فى الإمبراطورية العثمانية فــى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، وتدين تلك الحركة بطريقة ما إلى نموذجى توحيد إيطاليا وألمانيا اللذين تما فى ذلك الوقت تقريبا، ثــم انتقلــت الأفكــار إلــى القاهرة ودمشق وباقى المدن المتحدثة بالعربية فى الشرق الأوسط، وكانت الفكــرة الرئيسية لأنصار الجامعة الإسلامية أنها الوسيلة الوحيدة لكى يقاوم العالم الإسلامى الهجوم الأوروبى، وذلك بأن يترك كل المسلمين خلافــاتهم السياســية والمحليــة ويتحدوا أمام العدو المشترك، ويمكن الوصول إلى الوحدة السياسية فقط من خــلال إعادة التفكير فى مبادئ وإجراءات الديانة الإســلامية، ولــذلك أصــبحت جامعــة الأزهر فى القاهرة أهم مراكز تعاليم أفكار الجامعة الإسلامية وذلك بــالرغم مــن الاحتلال البريطانى لمصر بعد عام ١٨٨٢. وحضر الطلبة إلى الأزهر مــن كــل أنحاء العالم الإسلامى ويشمل ذلك المغرب وبلاد السودان. ويعــود الطلبــة إلــى ديارهم مشبعين بأفكار الحركة الإصلاحية.

## الحكم الفرنسى فى المغرب

كانت الجزائر قد حكمت كجزء من فرنسا لأعوام عديدة عند حلــول بدايــة القرن العشرين، ولكن استمرت حكومتى الباى والسلطان قائمة بعد إعلان الحمايــة الفرنسية على تونس ومراكش، ولكن ازدادت أعداد المسئولين الفرنســيين بهمــا، وكانت الدول الثلاث متغيرة وتعانى من القحط المستمر وجفاف الأراضى، وبالذات نقص المواصلات بسبب الجبال الداخلية. صمم الفرنسيون على التغلب على تلــك العقبات وبالذات مشكلة المواصلات ولذلك أمكن السفر من مــراكش إلــى تــونس بالقطار بحلول ثلاثينيات ذلك القرن، كما كانت الطرق المغربية أفضل الطرق فــى أفريقيا كلها، وكان تطور مدينة الدار البيضاء أبلغ دليل على تطور الحكم الفرنسى هناك فلم تكن إلا قرية صغيرة لصيد الأسماك عام ١٩٠٠، ولكن أنشأ الفرنســيون

بها ميناء صناعيا حتى قبل إعلان الحماية عام ١٩١٢ وخطوط حديدية إلى منـاجم الحديد والفوسفات فى الداخل، وبلغ سكانها ربع مليون نسـمة فـى عـام ١٩٣٦، وتوجه إليها المغاربة (مثلما فعل الجزائريون فى التوجـه إلـى مدينـة الجزائـر ووهران) للعمل فى المصانع ومنشآت الميناء، وأقام أفقرهم فى عشوائيات أقيمـت على حافة المدن.

وشجع الفرنسيون للاستقرار فى الدول الثلاث كمستوطنين ولذلك وجد أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ متسوطن فرنسى فى الجزائر فى بداية القرن وحوالى ١٠٠٠,٠٠٠ فى عام ١٩٣٦. ووجد فى العام نفسه أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ مستوطن فى مـراكش ومثلهم تقريبا فى تونس، ولا شك أن معظم التطور الاقتصادى الذى تم فى عصـر الحكم الفرنسى كان نتيجة لعمل هؤلاء المهاجرين، وإن تسببت أعدادهم الكبيرة فى العديد من المشاكل السياسية والاجتماعية الخطيرة، فلقد احتلوا معظم الأرض كمـا نافسوا السكان المسلمين الوطنيين على الوظائف فى المدن وازداد عـدد السـكان المسلمين أيضا بسرعة من ٤,٥٠٠,٠٠٠ إلى أكثر من ٩,٠٠٠,٠٠٠ أثناء النصف الأول من القرن، ولذلك تحول المسلمون إلى الفقر نظرا لزيادة أعـدادهم بـاطراد ولوجود أفضل الأراضى والوظائف فى أيدى الأوروبيين أيضا. ولذلك هاجر عـدة آلاف من أبناء المغرب الكبير إلى فرنسا لكسب العيش بحلـول ثلاثينيـات القـرن العشرين.

ولكن ظل المستوطنون الفرنسيون مواطنين فرنسيين تمامـا. فلقـد قـاموا بانتخاب نوابهم فى الجمعية الوطنية فى باريس ومارسوا ضغوطا مسـتمرة علـى السياسة الفرنسية، ويمكن منح نفس حقوق المواطنة نظريا إلى المسلمين المثقفـين ولكن بشرط التخلى عن الشريعة الإسلامية لصالح القانون المسيحى وهو أمر لـم يرغب به أحد، ولم يشجعهم المستوطنون الفرنسيون أبدا بطبيعة الحـال بالمطالبـة بتلك الحقوق المدنية، ولخص أحد الكتاب الفرنسـيين عـام ١٩١٣ وجهـة نظـر المستوطنين الفرنسيين حينما قال: "إن الأسلوب الوحيد للتعاون المشترك بين شعبين فى بلد تم احتلاله بالقوة هو خضوع المهزومين لإرادة المنتصر".

## مراكش: ليوتى وعبد الكريم

كانت المنطقة التى تختلف كثيرا عن الجزائر هى مراكش. وحدث ذلك لأن الحكم الفرنسى لم يبدأ هناك إلا بعد عام ١٩١٢ وحدث ذلك نظرا للطابع الممتاز لأول مقيم عام الماريشال ليوتى الذى شغل الوظيفة لمدة ثلاثة عشر عاما، من ١٩١٣ إلى ١٩٢٥. وكان ليوتى حاكما استعماريا من الطراز الأول، فلقد فهم واحترم النظم التقليدية للإسلام فى شمال أفريقيا، كما قرر التعامل معها باحترام بالغ ولكنه تميز أيضا بالقدرة الهائلة على إدارة الشئون الاقتصادية، ولذلك كانت عملية التحديث السريع للاقتصاد المراكشى من أهم أعماله، وحينما حضر إلى مراكش وجد أن البلاد قد غرقت فى بحر من الفوضى ووجب عليه بالذات إقرار السلام فى منطقة قبائل بلاد السبا (انظر الفصل ٤). ولم يستطع أى سلطان مراكشى إخضاع تلك القبائل لقرون عدة، وربما كانت أهم أعمال ليوتى هى إقرار النظام والقانون فى مناطق لم تسيطر عليها أبدا الحكومة المركزية المراكشية وبوسائل أكثر إنسانية من مجرد الغزو. وكان مبدؤه "إبراز القوة وإظهارها لتجنب استخدامها". وكانت سياسته فى الحفاظ على المصالح الفرنسية ومصالح السلطان فى الوقت نفسه، بالإضافة إلى تلك الخاصة بزعماء القبائل مشابهة لعمل لوجارد فى بلاد الهوسا ولكنها عانت من العيوب نفسها أيضا.

ولكن توقفت أعمال ليوتى فى إقرار السلام بقوة فى بداية عشرينيات القرن العشرين نظرا لنشوب حرب الريف، فلقد ثار البربر فى جبال الريف فى شمال مراكش ضد الحكومة العسكرية الأسبانية غير العادلة والتى لا تتميز بأدنى كفاءة. وهزموا جيشا أسبانيا عام ١٩٢١، وأجبروا الأسبان على الانسحاب إلى المدن الساحلية فقط، وذلك تحت قيادة رائعة لأحد القضاة السابقين يدعى عبد الكريم.

وأعلن الأخير قيام "جمهورية الريف" وكان هذا التعبير حديثا، ولكنه رغب فى تطبيق مفاهيم تقليدية قديمة: أن يصبح سلطانا وأن ينشئ أسرة حاكمة جديدة فى

مراكش. وجعلته انتصاراته العسكرية بطلا فى العالم الإسلامى. وأعطاه ذلك ثقة زائفة لكى يمد نطاق عملياته إلى المنطقة الفرنسية، ولكنه واجه جبروت الجيش الفرنسى كله، وذكر أحد المراقبين الأمريكيين أن "فرنسا وأسبانيا" قد أحاطتا الريف بما يشبه جدارا من الصلب واستخدمتا كل وسائل الحرب الحديثة لمواجهة رجال القبائل الثائرين. ولذلك أصبحت المقاومة مستحيلة عند تطبيق تلك السياسة واضطر عبد الكريم إلى الاستسلام فى مايو ١٩٢٦.

وحضر إلى الخطوط الفرنسية ممتطيا بغلا، وعبر فى منطقته بجدول يستحم به بعض الجنود الفرنسيين وحينما رأوه اندفعوا إليه، وبالرغم من كونهم عرايا إلا أنهم أدوا له التحية العسكرية بالطريقة الصحيحة وأبدوا له إعجابهم الشديد به لصفاته كجندى وكقائد.

ونفاه الفرنسيون إلى جزيرة رينيون ولكنه عاد بعد أعوام ليلعب دورا فى الحركة القومية المراكشية.

وأرسل ليوتى استقالته إلى الحكومة الفرنسية للاحتجاج على التأخير فى إرسال التعزيزات المطلوبة أثناء أزمة حرب الريف عام ١٩٢٥. وقبلت استقالته مما أحزنه وفاجأه. ويقال إنه صعد على سفينته فى الدار البيضاء وعيناه مليئتان بالدموع. وكان خلفاؤه أقل كفاءة منه وأبعدوا الطبقات الحاكمة القديمة عن مراكز السلطة ولم يقدموا لهم فرصة أخرى لتحديث النظم التقليدية. وحينما توفى السلطان المتقدم فى السن عام ١٩٢٧ رتب الفرنسيون الأمر لكى يتولى أحد الأمراء الشباب "سيدى محمد" عرش مراكش. واعتقد الفرنسيون أنهم يمكنهم تربية وتعليم السلطان الجديد بأسلوب يطابق رغباتهم تماما. ولكنهم أخطأوا لأن السلطان سيدى محمد قد أصبح قائدا للحركة القومية المراكشية بعد الحرب العالمية الثانية. وحاول الفرنسيون إثارة القلاقل بين العرب والبربر ولكن كانت النتيجة توحيدهم فى معارضتهم للحكم الفرنسى.

## بدايات القومية فى المغرب الكبير

كانت الوطنية في المغرب رد فعل ضد واقع الحكم الفرنسي الذى اختلف طبقا لنظرية الاندماج فى الجزائر وشروط معاهدات الحماية فى تونس ومراكش وتنبأ ليوتى فى تاريخ مبكر عام ١٩٢٠: "وينمو الآن جيل جديد ملىء بالحياة ويحتاج إلى العمل ولكن لا توجد أعمال؛ إذ لا تقدمها إدارتنا لهم إلا نادرا. ولذلك سوف يتجهون إلى طريق آخر وسوف يحاولون تنظيم أنفسهم فى جماعات للتعبير عن رغباتهم وكان يمكن توقع ظهور دول إسلامية حرة ذات إصلاح فى تونس ومراكش. فلقد نظر المراكشيون إلى تاريخهم الطويل والتليد بفخر واعتزاز وكان سلطانهم من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان زعيمهم الدينى والدنيوى أيضا، ولم يتخل السلطان الشاب سيدى محمد عن الكشف عن نواياه الحقيقية وتظاهر بقبول التعليمات الفرنسية إلى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ولكن كانت آراؤه معروفه مسبقا. ولكن وضع آخرون دعائم الحركة الوطنية فلقد اجتمع عشرة شباب فى أمسيات عام ١٩٢٦ فى حديقة فى الرباط يشربون الشاى بالنعناع تحت أغصان شجرة توت، وتكلم أحد الشباب الطلبة البالغ من العمر ١٨ عاما وهو أحمد بلا فريج الذى سيصبح يوما رئيسا لوزراء المغرب المفضل وقال "وبدون حرية فإن ظلام القبر أفضل للروح من أشعة الشمس".

واتفق العشرة على تكوين جماعة سرية لمقاومة الحكم الفرنسى بأى وسيلة كانت ولكن انقضت عشرون عاما تقريبا فى العمل فى الصحافة والتنظيم السياسى لكى تتحول تلك الحركات الوطنية المبكرة إلى حزب الاستقلال عام ١٩٤٣، وأيد السلطان ومعظم الشعب المراكشى حزب الاستقلال منذ إنشائه.

وتعود بداية التنظيم السياسى الديمقراطى فى تونس إلى ما قبل عصر الاستعمار بكثير، إلى منتصف القرن التاسع عشر، وذلك عند إنشاء حزب الدستور كما رأينا سابقا فى الفصل الرابع من أجل مقاومة نفوذ الباى العثمانى. وظل حزب

الدستور نشطا فى الأعوام الأولى للحكم الفرنسى ولكنه كــان يمثــل المــواطنين الأثرياء فى العاصمة ولكن انفصل الحبيب بورقيبة عن الحزب القديم عــام ١٩٣٤ وأنشأ حزب الدستور الجديد الذى تكون من عناصر شابة أكثــر تشــددا وبسياســة حضارية حديثة، وأعلن بورقيبة "أن تونس التى نرغب فى تحريرها سوف تكــون للجميع بدون تفرقة من حيث الدين أو الجنس لكل الذين يرغبــون فــى أن تكــون وطنهم وأن يعيشوا بها تحت حماية القوانين العادلة". ولكن ما زال الطريق طــويلا أمام بورقيبة ورفاقه عام ١٩٣٤. وكانوا يعجبون عادة بفرنسا والحضارة الفرنسية ولذلك رغبوا فى التفاوض حول استقلال تونس بطريقة وديــة. ولكــن عــارض المستوطنون الفرنسيون والإيطاليون فى تونس هــذا الاســتقلال بالإضــافة إلــى الموظفين الفرنسيين العاملين فى الإدارة التونسية بأعداد كبيــرة، ورغــب القــادة العسكريون الفرنسيون بالذات فى أن تظل تونس فرنســية، فلقــد رأوا أن تــونس والقاعدة البحرية الفرنسية المهمة فى بنزرت حيوية فى الحرب القادمة ضد إيطاليا الفاشية، ولذلك تعاملت فرنسا مع حزب الدستور الجديد بســجن زعمائــه، ومنــع جرائده، وأخيرا بإعلانه خارجا عن القانون وإغلاق مكاتبه، واستمر ذلك إلى مــا بعد الحرب العالمية الثانية.

وتعاملت الوطنية الجزائرية فى ظروف أصعب بكثير، فلقد أعاد الفرنسيون صياغة النظام السياسى للجزائر بطريقة شبه كاملة، ولقد درس معظــم المســلمين المثقفين فى المدارس الفرنسية وتكلموا الفرنسية أفضل من العربية. ولكنهم منعــوا أيضا من الحصول على امتيازات الجنسية الفرنسية. ولذلك لم يبــق الكثيــر مــن الماضى ليقوموا بالبناء عليه من جديد ولذلك كتب فرحــات عبــاس بيــأس عــام ١٩٣٤. "إن الناس الذين يموتون من أجل الأفكار الوطنية يحترمهم ويجلهم الشعب على الدوام ولكننى لن أموت من أجل الوطن الجزائرى لأنه ببساطة لا يوجد وطن مثل ذلك، وإننى أبحث فى كتب التاريخ ولا أجده ولا يمكنك أن تبنى على الهواء"

ولذلك لم تولد فكرة الأمة الجزائرية إلا فى تلك الحرب المريرة ضد فرنسا بين ١٩٥٤- ١٩٦٢ وإن كان الزعماء المعتدلون السابقون من عشرينات وثلاثينات القرن العشرين مثل فرحات عباس قد تواروا إلى الخلف وحل محلهم زعماء أكثر شبابا وتشددا، ولكن كان لا يمكن للحركة الوطنية الجزائرية أن تبدأ إلا بعد انتصار الحركة الوطنية أيضا فى تونس ومراكش.

## البريطانيون فى مصر والسودان

أرسلت بريطانيا بعد احتلالها العسكرى لمصر عام ١٨٨٢ اللورد دافرين السفير البريطانى السابق فى إسطنبول لكتابة تقرير عن نظام حكم محتمل، ونصح بأنه لا يمكن أبدا حكم البلاد مباشرة من لندن تحت أى مسمى كان "وأن أى محاولة منا لفعل ذلك سوف تجعلنا مثارا للحقد والشك من المصريين، ولكن تم تجاهل تلك النصيحة القيمة لسوء حظ البلدين، وكان لا يمكن لبريطانيا ضم مصر لإمبراطورياتها لكونها حليفة سيدها الأسمى وهو السلطان العثمانى، ولذلك استمر الخديوى ووزراؤه فى حكم مصر ظاهريا، ولكن كان للقنصل البريطانى العام السلطة المطلقة فى مصر، ولذلك كتب اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية" يجب اتباع نصيحة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية فى كل الأمور الخاصة بإدارة وسلامة مصر وذلك مادام الاحتلال المؤقت، ولذلك يجب على الوزراء والمسئولين المصريين اتباع تلك النصائح أو الاستقالة من مناصبهم، ولكن كانت مصر متطورة للغاية فى المجالين الاجتماعى والاقتصادى مقارنة بالدول الأفريقية الأخرى، غير أن البريطانيون أدخلوا العديد من الإصلاحات وبالذات فى مجال الرى، وتم إنشاء خزان أسوان عام ١٩٠٢ وخزن مياها كافية لرى أراضى وادى النيل طول العام، ولذلك أصبحت الزراعة المصرية بمنأى عن انخفاض أو ارتفاع مياه الفيضان وذلك لأول مرة من ٥٠٠٠ عام. ولكن وجدت مشاكل فى

مواقع أخرى، ولم يتعلق ذلك بنقص عملية التحديث بل فقط بعدم كفاية الموارد المادية للبلاد. ولذلك كانت المهمة الكبرى للورد كرومر القنصل البريطانى العام من عام ١٨٨٣ إلى ١٩٠٨ والذى تولى أعلى سلطة فى البلاد أن يقلل من نفقات الحكم الخديوى الباذخ وأن يقلل بالتالى العبء الضرائبى عن الفلاحين.

ولكن لم تقرب المزايا المادية البريطانيين من المصريين، وسرعان ما تطور الاستياء إلى مطالب وطنية داعية للانسحاب البريطانى من مصر وكان معظم السياسيين المصريين وطنيين بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، ولذلك دارت العلاقات الإنجلو - مصرية دائما فى دائرة مفرغة منذ ذلك الوقت فلم يوجد إلا طلب واحد للوطنيين: أن تغادر بريطانيا مصر، ويجيب البريطانيون أنهم لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك إلى أن يتم إنشاء حكومة قوية فعلا ومستقرة ماديا. وكان ذلك مستحيلا لأن الوطنيين لا يرغبون فى العمل مع الخديوى والبريطانيين لإنشاء مثل تلك الحكومة، ولذلك فرق العداء المتزايد وعدم التفهم بين الحكام والمحكومين وازداد العداء عام ١٩١٤ حينما تحالفت تركيا مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وإعلان بريطانيا الحماية على مصر كإجراء وقتى. ثم تحولت مصر إلى قاعدة لكل العمليات العسكرية البريطانية فى الشرق الأوسط، وعانى المصريون الكثير من القوات الأجنبية التى عسكرت عندهم، وسخرت تلك القوات عملهم، دوابهم وإنتاجهم للأغراض العسكرية، ولذلك عبر المصريون عن استيائهم من ونجت المندوب السامى للحماية فى أغنية شعبية:

الويل لنا يا ونجت
الذى أخذ قمحنا
وأخذ قطننا
وأخذ جمالنا
وأخذ أطفالنا
ولم يترك لنا إلا حياتنا

واتركنا الآن لشأننا، لوجه الله[٤٢]

وتحول العداء المصرى إلى ثورة عارمة عام ١٩١٩ حينما لم تف بريطانيا وفرنسا بعهودهما فى منح الاستقلال للولايات العربية فى الإمبراطورية العثمانية القديمة، وفهمت بريطانيا أنها لا يمكنها الاحتفاظ بمصر إلا بالقوة العسكرية ولذلك قبلت المطالب المصرية، ولكن أدى شك المصريين فى النوايا البريطانية لدرجة أنه لم يرغب أى سياسى فى الإساءة إلى سمعته بالتوقيع على معاهدة مع القوة المحتلة ولذلك أعلنت بريطانيا قرارا من جانب واحد عام ١٩٢٢ منحت به مصر نوعًا من الاستقلال، ولكن بقيت القوات البريطانية فى مصر ولكن تم الاعتراف بالخديوى كملك للبلاد طبقا لدستور جديد كما تم انتخاب البرلمان بواسطة الرجال البالغين عامة.

وأدت النتائج المباشرة للحكم الذاتي في مصر لإبراز عدم واقعية مفهوم الحكم المشترك لبريطانيا ومصر على السودان طبقا للاتفاق الثنائى بينهما فى الحكم، فلقد أعيد فتح السودان عام ١٨٩٨ بواسطة الجيش المصرى بمساعدة القوات البريطانية، وسددت مصر وليس بريطانيا العجز السنوى فى الميزانية السودانية من ذلك التاريخ إلى عام ١٩١٣، ولم تتكلف الخزانة البريطانية شيئا. وشغل المصريون بعد إعادة الفتح ولمدة خمسة وعشرين عاما مائة أو مائتين من الوظائف الكبرى فى الجيش والحكومة فقط، ولكن كانت كل السلطة الحقيقية للحكم فى السودان فى أيدى الحاكم العام البريطانى وكبار رجال الحكم البريطانيين والعسكريين. وطبقت بريطانيا سياستها فى حكم السودان على أنها بلاد منفصلة عن مصر تماما ولديها مصالحها الخاصة وهى هنا أهم بكثير من المصالح المصرية، ولذلك أنشأ نظام التعليم السودانى على النمط البريطانى بعكس التقاليد التعليمية الفرنسية السائدة فى مصر. وانزعج المصريون أكثر حينما خطط البريطانيون

---

(٤٢) George, Young Egypt (London 1927). P.228

لاستخدام مياه النيل لمشروع رى كبير فى منطقة زراعة قطن فى الجزيرة جنوب مدينة الخرطوم، وكان المشروع مفيدا للغاية للسودان ولكن خشى المصريون من أن تقع مياه النيل، وهى شريان الحياة فى مصر، تحت سيطرة قوة أخرى. ولذلك كانت الحقيقة أن مصر قد حكمت السودان فى القرن التاسع عشر ولكن طردتها بريطانيا منه فى القرن العشرين.

وأدى الغضب بالنسبة للسودان إلى اغتيال الحاكم العام للسودان السيرلى ستاك فى عام ١٩٢٤ بواسطة أحد الوطنيين المصريين حينما كان يمر بالقاهرة أثناء إجازته. وكان رد الفعل البريطانى عنيفا للغاية فأمرت بريطانيا الملك فؤاد بسحب كل الضباط المصرين والوحدات المصرية من السودان خلال أربعة وعشرين ساعة، ثم تلا ذلك إحلال البريطانيين والسودانيين محل المصريين فى كل الدوائر المدنية السودانية، ولذلك أخذ السودان شكل مستعمرة بريطانية عادية منذ ذلك التاريخ. وسادت فكرة الحكم غير المباشر ونمت بواسطته مفاهيم جديدة للسكان غير المسلمين فى جنوب السودان. ثم شعر البريطانيون بعدم الثقة فى السودانيين المثقفين المتخرجين فى المدارس الشمالية وشعروا أنهم لا يحبون الحكومة البريطانية، وشعروا وبالصداقة العميقة لمصر وشعبها. ولذلك مثلما أخرج البريطانيون المصريين من حكومة الشمال أبعدوا آنذاك السودانيين الشماليين من حكم الجنوب مما أدى إلى ابتعاد شقى البلاد، وسار كل منهما فى طريقه الخاص. واتصل الشمال بالعالم الخارجى كما حدثت به معظم التطورات الاقتصادية. وظل الجنوب بعيدا عن التأثيرات الشمالية والإسلامية، ليس هذا فحسب ولكنه انعزل أيضا عن التطورات الاقتصادية والسياسية التى تمكنه من الوقوف على قدميه بنجاح. وأدت نتائج تلك السياسة إلى كارثة كبرى حينما حكمت الحكومة الشمالية منطقة جنوب السودان بعد استقلال البلاد.

وانتقلت السلطة السياسية فى مصر آنذاك بين حزب الوفد وحزب البلاط التابع للقصر الملكى. وكان سعد زغلول رئيسا للوفد وهو وطنى معتدل فرضت

عليه الظروف عام ١٩١٩ أن يأخذ موقفا معاديا للبريطانيين عام ١٩١٩ ولكن استاء الشعب المصرى تماما من فساد ومؤامرات السياسيين المحترفين بحلول ثلاثينيات القرن العشرين فلقد ازداد ثراء الأغنياء ومعظمهم من الطبقة التركية والمملوكية القديمة بينما ساد الفقر بين العمال وسكان المدن والفلاحين فى الريف، ولذلك كتب الشاب جمال عبد الناصر حينما كان طالبا فى المدرسة الثانوية عام ١٩٣٥ مقالا مدرسيا معبرا عن الرأى السائد فى البلاد "إن الأمة فى خطر، ويزيد الاستعمار حدة الصراعات بين الأحزاب والقصر وزعماء الأحزاب أنفسهم. ويأمل فى الإبقاء على انقسام البلاد وانشغال الناس فى البحث عن الوظائف الراقية ذات الأجر الوفير بحيث ينسى المصريون تماما أن لهم حقا فى الحرية. ولذلك اتجه العديد من الشباب فى شدة غضبهم إلى أحزاب معادية للبرلمان الديمقراطى. وكان أقواها هو حزب الإخوان المسلمين الذى رغب فى إنشاء دولة دينية تختفى منها سمات الثراء والفقر الشديدين.

وبعد أعوام طويلة من المفاوضات الشاقة وغير المثمرة وقعت بريطانيا ومصر معاهدة عام ١٩٣٦ وكانت أهم بنودها أن يقتصر وجود القوات البريطانية على منطقة قناة السويس، ولكن لم يحدث أى تقدم بالنسبة للسودان بالرغم من المحاولات الجادة لحل بعض مشاكله ووافقت بريطانيا ومصر على إدارة السودان لصالح السودانيين وعادت وحدات الجيش المصرى إلى الحامية السودانية كما عاد الموظفون المدنيون المصريون وانتهى إبعادهم. ولكن اضطر المصريون إلى مواجهة الواقع لأنه بالابتعاد عن بريطانيا فإن مصر قد ابتعدت أيضا عن السودان لدرجة لا يمكن تعويضها فيما بعد. ولذلك أدت المشكلة السودانية وعودة الحكومة العسكرية البريطانية إلى مصر خلال الحرب العالمية الثانية ثم إنشاء دولة إسرائيل اليهودية فى فلسطين بتأييد الغرب إلى نمو الوطنية المصرية بطريقة مناهضة تماما للغرب.

## مناطق النفوذ الإيطالية: ليبيا

كانت المناطق الباقية لدول أفريقيا الإسلامية الناطقة بالعربية خاضعة للسيطرة الإيطالية. وكان أكثرها اضطرابا آنذاك هى ليبيا. ولقد رأينا فى الفصل العاشر كيف غزت إيطاليا ولايتى طرابلس وبرقة العثمانيتين عام ١٩١١. ولكن أدت هزيمة الأتراك إلى احتلال الإيطاليين لمدن الساحل فقط دون الداخل. ولذلك سرعان ما اصطدموا بالقادة الحقيقيين للمناطق الداخلية وهم شيوخ الزوايا السنوسية كما ذكرنا فى الفصل الرابع، وأنشئت تلك الزوايا آنذاك فى كل أراضى القبائل للبدو والرعاة فى برقة وفزان، وكان هؤلاء الشيوخ رجال دين أساسا، ولكن نظر إليهم البدو العرب على أنهم يمثلونهم فى كل معاملاتهم مع العالم الخارجى، وتعاون الشيوخ بطبيعة الحال مع المسئولين الأتراك لكونهم مسلمين مثلهم ولكنهم قاوموا الإيطاليين المسيحيين بطريقة شديدة بعد استيلائهم على طرابلس وبنى غازى. ولذلك تحولت الحركة الدينية أساسًا إلى حركة وطنية وسياسية أيضا، ونقل رئيس الدعوة السنوسية السيد أحمد الشريف مركز قيادته من واحة الكفرة إلى جنوب برقة عام ١٩١٢ وركز كل طاقته فى الأعوام الستة التالية فى تنظيم مقاومة مسلحة ضد الإيطاليين. وأيد المسلمون فى الشرق الأوسط كله جهوده ولذلك انهالت عليه العطايا والهبات من المال والسلاح من لجان غير رسمية فى مصر وتركيا وسوريا والحجاز. ثم أيدته تركيا رسميا حينما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ بجانب الحلفاء وتركيا بجانب ألمانيا والنمسا. وانسحب السيد أحمد إلى إسطنبول بعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ولكنه احتفظ بوضعه كزعيم للدعوى السنوسية وإن تخلى عن سلطته الدنيوية إلى ابن شقيقه السيد محمد إدريس الذى سيصبح ملكا على ليبيا بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما.

ودخل إدريس فى مجموعة من الاتفاقات غير المثمرة مع الإيطاليين فيما بين ١٩١٨- ١٩٢٢ وقبل بها الاعتراف بالسيادة الإيطالية مقابل الحصول على درجة كبيرة من السيادة الذاتية فى المناطق القبلية ولكن ألغى الحزب الناشئ لبينتو

موسولينى تلك الاتفاقات عام ١٩٢٢ بعد استيلائه على السلطة فى إيطاليا، ولـذلك اجتمع الزعماء العرب فى طرابلس وبرقة فى مؤتمر، واعترفوا بـإدريس كـأمير لليبيا كلها. وقبل إدريس ثم انسحب إلى مصر لتحضير المقاومـة ضـد الهجـوم الإيطالى المتوقع. وحدث ذلك فى نهاية العام. ولذلك حارب البدو الليبيـون حربـًا لمدة تسعة أعوام شبيهة بالحرب الجزائرية من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢ وإن كانت أقـل مدة. فلم يوجد أبدا أكثر من ١٠٠٠ بدوى تحت السلاح ولكنهم حصلوا على تأييـد السكان المدنيين كلهم مما استلزم حشد جيش إيطالى من ٢٠,٠٠٠ جندى ضـدهم. ولذلك طبق الفاشيون وسائل إجرامية مثل الغارات الجوية وعزل السكان المـدنيين فى معسكرات اعتقال مما أغضب العالم المتحضر كله. وكان المنظم الرئيسى لتلك المرحلة من المقاومة الليبية هو أحد الشيوخ السنوسيين سيدى عمر المختار، الـذى قبض الإيطاليون عليه عام ١٩٣١ وتم إعدامه علنا مما أدى إلى انتهـاء العمليـات العسكرية تماما فى العام نفسه. ولذلك تمتعت إيطاليا بثمانية أعوام من الهدوء فـى إمبراطوريتها فى شمال أفريقيا قبل أن تبتلعها نيران الحرب العالمية الثانية، وخرج الليبيون من تلك الحرب وحقهم فى الاستقلال معترفا به تحت حكم إدريس.

## مناطق الحكم الإيطالية: الصومال وأثيوبيا

سبق أن رأينا فى الفصل العاشر كيف توقفت الحركة الاستعمارية الإيطاليـة فى شمال شرق أفريقيا عام ١٨٩٦ بعد انتصار الإمبراطور مينيليك المـدوى فـى موقعة عدوة، ولكن استطاعت إيطاليا فى معاهدة السلام التالية الاحتفاظ بموطئ قدم فى أريتريا على البحر الأحمر. ووقعت أيضا على معاهدات حماية عام ١٨٨٩ مع سلاطين ماجرتيين الصوماليين فى ألولا وأوبيا، ثم قامت بتأجير موانئ بنادر مـن سلطان زنجبار وذلك فى براوا مقديشيو واد شيخ ثم اشترت تلـك المـوانئ عـام ١٩٠٥ بدلا من تأجيرها. ولكن لم تقم الحكومة الإيطالية ببناء الجديد، ولـم تسـتفد

من منشآت الماضى على الإطلاق فلقد ارتكزت مستعمرة أريتريا على ميناء مصوع المتدهور بعد أن تحولت عنه التجارة الأثيوبية بطريقة متزايدة لصالح ميناء جيبوتى فى الصومال الفرنسى كما بدأ إنشاء خط سكة حديد من جيبوتى إلى أديس أبابا عام ١٨٩٦ وتم الانتهاء منه عام ١٩١٨، وتركت محميات ألولا وأوبيا فى شأنها باستثناء بعض زيارات السفن الحربية الإيطالية. وأدارت شركتان إيطاليتان موانئ بنادر بطريقة سيئة للغاية مما أدى إلى إفلاسهما الأولى عام ١٨٩٦ والثانية عام ١٩٠٤.

نشبت أول ثورة للصوماليين المسلمين ضد السيطرة الاستعمارية المسيحية ليس ضد الإيطاليين ولكن ضد البريطانيين. فلقد كانت المحمية البريطانية الصغيرة على السواحل الجنوبية لخليج عدن موطنا لأحد الزعماء الدينيين الكبار لجماعات الصوماليين البدو وهو السيد محمد عبد الله حسن، وعرفه أعداءه البريطانيون باسم الملا "المجنون".

ولد السيد محمد عبد الله عام ١٨٦٤ فى المنطقة الداخلية لبربرة، واشتهر مبكرا بالعلم والتقوى، وزار أثناء سفرياته المتكررة المبكرة كشيخ متجول كلا من مقديشو، ونيروبى ومناطق فى السودان. وأدرك آنذاك تماما تهديد القوى التوسعية المسيحية الغربية للإسلام. وحينما عاد السيد محمد إلى وطنه عام ١٨٩١ بدأ فى مقاومة البريطانيين الذين اعتبروه خارجا عن القانون ولذلك انسحب مع أتباعه إلى الهود والأوجادين وهى أراضى دون صاحب بين أثيوبيا من جهة الصومال الإيطالى والبريطانى من جهة أخرى. وبدأ السيد محمد هجماته ضد الحكومات الثلاث المجاورة لمنطقتى الهود والأوجادين ولذلك تم إرسال قوات بريطانية إيطالية وأثيوبية لمحاربته باستمرار وبتكاليف عالية وذلك فى حملات عسكرية استمرت ضده حتى وفاته عام ١٩٢٠ وكتب السيد محمد عددا كبيرا من الخطابات لأصدقائه وأعدائه على السواء. وتميزت خطاباته إلى البريطانيين بالتحدى، وكتب فى إحداها:

"وإذا كانت تلك البلاد بها زراعة أو منازل أو ممتلكات لكانت جديرة لكم بالحرب من أجلها. ولكن البلاد كلها غابة (ويقصد إنها غير مزروعة) ولا يمكنكم استخدامها. وإذا أردتم الأحراش والأحجار فيمكنكم أخذ العديد منها. كما يوجد الكثير من بيوت النمل، والشمس حارقة قاتلة، أما ما يمكنكم أخذه منى فهو الحرب - فقط - ولا شيء غير ذلك".

ولذلك حصل الثلاثة أو أربعة ملايين صومالى على أول شعورهم بالقومية المشتركة من السيد محمد بعدما كانوا حتى ذلك الوقت يدينون بولائهم القبلى أساسا. ولذلك يراه الصوماليون بحق على أنه والد القومية الصومالية. ولكن لم يترك السيد محمد عبد الله خليفة بعده بعكس مؤسسى الحركة السنوسية الذى يشبهه كثيرا. ولذلك توقفت المقاومة الصومالية ضد البريطانيين والإيطاليين بعد وفاته. وتطورت الحكومات الاستعمارية العادية فى الصوماليين البريطانى والإيطالى. ولكن انتقلت اهتمامات حكومة إيطاليا الفاشية آنذاك فى شمال شرق أفريقيا إلى فتح مملكة أثيوبيا وتم التحضير لهذا الغزو طويلا ولكن لم تتمكن القوات الإيطالية من التفرغ له إلا بعد انتهاء الحرب الطويلة ضد السنوسيين فى ليبيا. وكانت ذريعة الهجوم هى الحدود المتنازع عليها بين الصومال وأثيوبيا فى الأوجادين، وتآمر الإيطاليون هنا مع العشائر الصومالية المقيمة داخل الأراضى الأثيوبية وقدموا مراكزهم العسكرية إلى الأمام لمسافات بعيدة للغاية عن منطقة الحدود غير المحددة.

وحدث الاشتباك المتوقع فى نهاية الأمر فى شهر ديسمبر ١٩٣٤ بين دورية أثيوبية ترافق لجنة لتحديد الحدود وحاميه إيطالية فى مركز عسكرى إيطالى فى موقع يدعى ولوال واستغاث الإمبراطور هيلاسلاس بعصبة الأمم. وكان قد تم تتويجه فى عام ١٩٣٠ بالرغم من حكمه لأثيوبيا فعلا منذ عام ١٩١٦ باسمه القديم راس تفارى، وأيدته بريطانيا وفرنسا فى عصبة الأمم ولكنهما لم تبديا إرادة كافية لصد العدوان الإيطالى.

ولذلك تقدمت جيوش موسوليني عام ١٩٣٥ بواسطة الطرق العسكرية الممهدة مقدما فى مصوع فى الشمال ومقديشو فى الجنوب الشرقى، وأتمت تلك القوات غزو أثيوبيا فى شهر مايو ١٩٣٦ نظرا لتفوقها الساحق فى السلاح والعتاد، وأقام الإمبراطور لاجئا فى لندن. وأصبحت الإمبراطورية الإيطالية الأفريقية التى تتكون من إريتريا وأثيوبيا والصومال واقعا ملموسا حقيقيا بعد أن ظل ذلك حلما يراود الإيطاليين منذ عصر تقسيم أفريقيا ولكن لن يستمر هذا الحكم إلا خمسة أعوام فقط.

وكانت آثار الاستعمار العسكرى لموسيليني فى العشرينيات والثلاثينيات فى القرن العشرين ذات مدى هائل. ونذكر فعلا أن إيطاليا قد فعلت ما فعلته الدول الاستعمارية الأخرى فى باقى أفريقيا ولكن بطريقة وحشية للغاية. وفعلت الدول الأوروبية أمورا مشابهة قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين عاما ولكن تغير الزمان والمكان آنذاك. فلقد تطورت الدول الاستعمارية الأخرى للغاية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين وأصلحت نظمها الاستعمارية تماما لكى تكون لصالح الحكومات. واعترفت بريطانيا بالذات بحق رعاياها فى مستعمراتها الأفريقية بحكم أنفسهم بأنفسهم. ولكن أعادت إيطاليا عقارب الساعة إلى الوراء فى ليبيا والصومال فلقد ارتكبت اعتداء آثما ضد دولة معترف بها دوليا والتى تميزت بقدر كبير من التحديث الذاتى بدون أى تدخل خارجى. وكانت تلك الحادثة أول اختبار تعرضت له أوجه نشاط عصبة الأمم والتى فشلت تماما هنا. ولذلك تعلم أدولف هتلر الدرس بسرعة وكان قد تولى آنذاك الحكم فى ألمانيا كزعيم لحزب فاشى آخر. وبدأ طريق الهجوم والاعتداء الذى سيؤدى إلى الحرب العالمية الثانية.

وغزت القوات الألمانية منطقة الراين بين فرنسا وألمانيا والتى تم نزع سلاحها بعد الحرب العالمية الأولى، ووجه ونستون تشرشل فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الحرب العالمية الثانية الانتباه إلى تأثير أعمال موسوليني فى أثيوبيا، وكتب: "وكانت تلك الأزمة الفرصة السانحة للتدخل الحاسم لصالح قضية عادلة. ولكن أدى

فشل الحكومة البريطانية فى عدم التصرف بحزم إلى تمهيد الطريق إلـى حـرب رهيبة أشد ضراوة.

ورأى المثقفون الأفريقيون داخل أفريقيا أن الغزو الإيطالى لأثيوبيـا إدانـة دافعه لنظام الاستعمار كله، وكذلك اعتبر هيلاسلاس أثناء لجوئـه الطويـل فـى إنجلترا كتجسيد حى لسجن قارة بأكملها.

# الفصل الخامس عشر

## جنوب أفريقيا (١٩٠٢- ١٩٣٩)

كانت جنوب أفريقيا القطر الأفريقي الوحيد الذى شعر بوطأة المشاكل الاجتماعية الحادة الناتجة عن التحول من اقتصاد زراعى إلى اقتصاد صناعى. فلقد كان معدل التغير بين ١٩٠٠ ونشوب الحرب العالمية الثانية أسرع وأكبر بكثير من أى منطقة أخرى فى القارة الأفريقية. ووصل تركيز المناجم والمصانع فى منطقة ويت وترسراند إلى درجة تشابه تركيز المناطق الصناعية فى أوروبا وأمريكا الشمالية. ووجدت مدينة جوهانسبرج في قلب منطقة الراند وهى ثانى أكبر مدن القارة بعد القاهرة وخرج الذهب من الراند إلى المؤسسات البنكية العالمية وربط جنوب أفريقيا بشبكة المال والتجارة العالمية، ولكن تم توزيع أرباح هذا الخام المادى بطريقة غير عادلة بالمرة. كما أن البيض أنفسهم لم يصلوا إلى مستوى معيشة مرتفع إلا تدريجيا. ولم يحصل الأفريقيون نظرا للونهم إلا على الفتات، كما لم يحدث التغيير السياسى أبدا بنفس معدل التقدم الاقتصادى. فلقد فرضت قيود على الزعماء البيض للالتزام بسياسات ووجهات نظر تعود جذورها إلى القرن التاسع عشر، بل وإلى ما قبل ذلك. ولم يستطيعوا لذلك إقرار سياسات ملائمة لمواجهة التوترات العرقية المتزايدة بعد أن دخلت أعداد متزايدة من الأفريقيين إلى عالم الاقتصاد المتقدم.

## جنوب أفريقيا بعد حرب البوير

شعر البريطانيون بعقدة ذنب شديدة نظرا للأسلوب الذى تعاملوا به مع جمهوريتى البوير الصغيرتين، وذلك بعد هزيمتهم لجمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) ودولة أورانج الحرة، ولذلك حاولوا استمالة المهزومين بتلبية طلباتهم ومنها تلك الخاصة بالوضع السياسى للأفريقيين. واعتبرت بريطانيا أن تقديم التنازلات للبوير أكثر أهمية وإلحاحا بكثير من حماية المصالح الأفريقية ولذلك أعطت إحدى بنود معاهدة سلام فيرننج عام ١٩٠٢ الحق للبيض فى الترنسفال ودولة أورانج الحرة المهزومتين فى تحديد منح أو رفض الحقوق الانتخابية للأفريقيين.

وحينما منحت بريطانيا حق الحكم الذاتى للمنطقتين عامى ١٩٠٦ و١٩٠٧ عادت السلطة السياسية إلى أيدى البوير مرة أخرى وتم استبعاد غير البيض نهائيا من كل الحقوق الانتخابية.

ولذلك انتقل النقاش الخاص بالحقوق الأفريقية آنذاك من بريطانيا إلى المستعمرات الأوروبية ذاتها. ورغب الزعماء السياسيون فى تلك المستعمرات فى إنشاء اتحاد. ورغبوا بهذا الأسلوب إنهاء كل المشاكل التى أدت إلى الحرب، وتنمية التطور الاقتصادى والسياسى لجنوب أفريقيا كلها، وكان جوهر فكرة الوحدة لكل رجل سياسة أبيض هو تطوير سياسة موحدة تجاه الأفريقيين، وكتب زعيم البوير ورجل السياسة المقبل جان سمطس عام ١٨٩٢:

"وسوف يحتل الصراع العرقى فى القارة الأفريقية درجة لم يشهدها العالم من قبل، ولذلك فإن مجرد التفكير بذلك مثير للإزعاج. ولذلك يجب أن تتوحد جبهة الرجل الأبيض فى ذلك الصراع. ليس من أجل الحصول على النصر ولكن لتجنب (أو على الأسوأ: تأجيل) الإبادة.[٤٣]

---

(٤٣) W.K Honcock, Smuts, Vol.I (Combridge 1962), P.30

ولذلك وجب التوفيق بين ثلاثة وجهات نظر بيضاء مختلفة تجاه الأفـريقيين من أجل إتمام الوحدة. وكانت وجهة النظر الأولى هى التقاليد الليبرالية لمسـتعمرة رأس الرجاء الصالح. أما الثانية فهى سياسة الباسكاب، وهى كلمة هولندية تعنـى عدم المساواة، مثلما طبق فعلا فى الترنسفال ودولة أورانج الحرة. وكانت الثالثـة هى سياسة الفصل العنصرى، أى أن يعيش البيض والسود فى مناطق مختلفة. وقد حاول الحكام البريطانيون تطبيق تلك السياسة فـى بعـض المنـاطق فـى ناتـال ومستعمرة رأس الرجاء الصالح بالإضافة إلى المحميات الثلاث فـى باسـوتولاند وبتشوانالاند وسوازى لاند، ووجدت مشكلة إضافية هى إيجـاد سياسـة مشـتركة للتعامل مع الهنود، إذ وجد حوالى ١٠٠,٠٠٠ منهم فى ناتال و١٠,٠٠٠ آخـرون فى الترنسفال عام ١٩٠٠.

وكانت تقاليد مستعمرة رأس الرجاء الصالح الليبرالية قد ورثت من الحكومة الاستعمارية البريطانية لتلك المستعمرة التى قبلت كمـواطنين هـؤلاء الأفـريقيين وباقى الملونين الذين يلائمون المستويات البيضاء. وطبقـا لهـذا النظـام يمكـن للأفريقيين المثقفين الذين يمتلكون أو يؤجرون ممتلكات ذات قيمة معينة أن يسجلوا أنفسهم كناخبين للبرلمان، وكون الأفريقيون ٤,٧ بالمائة من ناخبى مسـتعمرة رأس الرجاء الصالح عام ١٩٠٩، ودافع زعماء مستعمرة رأس الرجاء الصالح عن هذا النظام ليس لأسباب مثالية ولكن لأغراض عملية أيضـا. وذكـر ميرمـان أحـد السياسيين الليبراليين المميزين أن حق الانتخاب غير العرقى عبارة عـن "صـمام أمان" إذ أن عدم الاعتراف بحقوق انتخابية للأفريقيين على الإطلاق سوف يكـون بمثابة "البناء فوق بركان" وعبر ساور أحد زعماء تلك المستعمرة عام ١٩٠٤ عن مفاهيم أكثر ليبرالية حينما قال: "لا أعتقد أن الطبقة التى لا تمثل فى البرلمان فـى نظام انتخابى سوف تحصل أبدا على عدالة سياسة.

وذلك لأن الغرض هنا هو تنمية المصالح المادية وبالتالى فإن الطبقة بـدون تمثيل انتخابى سوف تعانى كثيرا، وأيد العديد من الأفـريقيين المثقفيـين ليبرالـى

مستعمرة رأس الرجاء الصالح نظرا لرغبتهم فى الحفاظ علـى امتيـازاتهم التـى حصولوا عليها بشق الأنفس (مثل الاستثناء من قوانين حظر الانتقـال). وشـعروا أنهم ابتعدوا عن معظم الأفريقيين القبليين، وأنهم أصبحوا بالتالى غربـاء عـنهم. وكان جون تنجوجا باثو المتحدث الرسمى لهؤلاء الأفريقيين ذوى الحقـوق وذلـك لمدة حوالى ثلاثين عاما، وأنشأ فى فترة مبكرة عام ١٨٨٤ جريدة المثورزابانتسوند (أى الرأى الأفريقى) وبمساعدة مالية من البيض من أجل التعبير الحقيقى لشـعور الأفريقيين، ولكن كان نقد تلك الجريدة للبيض هادئا للغاية، كما أن جابافو نفسه فى المستقبل السياسى لليبراليين قد اهتز كثيرا فى أواخر حياته (توفى عام ١٩٢١).

أما سياسة الباسكاب فهى ببساطة فرض السـيادة البيضـاء مثلمـا طبقهـا المستعمرون الهولنديون منذ أول عهدهم عند حدود مستعمرة رأس الرجاء الصالح.

ثم أخذ البوير هذا المفهوم معهم عند هجرتهم إلى الشمال، ثم سـجلوا ذلـك رسميا فى دستور جمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) فى ثلاثينيات القرن التاسـع عشر حينما ذكروا "لن تكون هناك أدنى مساواة بين البيض والسود فى الدولـة أو فى الكنيسة" ثم طبق العاملون فى المناجم من إنجلترا وغيرها والذين وفدوا أفواجـا إلى جنوب أفريقيا بعد اكتشاف الماس هذا المفهوم العنصـرى بسـرعة. وقـاموا بحماية أجورهم العالية بفرض مفاهيم حاجز اللون الـذى يمنـع الأفـريقيين مـن ممارسة العمل الماهر. ولكن أدت سياسة الباسكاب إلى اخـتلاط أجنـاس جنـوب أفريقيا وليس إلى التفرقة بينهم فلقد رغب البوير فى الحصول على أكثر المساحات الممكن الاستيلاء عليها فى الأراضى الأفريقيين. وتماما مثل العاملين فى المنـاجم فإنهم قد نظروا إلى الأفارقة على أنهم مجرد قوى عاملة رخيصة ولا يحتاجون إلى أراض خاصة بهم.

وطبق الهولنديون فى البداية ثم الحكومة الاستعمارية البريطانية فيمـا بعـد سياسة الفصل العنصرى بين البيض والأفريقيين. ولكن انهارت تلك السياسة نظـرا

لاستحالة السيطرة على الحدود. ولكن ظهـرت مشـكلة جديـدة وهـى مشـكلة المستوطنات الأفريقية التى لجأ إليها الأفريقيون للإقامة بها والتى حلت محل مشكلة الحدود القديمة فى نهاية القرن التاسع عشر، وأدى ذلك إلى قيام حكومة مسـتعمرة رأس الرجاء الصالح بتحديـد حـدود منـاطق الاسـتيطان الأفريقـى المسـماة بالترانسكاى. ثم أنشئت محميات بريطانية فى باسوتولاند، وبتشـوانالاند وسـوزاى لاند. وأوصت لجنة رسمية بريطانية والتى أمر المندوب السامى البريطانى اللورد ملنر بإنشائها عام ١٩٠٥ بعد حرب البوير بتطبيق سياسة الفصل العنصـرى فـى جنوب أفريقيا كلها. ولكن لاحظ ميريمان السياسى مـن مسـتعمرة رأس الرجـاء الصالح البارز أن تلك السياسة قد تأخر تطبيقها قرنا كاملا من الزمـان ويسـتحيل تنفيذها حاليا. وقبل أنصار سياسة الباسكاب من جهة أخرى، والـذين كـانوا قـد عارضوا سياسة الفصل العنصرى عام ١٩٠٥، تلك السياسة بعد ثلاثين عاما مـن ذلك التاريخ. ولكن تناقصت آنذاك مساحات الأراضى التى يمكـن للأفـريقيين أن يعيشوا عليها منفصلين تماما عن البيض وذلك لزيادة أعدادهم بدرجة كبيرة آنذاك.

ثم ظهرت مفاهيم العرقية السائدة فى هذا العصر أيضا تجاه السكان الهنـود فى كل من ناتال والترنسفال. ويعتمد الاقتصاد فى ناتال على زراعـة المحاصـيل المنتجة للسكر وأثبت العمال الزراعيون الهنود منذ عام ١٨٦٠ على أنهم يعملـون بجهد كبير ولا يشتكون إطلاقا أثناء عملهم فى المزارع. ولذلك تم تشـجيع الـذين يرغبون منهم فى الاستقرار الدائم فى جنوب أفريقيا بعد انتهاء عقود عملهم بالإقامة الدائمة هناك ولكن تحول بعض هؤلاء الهنود إلى أعمال التجارة وممارسة أوجـه نشاط الخدمات المتنوعة، ثم بدأوا فى التوغل إلى الترنسفال وبالذات فـى الأعـوام التالية لحرب البوير فى جنوب أفريقيا، ولكن نظـر إلـيهم العمـال الهولنـديون والبريطانيون الأقل مهارة بريبة وحذر لكونهم منافسين خطرين فى منطقة الويـت وترسترانـد، ولذلك سرعان ما سنت القوانين المانعة لتدفق هجرة الهنود، بل طلـب من كل الموجودين فى الترنسفال أن يقوموا بتسجيل أنفسهم، وكانت محاولة غاندى

تجنب تطبيق هذا القانون المسمى بالقانون الأفريقى الأساس الذى بنى على أساسه سياسة السائيا جراها أى "المقاومة السلبية" الحازمة والتى طبقها بعد ذلك بنجاح هائل فى الهند البريطانية ولكن تعرض غاندى للسجن لأول مرة عام ١٩٠٨ وذلك لرفضه السلمى بتسجيل نفسه كمهاجر هندى فى الترنسفال فى ذلك العام.

## الاتحاد عام ١٩١٠

أثبت السكان البيض فى المستعمرتين الشماليتين وناتال أثناء المفاوضات التى أدت إلى قيام الاتحاد أنهم أكثر تصميما لمنع انتشار الأفكار الليبرالية أكثر من مندوبى مستعمرة رأس الرجاء الصالح الذين يروجون لها. وتم التوصل إلى حل وسط فى المؤتمر العام المنعقد فى ١٩٠٨- ١٩٠٩ والذى تم بواسطته انتخاب أول برلمان للاتحاد على الأسس الاستعمارية الموجودة سابقا. ويعنى ذلك أن الأفريقيين المؤهلين يمكنهم الانتخاب فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح بينما لن توجد أى حقوق سياسية للأفريقيين فى ناتال والترنسفال ودولة أورانج الحرة. ولكن تم الاتفاق أيضا على أنه لا يمكن لأى أفريقى أن يرشح نفسه للبرلمان حتى فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح. ونجح ممثلوا مستعمرة رأس الرجاء فى ضم الأسس الأصلية للمستعمرات فى دستور الاتحاد بحيث لا يمكن تعديلها إلا بواسطة أغلبية الثلثين فى مجلس النواب والشيوخ فى جلسة مشتركة لهما. ولكن لم يكن ذلك أبدا ضمانا مؤكدا للغاية، كما أن الحل الوسط قد نظر إليه الأفريقيون على أنه صدمة هائلة بالنسبة لهم. وانضم جابافو فى تلك الحالة مع مواطنيه الأكثر تشددا وحاول مقاومة صورة الوحدة التى اتفق عليها المؤتمر العام. وذكر أحد الاجتماعات الأفريقية العديدة التى عقدها الأفريقيون آنذاك أننا نلاحظ للأسف أن الاتحاد المقبل سوف يكون اتحاد جنسيين وهما (البريطانيون والأفريقيون) والأفارقة مستبعدون تماما، وأيد أحد الليبرليين البيض وهو د.. شرانير تلك

الاحتجاجات الأفريقية. وكان الوحيد فى مجتمعة الذى شعر أن الحقوق الإنسانية أهم من الاتحاد.

إن إقرار الحدود فى دستور جنوب أفريقيا للفصل بين شعبها على أساس اللون وبحيث يتكون من طبقة أو فئة مميزة وفئة برولتيارية يشابه عملية بناء مبنى كبير على أسس هشة غير ثابتة، ولذلك يجب أن يوجد مجال للعديد من الشعوب الحرة فى اتحادنا فى جنوب أفريقيا كما لا يجب أن يوجد مجالا لغير الأحرار والذين لا يمكنهم الترقى (٤٤) وتوجه وفد يشمل شراينر وجابافو إلى لندن ولكنه فشل فى إقناع الحكومة البريطانية فى تغيير دستور الاتحاد المقترح بأى وسيلة كانت، ولذلك أنشأ اتحاد جنوب أفريقيا يوم ٣١ مايو ١٩١٠. وذكرت الحكومة البريطانية أنها لا يمكنها التدخل فى قرارات المؤتمر الوطنى ولكنها أعلنت أن المحميات البريطانية الثلاث فى باسوتولاند، بوتشوانالاند وسوزاى لاند لن تضم أبدا إلى دولة جنوب أفريقيا إلا بعد معرفة كيفية عمل المفاهيم العرقية فى الدستور عمليا.

ولكن عاد جابافو إلى تحالفه مع السياسيين البيض فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح بينما أنشأ أفريقيون آخرون نشطون سياسيا المؤتمر الوطنى الأفريقى (الجنوبى) عام ١٩١٢ وذلك كهيئة اتحادية شاملة لحماية المصالح الأفريقية، وأصبح سولامون بلاتى، أحد الصحفيين والكتاب التساوانا المثقفين للغاية الأمين العام للمؤتمر وكان أول تشريع يرفضه هذا المؤتمر هو قانون الأراضى الأفريقية والذى منع الأفريقيين من الحصول على أراضى خارج مناطقهم الخاصة وكتب بلاتى بالنسبة لهذا القانون "وحينما استيقظ الأفريقى فى صباح يوم الجمعة ٢٠ يونيه ١٩١٣ فإنه قد وجد نفسه غريبا طريدا فى بلاده الأصلية".

ولكن كتب جابافو مؤيدا للقانون لأن مقرره كان ساور أحد الليبراليين فى

---

(٤٤) W.P Schreiner To J.C.Smuts August 1908, selections from Smuts Parers.Vol.2ed.W.K (Cambridge 1966), 450

رأس الرجاء الصالح فى الحكومة، وكان ذلك نهاية تـأثير ونفـوذ جابـافو علـى مواطنيه الأفريقيين. ويعنى فشله فشل التيار الليبرالى بصفة عامة. وتأثرت المفاهيم الليبرالية تماما نظرا للتشريعات غير العادلة لحكومة الاتحاد، ولذلك لخـص أحـد المؤرخين الأفريكانز بعد خمسين عاما الاتجاهات السائدة فى جنوب أفريقيا فى ذلك العصر قائلا:

"ويعتبر الأمر الأكثر أهمية أن مفاهيم قانون الاحتواء الأفريقى والوصـول إلى حل وسط" قد مكنت جمهوريتى الترنسفال ودولة أورانج الحرة السابقتين مـن فرض آرائها تماما على الاتحاد وسيادة تقاليدهم ومبادئهم تمامـا، ويعتبـر ذلـك صحيحا تماما بالنسبة للمبدأين الأساسيين اللذين يعتبران الدعائم التى شـيد عليهـا الشعور الوطنى لشعب الأفريكانرز وهما: النظام الجمهورى وتطبيق نظرية عـدم المساواة بين البيض والسود تماما.[٤٥]

## سمطس وهرتزوج

عمل سمطس تحت رئاسة الجنرال بوثا إلى عام ١٩١٩، ثم أصبح رئـيس وزراء الاتحاد، وكان رجلا واسع الثقافة وذا أفكار صائبة دقيقة فى مجـال الـدين والفلسفة والعلوم. وأصبح عضوا فى وزارة الحرب البريطانية عـام ١٩١٧ أثنـاء الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا، ثم اشتهر منذ ذلك التاريخ إلـى وفاتـه عـام ١٩٥٠ بأنه رجل سياسة من الطراز الأول واشتهر عالميا. وكان صديقا مقربا من السير ونستون تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية وأحد مؤسسـى هيئـة الأمـم المتحدة ولكنه للأسف لم يتميز أبدا بأية أفكار بناءة فيما يتعلق بالمشـكلة العرقيـة والتى كان يمكنها الاستفادة من علمه الغزير، وكتب إلى مريمان عام ١٩٠٦:

---

(٤٥) D.W.Kruger: the Age of the General (Johansberg, 1961) PP.9-10

"إننى أتعاطف تماما مع الشعوب الأفريقية المحليــة فــى جنــوب أفريقيــا، وأعرف تماما أنهم يمتلكون هذه البلاد منذ فترة طويلة قبل مجيئنا وأننا طردنــاهم منها، ولذلك أعتقد أنه من واجب جميع الأحــزاب أن تكــون عادلــة تمامــا مــع الأفريقيين، وأن يتخذ كل حزب كل الإجراءات الحكيمة والحريصة من أجل تنميــة حضارتهم وتحسين أحوالهم. ولكننى على العكس لا أعتقد أبدا أن لهــم دورا فــى الحياة السياسية... وحينما أفكر فى المستقبل السياسى للأفريقيين فى جنوب أفريقيــا فإننى أرى الظلال الداكنة والظلام الدامس. ولذلك أميل إلى الاعتقاد إلى نقل الأعباء غير المحتملة لتلك المشكلة العويصة إلى أكتاف أقوى وذكاء أكبر لجيل آخر فــى المستقبل وتكفى لأيامنا الحالية شرورها.(٤٦)

وساد الهدوء الأعوام العشرة الأولى من عمــر الاتحــاد ولكــن أصــبحت المشاكل العرقية أكثر صعوبة آنذاك، كما لم يستطع الجيل الجديد من البيض حلها. ولذلك كانت السياسة الأفريقية لكل من بوتا وسمطس تميل إلى الاضطراب وعــدم الفاعلية. وتكونت من خليط من سياسة الباسكاب وقوانين الفصل العنصرى وقوانين منع المرور، كما لم تنفذ كثيرا توصيات لجنة ملنر الخاصة بالفصل.

واحتل عمال المناجم البيض منطقة الراند عام ١٩٢٢ وهاجموها نظــرا لأن ملاك المناجم قد هددوا باستخدام موظفين أفريقيين كعمال مهرة بأجور أقــل مــن العمال البيض، واضطر سمطس فى نهاية الأمر إلى إرسال الجنود للقضاء علــى الثورة. ولذلك هزم تماما فى انتخابات عام ١٩٢٤ أمام تحالف من حــزب العمــال الذى يمثل فئة العمال البيض الثائرين والحزب الوطنى للأفريكانرز وكان الجنــرال هرتزوج قد أنشأ هذا الحزب عام ١٩١٣ وكان الأخير من أكثر السياسيين البــيض نزاهة بالرغم من كونه أحد مؤسسى حركة التفرقة العنصرية. وذكر بذكاء بالغ أن الخوف البالغ من الانهيار أمام أعداد الأفريقيين الهائلة هو أساس موقــف البــيض وتصرفاتهم وقال:

---

(٤٦) Hancock Smuts Vol.T.P.221

"إن الأوروبى يتصرف بحزم وشدة مع الأفريقى لأنه يخشاه ويخاف منه إنها غريزة حب البقاء القديمة. وكانت النتيجة المباشرة لذلك هى عدم مساعدة الأفريقيين على التقدم إطلاقا". وكانت سياسته بالتالى هى الفصل بين العرقين بحيث يتم فى النهاية إنشاء جنوب أفريقتين: إحداهما بيضاء والأخرى سوداء. ويعتقد أيضا أنه إذا تم منع الأفريقيين من الحقوق السياسية والحقوق الأخرى فى الاتحاد فإنه يجب تعويضهم فى صورة منحهم مساحات أكبر من الأراضى ومقدارا معينا من الحكم الذاتى.

ولكن لم يتخل هرتزوج أبدا عن مبادئه الأفريكانية وأيد تماما سيادة لغة الأفريكانرز فى جنوب أفريقيا كلها، ولكنه رحب تماما أيضا بالتصالح بين العناصر الهولندية والبريطانية من السكان البيض.

ولذلك وافق هرتزوج على الدخول فى تحالف مع سمطس حينما أدت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى بين ١٩٢٩- ١٩٣٣ إلى المطالبة بقيام حكومة وطنية تتكون من زعماء أهم الحزبين طبقا لرغبة الناخبين البيض، وانضم بالتالى معظم أعضاء الحزب الوطنى الأفريقانى التابع لهرتزوج ومعظم أعضاء حزب جنوب أفريقيا التابع لسمطس لإنشاء الحزب المتحد الذى استمر فى الحكم إلى عام ١٩٤٨، ولكن اضطر سمطس إلى قبول حل وسط وهو تأييد قانون تمثيل الأفريقيين عام ١٩٣٦، والذى تم بمقتضاه إنها تسجيل الأفريقيين المؤهلين كناخبين فى جدول الانتخاب المشترك مع البيض فى منطقة رأس الرجاء الصالح. واقتصر دور هرتزوج فى قبول الحل الوسط على تغيير سياسته المعادية لبريطانيا سواء داخل جنوب أفريقيا أو فى الكومنولث، ووجد آنذاك شخص من أتباع سمطس يتمتع بالذكاء الشديد والشعور الدينى العميق والذى هاجم قانون عام ١٩٣٦ ويسمى جان هوفماير، والذى كتب قائلا:

"إننا نغرس بهذا القانون بذور حرب محتملة ذات تأثيرات أكبر بكثير من أى شىء حدث حتى الآن. فلدينا الآن العديد من الأفريقيين المثقفين وتصــف المثقفــين فى جنوب أفريقيا. وصل العديد منهم إلى المستويات الأوروبية كما تتقــدم أعــداد أكبر الآن. وتم تدريبهم طبقا لوسائل التدريب الأوروبية وتعلمــوا كيــف يفكــرون ويعملون كأوروبيين. وربما لن يعجبنا ذلك ولكنها الوقائع الحقيقيــة الســائدة الآن، ولكن ما هو المستقبل السياسى لهؤلاء الناس؟ ويقول هذا القانون لهؤلاء الأفريقيين إنه لا مكان لكم هنا. ولذلك يجب أن تعودوا إلى شعبكم ولكننــا نعيــدهم كأعــداء وغاضبين، ولذلك لا تنسوا ما أقوله الآن إن هذا القانون يحول هــؤلاء الأفــريقيين المثقفين إلى زعماء لشعوبهم فى الغضب والثورة. (٤٧)

ولكن لم يهتم أحد بتلك الكلمات بالرغم من كــون هوفمــاير وزيــرا فــى حكومات هرتزوج سمطس، وكان الوطنيين الأطهار التسعة عشر أهم بكثيــر مــن هوفماير فى المفاهيم الانتخابية لجنوب أفريقية ورفض هؤلاء التسعة عشر بقيادة د. ف مالان الانضمام للتحالف، وطلب مؤيدو مالان اتخاذ إجــراءات أشــد لتــأمين مستقبل الرجل الأبيض فى جنوب أفريقيا ولكنهم لم يكونوا مهمين للغايــة سياســيا عام ١٩٣٤ حزما لتأمين مستقبل الرجل الأبيض ولكن "يوجد العدو دائمــا ناحيــة اليمين" فى المجتمعات المنقسمة عرقيا وحيث تستولى أقلية على الســلطة، ويعنــى ذلك خطر المتشددين اليمينيين. ولكن وجد مستقبل جنوب أفريقيا فى أيدى هــؤلاء التسعة عشر المتطرفين والذين سوف يريح خلفاؤهم الحزب المتحد من السلطة عام ١٩٤٨ ويبدأون فى إقرار وتنفيذ موجة جديدة من القوانين العنصرية الجائرة.

---

(٤٧) Alan Paton, Hofmer (Cape Town 1964) PP.227-8

## الآلام الأفريقية

وصلت الشكاوى الاقتصادية والسياسية للسكان الأفريقيين إلى عـــام ١٩٣٩ لدرجة أن الثورة لم تستبعد أبدا آنذاك. وتعتمد ثورة جنوب أفريقيـــا أساســـا علـــى مناجم الذهب والأخيرة على العمالة الأفريقية الرخيصـــة. ولكـــن يأخـــذ العمـــال الأفريقيون فى المناجم وأيضا فى أعداد متزايدة من الأعمال الصناعية على حوالى ثمن أجر الرجل الأبيض. وكانت منازلهم فى المعازل، وكانوا يحضرون للعمل فى مدن البيض بدون عائلاتهم، ولم يهتم أصحاب العمل البيض عادة بتلك المصـــاعب التى تعانى منها العائلات الأفريقية اجتماعيا وأخلاقيـــا، كمـــا أن مســـاحة الأرض المتروكة للأفريقيين كانت لا تكفى إطلاقا لإعالتهم، وكون الأفريقيون حوالى ثلاثة أرباع سكان جنوب أفريقيا عام ١٩١٣ ولكنهم لم يتملكو إلا أحد عشر بالمائة مـــن الأرض ثم زادت تلك النسبة بصعوبة بالغة إلى ثلاثة عشـــر بالمائـــة فـــى نهايـــة ستينيات القرن العشرين، حينما اشترت لهم الحكومة أرضا إضافية بموجب تشريع هرتزوج عام ١٩٣٦، ولكن كان العديد من الأفريقيين قـــد غـــادروا مســـتوطناتهم البائسة للإقامة الدائمة فى العشوائيات المبنية عند ضواحى مدن البيض. ولذلك أقام أكثر من مليون أفريقى (٢٢%) فى المدن عام ١٩٣٦. وعمل مليونان آخران فـــى مزارع البيض وخضعوا لهم تماما.

فأخذوا رواتب ضئيلة لا تكاد تكفى إلا لسداد ضرائبهم. ولكن ارتفعت أسعار معظم السلع التى يشتريها الأفريقيون بنسبة ٥٠% فيما بين الحـــربين العـــالميتين، بينما ظلت أجورهم ثابتة لا تتغير. ولم تتوافر وسائل إضافية للأفـــريقيين لزيـــادة رواتبهم أو تحسين ظروف عملهم، فلقد حددت كلهـــا بقـــوة القـــانون. كمـــا كـــان الإضراب جريمة كبرى لا تغتفر. وقيدت كل تحركات الأفريقيين بواسطة قـــوانين المرور أو العبور ويعنى ذلك إلزام كل أفريقى يحمل العديد من التصاريح للعبـــور من مكان لآخر ولذلك كتبت جريدة النجم فى تاريخ مبكر عام ١٩٣٩ قائلة: "يعيش الأفريقى فى زحام بالغ فى الريف، كما لا يسمح له بالإقامة الدائمة فـــى المنـــاطق

الحضرية. ويتم استغلاله أيضا فى كل الأمور ويتم تفتيشه عند كل قارعة طريق ويعانى من مشاكل من جميع الأنواع سواء ظل فى موطنه أو ابتعد عنه.

ولكن لم تتسم ردود الأفعال الأفريقية لظروف التمييز والحظر أبدا بأى مفاهيم ثورية على الإطلاق. فلم يوجد للمؤتمر القومى الأفريقى إلا نفوذ قليل أو سلطة على الأفريقيين خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، ولكن استمر هذا الحزب فى عقد مؤتمراته عاما بعد آخر عند ضواحى مدينة بلومفانتين ولكن كان عدد أعضائه أقل من ٤٠٠٠ عضو عام ١٩٣٨، وكان لحزب الاتحاد التجارى والصناعى الذى أنشأه عام ١٩١٩. كلينمنتس كادالى وهو أحد الموظفين الطموحين فى نياسالاند أهمية أكبر آنذاك، ولذلك وصل عدد أعضائه فى وقت ما إلى ٢٠٠,٠٠٠ ولكنه لم يكن فعالا. فلقد كان تنظيمه المركزى ضعيفا، كما لم يستطع العمل بين عمال المناجم وهم الأكثر أهمية. فلقد سيطر أصحاب العمل تماما على عمال المناجم الأفريقية.

وتعرض الحزب تماما مثل غريمه حزب الاتحاد الوطنى إلى الخلافات العميقة والانشقاقات بين الشيوعيين والأعضاء الأكثر اعتدالا. ولذلك فشل فى التأثير على الحكومة فى شئون العمل والعمال تماما مثلما فشل حزب الاتحاد الوطنى فى أثناء هرتزوج عن هدفه الخاص بالفصل العنصرى.

وتميز الأفريقيون بضبط النفس والتسامح تجاه المجتمع الأبيض. والذى ازداد ارتباطهم به اقتصاديا بطريقة متزايدة. ويعتبر السبب أن جنوب أفريقيا هى أكثر الدول ثراء على الإطلاق فى أفريقيا كلها كما أن الأجور الأفريقية بالرغم من كونها منخفضة بالنسبة لأجور البيض إلا أنها كانت أعلى من أى مكان آخر فى القارة. فلقد وجدت أحوال أكثر فى جنوب أفريقيا لإنفاقها على التعليم الأفريقى على المدارس الثانوية على الأقل. وتميز هذا التعليم بالجدية وارتفاع المستوى، ولذلك لم

يطلب الأفريقيون أكثر من أن يكون لهم نصيبا أكبر فى ثروة بلادهم وأن يكونـــوا مواطنين كاملين بها.

ولذلك كانت وطنيتهم معتدلة للغاية مقارنة بجدية الوطنية الأفريكانيـــة التـــى كانت تنمو فى الوقت نفسه. وشعر العديد من الشباب الأفريقـــى بوجـــود مســـتقبل أفضل لهم. فما زال يوجد مجال للتفاهم بين الأعراق، وإذا ما رغب البيض حقا فى إنشاء أمة متعددة الأجناس فكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك حتى ذلك الوقـــت. ولكـــن اتجهت آراء سكان جنوب أفريقيا البيض، كما رأينا سابقا، في اتجاه آخر معـــاكس تماما وبسرعة بالغة، ولكى يتم انتخاب أحد المرشحين الطموحين فى دائرة بيضاء وجب عليه التشدد أكثر من منافسيه فى المسألة العرقية ودائما فى اتجـــاه أقصـــى اليمين. ولذلك وبالرغم من الهدوء الظاهرى فإن النوايا الحسنة كانت آنـــذاك فـــى تراجع مستمر.

## جنوب غرب أفريقيا

وعرفنا فى الفصل الثالث عشر أن مستعمرة جنوب غرب أفريقيا الألمانيـــة قد أصبحت تحت إشراف عصبة الأمم تحت إدارة جنوب أفريقيا. ولكـــن تـــم إدارة تلك البلاد عمليا على أنها جزء من اتحاد جنوب أفريقيا وتم القضاء على المقاومـــة المحلية بقوة السلاح. وعارض البوند لسونتس، وهم جماعة من شعب النامـــا عـــام ١٩٢٢، والذين استولى الألمان على معظم أرضهم ضريبة الكـــلاب فلقـــد كانـــت الكلاب بالنسبة لهم ذات أهمية كبرى فى أعمال حراسة قطعان الماشـــية والصـــيد. وأرسلت قوات شرطة ضدهم وتم إلقاء القنابل على قراهم. وعلقت الشرطة علـــى تلك الحادثة قائلة:

"إن آثار هذا الدرس الذى تم تعليمه فى تلك الحملة القصيرة سوف تكون لها

تأثير لا ينسى فى مخيلة الذين لجأوا إلى حمل السلاح وخالفوا بذلك كل سلطة شرعية، بالإضافة إلى تأثير ذلك على القبائل الأفريقية فى تلك المناطق أيضا.

واشترى المزارعون الجنوب أفريقيون المهتمون بملكية الأرض المزارع الرخيصة فى جنوب غرب أفريقيا، كما قامت الحكومة بتقديم القروض لشراء الأرض والمعدات أيضا. ولذلك وجد حوالى ٣٢,٠٠٠ مستوطن عام ١٩٣٥ (وبعضهم من الألمان الذين بقوا) كما أن ثلث أراضى البلاد تقريبا كانت فى أيديهم. وكان معظم الباقى صحراء جرداء، واضطر الأفريقيون للإقامة فى المستوطنات والعمل لدى الرجل الأبيض لكسب الأموال الكافية لسداد ضرائبهم. ولذلك فلقد رحل سيد قاس وهم الألمان ليحل محله آخرون مثله وهم بيض جنوب أفريقيا.

# الفصل السادس عشر

## آخر أعوام الحكم الاستعمارى

تعتبر الحرب العالمية الثانية النقطة الفاصلة فى التاريخ الأفريقى الحديث، وكان معدل التغيير فى أفريقيا منذ إنشاء الحكم الاستعمارى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ثابتا ومعتدلا قبل نشوبها. ولكن زاد هذا المعدل بسرعة هائلة بعد انتهاء تلك الحرب ولم يكن فى الاستطاعة السيطرة عليه.

وخضعت أفريقيا كلها لنوع من أنواع الحكم الأوروبى عام ١٩٣٩. فلقد احتل الإيطاليون أثيوبيا. وظلت القوات البريطانية فى مصر فى منطقة قناة السويس، وخضعت ليبيريا عمليا لشركة مطاط فاير ستون الأمريكية، وكان اتحاد جنوب أفريقيا دولة مستقلة داخل الكومنولث البريطانى ولكن تمتع سكانه الأفريقيون والآسيويون بحرية أقل من سكان المستعمرات، وبدا الحكم الاستعمارى ثابت الدعائم فى كل مكان، وامتلكت كل منطقة مستعمرة قوات شرطة وقوات عسكرية كافية لمواجهة أية اضطرابات وكل المواقف. ولكن كان عدد الرجال المسلحين قليلا بطريقة تدعو إلى الدهشة. فلقد وجدت حامية تتكون من ٤٠٠٠ جندى فقط فى نيجيريا والتى يتعدى سكانها الـ ٢٠ مليونا آنذاك وعدد مشابه من قوات الشرطة. ولكن وجدت وسائل مواصلات سريعة ولذلك كان بالإمكان إرسال إمدادات عسكرية من الخارج لمواجهة أى ظروف خاصة أو طوارئ. ولكن لم تحدث أى طوارئ فى معظم المستعمرات لمدة عشرين عاما. فلقد أصبحت الحكومات الاستعمارية قوية لدرجة لا يمكن لأحد أبدا أن يتحداها.

ولكن بدأ مبدأ الوصاية فى السياسة الاستعمارية يؤدى بعض النتائج العملية

خلال العشرين عاما التى انقضت بعد الحرب العالمية الأولى. وارتبطت تلك السياسة بمبدأ الحكم غير المباشر فى المناطق الأفريقية البريطانية. وقدمت للمجتمعات الأفريقية المشاركة فى إدارة شئونها الخاصة على المستوى المحلى وذلك بواسطة سلطاتها المحلية التقليدية، وبدأت عملية أفرقة النظم المركزية فى الحكومات الاستعمارية فى مستعمرات غرب أفريقيا، وتولى عدد من الأفريقيين وظائف الإدارة مؤخرا كما انضم بعض النواب الأفريقيين إلى المجالس والمؤسسات التشريعية التى تقدم النصائح إلى السكان. ولذلك ذكر أحد ضباط الإدارة الاستعمارية البريطانية السابقين والذى تحول إلى مؤلف وكاتب بعد الحرب العالمية الثانية قائلا:

"لن نرحل من هنا غدا أو بعد غد، ولكن يشرف حاكم كل مستعمرة الآن على عملية تصفيتهما- كمستعمرة وسوف تتحول فى نهاية الأمر إلى دولة مستقلة.

ولكن كان خطأ كل السياسيات الاستعمارية هو إنكار أهداف القدرات السياسية وطموحات النخبة المثقفة، وقدم الحكم غير المباشر فى المستعمرات البريطانية سلطات واسعة للغاية للزعماء التقليديين، وباقى أعضاء الأرستقراطيات العرقية التقليدية، ولكنها تركت الطبقة المثقفة الجديدة بدون أدنى تأثير سياسى أو مكانة اجتماعية. وكان يمكن للأفارقة المثقفين فى النظام الفرنسى تولى أعلى الدرجات فى الوظائف الحكومية الفرنسية بشرط الاندماج تماما مع فرنسا والحضارة الفرنسية مما يؤدى إلى قطع صلاتهم مع إخوانهم الأفريقيين.

ونرى أن الجيل الأول من الأفريقيين المثقفين رجال مثل كيسلى هيفورد فى ساحل الذهب، وبليز دياجن فى السنغال، وهربرت ماكولى فى لاجوس تنجو جابافو فى رأس الرجاء الصالح قد طالبوا بمشاركة النخبة الأفريقية المثقفة فى الحكومة المركزية، وقبلوا أيضا الفجوة الكبيرة بين المثقفين وغير المثقفين من جهة وبين المجتمع الزراعى التقليدى والمجتمع الحضرى المعاصر من جهة أخرى أيضا.

ولكن لم يحاول واحد منهم أن يقيم له أتباعا عديدين وربما لم يكن ينجح واحد منهم آنذاك إذا ما حاول ذلك. ولكن وجد قليلون فى الجيل الثانى من الأفارقة المثقفين، الذين فهموا تماما استحالة القيام بإصلاحات كبرى دون اتصال المثقفين الأفارقة بغير المثقفين، أما الأصغر سنا منهم مثل نكروما وسنجور فكانوا ما زالوا يدرسون فى أوروبا أو أميريكا. ولكنهم سوف يعودون بالدرس نفسه والذى سيظل ثابتا تماما فى أذهانهم، ولكننا نشك تماما أنه لولا قيام الحرب العالمية الثانية والمتغيرات الهائلة التى أتت بها فى ميزان القوى العالمية أن يكون نكروما وجيله قد عاشوا ليروا استقلال أفريقيا وأنهم السبب المباشر فى ذلك. ولا شك أن الحصول على الاستقلال فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين بدلا من الثمانينيات أو التسعينيات قد كان بسبب هذه الحرب العاتية التى استمرت أكثر من خمسة أعوام وشملت العالم كله.

## الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) وما بعدها

أدت تلك الحرب إلى زيادة أعداد الأفريقيين ذوى الوعى السياسى، فلقد قامت بريطانيا وفرنسا بتجنيد الجنود من أفريقيا كلها ثم توجهوا للقتال فى أثيوبيا وشمال أفريقيا وإيطاليا وضد اليابانيين فى بورما، وكان العديد من الأفريقيين الذين أصبحوا جنودا لم يغادروا بلادهم الأصلية قبل ذلك، بل أيضا مناطق إقامتهم المحلية، ولكنهم أثناء خدمتهم العاملة وبالرغم من المخاطر والمصاعب إلا أنهم كانوا يحصلون على تغذية وملابس جيدة وأجور جيدة نسبيا، وتعلموا أن يشاهدوا بلادهم من وجهة نظر أخرى من الخارج، وفهموا بالتالى أن أوضاعهم ليست جيدة بالمرة. وتعلم العديد منهم قراءة الجرائد والاستماع إلى نشرات الأخبار فى المذياع والاهتمام بالشئون الدولية.

وكانت أول أخبار الأحداث الكبرى التى وصلتهم هى سقوط فرنسا واحتلال ألمانيا قلبها فى شهر مايو ١٩٤٠ واحتلت ألمانيا بعد ذلك كل من بلجيكا وهولندا وقامت حكومات لها فى المنفى فى بريطانيا، وأدى ذلك إلى لطمة كبيرة للهيبة الاستعمارية الأوروبية، وخلال فترة مبكرة للغاية من الحرب اشترك جنود من شرق وغرب أفريقيا فى استرداد أثيوبيا من الإيطاليين وهزيمتهم، كما اهتموا تماما بعودة الإمبراطور هيلا سلاسى إلى عرشه. وعلموا بعد ذلك بانهيار الإمبراطوريات الأوروبية لبريطانيا وفرنسا وهولندا فى جنوب شرق آسيا أمام الزحف اليابانى عام ١٩٤٢ كألواح من القش فى مهب الريح. ولم تبق إلا الإمبراطورية البريطانية فى الهند لتواجه خطر الغزو من الشرق.

وانتقلت الخلافات السياسية التى أضعفت فرنسا كثيرا فى بداية الحرب إلى المستعمرات الأفريقية الفرنسية فى أفريقيا ذاتها، ولقد وقف معظم الحكام الاستعماريين الفرنسيين عام ١٩٤٠ مع حكومة فيشى الموالية للألمان فى فرنسا المحتلة.

ولكن أيد حاكم تشاد، وهو فيلكس أيبوبى وهو أحد السود فى مستعمرة جيانا الفرنسية فى أمريكا الجنوبية، حركة المقاومة الفرنسية الحرة بقيادة الجنرال دى جول، ثم انضمت أفريقيا الاستوائية الفرنسية كلها مع دى جول بحلول عام ١٩٤٢، وأصبح أيبوبى الحاكم العام فى برازافيل وتبعته بعد ذلك حكومات غرب أفريقيا الفرنسية، ومدغشقر ولكن بعد مؤامرات ومنازعات داخلية عديدة، وأدت تلك الخلافات بين الفرنسيين إلى إنقاص هيبتهم كثيرا فى أعين رعاياهم الأفريقيين، ولكن كانت الحرب الأهلية بين حركة فرنسا الحرة وحكومة فيشى أكثر حدة فى بلاد شمال أفريقيا، ولذلك نظر سكان المغرب العربى الكبير القريبون من الجيوش الأمريكية المحاربة فى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بتقاليدها المعادية للاستعمار على أنه محرر محتمل وأيد السلطان سيدى محمد فى مراكش بعد لقائه مع الرئيس الأمريكى روزفلت عام ١٩٤٣ حركة المقاومة الشعبية بطريقة علنية.

وتغير عالم ١٩٣٩ بطريقة لا يمكن تصورها عند انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ فلقد هزمت كل من إيطاليا وألمانيا واليابان على التوالى. ولكن دفع المنتصرون ثمنا فادحا للنصر وبالذات الذين احتلت أراضيهم ودمرت. أما بريطانيا فلقد انفقت كل احتياطاتها المالية بل واستدانت للاستمرار فى الحرب بمفردها فى الغرب ضد ألمانيا لمدة عامين كاملين قبل دخول الولايات المتحدة الحرب.

وبالرغم من أن بريطانيا وفرنسا قد ظلتا اسميا مسيطرتين تماما على إمبراطوريات واسعة، إلا أنه قد أصبح من الواضح تماما أن الزعامة العسكرية والاقتصادية والسياسية قد انتقلت آنذاك من الأيدى الأوروبية الغربية إلى الدولتين العظيمتين وهما أمريكا والاتحاد السوفيتى واللتين عارضتا مبدئيا المفاهيم الاستعمارية، وشعرت الإمبراطوريات الاستعمارية بأول التهديدات فى آسيا، حيث تطور الوعى السياسى وانتشر التعليم أكثر من أفريقيا ولكن سوف تتأثر الأخيرة أيضا فيما بعد. ونعرف الآن فى المراسلات الرسمية بين الحكومتين الأمريكية والبريطانية فى الأعوام الأخيرة من الحرب أنه قد تم الاتفاق على أن تحصل المستعمرات الأفريقية للدول الأوروبية على استقلالها بنهاية القرن العشرين، وقبلت الحكومات الفرنسية المتعاقبة بعد الحرب وجهة النظر السابقة تدريجيا.

ولكن اتخذت بريطانيا خطوة هائلة عام ١٩٤٧ بتصفية إمبراطورياتها فى الهند، وقسمت شبه القارة الهندية بين الهند والباكستان اللتين استقلتا فى إطار الكومنولث، ثم استقلت جزيرة سيلان بنفس الطريقة، بينما حصلت بورما على استقلالها دون الانضمام إلى الكومونولث. ويبلغ سكان تلك البلاد أكثر من خمسمائة مليون نسمة أى سبع سكان العالم آنذاك وحكم البريطانيون معظم تلك المنطقة منذ القرن الثامن عشر ولكن ازدهرت عدة حضارات قديمة رائعة قبلهم هناك. وأضيف تيار قوى من التعليم الغربى إلى تعاليم العلوم الوطنية ولذلك ظهرت المدارس الابتدائية والثانوية فى أفريقيا الاستعمارية على أنها مجرد البداية. فلقد تخرج عشرات الآلاف من الخريجين من جامعات تلك البلاد الآسيوية. وشغلوا معظم

الوظائف العلمية والتخصصية المهمة منذ فترة طويلة وعملوا فى كل المناصب باستثناء المناصب القيادية العليا فى البلاد، ونمت الأحزاب السياسية ذات الطابع القومى المعاصر طوال نصف قرن، وأيدها مئات الآلاف بل ملايين الناس، ولذلك لم ير البريطانيون أبدا وجود أى تعارض بين انسحابهم من جنوب آسيا من جهة والاستمرار فى حكم مستعمراتهم الأفريقية لنصف قرن آخر من جهة أخرى. ولكن رأى الأفريقيون ذوو الثقافة السياسية تماما مثل شعوب جنوب شرق آسيا أن نهاية الإمبراطورية البريطانية فى الهند قد أنهت تماما عصر الاستعمار فى كل مكان فى العالم.

ولذلك بدأت وتيرة الأحداث تزداد سرعة فى أفريقيا بفضل حركة التحرر الأفريقية الآسيوية انطلاقا من جنوب شرق آسيا؛ حيث حصلت إندونيسيا على استقلالها من الهولنديين عام ١٩٥١ وبعد أن طردت حركة المقاومة الفيتنامية الشيوعية المسلحة بقيادة هوشى منه الفرنسيين من الهند الصينية عام ١٩٥٤.

وبدأ النفوذ الأمريكى فى الظهور خلال تلك الفترة عبر مؤسسة هيئة الأمم المتحدة، ثم ازداد هذا النفوذ كثيرا بعد ذلك. وتولت هيئة الأمم المتحدة مسئولية الإشراف على إدارة المناطق تحت الوصاية السابقة لعصبة الأمم والتى عرفت منذ ذلك الوقت بمناطق تحت الوصاية وأرسلت لجانا منتظمة للتفتيش عليها وحث الحكومة المسئولة على تنميتها، وتضمن ميثاق الأمم المتحدة إعلانا رسميا يقر حقوق كل الشعوب فى الحرية والعدالة، وتم قبول هذا الإعلان نظرا للضغوط الأمريكية المستمرة وضد رغبات الدول الاستعمارية، ولكن أدى انضمام الدول الآسيوية الجديدة إلى تغيير ميزان التصويت فى الأمم المتحدة بطريقة جذرية، فلقد وجدت آنذاك مجموعة من الدول الأصغر المطالبة دائما بإنهاء الاستعمار بأقصى سرعة فى كل مكان، وتولت الهند رئاسة المجموعة وطورت حكومتها مفهوم "الحياد الإيجابى" بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى أثناء عصر الحرب الباردة. وقام أول مؤتمر كبير لتلك الدول غير المنحازة فى باندونج فى إندونسيا عام

١٩٥٥ وحضرته أيضا جمهورية الصين الشعبية. وكانت الدول الأفريقية المستقلة هى مصر وأثيوبيا وليبيا فقط وإن أرسلت أيضا معظم الحركات الوطنية فى السودان مندوبين عنها، بالإضافة إلى ممثلين عن ساحل الذهب وجنوب أفريقيا والجزائر، وأعلن المؤتمر بيانه الشهير بأن الاستعمار فى جميع صوره شر يجب إنهاؤه بسرعة، ودعا الدول الاستعمارية إلى منح الحرية والاستقلال للشعوب المستعمرة وامتدت حركة التضامن بين الدول الآسيوية ودول الشرق الأوسط إلى كل المناضلين السياسيين فى كل أفريقيا جنوب الصحراء والذين عرفوا آنذاك أن لهم أصدقاء يساعدونهم فى صراعهم، وتعتبر باندونج بالنسبة للدول الآسيوية نهاية فترة الانتقال من الحكم الاستعمارى إلى الاستقلال، واعتبره الأفريقيون نهاية آخر مرحلة فاصلة للحركة الثورية.

## التطور: آخر مراحل عصر الاستعمار

لكن، وبالرغم من كل التغيرات على الساحة العالمية فإن الدول الاستعمارية مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وحتى البرتغال قد دخلت جميعا بحماس بالغ آخر فترة حكمها فى أفريقيا، واعتقدت تلك الدول كلها أنها سوف تستمر فى الحكم حوالى خمسين عاما وإن كانت الفترة الحقيقية التى حكمتها فعلا نصف تلك الفترة، ولكن وجدت عدة أسباب أدت إلى هذا النشاط النهائى المتزايد. فلقد ازداد الطلب على المنتجات الاستوائية بطريقة هائلة خلال الحرب وارتفعت أسعارها كثيرا، وظلت مرتفعة طوال العقد التالى بعد انتهاء الحرب. كما تعلمت الحكومات الاستعمارية أثناء الحرب كيفية الحصول على نصيب أكبر بكثير من عائدات المزارعين الأفريقيين بإجبارهم على بيع منتجاتهم إلى هيئات تسويقية حكومية بأسعار أقل بكثير من أسعار بيعها فى السوق العالمية، ولذلك ازدهرت إيرادات المستعمرات الأفريقية لأول مرة فى تاريخها.

وبدا أنه سيحدث توسع كبير فى الخدمات العامة فى التعليم والصحة والخدمات الزراعية والبيطرية بالإضافة إلى كل أنواع الأشغال العامة، والأهم من ذلك أن الدول الاستعمارية قد قبلت لأول مرة أن تنفق جزء صغيرا من أموال دافعى الضرائب الأوروبية كمساعدة لتطوير المستعمرات.

ووجدت أسباب مختلفة لهذا السخاء. فمن جهة كان ذلك رد فعل للهجوم العالمى على الاستعمار ولذلك أصبح من الضرورى إثبات الفائدة العائدة على المستعمرات من ذلك الحكم، ولكن ظهرت من جهة أخرى أهمية تلك المستعمرات الاستوائية للدول الاستعمارية خلال فترة الحرب والفترة التالية لها، فلقد أصبحت كل الدول الاستعمارية مدينة لأمريكا واحتاجت لاستيراد المنتجات الأمريكية، ولكنها لم تنتج إلا القليل الذى تحتاجه أمريكا، ولذلك أصبح الدولار "عملة صعبة" بينما تحول الجنية الإسترلينى والفرنك الفرنسى إلى "عملات هشة". ولكن أنتجت المستعمرات الأفريقية المواد الأولية التى ترغب أمريكا فى شرائها ويمكن بالتالى أن تصب الدولارات إلى مناطق العملات الإسترلينية والفرنك وتدعمها بدلا من أن تذهب إلى المستعمرات المنتجة لها مباشرة، ويعنى هذا النظام إذن أن المستعمرات التى تبيع وتكسب بالدولار قد اضطرت إلى شراء نسبة كبيرة من استيرادها من الدول الاستعمارية بدلا من شرائها مباشرة من أمريكا إذ فضلت ذلك. ولكن أدى هذا النظام إلى استفادة المستعمرين ذاتهم مما جعلهم يستثمرون أموالهم الخاصة فى التطور الاستعمارى من أجل زيادة إنتاجية مستعمراتهم.

وفيما يتعلق بأفريقيا البريطانية، فلقد طبق منذ فترة مبكرة عام ١٩٤٠ قانون يمسى بالقانون الخاص بالشئون الاجتماعية والتطور الاستعمارى، ولكن كان الأمر نوايا حسنة فقط نظرا لظروف الحرب الصعبة آنذاك، ولكن حينما تغيرت الأحوال كتب وزير المستعمرات أوليفر ستانلى إلى وزير الخزانة فى شهر سبتمبر ١٩٤٤ حينما رغب فى إعادة بعث الحياة فى القانون قائلا:

"وأعتقد أن وقت التصرف قد حان الآن. كما أعتقد أيضا أن نهاية العمليات الحربية فى أوروبا سوف تكون اللحظة السيكولوجية الحاسمة لإعلان نوايانا لكى تتولى حكومة صاحب الجلالة كل الإجراءات اللازمة لتطوير برنامج استعمارى يتميز بالكفاءة،إنها اللحظة المناسبة لإظهار إيماننا وقدرتنا على استخدام ممتلكاتنا الاستعمارية الواسعة بطريقة ملائمة، وإنها أيضا اللحظة التى يجب بها على حكام المستعمرات أن يهتموا فيها بالتخطيط للمستقبل بهمة ونشاط، وسوف يتم ذلك إذا ما أرسلنا إليهم تعليمات محددة وواضحة تماما من أجل زيادة ثقتهم فى استمرارية وصلاحية سياستنا. ولا أقول أبدا إن ذلك الأمر سيكون عملية مربحة على أسس اقتصادية بحتة، ولكننى أعتقد أن تلك الاقتراحات ضرورية تماما من أجل تبرير وضعنا كقوة استعمارية.[٤٨]

ولذلك تم إنفاق مبلغ ٢١٠ مليون جنيه إسترلينى فيما بين أعوام ١٩٤٦ و١٩٥٥ وحصل عليها تمويل هذا القانون من القطاع الخاص ومن الأموال التى خصصتها الحكومة الاستعمارية من أجل تطوير المستعمرات البريطانية، وكانت المستعمرات الفرنسية فى الأصل أكثر فقرا من المستعمرات البريطانية قبل الحرب. ولذلك حينما بدأ تدفق الأموال ازداد معدل التغير بينهما. فلقد وصل الاستثمار الفرنسى إلى المستعمرات الفرنسية من القطاع الخاص أو المصادر الخاصة، ثم أيضا من مبالغ حكومية خصصت لهذا الغرض عام ١٩٤٦. وعرفت تلك الأموال المخصصة باسم FIDES وهى الحروف الأولى لعنوانها باللغة الفرنسية، ولكن كانت المساعدات الرسمية الحكومية الفرنسية أكثر من نظيرتها البريطانية، ولذلك وصلت مبالغ الأموال المخصصة للمستعمرات الفرنسية التسع فى غرب أفريقيا إلى ٢٧٧ مليون جنيها إسترلينيا خلال الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥.

---

(٤٨) Oliver Stanley to Sir John Anderson 21sept !944cited in Roger Louis Tmperialism at Bay 1941 -1945 (Oxford 1977) PP.102-3

وأدى تدفق الأموال الجديدة سواء من مصادر الدخل الداخلي أو من المساعدات الخارجية إلى إحداث ثورة حقيقية في أوجه نشاط الحكومات الاستعمارية خلال الفترة التالية للحرب العالمية الثانية. ولذلك وجدت هيئة تخطيط في كل مستعمرة وبرنامج للتطور خاص بها. وكانت من أهم المشاريع الهامة آنذاك أعمال إنشاء محطات توليد الطاقة الهيدروكهربائية على النيل في جنجا في أوغندا وعند كاريبا على نهر الزامبيزى بين شمال وجنوب روديسيا، وعلى نهر الفولتا في أكاسومبو في ساحل الذهب، وأيضا عند فريا وكيمبو في غينيا، وكان غرض تلك المشروعات الحصول على الطاقة من أجل التصنيع، ولذلك نشأت صناعة الغزل والنسيج في أوغندا بفضل تلك الطاقة، كما تطورت صناعة تعدين النحاس ومناجمه في شمال روديسيا وإقامة العديد من المصانع المتنوعة في جنوب روديسيا وصناعة صهر البوكسيت إلى ألومنيوم بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الصناعات الخفيفة في ساحل العاج وغينيا. أما أكبر المشاريع على الإطلاق فكان مشروع إنجا لبناء سد على نهر الكونغو الأدنى والذى خطط أساسا لإنتاج طاقة هائلة توازى نصف إنتاج غرب أوروبا من الكهرباء ولكن توقف هذا المشروع بعد الأزمة التالية لاستقلال الكونغو البلجيكية ولم يستمر العمل بعد ذلك إلا جزئيا فقط، ولكن كانت مشاريع الطاقة الهيدروكهربية من أجل الصناعة مجرد إحدى الظواهر المهمة في برامج التطور الطموحة التي قامت بها كل الحكومات الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية.

فلقد اهتمت تلك الحكومات أيضا بتنمية وتنويع الإنتاج الزراعي. وتم ذلك ليس بإنتاج المحاصيل النقدية ولكن أيضا من أجل إنتاج الطعام للاستهلاك المحلي وبالذات لتموين أعداد السكان المتزايدة في المدن الجديدة. ثم امتدت الخدمات الزراعية والبيطرية وانتشرت عملياتها إلى كل المناطق الإدارية، وأجبرت الحكومات المزارعين على تطبيق وسائل الزراعة المتطورة مثل دورية المحاصيل الزراعية الغنية لمنع تآكل التربة في المناطق المرتفعة، وتدعيم المنشآت الزراعية

المتفرقة، وإدخال أدوات زراعية أفضل والآلات البسيطة أيضا، كما تم إقناع الرعاة بقبول مفاهيم تربية الماشية بالأساليب الحديثة والاهتمام بالإنتاج لسد احتياجات السوق المحلية بدلا من تربية القطعان لمفاهيم الفخر والتباهى وإظهار الثروة، كما حثتهم الحكومات أيضا على إنتاج الألبان واللحوم بدلا من الاهتمام فقط بأعداد الماشية للتباهى.

ويعنى ذلك استخدام مجازر حديثة وأماكن لتصنيع اللبن فى مناطق الرعى بدلا من نقل القطعان الكبيرة إلى أماكن بيع بعيدة، وتم إنشاء تعاونيات تسويق الأسماك فى عدة بلاد، كما بدأت الناقلات الثلاجات فى التوجه إلى مجتمعات صيد الأسماك عند السواحل وشواطئ البحيرات والأنهار لشراء إنتاجهم وتوزيعه فى المدن، وتطلبت تلك الأعمال الجديدة ثورة أخرى فى النقل. فلم تتحمل الطرق الأفريقية التقليدية القديمة أبدا تلك الحمولات الكبيرة التى تمر عليها، ولذلك خصصت نسبة كبيرة من أموال ميزانية التنمية إلى إعادة بناء وتمهيد الطرق الرئيسية القديمة.

## التطور فى التعليم

فهمت كل الحكومات الاستعمارية أيضا فى فترة ما بعد الحرب أن القيود الأولى تعلقت بنقص المال، أما القيود الأخرى فلقد تعلقت بنقص الأفراد المثقفين، ولقد وجد عدد قليل من المدارس الثانوية فى أفريقيا قبل الحرب، ولذلك تم استخدام عدد كبير من الأوروبيين لإدارة وتنفيذ خطط التنمية الجديدة. ولكنهم كانت رواتبهم عالية. فلقد حضروا إلى أفريقيا من أجل رواتبهم العالية ومساكنهم الرخيصة المدعمة وإجازاتهم الكثيرة إلى بلادهم الأصلية المجانية. ولكن أدى هؤلاء المستعمرون الجدد إلى إحداث سلبيات كثيرة فى الأوضاع السياسية وقضت على أعمالهم الحسنة فى وظائفهم، فلقد أدى وجودهم إلى زيادة الهوة بين الأوربيين

والأفريقيين. كما أدى ذلك أيضا إلى ظهور انطباع عام بأن السيطرة الاستعمارية على أفريقيا تزداد وتشتد وتتدعم مما أدى إلى حدوث اضطرابات سياسية، وجعلت كل أعمال الحكومة مثار شك بين الأفريقيين، ولكن أصبح التعليم هو الركن الأساسي لكل خطة تنمية آنذاك وكانت معظم المدارس بعد الحرب مدارس تبشيرية أساسا، وكانت مدارس ابتدائية فقط. كما لم يقدم معظمها إلا أربعة أعوام في التعليم الأساسي بلغة أفريقية محلية أو أخرى فقط، ولذلك وجدت أولوية في زيادة فترة الأربعة أعوام إلى ستة أعوام دراسية كاملة وبحيث يخصص العامان الأخيران لدراسة لغة أوروبية واسعة الانتشار، وكانت المشكلة الأساسية إذن هي تدريب معلمي المرحلة الابتدائية الذين يجيدون الإنجليزية أو الفرنسية. وكان أهم تطور تعليمي في أربعينيات القرن العشرين هو إنشاء مركز تدريب لمعلمي المرحلة الابتدائية وكانت كلها في بداياتها مراكز لتعليم الإنجليزية أو الفرنسية. ووجب حل مشكلة "لغة الاتصال العام" قبل البدء في إنشاء أعداد أكبر من المدارس الثانوية التي كان عددها صغيرا للغاية في نهاية الحرب العالمية الثانية. ولم تمتلك معظم المستعمرات الأفريقية أكثر من مدرستين أو ثلاث، ويقوم بالتدريس بها معلمون أوروبيون أساسا، ووجب زيادة أعداد تلك المدارس وأن يتم ذلك تدريجيا وذلك بتعيين مدرسين من أوروبا أو من بين الأفريقيين القليلين الذين تخرجوا لحسن حظهم في المدارس. واستلزم إصلاح نظام التعليم الابتدائي إضافة عامين إضافيين بينما استلزمت المدارس الثانوية إنشاء ستة أعوام إضافية في الفصول التعليمية. ولذلك إذا تمكنت مدرسة من إضافة فصل جديد كل عام فإنه لا يمكن إنشاء مدرسة ثانوية في أقل من ستة أعوام وإن كانت معظم المدارس الثانوية قد أنشئت في فترات تزيد عن ذلك بكثير، كما أن معظم المدارس الثانوية التي أنشأت في خمسينيات القرن العشرين والتي ازداد عددها فعلا قد أنهت الدراسة بها بعد ثلاثة أو أربعة أعوام فقط. وكانت هذه هي الحال حينما حصلت معظم الدول الأفريقية على استقلالها.

وتحدد أعداد خريجي المدارس الثانوية إمكانيات الدراسة الجامعية، ولكن اهتمت الحكومة البريطانية تماما بموضوع إنشاء الجامعات بالرغم من مشكلة المدارس الثانوية فى أفريقيا آنذاك، ولذلك أنشأت لجنة عام ١٩٤٣ والتى قدمت تقريرها بعد عامين وأوصت بأن إنشاء الجامعات أمر "لا مفر منه" لأنه الدعامة الأساسية التى تمكن من الوصول إلى الحكم الذاتى.

وتم إنشاء أربعة جامعات بعد عام ١٩٤٥ فى عبدان فى نيجيريا وفى أشيموتا فى ساحل الذهب وفى الخرطوم فى السودان وفى ماكريرى فى أوغندا، ثم أضيفت جامعة أخرى فى سالسبورى فى جنوب روديسيا عام ١٩٥٣. ولكن قام بالتدريس بها أساتذة أوربيون ذوو مرتبات عالية للغاية بينما تصاعد عدد الخريجين تدريجيا ببطء من مائة إلى مائتين ثم إلى ثلاثمائة سنويا، وأنشأت أول جامعة فرنسية فى داكار عام ١٩٥٥ فى أفريقيا الفرنسية أى قبل ثلاثة أعوام فقط من استقلال السنغال. وتم افتتاح جامعتى لوفانيوم وإليزابيث فيل فى الكونغو البلجيكية قبل استقلال الكونغو ذاتها بفترة قصيرة للغاية عام ١٩٦٠. ونعرف الآن أن التعليم العالى قد وصل متأخرا للغاية إلى أفريقيا لكى يشترك الخريجون فى الشئون السياسية لبلادهم المستقلة. فلم توجد حتى ذلك الوقت أعداد كافية منهم لتغطية الاحتياجات الأساسية لخدمات الإدارة والشئون الاجتماعية الحديثة، كما عانى قطاع الأعمال الصناعية والتجارية عجزا كبيرا أيضا، ولكن تم تخطيط نظام التعليم العالى فى أفريقيا فى عصر الاستعمار لكى يلائم احتياجات التسعينيات وليس الستينيات أبدا، ووضعت مع ذلك الدعائم الأولى والتى يمكن للبلاد المستقلة أن تبنى عليها بقدر إمكانياتها الاقتصادية.

ويبين اهتمام الدول الأوروبية والحكومتان البريطانية والفرنسية بالتطور التعليمى التدريجى أن مفاهيم استغلال المستعمرات قد أصبحت راسخة لديها وأنها مستعدة تماما للوصول إلى الاستقلال. ولكن كانت السياسة البلجيكية فى الكونغو على النقيض من ذلك تماما، إذ اهتمت الحكومة البلجيكية فقط بإنشاء وتدعيم

المدارس الابتدائية ودافع عن تلك السياسة بحماس بيير ريكمانس الذى كان حاكمــا عاما للكونغو من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٧، ثم أصبح الممثل البلجيكى فى مجلس وصاية الأمم المتحدة والذى كتب عام ١٩٥٥:

"ويدرك كل من يعرف الكونغو أن الحكم البلجيكى ضرورى هناك وســوف تكون نهايته نهاية كل ما قمنا ببنائه خلال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، ولقد فضلنا تعليم جماهير الأطفال الصغار ثم تنظيم التعليم الثانوى فيما بعــد حينمــا تتــوافر الموارد، ويوجد الآن لبلاد أفريقيا الغربية الفرنسية ألف من الشباب يدرسون فــى فرنسا وأن لدينا القليلون للغاية الذين يدرسون فى بلجيكــا. ولكــن لــدينا عشــرة أضعاف أعداد تلاميذهم فى مدارسنا الابتدائية، وأعتقد تماما أننا بعد ثلاثين عامــا سوف يكون لدينا فى الكونغو أعداد من الخريجين الجامعيين مــثلهم تمامــا علــى الأقل، وأعداد مشابهة من خريجى المدارس الثانوية وأعداد أقل بكثير من الأميــين عن جيراننا الفرنسيين فى غرب أفريقيا، وذلك بالرغم أن أول جامعة فى الكونغــو قد افتتحت أبوابها منذ عام فقط، ولكن هل تقدم لنا الأيام ثلاثين عاما مــن التطــور السلمى." (٤٩)

وأجاب ريكمانس على تساؤله بالتأكيد الحذر قائلا إن لديه "أمل كبير" ولكنه أخطأ تماما بالإضافة إلى أن الحكومة البلجيكية إذ حصلت الكونغو على اســتقلالها بعد أربعة أعوام فقط ولكن كان الكونغوليون غير مــؤهلين لتــولى الحكــم بعــد الاستقلال الذى منح لهم أكثر مما حاربوا من أجله.

## التحضير للديمقراطية

نشطت الحكومات الأوروبية الاستعمارية فى موضوع الحكم المحلى خــلال

(٤٩) Pierre Ryckmans, Belgiun Colonialiam Foreign Affairs, Qctober 1955.

الفترة التى بقيت لها فى الحكم بعد الحرب. وتم التخلى تماما عن سياسة الحكم غير المباشر فى المستعمرات البريطانية لكونها غير مقبولة تـدريجيا للغايـة بالنسـبة للوضع العالمى. فلن يوجد وقت كاف لكى تنمو نظم الحكم المحلية الأفريقية طبقـا لمفاهيمها الخاصة. ولذلك وجب الوصول إلى الحكم المحلى الـديمقراطى خـلال أعوام قليلة للغاية. وكان الأسلوب الوحيد هو اتباع النظم الغربية. ولذلك سرعان ما أحاط مجلس منتخب كل زعيم محلى.

وعهدت أعمال الإشراف على العديد من الخدمات المحلية إلى تلك المجالس بعد أن أدارها الزعيم أو مسئول إدارة الإقليم الأوروبى مباشرة، وتم اعتماد نظـام المجلس الإقليمى البريطانى الإنجليزى فى المستعمرات البريطانية بطريقة متزايـدة بينما طبق الفرنسيون نظام المقاطعات الفرنسية والتى كانـت الوحـدات الرئيسـية للحكم المحلى المنتخب فى فرنسا ولذلك تعلم العديد من الأفريقيين أثناء عملهم فـى مجالس المناطق أو المقاطعات المسئولية الإدارية بطرق وأساليب لم تكن متاحة لهم فيما سبق فى خدمة الحكومات المركزية الأوروبية الاستعمارية، وتعلم الكثير مـن السياسيين الوطنيين فى المستقبل فى تلك المجالس المحلية المنتخبة وحصلوا علـى تدريبهم السياسى بها.

ولكن أبدت السياستان البريطانية والفرنسية ترددا وتضاربا عند إنشاء نظـم انتخابية على مستوى المستعمرة. وفيما يتعلق بالبريطانيين وجـدت نيـة صـادقة لإنهاء الاستعمار. فلقد ذكر أوليفر ستانلى وزير المستعمرات فى زمن الحرب، فى شهر يونيه ١٩٤٣ "نلتزم تماما بتوجيه الشعوب المستعمرة إلى طريق الاستقلال فى إطار الإمبراطورية البريطانية" ولكن لم يفهم أحد أن ذلك يعنى الاستقلال الكامـل لكل مستعمرة على حدة، صغيرة كانت أم كبيرة. فلقد أمل الكثيرون فى بريطانيا أن يقوم اتحادات غرب وشرق ووسط أفريقيا، ولكن كان الطريق المباشـر واضـحا للغاية، فلقد رغب البريطانيون فى إعادة أنماط التطور الدستورى الذى تم تطبيقـه قبل ذلك بنجاح فى البلاد التى يقطنها الأوروبيون فى كندا أستراليا وجنوب أفريقيا،

وسوف تئول السلطة السياسية تدريجيا إلى المجالس المنتخبة التى قامت فعلا فى المستعمرات وسوف تزيد العضوية فى تلك المجالس بزيادة تمثيل الأفريقيين عن طريق تعيين الحكام والزعماء. وسوف تصبح المجالس الانتخابية أكثر تمثيلا فيما بعد بمنح حق الانتخاب لدائرة أوسع وأوسع من شعب المستعمرات.

ولكن لم تؤد تلك الفكرة إلى حدوث مشاكل خاصة فيا يتعلق بمستعمرات غرب أفريقيا؛ حيث كان البريطانيون يقيمون إقامة مؤقتة فقط. فلقد وجدت المشاكل فى الجانب الشرقى من أفريقيا حيث أقامت مجتمعات صغيرة من المستوطنين البريطانيين من كينيا إلى جنوب روديسيا والذين رأوا أنهم مستوطنون دائمون فى تلك البلاد، وتم منحهم فعلا درجات مختلفة من الامتيازات فى حكوماتهم، ولذلك فإن تقدم الأغلبية الأفريقية سوف يعنى نهاية امتيازهم. ويجب أن نتذكر لفهم موقفهم أن جنوب أفريقيا قد حصلت على استقلالها بموجب حقوق انتخابية للبيض فقط، كما أن جنوب روديسيا قد حصلت على الحكم الذاتى عام ١٩٢٣ على نفس الأساس بالرغم من أن نسبة البيض إلى السود كانت هنا قليلة للغاية، ولكن تغيرت وجهات النظر البريطانية كثيرا منذ عام ١٩٢٣. وشعرت الحكومات البريطانية من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥ فى الوقت نفسه على أن لديها التزاما لحماية أوضاع المستوطنين فى شرق ووسط أفريقيا من عملية نقل سريعة للغاية للسلطة إلى الأغلبيات الأفريقية. ولذلك قضت بريطانيا عشرة أعوام فى اختبار مجموعة من الدساتير المتعددة الأعراق فى تلك المناطق. وكان الدستور المتعدد الأعراق النمطى دستورا تنتخب به كل مجموعة عرقية عددا معينا من النواب فى البرلمان. ويتم هنا تمثيل الجماعات أو الفئات المختلفة بطريقة عادلة بغض النظر عن حجمها الفعلى. ونبع الأمل فى ظهور مفاهيم معتدلة ديمقراطية فى توازن فئة ضد أخرى. ولكن لم ير الأفريقيون عدالة فى ذلك النظام، ومهما كان الأمر فإن الدساتير متعددة الأعراق ربما قد أدت وظيفة مهمة فى كونها مرحلة انتقالية بين الامتياز الخاص بالبيض وحكم الأغلبية الأفريقية.

ولكن توجهت الترددات والتناقضات الفرنسية ليس إلى عدد الفرنسيين المقيمين فى مستعمرة أو أخرى ولكن بالذات بالنسبة للعلاقات المستقبلية بين المناطق الفرنسية عبر البحار وفرنسا ذاتها ولذلك كانت الخطط الفرنسية لإنهاء الاستعمار إلى عام ١٩٦٠ ليس أكثر من منح السيادة المحلية للمستعمرات السابقة فى إطار نظام إمبراطورى مركزى يمثله الاتحاد الفرنسى أولا والمجموعة الفرنسية فيما بعد. وكان الغرض أن يشمل الاتحاد الفرنسى كل المناطق الفرنسية عبر البحار فى الهند الصينية وأفريقيا أيضا. أما المجموعة الفرنسية فلقد انتصرت فقط على أفريقيا جنوب الصحراء وإلى تلك الجزر الصغيرة التى قبلت الاندماج التام مع فرنسا. ووضعت الجزائر فى داخل المجموعة ولكن بشرط بقائها جزء من فرنسا. ولم تكن تونس ومراكش أعضاء أبدا. ولكن مرت أفريقيا الفرنسية من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٥ عمليا بمرحلة إنهاء الاستعمار مشابهة للغاية للفترة "المتعددة الأعراق" فى أفريقيا البريطانية الشرقية والوسطى.

وتطورت المجالس التشريعية فى غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية ومدغشقر على المستويات الفيدرالية والإقليمية. وتم الانتخاب خلال تلك الفترة الانتقالية نصف المقاعد فى تلك المجالس بواسطة المواطنين الكاملين، ويعنى ذلك السكان الفرنسيين المستوطنين هناك.

وفهم حكام أفريقيا المستعمرة باستثناء المستعمرات البلجيكية والبرتغالية– من الصحراء إلى زامبيزى حوالى عام ١٩٥٥ أنهم دخلوا المرحلة الأخيرة للاستعمار الأوروبى. ولعبت الحكومات الاستعمارية الفرنسية والبريطانية أدوارها فى الفصل النهائى للدراما الاستعمارية. بهمة وحماس غير مسبوقتين. وتم صرف أموال التنمية فى المستعمرات الأفريقية الاستوائية. وتم تشجيع الزراعة والصناعة بشدة كما تقدمت شئون التعليم كثيرا. وأصبح الحكم المحلى أسرع وأكثر ديمقراطية فعلا. كما أصبحت الحكومة المركزية أكثر تمثيلا وإن كانت أقل سرعة وكفاءة. واستعد الحكام المستعمرون للرحيل ولم يعد يوجد وقت آخر للتجارب السياسية.

ولذلك ازداد استخدام النماذج الغربية لتطوير النظم السياسية. وأشرف المتحدثون البريطانيون فى أفريقيا البريطانية كلها على المداولات البرلمانية فى القاعات البرلمانية المستطيلة المشابهة لمبنى البرلمان البريطانى فى وستمستر وهم يرتدون الباروكات التقليدية وحمالات الركبة، وكان النواب يجلسون بحيث تواجه "الحكومة" و"المعارضة" كل منهما الآخر. وجلست المجالس المنتخبة فى أفريقيا الفرنسية كلها في قاعات نصف دائرية على النموذج الباريسى.

وحيث يتداخل "اليسار" و"اليمين" أثناء الجلوس دون وجود فاصل بينهما. وتعتبر تلك "النظم" نظم أوروبية قديمة تم استيرادها بسرعة من أوروبا لتلائم روح القومية الأفريقية الجديدة. ولكن أثبتت الأيام فشلها، فلقد غيرها الأفريقيون تماما بعد حصولهم على استقلالهم التام وسيطرتهم الكاملة على شئونهم الخاصة، ولكنها كانت تمثل إطارا لعملية الانتقال من التبعية إلى الاستقلال تماما مثل مرحلة الدساتير المتعددة الأعراق التى سبقتها.

# الفصل السابع عشر

## الطريق إلى الاستقلال (١) شمال وشمال شرق أفريقيا

نمت الحركة الوطنية فى شمال أفريقيا الإسلامية بطريقة أسرع بكثير من أفريقيا جنوب الصحراء مثلما رأينا فى الفصل الرابع عشر وحصلت معه على استقلالها الذاتى فعلا عام ١٩٢٢، ولكن انقضت أربعون عاما أخرى لكى تتحرر معظم القارة تقريبا من الاستعمار الغربى برحيل الفرنسيين عن الجزائر عام ١٩٦٢. وكانت كل غرب أفريقيا ومعظم شرقها قد اسقلتا قبل ذلك، ولذلك حدث تحرير شمال أفريقيا من الاستعمار بشكل أطول بكثير، وعلى مراحل متعددة مختلفة تماما عن الجنوب. وكانت أحوالها مختلفة ونمت دوافعها بطريقة منفصلة بالرغم من ارتباطها فى مراحلها الأخيرة ببقية حركات التحرير الأفريقية. كما اتخذت بلاد شرق أفريقيا طرقها الخاصة إلى الاستقلال وتشابهت مع تلك الموجودة فى الشمال وليس فى الجنوب.

### مصر والسودان

تعتبر مصر بالتأكيد أهم بلاد شمال أفريقيا. وبالرغم من وجود حامية عسكرية بريطانية فى منطقة القناة طبقا لنصوص معاهدة ١٩٣٦ واحتلال البلاد كلها أثناء الحرب العالمية الثانية فإن ذلك قد انتهى عام ١٩٤٦. وعادت مصر تتمتع باستقلالها السياسى تماما مثل فترة ما قبل الحرب. وكانت من أكثر بلاد شمال أفريقيا سكانا والعاصمة الثقافية للعالم العربى. وبلغت أعداد الطلبة فى

الجامعتين فى القاهرة ٢٠,٠٠٠ طالب وطالبة. والتقى هناك الطلبة العرب القادمون من المغرب الكبير مع إخوانهم القادمين من ليبيا والسودان، وكونوا أنواع الاتحادات كتلك التى يقيمها باقى الطلبة الأفريقيين من المستعمرات البريطانية والفرنسية فى لندن وباريس. ولكن شعر طلبة أفريقيا جنوب الصحراء بالغربة فى أوروبا وإحساسهم أنهم أجانب فى عواصم الدول المستعمرة. واختلف الأمر تماما بالنسبة لطلبة شمال أفريقيا الدارسين فى مصر إذ شعروا بالألفة وأنهم يعيشون بين إخوانهم وأشقائهم. ولذلك أصبحت مصر قبلة للوطنيين من شمال أفريقيا ذوى الاتجاهات الإسلامية وملجأ وملاذا ومهدا لتحضير الثورة.

ولكن تميزت مصر بانعدام العدالة الاجتماعية عام ١٩٤٦ إذ ازدادت التناقضات الاقتصادية بصورة كبيرة. وتظهر مصر على أنها بلاد واسعة على الخريطة ولكن الحقيقة أن كل سكانها تقريبا البالغ عددهم ٢٠ مليونا آنذاك يعيشون فى وادى النيل ومنطقة قناة السويس فقط. ولذلك كانت الكثافة السكانية فى تلك المناطق من أعلاها فى العالم إذ بلغت فى المنطقة الزراعة ٢٦٥٠ نسمة لكل ميل مربع. كما أصبحت القاهرة أكبر مدينة فى أفريقيا كلها وبلغ عدد سكانها أكثر من ٢ مليون نسمة آنذاك وزاد سكان مدينة الإسكندرية عن مليون نسمة كما بلغ سكان العديد من المدن الأخرى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة ولكن كان أكثر من ٨٠% من المصريين من سكان الريف وأكثرهم من الفلاحين الفقراء الذين يزدادون فقرا ويعانون من سوء التغذية نظرا لصغر مساحة أراضيهم التى تزداد صغرا بتقسيمها عبر الأجيال. وبلغت مساحة أراضى معظم الفلاحين الذين ظلت أرضهم ملكهم أقل من فدان فى الأرض أو بضعة قراريط. وسدد الباقون إيجارهم إلى الملاك الصغار الذين لم تختلف أحوالهم عنهم كثيرا. وكان السبب أن كبار الباشوات قد امتلكوا أكثر من ثلث أراضى مصر الزراعية.

وكان العديد منهم من أحفاد المماليك والشراكسة من العصر العثمانى أو من عائلة محمد على الكبير وأعوانه. واحتكرت طبقة غير مصرية معظم تجارة

مصر، إذ كان العديد منها فى أيدى اليونانيين الذين استوطن أجدادهم مصر منذ قرون عديدة. وامتلكت الشركات الأجنبية فى غرب أوروبا أو المشرق العربي معظم الصناعة والخدمات. وتولى الملك فاروق آنذاك مقاليد الحكم وهو الحفيد الأكبر لمحمد على الكبير ولكنه عاش حياة المجون والاستهتار. ولذلك وجدت آنذاك كل العوامل الكامنة المؤيدة للثورة.

ولذلك كان من المتوقع أن يقوم الحكام التقليديون فى مثل هذا المجتمع بتحويل أنظار الاستياء الشعبى إلى القضايا الخارجية. فلقد انضموا مع باقى الدول العربية الأخرى عام ١٩٤٤ لإنشاء الجامعة العربية والتى كانت أول وأكبر اهتماماتها منع قيام دولة يهودية فى فلسطين حينما أعلنت بريطانيا عن نواياها فى إنهاء انتدابها على فلسطين عام ١٩٤٧. وقررت الأمم المتحدة فى الوقت نفسه القيام بتقسيم ذلك القطر بين إسرائيل والأردن. ولكن توجهت جيوش الجامعة العربية للحرب ضد إسرائيل عام ١٩٤٨ ولكن هزمتها دولة لم تبلغ من العمر إلا عاما واحدا فقط. وشعر المصريون بالذات بالإهانة التى وجهت لهم والتى نشأت أساسا من فساد وعدم كفاءة الملكية والسياسيين. وفشل السياسيون فى محاولاتهم ضد إسرائيل ولكنهم استطاعوا بعد ذلك توجيه الغضب الشعبى ضد القوات البريطانية المرابطة فى قناة السويس والسودان. ولذلك توجهت جماعات مسلمة مصرية لمهاجمة القوات والمنشآت البريطانية مما يعتبر انتهاكا لبنود معاهدة عام ١٩٣٦ ثم أعلنت الحكومة المصرية إلغاء تلك المعاهدة من جانب واحد، وأدت الهجمات البريطانية المضادة للأعمال الفدائية المصرية إلى تنامى الشعور المعادى للأجانب ولغليان الغضب الشعبى فى القاهرة مما أدى إلى تدمير الممتلكات البريطانية والأجنبية فى حريق القاهرة الشهير. ثم تولت مجموعة من صغار الضباط السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة البكباشى جمال عبد الناصر. ولكنهم نصبوا رجلا أكبر سنا وهو اللواء محمد نجيب ليكون الواجهة الرسمية لمجلس قيادة الثورة الذى سرعان ما قضى على الملكية والبرلمان.

وأدى تدهور العلاقات المصرية البريطانية فى عام ١٩٥١ فصاعدا إلى الرغبة فى منح السودان استقلالها بسرعة، وفعلت بريطانيا ذلك لكى لا يتحالف الوطنيون السودانيون مع إخوانهم فى مصر. ورأى البريطانيون أن السودان الصديق أفضل وسيلة لمواجهة مصر المعادية. ولكن فكر الحكام المصريون الجدد بالطريقة نفسها وهذا من عجائب الأمور. وكان نجيب وناصر قد خدما قبل ذلك فى السودان، وعرفا قوة الشعور الوطنى السودانى وفهما تماما أن السودان المستقل الصديق أفضل من كيان تابع معاد لمصر. ولذلك قبلت القيادة المصرية الجديدة المقترحات البريطانية المقدمة عام ١٩٥٢ لعقد انتخابات حرة فى السودان بموجب دستور يمنح السيادة الذاتية لمدة ثلاثة أعوام قبل تقرير المصير والمفاضلة لصالح الاستقلال التام أو الوحدة مع مصر. وصوت السودانيون لصالح الاستقلال عام ١٩٥٦، وأصبحت السودان جمهورية مستقلة خارج الكومنولث.

ولكن أزاح ناصر اللواء نجيب عن السلطة عام ١٩٥٤. وساءت علاقة مصر مع الدول الغربية بطريقة متزايدة. وتحالف ناصر مع جميع الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال فى باقى أفريقيا، ثم حضر مؤتمر دول عدم الانحياز عام ١٩٥٥ فى باندونج فى إندونيسيا والذى أصدر بيانه الشهير المعادى للاستعمار فى جميع صوره كما سبق القول فى الفصل السادس عشر، وكان ناصر أول الزعماء الأفريقيين الذين يطبقون السياسات الاشتراكية الراديكالية فى بلاده وحدد مساحة الأرض الزراعية كملكية فردية مما مكنه من إعادة توزيع الضياع الواسعة للباشوات السابقين على الفلاحين البؤساء. واستطاع فى مجال السياسة الخارجية أن يخلص مصر من آخر مظاهر السيطرة الأوروبية. فلقد قبلت بريطانيا سحب قواتها من منطقة القناة وتركتها لإدارة الشركة الفرنسية- البريطانية التى قامت بحفرها، ثم اتجه ناصر إلى زيادة رقعة الأرض الزراعية فى مصر وذلك بإنشاء سد ضخم على النيل عند أسوان. وكان سيتم تمويل البناء من أموال المعونة الأمريكية، غير أن أمريكا غضبت من سياسات ناصر "غير المنحازة" وسحبت

عرضها لتقديم المساعدة المالية عام ١٩٥٦. ورد ناصر بتأميم قناة السويس وأعلن أنه سيبنى السد بعائداتها.

وغضبت حكومتا بريطانيا وفرنسا للغاية من أعمال ناصر العدائية، وقررتا توجيه ضربة قاضية له. ولكنهما لم يلتفتا أبدا إلى ردود الفعل العالمية الناتجة عن تصرفيهما، بل ولم يتشاورا حتى مع حليفتهما وربيبتهما الرئيسية وهى الولايات المتحدة الأمريكية ولذلك خططا مؤامرة تقوم إسرائيل بمقتضاها بالهجوم على مصر لكى تتدخل بريطانيا وفرنسا للفصل بينهما عند قناة السويس بحجة ضمان سلامتها للتجارة العالمية، ولذلك نزلت القوات البريطانية والفرنسية تحت تلك الذريعة فى بور سعيد فى شهر أكتوبر ١٩٥٦ وأعادتا احتلال منطقة القناة واعتقدتا أن النصر العسكرى السريع كفيل بالقضاء على ناصر وانهياره. ولكن أدان العالم كله تلك المؤامرة. أما فى الأمم المتحدة فلقد وقفت معظم الدول الصغيرة مع الاتحاد السوفيتى وطالبت بالانسحاب.

كما أبلغ الرئيس الأمريكى أيزنهاور كلا من بريطانيا وفرنسا أنه لن يساعد عمليتهما المنهارة بعد ذلك إطلاقا. واضطرت الدولتان إلى سحب قواتهما وتعرضتا لإهانة عامة دائمة. واضطر رئيس الوزراء البريطانى السير أنطونى أيدن إلى تقديم استقالته متعللا بسوء حالته الصحية، كما عانى الشعب البريطانى أيضا نظرا للقيود التى فرضت على استهلاك البترول نظرا للأضرار التى سببتها قواته لقناة السويس. وانتصر ناصر انتصارا باهرا، مما أدى إلى زيادة هيبته فى البلاد الأفريقية وفى بلاد الشرق الأوسط الإسلامية كلها. ثم أقامت مصر وحدة سياسية مع سوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨. ولكن لم تدم تلك الوحدة كثيرا؛ إذ انهارت عام ١٩٦١ بعد ثلاثة أعوام فقط، وعادت مصر لاسمها القديم مؤقتا، وأدت أزمة السويس إلى حصول الاتحاد السوفيتى على موطئ قدم فى منطقة بالغة الأهمية من الناحية الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية، وذلك بعد أن قدم مساعدته المالية لبناء السد العالى وتسليمه للجيش المصرى، ولذلك حصل

الاتحاد السوفيتي على موطئ قدم في منطقة استراتيجية بل وذات أهمية اقتصادية وسياسية، وفي القاهرة أشار المثقفون المصريون إلى السفير السوفيتي في القاهرة وأطلقوا عليه اسم كرومرسكي.

وبدأ السودان بداية صعبة لحياته الجديدة وذلك بعد حصوله على استقلاله من بريطانيا ومصر في عام أزمة السويس. فلقد انقسم السكان المسلمون العرب في الشمال والذين يسيطرون على البلاد سياسيا واقتصاديا إلى عدد من الجماعات الدينية القبلية والمصالح الخاصة، ولم يتفق ذلك بالمرة مع النظام البرلماني المستمد من البرلمانية البريطانية والذي طبقه البريطانيون بسرعة قبل جلائهم عن البلاد ولذلك تنفس السودانيون الصعداء حينما تولى الجيش السلطة عام ١٩٥٨ بقيادة اللواء عبود من السياسيين. ولكن لم يستطع الحكم العسكري أن يحل الاختلاف الجذري بين شمال وجنوب السودان. وتعود جذور تلك المشكلة إلى عصر صيد العبيد والعاج في القرن التاسع عشر حينما قام المصريون والسودانيون الشماليون المسلمون بالإغارة على الشعوب السوداء الوثنية في الجنوب، ولم يفعل الحكم الثنائي الذي تسيطر عليه بريطانيا شيئا لعلاج هذا الأمر، إذ أدارت بريطانيا الشمال والجنوب كوحدات منفصلة وركزت جهودها على التنمية الاقتصادية في الشمال بالذات. ولم تغير تلك السياسة إلا عام ١٩٤٩ وهو تاريخ متأخر للغاية، إذ بدأ السودان رحلته السريعة نحو الاستقلال عام ١٩٥٣، وتم إنشاء أول حزب سياسي للجنوب في ذلك العام فقط، كما وجد خوف كبير أن يسيطر الشمال على مقاليد الحكم، وتحققت تلك المخاوف فعلا عام ١٩٥٤ عند تعيين كبار الموظفين السودانيين ليحلوا محل البريطانيين المغادرين، فمن بين ٨٠٠ وظيفة مدنية كبرى لم يحصل الجنوبيون إلا على ستة وظائف فقط. وحدث أول صراع مسلح في منتصف عام ١٩٥٥ قبل بضعة أشهر من الاستقلال حينما قررت الحكومة نقل جنود من الشمال إلى الجنوب والعكس، ولكن ثارت القوات الجنوبية في توريت وأماكن أخرى في المديرية الاستوائية وتم القضاء على العصيان بسرعة ولكن

بسفك دماء كثيرة وهرب العديد من الجنود الغاضبين إلى الأحراش وبـدأوا شـن هجمات متقطعة ضد المراكز والمنشآت الحكومية.

وترددت حكومة الخرطوم بين محاولة إرضـاء الجنـوبيين وفـرض إدارة عربية إسلامية عليهم. وحدث إضراب طويل لمـدارس البعثـات التبشـيرية فـى الجنوب عام ١٩٦٢، ولذلك تم طرد كل المبشرين الأجانب خلال العامين التـاليين. وحلت المدارس القرآنية محل المدارس المسيحية، ورفض المسئولون الحكوميـون فى المناطق الجنوبية الاعتراف بأى أسماء عدا الأسماء الإسلامية، ولذلك تطورت المعارضة ضد الحكم الشمالى تدريجيا وأصبحت أكثر تنظيما وتم تكـوين جـيش تحرير الجنوب عام ١٩٦٣ والذى عرف فيما بعد باسـم أنيانيـا (سـم الثعبـان) وواجهت الحكومة الثورة العامة آنذاك بإرسال قوات عسكرية إضافية ولكن كـان من المستحيل القضاء على أعمال رجال العصابات نظرا لعداء الناس وطبيعة البلاد ذاتها، ولذلك احتفظت الحكومة ببعض المدن فقط والطرق التى تربط بينهـا، أمـا الثوار فلقد سيطروا على معظم الريف، ولذلك كانت تلـك الحـرب أول وأطـول الحروب فى تاريخ أفريقيا المستقلة.

## دول منطقة القرن الأفريقى

كونت بلاد شرق أفريقيا الثلاث أثيوبيا وأريتريا والصـومال لمـدة خمسـة أعوام فقط من ١٩٣٦ إلى ١٩٤١ أفريقيا الشرقية الإيطالية ووحدت تحـت حكـم موحد. واستولى الإيطاليون لفترة بسيطة فى بداية الحرب العالميـة الثانيـة علـى الصومال البريطانى، ولم تستول إيطاليا على الصومال الفرسى (جيبوتى الحاليـة) لأن حاكمها كان مواليا لحكومة فيشى الفرنسية الموالية للألمان حلفاء إيطاليا فـى الحرب، ولكن استولى البريطانيون على الإمبراطورية الإيطالية كلها عام ١٩٤١- ١٩٤٢ وأقاموا إدارات عسكرية بريطانية فى كل المناطق باستثناء أثيوبيا التى تـم

الاعتراف بها كدولة مستقلة تحت حكم الإمبراطور هيلاسلاسى. وكان الإمبراطور قد عاد تحت حماية قوة عسكرية بريطانية من السودان للاشتراك فى حرب تحرير بلاده. ولكن لم يكن الأمر مجرد استرداد الحكم. فلقد فعل الإيطاليون الكثير لتحديث أثيوبيا تحت حكمهم القصير، ولذلك كانت الإمبراطورية الجديدة التى ورثها الإمبراطور بها على سبيل المثال شبكة من الطرق الهندسية ونظاما من المواصلات السلكية واللاسلكية الذى يربط العاصمة بمراكز الولايات، وكانت الإمبراطورية القديمة من الناحية القانونية الدولية كيانا عتيقا من العصر السابق للاستعمار، أما الإمبراطورية الجديدة فتم تحديثها واعترف بها المجتمع الدولى كله، ورأى الكثيرون أن أثيوبيا الجديدة، سواء داخل أو خارج أفريقيا، رائد جيد لأفريقيا الجديدة لكونها دولة كبيرة المساحة ولديها العدد الكافى من النظم الحديثة وتحكمها أرستقراطية تقليدية ذات الجذور العميقة الممتدة فى الماضى الأفريقى.

ودارت مناقشات عميقة مكثفة فى الأمم المتحدة بالنسبة لنوع الحكومات المقبلة فى شمال شرق أفريقيا بعد الحرب، وطالب هيلاس يلاسى بالاستيلاء على معظم أراضى الإمبراطورية الإيطالية السابقة باتحاد كل من أريتريا والصومال مع أثيوبيا، وقدم أسبابا عديدة لهذا الاقتراح ومنها بالذات الاهتمام الأثيوبى الشديد للحصول على منفذ على البحر الأحمر، ولكن يمثل ذلك أيضا استمرارا للسياسة التوسعية الأمهرية فى مفاهيم معاصرة والتى ورثها هيلاس يلاس عن سلفه الإمبراطور مينليك، وقدم البريطانيون خطة لتوحيد معظم المناطق التى يسكنها الصوماليون على أن تكون فى البداية تحت الوصاية البريطانية، ولكن أصبح الصومال الإيطالى السابق عام ١٩٥٠ بلادا تحت وصاية الأمم المتحدة على أن تقوم إيطاليا بإدارتها لمدة عشرة أعوام، بينما استمر البريطانيون فى حكم شمال الصومال كمستعمرة، وقدمت ثلاث خطط مختلفة بالنسبة لأريتريا التى بلغ سكانها آنذاك المليون من السكان، والمقسمون بنسبة متفارقة بين التجراتيين سكان الجبال وهم أثيوبيون مسيحيون، وبين العفر والدناكل سكان السهول الساحلية المسلمين.

ورغبت الدول الغربية فى استقلال أريتريا، بينما رغب البريطانيون فى تقسيمها بين أثيوبيا والسودان، أما الأثيوبيون فرغبوا فى الاستيلاء عليها كلها، وانتصرت وجهة النظر الأثيوبية فى نهاية الأمر عام ١٩٥٢، ولكن منح الدستور الاتحادى الأريتريين قدرا كبيرا من السيادة على شئونهم الداخلية، ولكن صدر قرار إمبراطورى أثيوبى بعد عشرة أعوام وضم أريتريا تماما مما أدى إلى إثارة غضب الأريتريين، ولذلك نشأت حركتان ثوريتان متنافستان فى معارضة أثيوبيا وهما: جبهة التحرير الأرتيرية الإسلامية وجبهة التحرير الشعبى الأريترى، ووصلت لهما المساعدات من الخارج سواء من الدول العربية الراديكالية أو دول المعسكر الشرقى.

وحينما استعاد زمام السلطة فى نهاية الحرب العالمية الثانية حكم الإمبراطور هيلاس يلاسى أثيوبيا تماما مثلما فعل فى العشرينيات والثلاثينيات، وازدادت أعداد الأثيوبيين المثقفين والذين تعلموا تعليما غربيا مما أدى إلى ظهور الأنماط البيرقراطية الحديثة والتى أنشئت بمساعدة المستشارين الأجانب القادمين من عدة دول متطورة. ولكن وجد أيضا نظام حكم أسرى داخلى ويمتد من الإمبراطور إلى عائلته والزوجات والذين تولوا إدارة كل المناطق والمهام المهمة، وكانوا يبلغون تقاريرهم إلى الإمبراطور مباشرة وليس إلى الوزارات المختلفة أبدا. ولكن تم تحديث بعض أوجه الاقتصاد والإدارة الأثيوبيين، كما وصلت كميات كبيرة من المساعدات من الدول الغربية. وأصبحت الولايات المتحدة أول الدول المقدمة للمساعدة والمعدات العسكرية من عام ١٩٥٣، وكان عقد الوصاية الإيطالية فى الصومال كريما سخيا ومتطورا للغاية بصفة عامة، فلقد تم تنفيذ برنامج تعليم واسع المجال وقام بتدريب المديرين والأفراد الفنيين، وافتتح معهد الدراسات القانونية والاقتصادية عام ١٩٥٤ تحت إشراف جامعة روما والذى تطور فيما بعد وأصبح جامعة مقديشيو، وشجع الإيطاليون الاشتراك المحلى فى الحكومات المحلية، ولذلك تولى الصوماليون معظم الوظائف الإدارية الكبرى بحلول منتصف

عقد الخمسينيات، ولكن حدث ذلك بفضل أن الصوماليين كلهم يتكلمون لغة واحدة ويشعرون أنهم أمة، مما ساعد تماما على إزالة آثار الاستعمار الإيطالى وبسرعة بالغة، ولكن اضطرت معظم الدول الأفريقية إلى الوصول إلى مفهوم الوحدة الوطنية فى البداية نظرا لوجود بعض الممارسات من أجل التأجيل من القوى الاستعمارية والتى رأت فى ذلك ضرورة قصوى، ولكن حدث العكس تماما بالنسبة للصومال إذ أن الوطنية الصومالية تمتد أكثر كثيرا فى منطقة الوصاية فقط، فلقد شملت أيضا الصومال البريطانى كله حيث كانت الحكومة الاستعمارية أقل نشاطا فى إدارة الوصاية الإيطالية فى التحضير لإنهاء الاستعمار، ولم تفعل شيئا على الأقل لمنع الوحدة المرتقبة للبلدين، ولكن استقل الصومال البريطانى بسرعة وبطريقة غير منظمة قبل خمسة أيام من استقلال الصومال الإيطالى، ثم اجتمعت المجالس التشريعية للبلدين فى أول يوليو ١٩٦٠ فى جلسة مشتركة فى مقديشيو وكونا المجلس الوطنى لجمهورية الصومال المستقلة.

ولكن حدث قبل ذلك بستة أعوام فى عام ١٩٥٤ أن أعادت بريطانيا إلى أثيوبيا منطقة أوجادين، وهو عمل يحيط به الخطر من كل جانب فى المستقبل ويشمل ذلك الهضبة المنخفضة على الجانب الشرقى للجبال الأثيوبية والتى تقدم أراضى رعى مهمة للغاية للصوماليين الرعاة. ورغبت الحكومة الصومالية، بعد الاستقلال في توحيد كل الأراضى الناطقة بالصومالية وان تستعيد السيطرة بالذات على الأوجادين، وأصبح ذلك اهتمامها الأساسى، وعبر العلم الصومالى الجديد عن تلك الرغبة فى الوحدة، حيث تظهر نجمة خماسية تمثل المناطق الخمس للشعب الصومالى المستقل ومنها ثلاثة تحت الحكم الأجنبى وهى أوجادين وجيبوتى وكينيا. ولكن أعلنت الحكومة البريطانية قبل منحها الاستقلال لكينيا عام ١٩٦٣ أن منطقة الحدود الشمالية جزء لا يتجزأ من البلاد بالرغم من اعترافها بالشعور الوطنى للسكان الناطقين بالصومالية هناك.

واهتم البريطانيون تماما بآراء كينياتا والكينيين الآخرين في وحـدة بلادهـم أكثر من تلبيتهم لطلبات الصوماليين، ولذلك قطعت الحكومة الصـومالية علاقاتهـا الدبلوماسية مع بريطانيا وشجعت الثوار الصوماليين من منطقة الحـدود الشـمالية على شن حرب عصابات ضد كينيا والتى استمرت أكثر من أربعة أعوام، ونشبت معارك حدودية أيضا بين الصومال واثيوبيا، بل ووصلت إلى حد المعارك الكبيـرة منذ عام ١٩٦٤ فصاعدا، وكان الاتحاد السوفيتى قد بدأ قبـل ذلـك فـى تسـليح الصومال ولكن ازداد التدخل السوفيتى كثيرا بعد استيلاء الجنرال سياد برى علـى السلطة فى انقلاب عسكرى عام ١٩٦٩، ووصل النفوذ السوفيتى فى الصومال إلى درجة أثرت على كل بلاد منطقة شرق أفريقيا.

## ليبيا والمغرب

تقع بلاد ليبيا الواسعة بين مصر وبلاد المغرب الكبير التى تحكمها فرنسـا وكانت جزءا من الإمبراطورية الأفريقية الإيطالية. وأدت نتائج الحـرب العالميـة الثانية إلى تحديد طريق ليبيا نحو الاستقلال تماما مثلما حدث فى أثيوبيا وأريتريـا والصومال. ودخل البريطانيون أثناء حملاتهم العسكرية فى شمال أفريقيـا عـامى ١٩٤٢ و١٩٤٣ فى اتصالات مع السيد إدريس الزعيم السياسى لحركـة الإخـوان السنوسية والتى نظمت حركة المقاومة البدوية ضد الإيطـاليين فـى عشـرينيات وثلاثينيات القرن العشرين (انظر فيما سبق الفصل الرابع عشر). وأدار إدريس من منفاه فى القاهرة حركة المقاومة البدوية السنوسية فى الصحراء الغربية لمسـاعدة القوات البريطانية فى قتالها ضد الإيطاليين وبالذات لحماية خطـوط المواصـلات المهمة للتموين والإمداد العسكرى عبر الصحراء فى مستعمرة تشاد الفرنسية الحرة ثم عاد إدريس إلى بلاده بتأييد بريطانى تام لتولى مقاليد الحكم بعد طرد الإيطاليين عام ١٩٤٣، ولكن وجدت مشاكل وجب حلها قبل الاعتراف به ملكا علـى ليبيـا

الحرة المستقلة الموحدة فلقد واجه الإيطاليون مشكلة كبرى فى حكم ليبيا ومد سلطتهم فى المدن الساحلية التى يقطنها سكان معظمهم من البربر إلى داخل البلاد حيث يقيم البدو الرعاة العرب.

ولكن واجه إدريس المشكلة بطريقة معاكسة، وهى أن يقبل سكان المدن الأكثر ثقافة وحضارة حكم البدو فى الداخل. وظلت البلاد لذلك تحت إدارة القوات المحتلة بموافقة الأمم المتحدة فحكم البريطانيون المؤيدون لمطالب إدريس بشدة، المنطقتين الشماليتين وهما طرابلس وبرقة. أما الفرنسيون الذين استولوا على منطقة فزان الجنوبية بعد زحف قوات فرنسا الحرة إليها من تشاد فلم يرغبوا فى مغادرتها بسرعة أبدا. وخشوا تأثير السنوسية القوى للغاية على مستعمرتهم فى تشاد التى قد تطلب الوحدة مع فزان نظرا للأعداد الكبيرة من أتباع الطريقة السنوسية هناك. ولذلك أسرعت الأمم المتحدة بالعمل على إنشاء دستور يقبله جميع الأطراف.

ثم أعلن مجلس نيابى يتكون من المناطق الليبية الثلاث إدريس السنوسى ملكا على ليبيا عام ١٩٥١، وحصلت البلاد على استقلالها فى ديسمبر من ذلك العام. ولكنها ظلت ولمدة عقد من الزمان بلادا فقيرة للغاية، واعتمدت تماما على المساعدات الأمريكية والبريطانية والاتفاقيات العسكرية التى عقدها الملك إدريس مع البلاد الغربية، ولكن تغيرت الأوضاع الاقتصادية فجأة تماما عام ١٩٦٥ عند اكتشاف مخزون هائل من البترول فى الصحراء الغربية، وتحولت ليبيا سريعا إلى أغنى دولة فى أفريقيا فيما يتعلق بدخل الفرد ونصيبه من الدخل القومى. ولكن تمهد الطريق آنذاك لظهور العقيد القذافى لتولى مقاليد الحكم كأقوى حاكم عسكرى فى عالم ما بعد الاستقلال.

قسم المغرب الكبير أثناء العصر الاستعمارى إلى ثلاث وحدات: الجزائر التى تم إدارتها كجزء من فرنسا والمحميتان المجاورتان فى مراكش وتونس. ولم

يوجد اختلاف كبير بين حالة الرأى القومى فى البلاد الثلاث فلقد كان معظم سكانها من العرب المسلمين وتطلع زعماؤها إلى القاهرة والجامعة العربية لمساعدتها فـــى صراعها وتأثرت بالاتجاه نحو الاستقلال فى ليبيا والسودان والصومال. ولكن كان الاختلاف بينها إستراتيجيا؛ إذ نبع من اختلاف مفاهيم الموقف الفرنسى. فلقد وضح للجميع أن فرنسا سوف تتخذ إجراءات للتأجيل فى المحميتين ولكنها سوف تحارب إلى النهاية فى الجزائر.

وأصبح السلطان زعيم الحركة الوطنية فى مراكش، ورفض تأييد المطالـــب الفرنسية فى حظر حزب الاستقلال والأحزاب الوطنية الأخـــرى بقـــوة القـــانون. وحاول الفرنسيون باستماتة مواجهة مقاومة حكمهم فى مراكش بالتحالف مع البـــدو الرعاة فى جبال الأطلس المعادين تقليديا للسلاطين، ثم خلعـــوا الســـلطان محمـــد الخامس عن العرش عام ١٩٥٣ وتم نفيه إلى جزيرة كورسيكا فى البداية ثم إلـــى مدغشقر فيما بعد.

وأصبح القائد ثامى الجلاوى سلطانا بدلا منه وجعل ذلك الأمـــر الســـلطان محمد الخامس البطل الوطنى لمراكش ورمزا لآمال الشعب. ونشبت المعارك بعـــد إنشاء جيش التحرير بواسطة الجماعـــات الوطنيـــة. وأضـــطر الفرنســـيون إلـــى الاعتراف بالهزيمة والموافقة على مبدأ استقلال مراكش، وعاد محمد الخامس إلـــى وطنه فى نوفمبر ١٩٥٥ كسلطان لبلاده. وقام وفد نيابى موسع، ويشمل ذلك حزب الاستقلال، بالتفاوض مع الفرنسيين.

واستقلت مركش فى شهر مارس ١٩٥٦ وتم الاتفاق بطريقة مشـــابهة مـــع الحكومة الأسبانية فيما يتعلق بالمنطقة الشمالية ولذلك عادت مراكش مملكة مستقلة موحدة بعد فترة أربعة وأربعين عاما من السيطرة الأوروبية فقط.

وبدأت حكومة السلطان محمد الخامس بعد استقلال مراكش مباشرة بالمطالبة ببعض المناطق المجاورة التى كانت تحت حكم مراكش فـــى مختلـــف العصـــور

السابقة وغزت مراكش المستعمرة الأسبانية فى ريو دى أورو عام ١٩٥٧ والتـى تمتد على مسافة ٦٠٠ ميل على الساحل فى مواجهة جزر الكناريا الإسبانية وصـد الأسبان هذا الهجوم، ولكن لم يمنع ذلك مراكش من المطالبة بأجزاء كبيـرة مـن مستعمرة موريتانيا المجاورة. ولكن تم القضاء على تلك المطالب حينمـا منحـت فرنسا الاستقلال لموريتانيا عام ١٩٦٠ ولكن لم تعترف مراكش بهذا الاستقلال إلى عام ١٩٦٩، وظهرت حركة مقاومة شعبية باسم بوليساريو عام ١٩٧٣ بين الشعب الصحراوى فى ريودى أورو. ولذلك قررت الحكومة الأسبانية عقد استفتاء لتقرير مصير البلاد. وتوجهت مراكش آنذاك إلى الأمم المتحدة ومحكمة العـدل الدوليـة لعرض قضيتها، وأكدت المحكمة حقوق مراكش التاريخية، ولكنها أيدت فى الوقت نفسه حق الشعب الصحراوى فى تقرير مصيره. ولكن قام السلطان حسـن الثـانى خليفة السلطان محمد الخامس، بقيادة المسيرة الخضراء التى قـام بهـا ٣٥٠,٠٠٠ مغربى مدنى لتحرير ريو دى أورو باسم الإسلام عام ١٩٧٥. وتخلت إسبانيا عـن ذلك الصراع غير المجزى فى الأيام الأخيرة لحكم الجنرال فرانكو وغادرت تلـك المنطقة التى تم تقسيمها بين مراكش وموريتانيا. وتم تجاهل حركة بوليساريو فـى ذلك الاتفاق وهرب الكثيرون من الشعب الصحراوى إلـى الجزائـر. واسـتمرت بوليساريو فى حربها وأنشأت بمساعدة الجزائر حكومة لدولـة باسـم الجمهوريـة الديمقراطية العربية الصحراوية ونجحت فى طرد الموريتانيين من الجزء الذى آل إليهم عام ١٩٧٩. ولكن استمر القتال بين بوليساريو والمغرب متقطعا وبدون نتائج طوال عقد ثمانينيات القرن العشرين، وسيطرت بوليساريو على معظم الصـحراء الداخلية والمغرب على المدن الداخلية ومخزون الفوسفات فى المنطقـة السـاحلية الشمالية، ونظمت حركة البوليساريو معسكرات اللاجئين التابعة لها بكفـاءة تامـة وأدخلت نظم التعليم إلى البنين والبنات على السواء، ولذلك حصـلت الجمهوريـة الديمقراطية العربية الصحراوية على أعلى معدل تعليمى فى المنطقة الخاضعة لها بالنسبة لأفريقيا كلها.

ولكن تحولت المغامرة التى قام بها السلطان محمد الثانى لأغراض محليـة وأسرية إلى قضية وطنية مغربية لا يمكن التهاون بها على الإطلاق. ولذلك أرسلت المغرب المعونات المادية والمالية إلى منطقة الصحراء الغربية التابعة لها من أجل تطويرها وتنميتها، كما ازداد إدماج اقتصاد وإدارة تلك المنطقــة بمثيلاتهــا فــى المغرب ومولت الجزائر وليبيا والاتحاد الســوفيتى جبهـــة البوليســاريو بالســلاح والعتاد، وكانت المغرب ذات أهمية إستراتيجية كبرى للولايات المتحدة فى سياسات الحرب الباردة، وأيدت معظم الحكومات العربية المغرب والسلطان محمد الثــانى، ورفض الجانبان خطة لإجراء استفتاء فى الصحراء الغربية بنــاء علــى اقتــراح منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٨١، ولكن تضــاءلت الأهميــة الدوليــة لقضــية الصحراء الغربية بانتهاء الحرب الباردة مما مكن الأمم المتحدة عــام ١٩٩٠ مــن التفاوض على إطلاق النار فى انتظار إجراء استفتاء.

وظهر فى البداية أن فرنسا سوف تتبع سياسة أكثر مرونـــة تجــاه الحركــة الوطنية التونسية النامية أكثر مما فعلت فى المغرب، فلقد عــاد الحبيــب بورقيبــة مؤسس حزب الدستور الجديد (فيما سبق فصل ١٤) إلى بلاده بعد أربعة أعوام من منفاه الاختيارى. وذكر فى العام التالى: "إذا تم قبول مبدأ الاستقلال فلن تكون هناك مشاكل أخرى". ولكن لم يكن هذا التفاؤل فى محلــه. فلقــد قــاوم المســتوطنون الفرنسيون والإيطاليون فكرة الاستقلال التونسى بشدة. كما عارض أيضــا الحــاكم العام للجزائر الذى رأى فى تونس المستقلة تهديدا للجزائر الفرنسية وخشــى مــن تأثيرها. ولذلك تم القبض على بورقيبة عام ١٩٥٢، ونشبت الاضطرابات العنيفــة والتى لم يستطع الفرنسيون مقاومتها والسيطرة عليها، كما دخلت فرنسا آنذاك فــى مرحلة الحرب الشاملة ضد الوطنيين فى الجزائر ولم يكــن لهــا الإرادة أو القــوة العسكرية الكافية للقضاء على ثورة خطيرة فى تونس، ولذلك اختارت فرنسا سياسة التفاهم مع الحركة الوطنية، وأطلقت سراح بورقيبة عام ١٩٥٥ واستقلت تونس بعد ذلك بعام فى ١٩٥٦ تماما مثلما حدث فى المغرب، ولكن تدهورت العلاقات ثانيــة

مع فرنسا عام ١٩٦١ فى عصر مفاوضات إيفيان بين فرنسا والوطنيين الجزائريين. ولذلك طالب بورقيبة بجلاء القوات الفرنسية من القاعدة العسكرية الفرنسية فى ببنزرت، ونشبت المناوشات العنيفة واستمرت إلى قبول الفرنسيين الجلاء فى شهر يونيه ١٩٦٢ ولكن غادر معظم الأوروبيين فى تونس البلاد فى ذلك الوقت. وعادت العلاقات إلى مجراها بين تونس وفرنسا بعد انتهاء أزمة بنزرت ولذلك وصلت الاستثمارات الفرنسية إليها من أجل تطوير مصادرها الزراعية العديدة والمتنوعة، وضمن ذلك قدرا من الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى فى الدولة المستقلة الجديدة.

ونشبت بواكير العنف الوطنى فى الجزائر بعد أيام قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية حينما أطلقت الشرطة الفرنسية النيران على موكب فى سطيف، وهاجم المسلمون الثائرون المستوطنين الفرنسيين ورد الفرنسيون بفرض عقوبات شديدة وصارمة. وقتل أكثر من ألف مسلم ومائة أوروبى فى تلك الأحداث، ولكن قدمت تلك الحادثة الأليمة الدامية أول مفاهيم القومية الجزائرية للعديد من الجزائريين وكتب فرحات عباس عام ١٩٤٦ والذى كان يشك فى وجود أمة جزائرية عام ١٩٣٤ (فيما سبق الفصل الرابع عشر):

"إن الشخصية الجزائرية التى لم أستطع أن أجدها بين المسلمين عام ١٩٣٤ قد وجدتها هنا اليوم. وإن التغيير الذى حدث واضح الآن للعيان ولا يمكن أبدا تجاهله". ولكن تجاهل الفرنسيون حركة القومية الجزائرية المتنامية. وكانت فرنسا تحارب آنذاك ولمدة ثمانية أعوام متتالية من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ وتخسر حربا قاسية ضارية لإعادة سيطرتها على أغنى مستعمرة لديها وأكثرها سكانا وهى مستعمرة الهند الصينية الفرنسية، ولكن انتهت تلك الحرب بكارثة عسكرية فرنسية فى ديان بيان فو، ولذلك شعرت فرنسا أنها تعرضت لإهانة قومية ذات أبعاد مأساوية، ولذلك أثرت الحرب فى الهند الصينية على السياسة الفرنسية فى الأماكن الأخرى، فمن جهة وافقت فرنسا على الإسراع فى إزالة الاستعمار فى أفريقيا

السوداء والمحميات فى شمال أفريقيا. ولكنها تمسكت تماما من جهة أخرى بالبقاء فى الجزائر حيث يقيم بها مليون من المهاجرين الفرنسيين وسلالاتهم والمسمون عادة بالأقدام السوداء والذين لديهم علاقات قوية ووطيدة مع وطنهم الأب، ولذلك لم تستطيع أى حكومة فرنسية فى المجموعة الطويلة من الحكومات الفرنسية الضعيفة المتعاقبة الواحدة تلو الأخرى بسرعة بالغة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٨ أن تواجه فقدان شعبيتها بالتخلى عن منطقة تعتبر قانونا جزءا من فرنسا ذاتها، ولكن تأثرت الثورة الإسلامية فى الجزائر بالأحداث فى المغرب وتونس. وكانت الحقيقة الفعلية أن الفرنسيين قد انسحبوا من تلك المحميات فقط لتركيز جهودهم على الحرب الجزائرية.

وكون الوطنيون الجزائريون منظمة تسمى جبهة التحرير الشعبية الجزائرية عام ١٩٥٤ أو باختصار الـFLN بالفرنسية. ونشبت الثورة بعد ذلك بثلاثة أسابيع فقط فى يوم الأول من نوفمبر ١٩٥٤ وهو يوم عيد جميع القديسين، واختار الجزائريون هذا اليوم تحديدا لأهميته الشديدة للأقدام السوداء الكاثوليكية، واستمرت تلك الحرب المريرة ثمانية أعوام فى إطار حرب عصابات كلاسيكية ضارية. ولم يزد عدد المحاربين الجزائريين عن ٤٠,٠٠٠ فقط ولكن أيدهم السكان الجزائريون وقدموا لهم العون والمؤن والإمدادات. وأدت هجماتهم المفاجئة على مزارع ومنشآت "الأقدام السوداء" إلى استنزاف مجهودات وموارد الجيش الفرنسى والذى وصلت أعداده فى أوج الثورة وذروتها إلى ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، ومرت أوقات عصيبة كاد يهزم بها الجزائريون ولكنهم استطاعوا دائما إعادة جمع شملهم فى الملاذ الآمن فى تونس والعودة إلى القتال ثانية. وكان الانتصار المصرى الكبير فى أزمة السويس حافزا قويا لهم وساعدهم على الاحتفاظ بخطوط تموينهم مفتوحة لاستلام الأسلحة الروسية والصينية، ومهدت أزمة السويس أيضا الطريق لعودة الجنرال دى جول إلى السياسة الفرنسية، فلقد احتاج الشعب الفرنسى آنذاك إلى زعيم وطنى قوى لإنقاذه من المغامرات المأسوية فى الخارج، كما استعد

الفرنسيون أخيرا لزيادة سلطات رئيس الجمهورية. ووعد الجنـرال أثنـاء حملتـه الانتخابية بالنصر فى الجزائر وقام بزيارتها وكان ينهى كل خطاباته الجماهيريـة بعبارة "تحيا الجزائر الفرنسية" ولكنه بدأ بعد استيلائه على مقاليد الحكم فى اتبـاع سياسة الخرشوف ويعنى ذلك أن يتخلص من الواحـد بعـد الآخـر مثـل أوراق الخرشوف عند اقتلاعها الواحدة بعد الأخرى مـن التشـكيلة القويـة للجنـرالات اليمينيين عتاة المستوطنين وكبار موظفى الإدارة الرجعيين الذين عارضـوا كـل محاولات إجراء مفاوضات سلام لكل أسلافه، ورد هؤلاء الفرنسيون المتطرفـون بإنشاء منظمة معادية لديجول تسمى المنظمة السرية المسلحة والتى قامت بمجموعة كبيرة من الأعمال الإرهابية فى الجزائر وفرنسا من عام ١٩٦١ فصاعدا.

ولكن تم الاتفاق على وقف إطلاق النار مع جبهة التحرير الجزائريـة فـى إيفيان عام ١٩٦٢، ولكن تم استبدال كبار الزعماء الجزائريين مثل فرحات عبـاس آنذاك وحل محلها جيل آخر أكثر شبابا وراديكالية.

ولم يتم حل المشكلة الأساسية للاستقلال الكامل فى فرنسا إلا فى آخر دقيقة ولكن وافقت عليها فرنسا فى النهاية. وقتل فى الحرب أكثر من ١٨,٠٠٠ جنـدى فرنسى و ١٠,٠٠٠ من المستوطنين الفرنسيين "الأقدام السـوداء" وحـوالى مليـون جزائرى. وكانت لهذه الحرب أبعاد مأساوية، وكانت العلاقة بين فرنسا والجزائـر وبين الجزائريين والفرنسيين دائما قوية بالرغم من الظلم والكراهية الناتجة عنـه، ولذلك تشهابت الثورة الجزائرية حينما نشبت بنزاع شديد بين أعضاء مـن نفـس العائلة، ولذلك سرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها بعد الاسـتقلال فـى بعـض المجالات على الأقل.

وتولى أحمد بن بللا مقاليد الحكم فى الجزائر المستقلة، وأصبح أول رئـيس للجمهورية الجزائرية المستقلة وذلك بعد فترة قصيرة من الحرب الأهليـة والتـى غادر خلالها معظم المليون فرنسى البلاد، وكان زعيما شعبيا ولكن تميـز أيضـا بالتهور وفضل الحلول السلطوية غير العملية لحل مشاكل بلاده.

ولم تستمر جبهة التحرير الجزائرية بعد انتهاء الحرب. وتركزت السلطة السياسية فى الجزائر حول الزعماء المدنيين الأقوياء أو جماعات النفوذ والسطوة العسكرية، واحتلت الجزائر مركزا مرموقا تحت، عامة بلا فى حركة التحرير الأفريقية وشئون منظمة الوحدة الأفريقية وكانت من الدول الأفريقية القليلة التى حصلت على استقلالها بقوة السلاح، ولذلك كان من المفترض أنها ستطبق سياسات اشتراكية صارمة لمواجهة المشاكل العديدة التى خلفتها الحرب الطويلة مع فرنسا. وعارض بن بللا بشدة كل مظاهر الاستعمار الجديدة كما أصبح معاديا بالذات لحكومات الأقلية الأوروبية فى جنوب أفريقيا. ولذلك تحالف تحالفا وثيقا مع روسيا وحلفائها الشيوعيين وبالذات كوبا. واحتفظت الجزائر بعلاقات وثيقة مع فرنسا بالرغم من الذكريات الأليمة للحرب القريبة. وتم استخدام الآلاف من الفنيين الفرنسيين للعمل فى إدارة وتشغيل آبار النفط فى الصحراء الجزائرية، كما عمل الآلاف من الشباب الفرنسيين لفترات قصيرة كمعلمين فى المدارس الجزائرية بدلا من أداء خدمتهم العسكرية فى فرنسا.

ولكن تدهور موقف بن بللا داخل الجزائر بالرغم من هيبته الدولية الكبيرة، فلقد تركت الحرب الأهلية التالية لحرب الاستقلال الجراح العميقة فى عدة أنحاء من البلاد وبالذات بين بربر منطقة القبائل المحبين للحرية والذين سحق بن بيلا محاولات معارضتهم بشدة، وغضب الكثير من الجزائريين من وسائله السلطوية الدكتاتورية.

# الفصل الثامن عشر

## الطريق إلى الاستقلال (٢):
## أفريقيا من الصحراء إلى الزمبيزى

تعود جذور الوطنية السوداء إلى أعماق التاريخ فى اتجاهات متعددة. وكان أحد الدوافع القوية نمو المفهوم العرقى لسلالة العبيد الأفريقيين فى العالم الجديد والتى نادى بها مفكرون سياسيون مثل ماركوس جارفى بشعاره أفريقيا للأفريقيين وإدوارد بلايدن الذى استقر فى أفريقيا عام ١٨٥٠ وعبر عن آرائه الخاصة بالشخصية الأفريقية ولكن كانت الأفكار الأفريقية العامة المشتركة لويليام دوبوا أكثر تأثيرا ونفوذا كما قام هذا المفكر السياسى بتنظيم المؤتمرات الأفريقية العامة المشتركة فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وتأثر أفريقيون كثيرون من المستعمرات البريطانية الذين يدرسون فى بريطانيا والولايات المتحدة بتلك الأفكار والآراء. ووجد اتجاه آخر فى منظومة الوطنية الأفريقية ونبعت من الأفكار الاشتراكية والشيوعية الأوروبية التى هاجمت النظام الاستعمارى بشدة وبالذات بعد الثورة الروسية. واكتشف الأفريقيون المقيمون فى أوروبا فى الاشتراكية وبالذات فى الماركسية الشيوعية وسائل للنشاط السياسى التى بدت ملائمة تماما لاحتياجاتهم. وتم اعتبارها أيضا بناء للبطولة فى الصراع العالمى ووعدا للحرية والرخاء فى المستقبل. كما وجدت أيضا المفاهيم القومية القوية الشائعة فى أوروبا آنذاك والتى سرعان ما انتشرت أيضا فى البلاد المستعمرة فى آسيا انتشار النار فى الهشيم.

ولكى نرى كيف تشابكت تلك الاتجاهات المعقدة المختلفة مع بعضها البعض لإنتاج النشاط السياسى الذى أدى إلى الاستقلال فيكفى أن نلقى نظرة ثاقبة كمثـال على الحياة المبكرة لكوامى نكروما كما وصفها بدقة فى سيرته الذاتية "غانا". وولد نكروما ربما عام ١٩٠٩ وكان ابن صائغ ذهب من قبيلة نزيما التى عملـت منـذ فترة طويلة بالتجارة فى الساحل الغربى. وتعلم نكروما فى مدرسة تبشيرية رومانية كاثوليكية، ثم فى المدرسة الثانوية الكبيرة فى اشيموتا بالقرب من أكرا، وفكر فـى الدخول بالسلك الكهنوتى، وأصبح مدرسا فى المدرسة التبشيرية، ولكن لـم يكـف ذلك طموحاته بالمرة. ولذلك سافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ بمساعدة أحـد أعمامه الذى يعمل فى لاجوس. وظل هناك عشرة أعوام فى الدراسة فى البداية ثم قام بالتدريس فى جامعة لنكولن فى ولاية بنسلفانيا، وكان قارئا شـرها، وذكـر أن كتابات الشيوعيين والاشتراكيين قد أثرت عليه كثيرا فى صياغة أفكـاره وأوجـه نشاطاته الثورية. ولكنه أضاف "إن كل الأدب الذى درسته قد أثر بى بالذات كتاب "فلسفة وآراء" للكاتب ماركوس جارفى فلقد ألهب خيالى للغاية، وغـادر نكرومـا أمريكا إلى لندن عام ١٩٤٥ وقابل هناك ولأول مرة الصحفى جورج بادمور، مـن جزر الهند الغربية والذى أصبح أحد أقرب أصدقائه ومستشاريه، ولعب الـرجلان دورا رياديا فى المؤتمر الأفريقى الخامس الذى انعقد فى مدينة مانشستر فى ذلـك العام. وكان معظم المندوبين فى هذا المؤتمر من الأفريقيين بـالرغم مـن رئاسـة دوبوا له والبالغ من العمر ٧٣ عاما آنذاك، واعتبره المشـاركون الأب الروحـى الكبير للحركة. ويقول بادمور عن دوبوا "إنه قد أثر بكتاباته وفلسفته السياسية أكثر من أى شخص آخر على كل الشباب المجتمعين هنـاك والقـادمين مـن أقاصـى الأرض"(٥٠) وأقر المؤتمر توصيات مصاغة بأسلوب شديد اللهجة ويدين الاستعمار لقد قررنا أن نكون أحرارا، ونريد التعليم، ونريد الحق فى حياة كريمة والحق فـى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا وأن نقبل وننتج صورا من الجمال، كما أننا نطالـب

---

(٥٠) George padmore, pan Africanism or Communism? (london 1956.) P161

بالسيادة والاستقلال لأفريقيا السوداء وسوف نحارب بكل الطرق الممكنة من أجل الحرية والديمقراطية والتقدم الاجتماعى، وعمل نكروما فى المؤتمر، وفيما بعد فى لندن مع جومو كنياتا، وقابل أفريقيين آخرين من المستعمرات الفرنسية مثل سنجور وهوفويه بوانيه، ولكن تم معظم النشاط السياسى بين الأفريقيين فى تلك المرحلة فى لندن أو باريس وليس فى أفريقيا ذاتها، ووضعت آنذاك دعائم وأسس حركة شملت القارة كلها. فلقد ولد الوعى السياسى للطلبة الأفريقيين، ولذلك تحدثوا كلما اجتمعوا عن السياسات الوطنية وحركات التحرر من الاستعمار (نكروما).

## ساحل الذهب: الاختراق

لم تفعل الحركة الأفريقية العامة بالرغم من حصولها على ولاء المثقفين الأفريقيين الشباب الذين درسوا فى الخارج إلا القليل أو لا شيء فى أفريقيا ذاتها إلى عام ١٩٤٧ ولكن قرأت مجموعة صغيرة مميزة من المثقفين الأفارقة فى غرب أفريقيا البريطانية جرائد الدكتور أزيكيوى التى مهدت الطريق إلى مفاهيم سياسية أكثر راديكالية.

واعتقدت الحكومات الاستعمارية بالقدر الذى سمعت به عن الحركة الأفريقية العامة أن ذلك مجرد "حديث طلبة" وكان الزعماء الأفريقيون الذين اعترفت بهم تلك الحكومات والتى استعدت لمنحهم بعض التنازلات السياسية المحدودة رجالا من جيل سابق والذين أثروا تحت الحكم الاستعمارى وهم: الزعماء، المحامون، رجال الأعمال والمزارعون الأثرياء. وأسس رجال من ذلك الطراز عام ١٩٤٧ مؤتمر ساحل الذهب الموحد فى محاولة لمواجهة مشكلة التوفيق بين زعامة الطبقة المثقفة وجماهير الشعب (نكروما) وكانوا رجالا صالحين ذوى خبرة ومن وطنيى ساحل الذهب أيضا. وتطلعوا للحصول على الاستقلال فى أقصر وقت ممكن، واعتقد بعضهم أن ذلك ممكن بعد عشرة أعوام.

ولكنهم فهموا أيضا أنه وجب الضغط باستمرار على الحكومة الاستعمارية والحصول على تأييد الشعب. ولكنهم لم يعرفوا كيف ينظمون ذلك؛ إذ كانت لديهم مهن يمتهنوها وكانت السياسة بالنسبة لهم عملا ثانويا مثلما كان الحال لمعظم السياسيين الأوروبيين أيضا آنذاك. وكان السياسون المحترفون الوحيدون فى بلاد غرب أوروبا هم وكلاء الأحزاب السياسية المختلفة ولكنهم لا يتقدمون أبدا للانتخابات. ولذلك طلب زعماء مؤتمر ساحل الذهب الموحد من نكروما العودة إلى الوطن عام ١٩٤٧ وأن يكون الأمين العام للمؤتمر أيضا، ورأوا أنه الرجل المناسب لأنه يعرف تماما أساليب الإدارة والتنظيم كما أنه سوف يزيح أعباء الأعمال الشاقة عن كاهلهم، ولذلك بدأ نكروما بعد عودته إلى ساحل الذهب فى ممارسة العمل السياسى من أجل أخذ زمام المبادرة من الحكومة الاستعمارية وبدأ فى إصلاح تنظيم المؤتمر الذى لم يتميز بالكفاءة بالمرة. ووجدت فى دراستى لسجل أعمال حزب المؤتمر أنه قد تم إنشاء ثلاثة عشر فرعا فى أنحاء البلاد ولكن الحقيقة أنه لم يتم إنشاء إلا فرعين ولا يتمتعان بأى كفاءة أيضا، ورأيت أهمية السفر والتجوال فى طول البلاد وعرضها آنذاك. وكانت النتائج باهرة لأننى أنشأت ٥٠٠ فرع فى المستعمرة (الأصلية) فقط، كما أصدرت بطاقات عضوية وجمعت المساهمات المالية وبدأت فى الحصول على الدعم المادى.(٥١)

ولكن تورط زعماء المؤتمر فى أحداث مظاهرات عنيفة قام بها جنود سابقون. وقبضت الحكومة على الزعماء الستة الكبار لحزب المؤتمر ومنهم نكروما وسجنتهم. وكان ذلك بداية الانشقاق بين نكروما وزملائه. فقد رحب نكروما تماما بذلك العنف بعكس رفاقه الذين رأوا أنه ليس السبيل إلى الاستقلال. وردت الحكومة البريطانية على تلك الاضطرابات بإنشاء لجنة أفريقية عامة تحت رئاسة السيد هانلى كوسس لتقديم توصيات للإصلاح الدستورى. وانضم الزعماء الخمسة الآخرون إلى اللجنة بينما تم تجاهل نكروما ولم تتم دعوته.

---

(٥١) Ghana, (London 1959), P.61

وقبلت الحكومة البريطانية دستور كوسى وكان ذلك علامة مرحلة جديدة في التحركات البريطانية نحو إزالة الاستعمار في أفريقيا. وطبق الحاكم الجديد السيد تشارلز أردن كلارك الذى تولى منصبه عام ١٩٤٩ هذا الدستور. وأنشأ مجلس تشريعي أفريقي عام وتم انتخابه مباشرة في المناطق الأكثر تقدما وبطريقة غير مباشرة في أماكن أخرى، كما تم أيضا إنشاء مجلس تنفيذى بثمانية وزراء يتم اختيارهم من المجلس وثلاثة آخرون يعينهم الحاكم من صفوف جهاز الخدمة المدنية الأوروبية، وبدأ نكروما حكمه في ظل هذا الدستور كرئيس للإدارة الحكومية أولا، ثم كرئيس للوزراء من عام ١٩٥١ إلى ١٩٥٤ ولكن كان نكروما قد أنشأ حزبه الخاص آنذاك وهو حزب الوفاق الوطني لمعارضة حزب المؤتمر وأدان دستور كوسس وذكر انه غش إمبريالي وطلب الحكم الذاتي الآن. وبدأ بعد ذلك مرحلة "النشاط العملي" لتأييد مطالبه.

ويعني ذلك القيام بالاضطرابات وعدم التعاون مع السلطات لخلق شعور عام بالقلق والصراع في البلاد. ولذلك تم القبض على نكروما وزعماء حزبه وتم الزج بهم في السجن بعدة تهم منها التحريض وإثارة الشغب والانشقاق. وظلوا لمدة عام كامل في السجن بينما جهزت الحكومة الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥١. وفاز حزب نكروما بقيادة ك.أ جبديما أثناء فترة سجن زعيمه. وأبدى الحزب كفاءة انتخابية رائعة لدرجة أنه حاز على إعجاب واحترام الحكومة الاستعمارية التي تميزت بالعداء الكبير في السابق. ولذلك قرر أردن كلارك إطلاق سراح نكروما ودعوته لتشكيل الحكومة. ووافق نكروما من جانبه على التخلي عن طلبه بالحكم الذاتي الآن والعمل لفترة تحت الدستور الأخير. وقدمت فرصة العمل في الحكومة لوزراء نكروما فرصة رائعة لتعلم دقائق الحكم الداخلي قبل تولي مسئوليات الحكم بعد الاستقلال.

وتعهد أردن كلارك بأن تنفذ الحكومة الاستعمارية هذا الاتفاق تماما ولكن لفترة بسيطة محددة كما تم التوصل إليه في فبراير ١٩٥١ والتعاون مع حزب

راديكالى ذى شعبية كبيرة. ولكن كان حزب الوفاق الوطنى مختلفا تماما فى أهدافه وزعامته عن حزب المؤتمر المعتدل المكون من أبناء الطبقة الوسطى والذين رغبت السلطة الاستعمارية فى تسليم الحكم لهم فى السابق. ثم راقبت الحكومة البريطانية فى لندن والعالم الخارجى كله بدهشة شديدة الصداقة المتزايدة بين السير تشارلز أردن ونكروما المختلفين تماما وهما يقودان ساحل الذهب نحو الاستقلال. ويذكر نكروما بعبارات مؤثرة كيف وصله تاريخ الاستقلال من أردن كلارك وهو ٧ مارس ١٩٥٧ والذى حددته الحكومة البريطانية لاستقلال ساحل الذهب تحت اسمه الجديد "غانا".

وقدم لى برقية من وزير الخارجية البريطانية وحينما وصلت إلى الفقرة الخامسة دمعت عيناى من شدة الفرحة بحيث لم أستطع قراءة باقى الوثيقة. ورفعت عينى بعد بضعة دقائق ونظرت إلى عينى الحاكم. ولم نقل شيئا لمدة بضعة دقائق. وربما نظر كلانا إلى الأعوام السبعة السابقة من عملنا المشترك والذى بدأ بالشكوك والظنون السيئة وسوء الفهم ثم حلت محلها مفاهيم الثقة والصراحة والصداقة. وأصبحت الآن لحظة النصر بالنسبة لنا الاثنين لحظة لا يمكن وصفها أبدا.

وقال الحاكم وهو يمد يده للمصافحة "إنه يوم عظيم لك ولما حاربت من أجله يا سيدى رئيس الوزراء" ولكننى أدركته قائلا: "إنها نهاية ما حاربنا نحن الاثنين من أجله يا سير تشارلز. فلقد ساهمت بالكثير من أجل الوصول إلى ذلك، ولولا مساعدتكم الكريمة لما كنت قد نجحت بدون تلك المساعدة والمعاونة. إنه يوم سعيد لكلينا".[٥٢]

---

(٥٢) Ibid. P.282

## توابع استقلال غانا فى أفريقيا الغربية البريطانية

وتم اتخاذ قرار إنهاء الاستعمار فى مستعمرات غرب أفريقيا البريطانية تماما مثل ساحل الذهب. وبدأ طريق الاستقلال فى نيجيريا بقوة وحماس بواسطة دستور جديد بدأ تطبيقه فى عام ١٩٥١. وكان هذا العام أيضا عام اتفاق أردن كلارك مع نكروما. ولكن استمر طريق الاستقلال فى نيجيريا ثلاثة أعوام أكثر من غانا. وكانت الأسباب ناتجة عن المشاكل العديدة النابعة من اختلاف مستويات التعليم والثروة والمفاهيم بين المناطق النيجيرية الثلاث، فما تزال طبقة الفولبى الحاكمة ذات تأثير كبير فى الشمال. أما المنطقة الغربية فلقد تحدثت بلغة اليوربا أساسا ولكنها نظمت تقليديا بواسطة تقسيمها إلى عدد من الوحدات السياسية التى يحكمها زعماء من الملوك. وتتكون المنطقة الشرقية أساسا من المتحدثين بلغة الإجبو والذين لم تربط وحدات سياسية أبدا بينهم. ولذلك لا يحتمل حل تلك المشاكل النابعة من تلك الاختلافات بإنشاء دولة موحدة تشمل نيجيريا كلها، وحاول دستور عام ١٩٥١ ذلك فعلا جزئيا ولكنه فشل لعدم صلاحيته عمليا. وأصبح الدكتور أزيكيوى رئيسا لوزراء المنطقة الشرقية وانتقد بالذات محاولات تخفيض السلطات الخاصة بالمناطق. ولذلك لا يمكن حل مشاكل نيجيريا إلا بالوصول إلى حل وسط ينبع من نظام الحكم الفيدرالى. ولذلك أخذ هذا النظام وقتا أطول للتطبيق من حكومة غانا المستقلة الموحدة وطبق دستور جديد عام ١٩٥٤ وأصبحت نيجيريا دولة اتحادية لها سلطات محددة تماما للحكومة المركزية من جهة وحكومات المناطق الثلاث من جهة أخرى ومنحت كل منطقة سيادتها الداخلية الكاملة قبل استقلال البلاد كلها، ولكن كان الشمال أكثر المناطق تأخرا من الناحية السياسية، وبدأت تلك المنطقة الشاسعة فى لعب دور كامل فى الشئون النيجيرية العامة واستطاعت أن تسيطر على البلاد سياسيا. فلم يمكن أبدا تكوين حكومة اتحادية قوية دون وزراء من حزب مؤتمر شعب الشمال. وكان أول رئيس وزراء دولة نيجيريا المستقلة من الشمال هو السير أبو بكر تافاوا باليوا.

وأدت الضغوط والمشاكل الخاصة النابعة من تفاعلات المصالح الخاصة للمناطق إلى تأخير تاريخ الاستقلال إلى عام ١٩٦٠. وكانت أهم مشكلة فى سيراليون وبالذات فى جامبيا هى عكس مشكلة نيجيريا تماما. فقد كانت المستعمرتان صغيرتين للغاية وبالتالى فقيرتين نسبيا. ولكن لم يمكن للعملية التى بدأت فى ساحل الذهب أن تتوقف. ولذلك استقلت سيراليون عام ١٩٦٠ وجامبيا عام ١٩٦٥. وتعتبر جامبيا من أصغر الدول الأفريقية لأنها تتكون من شريط ضيق من الأرض على ضفتى نهر جامبيا وتحيط بها من كل جانب دولة السنغال الناطقة بالفرنسية. وأثارت عملية منح الاستقلال لجامبيا تساؤلات حول إمكانية استمرارها كدولة مستقلة، ولكن أثبتت التجارب فى جنوب شرق آسيا وغيرها أن الدول الصغرى يمكنها النجاح والاستمرار والازدهار اقتصاديا. واستفادت جامبيا فعلا من حجمها الصغير ووضعها الجغرافى، ولكنها لم تصل أبدا إلى مثل رفاهية تلك الدول.

## استقلال غرب أفريقيا الفرنسية

يمكن رؤية اختلاف الموقف تجاه نمو الوطنية بين سكان غرب أفريقيا المتحدثين بالفرنسية والإنجليزية بالمقارنة بين حياة سنجور ونكروما. فلقد اهتم الأفريقيون الناطقون بالفرنسية أساسا بالثقافة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بشئون السياسة. وقيل إن الوطنيين المتحدثين بالإنجليزية كانوا يكتبون الدساتير بينما يكتب معاصروهم الناطقون بالفرنسية الأدب والشعر. وولد ليبولد سيدارسنجور عام ١٩٠٦ فى قرية ساحلية جنوب مدينة داكار، وأرسله أهله الكاثوليكيون الأثرياء إلى مدارس فى المستعمرة ثم إلى باريس فيما بعد، وعبرت قصائده التى كتبها فى فرنسا عن شوقه وحنينه إلى أيام طفولته فى وطنه. ثم قام بالتدريس فى مدارس اللغات الفرنسية بعد أن أصبح أول أفريقى يحصل على درجة "مدرس ثانوى

مؤهل" فى فرنسا. ثم انضم إلى الجيش الفرنسى عند نشوب الحرب العالمية الثانية، وأسره الألمان الذين حاولوا عبثا إثارته ضد فرنسا. واتصل سنجور خلال إقامته في باريس بالعديد من الأفكار السياسية والأدبية. كما تعرف أيضا على العديد من أبناء جزر الهند الغربية الفرنسية الممتازين مثل أيمى سيزير من جزيرة مارتينيك والذى سيصبح أيضا شاعرا وسياسيا. ورأى هؤلاء الشباب أنه يجب عليهم قبل الاهتمام بالأمور السياسية أن يخلقوا مفاهيم جديدة أو مفاهيم أخرى للقيم الثقافية الأفريقية. وأنشأ سنجور وسيزير معا مفهوم "تأكيد الشخصية الأفريقية السوداء" وهو "تأكيد قيم الحضارة الأفريقية". ثم أنشأ سنجور وأحد زملائه السنغاليين وهو أليون ديوب مجلة "الحضور الأفريقى" عام ١٩٤٧ فى باريس وهى مجلة مخصصة لتحديد تلك القيم وإبرازها، وبدأ اهتمام سنجور بعد ذلك بالسياسة العملية النشطة ولذلك عاد بعد الحرب إلى السنغال كسياسى اشتراكى وشارك فى الأحداث التى أدت إلى إنشاء "الاتحاد الفرنسى" عام ١٩٤٦. ولكنه رفض حضور مؤتمر باماكو فى ذلك العام والذى أنشأ حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى، ورأى على حق أن الحزب الجديد سوف يسيطر عليه الشيوعيون. ولكنه أنشأ حركة سياسية شعبية فى السنغال وانتخب كنائب فى البرلمان الفرنسى، واتجه العديد من الشباب الأفريقى بتأثير منه إلى الكتابة والشعر والفنون، ومارسوا ذلك بجدية. ويفسر هذا الاهتمام الثقافى لأفضل الشباب فى غرب أفريقيا الفرنسية لماذا لم تكن تلك المناطق ذات ثقافة سياسية واسعة شبيهة بتلك الموجودة عند جيرانها الناطقين بالإنجليزية فى خمسينيات القرن العشرين.

وامتد التأييد إلى حزب سنجور إلى فولتا العليا ومناطق أخرى حيث دخل الحزب فى مواجهة مباشرة مع حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى. وكان موضوع الخلاف الرئيسى بين الحزبين من ١٩٥٥ فصاعدا هو سياسة سنجور الفيدرالية وسياسة هوفويه بوانيه الإقليمية. وولد بوانيه فى ساحل العاج عام ١٩٠٥ وذهب إلى فرنسا للمرة الأولى عند انتخابه نائبا عام ١٩٤٥. وكان قبل ذلك مساعدا طبيا

ومزارعا ثريا فى زراعة الكاكاو وزعيما محليا أيضا. ودخل السياسة بصفته متحدثا باسم اتحاد المزارعين الأفريقيين، وكان عمليا بحتا بالرغم من كونه مثقفا جدا، واحتفظ دائما بسمات المزارع. وأصبح أول رئيس لحزب التجمع الأفريقى، ثم تقلد عدة مناصب وزارية فى العديد من الحكومات الفرنسية بعد القطيعة بين حزب التجمع وخلفائه الشيوعيين عام ١٩٥٠. وتحول ساحل العاج بعد الحرب إلى أغنى مستعمرة فى غرب أفريقيا الفرنسية تساهم بـ٤٠% بالمائة من صادراتها، وذكر بوانيه أن الوحدة الاتحادية التى يؤيدها سنجور تعنى أن ساحل العاج سوف يتحمل دائما إعاشة جيرانه الأكثر فقرا، وكان له أيضا تأثير كبير فى التحضير للقانون الفرنسى العام المسمى بقانون الإطار بصفته وزيرا فى الحكومة الفرنسية عام ١٩٥٦ وسيطرت فرنسا بهذا القانون على السياسة الخارجية والدفاع والتطور الاقتصادى العام. ولكن أصبحت كل فروع الحكم الأخرى ليست من مسئولية الحكومات الاتحادية لغرب أفريقيا أو أفريقيا الاستوائية الفرنسية بل من اختصاص الاثنتى عشرة مستعمرة التى تكونها. وتأثر القانون الفرنسى العام أو قانون الإطار بشدة باقتراب موعد استقلال ساحل الذهب ونيجيريا.

وفهمت فرنسا أن الاتحاد الفرنسى الذى أنشأته كخطة لإنشاء دولة كبيرة قد أصبح غير موضوعى، وأنه يجب أن يحل محله تنظيم آخر أقل تماسكا ويشبه الكومونولث البريطانى ولكن قسمت السيادة بفضل هوفويه بوانيه جزئيا إلى وحدات صغيرة لدرجة (فى السكان إن لم يكن فى الحجم) أن اعتمادها على فرنسا سوف يستمر دائما، وحاول سنجور مقاومة تلك التغيرات الدستورية والتى رأى أنها ستقسم غرب أفريقيا إلى دول كثيرة ضعيفة ولكن دون جدوى وأيده فى تلك المعارضة سيكو تورى من غينيا وهو أحد قيادات حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى.

ولد سيكوتورى عام ١٩٢٢، ولذلك كان أصغر بكثير من سنجور وهوفيه بوانيه وكانت عائلته فقيرة بالرغم من كونه من سلالة ساموري الشهير، وكانت

أول زيارة له إلى فرنسا بصفته مندوبا فى مؤتمر نقابات العمال الشيوعيين عام ١٩٤٦، وسرعان ما أصبح سيكو تورى أهم شخصية فى اتحاد نقابات العمال فى غرب أفريقيا الفرنسية ولكنه قاد عملية انفصال عن الحزب الأم فى فرنسا برغم اعتناقه الأفكار الشيوعية المشتركة حتى ذلك الوقت. ثم كون اتحادا جديدا لنقابات العمال الأفريقية بدون صلات خارجية لها. وفهم سيكو تورى فى عصر ركز فيه معظم معاصريه على زيادة نفوذهم فى باريس أن أسس الحكم الحقيقية ودعائمها فى أفريقيا ويجب الحصول عليها هناك، وفضل آنذاك الاحتفاظ بحكومة مركزية فى داكار وبدا عام ١٩٥٨ أنه سيحدث إعادة تنظيم للأحزاب السياسية بأن يغادر سيكوثورى حزب التجمع الأفريقى وأن ينضم إلى حزب سنجور. ولكن عاد الجنرال ديجول آنذاك إلى مقاليد الحكم فى فرنسا عام ١٩٥٨ نتيجة لثورة الجيش الفرنسى فى الجزائر فى شهر مايو من ذلك العام.

وأقر ديجول دستورا جديدا لفرنسا وأنشأ الجمهورية الفرنسية الخامسة. ثم عرض على الشعوب المستعمرة الاختيار بين السيادة (الحكم الذاتى) بصفتها دولا مستقلة داخل المجموعة الفرنسية والتى حلت محل الاتحاد الفرنسى السابق أو الاستقلال الكامل فورا مع قطع كل العلاقات مع فرنسا. وقبلت كل شعوب غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية اقتراح ديجول للسيادة الذاتية فى الاستفتاء الذى أجرى فى شهر سبتمبر ١٩٥٨ باستثناء غينيا التى صوت شعبها مثل زعيمها سيكو تورى بـ "لا". ولكن شعر سيكو تورى بخيبة أمل شديدة لفشل غرب أفريقيا الفرنسية فى الاستقلال فى هيئة اتحاد يلم جميع دولها. واعتبر أن المجموعة الفرنسية ما هى إلا صورة معدلة من استمرار السيطرة الفرنسية.

ثم أوقفت فرنسا فورا كل مساعدتها الاقتصادية وسحبت موظفيها والفنيين التابعين لها بعد أن قررت غينيا الاستقلال، وواجه سيكو تورى الانهيار الاقتصادى بالاتصال بالاتحاد السوفيتى وباقى الدول الشيوعية لمساعدته. وقدم له نكروما قرضا فوريا يقدر بعشرة ملايين جنيها إسترلينى، كما قرر الرجلان إعلان الوحدة

بين بلديهما ويعتبر ذلك تضامنا بينهما أكثر من كونه مـن الأعمـال الدسـتورية الحقيقية ولكن أثرت تلك الأحداث تماما على المستعمرات الأخرى التـى صـوتت بـ"نعم" فى الاستفتاء إذ بدأت فى إعادة تقييم موقفها. وكون السـنغال والسـودان الفرنسى "اتحاد مالى"، وطلبا الاستقلال التام عام ١٩٥٩ وحصلا عليه فعلا ولكنهما استمر فى عضوية المجموعة الفرنسية. وانضمت ساحل العاج إلـى اتحـاد أقـل ترابطا يسمى "مجلس الوفاق" مع داهومى وفولتا العليا والنيجر الذين طلب كل منهم استقلاله التام عن فرنسا. وهكذا استقلت كل غرب أفريقيا الفرنسية وكـل أفريقيـا الاستوائية الفرنسية بحلول شهر نوفمبر ١٩٦٠ بالإضافة إلى جمهورية مالاجـاش مدغشقر. ثم انقسم اتحاد مالى بعد شهرين فقط إلى مكوناته الأصلية وهما السودان الفرنسى الذى احتفظ باسم مالى ودولة السنغال.

ولذلك انتهى تماما دور المجموعة الفرنسية كما رغبها ديجول وإن استمرت المعونة الفرنسية وبالتالى ظل النفوذ الفرنسى قويا للغاية ويقول منتقدو عملية إزالة الاستعمار بهذا الأسلوب إن الفرنسيين قد اتبعوا سياسة البلقنـة بتقسـيم الاتحـادين ومنح الاستقلال إلى الأثنتى عشرة مستعمرة المكونة لها كل على حدة. ولكن كـان مفهوم الاتحاد أساسا نظاما فرنسيا وضعه الفرنسيون لكى تقوم المستعمرات الأكثر ثراء بالإنفاق على المستعمرات الفقيرة ولكن رأى رؤساء المستعمرات الثرية بعـد الاستقلال مثل هوفويه بوانيه فى ساحل العاج ولومومبا فى الجابون أنهمـا ليسـا مستعدان أبدا للاستمرار فى ذلك وتقديم معونات ماليـة إلـى دول أخـرى بعـد الاستقلال. ثم تبعت المناطق الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحـدة فـى غـرب أفريقيا الطريق نفسه الذى اتبعته هذه المستعمرات. وقررت توجولانـد البريطانيـة الانضمام إلى غانا بعد استفتاء أجرى عام ١٩٥٧. أما توجو الفرنسية فلقد اسـتقلت كجمهورية مستقلة عام ١٩٦٠. وكان تاريخ الكاميرون أثناء فترة إزالة الاسـتعمار الأكثر عنفا من بين كل الدول غرب أفريقيا. فلقد نشـبت الحـرب الأهليـة بـين الشيوعيين وأعدائهم عام ١٩٥٦. ولم تنته تماما حينما حصلت الكـاميرون علـى

استقلالها عام ١٩٦٠. ثم عقدت استفتاءات فى الكاميرون البريطانية عام ١٩٦١، وقرر شمال الكاميرون أن يظل داخل شمال نيجيريا، أما الجنوب فلقد قرر الاتحاد مع الكاميرون الفرنسي. ولذلك شملت جمهورية الكاميرون الاتحادية لأول مرة على أجزاء تحت الحكم الاستعمارى الإنجليزى أو الفرنسي معا. ولذلك تحدت الكاميرون حاجز اللغة الذى يفصل بين الدول الناطقة بالفرنسية أو الإنجليزية فى غرب أفريقيا.

قال نكروما دائما إنه سيقوم بعد استقلال غانا بقيادة باقى أفريقيا إلى طريق الاستقلال والوحدة. ولذلك قام بدعوة ممثلين من الحركات الوطنية فى ديسمبر ١٩٥٨ لثمانية وعشرين منطقة ما زالت تحت الحكم الاستعمارى للاجتماع فى أكرا فى المؤتمر المشترك لشعوب أفريقيا. وكان نكروما آنذاك فى أوج مجده فلقد كان الزعيم الذى لا ينازعه أحد للحركة الأفريقية المشتركة. ولكنه شارك زعامة هذا المؤتمر مع توم مبويا من كينيا الذى أثبت كفاءة عالية فى رئاسة المؤتمر. ويعنى ذلك أن شرق أفريقيا قد بدأت تلعب دورا مهما فى الثورة الأفريقية. وكان مبويا وجيوليوس نيريرى قد أسسا قبل بضعة أشهر حركة الحرية الأفريقية المشتركة لشرق ووسط أفريقيا والتى أرسلت مندوبين لها إلى أكرا. وقال مبويا إن كينيا وتنجانيقا كانتا تسيران فى طريق وعر فى صراع الاستعمار وشعرتا بالحاجة للحصول على تأييد أفريقى عام من الجميع. وأنشأ مؤتمر أكرا هيئة لتوجيه ومساعدة الكفاح ضد الاستعمار، كما قرر إنشاء منظمة إقليمية أخرى مشابهة تختص بوسط وشرق أفريقيا، وعاد بعض الزعماء الأفريقيين الذين لم يكونوا يعرفون بعضهم البعض قبل ذلك من أكرا بشعور جديد من التضامن والهدف المشترك، فعاد باتريس لومبوبا مثلا إلى الكونغو البلجيكية متأثرا للغاية من الاتصالات التى قام بها. واعترف البلجيكيون فيما بعد أن مؤتمر أكرا قد أدى إلى نتائج حاسمة بالنسبة للكونغو. فلقد حصل لومومبا هناك على التأييد الذى يحتاج إليه لتحقيق رغبته فى الاستقلال.

## شرق أفريقيا: الماوماو وتعدد الأعراق

كان "الطريق الصعب فى الكفاح من أجل الاستقلال" الذى أشار إليـــه تـــوم مبويا نتيجة لعدم ثبات السياسة البريطانية تجاه شرق أفريقيا خلال الأعوام ١٩٤٨-١٩٥٨ فلم تفهم الحكومة البريطانية أن قوة جذب وشدة الوطنية الأفريقية وحماسها سوف تنتشر من أدنى القارة إلى أقصاها بسرعة بالغة، ولكنها كانت تعرف أيضـــا أن منطقة شرق أفريقيا أكثر فقرا وتخلفا من بلاد غرب أفريقيا. ولذلك استنتجت أن الوطنية فى شرق أفريقيا سوف تكون أكثر بطئا فـــى تطورهـــا. وتـــأثر التفكيـــر البريطانى أيضا فى سياسة شرق أفريقيا من مشكلة المستوطنين البيض. ورأت أن وجودهم يستلزم القيام ببعض التعديل فى السياسة الانتخابية العادية القاضية بوجود صوت انتخابى لكل شخص. وكان البديل هو وضع دستور "متعدد" الأعراق مثلمـــا ذكرنا فى الفصل السادس عشر واعتقدت أن تلك المرحلة من التطـــور السياســـى سوف تستمر عشرين عاما على الأقل. ويعنى ذلـــك فتـــرة أطـــول ممـــا يـ[illegible]ـــده الأفريقيون.

ورأى معظم الأوروبيين أن تلك التفرقة بين غرب وشرق أفريقيا من أجـــل الاستقلال مبررة للغاية. ولكن نشبت فجأة عام ١٩٥١ حركة ثورية دامية فى كينيا وقامت بها جماعة من شعب الكيكويو وعرفت باســـم الماومـــاو، ولا يمكـــن لأى مراقب محايد أن ينكر أن جماعة الماوماو كانت على حق فى مطالبها. فلقد زادت أعداد شعب الكيكويو كثيرا خلال العصر الاستعمارى ولكن الأرض المتاحة لهـــم فى الماضى قد استقر بها المستوطنون البيض وأقاموا عليها مـــزارعهم المتراميـــة الأطراف. وذكرت اللجنة الملكية لشرق أفريقيا فى تقريرها عام ١٩٥٥ "لقد تأثرنا كثيرا خلال فترة تحقيقنا من ظاهرة وجود مناطق معينة مكتظة بالســـكان لدرجـــة تأثر الزراعة بذلك، مما أدى إلى تراجع كفاءتها وتراجعها هناك، وأدت تلك الزيادة السكانية الكبيرة أيضا إلى تدمير الموارد الطبيعية وأن العائلات لا يمكنها أبدا إيجاد أراضى جديدة لها. ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من شعب الكيكويو للعمل فى المدن

بأبخس الأجور أو فى المزارع الأوروبية أيضا، وعاش الكثير منهم عاطلين عــن العمل وانحرفوا إلى الجريمة. ونظر هؤلاء الجائعون بحسد مفهوم وباستياء عظــيم إلى مزارع المستوطنين البيض العامرة. وكانت تلك المزارع كبيرة وحسنة العناية وثرية فعلا. ولكن شملت العديد منها مناطق غير مزروعة على الإطلاق.

وبدأت ثورة الماوماو باغتيال عدد قليل من المزارعين البريطــانيين وقتــل ماشيتهم بالإضافة إلى أعمال عنف أخرى. وكان الغرض من ذلك إثارة الرعب فى صفوف المستوطنين البيض وإرغامهم على مغادرة البلاد. وحدثت أحداث مشــابهة للغاية فى أيرلندا خلال القرن التاسع عشر؛ فلقد كان أصحاب الأراضى هناك مــن الإنجليز أما المزارعون الأيرلنديون فكانوا فقراء معدمين مطحونين تماما وبــدون أراض، وردت الحكومة الاستعمارية فى كينيا بالقبض على جومو كنياتــا وبــاقى زعماء الكيكويو وأودعتهم السجن، ونفى كنياتا تلك الاتهامات بشدة. ولكن لم تكــن لعملية إزاحته عن مسرح الأحداث تأثير فى مجرى الأحداث؛ فلقد كان الثوار قليلى العدد نسبيا. ووجدت قواعدهم فى الغابات النائية عند سفوح جبل كينيا ومجموعــة هضاب نياندارا ويخرجون ليلا من تلك الغابات الكثيفة فى جماعات صغيرة للهجوم على المزارع المجاورة والجنود المرسلين ضدهم. كما توجهوا أيضا للانتقام مــن إخوانهم الكيكويو المتهمين بالتعاون مع الحكومة الاستعمارية. ولم يقبل البريطانيون تلك الأمور أبدا، ولجأوا إلى استخدام أساليب الحرب المضادة لحــرب العصــابات لأن العدو كان دائم الكر والفر ومختفيا دائما. وتم إخراج المزارعين الكيكويو مــن منازلهم المتفرقة المنعزلة وأرسلوا للإقامة فى قرى يسهل الدفاع عنها والســيطرة عليها. وتم استجواب المتهمين بالتعاون مع الثوار بشدة بالغة فى محاولــة انتــزاع اعترافات ومعلومات منهم. كما استخدمت معسكرات اعتقال للثوار الأسرى وبهــا أساليب غنية للغاية وذلك للقضاء على المقاومة النفسية للسجناء ويعنى ذلك تخلــيهم عن أفكار ترى الحكومة خطورتها. ويعتبر ذلك طبيعيا فى كل الحروب الســرية. ولذلك تم القضاء على معظم الثوار بحلول عام ١٩٥٥ ولكن بتكلفــة مقــدارها ٢٠

مليون جنيه إسترليني وبعض المئات من القتلى البريطانيين. وقدرت خسائر الحرب الأصلية بين الثوار والمتعاونين بـ ٣٠٠٠ قتيل ولكن يرى المراقبون أن الرقم يصل إلى ٣٠,٠٠٠ فعلا أى عشرة أضعاف الرقم المعلن، ولم يحدث أبدا شيء شبيه بذلك فى غرب أفريقيا ولا يمكن المقارنة هنا إلا مع الحرب الجزائرية فى كفاح الوطنيين ضد الفرنسيين. ولم يمكن أبدا التقدم نحو الحكم الذاتى فى تلك الظروف ومادام الصراع. ولكن بينت تلك الثورة أيضا أن الجماعات الصغيرة من المستوطنين البريطانيين المقيمين فى كينيا وتنجانيقا ونياسالاند وشمال روديسيا لا يمكنهم أبدا الدفاع عن أنفسهم، كما بينت أيضا أن الدساتير المتعددة الأعراق فى تلك البلاد لا قيمة لها ولا يمكن تطبيقها إلا باستمرار الحكم البريطانى فقط.

وكانت أهم نتيجة لثورة الماوماو فى التطور السياسى لكينيا هو منع ظهور حزب شعبى كبير (إلى عصر ما بعد الاستقلال). فلم تسمح الحكومة أبدا مادامت الثورة وخوفا من انتشارها إلى بقية أجزاء البلاد إلا بمنظمات سياسية على المستوى الإقليمى فقط. وتطورت بالتالى الاختلافات بين المناطق لدرجة أنه بعد انتهاء الثورة قد حدثت انشقاقات عميقة بين السياسيين الكيكويو واللو(Luo) من جهة وسياسيى شعوب الكالنجينى وشعوب البانتو الساحلية من جهة أخرى وظهر بالتالى ضربان متنافسان بعد السماح بعودة الأحزاب على المستوى الوطنى وهما حزب الوحدة الوطنية الأفريقية الكينية أو (كانوا) وحزب الوحدة الديمقراطية الأفريقية الكينية أو (كادو). ولذلك ونظرا لعدم الثقة المتبادلة بين الحزبين تأخر استقلال كينينا وكانت آخر دول شرق أفريقيا تحصل عليه بينما كان بإمكانها أن تكون الأولى. وكانت أوغندا منقسمة على نفسها بطريقة عميقة تماما مثل كينيا وإن كان ذلك لأسباب أخرى، ووجدت ثلاثة مواضيع مثيرة للشقاق هناك. وكانت الأولى خصوصية مملكة بوجندا التى خافت فقدان وضعها المميز فى البلاد والتى حصلت عليه بعد اتفاقها مع السلطة الاستعمارية، كما وجد معظم سياسيى بوجندا أنه من الصعب تماما العمل مع السياسيين الآخرين من مناطق أخرى فى البلاد.

وكان العامل الثانى هو الوطنية المعتدلة لباقى الممالك التقليدية فى الجنوب والغرب واستفادوا تماما من الامتيازات وعزلة بوجنـدا، إلا أنهـم شـعروا أيضـا أنهـم سيخسرون فى التغيير السريع. ووجدت فى المرتبة الثالثة تلك العناصر الراديكالية الأقل ترددا فى الشمال والشرق وحيث سيستمد مؤتمر الشعب الأوغندى الاشتراكى تأييده وأنصاره هناك. ولكن كان التحالف الذى أدى إلى استقلال كينيـا هـو ذلـك التحالف الذى قام بين الحزب الأول والثالث الممثلين لتلك المصالح. وتحقـق ذلـك ببطء، ولذلك لم تكن أوغندا أبدا فى مقدمة الدولة المرشحة للاستقلال فـى شـرق أفريقيا بسرعة بالرغم من عدم وجود مشكلة مستوطنين لديها.

وكانت تنجانيقا هى التى حددت سرعة التطورات فى شرق أفريقيا وإن كان ذلك مثيرا للدهشة نظرا لتخلفها الاقتصـادى والثقـافى الكبيـر عـن جارتيهمـا الشماليتين، كما أن الوعى السياسى بها قد ظهر بسرعة أقل خلال الأعوام الأولـى للثورة الأفريقية ولكنها اندفعت بشدة من الصفوف الخلفية للمسـتعمرات المرشـحة للاستقلال إلى موقف الصدارة فيما بين ١٩٥٦- ١٩٥٩ وحددت المعـايير أيضـا لكل المستعمرات البريطانية من كينيا إلى الزمبيـزى ولكـن لاشـك أن نجاحهـا المفاجئ قد كان بفضل حزب الوحدة الوطنية الأفريقية لتنجانيقا الذى أنشأه جوليوس نيريرى عام ١٩٥٤، وكان هذا الحزب أكثر الأحزاب الأفريقية تنظيمـا فـى أى مكان فى أفريقيا بعد حزب المؤتمر لنكروما. وأنشأ نيريرى بعد ثلاثـة أو أربعـة أعوام من عودته إلى بلاده بعد إتمام دراسته فى أدنبره ذلك الحزب على مسـتوى البلاد كلها وبفروع عديدة فى مختلف الأنحاء. وقال إن الأمر الذى ساعده تماما هو انقسام السكان إلى أكثر من ١٢٠ مجموعة قبلية ولكن لم تتميـز إحـداها بـالحجم الكبير لدرجة مطالبتها بوضع مميز. وساعدته أيضا عملية انتشار اللغة السـواحلية فى البلاد نظرا لتوغل العرب بها خلال القرن التاسع عشر والسياسـات التعليميـة لحكومات السلطة الاستعمارية الألمانية ثم البريطانية. وساعده فى نهاية الأمر عدم وجود أحزاب سابقة مما مكنه من البداية بطريقة موفقة تماما.

ووجه نيريرى منذ البداية هجومه ضد مفهوم "التعدد العرقى" للحصول على دستور يمهد للاستقلال. ومثلما ذكرت بعثة الأمم المتحدة فى تقريرها عام ١٩٥٤ "يرغب الأفريقيون فى تلك البلاد من هيئة الأمم المتحدة والسلطة الاستعمارية التأكيد على هوية البلاد الأفريقية وأن الأفريقيين هم أصحاب الشأن بالرغم من تعدد الأعراق. فهى دولة أفريقية أساسا ويجب أن تستقل كذلك، وأظهر نيريرى خلال الأعوام الأربعة التالية اعتداله الشديد، وبين أنه بالرغم أن حزبه كان يرغب فى الحصول على السلطة إلا أن غير الأفريقيين يجب ألا يخشوا شيئا. وعليهم ترك الخوف جانبا.

وقدم نيريرى تلك المبادئ المعتدلة بنجاح كبير فى انتخابات عام ١٩٥٨ والتى عقدت فى عصر تطبيق الدستور المتعدد الأعراق. وانتصر مرشحو حزب تانو فى كل الدوائر التى رشحوا بها بالإضافة إلى غير الأفريقيين الذين أيدهم حزب تانو مقابل تأييدهم له فيما بعد وتوافقت نتائج تلك الانتخابات تماما مع تعيين حاكم بريطانى جديد وهو السير ريتشارد توربول الذى فهم تماما مثل أردن كلارك فى غانا "ساحل الذهب" عام ١٩٥١، أنه قد تم الوصول إلى اللحظة الفاصلة المؤهلة للاستقلال. ولذلك أعلن عام ١٩٥٨ أن الأغلبية الأفريقية هى التى ستسيطر على مقاليد البلاد عند استقلالها، ووافق نيريرى على ذلك بشدة قائلا: "لقد انتظرنا طويلا لكى يجيء حاكم لتلك البلاد ليقول لنا إن السياسة الرسمية البريطانية هى أن تكون للأفريقيين اليد العليا فى إدارة شئون بلادهم. وحصلنا الآن على هذا الوعد: وأقول هنا إنه لا يجب أن يشعر غير الأفريقيين بأى خوف. وإذا ما وجد هذا وجب عليهم التخلى عنه فورا.

ولذلك خرجت تنجانيقا بسرعة من عصر الاستعمار تحت قيادة نيريرى الواعية وتيرنبول اللذين عملا بنفس الروح التى أبداها كل من نكروما وأدرن كلارك، واستقلت البلاد فى شهر ديسمبر ١٩٦١ بعد فترة انتقالية قصيرة استمرت أقل من ثلاثة أعوام وحدث ذلك فى بلاد يفوق سكانها سكان غانا وأن لم يوجد بها

إلا عشر أعداد المتخرجين من الجامعات والمدارس الثانوية، ونظرا لتخلي عن النظام المتعدد الأعراق فى تنجانيقا أصبح من المستحيل بطبيعة الحال التمسك به فى كينيا أو أوغندا ولا أيضا فى نياسالاند ولا روديسيا الشمالية، وهما المنطقتان الشماليتان لاتحاد وسط أفريقيا الذى أنشئ عام ١٩٥٣ (انظر فصل ١٩) وتم الاعتراف بالاتجاه الجديد للسياسة البريطانية حينما خلف أين مالكويد ألن لفوكس بلابد بوكس الكفاح من أجل كل عام إضافى من الحكم الاستعمارى بينما رغب ماكلسويد أن تتخلص بريطانيا من مسئولياتها فى شرق أفريقيا بأقصى سرعة ممكنة، ولذلك فإن دستور كينيا الذى يحمل اسمه قد ذكر أهمية الأغلبية الأفريقية فى المجلس التشريعى عام ١٩٦٠، ولذلك قال أحد زعماء المستوطنين البيض" لقد انتقلت السلطة فى لحظة إلى الأفريقيين، ويعتبر تأخر تاريخ الاستقلال فى كينيا وأوغندا نتيجة للاختلافات السياسية بين الأفريقيين أنفسهم فلقد استمر الشقاق بين حزبى كانو وكادو عنيفا فى كينيا حتى بعد إطلاق سراح كنياتا عام ١٩٦١، وحينما استقلت البلاد فى ديسمبر عام ١٩٦٣ فإنه قد وجد لديها دستور للوفاق الوطنى وبحيث يمنح سلطات واسعة للمناطق المحلية المختلفة، واستطاع مليتون أوبوتى فى أوغندا تأسيس حزب مؤتمر الشعب الأوغندى، ثم تحالف عام ١٩٦٢ مع حزب الكاباكا بوجيندا الملكى وأدى هذا التحالف فى نهاية الأمر بأوغندا إلى الاستقلال، وكان كابا كا البوغندا هو أول رئيس للدولة.

وأنهت بريطانيا سيطرتها الاستعمارية على شرق أفريقيا فى ديسمبر ١٩٦٣ حينما منحت الاستقلال لزنزبار بواسطة دستور جعل السلطان العربى رئيسا للدولة. وتكونت الحكومة من تحالف هش بين الحزب السياسى الذى تديره الأقلية العربية القديمة وأصغر حزبين يمثلان الأغلبية الأفريقية من السكان. ولكن استمرت تلك الحكومة أقل من شهرين قبل أن تقضى عليها ثورة شيوعية. ويجب إلقاء اللوم هنا على البريطانيين نظرا لتعجلهم بمنح الاستقلال دون وجود أساليب قوية لانتقال السلطة إلى حكومة مدنية ملائمة.

## الكونغو البلجيكية

تمت عملية الانتقال من الحاكم الاستعمارى إلى الاستقلال بطريقة سريعة ومحفوفة بالمخاطر فى الكونغو فى الوقت نفسه الذى كانت تسير به شرق أفريقيا بسرعة نحو الاستقلال. وحكم البلجيكيون مستعمراتهم الشاسعة كأنها معزولة تماما عن التغيرات التى تحدث فى أماكن أخرى فى القارة ولذلك حينما نشر أحد المحاضرين فى جامعة أنتورب المهتمة بدراسة شئون الاستعمار واسمه الدكتور فان بيلسن دراسة بعنوان "خطة الثلاثين عاما للتحرر السياسى لأفريقيا البلجيكية" عام ١٩٥٦ فإنه قد تمت مهاجمته بشدة بالغة وبضراوة ووصف بإنه من الثوريين الخطرين. وكان فان بيلسن قد كتب دراسته على أسس موضوعية بحتة، وكان على حق حينما قال:"إن عملية تكوين صفوة مثقفة لتتكون منها الكوادر الصالحة المؤهلة للحكم والإدارة ما زالت متأخرة بجيل كامل عن المستعمرات البريطانية والفرنسية. ولكن تركت بلجيكا الكونغو بعد أربعة أعوام فقط من دراسة فان بيلسن وبعد اتهامه بالتسرع الشديد فى مفاهيمه وتركت الكونغو يواجه مصيره بنفسه. ولذلك اعترف رئيس وزراء بلجيكا – بطريقة مستترة – بفشل بلاده غداة استقلال الكونغو فى عام ١٩٦٠ قائلا:

"كان يمكن للحلول السياسية فى الكونغو أن تكون أسهل بكثير إذا ما وجدت تنظيمات محلية مؤهلة على مستوى الدوائر والمناطق والأقاليم. ولكن لم يكن استقلال الكونغو انتصارا للقومية الأفريقية ولكنه كان فقط نتيجة للتردد البلجيكى وعدم قدرة دولة صغيرة مثل بلجيكا مقاومة الضغوط الدولية عليها، وظهرت أول الشروخ فى الإدارة الاستعمارية البلجيكية عام ١٩٥٧ حينما اشترك الأفريقيون فى الانتخابات المحلية.. وعاد آنذاك جوزيف كازافوبو والذى شيد لنفسه زعامة سياسية قوية بين شعب الباكونغو عند نهر الكونغو الأدنى كمسئول إدارى (عمدة) لإحدى دوائر مدينة ليوبولد فيل. وتشابه ذلك تماما مع الأحداث التى جرت فى كل الأماكن الأخرى فى البلاد كلها. ولذلك كتب أحد المراقبين الأمريكيين:

"إن كل حزب تكون فى الكونغو تقريبا يعود فى أصله إلى جماعـة قبليـة، وحيث إنه توجد عدة قبائل فإنه توجد عدة أحزاب. كما أن المصالح المحليـة لهـا الأهمية القصوى وهى دائما عنصر قوى فى السياسة. وكان باتريس لومومبا الذى ظهر فى الفترة نفسها كزعيم سياسى فى ستانلى فيل هو السياسى الكونغولى الوحيد الذى كانت لديه رؤية واضحة لأهمية إنشاء حزب واحد للبلاد كلها. ولكنـه كـان يحتاج الوقت بالإضافة إلى مقاومة طويلة من الحكومة الاستعمارية البلجيكية لكـى يرغم باقى السياسيين الكونغوليين على فهم أهمية هذا الحزب. ولكن لم توجد آنذاك مقاومة.

فلقد زار الجنرال ديجول مدينة برازافيل فى شهر أغسطس ١٩٥٨، وهـى عبر النهر فقط من ليوبولد فيل، ليعلن السيادة الذاتية داخـل المجموعـة الفرنسـية للمستعمرات الأربع التى كانت تكون اتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية. وأدى ذلـك بطبيعة الحال إلى إثارة القلاقل فى الجانب البلجيكى من نهر الكونغو. وبدأت العديد من الأحزاب القبلية الصغيرة فى المطالبة بالاستقلال للكونغو البلجيكـى. ونشـبت الاضطرابات والإضرابات ثم قامت أعمال شغب عنيفة فى ليوبولد فيل بعد أقل من شهر من عودة لومومبا من مؤتمر أكرا. ونهبت الجماهير من العـاطلين المحـال الأوروبية والمدارس التبشيرية. واستطاع البلجيكيون إعادة النظام إلى العاصمة بعد أقل من أسبوع ولكن أصيبت الهيبة البلجيكية بضربة قاضية. ولذلك ظهر فى العام التالى أن النظام والقانون على وشك الانهيار فى العديد من أجزاء البلاد. ونشـأت بعض أخطر الأوضاع من التوتر بين جماعتين متنافستين من الكونغوليين. فوجـد تهديد بحرب أهلية على سبيل المثال فى إقليم كاساى بين الكاساى بالوبا العـاملين فى مزارع أشجار زيت النخيل والبنلولوا الذين نظروا إلى البالوبا كدخلاء غربـاء فى بلادهم، كما نشبت حالة توتر قصوى فى رواندا وبوروندى الحاكمـة وأغلبيـة السكان من الهوتو، واحتفظ التوتسى بسيادتهم الاجتماعية والسياسية تحت الحكمـين الألمانى والبلجيكى. كما كان هدفهم تماما مثل المستوطنين فى روديسيا الحصـول

على الاستقلال السياسى للبلاد قبل إدخال نظام الانتخابات العامة التى يمكن أن تقضى على سيادتهم. ورد البلجيكيون على التحدى المتزايد للتوتسى بنقل تأييدهم إلى الحركة السياسية الجديدة للهوتو ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على الموقف الناجم من ذلك، فلقد تم قتل التوتسى فى كل أنحاء البلاد بواسطة رعاياهم القدامى وأحرقت منازلهم وسرقت ممتلكاتهم بينما انتظرت الإدارة البلجيكية غير قادرة أو غير راغبة في التدخل، ولذلك تغيرت صورة أفريقيا البلجيكية تماما فى نهاية عام ١٩٥٩ عما كانت عليه فى عام ١٩٥٦. والحقيقة أن الاضطرابات كانت معظمها محلية، كما كان يمكن لدولة أوروبية أخرى أكبر من بلجيكا أن تقضى تماما على تلك الاضطرابات. ولكنها كانت مأساة رهيبة بالنسبة لبلجيكا، إذ وجدت أمامها اختيارات صعبة والتى كما وصفها أحد المتحدثين الحكوميين بأنها محاولة تنظيم الاستقلال بأسرع ما يمكن أو قبول المسئولية عن سفك الدماء التى ستحدث من أى تأخير. وتؤدى الحرب الاستعمارية إلى خسائر أخرى فى الكونغو.

ولذلك دعت الحكومة البلجيكية فى بداية عام ١٩٦٠ مجموعة من الزعماء السياسيين الكونغوليين إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى أوستند وذكر العديد من الأفارقة المشتركون أنهم توجهوا إلى بلجيكا فى انتظار الاتفاق على فترة انتقالية مقدارها خمسة أعوام وتنتقل بعدها البلاد. وكانوا مستعدين لقبول ذلك. ولكن شعرت بلجيكا آنذاك بخيبة أمل شديدة فى الكونغو ولم ترغب فى تحمل مسئولية حكم البلاد بينما تتوحد الأحزاب السياسية الكونغولية أو بينما يتدرب الموظفون المدنيون الكونغوليون على تولى مسئولية الإدارة من البلجيكيين وقبل كل شيء لم تكن بلجيكا على استعداد لإرسال أى قوات جديدة للقضاء على الاضطرابات التى سوف تزداد بالتأكيد إلى رتب الضباط وهاجم الجنود الكونغوليون الضباط البلجيكيين وعائلاتهم. وظهرت كل الأحقاد المتراكمة القديمة إلى السطح بعد انهيار الأمن والقانون. وانتقم الأفريقيون من الأوروبيين كما دخلت مختلف شعوب الكونغو فى قتال مرير فيما بينها وحدثت أسوأ المعارك الأفريقية الداخلية فى منطقة

كاساى حيث اشتعلت نيران حرب أهلية مريرة بين البالوبا وبالبنلولوا، ولذلك فإن الصراع بين أنصار الحكم المركزى وحكم الولايات والذى كان آنذاك من أهم الموضوعات فى تاريخ أفريقيا (فى كينيا وغرب أفريقية الفرنسية على سبيل المثال) قد أصبح محفوفا بالمخاطر فى الكونغو.

فلقد رغب كازافوبو من الباكونغو، وكالونجى من البالوبا وتشومبى من كاتانجا فى إنشاء اتحاد فيدرالى تكون به السلطة الحقيقة فى أيدى زعماء الأقاليم والقبائل. وحاول لومومبا من جهة أخرى إنشاء حكومة مركزية قوية. ولذلك انسحب تشومبى ومعه أقليم كاتانجا كله وانفصل عن الكونغو معلنا استقلاله فى ١١ يونيه ١٩٦٠. وأيدت "شركة اتحاد الصناعة المعدنية" العملاقة المسيطرة على مناجم النحاس فى كاتانجا تلك الخطوة وباركتها، وفقدت الحكومة الكونغولية هنا أهم مصادر دخلها. ولذلك طلب لومومبا مساعدة الأمم المتحدة لوقف انهيار البلاد ولكى تتخلص بلاده أيضا من القوات البلجيكية التى تدخلت فى الثورة. ودخلت الأمم المتحدة آنذاك فى أخطر عملية فى تاريخها. ولكنها طلبت قوات التدخل فى الكونغو من الدول الأفريقية فقط وفعلت ذلك بحكمة بالغة. ولكن لم تفعل تلك القوات ما رغب به لومومبا بالضبط ولذلك اتصل بالاتحاد السوفيتى طالبا المساعدة.

وتحول هنا الوضع الفوضوى فى الكونغو إلى صدارة المسرح العالمى بوصول الصراع والتنافس بين الشيوعية والرأسمالية إلى قلب القارة الأفريقية. وجعل ذلك الدول الأفريقية أكثر إصرارا على اتباع سياسة "الحياد الإيجابى" ولكن أدت أزمة الكونغو أيضا إلى حدوث انقسامات عنيفة فى صفوفها مثلما سنرى فى الفصول التالية. وكان نكروما قد تنبأ منذ عام ١٩٦٠ قائلا:

"وإذا ما فشلنا فى حل مشكلة الكونغو بأنفسنا وبمواردنا الأفريقية الخالصة فإن ذلك يعنى أن مفهوم الحكم الذاتى فى أفريقيا قد اصبح مستحيلا".

وأدى أمر استدعاء لومومبا للروس إلى سقوطه. فلقد اقتصر تأييد بلجيكا والمصالح الغربية الأخرى قبل ذلك على تأييد ضمنى خفى لحركة انفصال تشومبى فى كاتانجا. ولكن بدأت تلك التأثيرات وبدعم أمريكى واضح فى التدخل فى شئون الحكومة الكونغولية المركزية بطريقة سافرة. وتمت لذلك الإطاحة بلومومبا بقيادة الكلولونيل (العقيد) موبوتو والعديد من السياسيين المحليين بقيادة كازافوبو. وتم طرد الروس، وحارب لومومبا فى حماية الأمم المتحدة فى ليوبولد فيل، ولكن قبض عليه الجنود الكونغوليون أثناء توجهه إلى ستانلى فيل، وقتل فى يناير بالرغم من كتمان أخبار مقتله لعدة أسابيع تالية. واضطرت الأمم المتحدة من أجل مواجهة انهيار الحكومة المركزية الكونغولية إلى محاربة انفصال كاتانجا. وكان الأمين العام للأمم المتحدة داج هامرشولد نفسه ضحية لمأساة الكونغو؛ إذ قتل فى حادث سقوط طائرة بالقرب من ندولا فى شمال روديسيا فى سبتمبر ١٩٦١ أثناء توجهه للتفاوض مع تشومبى، وتم احتلال الولاية المنفصلة فى عام ١٩٦٣ فقط بعد قتال مرير وأعيدت إلى الكونغو ولكن أفلست الأمم المتحدة آنذاك إذ رفض عدد من الدول الغنية ومنها فرنسا وروسيا المساهمة فى عمليات الكونغو. كما تم الشك فى أغراض الدول المساهمة ماليا (ومنها بريطانيا وأمريكا بالذات) واتهمت بأن لها أغراضا هناك ومصالح خاصة لزيادة نفوذها أيضا. واضطرت الأمم المتحدة فى نهاية الأمر إلى الانسحاب من الكونغو وتركته يواجه مصيره بنفسه. ولم تتمكن الحكومة المركزية من الاحتفاظ بمنطقة كاتانجا بقوة السلاح أبدا. كما لم يمكن الاحتفاظ بوحدة البلاد واستمراريتها اقتصاديا إلا بقبول تشومبى ومؤيدوه كوزراء فى الحكومة المركزية وبشروطهم الخاصة.

واستمر التوتر وازداد بين شعبى التوتسى والهوتو فى رواندا وإلى درجة أقل فى بوروندى. وفشلت كل محاولات دمج الدولتين الصغيرتين فى دولة واحدة. ولذلك سارت كل منهما فى طريقها الخاص. وأشرفت الأمم المتحدة على المراحل النهائية المؤدية إلى الاستقلال. واستطاعت الأغلبية الخاضعة فى الماضى الإطاحة

بالملكية التوتسوية ولكن بعنف هائل وأعلنت الجمهورية. واستمرت الملكيــة فــى بوروندى ولكنها تحولت إلى ملكية دستورية. وأدى ذلك إلى زيــادة التــوتر بــين التوتسى فى رواندا الذين تحول معظمهم إلى لاجئين فى البلاد المجاورة. وازدادت الصراعات والتوترات بين المجموعتين العرقيتين (وبين شــمال ووســط الهوتــو أيضا) واستمرت خلال العقود الثلاث الأولى من استقلال رواندا، وانعكس الوضــع ولكن بنفس النتائج فى بوروندى. فلقد أطاح رئيس الوزراء ميكومبيرو بالملكية عام ١٩٦٦ وأعلن نفسه رئيسا للبلاد. وقامت سياسته على تدعيم الأقلية التوتسية ممــا أدى إلى المجازر الرهيبة التى صاحبت ثورة الهوتو عام ١٩٧٣.

## مدغشقر

كان لمدغشقر تاريخ منفصل عن القارة الأفريقية فى عدة نواحى كما رأينــا فى الفصول السابقة. ولم يكن سكان الجزيرة من الأفريقيين، كما لــم تكــن لغــتهم أفريقية بالمرة. ولم توجد حركة انتقال كبيرة وتنقل عبر مضيق موزمبيق إلى بداية القرن التاسع عشر على الأقل. وكانت مدغشقر خلال عصر الحكم الفرنسى محطة تقع فى منتصف الطريق بين المستعمرات الفرنسية فــى غــرب أفريقيــا وتلــك الموجودة فى جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى. ولكن بدأت عزلة الجزيــرة فــى التلاشى منذ الحرب العالمية الثانية بينها وبين القارة الأفريقية. فلقد احتلت القــوات البريطانية الجزيرة وكان العديد منها من القوات الأفريقية. وبدأ طلاب مالاجــاش (مدغشقر) يتوجهون بأعداد كبيرة إلى فرنسا للدراسة بعد الحرب وحيــث قــابلوا طلابا آخرين يتحدثون الفرنسية من منطقة غرب أفريقيا. وشعروا بالألفة والقــرب الشديد منهم أكثر بكثير من طلاب جنوب شرق آسيا. وكان العامل الفاصل هنا أن تاريخ كفاح مدغشقر للاستقلال قد تزامن مع عصــر الثــورة الإفريقيــة ولــيس الآسيوية. وأنشئ أول حزب هدفه الاستقلال عام ١٩٤٦، ودخل هذا الحــزب فــى

أول صراع له مع الفرنسيين فى العام التالى نظرا لقيام ثورة عنيفة بسبب المجاعة التى سادت فى البلاد كلها نتيجة لسوء إدارة هيئة زراعة الأرز الحكومية سياسة زراعة ذلك المحصول الحيوى، وانتشرت الثورة فى كل أنحاء الجزيرة وبين مختلف الجماعات والأعراق، ويشمل ذلك الهوفا حكام العصور الماضية كرد فعل عفوى وغريزى ضد الحكم الاستعمارى، وازدادت الثورة ضراوة بعد وحشية القوات الفرنسية ضد الثوار، واستلزم الأمر عاما كاملا لإخمادها وتشابهت ثورة مالاجاش فى نواحى عديدة مع ثورة الماجى-ماجى المبكرة ضد الحكم الاستعمارى الألمانى فى شرق أفريقيا الألمانية عامى ١٩٠٥ و١٩٠٦. فلقد ظن ثوار الماجى ماجى أن الرصاص الألمانى سوف يتحول إلى ماء عند مغادرته فوهات البنادق وحدث الشىء نفسه أثناء ثورة المالاجاش. .

"وقام الثوار بحرابهم المسنونة بمهاجمة القوات الفرنسية المسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة وساروا فى صفوف مترابطة وهم يصيحون "رانو رانو" أى الماء الماء كتعويذة سحرية من أجل تحويل الرصاص إلى ماء عند مغادرته فوهات البنادق والمدافع وبدأ الشك يراود حتى بعض الجنود الفرنسيين وشعروا بالفزع الشديد عند عدم حدوث خسائر فى القوات المهاجمة وإن كان ذلك فقط بسبب سوء تصويبهم أو سوء حالة ذخيرتهم القديمة."(٥٣)

ثم دخلت مدغشقر فترة انتقالية هادئة على غير العادة ومرت من الحكم الاستعمارى إلى السيادة الذاتية إلى الاستقلال التام. وتدين الجزيرة بذلك إلى اعتدال إحدى شخصياتها الكبيرة وهو فيلبيير تسيرانانا الذى بدأ حياته كمدرس قبل العديد من الزعماء الأفريقيين. وكان يعارض الثورة واستخدم بعد القضاء عليها كل مواهبه لرأب الصدع العميق. وتعاون حزبه وهو الحزب الديمقراطى الاجتماعى مع الفرنسيين لتطبيق الإصلاحات المنصوص عليها فى القانون سابق الذكر عام

(٥٣) O.Mnnoni, prospero and Calilan (London 1956), P.59

١٩٥٦. وأصبح بعض المالاجاشيين الذين اشتركوا فى الثورة أو اتهموا بإشـــعالها وزراء فى وزارته.

وأيده شعب المالاجاش فى الاستفتاء الـــذى أجـــراه ديجـــول عـــام ١٩٥٨، وبالإضافة أيضا إلى الـــ٨٠,٠٠٠ مستوطن فرنسي فـــى الجزيـــرة. ثـــم أصـــبح تسيرانانا بعد ذلك رئيسا للجمهورية بعد استقلالها فى شهر يونيه ١٩٦٠. وكانـــت المعارضة الوحيدة الخطيرة لحكمه في شعب الهوفا المقيم فـــى الهضـــاب حـــول العاصمة. وكان الهوفا وهم حكام البلاد السابقون من أفضل عناصر السكان تعليمـــا وثقافة وحضارة. وكان معظمهم أيضا من البروتستانت بينما معظم سكان الجزيـــرة من الكاثوليك.ولذلك استلزم القضاء على التوترات الدينية والاجتماعية بعض الوقت ولكن أصبحت مدغشقر عضوا مهما فعالا فى مجموعة الدول الأفريقيـــة ولعبـــت دورا رياديا فى أنحاء الدول الناطقة بالفرنسية وأيضا بالمنظمـــة الأفرومالاجاشـــية المشتركة ومنظمة الوحدة الأفريقية. واستجابت مالاجاش لطلبات جنـــوب أفريقيـــا لعقد علاقات اقتصادية معها. ولذلك امتزج المالاجاشيون أخيرا فى أفريقيـــا وهـــم أصلا شعب استعمر الجزيرة قادما من المحيط الهندى ولكن بعد مضى فترة طويلة للغاية من ذلك العصر.

# الفصل التاسع عشر

## الطريق إلى الاستقلال (٣) وسط أفريقيا

قررت الحكومة البريطانية عام ١٩٥٣ أثناء عصر تقدم المستعمرات البريطانية فى غرب وشرق أفريقيا فى طريق الاستقلال أن تقوم بإجراء دستورى لمستعمراتها فى وسط أفريقيا ذات الطبيعة المختلفة عن باقى البلاد الأفريقية. ولذلك انضمت محميات شمال روديسيا ونياسالاند، التى لا توجد بها أعداد كبيرة من المستوطنين المقيمين، مع روديسيا الجنوبية التى حكمها مستوطنوها البيض منذ عام ١٨٩١ وتم إنشاء اتحاد وسط أفريقيا، وأملت بريطانيا أن ينمو هذا الاتحاد إلى دولة قوية متعددة الأعراق لتكون توازنا قويا لقوة جنوب أفريقيا التى يحكمها البيض، وكانت إحدى الحلول الوسط فى اتحاد وسط أفريقيا هى عملية تقسيم سلطة الحكم بين بريطانيا وحكومة محلية مشكلة من المستوطنين، ولم ينجح ذلك الأمر وتحطم الاتحاد بعد عشرة أعوام لاستحالة الحكم طبقا لتلك المفاهيم والصراع الناشب منها. فلم تستطع بريطانيا أيضا مقاومة تيار القومية الأفريقية النامية فى المنطقتين الشماليتين، بينما قررت روديسيا الجنوبية الصمود لفترة طويلة أكثر.

وتقع مستعمرتا أنجولا وموزمبيق على جانبى اتحاد وسط أفريقيا وتسيطران على خطوط مواصلاته مع المحيطين الأطلنطى والهندى، وكانت الإمبراطورية البرتغالية فى أفريقيا الاستثناء الوحيد بعد الحرب العالمية الثانية. ولمدة ثلاثين عاما كاملة لم يحدث لنظام استعمارى أوروبى ذى جذور أوروبية ألا يمكنه الصمود أمام تيار الوطنية الأفريقية الهائلة، وكانت أسباب هذا الاستثناء أولا: أن البرتغال من أفقر الدول الأوروبية ولديها أعداد قليلة من الصناعات ومستوى معيشة ليس أفضل

من العديد من الدول الأفريقية المستعمرة، ولكنهـا اختلفـت عـن بـاقى الـدول الاستعمارية الأخرى بأن مصالحها الاستعمارية لم تكن هامشية بل حيوية بالنسـبة لكيانها القومى. وكانت الدولة البرتغالية ثانى دولة دكتاتورية.

واعتاد الشعب البرتغالى فى وطنه عليها ولذلك لم يكترث كثيـرا بأسـلوب الحكم فى المستعمرات، وكان الدكتور سالازار رئيسا لـوزراء البرتغـال لفتـرة طويلة، من ١٩٣٢ إلى ١٩٦٨، وركز دائما على إثارة شعور العزة القومية لكونها دعامة عظمة المستقبل، ولذلك كتب فى عام ١٩٤٢ قائلا: "إن المستعمرات الثريـة الواسعة غير المتطورة والقليلة السكان هى التكملة الطبيعية للزراعـة البرتغاليـة، وسوف تجذب أيضا فائض السكان من البرتغال، ولذلك استمرت أعداد كبيرة مـن البرتغاليين تهاجر إلى المستعمرات الأفريقية، ووجد فى نهاية الستينيات أكثر مـن ٢٥٠,٠٠٠ مستوطن فى أنجولا و١٣٠,٠٠٠ فى موزمبيق بينما بلغ عدد السـكان الأفريقيين ٥ ملايين و٨ ملايين فى المستعمرتين. واحتكر الأوروبيون تماما شئون الزراعة التجارية والتعدين.

وكانت سياسة البرتغال العنصرية شبيهة تماما بسياسة الدمج الفرنسية ولكن لا تمنح صفة المواطنة مزايا سياسية كثيرة لا فى البرتغال ولا فى المسـتعمرات، ولكى يصبح الأفريقى مواطنا وجب عليه الحصول على مؤهلات ثقافية واقتصادية صعبة لدرجة أنه لم يحصل عليها الكثيرون.

ولذلك تم توظيف معظم السكان على أنهم وطنيون والذين كانـت مهمـتهم الرئيسية بالنسبة للإدارة تقديم القوى العاملة فقط. وقال أحد الوزراء الاسـتعماريين عام ١٩٤٣:

"إذا أردنا تعليم أحد الوطنين الأفريقيين الحضارة فإننا يجب أن نعلمـه فـى البداية أحد المبادئ الأساسية فى الحياة وهى أنه لا حق له فى الحياة إذا لم يعمـل، ولقد استفادت البرتغال للغاية من التطور الاقتصادى للمستعمرات، وحصلت علـى

٢٥% من ميزانيتها القومية فى الستينيات منها، وكان قد تـم دمـج المسـتعمرات نظريا بالبرتغال منذ عام ١٩٥١ وأصبحت "مقاطعات ما وراء البحار" وإن اسـتمر الوضع المتدنى للوطن الأفريقى حقيقة واقعة.

## اتحاد وسط أفريقيا الفيدرالى

عاشت روديسيا الشمالية والجنوبية أعوام الرخاء أثنـاء الحـرب العالميـة الثانية، فلقد ارتفعت أسعار النحاس بدرجة هائلة لكونها مكونا مهما فى الصـناعات الحربية والعديد من الأسلحة، وحصلت شركات التعدين فى شمال روديسـيا علـى أسعار جيدة لمعدنها مما أدى إلى ارتفاع أجور عمال المناجم وبالذات البيض مـنهم الذين سيطروا تماما على المهن ذات المهارة. ثم تم إنشاء عـدد مـن الصـناعات التحويلية فى جنوب روديسيا، وزاد إنتاجها الزراعـى وبالـذات التبـغ والماشـية والشعير، واستخدم البريطانيون جنوب روديسيا كمنطقة تدريبية لطيـارى سـلاح الجو الملكى البريطانى، ثم استقرت أعداد كبيرة من العسـكريين السـابقين بعـد الحرب فى البلاد مع عائلاتهم، وكان عدد السكان البـيض ٨٠,٥٠٠ عـام ١٩٥٤ وارتفع إلى ٢٢٠,٠٠٠ عام ١٩٦٠ مقارنة بأربعة ملايين من السكان الأفـريقيين، وأقام معظم البيض فى المدن وبالذات فى ساليسبورى وبولاوايو حيـث انضـمت إليهم أعداد كبيرة من الأفريقيين من المناطق الريفية، وقسمت الحكومة الروديسـية التى يسيطر عليها البيض البلاد طبقا للأعراق، واضطر الأفريقيون إلى الإقامة فى أحياء خاصة بهم فى المدن بينما خصص قانون تخصيص الأراضى، لعـام ١٩٣٠ نصف أراضى البلاد كلها، وتشمل معظم أجود الأراضى للبـيض. كمـا احتكـر البيض معظم الأعمال إلى مستوى الحرفى الماهر وأخذوا أجورا أعلى بكثير مـن الأفريقيين.

وتصور معظم الروديسيين البيض فى العشرينات والثلاثينات أن بلادهم سوف تصبح الإقليم الخامس لاتحاد جنوب أفريقيا. ولكن شعر الروديسيون البيض المتحدثون بالإنجليزية بعدم الرضاء تجاه المفاهيم العنصرية المتزمتة للغاية للحزب الوطنى فى جنوب أفريقيا وانتصاره فى الانتخابات العامة عام ١٩٤٨، ولم يروا فى برامجه أبدا حلا لمشاكلهم، ولذلك انضم السير جود فرى هاجينز رئيس وزراء روديسيا الجنوبية الذى تولى هذا المنصب عدة مرات مع السير روى ويلنسكى رئيس اتحاد عمال التعدين البيض لشمال روديسيا المطالبة بتطبيق خطة قديمة لتوحيد القطرين، ولكنهما عرفا تماما أنهما لن ينجحا أبدا مع الحكومة البريطانية إذا لم تضم للخطة نياسا لاند لتبعيتها الاقتصادية للبلدين الآخرين، وذكر أنه بالرغم من قلة عدد المستوطنين البيض فى روديسيا الجنوبية إلا أنه من الأفضل السيطرة على تلك البلاد الأفريقية بالرغم من صعوبة ذلك، وأن ذلك الأفضل بكثير من كونها جيرانا مستقلة، ويأمل المستوطنون أن يتحول الاتحاد إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعيدا عن سيطرة الحكومة البريطانية كما رغبا أيضا فى الحصول على المزايا الاقتصادية النابعة من الاتحاد ونمو مختلف الأعمال مما يؤدى إلى زيادة تدفق الهجرة البيضاء.

ولكن كان النمو الاقتصادى السريع للاتحاد متوقعا تماما، فلقد أنشئت صناعات جديدة فى روديسيا الجنوبية، كما ازدادت مساحة المدن وسكانها وبالذات مدينة ساليسبورى عاصمة الاتحاد كما تم إنشاء أحد أكبر السدود فى العالم على نهر الزامبيزى فى كاريبا لتقديم وإنتاج الكهرباء لمناجم النحاس فى شمال روديسيا الجنوبية أيضا. ولكن لم يستفد الأفريقيون كثيرا مثل الأوروبيين؛ فلقد بلغ متوسط الأجر السنوى للأفريقيين العاملين ٨٧ جنيها إسترلينيا فقط، كما أن العديد من الأفريقيين عاطلون عن العمل أيضا ولا يستلمون أجورا بالمرة، وغضبت نياسالاند بالذات من الحكومة الاتحادية؛ إذ أن كل ما استفادت به فى الاتحاد إعانة سنوية صغيرة اعترافا بفضلها فى تقديم القوى العاملة.

وتعود المعارضة الوطنية الأفريقية فى روديسيا الجنوبية إلى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين عند إنشاء الحركات العمالية، ويشمل ذلك إنشاء جوشو نكومو اتحادا للمدرسين ثم إعادته للعمل كحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى عام ١٩٥٧، ولكن منعته حكومة وايتهيد عام ١٩٥٩، ولذلك أنشأ نكومو حزبا جديدا عام ١٩٦١، وهو حزب الوحدة الشعبية الأفريقية لزيمبابوى، وباختصار زانو ثم حاول نكومو عام ١٩٦٣ إنشاء حكومة فى المنفى فى دار السلام، وردا على ذلك قام سيثول بإنشاء حزب آخر باسم الوحدة الوطنية الأفريقية الزيمبابوى أو زابو داخل روديسيا ذاتها، وهكذا نشأ أول انشقاق خطير منذ البداية فى الحركة الوطنية، وأيد شعب الندبيلى حزب زانو لكون نكومو من أبنائه ولذلك وجدت قاعدته المحلية فى بولاوايو، بينما حصل حزب زانو على تأييد شعب الشونا، وكانت قاعدته ساليسبورى وسبق النشاط الوطنى الأفريقى فى كل من شمال روديسيا ونياسالاند عملية إنشاء الاتحاد ولكن أدى فرضه بالقوة إلى إزكاء روح الوطنية بهما والشعور بالخطر المحدق.

ولذلك انهارت الدولة الجديدة فى غضون عشرة أعوام فقط نظرا لتشدد المستوطنين من جهة ونمو الوطنية الأفريقية من جهة أخرى، فلقد أصر السياسيون الأوروبيون الذى يسيطرون على البرلمان الاتحادى وأيضا على برلمان روديسيا الجنوبية على الانفراد بالحكم والاحتفاظ بالسيادة الأوروبية مهما كان الأمر، وكل ما قيل عن مبدأ المشاركة بين الأجناس. وكتب هينجيز عام ١٩٥٦ أن "السيطرة السياسية" يجب أن تظل فى أيدى "أصحاب الحضارة" أى الأوروبيين، وأن ذلك سيستمر إلى المستقبل القريب، أما ويلنسكى فلقد شبه الشراكة بالعلاقة بين الفارس والجواد. ولذلك وصل عداء الأفريقيين للحكومة الاتحادية إلى مداه عام ١٩٥٩ وذلك بعد عودة الدكتور هاستنجس باندا إلى نياسا لاند بقليل وبعد غياب استمر أربعين عاما، وقامت المظاهرات والاضطرابات وأعمال الشغب مما أدى إلى إعلان حالة الطوارئ فى نياسا لاند وروديسيا الجنوبية، وسجن العديد من

السياسيين الوطنيين الأفريقيين، وذكرت الحكومة الاتحادية أن المعارضة قد أتــت أساسا من مجموعة من المتشددين الأفريقيين، وساد هذا الرأى أيضا فى بريطانيــا، ولكن رفضت لجنة دفليين المكلفة بالتحقيق فى اضطرابات نياسالاند تلك المفــاهيم قائلة:

"وترى الحكومة أن الآمال والتطلبات الوطنية من أعمال أقليــة قليلــة مــن السياسيين الأفريقيين أصحاب المصالح الخاصة والذين يخشون فقد مــواقعهم فــى عصر الاتحاد، وأن أغلبية الناس لا تهتم إطلاقا بالسياسة ولكننا وجدنا الحالة علــى غير ذلك وبالعكس، فلقد اعترف الجميع بأن هناك معارضة قوية للاتحاد وأن لذلك جذورا عميقة ويتفق على ذلك الجميع.

ولذلك تمثل طوارئ عام ١٩٥٩ الخط الفاصل فى حيــاة الاتحــاد وقــرر البلجيكيون الانسحاب من الكونغو المجاورة فى بداية العام التالى كما أن الحكومــة البريطانية قد فقدت الأمل آنذاك فى التجارب المتعددة الأعراق فى تنجانيقا وكينيــا، وندد هارولود ماكميلان رئيس الوزراء البريطانى بعدم التقدم فى المشاركة الحقيقية فى الاتحاد أثناء جولته الأفريقية عام ١٩٦٠، وأنهى جولته فى مدينة كيب تــاون، حيث ألقى خطابه الشهير "رياح التغيير" أمام برلمان اتحاد جنوب أفريقيا قائلا:

"ولقد رأينا ميلاد الوعى الوطنى لشعوب عاشت لمدة قــرون عديــدة فــى الماضى تابعة لقوى أخرى، وانتشرت تلك الحركة منذ خمسة عشر عاما فى كــل آسيا. وطالبت شعوب عديدة هناك من مختلف الأجناس والحضــارات بالحصــول على الاستقلال. ويحدث الشيء نفسه الآن فى أفريقيا، كما أن أكثر الانطباعات فى ذهنى منذ أن غادرت لندن منذ شهر هى قوة الوعى الوطنى الأفريقى، وتهب رياح التغير عبر القارة الآن، وسواء أعجبنا ذلك أم لا فإن هذا الــوعى الــوطنى مــن الوقائع السياسية الحقيقية ويجب أن تأخذ سياستنا الوطنية ذلك الأمر بعين الاعتبار.

وأدهش خطاب ماكميلان وأغضب سكان جنوب أفريقيا البيض كما أنه اعتبر مرحلة إضافية فى تدهور الاتحاد القائم شمال نهر اللمبوبو، وذكرت لجنة مونكتون والتى أرسلت للتحرى عن أحوال الاتحاد أن المشاركة الأفريقية "مجرد سراب" وأوصت اللجنة بأنه فى حالة فشل أى حل آخر فمن حق المنطقة الانفصال، ولذلك قرر ايان ماكليود وزير شئون المستعمرات والمسئول عن التخلى عن سياسة تعدد الأجناس فى كينيا (فيما سبق فصل ١٨) أن الاتحاد لا يجب أبدا أن يقف حائلا فى وجه المنطقتين الشماليتين إذا تولت الأغلبية الأفريقية مقاليد الحكم، ووصل الأفريقيون إلى هذا الهدف فى نياسالاند عام ١٩٦١، ولكن استطاع المستوطنون الروديسيون الشماليون بمساعدة ولنسكى تأجيل هذا التطور لمدة عامين آخرين، ولكن استقلت روديسيا الشمالية فى نهاية الأمر عام ١٩٦٣ بقيادة كينث كواندا الذى اشتهر تماما آنذاك كرجل دولة من الطراز الأول وذكر مع باندا أنهما سينتهزان أول فرصة للانسحاب من الاتحاد.

وساء الوضع كثيرا فى روديسيا الجنوبية لمؤيدى الاتحاد، فلقد رفض الزعماء الوطنيون الأفريقيون عام ١٩٦١ دستورا جديدا يمنحهم دورا جديدا محدودا فى الحكومة وانتخب البيض حزبا يمينيا جديدا يسمى الجبهة الروديسية بزعامة ونستون فيلد إلى السلطة عام ١٩٦٢ وتمسك هذا الحزب بحكم البيض فى البلاد، ثم عينت الحكومة البريطانية آنذاك ر. أ. بتلر كوزير خاص للإشراف على حل الاتحاد الذى انتهى فعلا فى آخر يوم من عام ١٩٦٣، واستقلت نياسالاند باسم مالاوى فى شهر يوليو ١٩٦٤، ثم تبعتها روديسيا الشمالية باسم جمهورية زامبيا فى أكتوبر ١٩٦٤، وعادت روديسيا الجنوبية إلى وضعها القديم كمستعمرة بريطانية متمتعة بالحكم الذاتى، ولكنها حصلت على ميزة كبرى بالسيطرة التامة على معظم القوات المسلحة للاتحاد السابق بالإضافة إلى بعض المقاتلات الحربية الحديثة، واستخدمت حكومة الجبهة الروديسية أساليب عنيفة للغاية للقضاء على الحركات الوطنية ثم منعت أكبر حزبين من الأحزاب السياسية الأفريقية، وقيدت

حركة زعمائها ويشمل ذلك كل من نكومو وسيتهولى دون محاكمة ولـذلك أعـاد الحزبان إعادة تكوين انفسهما من مدينة لوزاكا الآمنة.

وحاول فيلد طوال عامى ١٩٦٣ و١٩٦٤ التفاوض مع الحكومة البريطانيـة من أجل الاستقلال وفشل، ولذلك استقال فى أبريل عام ١٩٦٤ وحل محلـه أيـان سميث الأكثر تشددا وضراوة والذى استمر فى التفاوض مع حكومة العمـال التـى تولت زمام الحكم فى أكتوبر عام ١٩٦٤ وأعلنت حكومة سميث الاسـتقلال مـن جانب واحد فى ٧ نوفمبر ١٩٦٥، وتشابهت أول فقرة بهـا عمـدا مـع إعـلان الاستقلال الأمريكى لعام ١٧٧٦ وذكرت:

"لقد علم التاريخ البشرى أنه قد يصبح من الضـرورى لشـعب أن يحـدد اتجاهاته السياسية التى تربطه بشعب آخر بحيث يؤدى ذلك إلى تحديد مصيره لكى يحتل مرتبة ومكانة بين الدول الأخرى بطريقة منفصلة ومتساوية".

ولكن ظهر هذا الإعلان والعديد من المفاهيم الأخرى فى إعلان سميث على أنها شديدة السخرية بالنسبة لمعظم الروديسين الأفريقيين، ولم تعترف أى دولة فـى العالم باستقلال روديسيا الجنوبية من جانب واحد، ولكنها استطاعت نظرا لتعاونهـا العملى مع جنوب أفريقيا والبرتغال أن تصمد وتقاوم لمدة تزيد على عشرة أعـوام أخرى قبل انهيارها.

## الحروب الاستعمارية فى أنجولا وموزمبيق

نشبت أعمال شغب خطيرة للغاية فى لواندا عاصمة أنجـولا فـى فبرايـر ١٩٦١ بعد ستة شهور فقط بالكاد من استقلال الكونغو. وقام أعضاء مسلحون مـن الحركة الشعبية لتحرير أنجولا بمحاولة لإطلاق سراح المسجونين السياسيين مـن السجن فى المدينة. ثم نشبت ثورة أخرى أخطر بكثير بعد شهر فى شمال أنجـولا

بواسطة أعضاء فى حزب وحدة شعوب أنجولا والذى أنشأه هولدن روبرتو عام ١٩٥٨ وعمل هذا الحزب فى قواعد فى الكونغو حيث تأثر روبرتو كثيرا بباتريس لومومبا وأيد شعب الباكونغو الذى يعيش على جانبى الحدود هذا الحزب. ثم اتحد حزب وحدة شعوب أنجولا عام ١٩٦١ مع حزب آخر وكونا معا الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا (فنالا).

وكانت الثورة فى شمال أنجولا حادثا خطيرا للغاية. فلقد قتلت قوات حرب العصابات الوطنية أكثر من ٦٠٠٠ أفريقى من المتعاونين مع الحكومة بالإضافة إلى ٢٠٠٠ من البيض. ويعتبر ذلك أكبر رقم من المدنيين الأوروبيين الذين قتلوا فى أى مستعمرة أفريقية خلال عصر الحروب ضد الاستعمار، فلم يكن البرتغاليون مستعدون بالمرة لنشوب الثورة واضطروا إلى إحضار ٣٠,٠٠٠ جندى من البرتغال. ونجحت تلك القوات فى القضاء على الثورة بدرجة كبيرة فى نهاية عام ١٩٦١ ولكن بعد قتل ٥٠,٠٠٠ أفريقى فى قتال وحشى، وكان كان ذلك مجرد المرحلة الأولى من حرب التحرير الأنجولية، ثم نشبت ثورات شعبية أخرى فى غينيا البرتغالية عام ١٩٦٢ ثم فى موزمبيق عام ١٩٦٤. وتم الهجوم على السياسة الاستعمارية البرتغالية فى الأمم المتحدة من كل الدول باستثناء جنوب أفريقيا وأسبانيا. وقدمت لجنة فرعية للأمم المتحدة والتى لم يصرح لها بالدخول إلى أنجولا تقريرا فى نهاية عام ١٩٦١ قائلة:

"تواجه السلطات البرتغالية اختيارا تاريخيا فإما الاستمرار فى استخدام القوة معه كل التداعيات والمآسى الناتجة عن ذلك أو الانصياع إلى الرأى العام العالمى واتخاذ الإجراءات البناءة لبدء علاقة جديدة مع شعب أنجولا، ولكن تحتاج فقط لفهم القوى الجديدة المؤثرة على العالم الآن.

ولكن لم يبدو أبدا أن البرتغال قد فهمت تلك القوى. فلقد عدلت القانون بسرعة بعد نشوب الثورة وألغت الحكومة البرتغالية مفهوم الوطنية الأفريقية البالغ

التدنى، واعتبرت كل سكان المستعمرات برتغاليين، ومنحت المجـــالس التشـــريعية المحلية بعض السلطات الإضافية، ولكن احتفظ البرتغاليون تماما برغبتهم فى بقائهم قوة إمبراطورية كما تم تشجيع زيادة الهجرة إلـــى المســـتعمرات، وذكـــر وزيـــر المستعمرات:

"تعتقد أنه من الضرورى تماما الاستمرار فى سياسة الاستيطان فى أفريقيـــا البرتغالية بواسطة الأوروبين البرتغاليين وسوف يقومون بتشـــييد ديـــارهم هنـــاك ويجدون فى أفريقيا امتدادا لوطنهم" وأضاف: "تبين تلك الإجراءات الثقة التامة فـــى المستقبل وراحة البال والهدوء الذى نواجه به مصاعب اليوم ومشـــاكله بالإضـــافة إلى إيماننا العميق بمجرى التاريخ". وكانت أكبر مشكلة تواجه الحركات الوطنيـــة فى أفريقيا البرتغالية ثم فى روديسيا الجنوبية وجنـــوب أفريقيـــا فيمـــا بعـــد هـــى اضطرارها للعمل من خارج بلادها، بالإضافة إلى المجهود الإضافى لقرار التفاهم واستمراره بين الجماعات والأحزاب المعنية وبالذات إذا حصلت على دعمها مـــن جهات خارجية مختلفة، ولذلك أنشأت الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا حكومـــة فـــى المنفى فى كينشاسا كان فيها روبرتو رئيسا للوزراء وجوناس سافمبى وهـــو مـــن شعب الأوفيموندو وزيرا للخارجية وكان ذلك محاولة للحصول على تأييـــد أكبـــر للحزب، فبالإضافة إلى مساندة شعب الباكانجو فى الشـــمال رغـــب الحـــزب فـــى الحصول على تأييد شعوب منطقة الوسط والجنوب كما وصلته أيضـــا مســـاعدات سرية مهمة من الولايات المتحدة ثم أنشأ أوغسطين ونيتو الرئيس المنتخب الجديـــد للحركة الشعبية لتحرير أنجولا حكومة منافسة مقرها برازافيـــل فـــى جمهوريـــة الكونغو، ثم طلبت المساعدة الخارجية من الاتحاد السوفيتى وحلفائه ولكـــن نشـــب نزاع بين سافمبى وورّبروتو عام ١٩٦٤ وغادر كينشاسا لإنشاء حزبه المعـــروف بالاتحاد الوطنى للتحرير التام لأنجولا، وأقام سافمبى قاعدته فى أقصـــى جنـــوب أنجولا بالقرب من الحدود مع جنوب غرب أفريقيا. وحاول أن يحصل من هنـــاك على مساعدات خارجية من دول متباينة للغاية من الناحية الأيديولوجية مثل الصين وجنوب أفريقيا.

وحاولت تلك الأحزاب الثلاثة إنشاء معاقل لها يحكمها الأفريقيون داخل حدود أنجولا ثم ازداد نشاط الحركة الشعبية لتحرير أنجولا فى نهاية عقد السبعينيات فى المنطقة الجبلية فى شمال شرق لواندا بينما الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا قواعدها بين شعب الباكونغو ثم حاولت التوغل فى المنطقة الوسطى والشرقية من قواعدها فى زامبيا. واحتفظ الاتحاد الوطنى للتحرير التام لأنجولا بمنطقة نفوذه فى الجنوب واستطاعت تلك الحركات الثلاث أن تجذب ثقة السكان المحليين والاعتراف بسلطتها فى مجالات جباية الضرائب، وإدارة مدارس الأحراش، والمستشفيات ومراكز التدريب لمقاتليها، ولكن احتفظ البرتغاليون بسهولة بالمدن الرئيسية نظرا لتفوقهم الساحق فى الأسلحة ومرونة تحركاتهم، كما سيطروا أيضا على الطرق التى تربط بينهما كما استطاعوا أيضا حماية المناجم والمزارع التى يعتمد عليها اقتصاد البلاد ولكن دفعت البرتغال الثمن غاليا، وسداد نفقات نشر قوات بلغ تعدادها ٥٠,٠٠٠ من القوات المسلحة، وحدث الشىء نفسه على مستوى أصغر بكثير فى مستعمرة غينيا البرتغالية الصغيرة فى غرب أفريقيا. سببت ثورة موزمبيق أكثر المشاكل للبرتغاليين فى بداية السبعينيات فلقد تم إنشاء جبهة تحرير موزمبيق عام ١٩٦٢ فى دار السلام بعد توحيد ثلاثة أحزاب سابقة تحت زعامة إدوارد موندليين الذى ولد فى جنوب موزمبيق وتعلم فى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم عمل بعد ذلك فى الأمم المتحدة فى نيويورك وقام بالتدريس فى إحدى الجامعات الأمريكية.

وأيد شعبا الماكوندر والنيانجا حزب تحرير موزمبيق فى البداية وكانا يقيمان فى أقصى الشمال بجوار الحدود مع تنجانيقا، وكان عدد كبير منهم قد هرب من البرتغاليين إلى تنجانيقا واستمد الحزب منهم أول جنوده المقاتلين ثم بدأ حزب تحرير موزمبيق فى شن الهجمات فى الجنوب عبر نهر الروفوما عند هضبة ماكوندى عام ١٩٦٤. ثم حاول رجال حرب العصابات التوغل جنوبا عبر الساحل ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك نظرا للعداء التقليدى لشعب الماكوا ولكن قام الحزب بمد

أعماله عام ١٩٦٥ إلى منطقة نياسا المجاورة لمالاوى ثم توغل جنوبا حيث وصل إلى تيتى على نهر الزاميزى فى أقصى الجنوب عام ١٩٦٨.

ووصلت حرب موزمبيق آنذاك إلى مرحلة الخطر بالنسبة للبرتغال نظرا لوصول الثوار إلى تيتى بينما كان حجم الثورة قبل ذلك صغيرا نسبيا، وأعلن البرتغاليون عام ١٩٦٦ خططا لإنشاء سد ومحطة توليد طاقة على نهر الزاميزى بين تيتى وحدود زامبيا حيث يسير النهر لمسافة ٥٠ ميلا تقريبا (٨٠ كم) فى ممر كابورا باسسا بين الجبال ولذلك تم إنشاء مجموعة دولية تدعى زامكو بواسطة الهيئة الأنجلو أمريكية لجنوب أفريقيا وتشمل شركات فرنسية وألمانية غربية وجنوب أفريقية. وبدأ العمل عام ١٩٦٩ وانتهى بناء السد عام ١٩٧٤، وتم اختبار أول مولدات الكهرباء عام ١٩٧٥، وكان سد كابورا باسسا رابع أكبر منتج للطاقة الكهربائية فى العالم، كما أنه عند اكتمال طاقته فإنه سوف ينتج طاقة تفوق احتياجات موزمبيق عدة مرات. ولذلك اتفق البرتغاليون عام ١٩٦٩ على بيع نسبة كبيرة منها إلى جنوب أفريقيا. ولذلك تم إنشاء خط جهد عال لمسافة ٨٠٠ ميل (١٣٠٠كم) لربط كابورا باسسا بشبكة مع شبكة جنوب أفريقيا عند ميدل بورج، وكان لسد كابورا باسسا آثار مهمة للغاية لجنوب أفريقيا. ويعنى ذلك أيضا بالنسبة للبرتغال أن احتلالها لموزمبيق أبدى، وحاول حزب تحرير موزمبيق إيقاف العمل أو تعطيله على أحسن الفروض ولكن دافع البرتغاليون بضراوة بمساعدة جيش وشرطة جنوب أفريقيا عن المشروع كله ولكن لم يعش موندلين الذى قاد حزب تحرير موزمبيق بإخلاص ليرى نجاح ثورته؛ إذ تم اغتياله بواسطة طرد ملغم عام ١٩٦٩. ويعتقد أن العملاء البرتغاليين قد أرسلوا له طرد ملغما إلى مكتبه فى دار السلام مقر عمله. ثم خلفه فى رئاسة الحزب سامورا ماشيل قائد الثورة الميدانى.

وإذا لم تستطع قوات جبهة تحرير موزمبيق منع العمل على السد فإن قواتها قد وسعت أعمالها الحربية فى إقليم تيتى، ثم امتدت عمليات حرب العصابات إلى حاينكا الأكثر جنوبا، حيث كادت توقف حركة المواصلات على الطرق

والسكك الحديد فيما بين بيرا من جهة وروديسيا من جهة أخرى، وأصبح الوضع العسكرى خطيرا لدرجة أنه قد تقرر إرسال ١٠,٠٠٠ من القوات البرتغالية الإضافية لموزمبيق لتدعيم الـ ٦٠,٠٠٠ الموجودة هناك أصلا. وأدت زيادة حدة الحرب فى موزمبيق إلى كسر إرادة البرتغال. فلقد رأى الكثيرون فى الجيش والصناعة أن أفضل الحلول لحل المشاكل الاقتصادية المزمنة هى الانضمام للسوق الأوروبية المشتركة المسماة بالمجموعة الاقتصادية الأوروبية آنذالك بدلا من أحلام اليقظة الخاصة بالإمبراطورية الأفريقية. ولذلك أطاح ضباط فى حركة القوات المسلحة بحكومة كايتانو فى ٢٥ أبريل ١٩٧٤ والتى خلفت حكومة سالازار عام ١٩٦٤. وأعلنت الحكومة الجديدة للجنرال سبينولا أنها سوف تمنح نوعا من الحكم الذاتى لكل مستعمراتها عبر البحار، واستقلت غينيا بيساو تماما بعد بضعة أشهر، ولكن كان الوضع فى أنجولا وموزمبيق أكثر صعوبة.

واضطر البرتغاليون إلى ممارسة دور غير معهود بالنسبة لهم وهو عقد السلام بين الأحزاب الوطنية الأنجولية الثلاثة المتنافسة، وتم إنشاء حكومة مؤقتة للتحضير للاستقلال فى نوفمبر ١٩٧٥، وذلك بعد عقد اجتماع أخير على الفور فى البرتغال ودعمت الأحزاب الثلاثة مواقفها العسكرية والسياسية قبل تاريخ الاستقلال واحتلت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا المنطقة الشمالية بينما حصلت الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا على موطئ قدم فى لواندا والمنطقة المحيطة بها والتى يقيم بها شعب الموبوندو ودعم الاتحاد الوطنى للتحرير التام لأنجولا أخيرا موقفه بين شعب الأوفمبوندو والمنطقة الجنوبية الشرقية كلها.

وانهارت الحكومة المؤقتة كلها بحلول شهر يونيه ١٩٧٥ وتدخلت القوى الخارجية آنذاك بوضوح تام ليس من أجل الوصول إلى حل سلمى بل لتعقيد الموقف وجعله أكثر خطورة وأيدت الولايات المتحدة والصين الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا وحزب الاتحاد الوطنى أيضا، بينما أيد الاتحاد السوفيتى حرب الحركة الشعبية لتحرير أنجولا اليسارى الميول، ثم أرسلت كوبا فى منتصف عام

١٩٧٥، إن لم يكن قبل ذلك، خبراء عسكريين لتدريب قوات الحركة الشعبية ولكن احتلت قوات من جنوب أفريقيا فى أغسطس المنشآت الكهروهيدرولية بجوار حدود جنوب غرب أفريقيا ولحمايتها من هجمات كل من قوات الحركة الشعبية وقوات حركة تحرير شعوب جنوب غرب أفريقيا، وساعدت قوات كوبية كثيرة بالإضافة إلى بعض الروس الحركة الشعبية، كما عرف أن قوات مقاتلة كوبية فى طريقها بحرا، ولذلك تحرك مستشارون من جنوب أفريقيا إلى جنوب أنجولا لمساعدة قوات الاتحاد الوطنى كما زحف طابور عسكرى يتميز بالسرعة والكفاءة القتالية بسرعة ناحية الشمال واستولى على مدينتى بنجويلا ولوبيتو، ثم توغل لمسافة بعيدة عند نهر كوانزا جنوب العاصمة لواندا، وفى الوقت نفسه تقدمت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا ومعها بعض المرتزقة الأوروبيون وبمساعدة عسكرية من زائير فى الشمال ووصلت أيضا إلى مشارف لواندا.

ووصلت كميات هائلة من المعدات الروسية والكوبية إلى لواندا فى منتصف نوفمبر ويشمل ذلك الدبابات الثقيلة والمدفعية بالإضافة إلى ١٥,٠٠٠ من القوات الكوبية وتكبدت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا خسائر فادحة بعد زحفها من الشمال، وكانت جنوب أفريقيا قد فشلت فى الحصول على مساندة الولايات المتحدة وباقى الدول الأوروبية لوجودها العسكرى فى أنجولا، ولذلك قررت الانسحاب بعد أخذ تعهد من حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا بعدم التدخل فى عمل محطة الطاقة الكهروهيدرولية على نهر كونينى ثم انهارت بعد ذلك المواقع الأمامية لحزب الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا بسرعة هائلة أمام زحف الحركة الشعبية اليسارية وحلفائها ولم يستطع حزب الجبهة الوطنية إلا الاحتفاظ ببعض الوجود الذى يمكنه من تعطيل حركة السكة الحديدية لبنجويلا ومنعه عن العمل، وهكذا سيطر نيتو وحزبه اليسارى على كل أنجولا لفترة من الزمن.

وكانت الحكومة العسكرية البرتغالية قد خططت فى البداية لعقد استفتاء لتقرير مستقبل البلاد، وأصبح من الواضح أن معنويات القوات البرتغالية من

البيض والسود فى الحضيض ولن يمكنها السيطرة على الموقف لبضعة أشهر، ثم نشبت اضطرابات فى أحواض السفن فى بيرا ولونزوماركيز بالإضافة إلى قيام انتفاضات محلية ضد مزارع البيض، ولذلك تخلى الحكام البرتغاليون الجدد عن التفاوض حول الحل الدستورى ووقعوا اتفاق لوساكا فى منتصف عام ١٩٧٤ مع ماشيل، وترك هذا الاتفاق جبهة تحرير موزمبيق مسيطرة تماما على البلاد واستقلت موزمبيق فى شهر يونيه ١٩٧٥ بالرغم من بعض المقاومة من المستوطنين البيض وبالذات فى لونزوماركيز.

ولذلك تم حكم كل من أنجولا وموزمبيق طبقا للمفاهيم الماركسية الصارمة بعد انتصار الحزبين اليساريين، وهما حزب الحركة الشعبية فى أنجولا بقيادة نيتو والجبهة الشعبية فى موزمبيق بقيادة ماشيل، وتم حشد السكان فى البلدين لإقامة مجتمعات اشتراكية جديدة خالية من تأثير كل من ماضيها الاستعمارى وتراثها الأفريقى القديم، وهرب معظم المستوطنين البيض من البلاد خلال شهور الاستقلال الأولى، ولكن تميزت الحكومتان باتجاههما العملى فى علاقاتهما الخارجية، وحافظ حزب الحركة الوطنية فى أنجولا على تعهده بعدم التعرض لمحطات كهرباء كونين ولكنه ساعد مقاتلى حركة تحرير جنوب غرب أفريقيا فى التسلل إلى بلادهم من أنجولا، وردت قوات جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ بالهجوم على قوات حزب حركة تحرير جنوب غرب أفريقيا فى كاسينجا على مسافة كبيرة داخل أنجولا إذ توغلت ١٥٠ ميلا (٢٠٠كم) داخلها ثم استمرت تلك الهجمات خلال عقد الثمانينات، واحتفظت أنجولا باتفاقها التجارى مع شركة زيت الخليج الأمريكية لاستغلالها بترول كابندا بالرغم من قبولها المساعدة من روسيا وكوبا، أما موزمبيق فلقد أيدت تماما القوات الوطنية الروديسية العاملة من قواعدها فى موزمبيق لمد هجماتها داخل روديسيا ذاتها ولكنها - أى موزمبيق - قد عانت أيضا الكثير من الهجمات المدمرة من القوات الحكومية الروديسية، ولكن احتفظت موزمبيق، من جهة أخرى بعلاقات وثيقة دبلوماسية مع جنوب أفريقيا وقبلت أعمال تجنيد أعداد كبيرة من

العمال الموسميين الموزمبيقيين للعمل فى مناجم الـذهب فـى جنـوب أفريقيـا. واستخدمت أيضا قوى عاملة ماهرة من جنوب أفريقيا لإدارة وتشغيل خط السـكة الحديدية ومرافق الميناء فـى مـابوتو وهـو الاسـم الجديـد للعاصـمة وهـى لورنزوماركيز السابقة. ولكن أثبتت الأحـداث فـى نهايـة السـبعينيات هشاشـة انتصارات الحركة الشعبية لتحرير أنجولا وجبهة تحرير موزمبيـق فلقـد كانـت السياسات الاشتراكية التى طبقها الزعماء الأنجوليون كارثـة اقتصـادية حقيقيـة. وعادت بالتالى الحروب الأهلية بسرعة، وكانت قوات الاتحاد الوطنى لتحرير كـل أنجولا قد هزمت فى السابق ولكنها لم تدمر أبدا، واسـتطاعت الحركـة تعـويض خسائرها تحت قيادة سافمبى الماهرة وبمساعدة كبيرة من جنوب أفريقيـا وبعـض المساعدة من زامبيا واستأنفت القتال ضد حكومة لواندا الماركسية واعتمد مسـتقبل جنوب غرب أفريقيا تماما على نتيجة هذا الصراع، ولكن لم يشعر حزب الحركـة الشعبية لتحرير أنجولا أبدا بالثقة لكى يتخلص من الكوبيين ويتفاهم مـع ســافمبى، وذلك إلى أن تتخلص جنوب غرب أفريقيا من حاميات جنوب أفريقيـا الموجـودة بداخلها، ولكن رفضت جنوب أفريقيا بموافقة ضمنية من الولايات المتحدة أن تمنح جنوب غرب أفريقيا استقلالها إلا بعد الحصول على وعد بالانسحاب الكوبى علـى الأقل، ثم ظهرت حركة مقاومة جديدة فى موزمبيق معاديـة للماركسـية وقامـت بحرب عصابات وتسمى بحركة المقاومة الوطنية لموزمبيق، وكانت حكومة إيـان سميث العنصرية قد جندتها ودربتها فى البداية، ثم بدأت تلك الحركة بالهجوم علـى قوات تحرير موزمبيق وقطع طرق النقل والمواصلات ثم تولت جنـوب أفريقيـا مهمة الإشراف على هذا الحزب المعادى للماركسية بعد عام ١٩٨٠ ولكن تم ذلـك بواسطة جهات لم تستطع حكومة جنوب أفريقيا السيطرة عليها تماما، ولكن ازدادت حدة عمليات الحركة الوطنية لتحرير موزمبيق وأصبحت أكثـر انتشـارا وعنفـا وتدميرا عما سبق.

أدى إعلان استقلال روديسيا من جانب واحد إلى حدوث أزمة ذات أبعاد عالمية، فلقد أكدت أقلية بيضاء لا يكاد يبلغ تعدادها ربع مليون نسمة استعدادها بل حقها فى حكم أربعة ملايين أفريقى أو اكثر كدولة مستقلة، ولم تكن الدول الأخرى على استعداد للتدخل العسكرى وليس بالتأكيد بريطانيا المسئولة طبقا للقانون الدولى عن روديسيا، ورفضت الحكومة البريطانية إعلان الاستقلال من جانب واحد واستطاعت إقناع دول العالم الأخرى بعدم الاعتراف بروديسيا، ثم عملت بريطانيا عن طريق الأمم المتحدة وقامت بتنظيم مجموعة من العقوبات المالية والتجارية، ووافقت معظم الحكومات على تلك العقوبات ولكنها لم تلزم رعاياها باتباعها، كما رفضت جنوب أفريقيا والبرتغال تلك العقوبات أصلا وموضوعا، وأدى ذلك إلى زيادة صمود روديسيا وقدرتها على البقاء، ووصلها بالذات البترول وهو السلعة الحيوية الضرورية للاقتصاد بالذات وبطريقة منتظمة أيضا.

واستمرت العمليات الهجومية ضد روديسيا من الخارج. فلقد نظم حزب زابو فيما بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٠ مجموعة من هجمات حرب العصابات على وادى الزامبيزى بالاتفاق مع حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى لجنوب أفريقيا انطلاقا من زامبيا ثم بدأ حزب زانو فى نهاية عام ١٩٧٢ فى شن هجمات على شمال شرق روديسيا من المناطق التى يسيطر عليها حزب تحرير موزمبيق فى منطقة تيتى وازدادت حدة هجمات حرب العصابات وأيضا الإجراءات المواجهة لها من نظام حكم إيان سميث الذى ساعدته جنوب أفريقيا إلى عام ١٩٧٥، ويشمل ذلك إنشاء حواجز أمنية على طول الحدود مع موزمبيق، وجمع السكان المحليين فى قرى محمية، وتحديد المناطق التى يمنع الاقتراب منها وحيث يمكن إطلاق النار فورا وبدون إنذار لكل من يخالف هذا الأمر.

ثم أغلق سميث الحدود مع زامبيا فى بداية عام ١٩٧٣ للرد على مساعدة

كواندا لقوات حرب عصابات حزب زابو. ولكن يعنى الانقلاب الذى حدث فى البرتغال فى شهر أبريل ١٩٧٤ أن موزمبيق سوف تتحول سريعا إلى دولة مستقلة معادية لروديسيا والتى أصبحت بالتالى أكثر عزلة بكثير.

واستمرت حرب العصابات من حوالى ١٩٧٤ بواسطة جيوش مستقلة تماما عن الأحزاب التى تسيطر عليها، فلقد عمل الجيش التابع لحزب زابو وهو الجيش الشعبى لاستقلال زيمباوبوى بطريقة مستقلة عن الحزب، كما حدث الشيء نفسه للجيش التابع لحزب زانو وهو حزب التحرير الوطنى الأفريقى، وغادر روبرت موجابى روديسيا إلى موزمبيق عام ١٩٧٥، حيث لعب دورًا مهما فى إدارة الحرب بالتعاون مع الرئيس ماشيل، وتحولت حرب العصابات إلى حرب شاملة على مختلف الجبهات من عام ١٩٧٦ فصاعدا. كما استطاعت القوات الوطنية التوغل بعمق داخل روديسيا، ووصلت إلى مشارف العاصمة ساليسبورى ذاتها وشعرت جنوب أفريقيا بالقلق من تصاعد الحرب ولذلك غيرت سياساتها وفضلت قيام حكومة أفريقية سوداء صديقة فى زيمباويوى المستقلة عن الحكومة البيضاء العنصرية المتهاوية، ولذلك حاول رئيس وزراء جنوب أفريقيا فروستر أن يتفاوض مع الزعماء الوطنيين للضغط على الروديسيين عام ١٩٧٥ وقام إيان سميث بمحاولة أخيرة للوصول إلى اتفاق داخلى بعقد مباحثات مع جوشوا نكومو ولكنها فشلت وغادر نكومو إلى زامبيا ثم زار وزير الخارجية الأمريكى هنرى كسنجر جنوب أفريقيا فى نهاية ذلك العام وقابل كل المسئولين فى الأحداث الروديسية واستطاع أن يحصل على موافقة سميث بصفة مبدئية للوصول إلى حكم للأغلبية الأفريقية خلال عامين وكان ذلك مفاجأة مباغتة آنذاك، ولكن كان الرد الوحيد من نكومو وموجابى على السواء زيادة حدة القتال وتكوين جبهة وطنية لتوحيد جهود حزبى زابو وزانو وعقد سميث عام ١٩٧٨ اتفاقا داخليا مع الزعماء الأفريقيين المعتدلين بقيادة الأسقف موزوريوا وسيثولى والزعيم شيرو ووافق على مشاركتهم له فى الحكم بعد إجراء انتخابات عامة تجرى فى شهر أبريل ١٩٧٩، وحيث يكون

لكل فرد صوت انتخابى، واحد وظهرت آثار الحرب المتصاعدة واضحة تماما على السكان الأوروبيين، وهاجر البيض بأعداد كبيرة بالرغم من اضطرارهم لترك كل ممتلكاتهم ورائهم. ثم تم تجنيد الباقين – أو معظمهم – فى القوات المسلحة لأداء الخدمة العسكرية ولو مؤقتا على الأقل وحدثت محاولات مستميتة لتجنيد الأفريقيين فى الجيش، ولكنه كان من المشكوك فيه تماما شعورهم بالرغبة فى القتال ضد إخوانهم من مقاتلى حرب العصابات. ثم بدأ جيش روديسيا الجنوبية الأبيض فى الانهيار سريعا تحت وطأة الحرب.

ولذلك فلن يعترف العالم الخارجى بروديسيا ولن يتم الوصول إلى سلام حقيقى كامل بالرغم من انتصار الأسقف موزوربوا فى انتخابات أبريل ١٩٧٩ وخطوات إنشاء حكومة أفريقية سوداء إلا بالتفاوض أساسا مع الوطنيين فى المنفى والاتفاق معهم على تشكيل تلك الحكومة.

وتطورت الأحداث وأصبح لورد كارينجتون وزيرا للخارجية البريطانية فى شهر مايو ١٩٧٩ وواجه تلك المشكلة فورا. وتعلق الأمر أساسا بإقناع موزوريوا ورفاقه بإجراء انتخابات أخرى بعد فترة بسيطة من عودة الحكم البريطانى ويسمح خلالها بعود المنتخبين إلى البلاد والاشتراك فى الحملة الانتخابية. كما كان من الضرورى إقناع المنفيين التوقف عن عملياتهم الحربية لصالح النشاط السياسى والثقة فى نزاهة الانتخابات، ووجد كارينجتون تأييدا كبيرا أثناء الاجتماع الدورى لرؤساء حكومات الكومونولث فى لوساكا فى أغسطس، ومارس زعماء دول المواجهة ضغوطا على مختلف الأطراف لحضور مؤتمر فى لندن وإن تأخر موعده من سبتمبر إلى ديسمبر. ورأى الجميع قبل عيد الميلاد المجيد أن الثقة قد سادت بين الأطراف لدرجة إمكانية إرسال اللورد سومر كحاكم ذى سلطات واسعة ولكن بقوات عسكرية صغيرة لا تتجاوز ١٤٠٠ مراقب مسلح للإشراف على عملية استيعاب الـ ٢٥,٠٠٠ مقاتل فى حروب العصابات وعقد الانتخابات بعد شهرين.

وربما كانت نتيجة انتخابات شهر فبراير ١٩٨٠ مفاجأة تامة لكل المشاركين. فلقد بلغ عدد مقاعد البرلمان مائة مقعد، ولم يفز حزب موزوريوا إلا بثلاثة مقاعد فقط، أما حزب سيثولى فلم يفز بشىء على الإطلاق. وخصص ٢٠ مقعدا للروديسيين البيض للجبهة البيضاء أما حزب جوشوا نكوموا المقيم فى المنفى فى زامبيا والذى حصل على مساعدة مادية من الاتحاد السوفيتى وحلفائه فلقد حصل على ٢٠ مقعدا كلها فى منطقة ما تابيلى لاند، وانتصر حزب موجابى انتصارًا ساحقا؛ إذ حصل حزب زانو على ٥٧ مقعدا أى أكثر من نصف عدد المقاعد فى البرلمان، وحدث ذلك بالرغم من تشدده الماركسى الشديد ونفيه الدائم إلى موزمبيق ومساعدة الرئيس ماشيل له، ولذلك شعرت الدول الغربية بعدم الارتياح لتلك النتائج المفاجئة. ولم تشعر دول الكتلة الشرقية بالرضاء أيضا؛ إذ لم يتم دعوتها على الإطلاق لحضور احتفالات الاستقلال التى عقدت فى ١٨ أبريل، ولكن دلت خطب موجابى الأولى وبياناته العامة أن سياسته ستكون مشابهة لسياسة جومو كينياتا المعتدلة عند وصوله إلى السلطة فى كينيا عام ١٩٦٣، وركز تماما على المصالحة العامة والعمل بطريقة عملية بعيدا عن الشعارات السياسية البراقة، ووجب على السود والبيض أن يسيرا معا نحو مستقبل أفضل وبثقة كاملة تجاهه.

## الفصل العشرون

# الطريق الطويل إلى الديمقراطية فى جنوب أفريقيا

اتجه أهم بلد فى جنوب أفريقيا فى اتجاه معاكس لما كان يحدث فى بقية أنحاء القارة الأفريقية من ١٩٤٥ إلى ١٩٨٠ وهى مرحلة التحول من الحكم الاستعمارى إلى الاستقلال، ولم يكن السبب أن الملايين التسعة من الأفريقيين المقيمين هناك قد تميزوا بوعى سياسى أقل من إخوانهم الذين يعيشون فى الشمال، فالعكس هو الصحيح تماما إذ يعود تاريخ التعليم فى الإرساليات فى جنوب أفريقيا إلى منتصف القرن التاسع عشر، ولذلك وجدت أعداد كبيرة من الأساتذة السود، والأطباء السود، ورجال الدين السود، والصحفيين السود والعديد من المهنيين الماهرين من السود والذين تميزوا بكفاءة مشابهة لمعاصريهم فى باقى الدول الأفريقية، وفهموا مثلهم تماما أهمية ميثاق الأمم المتحدة والانسحاب البريطانى من الهند، وحضر مندوبون أفريقيون سود المؤتمر الأفريقى العام الخامس الذى انعقد فى مانسشتر عام ١٩٤٥ واتصلوا بالزعماء السياسيين الصاعدين من أفريقيا الاستوائية مثل نكروما وكينياتا، وطلب المؤتمر الوطنى الأفريقى فى ديسمبر ١٩٤٥ رسميا تطبيق مفهوم الصوت الانتخابى لكل فرد فى الانتخابات بالإضافة إلى ضمان حرية الحركة والإقامة وملكية الأرض، وتقدم المسئولون الأفريقيون بطلبات إلى الأمم المتحدة وقدموا التماسات من أفريقيى جنوب غرب أفريقيا لتكون بلادهم تحت وصايتها محل عصبة الأمم السابقة.

وكان موضع الاختلاف فى جنوب أفريقيا هو وجود مجتمع أبيض يبلغ تعداده أربعة ملايين من السكان البيض آنذاك ويعتبر أكبر وأقدم مجتمع أبيض

استقر فى القارة الأفريقية، وسيطر على كل الجهاز المدنى والإدارى فى الدولة كلها كما كان مستقلا عن أى تأثير خارجى، وفقد السكان البيض هنا وبالذات ذوى الأصل الهولندى كل اتصال لهم مع ذويهم فى أوروبا، كما رغبوا تماما أن يستمر أبناؤهم وأحفادهم فى التمتع بكل المزايا التى يتمتعون بها سياسيا واقتصاديا، فلقد حكمت أقليات بيضاء أصغر عددا منهم بكثير كل باقى أفريقيا ومعظم جنوب آسيا، كما اعتبرت جنوب أفريقيا وروديسيا عضوا شرفيا فى النادى الاستعمارى، واعتبرت أن أى اختلافات بطريقة حكم السود هناك مجرد مسائل تتعلق بالأسلوب والتوقيت وليس فيما يتعلق أبدا بالجوهر أو الأيديولوجية الأساسية، ولكن حينما أعلنت بريطانيا نيتها الخاصة بالانسحاب من إمبراطوريتها الهندية منذ عام ١٩٤٥، ثم حينما ظهر أن استقلال بعض البلدان فى غرب أفريقيا قد أصبح أمرا وشيكا شعر الجنوب أفريقيون البيض أن امتيازاتهم فى خطر وفى مهب الريح. ووجب إما التخلى عنها أو الدفاع عنها بضراوة باستخدام المزيد من القوة.

وأدت الحرب العالمية الثانية إلى حدوث تغيرات جذرية فى جنوب أفريقيا، فقد انضمت أعداد كبيرة من الشباب البيض ومعظمهم من المتحدثين بالإنجليزية إلى القوات المسلحة وحاربوا فى شمال أفريقيا وأوروبا. كما انضم الأفريقيون السود والملونون والهنود إلى القوات غير المقاتلة مثل الخدمات الطبية والأعمال اليدوية، وأخذ مكانهم الأفريكانرز الفقراء البيض الذين فقدوا أراضيهم نظرًا للأسباب الإقتصادية أو لأن هجرة الأفريقيين السود إلى المدن وضواحيها قد قضت عليها.

وكانت معظم تلك الأعمال فى الصناعة والتجارة لكونها مجال أعمال الشباب المتوجه للقتال كما شهدت أعوام الحرب ازدهارا هائلا لصناعة التعدين بالإضافة إلى نمو هائل للصناعات الحربية، إذ أصبحت جنوب أفريقيا من أهم منتجى الأسلحة الصغيرة لقوات الحلفاء وأدى هذا النشاط الهائل إلى زيادة الحاجة للقوى العاملة الأفريقية.

كما وجدت معظم المصانع الكبيرة الجديدة والزيادات الجديدة فـــى أعمـــال التعدين كلها بالقرب من المراكز الحضارية الكبرى مثل جوهانسبورج وضـــواحيها فى الترنسفال وموانئ كيب تاون وبورت إليزابيث ودربان. ولذلك ازداد تعداد تلك المدن بطريقة سريعة نظرًا لازدهارها ونموها السريع. ولكن شعرت حكومة جـــان سمطس بالحيرة والقلق الشديد أمام تصاعد الضغوط الاقتصادية والسياسية بعد عام ١٩٤٥. وتأرجحت فترة بين تطبيق المفاهيم الليبرالية أو التسلط، ولم يكـــن لـــديها بالتالى سياسة واضحة للتعامل مع مشاكل جنوب أفريقيا، وفهم سمطس تماما أنـــه يجب العمل فورا من أجل التغلب على الفقر المدقع لمعظم السكان الأفريقيين السود المقيمين فى مدن جنوب أفريقيا الكبيرة. كما استلزم الأمر أيضا رأب الصدع الناتج عن الكراهية والمرارة الناجمتين من سياسة التفرقة العنصرية.

وهزم حزب الوحدة لسمطس فى عام ١٩٤٨ بفارق ضئيل فى الانتخابـــات التى كسبها الحزب الوطنى بقيادة د.ف. مالان بعد أن استطاع بعض مؤيديه بـــث الرعب فى قلوب الناخبين البيض بعد قولهم إن وزراء سمطس يرغبون فى مـــنح الأفريقيين المساواة السياسية الكاملة، وأن ذلك سيؤدى إلى ظهور "جنس جديد لونه مثل لون القهوة". ولذلك أدت الرغبة فى السيطرة والتميز والخوف مـــن الأعـــداد الكبيرة للأغلبية الأفريقية إلى توحيد كل البيض، ولكن لم يـــؤمن إلا القليـــل مـــنهم وعملوا فعلا من أجل إقامة مجتمع حر متساو للجميع، وارتبط معظم البيض بمفهوم الباسكاب السابق شرحه، وقبل معظمهم استخدام الحكومة للعنف لتطبيقه باستمرار، أما الاختلافات فلقد وجدت فقط حول أسلوب التنفيذ، وظهر تقرير لجنة فاجان بعـــد الانتخابات مباشرة وذكر فى البداية أنه:

"يستحيل تماما تطبيق فكرة الفصل العنصرى التام عمليا بالإضافة إلـــى أن أعمال انتقال الأفريقيين من الريف إلى المدن ذات جذور اقتصادية حقيقية ملحـــة، ولكن يمكن تنظيمها أو توجيهها والحد منها إذا أمكن.

ولكن لا يمكن أبدا إيقافها أو توجيهها إلى اتجاه آخر، وفى النهاية لا يوجد فى المدن مهاجرون رحالة إفريقيون فقط، بل يوجد أيضا سكان أفريقيون أصليون مستقرون بها دائما" (تقرير فاجان فقرة ٢٨).

أما رد الحزب الوطنى على مفهوم الاندماج الاقتصادى فلقد كان ببساطة تطبيق سياسة التفرقة العنصرية بأسلوب كامل وشامل وعرف ذلك بالهولندية بكلمة أبارتايد Apartheid.

وظهرت سياسة الأبارتايد من الناحية النظرية فى العلوم السياسية بين المثقفين الأفريكانرز فى ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين، وذلك كنظرية تشمل مفاهيم تعود جذورها إلى القرن التاسع عشر فى الكاب وناتال، بالإضافة إلى توصيات صدرت من اللجنة الإمبراطورية الجنوب أفريقية لشئون الأفريقيين الوطنيين من أعوام ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥ وآراء هرتزوج وباقى الوطنيين فى الأعوام الأولى لاتحاد جنوب أفريقيا، ورأت تلك النظرية فى أفضل صورها أنه يجب تقسيم جنوب أفريقيا جغرافيا بين الجنس الأبيض والأمم الأفريقية مثل الخوسا والزولا والسوفو.

ولكن لم يكن الأبارتايد بالنسبة لمعظم البيض أكثر من كلمة مهذبة، ولذلك قال رئيس وزراء الحزب الوطنى:

"وسموها كما تشاءون: فإنها تعنى دائما السيطرة، وإننى صريح لأقصى درجة، ولا أقدم أية اعتذارات. فإما أن يسيطر الرجل الأبيض أو أن يستولى الرجل الأسود على كل شيء".

وحتى إذا ما تم ذلك فإن الدولة لن تستطيع إعاشة إلا نصف عدد السكان السود فى البلاد بعد أربعين عاما. ولكن الحقيقة أنه لم توجد حكومة بيضاء فى جنوب أفريقيا مستعدة لإنفاق مبالغ كبيرة على المحميات، ولكن الحقيقة أيضا أن الحكومات الأولى للحزب الوطنى لم تهتم كثيرا بتطبيق برنامج الفصل العنصرى

عمليا، ولكنها فرضت بواسطة القوانين على السكان غير البيض فى جنوب أفريقيا قيودا هائلة وأصدرت تشريعات غير عادلة ومقيدة للحرية الإنسانية، وقامت أيضا بإلغاء الحقوق السابقة التى حصل عليها غير البيض وقللت فرص الاختيار وحريتها أمامهم، بل وتم تقنين الظلم، فلقد تم إلغاء الحقوق السياسية القليلة لكل من الملونين والأفريقيين التى حصلوا عليها فى دستور عام ١٩١٠ فلقد ألغت حقوق الملونين بعد نزاع دستورى طويل ومرير بين أعوام ١٩٥١ و١٩٥٦ والأفريقيين فى الكاب عام ١٩٥٩.

ولذلك تأثرت كل جوانب حياة الأفريقيين الملونين والهنود بواسطة تشريعات مقيدة لا تعد ولا تحصى وسوف نذكر قائمة صغيرة منها فقط وهى نقطة فى محيط لبيان تلك التشريعات الصادرة من البرلمانات البيضاء من حيث مداها وغرضها، فلقد صدر قانون منع الزواج المختلط عام ١٩٤٩ وقانون الحفاظ على الأخلاق عام ١٩٥٠ ويقصد العنصريون بهذا منع العلاقات الجنسية بين أفراد من أجناس مختلفة عام ١٩٥٠، ونذكر أيضا قانون تسجيل السكان عام ١٩٥٠ والذى جعل من الجنس (العرق) قانونيا بالإضافة إلى مفهومه البيولوجى المعتاد ولكنه كان مهينا بالذات للملونين؛ إذ تم تعريف الشخص الملون هنا بعبارات سلبية تماما، وذكر أنه شخص غير أبيض وليس من سكان البلاد الأصليين، وجعل قانون إلغاء تصاريح المرور وإعادة تنظيم الوثائق فى عام ١٩٥٢ إجباريًا لكل الرجال الأفريقيين (وفيما بعد النساء) أن يحملوا معهم دائما سجل التحركات، وهو اسم جديد لتصريح الانتقال القديم، كما أنشأت الحكومة نظاما جديدا يمتد فى طول البلاد وعرضها لتنظيم حركة الأفريقيين والتقليل من دخولهم إلى المناطق الحضرية.

وكان الغرض من قوانين: قانون مناطق الجماعات عام ١٩٥٠ وقانون الفصل بين الأعراق عام ١٩٥٣ الفصل التام جسمانيا واجتماعيا بين الأجناس بإبعاد كل الملونين والهنود والأفريقيين إلى مشارف المدن، والتفرقة العنصرية الشديدة فى الألعاب الرياضية وباقى مجالات الترفيه استخدام وتسهيلات مختلفة فى

القطارات والباصات بالإضافة إلى أماكن جلوس مختلفة فـي المتنزهـات العامـة والحدائق مما أدى إلى زيادة هائلة للوحات المكتوب عليها للبيض فقط فـي طـول البلاد وعرضها ودعم قانون تعديل قوانين الأفريقيين عام ١٩٥٧ السـيطرة علـى الأفريقيين فى المناطق الحضرية، وكانت المحاولات الأولى لذلك قد ظهـرت فـى قانون المناطق الحضرية عام ١٩٢٣ وقنن قانون التوافق الصناعى المعـدل عـام ١٩٦٥ تخصيص الوظائف للبيض فقط، كما استبعد الأفريقيون تماما من إمكانيـة تفاوضهم حول الأجور، وكان الغرض من قانون القضاء علـى الشـيوعية عـام ١٩٥٠، وقانون تعديل القانون الجنائى عـام ١٩٥٣، وقـانون التنظيمـات غيـر القانونية عام ١٩٦٠ القضاء التام على كل أنواع المعارضة، كما كانت لا مثيل لها فى ضراوتها فى البلاد الديمقراطية فى العالم الغربى ولكن كانـت قـوانين قليلـة لحكومات الحزب الوطنى فى الخمسينيات ذات طابع أيديولوجى واضـح، وكـان أهمها قانون تعليم البانتو عام ١٩٥٣ وامتداد قانون التعليم الجـامعى عـام ١٩٥٩ الذى أخرج المدارس الابتدائية والثانوية من سيطرة البعثـات التبشـيرية وخلـق جامعات منفصلة ذات مستوى علمى أدنى لغير البيض وجعلت تلك القـوانين مـن التعليم وسيلة قوية فى أيدى السياسة الحكومية لإعادة التشكيل والسيطرة على عقول البشر، وقال هـ. فروود وزير شئون الأفريقيين عن قانون عام ١٩٥٣ آنذاك.

لن تتحسن العلاقات بين الأجناس إذا تعلم الأفريقيون بالطريقة الخاطئة. ولا يمكن أن تتحسن أبدا إذا كانت نتيجة تعليم الأفريقيين هى خلـق أفـراد حاقـدين، والذين، نظرًا للتعليم الذى حصلوا عليه، يتطلعون إلى أعمال وآمال فى الحيـاة لا يمكن للظروف السائدة فى جنوب أفريقيا أن تتيحها لهم فورا.

ويحدث ذلك حينما يوجد أفراد تدربوا على أعمال ليست متاحة لهـم علـى الإطلاق، ولكن لم تتلاعب الحكومات المتتاليـة للحـزب الـوطنى أبـدا بالنظـام البرلمانى الديمقراطى البريطانى، فلقد عقدت الانتخابات بانتظام. كما تم التصـريح لأحزاب المعارضة بالعمل ولكن داخل إطار الناخبين البيض فقط. ويـدل النجـاح

المستمر للحزب على التأييد الذى حصل عليه بين بعض الناخبين الناطقين بالإنجليزية وأيضا بين أغلبية الأفريكانرز، وحصل الحزب الوطنى على ٨٢ بالمائة من الأصوات عام ١٩٧٤ وهى أعلى نسبة يحصل عليها حزب فى تاريخ جنوب أفريقيا وفشلت المعارضة الرسمية الممثلة فى الحزب المتحد فى إيجاد سياسة بديلة لسياسة الحكومة، وأنهار رويدا رويدا. وكان الحزب الليبرالى أكثر حدة فى نقده لنظام الحكم، ولذلك تمت محاكمة بعض أعضائه طبقا للقوانين الحكومية المقيدة للحرية. ثم أقرت الحكومة قانون منع التدخل السياسى عام ١٩٦٥، والذى يمنع أى شخص من الانضمام لحزب سياسى مختلط التكوين، مما أدى إلى انهيار الحزب الليبرالى وانحلاله، وكان قد تم إنشاء حزب ليبرالى آخر يسمى بحزب التقدم عام ١٩٥٩، واستطاع أن يجذب وريثا الجناح الليبرالى للحزب المتحد، ولذلك تحول فيما بعد إلى حزب الإصلاح التقدمى وحصل على سبعة عشر مقعدا فى البرلمان فى الانتخابات وانقسم أعضاء الحزب المتحد إلى حزبين صغيرين، ولكن ظهرت جماعة من الأفريكانرز اليمينيين فى الحزب الوطنى رأوا أن زعماء الحزب التقليديين لم يعملوا بطريقة ملائمة فى سياستهم العنصرية ولذلك انقسم الحزب الوطنى فى الستينيات إلى جماعتين: وتسمى الأولى بالجماعة التقدمية، مقابل الجماعة الأخرى المتشددة، وأيد المعتدلون سياسة الأبارتايد الإيجابية ويشمل ذلك سياسة التفاوض والتفاهم مع الدول الأفريقية السوداء، أما المتشددون فلقد رغبوا فى الاحتفاظ بسياسة الباسكاب Baaskap دون أدنى تعديل، ولذلك كون الأكثر تشددا حزبا آخر باسم الحزب الوطنى المعاد إنشاؤه، ولم يفز هذا الحزب أبدا بأية مقاعد برلمانية، ولكن أدت أعماله السياسية بالإضافة إلى تلك الخاصة بالذين ظلوا داخل الحزب الوطنى الأصلى إلى إعاقة كل الاتجاهات "المعتدلة" فى الحكومة.

وأدت شدة وقسوة التشريعات الحكومية، كما كان منتظرا، إلى زيادة النشاط السياسى لغير البيض على مدى غير مسبوق وطوال عقد الخمسينيات، فلقد نشبت

مظاهرات متعددة الأجناس واسعة النطاق ضد إرادة الحكومة ورغبتها فـــى إلغـــاء الحقوق الانتخابية للملونين، وانضمت إليها جماعات بيضاء مثل تلك الجماعة التى لم تستمر طويلا المسماة بجمعية المحاربين القدماء والجمعيـــة النســـائية البيضـــاء الأكثر استمرارية. ثم دخل الحزب الوطنى الأفريقى عام ١٩٥٢ تحت قيادة ألبرت لوثولى وأوليفر تامبو ونيلسون مانديلا ووالتر سيسولو حملة مقاومة سلبية للعديـــد من القوانين والتنظيمات العنصرية الظالمة ويشمل ذلك بالذات تصاريح الانتقال من مكان لآخر. ولكن كانت الحكومة قد دعمت موقفها عام ١٩٥١ بقانون القضاء على الشيوعية السابق الذكر والذى ترك لوزير العدل حرية تقرير من هم الأشخاص أو المؤسسات الشيوعية، ثم تم إصدار قوانين جامعة سالفة أخرى عام ١٩٥٣ ومكنتها من إعلان حالة الطوارئ والقبض على مؤيدى المقاومة السلبية واحتجـــازهم دون محاكمة بالإضافة إلى الحق فى نفى الأفراد إلى المناطق الريفية النائية، وأدى كـــل ذلك إلى انضمام العديد من الراديكاليين البيض والذين لم يكونوا شيوعيين بـــالمرة إلى الوقوف مع المعارضة الأفريقية وفعلت الجماعات الملونة والهندية الشيء نفسه ولذلك كونت اتحادا للمؤتمر والذى عقد عام ١٩٥٣ مؤتمرا للشعب فى مدينة كيب تاون بجوار جوهانسبورج، وتم إعلان ميثاق للحرية ويبدأ بتلك العبارات البليغة:

"نحن شعب جنوب أفريقيا نعلن لكل بلادنا وللعـــالم أجمـــع ... أن جنـــوب أفريقيا تنتمى لكل الذين يقيمون بها، وأنه لا يمكن لحكومة أن تدعى أنها صـــاحبة السلطة بحق إلا إذا استندت إلى إرادة الشعب كله" وكان رد فعل الحكومـــة عنيفـــا للغاية، إذ قررت محاكمة ١٥٦ زعيما من زعماء الاتحاد الوطنى بتهمـــة الخيانـــة العظمى ولكن اضطرت الحكومة بعد أربعة أعوام مـــن المـــداولات والمناقشـــات القانونية إلى إخلاء سبيل جميع المتهمين وأسقطت كل التهم عنهم.

ولكن حدثت آنذاك تغيرات مهمة داخل حركة المقاومة الأفريقية الرئيســـية، فلقد انقسم حزب المؤتمر الأفريقى بين مؤيدى نظرية التعدد العرقى المذكور فـــى ميثاق الحرية والذين أيدوا الأفكار الأفريقية المشتركة وارتبطوا بها، وقاد روبـــرت

سوبوكوى تلك الجماعة الأخيرة وأنشأ الحزب الأفريقــى المشــترك عــام ١٩٥٩، واستمرت المظاهرات بالرغم من القبض على معظم الزعماء وكان أنجحها حركة مقاطعة الباصات العامة فى الترنسفال، ثم نظم الحزب الأفريقى المشــترك حملــة أخرى للمقاومة السلبية لقوانين الانتقال مما أدى إلى أكثر المواجهات دمويــة بــين الحكومة البيضاء والشعب الأفريقى المعارض لها.

وأطلقت الشرطة نيرانها على الجماهير المسالمة فى مدينــة شــاربفيل فــى جنوب الترنسفال ٢١ مارس ١٩٦٠ فقتلت ٧٢ شخصــا وأصــابت ١٨٦ بجــراح ومنهم النساء والأطفال.

ولذلك سار ٣٠,٠٠٠ أفريقى بعد بضعة أيام إلى قلب مدينة كيب تاون مــن موطنهم فى لانجا الواقعة على مسافة بضعة أميال فقط وقتلت الشرطة أيضا بعض المتظاهرين في لانجا، وأدت مذبحة شاربفيل إلى إدانة عالميــة شــاملة لحكومــة جنوب أفريقيا البيضاء، كما اهتزت تلك الحكومة بشدة من جــراء قــوة المقاومــة الأفريقية من جهة ورد الفعل الدولى المعادى الغاضب من جهة أخــرى لأعمــال القتل الدامية، ولذلك أعلنت حالة الطوارئ العامة بعد ثلاثة أيام وقبضت على معظم زعماء المعارضة، ولذلك أعلن كل من حزب المؤتمر الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك حزبين خارجين عن القانون وفهم الحزبان آنذاك تماما أنهما قــد وصــلا إلى آخر المطاف فيما يتعلق بالمقاومة السلمية غير العنيفة، واضطر كلاهما للجوء إلى الوسائل العنيفة وأنشأ حزب المؤتمر الأفريقى حركة رمــح الأمــة لتخريــب المنشآت الحكومية. أما الحزب الأفريقي المشترك فلقد أنشأ حركة بوكو من أجــل إرهاب البيض وتميز عقد المظاهرات السلميه بشخصية ألبرت لوثولى الذى أنتخب رئيسا للمؤتمر الأفريقى عام ١٩٥٢ والذى تم نفيه إلى منطقة نائية فــى زولولانــد لشنه حملة مواجهة الحكومة عام ١٩٥٦ وحصل على جائزة نوبل للسلام اعترافــا بجهوده، وسمح له اضطرارا بالسفر إلى النرويج لاستلام جائزتــه وتــوفى عــام ١٩٦٧، وكتب تلك الكلمات البليغة المؤثرة فى نهاية حياته قائلا:

"من الذى ينكر أن ثلاثين عاما من حياتى قد انقضت فى الطرق دون نجاح وباعتدال وهدوء على باب مغلق وموصد بالمزلاج. وماذا كانت ثمار الاعتدال، لقد رأت الثلاثون عاما الماضية أكبر عدد من القوانين المقيدة لحقوقنا وتقدمنا إلى أن وصلنا اليوم إلى ما نحن عليه، إلى مرحلة لم يعد لنا بها تقريبا أى حقوق على الإطلاق".

وكانت الحملات والمظاهرات السلمية غير العنيفة لمواجهة الحكومة من أعمال وتنظيم نخبة أفريقية من الطبقة المتوسطة ولكن واجه زعماء الحزب الوطنى الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك صعوبات كبرى فى حشد التأييد الجماهيرى نظرا لإحكام المراقبة وسيطرة قوات الأمن على الموقف ولكن ظهرت أيضا أنواع مختلفة من حركات المقاومة فى المناطق الريفية وبطريقة مستقلة تماما عن الحزبين السابقين، ولذلك شعرت الحكومة بصعوبة بالغة فى التعامل معها ومقاومتها.

وانتشرت تلك الأحداث بالذات فى مناطق عديدة من الترنسفال واستمرت بها لفترة، كما عانت الحكومة معاناة شديدة لقمعها والقضاء عليها ونشبت الاضطرابات أيضا بين شعب البونجو فى الترانسكاى.

ولذلك قررت الحكومة إعلان حالة الطوارئ هناك بعد ثلاثة أعوام من الصراع المرير، وقامت بحرب شاملة ضد شعب البونجو، وقتل العديد من الناس وجرح كثيرون قبل انتهاء أعمال المقاومة، واستمرت حالة الطوارئ سارية المفعول طول فترة إنشاء منطقة البانتوستان فى الترانسكاى ثم استمرت حالة الطوارئ تحت حكم حكومة ماتانزيما أيضا.

وتعتبر عملية سحق المقاومة فى بوندولاند من جهة ومذبحة شاربفيل من جهة أخرى نقطة تحول فى تاريخ جنوب أفريقيا. فلقد قام بعض أعضاء الحزب الوطنى الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك بأعمال عنف متزايدة مما مكن

الحكومة من اتخاذ إجراءات أشد عنفا وضراوة، وقبض الأمن العام على نيلسون مانديلا عام ١٩٦٢ والذى كان ينظم حركة المقاومة السرية لمدة عام ونصف، وعرف آنذاك باسمه الحركى "كسبرة الثعلب السوداء" واستطاعت الشرطة أيضا القبض على باقى أعضاء حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى بقيادة أومكونتو، فى مقرهم السرى عند مزرعة ريفونيا بالقرب من جوهانسبورج وانتهت المحاكمة بعد ذلك بالحكم على مانديلا وثمانية زعماء أفريقيين آخرين بالسجن المؤبد، وأرسل الزعماء السود السبعة للانضمام إلى المناضل روبرت سوبوكوى زعيم الحزب الأفريقى المشترك فى جزيرة روبن وهى جزيرة صخرية صغيرة فى البحار المتلاطمة الأمواج أمام مدينة كيب تاون.

وقامت الحكومة آنذاك بأعمال إرهابية حقيقية للقضاء على المقاومة الأفريقية السرية، بالإضافة إلى تنظيمات أقل خطورة مثل الحركة الهندية الراديكالية، ولذلك قامت الأحزاب البيضاء والملونة بأعمال عنف قوية لدرجة أن الحزب الليبرالى المحترم قد قرر إيقاف أعماله تماما.

ولكن نما اقتصاد جنوب أفريقيا وبسرعة وأثرى الدولة ثراء كبيرا وبالذات للسكان البيض المسيطرين طوال فترة الثلاثين عاما التى حكم فى الحزب الوطنى، وكان السبب فيما يشبه المعجزة الاقتصادية هى تلك الموارد الطبيعية الهائلة التى تتمتع بها جنوب أفريقيا بالإضافة إلى الأيدى العاملة الماهرة البيضاء القادرة على إدارة وتشغيل القطاع الصناعى السريع النمو، كما وجدت أيضا قوة عمل كبيرة رخيصة تحت السيطرة.

ولذلك نما اقتصاد جنوب أفريقيا بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينيات بنسبة تعد من أعلى نسب النمو فى العالم ولا تقارن إلا بنسبة النمو اليابانية وبعض الاقتصاديات الصغيرة مثل سنغافورة، ولكن لم يتم توزيع الرخاء بطريقة عادلة بين البيض والسود نظرا للفروق الشاسعة بينهم، وتمتع البيض بأحد أعلى معدلات النمو

فى العالم ولذلك رغبوا تماما فى الدفاع عن مزاياهم ولو بقوة السلاح إذا استلزم الأمر، ولكن بدأ هذا الاقتصاد السريع النمو فى التراجع منذ منتصف عقد السبعينيات نظرا لازدياد أسعار النفط من جهة والتضخم الكبير من جهة أخرى، وكان عام ١٩٧٥/١٩٧٦ أقل الأعوام فى نسبة النمو منذ عام ١٩٤٥ كما بدأت الشركات الأجنبية والممولون الأجانب العاملون فى جنوب أفريقيا فى الشعور بقوة ضغط المجتمع الدولي على الأقل لسداد أجور متساوية لكل موظفيها فى جنوب أفريقيا، كما تمت مناقشة عملية فرض العقوبات الاقتصادية كثيرا، كما أدى تناقص معدل النمو الاقتصادى والانتقال من الصناعة الرخيصة الأجور إلى الصناعة ذات رءوس الأموال الكبيرة والتكنولوجية المتقدمة الحديثة إلى زيادة البطالة ولذلك قدر عام ١٩٧٩ أنه يوجد ٢ مليون أفريقى عاطلين عن العمل من بين قوة عمل أفريقية تبلغ حوالى ٨ ملايين ولذلك أعيد العديد من الأفريقيين العاطلين من المدن إلى أوطانهم الأصلية فى الريف طبقا لسياسة التطور المنفصل، وأدى ذلك إلى زيادة حدة الفقر المدقع فى الريف نظرا للزيادة السريعة لأعداد السكان الأفريقيين.

ولكن كانت الخطوة الأساسية فى تطبيق نظرية التطور المنفصل لكل من البيض والسود هى عملية تحويل المحميات الأفريقية – وهى الأراضى التى تركت للأفريقيين بعد انتزاع الأوروبيين لأراضيهم منهم فى القرن التاسع عشر – إلى بانتوستانات أو الأوطان الوطنية الأفريقية.

وكانت الخطوة الأولى فى ذلك الاتجاه هى صدور قانون الحكم الذاتى للبانتو عام ١٩٥٩ الذى قرر إنشاء سلطات محلية فى وحدات وطنية فى الأراضى التى تشغلها القبائل الكبيرة أو أصحاب اللغة المشتركة، وذكرت مقدمة هذا القانون الغرض من نظام التطور المنفصل كله وقالت: "لا تعتبر شعوب البانتو شعبا واحدا متجانسا على الإطلاق ولكنها تعتبر فعلا وحدات قومية مختلفة على أساس اللغة والحضارة، ولكن توجد العديد من الشكوك حول صحة هذا الغرض لوجود أكثر من قرنين من الصراع والنزاع والتفاعل والاندماج الهائل فى ظل اقتصاد جنوب

أفريقيا الحضرى، ولكن لا تبلغ مساحة كل المحميات الأفريقيـة مجتمعـة إلا ١٣ بالمائة من المساحة الكلية للبلاد، ولم تستطع أبدا إيواء وإعاشة السكان الأفـريقيين عام ١٩٦٠، فما بالنا إذن عند إضافة خمسين مليونا آخر ينتظر وجودهم فى نهاية القرن. ولكن لم تمنع تلك الأمور الحكومة بالاستمرار فى تلك المهمة بهمة ونشـاط وإن كانت تبدو شبه مستحيلة ومتعارضة تماما مع الواقع العملى الملموس، وكانت البانتوستانات أو الأوطان الأفريقية العشرة هى: ترانسكاى وكيسـكى الكوازولـو (للزولو)، الكواكوا لشعب الوثو الجنوبى ولوبوا وجنوب ندبيلى (لشـعب السـوثو الشمالى)، بوفوتا سوانا (شعب التسوانا)، الجازانكولا (لشعب الشانجان والتسـونجا) الغندا السوازى. ولكن لم تشمل تلك الأوطان الوطنية الأفريقية منطقة متكاملة مـن الأراضى إذ تتخللها أراضى مملوكة للبيض داخلها ويحدث ذلك حتى فى أكبرهـا مساحة وهى الترانسكاى، ولكن حصلت تلك المنطقة الأخيرة على قدر كبيـر مـن الحكم الذاتى عام ١٩٦٣ وعقدت الانتخابات ولم تشمل عملية التصـويت هـؤلاء الأكسوزا المقيمين فى الترانسكاى فقط، ولكن كل الناس من أصل الأكسوزا حتـى الذين عاشوا لأجيال طويلة فى المناطق الحضرية وفقدوا كل اتصال لهم بمـوطنهم الأصلى ولذلك مكنت أقلية من التصويت الشعبى بالإضافة إلـى تأييـد الزعمـاء المعينين فى برلمان الترانسكاى الجديد الزعيم ماتانزيما من تشكيل حكومة وكـان أحد الزعماء التقليديين الذين وافقوا على تأييد سياسة التطور المنفصل.

وكان الزعيم جاتسا بوثوليزى أحد الزعمـاء الأكثـر إثـارة للجـدل فـى السبعينيات، واستخدم مركزه لنقد الظلم العرقى وعدم المسـاواة وتـدعيم حكومـة جنوب أفريقيا لكل ذلك. ولذلك لم يرغب أبدا أن يحصل وطن خاص ليتولى مهـام جهاز أمن الدولة التابع لجنوب أفريقيا الكوازولو على درجة أكبـر مـن السـيادة وعارض ذلك ورأى أن سياسة التقسيم سوف تؤدى إلى التشرذم والتفتت فى نهايـة الأمر وأيده سبعة من زعماء الأوطان العشرة وساروا على نهجه. ولكن حصـلت الترانسكاى على استقلالها الرسمى عام ١٩٧٦ ثم تلتها بوثاتسـوانا عـام ١٩٧٧،

ولكن لم تعرف أية دولة أخرى بهذا الاستقلال ورفضت عضويتها فى كل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية وضمت حكومة ماتانزيما قوانين الطوارئ المطبقة فى الترانسكاى منذ عام ١٩٦٠ إلى قانون الأمن العام الجديد عام ١٩٧٧، وأنشئ أيضا نظام خدمة مخابرات الترنسكاى ولكن لم تستمر العلاقات الجيدة التى سارت فى البداية طويلا، فلقد أعلنت حكومة فورستر أن كل الأكسوزا المقيمين فى جنوب أفريقيا كلها سوف تنزع منهم جنسيتهم الجنوب أفريقية ليصبحوا مواطنين فى دولة ترانسكاى الأفريقية والتى لم يعترف بها أحد، ورفض ماتانزيما ذلك الأمر، وذكر أنه يوجد حوالى ثلاثة ملايين من الأكسوزا الذين يعيشون خارج ترانسكاى مقارنة بمليونين فقط يعيشون داخلها وزاد النزاع لدرجة أن ترانسكاى قد قطعت كل علاقاتها مع جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ ولكن تم رأب الصدع فيما بعد إلا أن العلاقات لم تعد أبدا على ما كانت عليه فى الماضى.

وأقام أكثر من تسعة ملايين أفريقى عام ١٩٧٩ – أى أكثر من ضعف عدد كل السكان البيض فى جنوب أفريقيا – خارج البانتو ستانيات فى المناطق المسماة بالمناطق البيضاء، فلقد أقام أربعة ملايين أفريقى وعملوا فى مزارع البيض بالإضافة إلى خمسة ملايين آخرين فى المناطق الحضرية، وخضع هؤلاء الأفريقيون بالذات لأقصى صور التعنت والضغط طبقا لسياسات التفرقة العنصرية أثناء حياتهم العادية. وأدى التضخم والفقر والانعزال الاجتماعى بالإضافة إلى عدم الضمان الوظيفى وزيادة معدل الجريمة وازدياد النفى إلى الأوطان الأفريقية أو النقل خارج المدن إلى أوطان نائية ومجهولة إلى جعل الأفريقيين فى حالة يأس وإهانة دائمة، وكانت سويتو أكبر المناطق الحضرية الأفريقية وهى مدينة أفريقية ضخمة تقع فى جنوب غرب جوهانسبرج. وتتكون الطبقات العامرة بالسكان هناك أساسا من الأطفال والمراهقين ويحصل هؤلاء الأطفال والمراهقون مقارنة بإخوانهم فى الريف على تعليم أفضل نسبيا، مما يؤدى إلى زيادة آمالهم فى الحياة الكريمة، كما يقدرون تماما على معرفة قضاياهم والدفاع عنها عند الحاجة، ونشبت

اضطرابات طلابية عنيفة بينهم فى شهر يونية ١٩٧٦، وكان السبب المباشر هو قرار السلطات البيضاء أن تكون لغة الأفريكانرز هى لغة التعليم فى المدارس الثانوية، ولكن وجدت كذلك حالة من الاستياء العام بين الطلبة من نظام التعليم الخاص بالبانتو، وكان الأفريقيون على حق تماما بالنسبة لشعورهم بالغضب واليأس عند مقارنة أحوالهم بالامتيازات والتسهيلات الممتازة التى يحصل عليها زملاؤهم التلاميذ البيض، فلقد كانت الدولة تنفق مبلغ ٦٤٤ راندا على كل طالب أبيض مقابل ٤٢ راندا على كل طالب أفريقى عام ١٩٧٥/ ١٩٧٦، وكان رد الشباب الأفريقى هو إبداء الغضب الجامح والهياج والحقد على تلك الأحوال. وانتشرت إضرابات المدارس بسرعة فائقة، وسرعان ما تأثرت كل المناطق الحضرية الأخرى فى الترانسفال والكسكاى ومنطقة الكاب الغربية، ثم امتدت إلى مدينة بورت إليزابيث فى أغسطس ١٩٧٦ وردت الشرطة بعنف بالغ وشدة وحزم مما أدى إلى قتل عدة مئات بحلول عام ١٩٧٧، ولكن تخلت الحكومة فى نهاية الأمر عن فرض لغة الأفريكانرز كلغة تعليم بالإضافة إلى منحها بعض التنازلات الثانوية الصغرى، وشهدت الأعوام الأخيرة من السبعينيات زيادة صور المقاومة الأفريقية الأخرى بالرغم من عدم وجود شىء يماثل تأثير الاضطرابات الطلابية. وساءت صورة حكومة جنوب أفريقيا كثيرا فى ذلك العقد فى العالم الخارجى، وكان الطلبة الجامعيون الأفريقيون قد انفصلوا تماما عام ١٩٦٩ عن الاتحاد الوطنى لطلبة جنوب أفريقيا وكونوا "منظمة طلبه جنوب أفريقيا" ويلى ذلك ظهور حزب سياسى جديد وهو "مؤتمر الأفارقة السود" ولعب الحزبان الجديدان دورا بارزا فى تنمية الشعور بالشخصية السوداء أو حركة القوة السوداء بالرغم من تشجيعهما غير البيض على الاشتراك معهما فى النضال. ولكن تخلت حكومة فورستر عن كل تحفظاتها حينما أضافت اضطرابات المدارس حدة إلى هذا الموقف الثورى، فقامت بالقبض على كل الزعماء الأفريقيين وبعض مؤيديهم البيض وسجنتهم بموجب مختلف قوانين الأمن المتنوعة، وكان أحدهم هو ستيف بيكو الذى

أشأ منظمة طلبة جنوب أفريقيا ثم أصبح أكثر الزعماء الأفريقيين شهرة من الجيل الجديد وحظى بالنفوذ والاحترام العام، وتم القبض عليه في جراهـا ستاون فـى أغسطس ١٩٧٧، وسجن وتم استجوابه فى سجن بورت إليزابيث، ثـم نقـل إلـى بريثوريا لاستكمال استجوابه وتوفى هناك فى ١٢ سبتمبر، ودلت القرائن على أنـه توفى نتيجة لإصابات لحقت به أثناء الاستجواب بالرغم من أن قاضى التحقيق قـد قرر أنه "لا يوجد أحد مسئول جنائيا". ولكن قتل خمسون شخصا أو أكثـر أثنـاء احتجازهم طبقا لقوانين جنوب أفريقيا فيما بين أعوام ١٩٧٦، ١٩٧٩، وحينما تولى أحد المتشددين الآخرين وهو ب.و. بوثا الحكم كرئيس للوزراء عـام ١٩٧٨ فـإن عددا قليلا في جنوب أفريقيا كانوا يدركون أنه سيبدأ تلك العملية الطويلـة الشـاقة لتعديل ثم إلغاء سياسة التفرقة العنصرية كلها. وحدث ذلك فعلا فيما بعد.

## المحميات وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا).

وحكمت بريطانيا باثوتلاند وباتشوانا لاند منذ ثمانينيات القرن التاسع عشـر بالإضافة إلى سوزيلاند بعد الحرب مع البوير كمحميات تابعة لها. وكان يـديرها موظفون مدنيون بريطانيون تحت إدارة مندوب سامى بريطانى، والذى كان أيضـا الحاكم العام لجنوب أفريقيا. ويعتبر ذلك فعلا ازدواجية للسلطة، ويبين ذلك تمامـا الوضع الخاص لتلك البلاد الصغيرة الثلاث التى لا يوجد لها منفـذ علـى البحـر وتحيط بها جنوب أفريقيا وتعتمد عليها اقتصاديا أيضا، ونص دستور اتحاد جنـوب أفريقيا على احتمال ضم تلك المحميات إليه، كما طالبت بـذلك فعـلا الحكومـات الجنوب أفريقية المتعاقبة وآخرها عام ١٩٦٣.

ورفضت بريطانيا تلك الطلبات بسبب أن ذلك الأمر يستلزم موافقة الشعوب المختصة. ولذلك تطورت تلك المحميـات تـدريجيا نحـو الحكـم الـذاتى مثـل المستعمرات الأفريقية الاستوائية، وكان الأصل أن يساعد ذلك عملية تقسيم السلطة

بين الأجناس فى جنوب أفريقيا ذاتها، ولذلك تم تشجيع نمو الأحزاب السياسية فى تلك المحميات وعبرت عن الانتماءات القبلية لكل منها بالإضافة إلى الاختلافات القليلة فيما بينها فيما يتعلق بموقفها تجاه جارها الأبيض القوى.

وفاز حزب باتشوانا لاند الديمقراطى بقيادة سيريتس كاما، وهو زعيم شعب الباما نجوانو فى تيشوانا لاند، انتخابات ما قبل الاستقلال فى عام ١٩٦٥، ثم استقل بالبلاد وغير اسمها إلى بوتسوانا عام ١٩٦٦، وأصبح سيرمنسى رئيسا للبلاد ثم سرعان ما ظهر أنه من أكبر الزعماء الأفريقيين، وكانت بوتسوانا من الدول الأفريقية القليلة التى احتفظت بنظام تعدد الأحزاب، ومكنها استقلال مواردها الهائلة من الماس والنحاس والنيكل بالإضافة إلى معادن أخرى أن تكون أقل اعتمادا على جنوب أفريقيا عن شقيقتها الأقل حظا. ولكنها اعتمدت كثيرا على جارتها لاتصالها بالعالم الخارجى.

تم إنشاء طريق يصلح طول العام وفى كل الأحوال المناخية عام ١٩٧٧، ويصل إلى أقصى شمال بوتسوانا حيث توجد حدود قصيرة مشتركة مع زامبيا عند كاسونجولو على نهر الزامبيزى الذى يتم عبوره بالعبارات مما يؤدى إلى وجود رابطة - ولو صغيرة - مع باقى الدول الأفريقية فى الشمال، ثم تولى نائب الرئيس كيت ماسيرى رئاسة الدولة بعد وفاة سيريتس عام ١٩٨٠ واستمر فى السياسات الحذرة لسلفه، وأشاد تقرير البنك الدولى عام ١٩٨٩ ببتسوانا وذكر أن لديها أفضل نسبة نمو فى القارة الأفريقية وهى ١٢ بالمائة سنويا زيادة فى الناتج القومى الإجمالى لأكثر من عقد من الزمان.

وأصبحت باسوتولاند مملكة مستقلة عام ١٩٦٦ وغيرت اسمها إلى ليسوتو وحكمها الحزب الوطنى لباسوتولاند تحت قيادة الزعيم ليابوا جوناثان الذى احتفظ بعلاقات للتفاهم مع جيرانها السود، ولكن فقد الحزب الوطنى لباسوتولاند الانتخابات عام ١٩٧٠ وفاز حزب مؤتمر باستوتولاند. ولكن استطاع الزعيم جوناثان قلب نظام الحكم لصالحه بمساعدة حكومة جنوب أفريقيا وقوة شبه

عسكرية صغيرة من شرطة جنوب أفريقيا والمرتزقة البريطانيين، وتم نفى الملـك موشوش لفترة، ثم لم يلعب دورا كبيرا فى السياسة بعد عودته إلى بلاده، وتحولـت ليسوتو إلى ديكتاتورية الحزب الواحد ولكن ابتعد الزعيم جوناثان تـدريجيا ومـع مرور الزمن عن علاقاته الوثيقة بجنوب أفريقيا.

وكانت سوازى لاند آخر المحميات التى حصلت على استقلالها عام ١٩٦٨، وكان ملك السوازى هو سوبهوزا الثانى وهو ملك تقليدى من الطراز القديم، لعـب دورا مهما فى سياسة بلاده أكثر بكثير من نظيره فى ليسوتو، ولذلك نظم سوبهوزا حزبا خاصا به، وهو حزب مبوكودفو، وذلك بالرغم من وجود عدد من الأحـزاب السياسية قبل الاستقلال، ثم تلاعب بعد ذلك فى الانتخابات التى جرت عـام ١٩٦٤ لضمان فوزه، وكان حزب ميوكودفو حزبا وطنيا خالصا، ولذلك انضمت إليه أعداد كبيرة من الشباب والأكثر راديكالية منهم، وفرض البريطانيون النظـام البرلمـانى البريطانى عام ١٩٦٨.

ولذلك أصبح سوبهوزا نظريا رئيسا دستوريا للدولة، وقبل وضعه الدستورى إلى عام ١٩٧٣ حينما تولى الحكم بنفسه وأوقف العمل بالدستور، وأعاد ما أسـماه بعدد من النظم التقليدية التى يفترض أنها تؤدى إلى تبادل وجهات النظر بين الملك والرعايا، ولكن أصبح من الصعب الاحتفاظ بهذا النظـام عنـد ازديـاد معـدلات التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك وجب على الملك مراقبة رعاياه من جهة والأجانب المقيمين من جهة أخرى والذين كان العديد منهم من مزارعـى جنـوب أفريقيا والذين يملكون حوالى ٤٠ بالمائة من أراضى البلاد، ووجب عليـه أيضـا مراقبة توغل الأفكار والمبادئ الماركسية من موزمبيق المجاورة، وتوى سوبهوزا عام ١٩٨٢، وكان آنذاك أقدم الملوك الحاكمين فى العالم.

وبلغ سكان جنوب غرب أفريقيا بالرغم من مساحتها الشاسـعة أقـل مـن المليون من السكان ومنهم ١٠٠,٠٠٠ من البـيض ومعظمهـم مـن الأفريكـانرز

وبعضهم من أصول ألمانية، وعرفت تلك البلاد فى الخارج باسم ناميبيا، وكان أكبر الأجناس الأفريقية تعدادا هو شعب الأوفامبو المقيم فى أقصى الشمال بالقرب من حدود أنجولا، أما الشعب الآخر المتحدث بإحدى لغات البانتو فهو شعب الهيريرو الذى عانى أجداده كثيرا على أيدى الألمان فى الماضى (انظر الفصل الثانى عشر) ووجدت أيضا جماعات متفرقة تتحدث بلغة الخوى مثل شعب النانا ورأينا أن حكومة جنوب أفريقيا قد رفضت قبول سلطة مجلس وصاية الأمم المتحدة على المنطقة فى نهاية الحرب العالمية الثانية واستمرت فى حكمها كأنها الولاية الخامسة فى الاتحاد، وأرسل الناخبون البيض نوابهم إلى برلمان جنوب أفريقيا كما طبقت معظم القوانين المقيدة للحرية لنظام حكم جنوب أفريقيا فى المنطقة، ونشرت بعد ذلك خطة أودندال عام ١٩٦٤ واقترحت ربط جنوب غرب أفريقيا بطريقة أوثق بالاتحاد، وإنشاء أوطان أفريقية تشمل ٤٠ بالمائة من مساحة البلاد بينما تخصص الـ ٦٠ الباقية للبيض.

ولكن تطورت بعض الحركات السياسية الأفريقية آنذاك، وكان أشهرها هو حزب منظمة شعب جنوب غرب أفريقيا (سوابو).

وتميز هذا الحزب بالحصول على أفضل الاتصالات الدولية وبالذات فى الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية، واتجه حزب سوابو إلى الكفاح المسلح بعد صدور خطة أودندال، وبدأ فى شن حرب عصابات قليلة فى البداية فى منطقة شعب الأوثمبو بالقرب من الحدود الأنجولية، وتم إقناع هيئة الأمم المتحدة بإلغاء حماية جنوب أفريقيا على المنطقة عام ١٩٦٦، والتى منحتها لها عصبة الأمم فى الماضى، كما قررت محكمة العدل الدولية عام ١٩٧١ إنهاء جنوب أفريقيا لاحتلالها لناميبيا، ونظم الأوفمبو وجهات أفريقية أخرى إضرابا عاما فى العام نفسه، ومن ثم أعلنت حكومة جنوب غرب أفريقيا حالة الطوارئ وألغت الأحزاب بالقوة، وتم إنشاء أوطان للأوفمبو والكافنجو عام ١٩٧٣ ومنحت قدرا من الحكم الذاتى، ثم ازدادت أعمال العنف فى البلاد نظرا لاستخدام قوى الأمن العنف

المفرط فى مواجهة حرب عصابات سوابو الموجهة أساسا ضد زعماء الأوطان الأفريقية. وكان أهم عنصر من عناصر المواجهة فى ناميبيا هو انسحاب البرتغاليين من أنجولا ثم الحرب الأهلية التالية بين الحركة الشعبية لتحرير أنجولا الحاكمة فى لواندا وحرب العصابات التى شنها حزب الاتحاد الوطنى للتحرير التام لأنجولا (يونيتا) فى جنوب البلاد، ولذلك استطاع حزب سوابو أن يزيد هجماته العسكرية داخل ناميبيا من قواعده داخل أنجولا بمساعدة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، وردت قوات جنوب أفريقيا بعنف وشنت هجمات مضادة من قاعدتها العسكرية الضخمة فى جبروت فونتين فى شمال ناميبيا، كما قاموا أيضا بمساعدة مقاتلى حزب الاتحاد الوطنى ضد حكومة الجبهة الشعبية الحاكمة.

وحاولت جنوب أفريقيا القيام بمبادرة سياسية عام ١٩٧٥ وعقدت مؤتمرا دستوريا لممثلى كل شعوب ناميبيا دون الإشارة من قريب أو من بعيد إلى حزب سوابو أو الأمم المتحدة، وعقد مؤتمر تورنهال واتخذ قرارا باستقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ ولكن مع استمرار التقسيم بين الأوطان الأفريقية والمنطقة البيضاء تحت نوع من الضمانات التى تقدمها جنوب أفريقيا، ويعنى ذلك استمرار نوع من أنواع السيطرة، ولم تقبل الأمم المتحدة أو ضرب سوابق مقترحات مؤتمر تورنهال، وحاول الأعضاء الغربيون فى مجلس الأمن الوساطة ولكن قررت حكومة جنوب أفريقيا فى نهاية الأمر عقد انتخابات فى البلاد بناء على مفاهيم مؤتمر تورنهال، ولكن كانت الحقيقة وراء أوضاع ناميبيا أن جنوب أفريقيا – بتشجيع سرى من الولايات المتحدة – قد رفضت سحب قواتها العسكرية من المنطقة مادام الروس والكوبيون فى أنجولا لمساعدة حكومتها الماركسية، ولذلك تحولت ناميبيا إلى منطقة شملتها آثار الحرب الباردة وسوف تستمر كذلك طوال عقد الثمانينات.

ولذلك فإن علاقات جنوب أفريقيا الخارجية فى أعوام ١٩٤٥ إلى ١٩٨٠ قد كانت أساسا رد فعل لاتجاهات الدول الأخرى لسياساتها وإجراءاتها الداخلية، ولم

يكن ذلك فقط بما يحدث هناك آنذاك ولكن بما يحتمل حدوثه فى المستقبل، فتوجد عدة دول فى العالم حيث تمثل الحكومات أقلية من السكان ولكنها تعذب الأغلبية وتسيئ إليها وتسيطر على التحركات الداخلية والخارجية لشعبها، كما تستخدم تلك الدول الشرطة السرية والمخبرين لمعرفة أقل مظاهر الأشياء والمعارضة كما أنها تمارس أيضا التعذيب فى سجونها أثناء استجوابها والقتل والاغتيال خارج تلك السجون، وتوجه العديد من الحكومات فى العالم، حتى فى أفريقيا ذاتها، والتى قتلت أعدادا كبيرة من مواطنيها أكثر من حكومة جنوب أفريقيا، ولكن تميزت جنوب أفريقيا بالذات بأن تلك الجرائم والمظالم قد تم ارتكابها لأسباب مثيرة لجدل هائل وتتعلق بالجنس واللون، وحينما قتل ستيف بيكو على أيدى رجال الشرطة البيض فإن كل رجل أسود فى العالم قد شعر أن الأمر يخصه شخصيا، وكانت أكبر آمال الحركة الأفريقية المشتركة هى ذاتها رغبة كل الدول الأفريقية السوداء فى تحرير إخوانهم فى أقصى جنوب القارة، ورغب فى ذلك حتى الدكتاتور عيدى أمين لكى يظهر بطلا مناضلا ولعلمه تماما أن الدول الأفريقية ستتقاعس عن الهجوم عليه لسياسته الداخلية المستبدة لكونه من أنصار تحرير الشعب الأفريقى.

## الاختراق فى جنوب أفريقيا

ولذلك قامت حكومة جنوب أفريقيا ببعض المجهود لكسر عزلتها المتزايدة عند أقصى جنوب القارة لمواجهة ذلك الموقف واستمرت فى تنمية علاقاتها الاقتصادية بالدول الغربية واليابان وحاولت كثيرا إثبات جدواها كشريك تجارى كبير يمكن الاعتماد عليه ولكونها أيضا مصدرا للتنمية والمساعدة للعديد من الدول الأفريقية الأخرى، وأقام فيرفورد وفورستر علاقات وثيقة مع ليسوتو ومالاوى كما أجريا اتصالات مع دول بعيدة مثل ساحل العاج وليبيريا وغانا وجمهورية مالاجاشى، وعرضت بضائع جنوب أفريقيا للبيع فى عدة دول أفريقية والتى لم

تقبل أبدا زائرين جنوب أفريقيين فى أراضيها أو عبور طائرات جنوب أفريقية فى أجوائها الإقليمية، ولكن تعتمد كل من بتسوانا، وزامبيا وزائير وزيمبابوى إلى درجة كبيرة على وسائل المواصلات الجنوب أفريقية مثل خطوط السكك الحديدية لكى تتصل بالبحر، وخاطرت حتى دولة معادية مثل موزمبيق بأن ترسل عمالها الموسميين المهاجرين للعمل فى جنوب أفريقيا مقابل السداد بالعملة الذهبية بين حكومة وأخرى من أجل موازنة الميزانية الموزمبيقية، ثم أصدر مؤتمر يتكون من أربع عشرة دولة أفريقية، إعلان لوساكا عام ١٩٦٩، ويعبر به بالذات عن أفكار الرئيسين كواندا ونيريرى، ووضع هذا الإعلان الخطوط العريضة للمباحثات المستقبلية بين جنوب أفريقيا ودول أفريقية أخرى، ولكنهما ركزا تماما على مفهوم محدد وهو أن ذلك لن ينجح إلا إذا أثبتت جنوب أفريقيا استعدادها لتغيير سياسة التطور المنفصل، وسوف تعترف الدول الأفريقية إذا قبلت جنوب أفريقيا ذلك أنه يمكن انقضاء فترة طويلة للغاية قبل وصول الأغلبية الأفريقية إلى الحكم، وقابل فورستر وبعض الوزراء الأفريقيين الجنوبيين البيض إلى نهاية الثمانينيات بالرفض البليغ لما كان يمكن أن تكون فرصة واحدة لا تعوض للخروج من وطنهم الذى أقاموه بأنفسهم.

ولكن يوجد نوع آخر من الإنذار ولا يمكن لحكومة ب.و.بوثا p.w.Botha تجاهله على الإطلاق. وصدر من قادة الصناعة والتجارة فى البلاد، وذكر وبوضوح تام أن التقدم المزدهر فى ذلك العصر فى اقتصاد جنوب أفريقيا سوف يتوقف تماما فى القريب العاجل. ويمكن تفادى ذلك فقط بالحصول على قوة عمل ماهرة أو شبه ماهرة فى أسرع وقت من بين سكان جنوب أفريقيا السود الذين بلغ تعدادهم آنذاك حوالى ٢٩ مليونا، كما ينتظر أن يزداد هذا العدد كثيرا فى نهاية القرن وسوف يكونون أهم المستهلكين والمنتجين فى المستقبل كما أنه من الواضح تماما أن معظمهم سوف يقيم ويعمل فى أو حول المدن البيضاء وليس فى الريف أو فى البانتو ستانات. ويقول ف. ب. دى كليرك F.W.de Klrk وكان آنذاك وزيرا

شابا صاعدا فى مسيرة حياته إن إدارته لاقتصاد بلاده خلال عقد بداية الثمانينيــات قد أقنعته تماما أنه سيكون من المستحيل تماما الاحتفاظ بالنمو الاقتصادى من جهة والنجاح فى تطبيق سياسة الأوطان المستقلة المنفصلة من جهة أخرى. وقال إنــى أعتقد أن النمو الاقتصادى عامل أكثر أهمية بكثير من أجل التنفيذ أكثــر مــن أى عامل آخر، ويشمل ذلك العقوبات والضغوط الدولية ويضــيف المعلومــة المهمــة التالية أن لجنة خاصة وربما سرية داخل الحكومة قد طورت سياسة جديدة مما يفيد تغيرا شاملا يصل إلى ١٨٠ درجة انحرافا عن سياسة التفرقة العنصــرية الســابقة وأساليب التطور المنفصل والتوفيق بين الأجناس وقبلت تلــك السياســة المبــادئ الأساسية الخاصة بجنوب أفريقيا فى المستقبل وهى بلد واحد صــوت لكــل فــرد وإلغاء جميع مظاهر التفرقة العنصرية وحماية الأقليات من ســيطرة الأغلبيــة(٥٤) ومثل المؤتمر الاتحادى للحزب الوطنى فى دربان تلك الاتجاهات السياسية الجديدة فى شهر أغسطس ١٩٨٦ ووافق عليه أيضا العدد المحدود مــن نــاخبى التفرقــة العنصرية عام ١٩٨٧

ولا شك أن رؤية دى لكيرك اللاحقة لتطور الأحداث فــى الثمانينيــات قــد تخطى عدة اختلافات فى الرأى فيما يتعلق بتوقيت التنفيذ الدســتورى الــذى أخــذ آنذاك بالاعتبار، ولكن مثلما تذكر فى مرات نلسون مانديلا فإن تبقى وزارات قــد أخذ على عاتقهم إحداث تغير حقيقى وفعال لإعادة بعض السياسيين فــى جزيــرة روبن Robbin Island إلى الحياة السياسية فى المجتمع المدنى ولكن قبل ذلك فــى شهر مارس ١٩٨٢ فإن مانديلا وثلاثة من الرؤساء الأفارقة قد تم نقلهم إلى ســجن بجوار مدينة الكاب Cape Town، وحيث سمح لهم بقراءة الجرائد والاستماع إلــى المذياع. واتصل مانديلا بالحكومة عام ١٩٨٥ وذكر أن الوقت قد حان للدخول فى مفاوضات وحوار بناء فى المؤتمر الوطنى الأفريقى وقال ولقد حاربنا ضد سيطرة حكم الأقلية البيضاء لمدة ثلاثة أرباع قرن وقتل كثيرون من الجــانبين وأعتقــد أن

---

(٥٤) F.wde klerk. The last trek, London 1998, p.42.Ibid., p.log

النصر العسكرى حلم بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا فعلا، ولا يوجد معنى لاستمرار الطرفين فى خسارة الآلاف بل الملايين من الأرواح فى نزاع لا ضرورة له ولقد حان الآن وقت التفاوض(٥٥) وردت الحكومة بتمهل ولكن فى شهر ديسمبر ١٩٨٨ ثم نقل ماندلا إلى سجن فكتور فرتر VICTOR FORSTUR بالقرب من بارل PARL وإلى منزل كبير به خدم وطباخ وحيث يمكنه استقبال الزائرين، وكان من الواضح أنه يتم التحضير لإطلاق سراحه فى المستقبل القريب وللقيام بدور رئيسى بعد ذلك، ويبين كل ذلك أنه بالرغم من إخفاء نواياها الحقيقية عن الناخبين فإن الحكومة فهمت تماما أى تغيرات كبرى سوف تتم، كما أن الهدوء والسلام لن يأتيا إلا بتعاون زعماء المؤتمر الوطنى الأفريقى سواء الموجود منهم فى السجون أو فى المنفى ومن بينهم نلسون مانديلا وهو أفضل شخصية يمكن التفاهم معه والوصول إلى اتفاق.

ولم يبق آنذاك إلا موضوعان مهمان يمنعان اتخاذ القرارات المصيرية المهمة وكان الأول هو وجود المرتزقة الكوبيين فى أنجولا وانتهى ذلك بانسحابهم عام ١٩٨٩ أما الحاجز الثانى وهو الرفض الشخصى للرئيس العجوز بوثا لبدء المفوضات ولكنه تعرض لأزمة قلبية عام ١٩٨٩، واضطر إلى الاستقالة فى شهر أغسطس من العام نفسه وخلفه ف.و دى كليرك فى رئاسة الحكومة، وأعلن للعالم أن وقت المصالحة وإعادة البناء قد حان، وأن حكومته سوف تلغى الحظر على حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى والحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا وإطلاق سراح نلسون مانديلا من سجنه الطويل دون قيد أو شرط..والأغرب من ذلك أن الحكومة قد طلبت موافقة الناخبين البيض بعد عام من تلك الأحداث وفى انتخابات عامة وكسبت بأغلبية عظيمة. ولكن ما زال الطريق طويلا للبدء فى مشاركة السلطة، وإن بدا أن اتجاه التغيير سوف يسير دائما إلى الأمام. وأخيرا انضمت جنوب أفريقيا إلى بقية القارة من حيث النوايا إن لم يكن فى حكم الواقع بعد.

---

(٥٥) Nelson Mandela. long walk to freedom. New York 1994p.45-7

# الفصل الحادى والعشرون

# سياسات أفريقيا المستقلة

ولدت الدول الأفريقية التى حصلت علــى اســتقلالها خــلال الخمســينيات والستينيات بالاتفاق السلمى غالبا مع القوى الاستعمارية الســابقة حالــة انتعــاش سياسى كبير، فلقد ورثت من تلك القوى أنظمة حكم عملية، والتــى مهمــا كانــت عيوبها فى مجال الحرية الشخصية والإهانة التى شعر بها الناس من الحكم الأجنبى إلا أن تلك النظم قد قدمت إطارا حقيقيا للأمن الداخلى والخارجى، وإدارة صــالحة وفعالة، شئون مالية جيدة ومرافق عديدة جيدة مــن الطــرق والمــوانى والســكك الحديدية ويضاف إلى ذلك الخدمات الاجتماعية الحديثة فى التربية والتعليم والصحة وتطور المجتمع، وأدى وجود الزعامات الأفريقية الجديدة آنذاك إلى إضفاء صــفة الشرعية لحكم البلاد بواسطة أبنائها، مما أدى إلى مشــاركة أعــداد كبيــرة مــن المواطنين العاديين لتأييد الأحزاب السياسية التى تم تكوينها على النمط الديمقراطى الغربى، وقال نكروما قوله المأثور: ابحثوا أولا عن مملكة السياسة، وسوف تضاف كل الأشياء الأخرى تباعا!".

وشعر زعماء الدول الجديدة بالثقة نظرا للتماسك الداخلى لبلادهم لدرجة أن معظم أعمالهم الأولى قد انصبت أساسا على السياسة الخارجية ووجب عليهم إنشاء علاقات جديدة مع الدول الأفريقية المجاورة لتأمين حدودهم بينما كان عليهم تطوير علاقاتهم خارج القارة مع الدول الصناعية غير الاستعمارية السابقة والتى يمكنهــا مساعدتهم كشركاء تجاريين، كمصدر للاستثمار وتقديم المنح التعليمية ولأغــراض إنسانية أخرى، ولعبت الأيديولوجية دورا فى ذلك؛ إذ كونت الدول التــى تفضــل

الغرب كتلة مونروفيا بينما فضلت الدول المؤيدة للشرق تكوين كتلة الدار البيضاء الصديقة للسوفيت، ولكن لم تستمر تلك التكتلات طويلا فلقد تعلم رجال السياسة الأفريقيون أنه من الأفضل تنمية علاقاتهم مع الشرق والغرب على السواء بل والاستفادة من خلافاتهم أيضا كما عرفت تلك الفترة بالنسبة للمساعدات بعصر الحروب الصليبية للأطفال، ويعنى ذلك أن الآلاف والآلاف من الشباب والشابات الصغار فى السن نسبيا قد توافدوا إلى أفريقيا من غرب أوروبا وشمال أمريكا لقضاء عام أو أكثر فى خدمة المجتمعات الأفريقية وبالذات فى تعليم اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت حديثا فى المناطق الريفية للدول الأفريقية من الجزائر إلى مدغشقر ومن سيراليون إلى زامبيا، وعرفوا فى فرنسا وبلجيكا بالمتعاونين، ويعفون من الخدمة العسكرية فى بلادهم كحافز لهم، ويتمتع أفراد هيئة السلام الأمريكية بالامتيازات نفسها وأصبحت الخدمة فى أفريقيا بديلا عن التوجه لحرب فيتنام ومولت الحكومة البريطانية مجموعة من المنظمات التطوعية وأكبرها هيئة الخدمات التطوعية عبر البحار، ولعب هؤلاء الشباب دورا مهما فى تنمية النظم التعليمية الأفريقية خلال الأعوام الأولى من استقلال أفريقيا، وقدموا للجيل الجديد من أطفال المدارس الأفريقية معرفة مباشرة جيدة بالعالم الخارجى ولم تستطع دول الكتلة الشرقية منافسة تلك المجهودات لعدم إلمامها باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

ولكن لم تجد رؤية فكرة فى إنشاء ولايات متحدة أفريقية تأييدا كبيرا، كما انهارت كل الاتحادات الإقليمية الأولى التى تكونت خلال العصر الاستعمارى فى غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية من جهة واتحاد وسط أفريقيا البريطانى والمجموعة الشرق أفريقية الأقل تماسكا، وعادت تلك الاتحادات كلها إلى مكوناتها الأساسية، أى انفصلت كل الدول وعادت كل منها إلى أوصولها بعد زوال عملية فرض الوحدة من الخارج، واعتقد لفترة بسيطة أن حركة الانفصال سوف تزداد أكثر بعد انفصال كاتانجا عن الكونغو (فيما سبق، الفصل ١٨) ولكن

أدى تدخل الأمم المتحدة واستخدامها قوات من دول أفريقية أخرى إلى إنهاء ذلك الاتجاه ثم ظهرت منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٦٣ وهى هيئة استشارية مقرها أديس أبابا والتى أصبحت مرجعا مهما للغاية لإنهاء الخلافات بين الدول الأفريقية المختلفة بالإضافة إلى توحيد الأصوات فى المسائل ذات الاتفاق المشترك مثل استمرار الكفاح لتحرير باقى المناطق التى مازالت تحت حكم الاستعمار فى أنجولا وموزمبيق وروديسيا وجنوب أفريقيا، وأصبح من المبادئ الرئيسية لمنظمة الوحدة الأفريقية مبدأ قدسية الحدود الموروثة من عصر الاستعمار، وذلك لمنع منازعات الحدود من جهة والمحاولات الانفصالية من جهة أخرى.

## الديمقراطية والأوتوقراطية والحكم العسكرى

اكتشف الزعماء السياسيون فى الدول المستقلة حديثا بسرعة أن الحصول على تأييد الشعب فى المواضيع العادية ولكن المعقدة مثل مشاريع التعليم العام لجميع أطفال وشباب الدولة وتحسين الأوضاع الاجتماعية يختلف تماما عما حدث فى الماضى حينما حصلوا على تأييدهم فى مسألة نضال الوطنيين الأفريقيين ضد المستعمر الأجنبى، ثم أوصلهم هذا النضال إلى السلطة ولكن كانت القاعدة الوحيدة للشخصية القومية فى تلك الدول كلها هى تلك الموروثة من العصر الاستعمارى والتى تم إنشاؤها بسرعة ثم فرضت على سكان مختلفين للغاية يتحدثون العديد من اللغات المختلفة، ولم توجد فى تلك الدول إلا أقلية صغيرة من أفضل الناس تعليما والذين لديهم انتماء أكبر من الجماعة العرقية ولذلك رأى معظم الزعماء الأفريقيين أنه لا جدوى للنظام البرلمانى الديمقراطى السائد فى العالم الغربى والمتعدد الأحزاب المتواجهة فيما بينها، إذ أن الأوضاع الداخلية لا تسمح بذلك إطلاقا ولذلك طبق زعماء أفريقيون آخرون النظرية الماركسية - اللينينية الخاصة بفكرة الحزب الواحد الذى يعبر عن نخبة تقدمية، ولم يقبلوا معارضة منظمة، ورغبوا فى حشد

الجماهير حول فلسفة واحدة وبرنامج سياسى واحد. وكان كـل هـؤلاء الزعمـاء يساريين طبقا للمفاهيم الغربية وبرروا ذلك المفهوم الحزبى على أنه بناء للدولـة، ووجد العديد من المراقبين السياسيين فى الشرق والغرب على السـواء المسـتعدين تماما لتبرير تلك المفاهيم السلطوية للأسباب المذكورة سابقا.

ويبدو أن فكرة الحزب الواحد قد دخلت القارة أساسا من الدول الفرانكفونيـة فى غرب أفريقيا، وكان هوفويه بونيه فى ساحل العاج وسيكوتورى فى غينيا قـد أنشأ كل منهما نظام حكم الحزب الواحد حتى قبل نقل السلطة رسميا ثـم تبعتهمـا معظم الدول الأفريقية الفرانكفونية الأخرى فى منتصف الستينيات فى هذا الاتجـاه باستثناء السنغال، وقادت غانا تحت حكم كوامى نكروما نظام حكم الحزب الواحـد فى أفريقيا الناطقة بالإنجليزية ثم تبعته فى ذلك فى شرق أفريقيا وتنزانيا تحت حكم جوليوسى نيريرى، ومالاوى تحت حكم هاستنج باندا، وزامبيا تحت حكـم كينيـث كواندا.

وحاول نيريرى بالذات فى خطبه الرسمية وكتاباته أن يدافع عن التحول إلى الاشتراكية الأفريقية، وقال إنها تتلاءم تماما مع النظم التقليدية الأفريقية السائدة فى عصر ما قبل الاستعمار؛ إذ يعرض الشيوخ آنذاك مشاكل المجتمـع "تحـت ظـل شجرة كبيرة" بغرض الوصول إلى إجماع وليس مواجهة، وبعد الوصول إلى اتفاق عام يحول الرئيس ذلك التفاهم إلى أمر تنفيذى يطبقه الجميع فورا وبدون تردد.

ولكن أثبتت الأحداث أن الحزب التقدمي قد فرض سطوة فئة قليلـة للغايـة على الأغلبية كما أصبح أعضاؤه أصحاب نفوذ وقوة. ولـذلك أدى عـدم وجـود المعارضة إلى ضعف البرلمانات مما أدى إلى حكم الوزراء دون أدنى رقابة على أعمالهم، وتحولت التعيينات فى الوظائف والترقيات فى الجهاز المدنى والشـرطة والقضاء والهيئات التابعة للدولة إلى الذين يدينون بالولاء للحزب الحاكم، ثم يمتـد نشاط الحزب إلى المجتمع كله ليصل إلى مستوى القرية لشرح سياسـة الحكومـة

أيضا ولكن يتم أيضا، الاستماع وإبلاغ القيادات العليا بكل ما يقال ويتم القبض على المعارضين بوسائل شرعية أو غير شرعية على السواء، وتمتلك تلك الأحزاب السلطوية حرسها الخاص فى صورة منظمات الشباب المستعدة دائما للهجوم على أى قرية ترفض الاقتصاد الجماعى أو ضد أى جماعة تزداد بها حرية التعبير.

ولم تأت التغيرات فى الاتجاه الاشتراكى فجأة ولكن على مراحل، فلقد حصلت غانا مثلا على استقلالها عام ١٩٥٧ بدستور على النمط البرلمانى البريطانى، ولكن سرعان ما صدر قانون الحجز الوقائى منذ عام ١٩٥٨ والذى استخدم ليس فقط ضد أعضاء المقاومة ولكن أيضا ضد المنشقين فى الحزب الحاكم نفسه، وصدر بعد ذلك قانون العلاقات الصناعية فى العام نفسه وأخضع الاتحادات العمالية للسيطرة الحكومية وتحولت غانا إلى جمهورية عام ١٩٦٠، وأصبح نكروما رئيسا للجمهورية بدلا من رئيس الوزراء بعد صدور دستور جديد والذى أعطى له سلطات هائلة، وتم إعلان غانا على أنها دولة يحكمها حزب واحد عام ١٩٦٤ وإن كان الحزب الحاكم آنذاك قد تدهور تماما وتحول لحزب من المنتفعين، وازداد الاستياء الغربى منها ولذلك لجأ نكروما إلى الكتلة الشيوعية ولكنه نكروما بتأييده للحركات الاستقلالية فى الدول الأخرى واستمر فى الحديث والكتابة عن حاجة أفريقيا للوحدة.

ولكن لم يؤد مفهومه للاشتراكية الأفريقية المسمى النكرومية إلا إلى إنشاء بعض المشاريع الصناعية والمرافق العامة التى أثبتت أنها شديدة التكاليف وذات عائد اقتصادى قليل، وانعزل نكروما عن أبناء الشعب الغانى، وأقام فى البداية فى القلعة الدانمركية القديمة لتجارة العبيد فى كريستيان بورج، وفيما بعد فى ثكنات عسكرية عند مشارف أكرا، حيث يمكن الدفاع عنه عند الحاجة بوسط الحرس الجمهورى المسلح بأسلحة أفضل من أسلحة الجيش النظامى ولكن شاءت سخرية الأقدار أن يطيح به الجيش عام ١٩٦٦ أثناء زيارته للصين، وكان نكروما قد ورث دولة من أغنى دول غرب أفريقيا وذات ميزانية قوية متوازنة بالإضافة إلى احتياطى كبير من

العملات الأجنبية، ولكن تحولت غانا بعد تسعة أعوام من حكمه إلى دولة مفلسة تماما حيث نقصت بها المواد والسلع الأساسية بل والطعام أيضا، وانهارت أيضا كل الخدمات الاجتماعية لدرجة لا يمكن تصورها، وتوفى نكروما ولم يبيكه الكثيرون كشخص، ودفن عند صديقه سيكوتورى فى جزيرة أمام ساحل غينيا.

ولم يكن الانقلاب العسكرى فى غانا أول الانقلابات العسكرية التى أثرت على أفريقيا المستقلة، فلقد أطاح الضباط الأحرار بحكم الملك فاروق فى مصر فى يوليو ١٩٥٢، كما تولى الجيش الحكم فى السودان وأطاح بأول حكومة مدنية عام ١٩٥٨ والتى تم انتخابها قبل عامين فقط وتدخل الجيش فى توجو عام ١٩٦٣ لتعيين رئيس جمهورية جديد، وأصبح الجنرال موبوتو الذى كان أحد قادة تمرد عام ١٩٦٠ (انظر فيما سبق الفصل ١٨) رئيسا للكونغو والتى غير اسمها إلى زائير وتوالت الانقلابات العسكرية خلال عامى ١٩٦٦ و١٩٦٧ فى منتصف القارة الأفريقية إذ نشبت انقلابات فى بنين وتوجو وفولتا العليا، وجمهورية أفريقيا الوسطى، واستخدم رئيس الوزراء المدنى فى أوغندا وهو ميلتون أو بوتى الجيش للإطاحة بالحكومة الدستورية للبلاد ولكن كانت أسوأ تلك الأحداث هى الانقلابات العسكرية المتتالية فى نيجيريا والتى أدت بأكثر الدول رخاء وثروة فى وسط أفريقيا إلى حافة التفتت والخراب.

## من الحكم العسكرى إلى الحرب الأهلية

كانت الحكومة البريطانية قد تفاوضت باهتمام شديد مع السياسيين النيجيريين حول دستور نيجيريا، وتم التوصل إلى إقرار النظام الفيدرالى وسلطة مركزية واحدة وثلاثة أقاليم ذات سيادة جزئية ودارت السياسة على المستوى الاتحادى فى إطار سيطرة المنطقة الشمالية الواضح، وذلك نظرا لمساحة هذا الإقليم وكثافة سكانه ذات الأغلبية الإسلامية، وكان رئيس الوزراء الاتحادى هو السير أبو بكر

تافاوا باليوا الذى يتمتع باحترام كبير كمرشح لحزب مؤتمر الشمال، وتميز باتجاهه المحافظ وتمتعه باحترام كبير منذ توليه الحكم عند الاستقلال عام ١٩٦٠ وأكـــدت عمليتا إحصاء وانتخابات أجريتا عامى ١٩٦٣ و١٩٦٤ وبالرغم من وجود شـــبهة غش وفساد، ذلك الوضع تماما وسيطرت على الحكم فى الإطار الفيدرالى الأعراق الثلاثة الكبرى فى البلاد وهى: الهاوسا فى الشمال، اليوروبا فى جنـــوب الغـــرب والإيجبو فى جنوب الشرق. أما فى العلاقات بين الأقاليم فلقد تحـــالف اليوروبـــا، نظرا لوجود أعداد كبيرة من المسلمين بينهم، مع الهاوسا الشماليين ولـــذلك شـــعر شعب الايبو المسيحى والذى لديه أفضل نخبة مثقفة بالعزلـــة، وكـــان أبنـــاؤه قـــد انتشروا فى كافة المناطق فى الـــبلاد وقـــاموا بأعمـــال التجـــارة والأعمـــال ذات التخصص الثقافى وشعروا بأنه لا يمكن الاستغناء عنهم ولكن لا يتم تقديرهم بالقدر الكافى، ولذلك قامت مجموعة من ضباط الجيش الشباب – ومعظمهم من الإيبـــو – بالإطاحة بالحكومة فى يناير ١٩٦٦، وقتلوا باليوا ورؤساء وزراء الأقاليم الأخرى الشمالية والجنوب غربية وأنشأوا نظام حكم عسكرى بقيـــادة أحـــد الإيبـــو، وهـــو الجنرال إيرونس واشتعل الموقف فى المنطقتين الأخريين، وتم قتل الإيبو المقيمـــين فى المدن الشمالية، ثم قتلت مجموعة من الضباط الشماليين الجنرال أورونس، ثـــم عينوا الفريق جوون وهو مسيحى شمالى بدلا منه، ولذلك اتخذ الحـــاكم العســـكرى للمنطقة الشرقية وهو الفريق أوجوكوو خطوات للانسحاب من الاتحاد الأفريقى، ثم أعلن الانسحاب رسميا فى شهر مايو ١٩٦٧ حينما أعلن اوجوكوو استقلال دولـــة بيافرا رسميا.

وتوجد عدة أسباب لرفض الحكومة الاتحادية الموافقة على الانفصال ولكـــن كانت أكثر الأسباب هى تركيز كل آبار البترول تقريبا والتى تعتمد عليها الحكومة الاتحادية تماما فى مواردها وموازنة ميزانيتها فى إقليم بيافرا المنفصل، وتشـــابهت الأحوال هنا مع كاتنجا عام ١٩٦٠ حينما حاول تشومبى الاستقلال واحتكار الثروة المعدنية الرئيسية للكونغو لصالح مقاطعته فقط، وهكذا بدأ عصر الحروب الأهليـــة

فى نيجيريا والتى استمرت ثلاثة أعوام وأدت إلى مقتل أكثر من مليون نيجيرى، واستطاعت بيافرا فى البداية بفضل استعدادها الأفضل الاستيلاء على معظم المنطقة الواقعة بين بنين ولاجوس ولكن سرعان ما استعادت القوات الفيدرالية المبادرة ودفعت قوات بيافرا إلى الخلف إلى أن عادت إلى حدودها الأصلية، ثم انكمشت مساحتها أكثر فى منتصف عام ١٩٦٩ واقتصرت فقط على منطقة داخلية صغيرة للغاية حول مركز موطن شعب الإيبو، واكتظت تلك المنطقة الصغيرة باللاجئين الهاربين الجائعين والذين تجمعوا حول المطار الوحيد العامل فى أولى.

ولكن استمرت الحرب ثمانية عشر شهرا أخرى ويرجع ذلك إلى قدرة أوجوكوو الفائقة على إقناع العالم الخارجى أن بيافرا دولة مسيحية صغيرة شجاعة يغزوها غزاة مسلمون لا يبغون إلا السلب والنهب وانتزاع ثرواتها، ولذلك حصل على تأييد أربعة حكومات أفريقية ويشمل ذلك تنزانيا وزامبيا.

وحصل أيضا على إمدادات عسكرية من فرنسا وجنوب أفريقيا والبرتغال الذين رغب كل منهم ولأسباب مختلفة فى إضعاف أكبر قوة أفريقية سوداء مستقلة. واستطاع أيضا إقناع المؤسسات غير الحكومية فى المساعدة فى النقل الجوى للسلاح والعتاد إلى المنطقة المحاصرة ولكن أيدت بريطانيا الحكومة الفيدرالية سياسيا ومن الاتحاد السوفيتى عسكريا، وكان الأخير يمد نفوذه آنذاك بسرعة كبيرة فى العالم الإسلامى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا واهتمت معظم الدول الأفريقية – كما هى الحال دائما – بالاحتفاظ بالحدود القائمة وأيدت بالتالى القضية الاتحادية، وانهارت بيافرا فى نهاية الأمر فى بداية ١٩٧٠، وهرب أوجوكوو إلى ساحل العاج، وكان جوان حكيما للغاية فى انتصاره حيث لم ينكل بأحد وأعاد الجنود والمدنيين إلى أعمالهم فى الدوائر الاتحادية والإقليمية بنجاح ثم عاد أوجوكو نفسه إلى بلاده فى نهاية الأمر، وشعر النيجيريون بصفة عامة أنهم أصبحوا أمة واحدة بعد الحرب أكثر مما كانوا قبلها، ولكن أصبحت أهم ضحايا الحرب الأهلية هى الحكومة المدنية التى أصبحت استثناء بعد ذلك وليس القاعدة.

ولم يحدث الحكم العسكرى فى كل الدول الأفريقية، فلقد ظل عدد كبير من الحكام المدنيين مثل الملك حسن الثانى فى المغرب، والرئيس بورقيبه فى تونس، وسنجور فى السنغال، وهوفى بوانيه فى ساحل العاج، ونيريرى فى تنزانيا، وباندا فى مالاوى، وكاوندا فى زامبيا، وتسيرانانا فى مدغشقر يمارسون الحكم لمدة ربع قرن أو أكثر دون فقدانهم سيطرتهم على قواتهم المسلحة، ولكن لم يكن الحكم العسكرى دائما كارثة حيثما حل، ويعنى ذلك مثلا بعد انتهاء الحرب الأهلية فى نيجيريا أن كبار الضباط قد شغلوا المناصب الوزارية ورئاسة الأقاليم فقط ولكن استمر جهاز الخدمة المدنية الكفء نسبيا مستمرا فى أداء عمله بطريقة عادية.

وكانت معظم الحكومات الأفريقية خلال العقود الثلاثة الأولى من الاستقلال أوتوقراطية إن لم تكن مستبدة، وتتكون من عناصر من أوساط محددة وتميل إلى الفساد ولم يختلف الأمر كثيرا إذا ما ارتدى رئيس الدولة زيا عسكريا أو لا.

وأدت الانقلابات العسكرية إلى ظهور نماذج بشرية من أخطر الشخصيات وكان أبرزها بطبيعة الحال العقيد معمر القذافى الذى تورط فى العديد من العمليات المتنوعة الغربية والمغامرات الخارجية التى مولتها ثروة ليبيا من البترول وبفضل قلة عدد السكان، وحاول التدخل فى هذه الدولة الإسلامية أو تلك جزئيا فى شمال أو جنوب الصحراء بتأييده للجماعات المعارضة بها، وتورط فى محاولات للقضاء على حكومات شرعية بواسطة العنف، ويشمل ذلك محاولة اغتيال الملك الحسن الثانى عام ١٩٧٤، والرئيس أنور السادات عام ١٩٧٦، ونظم محاولة انقلاب فاشلة ضد الرئيس نميرى فى السودان عام ١٩٧٥ وارتبط بالإرهابيين الذين نجحوا فى النهاية فى اغتيال السادات عام ١٩٨١، كما قدم الأموال والتدريب للجماعات الإرهابية فى العديد من دول غرب أفريقيا، وأرسل قوات عسكرية لمساعدة عيدى أمين عام ١٩٧٨ وهى من الحالات النادرة التى حاول بها مساعدة أحد الحكام ولكن وبالرغم من أن محاولات تدخلاته المتعددة قد ظهرت أنها غير مفهومة وشديدة الاندفاع، إلا أنه قد وجدت وراءها رغبة فى تصوير مفهومه للإسلام

المجاهد، ورأى القذافى نفسه كصاحب دعوة من أجل قيادة المسلمين، ولذلك أنفق ثروة ليبيا الهائلة من البترول فى أفريقيا السوداء فى عمليات لتحويل المسيحيين والوثنيين إلى الإسلام ونجح فى ذلك أحيانا، مثلا فى نيجيريا ورواندا، واعتقد أيضا - كما سنرى فيما بعد- أن تشاد بوابته إلى الجنوب، وذلك بصرف النظر عن مشكلة حدودية معها وأطماعه فى الشريط الحدودى أوزو الغنى بالمعادن والذى آل إلى تشاد نتيجة لاتفاقيات استعمارية بين فرنسا وإيطاليا عام ١٩٣٥.

وكان ماسياس نجيما شبيها بالقذافى وإن اقتصر مجال نشاطه على مساحة أصغر، وكان حاكما لغينيا الاستوائية وهى المستعمرة الأسبانية الوحيدة فى أفريقيا الاستوائية فى الماضى وانتهى به الأمر فى القبض عليه وإعدامه بواسطة جنوده عام ١٩٧٩، ولكنه قام أثناء حكمه الذى استمر أحد عشر عاما مع أتباعه فى الفاتح من الجزء القارى من البلاد بإثارة الرعب والسلب والنهب فى جزيرة فرناندو بو (بيوكو) الثرية فى الماضى، واستمر بذلك إلى أن تم القضاء على كل مظاهر الحياة الحضرية ووجد حاكمان عنيفان آخران وهما جان بوكاسا وعيدى أمين اللذان شقا طريقهما من صفوف ضباط الصف فى الجيوش الاستعمارية البريطانية والفرنسية، وحول بوكاسا جمهورية أفريقيا الوسطى إلى إمبراطورية نابليونية غريبة الشكل وأنفق جزءا كبير من دخل الدولة على حفل تتويجه، واستضاف أيضا الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان الذى رافقه فى رحلة صيد ولكن تعب الفرنسيون فى نهاية الأمر من تجاوزاته وأطاحوا به فى انقلاب عسكرى قاموا بتدبيره عام ١٩٧٩، أما حكم عيدى أمين فى أوغندا فى عقد السبعينيات فلقد كان واحدا من ثلاثة عقود من الصراعات الداخلية العنيفة تميز بالذات بإساءة استخدام القوة العسكرية.

وكانت أوغندا عند استقلالها عام ١٩٦٣ دولة ثرية جيدة الحكم بالرغم من وجود توترات داخلية عنيفة تحت السطح وبالذات بين الشعوب النيلية فى شمال البلاد الأقل تقدما وشعوب البانتو فى الجنوب الخصب الكثيف السكان، وسرعان ما ظهرت تلك التوترات فى إطار السياسات الوطنية، وتولى ميلتون أوبوتى وهو من

الشمال الحكم بالتحالف مع النواب البرلمانيين لبوجندا، مما أدى إلى انقسام الجنوب ولكنه استخدم الجيش ضد كاباكا البوجندا حينما أوشك مخالفه على الانهيار، مع أن الكاباكا هو الرئيس الدستورى للبلاد كلها، ثم قام أوبوتى بإلغاء الوضـــع الخـــاص لبوجندا في البلاد ولكن أطاح به قائد جيشه عيدى أمين عام ١٩٧١. وكان عيـدى أمين مسلما من قبيلة كاوكا المقيمة بعيدا ناحية حدود أوغندا مع الســودان ويمثــل أمين تماما نوعية الرجل العسكرى الشديد البأس، الشجاع المثقف وغيــر المثقــف والذى فضلت الجيوش الاستعمارية تجنيده فى الماضى. ولكنه سرعان ما أحضــر معه جنوده الشماليين إلى العاصمة وكافأهم بتشجيعهم على نهب محلات الآسيويين وباقى رجال الأعمال الذين يعتمد عليهم اقتصاد البلاد كثيرا، ثم قــام بطــرد كــل السكان الآسيويين البالغ عددهم ٣٠,٠٠٠ فى محاولة لزيادة شعبيته، واضطروا إلى اللجوء إلى بريطانيا وهم لا يملكون شيئا عدا ملابسهم. واستمر عيدى أمــين فــى الأعوام الثمانية من حكمه محاولا التخلص من كل منافسيه أو معارضيه المحتملين واحدا بعد الآخر مثلما يفعل كل الطغاة المستبدين، وكان أول ضحاياه هم الجنــود من قبيلة أوبوتى وهى قبيلة لانجو من الشمال الغربى وقتلهم بــالآلاف، ثــم قــام باستبدالهم بجنود من قبيلته الأصلية وآخرين من الشمال الغربى البعيد والذين كــان وجودهم فى الجنوب شديد الوطأة، ولذلك أثار استياء الجنوبيين وبالذات الباجنــدا، ولذلك اتجه إلى كبح جماحهم بسرعة. فقبض على العديد منهم فى مختلف أوســاط المجتمع الأوغندى وسجنهم فى ظروف رهيبة وتم ضربهم وتعذيبهم، واغتال كبير القضاة وأسقف الكنيسة الإنجليكانية، وحاول زيادة دور الإسلام فى بــلاد مســيحية أساسا. وقام بإنشاء جامع هائل غير متقن الصنع فى وسط كمبــالا والــذى مولــه بأموال من المملكة العربية السعودية وليبيا، وشجع منظمة التحرير الفلسطينية فــى بناء معسكرات تدريب فى أوغندا، ثم حاول إلهاء جيشه المتوتر عام ١٩٧٨ بغــزو منطقة نائية فى شمال غرب تنزانيا بحجة إعادة ترسيم حدود رسمها فى الماضــى، وانتقم الرئيس التنزانى نيريرى الذى كان يأوى أوبوتو منــذ عــام ١٩٧١ بغــزو

جنوب أوغندا للانتقام، ولكن ساعد السكان المحليون القــوات التنزانيــة، وأرســل القذافى بسرعة مساعدات ولكن لم يكن بالإمكان إيقاف تقــدم القــوات التنزانيــة، وهرب عيدى أمين ولجأ إلى المملكة العربية السعودية.

ولكن لسوء حظ أوغندا استخدم نيريرى انتصاره لإعــادة صــديقه مليتــون أوبوتى إلى الحكم؛ إذ عاد إلى منصب الرئاسة بعد انتخابات مشكوك بصحتها ولكن وبعد خمسة عشر عاما من سوء حكم الشماليين ومنهم ستة من حكم أوبوتى نفسه، لم يرغب الجزء الجنوبى فى البلاد امتداد هذا الحكم أو انتظار انتخابــات أخــرى، وظهرت خلايا من المعارضة المسلحة فى الريف ولكن قضى عليها بوحشية تفوق حتى وحشية عيدى أمين، والتفت أفضل عناصر المقاومة تــدريجيا حــول جــيش المقاومة الوطنية الذى أنشأه جويرى موســووينى والــذى حصــل علــى خبرتــه العسكرية أثناء حربة مع جبهة تحرير موزمبيق ضد البرتغاليين. فــى موزمبيــق ولكن أدى القتال بين وحدات الجيش الأوغندى فى الشمال إلى الإطاحــة بــأوبوتى وتوجهه للمنفى للمرة الثانية وظهر هنا موسوفينى كزعيم للبلاد وأصــبح رئــيس الجمهورية عام ١٩٨٦ وعاد مركز الحكم إلى الجنوب حيث تعيش أغلبية الســكان ولكن لم يوجد سلام دائم بين الشمال والجنوب، ولكن بدأت آنــذاك أعمــال البنــاء المادى والمعنوى الكبيرة بعد عودة احتمالات الاستقرار فى البلاد.

وكان جنوب السودان أكثر عزلة من شمال أوغندا، وكان منطقة كبيرة نائية يصعب الوصول إليها ومحرومة بالتالى من الخدمات، ولكنها كانت مختلفة للغايــة من الناحية الحضارية والعرقية عن شمال السودان الناطق بالعربية، ووجد ســكان الجنوب أنه من الصعب تماما التفاهم مع حكومة تتكون أساسا من الشماليين الــذين يتعاملون معهم وكأنهم متوحشون دون ثقافة ويجب إرغامهم بدلا من إقناعهم (فيما سبق، الفصل ٧) ولذلك ساءت العلاقات بين الخرطوم وولاياتها الجنوبيــة بحلــول عام ١٩٦٧، لدرجة أن الأنيانيا قد طالبوا بالاستقلال التام للجنوب. ووصلت الأمور إلى درجة حرجة بعد أن قتل الجنود الشماليون سكانا من مدينــة جوبــا الجنوبيــة

وجماعة الكنيسة المسيحية فى واو، وازدادت شدة القتال وهرب مئات الآلاف من اللاجئين إلى الدول المجاورة ولكن حينما تولى اللواء نميرى الحكم فى انقلاب عسكرى عام ١٩٦٩ فإنه بدأ مفاوضات مع الأنيانيا، وأدى ذلك إلى اتفاق توسط به الإمبراطور هيلا سيلاسى فى أديس أبابا عام ١٩٧٢، وأدى ذلك أيضا إلى انتهاء المرحلة الأولى من الحرب الأهلية، وتم تطبيق دستور اتحادى الذى منح السيادة المحلية للجنوب، ودخل الوزراء الجنوبيون الحكومة المركزية، وتم الاعتراف بالديانة المسيحية فى الجنوب، كما أعطيت اللغة الإنجليزية وضعا متساويا مع اللغة العربية.

وتم ضم وحدات الأنيانيا إلى الجيش الاتحادى. ولكن استمر هذا الاتفاق عقدا من الزمان فقط قبل أن تواجه حكومة النميرى محاولات انقلاب عديدة وانهيار اقتصاد البلاد وبالذات انتشار الأصولية الإسلامية فى السودان، وحاول مواجهة المد الأصولى المتصاعد بتطبيق الشريعة الإسلامية فى كل أنحاء البلاد مما أدى إلى تجدد الأعمال الحربية مع جيش تحرير جنوب السودان الذى أنشأه العقيد الجنوبى جون جارانج لمواجهة الحكومة المركزية، وازدادت حدة الحرب الأهلية وأضيف إليها العناء الشديد من فترة الجفاف التى استمرت عامى ١٩٨٤ و١٩٨٥، وأدت إلى المجاعة الطاحنة وأرسلت موجة جديدة من المهاجرين إلى البلاد المجاورة واستمرت تلك الحالة طوال عقدى الثمانينات والتسعينيات، وتميزت السودان فيما بين كل الدول الأفريقية أن لديها أقواما فى مراحل مختلفة للغاية من مراحل التطور مما أدى إلى خلق اكثر المشاكل السياسة صعوبة.

وكان العامل المشترك فى الحرب الأهلية فى كل من السودان ونيجيريا هى تلك المعارضة السياسية بين المسلمين وغير المسلمين المقيمين داخل حدود الدولة، ويمتد هذا الوضع على امتداد القارة مثل الخط المستقيم الذى يعبر منطقة جنوب الصحراء من السنغال غرب إلى المحيط الهندى شرقا، وكان لذلك أيضا جذور قديمة عميقة من عدم الثقة المتبادلة بين المغيرين والذين تمت الإغارة عليهم فى

عصر ما قبل الاستعمار، وقد عم عدم الثقة حينما اكتسب أحفاد المغار عليهم بسرعة التعليم والثقافة الغربية وحصلوا بالتالى على الوظائف المميزة فى قطاعات الاقتصاد المعاصر، ويمكن بالتالى أن يتحول جنس العبيد فى الماضى إلى الصفوة الحاكمة مما أدى إلى تدهور العلاقات أكثر وأكثر، فلقد استفاد المزارعون الجنوبيون فى مستعمرة تشاد الفرنسية السابقة من شعب السارا تماما من الحكم الاستعمارى الفرنسى فلقد زرعوا القطن أهم صادرات البلاد واعتنق معظمهم المسيحية كما علموا أولادهم تعليما راقيا. وكان المسلمون الشماليون آنذاك يواجهون الفرنسيين، وفعلوا كل ما فى وسعهم لمقاومة الحكم الفرنسى، ولذلك لم يتم إخضاع أكثر الولايات النائية ناحية الشمال وهى بوركو، انندى وتيبستى إلا عام ١٩٣٠ وكانت أكبر مجموعة هناك هى الرعاة التوبو الذين ظلوا تحت الإشراف والسيطرة العسكرية إلى عام ١٩٦٥. وتولى الجنوبيون الحكم من الفرنسيين عام ١٩٦٠ وأقام فرنسوا تومبالاية وهو أول رئيس للجمهورية حكومة الحزب الواحد وتعامل مع المسلمين بشدة وحزم، وبدأ فى تطبيق برنامج للأفرقة أكثر تشددا حتى من برنامج موبوتو فى زائير، وحاول فرض القانون العرفى لشعب السارا على كل البلاد مما أدى إلى انتشار المقاومة. ثم قتل تومبالاية فى انقلاب عسكرى الذى أدى إلى وصول الشماليين إلى الحكم. ولكن نشبت الحرب الأهلية بين مختلف فئات النظام الجديد عام ١٩٧٩ مما أدى إلى استمرار التوتر إلى تسعينيات القرن العشرين، كما أدى ذلك إلى تدخل ليبيا من جهة وفرنسا والولايات المتحدة من جهة أخرى.

## الحرب الأهلية والحرب الباردة.

رأينا فيما سبق (فصل ١٧) أن جذور الصراع قد وجدت كامنة فى بلاد قرن أفريقيا منذ الستينات وبالذات بالنسبة لرغبة الأرتريين والصوماليين المسلمين فى

الاستقلال عن الأثيوبيين المسيحيين واستعد الانفصاليون الأرتريون بمساعدة الدول العربية والدول الشرقية للحرب من أجل الانفصال والاستقلال وذلك بعد أن ألغى الإمبراطور هيلا سيلاسى الدستور الاتحادى عام ١٩٦٢. كما شجعت الحكومة الصومالية آنذاك السكان الصوماليين فى ولاية أوجادين الأثيوبية على الانفصال والانضمام إلى إخوانهم فى دولة واحدة، ولذلك واجهت أثيوبيا حرب العصابات على جبهتين واضطرت إلى الاعتماد بشدة على الولايات المتحدة بينما استعانت الصومال بالاتحاد السوفيتى. ولكن انقلب نظام التحالف رأسا على عقب بعد القضاء على نظام حكم هيلا سيلاسى فى انقلاب عسكرى قامت به مجموعة من شباب الضباط الماركسيين بمساعدة سفارات دول أوروبا الشرقية فى أديس أبابا. ولم تتمتع الثورة الأثيوبية بتأييد الشعب فلقد نفذتها مجموعة صغيرة من الضباط بتشجيع ومساعدة دول الكتلة الشرقية الراغبة فى نقل الحرب الباردة إلى منطقة ذات أهمية إستراتيجية كبرى نظرا لتحكمها بمدخل البحر الأحمر وطرق البترول إلى الغرب، ولكن لم تفعل تلك الثورة شيئا لحل المشكلة الانفصالية فى إريتريا وأوجادين، وأدت تلك الأمور فقط إلى إيقاف المعونة الأمريكية الخاصة بأثيوبيا ومنحها إلى الصومال.

ولذلك استمرت الحكومة العسكرية الأثيوبية الماركسية - المعروفة باسم الدريج تحارب فى جبهتين بالإضافة إلى مواجهتها معارضة داخلية عنيفة من الأوروموا وباقى المجموعات العرقية، وعاشت أديس أبابا عصرا من الرعب والإرهاب إذ انشغل أعضاء الثورة الأصليون فى اغتيال بعضهم البعض بالإضافة إلى كل معارضيهم ولذلك تناقص عددهم الأصلى من ١٢٠ إلى ٦٠ فقط، ولكن دعم العميد منجستو هيلى ماريام وضعه الداخلى فى تلك المجموعة الباقية تماما واستطاع فى العام التالى الانفراد بالحكم بانقلاب خاص به. وكان ذلك الوقت إيذانا بإيقاف معونة الاتحاد السوفيتى إلى الانفصاليين فى إريتريا والصومال وتوجيهها للحكومة الأثيوبية الجديدة مما أدى إلى تغيير نظام التحالف تماما.

وأرسل السوفيت إلى منجستو ما يقرب من ١٢ مليونا من الأسلحة والمساعدات العسكرية كما سددوا معظم نفقات الـ ١٧,٠٠٠ عسكرى كوبى المتطوعين الذين حضروا لمساعدة الجيش الأثيوبى الضخم المكون من ٢٥٠,٠٠٠ من العسكريين، وأخرجت تلك القوات الصومالية الغزاة من أوجادين وأعادت إقرار الهدوء والسلام فى المنطقة المركزية من هذا الإقليم ولكن استمر الأرتريون فى القتال فى الشمال وانضمت إليهم فيما بعد الحركات الانفصالية الجديدة فى الأورومو، ولكن ازداد عداء الشعب الأثيوبى على نظام حكم منجستو نظرا لمحاولاته المتعددة لفرض النظم الزراعية الجماعية من جهة وتهجيره الإجبارى للفلاحين الجائعين من المناطق التى تفشت بها المجاعة فى شمال العاصمة إلى أراض جديدة غير خصبة فى الجنوب ولكن بدأ الاتحاد السوفيتى يشعر بالإعياء فى عام ١٩٨٦، واستاء من عملياته العسكرية الواسعة النطاق الممتدة من أفغانستان إلى أنجولا.

ولذلك أخذ الانفصاليون الشماليون زمام المبادرة منذ ذلك الوقت إلى عام ١٩٩١، ثم استطاعوا الوصول إلى قلب المنطقة الأمهرية واحتلال العاصمة. وهرب منجستو إلى المنفى فى زيمبابوى.

وفقدت الحكومة الصومالية تدريجيا سيطرتها على بلادها، فلقد أدت الهزيمة على أيدى أثيوبيا عام ١٩٧٧ إلى اتجاه نظام حكم سياد برى إلى الانهيار وكان المجتمع الصومالى بالرغم من وحدته العرقية واللغوية منقسما على نفسه فى خلافاته القبلية حول الأراضى وحصل سياد برى على معاونة بعض الصوماليين وعداء البعض الآخر، ولذلك انقسمت السلطة الحقيقية بين قادة الحرب المحليين بل وامتد النزاع المدنى إلى العاصمة ذاتها، ولذلك اتجهت الصومال منذ منتصف الثمانينيات وبالرغم من المساعدات الأمريكية السخية إلى التفتت والانهيار فى بلاد تميزت أصلا بالزيادة المطردة للاجئين الجائعين، ولم تعد توجد حكومة من بعد هروب سياد برى من البلاد عام ١٩٩١ وكانت الصومال بالتالى أسوأ كارثة فى تاريخ أفريقيا فى عصر ما بعد الاستعمار.

ولكن وجدت دول أفريقية كثيرة عانت فى فترات طويلة أو قصيرة من عصور العنف الداخلى خلال الأعوام الأولى من استقلالها السياسى، ويشمل ذلك روندا، بوروندى، زائير، أنجولا وموزمبيق (فيما سبق فصل ١٧) ولا توجد تقديرات رسمية لأعداد القتلى فى المعارك، ولكن يعتقد أن أعداد النازحين من منازلهم ومواطنهم فى منتصف الثمانينات قد بلغت ١٦ مليونا من البشر ومنهم ٤ ملايين عبروا الحدود الدولية لبلادهم للاستقرار فى بلاد مجاورة. وكان اللاجئون سواء من الداخل أو من خارج البلاد معدمون تماما ويعيشون على حد الكفاف بعد تركهم لمنازلهم، ومحاصيلهم وبذورهم وحبوبهم بل وأدواتهم الزراعية، وأقاموا أيضا فى المناطق الحدودية النائية الصعب الوصول إليها، ولذلك عانت الحكومات الملحية كثيرا لإرسال المعونات إليهم من المؤن والمعونة الطبية والتربية والتعليم لأبنائهم، ولذلك كون اللاجئون الطبقة السفلى المحرومة تماما فى كل دولة أفريقية تقريبا.

## ضغوط الزيادة السكانية

واضطرت كل الدول الأفريقية – بصرف النظر عن نتائج العنف – إلى مواجهة ضغوط الزيادة السكانية الهائلة فى الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٩٠؛ إذ ازداد عدد السكان إلى أكثر من الضعف من حوالى ٢٠٠ مليون إلى حوالى ٤٥٠ مليون نسمة، وحدث ذلك للفشل التام فى إحداث توافق بين عادات الإنجاب الأفريقية وانخفاض معدل أعداد الوفيات عما كان عليه الحال فى العصر السابق للاستعمار وبدايات هذا العصر، وسوف نناقش النتائج الاقتصادية لتلك الزيادة الهائلة فى الفصل التالى، ولكن سوف تكون الآثار السياسية كبيرة للغاية أيضا، فلقد كانت أفريقيا قارة زراعية إلى نهاية عصر الاستعمار. ولم توجد مدن كبيرة إلا فى شمال القارة فقط وبعض الأماكن المحدودة فى غرب أفريقيا. وظلت العواصم التى

ورثتها الدول الجديدة من العصر الاستعمارى مدنا صغيرة لا يزيد سكانها عن ٥٠,٠٠٠ نسمة، وحكمت الحكومات الاستعمارية شعوبا زراعية. أما المدن فكانت للأجانب ولأعوانهم وحدهم، ولكن أقام ربع سكان القارة تقريبا في المدن عام ١٩٩٠، كما تضاعف عدد سكان العواصم كل عشرة أعوام، ولذلك اهتمت الحكومات بالذات بسكان المدن فهم الأقرب إليها، وشديدو الوعى سياسيا ويعتمدون تماما على الخدمات العامة التى تقدمها إليهم أكثر بكثير من سكان الريف، وركزت تلك الحكومات بالتالى على المدن والريف المجاور لها مباشرة الذى يمدها بالمؤن والطعام وانهارت بالتالى الخدمات والمواصلات المقدمة إلى المناطق الريفية البعيدة والنائية لدرجة حدوث مجاعات فى الريف عند نقص الطعام وعدم القدرة على إرسال المؤن بسرعة إلى تلك المناطق بسرعة حتى عند توافرها، ولم تتغير ظروف الحياة كثيرا فى قرى أفريقيا خلال الثلاثين عاما الأولى من عصر الاستقلال بل تدهورت عليه عما كانت من قبل، ولكن وجدت جذور التغيير السياسى فى الانفجار السكانى فى المدن الكبرى، نمت فى أفريقيا فيما بين أعوام ١٩٦٠ و١٩٩٠ طبقة أفريقية مثقفة نسبيا وثرية وتكونت من أفريقيين اعتادوا تماما على الاختلاط والتعامل مع الأجانب على قدم المساواة، كما أنهم بقيسون معدل تقدمهم المادى والمعنوى بالمعايير الدولية ولكن اقتصرت تلك النوعية من الناس فى بداية عصر الاستقلال على صفوة أعضاء المهن القانونية والتعليمية والكهنوتية فقط، ولكنها شملت بعد ثلاثين عاما من الاستقلال طبقة كبار العاملين فى الدولة، ورجال الأعمال، وأساتذة الجامعات، والصحفيين، والدبلوماسيين، وضباط الجيش والعديد من المهن الأخرى، ويسافرون إلى الخارج، يقرأون الصحف الأجنبية ويستمعون إلى الإذاعات الأجنبية أيضا، كما يراقبون تطور الأحداث السياسية فى الدول الأخرى ويناقشون شئونهم القومية بوعى وإدراك يفوق بكثير أجهزة الأحزاب الرسمية القمعية التى لا عمل لها إلا إبقاء أصحاب الحظوة فى الحكم لأطول فترة ممكنة، واستمر الخوف من إبداء المعارضة أو الاستياء وإن بدأت

احتمالات التحول منذ نهاية الثمانينات على الأقل وازداد ذلك أكثر من الماضى، فلقد وجدت آنذاك أمثلة لثورات ضد نظم حكم قمعية وبالذات ثورات شعوب شرق أوروبا ضد الشيوعية التى قضت على نظم حكم راسخة تماما فى بولندا ورومانيا وألمانيا الشرقية وغيرها، وحدث ذلك لظهور قيادات موازية استطاعت حشد التأييد الجماهيرى العام فى الميادين والطرق العامة، ونشأت بالتالى الضغوط المتزايدة من أجل الحقوق الإنسانية التى تمارسها المنظمات الدولية والحكومات المانحة بعد انتهاء الحرب الباردة، وارتبطت عروض المساعدات المادية منذ عام ١٩٨٥ فصاعدا مع طلبات بتعديل النظم السلطوية والقيام بإصلاحات داخلية من أجل القضاء على الفساد وعلى التدهور الناتج عنه ووعدت معظم الدول الأفريقية بحلول عام ١٩٩٢ بإنهاء عملية احتكار السلطة السياسية لأحزابها الحاكمة وإن رغبت معظمها فى تأجيل ذلك لأطول فترة ممكنة وإن وجد أخيرا الضوء فى نهاية النفق المظلم، ولذلك نجد أن أحد الحكام الأوتوقراطيين ولكن المحترمين مثل كينيث كاوندا الذى حكم لمدة ثلاثين عاما تقريبا قد تنازل عن السلطة واعتزل الحياة السياسية بعد خسارته للانتخابات العامة عام ١٩٩٢، ويعتبر ذلك تمهيدا لما يمكن أن يحدث فى أماكن أخرى فى المستقبل.

وتم إطلاق سراح نلسون مانديلا من السجن فى ١١ فبراير ١٩٩٠ بعد سبعة وعشرين عاما فى الحبس وخاطب مانديلا الجماهير الغفيرة التى أتت لاستقباله وللملايين العريضة عبر شاشات التلفزيون عند مدخل قاعة مجلس مدينة الكاب وكرر فى نهاية خطابه الكلمات التى ذكرها أثناء محاكمته عام ١٩٦٤

"ولقد حاربت السيطرة البيضاء كما حاربت السيطرة السوداء ولقد حلمت دائما فى ببناء مجتمع ديمقراطى تسوده الحرية والعدل وحيث يعيش الجميع بطمأنينة وسلام ولديهم نفس الفرص فى الحياة وأرغب أن أعيش وأن أطبق هذا

الحكم ولكنى مستعد تماما للموت من أجله إذا ما استلزم الأمر.(٥٦)

ثم استقال أوليفر تامبو من رئاسة المؤتمر الوطني الأفريقي بسبب سوء صحته وحل محله نلسون مانديلا، وسرعان ما تم تحطيم كل أركان النظام العنصرى وأصبحت كل الأحزاب شرعية.ولكن لم ينجح المؤتمر المنعقد عام ١٩٩١ للتفاوض حول مستقبل البلاد إذا ساده الخلاف والانقسام ولكن حل محله إطار قانونى آخر مما مهد الطريق لأول انتخابات ديمقراطية فى جنوب أفريقيا يوم ٢٧ أبريل ١٩٩٤ وانتهت بفوز ساحق لحزب المؤتمر الذى حصل على ٦٢,٢% من مجمل الأصوات و٢٥٢ مقعدا فى البرلمان من ٤٠٠. ولم يحصل الحزب الوطنى القديم إلا على ٢٠% من الأصوات التى تركزت بالذات فى ولاية الكاب الغربية، وكان أنصاره من مختلف الأجناس واشترك ستة وثمانون بالمائة من الناخبين فى تلك الانتخابات وهى نسبة مشاركة عالية للغاية، وانتخب مانديلا رئيسا لجنوب أفريقيا وعين دى كليرك نائبا له وحلت تسعة أقاليم محل الولايات القديمة الأربعة الأصلية، كما انضمت قوات دفاع جنوب أفريقيا المكونة أساسا من البيض إلى باقى قوات حزب المؤتمر وقوات المقاومة لتكوين جيش جنوب أفريقيا الجديد، وكان من أهم أعمال الحكومة الجديدة والتى حازت على تأييد الرأى العام العالمى هو إنشاء لجنة الحقيقة والمصالحة Turth and Reconcilition Gommitte للاعتراف الرسمى بضحايا الظلم فى نظام التفرقة العنصرية السابق وتعويضهم، ومنحت تلك اللجنة سلطات منع الملاحقة المشروط للذين ارتكبوا مخالفات جسيمة ضد حقوق الإنسان. ثم صدر قانون ليبرالى شامل للحقوق المدنية ١٩٩٦ وشرع قوانين خاصة بنواحى عديدة فى الحياة الاجتماعية مثل السكن والتعليم والرعاية الصحية بالإضافة إلى الشئون القانونية والسياسة على السواء.

---

(٥٦) Heather Dumgan, the polities ol New south Africa Harlow, 2001, p.230.

## الفصل الثانى والعشرون

# الاقتصاديات والمجتمع فى أفريقيا المستقلة

وجد عاملان يتميزان بالتناقض التام بينهما فى العالم الفسيح الذى استقلت به الدول الأفريقية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فلقد سادت الحرب الباردة بين النظم الرأسمالية والشيوعية والتى قام بها المعسكران بإرادة وتصميم مما أدى إلى انقسام العالم إلى معسكرين متعارضين متنافرين، ولكن وجدت من ناحية أخرى زيادة فى التفاؤل الاقتصادى العام للدول الرائدة فى المعسكرين الأيديولوجيين المتنافسين، فلقد ركز الخبراء الاقتصاديون من كل جانب من السياسيين، ورجال الأعمال، والمديرين، والأكاديميين وكبار الموظفين المدنيين على أن التطور الاقتصادى إذا تمت إدارته بمهارة وكفاءة يمكنه أن يغلق الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة خلال فترة من الوقت قصيرة نسبيا. وكتب الاقتصاديون الكبار مثل والتر روستو وأرثر لويس أن الدول الفقيرة تحتاج فقط إلى الحصول على رءوس أموال خارجية وتكنولوجيا لكى تبدأ انطلاقها الاقتصادى، وينتهى بالتالى دورها كمصدر للمواد الأولية وتدخل عالم الصناعة الرحب بنفسها، ولذلك كان مفهوم الصناعة المخططة من أهم المفاهيم عند كافة الاتجاهات السياسية آنذاك ويمكن ضبط الإيقاع بواسطة الإشراف الحكومى.

وكان ذلك هدفا رحب به زعماء الأمم الأفريقية الجديدة بسرور بالغ كما بدا لفترة أنه لن يخيب آمالهم بالمرة، فلقد كانت أسعار المواد الأولية خلال الخمسينيات والستينيات عادة مرتفعة وتلائم أحوال المنتجين الأفريقيين بالرغم من وجود تذبذبات كبيرة فى أسعار بعضها، فكان سعر الكاكاو مثلا منخفضا خلال معظم

الأعوام الأولى من استقلال غانا مما ساهم أيضا فى الكارثة الاقتصادية لنظام حكم نكروما، ولكن ازداد حجم صادرات البلاد الأفريقية جنوب الصحراء بمعـدل ٦% سنويا بصفة عامة خلال عقد الستينيات، ولكن ارتفعت أسعار السلع الأولية كثيـرا بعد عام ١٩٦٧. وكانت الحكومات الأفريقية قد حصلت على معظم دخلها بشرائها لمنتجات المزارعين بسعر ثم تبيعها بسعر آخر أعلى كثيرا فى السوق العالمية مما يدر لها دخلا كبيرا للغاية كل عام، وتم استخدام تلك الثروة الجديدة فى تنمية الحياة الاجتماعية والخدمات مثل التعليم والصحة وتحسين المشاريع الزراعية الصـغيرة، وازداد الإنتاج الزراعى بمعدل ٢,٧% سنويا خلال عقد الستينيات، ويتساوى ذلـك تقريبا مع معدل الزيادة السكانية، وظهر كما لو أن أفريقيا ستطعم نفسـها بنفسـها وتحصل على احتياجاتها الأخرى ذاتيا أيضا.

تطورت الثقافة والتعليم بسرعة بالغة فى كل مكان تقريبا، واعتمد ذلك على أسس صلبة نمت منذ أواخر عصر الاستعمار، فازدادت نسبة التسجيل فى التعلـيم الابتدائى فى أفريقيا الاستوائية من ٣٦% إلـى ٦٥% خـلال العقـد الأول مـن الاستقلال، كما ازدادت نسبة التسجيل فى التعليم الثانوى من ثلاثـة بالمائـة إلـى ١٣%، وتضاعف عدد الجامعات وتم استثمار أموال كثيـرة فـى إنشـاء الأبنيـة الملائمة والمكتبات العامرة والمعامل الحديثة لخدمة الطـلاب، ووجـدت خمـس جامعات فى نيجيريا فى نهاية عقد السبعينيات بعدد من الطلبة يزيد عـن العشـرة آلاف طالب، وتوجه معظم الخريجين إلى التعليم فى المدارس الثانوية وهى عنـق الزجاجة فى الماضى لنقص الكوادر التعليمية المؤهلة ولكن اعتبر الأمر آنذاك على أنه من مشاكل عصر مضى، وامتلكت غانا ثلاثة جامعات لعدد من السـكان يبلـغ خمس تعداد نيجيريا، وكان التعليم الابتدائى والإعدادى إجباريا ومجانيا لكل الطلبـة بين ٦,١٦ عاما، كما بلغت نسبة الالتحاق بالتعليم ١٠% من إجمالى السـكان منـذ عام ١٩٦١، ويلاحظ أن كل التعليم فى كل بلاد غرب أفريقيا قد كان بالإنجليزيـة أو الفرنسية.

وبين ذلك عمق جذور التعليم الغربى فى المناطق الساحلية لتلك البلاد، ويعنى ذلك أن النخبة الأفريقية فى غرب أفريقيا كانت منفتحة تماما على العالم وأكثر عالمية فى مفاهيمها من أقرانها فى أماكن أخرى من القارة. ووجد فرق كبير في التطور التعليمى بين غرب أفريقيا من جهة ومعظم شرق ووسط أفريقيا من جهة أخرى. وحصلت أكبر دول غرب أفريقيا عند استقلالها على بضعة آلاف من الخريجين الجامعيين ولكن لم يوجد إلا بعض المئات منهم فى كل من أوغندا وكينيا، ووجد اثنا عشر خريجا جامعيا فى تنزانيا فقط عند استغلالها بينما لم يوجد خريج جامعي واحد في زائير كلها، ولذلك وجد الخريجون الجامعيون في تلك البلاد بين المهاجرين والمنفيين فقط، وذلك في تلك المناطق من وسط أفريقيا حيث تأخر الاستقلال نظرا لحروب التحرير الطويلة. ولكن عادت نسبة صغيرة منهم فقط للعمل فى بلادهم الأصلية، وهنا ظهر عنق الزجاجة فى التعليم الثانوى فى أقصى صورها.

ويلاحظ أنه قد حدث تقدم هائل خلال الأعوام الأولى من الاستقلال بالنسبة لتحسين الخدمات الصحية بدءا من إنشاء المستشفيات الكبيرة فى العواصم إلى المستوصفات الريفية فى القرى. واهتم أصحاب المنح فى تقديم أموال لإنشاء المستشفيات التعليمية، كما جرت مجهودات كبيرة لتحسين الأحوال الصحية ونوعية الغذاء والنظافة على المستوى المحلى، واستخدمت مساعدات المهاجرين الوطنيين المقيمين فى الخارج بالإضافة إلى مشاركة السكان المحليين فى تلك المشاريع كلها، ولكن ظهر أن مكافحة الأمراض المتوطنة وبالذات الملاريا كانت أكثر صعوبة مما اعتقد فى البداية.

ولكن حدث بعض التقدم وانخفضت معدلات وافيات الأطفال تدريجيا مما أدى إلى أن تواجه كل الدول الأفريقية زيادة هائلة فى عدد السكان، ولكن يعتبر ذلك انتصارا كبيرا على المرض وإن أدى ذلك إلى أن تواجه القارة أكبر مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية، ويعنى ذلك ببساطة أن عادات الإنجاب قد ظلت على

حالها ولم تتغير لمواجهة ظروف الحياة الجديدة من ارتفاع الأعمار وارتفاع نسبة المواليد مما أدى إلى تفاقم المشاكل بسرعة هائلة، ويعنى ذلك أنه قد وجب على أفريقيا ان تجرى لاهثة لكى تظل محلها ولا تتقهقر إلى الوراء.

ولم يتم تقدير خطر المشكلة السكانية فى الستينيات عمليا، فلقد اعتاد الناس فى عصر الاستعمار على اعتبار أفريقيا بلادا ذات كثافة سكانية صغيرة للغاية مما أدى إلى استحالة التفكير بحدوث عكس ذلك تماما فى فترة قصيرة جدا، فلقد افترض الجميع أيضا أن معدل الخصوبة سوف ينضبط تلقائيا فى فترة زمنية قصيرة نسبيا، ورأى الخبراء أن التصنيع هو الحل لتلك المشكلة السكانية المتفاقمة بسرعة بالغة، إذ سوف يجذب سكان الريف الزائدون إلى العمل فى المدن الصناعية، كما سوف يؤدى التصنيع إلى إنتاج السلع مما يؤدى إلى تخفيض مبالغ الاستيراد علما بأن المواد الأولية متوافرة وفى متناول اليد، ويرتبط نجاح التصنيع بالطاقة الرخيصة التى يمكن أن تنتجها أنهار أفريقيا الكبرى، ولذلك كانت عملية إنشاء السدود الهيدروكهربائية من المشاريع المفضلة فى أواخر عصر الاستعمار والعقد الأول من الاستقلال. ونجد فى كتيبات المشاريع الفنية المكونة من عدة أجزاء والتى تحررها الشركات الهندسية الاستشارية الدولية أن السدود هى ركائز ودعائم التحديث؛ إذ تمول بالكهرباء ليس فقط الصناعة ولكن أيضا كل المنازل فى طول البلاد وعرضها، وسوف تنشأ البحيرات الكبيرة وراء السدود مما يؤدى إلى قيام صناعات جديدة مثل الصيد والتى سوف تمون نظم التغذية الأفريقية بالبروتينات الضرورية كما سوف تنمو المدن الصناعية بجوار السدود الجديدة بالإضافة إلى ازدهار المشاريع الزراعية الكثيفة الإنتاج مما سيؤدى إلى قيام اقتصاد زراعى تحتاج إليه البلاد حاجة ملحة. كما يجب جعل المشاريع الهيدروكهربائية جذابة لأصحاب المنح الدوليين، كما اهتم بها السياسيون الأفريقيون الذين يمكنهم تقديمها كرموز قوية للقوة الاقتصادية والهيبة الوطنية للدولة الجديدة، ويمكن الحصول على التكنولوجية الخارجية من الشرق أو الغرب على السواء

مثلما ظهر فى وضوح تام فى مشروع السد العالى فى مصر الذى انتقل إشرافه الفنى من الأمريكيين إلى الروس عام ١٩٥٦، ويمكن تحويل الطاقة الكهربائية بالتالى إلى نمط رأسمالى أو اشتراكى للتطور الصناعى.

ولكن ظهر أن تلك المشاريع الهيدروكهربائية قد كانت مكلفة للغاية عمليا ومخيبة للآمال، فلقد مولت الحكومة وقروض من البنك الدولى والولايات المتحدة وبريطانيا إنشاء سد أكاسومبو على نهر الفولتا فى جنوب غانا والذى تم الانتهاء من تشييده عام ١٩٦٥ قبل انهيار حكم نكروما بقليل، وكانت أهم نتائجه إرهاق الدولة الشابة بالديون الأجنبية.

فلقد فاقت تكاليف بنائه التكاليف التقديرية بكثير، وفشلت صناعة صهر الألومونيوم التى من المفروض أن تكون من أول المشاريع أرباحا ولم تزدهر إطلاقا لسوء حالة خام البوكسيت الرديء، كما لم تظهر مزارع الأسماك المرجوة خلف السد العالى الذى امتدت بحيرته لمسافة ٣٠٠ ميل (٥٠٠كم) خلفه وغطت الأعشاب المائية مياهها. ولم تبدأ الصناعة التحويلية التى رغب فى إنشائها بجوار منشآت الميناء فى تيما نظرا لعدم تشجيع غانا للقطاع الخاص نظرا لسياستها الاشتراكية الجامدة الصارمة، ولذلك لم تعمل المحطة الهيدروكهربائية للأسف إلا بنسبة قليلة من قدراتها الفعلية.

وحدث الشيء نفسه مع مشروع رانجا الهائل لبناء سد على شلالات نهر الكونغو أسفل كينشاسا. وكان الغرض أن يمون نصف الطاقة الكلية التى تحتاجها القارة كلها، وكان هدف المرحلة الأولى التى بدأت عام ١٩٧٢ هو إضاءة العاصمة وضواحيها وتقديم الطاقة الكهربائية لمصنع حديد وصلب فى وادى النهر شمال بحيرة ماليبو بالإضافة إلى تقديم احتياجات الكهرباء إلى حزام النحاس فى زائير، ويشمل ذلك أيضا مصنعا لصهر الحديد فى إقليم شابا على مسافة أكثر من ١١٠٠ ميل (١٨٠٠ كم) جنوب كينساشا، وبلغت التكلفة الإجمالية - والتى تم اقتراحها

بالكامل أكثر من (١) مليون دولار وبلغت ٢٠% من الـدين الخـارجى لزائيـر، ويقول بعض معارضى المشروع إن ذلك المبلغ يكفى لسـداد رواتـب المدرسـين والممرضات فى البلاد لمدة عشرين عاما، ولكن لم يبدأ البناء بجدية منذ البداية كما تعطل العمل كثيرا، ولم يعمل مصنع الحديد والصلب فى معظم الأحوال إلا بعشرة بالمائة من طاقته.

واستخدم ١٠٠٠ عامل فقط من العشرة آلاف المزمع توظيفهم أصلا فى هذا المشروع الريادى، ولم تكن نوعية الصلب المصنعة جيدة بالمرة وتتكلف من ثلاثة إلى أربعة مرات أسعار الصلب المستورد من الخارج، ولم يبـدأ مصـنع تصـنيع النحاس فى شابا إنتاجه حتى بعد عشرين عاما من افتتاحه، ولذلك ازدادت الـديون وتم التخلـى عـن مشـاريع أكثـر جديـة وأهميـة، ولكـن كانـت المشـاريع الكهروهيدروليكية العملاقة فى كاريبا وكابورا باسا على نهـر الزامبيـزى أكثـر تنظيما وتمويلا، ولكنها أصبحت من الأهداف الأولية الكبرى للحركات الثورية من أجل الاستغلال فى زيمبابوى وموزمبيق. ويخدم سـد كاريبـا كـل مـن زامبيـا وزيمباوى ولكنه تأثر تماما نظرا للعلاقات السيئة بين البلدين بينما أحاطت أعمـال حرب العصابات من كامورا باسا وهددت خطوط توزيع الكهرباء بطريقة مستمرة، وعلمت تلك المشروعات كل القيادات الراغبة فى التطوير فى أفريقيا كلها ملاءمـة الحاجة العملية لوقائع الأحداث، وأن المشاريع الكبـرى تحتـاج إلـى قـدر مـن الاستقرار السياسى الذى لا يوجد فى معظم الدول الأفريقية. ولذلك تحول الاهتمـام إلى المشاريع الصغرى تحت شعار أن الصغير جميل، وتم تطبيقهـا طـوال عقـد السبعينيات بل وبعد ذلك.

ولم تكن المشاريع الهيدروكهربائية هى الأمثلـة الوحيـدة لسـوء صـرف واستخدام الأموال العامة وإساءة التصرف فـى القـروض مـن حكومـات عقـد الستينات، فلقد رغبت كل دولة تقريبا أن تحتفل باستقلالها بإنشاء خط طيران وطنى وتشغيل العديد من الخطوط الحيوية غير المجديـة اقتصـاديا بواسـطة طـائرات

مستوردة وموظفين أجانب، كما أنفقت كل الدول الأفريقية تقريبا أكثر من طاقتها بكثير فيما يتعلق بالأسلحة والمعدات العسكرية التى تفوق قدراتها على التشغيل والإشراف والسيطرة، وأنشأ القطاع العام الفنادق الفخمة التى تظل غالبا دون نزلاء لعدم توافر الخدمات الأساسية مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحى، وسرعان ما ظهرت أيضا القصور الرئاسية واليخوت وشاليهات الصيد، والطائرات والعربات المصفحة لصالح كبار أعضاء الحكومات مما ابتلع مقادير هائلة من الدخل القومى ولكن تقدمت معظم الاقتصاديات الأفريقية قليلا طوال عقد الستينيات وما تلاها من أعوام قليلة وإن حدث هذا التقدم ببطء شديد واستطاع صغار المزارعين الأفريقيين الذين يكونون أكثر من ٩٠ بالمائة من سكان القارة الاحتفاظ بمعدل إنتاجهم، بل وزيادته أيضا بالنسبة للمحاصيل الخاصة بالطعام والتصدير، ونمت عواصم الدول المختلفة بسرعة هائلة وإن احتفظ الجيل الأول من سكان المدن بصلاتهم الحميمة بالريف والتى قدمت لهم فى نهاية الأمر الأمن والطمأنينة والقدرة على الاستمرار، كما حصل سوق العمل بالمدن على معين لا ينضب من الأيدى العاملة الرخيصة.

ولكن سبق الإنتاج الصناعى بكثير العصر الاستعمارى فى بلاد مثل مصر والمغرب ونيجيريا، وبدأت المشاريع الصناعية الأفريقية فى العديد من المستعمرات الأفريقية بواسطة رجال أعمال أفارقة بالإضافة إلى الأوروبيين أيضا، ولكنها كانت مشاريع صغيرة مثل مصانع إنتاج الجعة والمصابغ أو المدابغ وحلج القطن وصناعات إنتاج السجائر وأعواد الكبريت بالإضافة إلى أعمال صيانة وتشغيل السيارات، وأدى الاستقلال السياسى وزوال بعض صور الإشراف الاستعمارى الدقيق على مستويات بناء وتشييد المبانى إلى ازدهار تلك الأعمال الصناعية الصغيرة وبالذات تلك التى يديرها الأفريقيون، وحدث ذلك حتى فى بعض الدول ذات السياسات الاقتصادية الاشتراكية أو الماركسية، ولكن كان معظم هذا النشاط صغيرا لدرجة أن الإحصاءات الرسمية والإشراف القانونى عليه كان صغيرا لم تأخذه بعين الاعتبار بالمرة، ولذلك اعتبر قطاعا غير رسمى فى معظم

الاقتصاديات الأفريقية، وتركزت معظم تلك الصناعات الصغيرة فى أعمال صناعة وتوزيع الطعام، والمشروبات الغازية، والملابس والأقمشة والمنتجات المنزلية بالإضافة إلى أعمال البناء والتشييد والإصلاحات المنزلية، بالإضافة إلى أعمال نقل المسافرين والسلع، ولكن وجد أيضا على المستوى الأعلى بعض الأعمال التى تشمل الاستيراد والتصدير، بناء السفن، التأمين، المحاسبة والبنوك، المزارع الجماعية والملكية العقارية فى المدن والتى أدارها الأجانب العاملون فى الشركات الأجنبية خلال عصر الاستعمار، وأعيد تنظيم معظمها خلال الأعوام الأولى من الاستقلال كشركات محلية وبها أغلبية من المديرين الأفارقة المحليين، وكون هؤلاء رجال الأعمال الأفارقة مع رفاقهم فى القطاع العام قلب الطبقة المتوسطة الأفريقية الجديدة التى يعتمد عليها نمو وتطور اقتصاد تلك الدول تماما.

## سنوات الكساد والتدهور

اختلف الأداء الاقتصادى للدول الأفريقية كثيرا من دولة إلى أخرى، ولكن إذا نظرنا بصفة عامة إلى إجمالى أوضاع القارة لوجدنا أنه خلال العقدين الثانى الثالث من الاستقلال أن معدل النمو السابق البسيط فى إجمالى الناتج القومى المقدر بدخل الفرد سنويا قد توقف ثم بدأ فى التدهور، ووجدت عدة أسباب لذلك وأهمها الزيادة الكبيرة فى عدد السكان فى القارة كلها.

ومثلما رأينا (فى فصل ٢١) لم تحدث تلك الزيادة بسبب زيادة نسبة الخصوبة، بل فقط لأن أعداد النساء القادرات على الإنجاب قد ازدادت كل عام باضطراد، ورغبة تلك العائلات مثل جيل آبائها فى إنجاب خمسة وستة، بل أيضا سبعة أطفال أثناء حياتها الزوجية، ولذلك ازداد عدد سكان جنوب الصحراء فى الخمسة عشر عاما بين ١٩٧٢ و١٩٨٧ من حوالى ٢٧٥ مليون إلى حوالى ٤٥٠ مليون نسمة مع زيادة نسبة كبيرة فى أعداد صغار السن غير القادرين على

الإنتاج، وذكرت دراسة البنك الدولي لأفريقيا جنوب الصحراء عام ١٩٨٩ ذلك الموضوع بعبارات بليغة للغاية وقالت إن هذه المنطقة التي يقيم بها ٤٥٠ مليونا عام ١٩٨٧ – وهو ضعف عدد سكانها عند الاستقلال – قد بلغ حجم دخلها القومي كله حوالي ١٣٥ مليونا من الدولارات فقط أي حوالي دخل بلجيكا البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين فقط.

ويوجد تحليل لأرقام عام ١٩٨٧ الخاصة بدخل الفرد السنوي في كل بلد أفريقي، يبين التحليل أن هناك أربعة دول غنية نسبيا وهي الجزائر وجابون وليبيا وجنوب أفريقيا التي تكون بالتأكيد فئة قائمة بذاتها؛ إذ بلغ الدخل السنوي للفرد هنا ما بين ٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ دولار سنويا، ولكن تعتبر ليبيا والجابون من الدول ذات الكثافة السكانية القليلة وذات الاحتياطات الكبيرة من البترول، وجذبت الجزائر وجنوب أفريقيا – كمستعمرات سابقة استقرت بها اعداد كبير من الجاليات – الاستثمارات الأجنبية مثل الدول الأفريقية الأخرى، وتمتعت بالتالي بمرافق عامة وبنية تحتية أفضل نسبيا، ويبلغ دخل الفرد السنوي بها ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ دولار وتشمل ثلاث دول من شمال القارة وهي مصر وتونس والمغرب وتتميز بوجود صناعة بها منذ تاريخ مبكر وإن نقصتها الموارد المعدنية الأخرى، وتوجد أيضا خمس دول أخرى على المحيط الأطلنطي وهي ساحل العاج، الكاميرون، جمهورية الكونغو وإنجولا ولديها كلها صناعات قائمة على المنتجات الزراعية بالإضافة إلى حقول بترول تحت المياه أمام سواحلها، وتوجد في النهاية دول الجنوب الأفريقية الثلاث وهي زيمبابوي، بوتسوانا وسوازيلاند والتي استفادت اقتصاديا لوجودها بالقرب من جنوب أفريقيا.

وتوجد بعد ذلك مجموعة ثالثة من البلاد ذات الدخل السنوي للفرد الذي يتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ دولار وتشمل العديد من أكبر وأهم الدول الأفريقية وهي: نيجيريا، وغانا، السودان وكينيا، أوغندا وزامبيا، ولكن حصلت نيجيريا في أقصى عصر ازدهار أسعار البترول حوالي عام ١٩٨٠ على دخل سنوي للفرد يبلغ

١٠٠٠ دولار، ثم تناقص إلى ٣٧٠ دولارا فقط لانخفاض دخل البترول بالإضافة إلى زيادة الإنفاق العام والاقتراض أثناء أعوام الرخاء، واستقلت غانا وأوغندا كدول مزدهرة ثرية إذ لديها محاصيل ذات عائد اقتصادى كبير وموارد معدنية ممتازة، ولكن أدى سوء نظام الحكم وعدم الاستقرار السياسى إلى فشلها الاقتصادى بالتالى، أما السودان فهو بلد فقير يفتقر إلى التطور لسوء الحظ، كما عانى من ويلات حرب أهلية دامية استمرت أكثر من ثلاثين عاما، ويدين تطوره النسبى إلى زراعته لمحاصيل مدرة للدخل مثل القطن طويل التيلة فى منطقة صغيرة بجوار العاصمة، ولم توجد معادن كثيرة فى كينيا ولكنها استفادت تماما من هضابها الحسنة الرى وشواطئها المشمسة على مدار العام لإنشاء صناعة سياحية رائعة، وتدل حالة زامبيا على خطأ الاعتماد على مورد واحد وهو النحاس الذى يمون البلاد بأكثر من ٩٠ بالمائة من دخلها من العملة الصعبة، فحينما انهار سوق النحاس عام ١٩٧٥ عانت زامبيا مجموعة من الأزمات الطاحنة، وأنتجت فى عقد الستينيات طعامها الخاص بوسائلها الذاتية، وحصلت كثيرا على فائض من الأغذية، ولكن أدى تقاعس مزارعيها فى الثمانينيات إلى تحولها إلى مستورد للطعام، واستمرت الحكومة فى تقديم تلك المنتجات بواسطة الاقتراض والاحتفاظ بمستوى معقول فى الخدمات الاجتماعية لمدنها النامية بسرعة كبيرة عند حزام النحاس الشهير، ولكن سرعان ما نفذت العملة الأجنبية وانهار الإنتاج الصناعى وزادت الديون الخارجية بدرجة كبيرة إلى أن بلغت عام ١٩٨٠ مبلغ ٦٠٠ دولار لكل مواطن زامبى مقابل دخل سنوى فردى يبلغ ٤٧٠ دولارا فقط لا غير.

وتنتمى عدة دول أفريقية صغيرة أخرى إلى تلك المجموعة الثالثة فى أرقام الدخل السنوى وتشمل: سيراليون وليبيريا وموريتانيا ومالى والنيجر وبنين وتوجو وجمهورية أفريقيا الوسطى ورواندا وبوروندى، الصومال وليسوفو، وتوجد فى النهاية مجموعة رابعة فى الدول الأفريقية بدخل سنوى للفرد يتراوح من ١٠٠ إلى ٢٠٠ دولار فقط، وتعتبر تلك المجموعة غريبة للغاية إذ تشمل أربعة من أكبر

وأهم الدول الأفريقية وهى أثيوبيا، الإمبراطورية العظيمة السابقة ومقر منظمة الوحدة الأفريقية آنذاك، تنزانيا التى قادت دول شرق أفريقيا إلى طريق الاستقلال والتى قضت ٢٥ عاما تحت حكم جوليوس نيريرى وتحولت إلى رائد الاشتراكية الأفريقية، وكانت زائير المستعمرة البلجيكية المثالية وبها معادن كثيرة وأرض زراعية خصبة، ولم تكن موزمبيق دولة غنية أبدا ولكنها تشرف على موانى وخطوط مواصلات لمناطق داخلية ثرية فى جنوب أفريقيا وزيمبابوى ومالاوى وشرق زامبيا، وكانت البلد الذى تحمل أكثر الصعوبات فى حربه ضد الاستعمار البرتغالى ولكنه دمر نفسه بنفسه فى حرب أهلية استمرت خمسة عشر عاما متتالية، ولكن كان المؤكد أن تسقط الصومال من المجموعة الثالثة عام ١٩٩٠ لنفس الأسباب ولتقع للأسف فى قاع المجموعة الرابعة.

انتشر وباء مرض الإيدز فى قارة تعانى أصلا من المشاكل الاجتماعية الهائلة الناتجة عن الأزمات الاقتصادية فى بداية الثمانينيات وبدا من البداية أن دول شرق أفريقيا من زائير إلى غينيا جنوبا سوف تعانى بالذات من هذا الوباء القاتل، ولكنه انتشر فى نهاية العقد فى موجة هائلة امتدت من المنطقة السودانية شمالا إلى أقصى جنوب أفريقيا فى أقصى جنوب القارة، واعتقد الجميع أيضا أنها ظاهرة تخص المدن فقط، وتذكر إحصائيات نهاية الثمانينيات، أن ٨ % من سكان كينساشا مصابون بمرض الإيدز القاتل، وأن أعداد حالات المرض تتضاعف كل ستة أشهر، ولكن ظهر أيضا أن المناطق الريفية قد تأثرت وبالذات تلك التى يوجد بها عدد من الجنود غير المنضبطين فى عصر الحروب الأهلية، وكان لوباء الإيدز نتائج اقتصادية واجتماعية مدمرة، فلقد أصابت بالذات فئة الشباب المنتجة أمل المستقبل وهم القوة الإنتاجية الأساسية التى تقوم ببناء مستقبل دولها، وتحول أبناؤهم إلى يتامى وتركوا آباءهم بمفردهم يواجهون شيخوخة بائسة دون دعم أو مساعدة أو أمل، وفقد الجيل القديم معاونتهم ومساندتهم المادية، وحدث ذلك فى عصر تناقص موارد الدول من أجل إقامة نظم تأمينات اجتماعية معقولة، وما زال

الوقت مبكرا في بداية التسعينيات لتقدير آثار هذا الوباء الكارثة على أفريقيا والقيام بإحصائيات لمقارنة نتائجه على مختلف الدول، ويضاف إلى ذلك الآثار الناتجة عن القحط والمجاعة والحروب الأهلية، ولكن يمكن القول إن كل تلك الكوارث مجتمعة لن يمكنها أبدا إيقاف معدل زيادة السكان العام في أفريقيا كلها.

ومن الواضح تماما أن معظم المشاكل الاقتصادية للدول الأفريقية خلال الأعوام الحرجة بعد عام ١٩٧٢ قد نبعت أساسا من الاختلافات الكبيرة في أسعار البترول العالمية. فلقد بلغ سعره خلال الستينيات وإلى عام ١٩٧٢ أقل من ٢ دولار للبرميل، ولكن كان حتى هذا السعر الضئيل كافيا لتحويل ليبيا بعد اكتشاف البترول بها من أفقر الدول الأفريقية إلى أغناها كما رأى أوجوكو أن هذا السعر للبترول كاف لفصل بيافرا عن باقي نيجيريا، ولكن كونت الدول المصدرة للبترول في الشرق الأوسط منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) وبعد قطع الإمدادات أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ رفعت الأسعار إلى ١٢ دولارا للبرميل عام ١٩٧٤ وإلى ٣٤ دولارا عام ١٩٨١ أثناء وطيس الحرب بين العراق وإيران، وكانت النتيجة الأولية للبلاد الأفريقية هي زيادة الفروق بين الأغنياء والفقراء، فلقد ازداد ثراء الأغنياء، وحدث لفترة مؤقتة أن الدخل القومي لنيجيريا الكبيرة المكتظة بالسكان قد تضاعف ثلاث مرات، وأدى ذلك أيضا إلى مضاعفة تكاليف استيراد الدول الأفريقية الفقيرة بخمسة عشر ضعفا نظرا لعدم توافر نظم النقل بالإضافة إلى توقف العديد من المشاريع الاقتصادية، وكلف استيراد البترول قبل عام ١٩٨٢ ١٠% من صادرات تنزانيا على سبيل المثال ولكن ارتفع هذا الرقم إلى ٦٠ % منها عام ١٩٨٠، ونضيف لتبسيط الأمر أن سعر الطن من الشاي المصدر كان يشترى بـ ٦٠ برميلا من النفط ولكنه أصبح يشترى بـ ٤ براميل بعد ذلك فقط لا غير.

ولم يقف الأمر هنا، فلقد وظفت دول الأوبك فوائض إيراداتها الهائلة في البنوك والمؤسسات المالية في العالم المتقدم، وبدأت تلك المؤسسات في تحريك تلك الأموال لاستثمارها بمنح قروض مالية بشروط سهلة نسبيا للحكومات، ويشمل ذلك

العديد من حكومات العالم الثالث التى حاولت مواجهة زيادة مشاكلها المالية بالاقتراض، ولذلك ازدادت الديون الخارجية للدول الأفريقية فيما بين ١٩٧٠ و١٩٨٠ من ٦ بليون إلى ٣٨ بليونا من الدولارات، ثم وصل هذا الرقم إلى ١٣٤ بليون عام ١٩٨٨ ومازال يزيد وينمو، وفاقت مبالغ الديون الخارجية الأفريقية فى نهاية الثمانينيات مع إجمالى دخلها السنوى ٣,٥ مرة من مواردها المالية من الصادرات ووصلت خدمة الديون سنويا خلال الأعوام من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨ إلى ٢٠ بالمائة من إيرادات الصادرات ولكنه يمثل أيضا ثلاثة أخماس التزامات القارة كلها، ولذلك لم تستطع اثنتا عشرة دولة أفريقية من جنوب الصحراء أن تسدد ديونها بانتظام فى عام ١٩٨٠ فصاعدا، ومهما كان الأمر فإن الأرقام تدل بوضوح على أن سداد أقساط الديون قد بلغ ٢١٧ بليونا مقابل ٢١٤ مليونا من الدولارات فيما بين ١٩٨٢، ١٩٩٠ ولكن يمثل هذا الرقم كل القروض الثنائية، مساعدات التطور والنمو المتعددة الجهات، القروض الجديدة وضمانات القروض أيضا.

لكن لم تأت زيادة القروض الأفريقية من إعادة توظيف فوائض عائد البترول فقط، ولكن أدى توافر الاموال السهلة خلال العشرة أعوام من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٥ إلى تأجيل تاريخ عدم قدرة الحكومات الأفريقية على الاقتراض بشروط تجارية بحتة، كما لم يتم تصحيح العديد من مراكز الخلل فى الاقتصاديات الأفريقية خلال أعوام الاقتراض السهل مما أدى إلى زيادة ضعفها، ويعتبر الخلل الأول هو زيادة تكاليف مرتبات الموظفين الحكوميين والقوات المسلحة، فلم تستطع معظم الحكومات السيطرة على الإنفاق المتزايد والضغوط فى أجهزتها الحكومية وقواتها المسلحة، فلقد تحولت العديد من الوظائف المدنية المهمة فى الدولة إلى مجرد واجهة أو أمرا ثانويا بحتا؛ إذ يعمل شاغلها على الأرجح فى وظائف أخرى مع القطاع الخاص أيضا، وعرف قادة الجيش والشرطة تماما خوف السياسيين الدائم من شعوبهم لعدم شرعيتهم القانونية فى معظم الأحوال، ولذلك تم إنشاء قوات مسلحة ضخمة كبيرة العدد وذات أسلحة كثيرة متطورة للغاية وإن كان لا يعنى

وجودها شيئا، فهى من أجل مواجهة الاضطرابات الداخلية فقط وليس حماية البلاد من أخطار خارجية لا وجود لها أصلا، ولم يستطع قادة الدول ذات التوجه الاشتراكى السيطرة على تكاليف رواتبهم مما أدى إلى خسائر جسيمة والاضطرار إلى الحصول على إعانات من ميزانية الدولة، ونشير إلى أمر آخر لم يأخذ حظه من الدرس وهو أن كل الحكومات الأفريقية تقريبا قد ضاربت على أسعار عملاتها القومية، ولكن تم تحديد قيمتها بسعر يقل عدة مرات عن سعرها الحقيقى فى السوق الحرة، وجعل ذلك الاستيراد رخيصا نسبيا بالإضافة إلى الحياة الرغدة التى تحياها النخبة وزيادة أسعار السلع المستوردة التى يستخدمها المواطنون العاديون فى العواصم النامية بسرعة هائلة، وكانت أعمال الاستيراد من دول تمنح إعانات إنتاج لمزارعيها لتخفيض أسعار صادراتها، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى منافستها للإنتاج الزراعى المحلى فى الدول الأفريقية إذ قل سعرها عن سعر منتجات تلك البلاد ذاتها، ولذلك قام المزراعون الأفريقيون بالرغم من ضغوط زيادة السكان إلى تركيز جهودهم على زراعة المحاصيل الحيوية الضرورية لاستهلاكهم الخاص ولم يزرعوا أكثر الاحتياجات الخاصة للسوق المحلية.

ولم يمكن الاحتفاظ بأسعار العملة ثابتة إلا بواسطة السيطرة والإشراف الحكوميين مع إنشاء نظم حكومية دقيقة للاستيراد والتصدير، وفتح ذلك الباب أمام الفساد الذى استشرى بين رؤساء الجمهوريات وحاشيتهم من الوزراء إلى صغار الموظفين البيروقراطيين مثل موظفى الجمارك، وسمى هذا النوع من الفساد بقاعدة العشرة بالمائة، وكان ذلك من أهم أسباب فساد القطاع العام وانهيار الخدمات العامة، وكانت فى النهاية تلك النفقات الباهظة التى قام بها معظم - إن لم يكن كل- رؤساء الدول الأفريقية، فلقد ازداد عدد القصور الرئاسية الرائعة الفخمة، وزادت الحاشية والبلاط والخدم والحشم، وزادت المواكب الرئاسية المهيبة طولا، وازداد ضجيجها والخوف منها، وحملت قوافل من الباصات الحكومية الجماهير المؤجرة للهتاف والصياح والتهليل أثناء خطابات رؤساء الجمهوريات فى استادات

رياضية هائلة جديدة، كما اهتم الرؤساء الأفريقيون باستضافة مؤتمرات منظمة الدول الأفريقية كما أنفقت مبالغ هائلة استعدادا لها، وقام نكروما بتشييد قصر رائع يحتوى على ستين وحدة سكنية فخمة رائعة وقاعة مآدب لـ ٢٠٠٠ شخص لمؤتمر عام ١٩٦٥، وأدى ذلك إلى غضب بعض مواطنيه، وسخروا من ذلك بترديد عبارة "لكل رجل دراجته البخارية" وشيد الرئيس عمر بونجو رئيس الجابون عام ١٩٧٧ مجموعة من الفنادق على شاطئ البحر في مدينة ليبرفيل وقصرا جديدا لنفسه بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار، وأنفق الرئيس تولبرت بعد عامين نصف ميزانية ليبيريا السنوية لاستضافة قمة منظمة الوحدة الأفريقية، ولكن تفوق عليه الرئيس سياكا ستيفنز حينما أنفق ثلثى ميزانية سيراليون على الموضوع نفسه، ولكن كان أكثر الرؤساء إنفاقا فى الثمانينيات هو الرئيس موبوتو فى الكونغو ففى عصر الأزمة الاقتصادية الصعبة في زائير، فلقد فاقت نفقاته السنوية أكثر من إجمالى ميزانيات الطرق والمستشفيات والمدارس والخدمات الاجتماعية كلها مجتمعة، وبلغت ثروته الخاصة عام ١٩٨٨ مبلغ ٥٥ مليون دولار ولكن يقول البعض إنها تبلغ عشرة أضعاف هذا المبلغ، وأعاد بناء قريته الأصلية فى جياد وليت على الأوبانجى بتكاليف هائلة، وشيد هناك قصرا ريفيا رائعا لاستخدامه الخاص ومطارا كبير لنزول طائرة الكونكورد التى كثيرا ما كان يستأجرها من شركة إير فرانس، وامتلك أيضا قصورا فى فرنسا وبلجيكا وضياعا فى أسبانيا وإيطاليا وسويسرا وساحل العاج، وقضى معظم أوقاته فى أيامه الأخيرة على متن يخت فخم يتجول به ذهابا وإيابا فى نهر الكونغو مما أدى إلى سخرية مواطنيه الغاضبين منه، وأطلقوا عليه اسم "البحار" بينما ازداد السخط والغضب فى البلاد.

## طريق الإصلاح الصعب

قاومت معظم الحكومات الأفريقية نصائح البنك الدولى وصندوق النقد

الدولى أيضا الأكثر إلماما بالمشاكل الهائلة التى تواجهها الدول الأفريقية، فلقد ازدادت الديون من عام ١٩٧٥ فصاعدا ولكن وجدت وسائل بديلة للاقتراض السهل كما سبق القول، ولكن كانت حكومة كينيا أول دولة تقبل قدرا من إشراف مندوبى صندوق النقد الدولى الذين افتتحوا مكتبا لهم فى البنك المركزى الكينى، ولكن وجد أكبر قدر من الميزانية فى زائير عام ١٩٧٨ عندما وجد مسئولون من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى البنك المركزى، مكتب المراجعة ووزارة المالية فى تلك البلاد وكانت أفضل الدول المتعاونة مع صندوق النقد الدولى هى غانا؛ حيث استولى ضابط شاب من السلاح الجوى ويدعى جيرى رولنجر، والبالغ من العمر ٣٤ عاما، على السلطة من حكومة مدنية لا تتميز بالكفاءة والتى كانت مكلفة بإدارة البلاد بعد انقلابه عام ١٩٧٩، وكان اقتصاد غانا قد انهار تماما آنذاك وانخفض إنتاج الكاكاو من ٥٦٠,٠٠٠ طن عام ١٩٦٥ إلى ١٥٠,٠٠٠ طن عام ١٩٨١. وضعف نظام النقل كثيرا كما توقفت السكك الحديدية، ولم توجد عملة أجنبية كافية لاستيراد حتى أكثر السلع إلحاحا وضرورة مثل قطع الغيار للآلات الزراعية والصناعية، وعملت المصانع بربع طاقتها، كما حدث نقص فى الطاقة الكهربائية نظرا لانخفاض مستوى بحيرة فولتا نظرا للقحط الشديد، وبدأ رولنجر فى تطبيق برنامج إصلاح بإصرار وواقعية يحسد عليها إذ لم يتوافر ذلك أبدا عند الحكام السابقين، فلقد قبل مساعدة صندوق النقد الدولى وإشرافه وشروطه ثم قام بتخفيض قيمة العملة تدريجيا نظرا لتحسن الأحوال الجوية، وارتفع إنتاج الذهب وباقى إنتاج المناجم، كما تعافت الصناعة أيضا. وتم شراء معدات توليد كهرباء جديدة لسد أكاسومبو مما أعاد التيار الكهربائى إلى سابق عهده ولكن تكلفت تلك المكاسب الاقتصادية الهائلة ثمنا باهظا من الناحية الاجتماعية إذ أدى إلى زيادة البطالة وتخفيض الخدمات الطبية والاجتماعية وتخفيض ميزانية التربية والتعليم، وفرضت الحكومة ضريبة مبيعات مرتفعة من أجل تخفيض استهلاك السلع المستوردة والتى أثرت بشدة على مستوى حياة سكان المدن، وحدثت عدة محاولات انقلابية،

واضطرابات للطلبة والعديد من الاضطرابات الشعبية، ولكن تحسن الاقتصاد فـــى بداية التسعينيات ووصل إلى أحسن حالاته منذ عصر ما بعد الاستقلال، ثـــم بـــدأ رولنجز بمساعدة صندوق النقد الدولى فى تحويل غانا إلـــى نظـــام حكـــم أكثـــر ديمقراطية.

ووجد صندوق النقد الدولى نفسه أثناء عقد الثمانينيات وبطريقة متزايدة فـــى وضع القائد الوحيد القادر على إمساك زمام الأمور، ولذلك استطاع تطبيق سياســـة حازمة لفرض الشروط مقابل مساعدته، كما اقتربت الحرب الباردة مـــن نهايتهـــا ولذلك استطاع أن يحشد التأييد الدبلوماسى لكل الدول المانحة لإقنـــاع الحكومـــات الأفريقية لقبول وصفاته العلاجية، ولذلك طلب من معظم الدول اتباع مثـــال غانـــا والقيام بعملية تخفيض متدرج لعملاتهم بفرض إعادة التوازن بـــين أســـعار الســـلع المنتجة محليا والسلع المستوردة، وكان ذلك لصالح المزارعين الأفريقيين بالتأكيـــد، ولكن تأثر سكان المدن بشدة كما عبروا عن استيائهم بوسائل أكثر فاعلية، ولـــذلك حينما استعان الرئيس كاوندا على سبيل المثال بصندوق النقد الدولى عـــام ١٩٨٥ لإنقاذ زامبيا من الانهيار فلقد كانت إحدى وصفات العلاج لصندوق النقـــد الـــدولى هى إلغاء الدعم على الخبز المصنوع من الشعير، وأدى ذلك إلـــى أعمـــال شـــغب هائلة فى مدن حزام النحاس لدرجة أن الحكومة قد قطعت علاقاتها مـــع صـــندوق النقد وأعادت الدعم ولكن اضطرت زامبيا فى نهاية الأمر إلـــى قبـــول مســـاعدة صندوق النقد الدولى عام ١٩٩٠ وقبلت وصفه العلاج القاسية ومواجهة المزيد من الاضطرابات وطبقت جابون أيضا برنامجا للتقشف وضعه صندوق النقـــد الـــدولى عام ١٩٨٦ وأدى إلى أعمال الشغب الدامية فى ليبرفيل ديو جونتيل، وكان أســـوأ الرؤساء حظا فى تلك الإصلاحات هو الرئيس توماس سانكارا من بوركينا فاســـو والذى عادته الطبقة الفقيرة الشعوبية من البيروقرطيين وعمال المدن فى بلاده مما أدى إلى اغتياله عام ١٩٧٨ ولكن كان مصير معظم الذين ساعدهم صندوق النقـــد أوفر حظا بكثير من مصير سانكارا.

وتحسن الدخل العام للقارة وإن حدث ذلك بطبيعة الحال بعد عام ١٩٨٥، وأشاد البنك الدولى فى تقرير صدر عام ١٩٨٩ بتحسن مساهمة القطاع الخاص الصغير الذى ظهر فى المدن النائية وحولها بسرعة وقال:

"لقد قدمت الشركات الصغيرة فى القطاع غير الرسمى نصيبا متزايدا فى الوظائف والإنتاج فى السنوات الماضية التى تميزت بالأزمة الاقتصادية. وتدل التقديرات أن تلك المنشآت تقوم حاليات بأكثر من نصف الوظائف فى المدن الأفريقية وخمس الإنتاج القومى العام، ولكن لا يسجل أو ينظم هذا القطاع غير الرسمى بالمرة ولكنه يتكون من مشروعات صغيرة فى الزراعة والصناعة والتجارة النقل والتمويل والخدمات الاجتماعية. ولا يتميز أبدا بالركود أو الثبات أو بأداء عمله بالطرق التقليدية، بل يستخدم وسائل فنية متطورة طبقا لما تقتضيه آليات السوق، وتتميز منشآت ذلك القطاع غير الرسمى بالقدرة على المنافسة والعمل الحر دون قيود إجبارية بالإضافة إلى تلاؤمها التام مع المتطلبات والموارد المحلية المتاحة.

وتعطى شهادة البنك الدولى تشجيعا وأملا فى المستقبل نظرا لإشادتها بالمشروعات الصغيرة لسكان المدن فى عصر تدهورت فيه كل نظم الحياه الأفريقية الأخرى. ولكن كانت أهم العوامل فى الحياة الأفريقية عام ١٩٩٠ هى تضاعف عدد السكان كل عشرين عاما وسكان المدن كل عشرة أعوام فقط. وذلك أن أقام ربع الأفارقة كلهم فى المدن عام ١٩٩٠، ويقدر أن تلك النسبة سوف تتضاعف مرة ونصف بحلول نهاية القرن. ولكن يعنى ذلك أيضا أن عددا هائلا من الناس ما زال يقيم فى الريف والذى سوف يصل عددهم عام ٢٠٠٠ إلى ما يوازى عدد سكان القارة كلها عام ١٩٩٠. ولكن تولد الآن أفريقيا جديدة فى المدن والريف المجاور لها. وبدأت المنشآت الاقتصادية فى تلك المناطق الحيوية فى النمو والازدهار اعتمادا على نفسها أساسا. وتوجد أيضا آمال واسعة فى انتشار تلك المفاهيم الرائعة بحيث تتحسن الحكومات المحلية ووصولها إلى المناطق النائية حيث توجد أسوأ ظروف الفقر المدقع على الإطلاق.

# الفصل الثالث والعشرون

## الصراعات فى القرن الأفريقى

بالنسبة لمعظم أفريقيا فإن العقد الأخير من القرن العشرين لم يحقق أبدا الآمال العريقة التى تمناها المتفائلون فى نهاية عقد الثمانينات فى القرن العشرين. ولكن أدى انهيار وانحلال الاتحاد السوفيتى وإمبراطوريته فى شرق أوروبا إلى وجود الظروف الملائمة لإحداث تغيير جذرى فى نظام حكم جنوب أفريقيا وتحوله من حكومة أقلية بيضاء إلى ديمقراطية تعتمد على نظام الانتخاب الحر. واختلف الأمر فى أماكن أخرى، إذ لم يؤد الانسحاب الجزئى للقوتين العظميين أبدا إلى القضاء على الانقسمات الداخلية داخل البلاد الأفريقية، وأدى ذلك، على العكس، إلى زيادة كبيرة فى العنف سواء فى المناطق التى شهدت قبل ذلك نزاعات فى عصر الحرب الباردة وتلك التى ظلت هادئة نسبيا على السواء.

### بقايا الحرب الباردة فى أنجولا والقرن الأفريقى

فى أنجولا استمر جوناس سافيمبى، وكثف نزاعه الذى استمر عشرين عاما مع حكومة الحركة الشعبية لتحرير انجولا. وقام بشراء الأسلحة والمعدات المحظورة فى دائرة من الممولين الراغبين تماما فى البيع. وأرسلوا السلاح بطريق الجو مباشرة إلى مقر قيادته العسكرية فى الأدغال مقابل الماس المستخرج من منطقة نفوذه فى الجزء الجنوبى من البلاد. وحرمت حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا من المرتزقة الكوبيين والأسلحة الروسية، واضطرت إلى تسليح نفسها بإنفاق معظم دخل حقول البترول. وكان يمكن لذلك الدخل أن يساهم فى

إعادة بناء اقتصاد دمرته الحرب. وظلت سكة حديد بنجويلا مغلقة بينما كانت في الماضي المنفذ الرئيسي لمناجم النحاس في جنوب زائير وشمال زامبيا، فكانت مهمة أيضا لدخول البلاد الثلاث، وهكذا ظلت تلك السكة الحديدية معطلة طوال عصر الحرب الأهلية الأنجولية. بيد أن اغتيال أحد القتلة لسافيمبى عام ٢٠٠٢ قد أدى إلى توقيع الهدنة مع أتباعه مما بعث الأمل في قيام السلام الشامل. ولكن بعد أن بلغ عدد القتلى آنذاك في تلك الحرب الدامية حوالي ثلاثة ملايين وعددا مشابها من اللاجئين الذين اضطروا إلى هجر ديارهم والهروب.

وازداد العنف أيضا في منطقة القرن الأفريقي ولم يقل أبدا بعد انتهاء الحرب الباردة. وأدى خروج القوات الكوبية من أثيوبيا وانتهاء التمويل الهائل في الأسلحة السوفيتية إلى إشعال الفتن الكامنة داخل الدولة وحول حدودها. وانتصرت الثورة بقيادة جبهة تحرير تيجرى وأريتريا في حربها المستمرة منذ فترة طويلة في أثيوبيا على الدكتاتورية العسكرية للرئيس منجستو الذى هرب إلى زيمبابوى في المنفى عام ١٩٩١. وتولى الحكم الزعيم التيجيرى ميليس زيناوى ( Meles Zenawi) الذى استطاع فرض سلطته على الشعوب المتنوعة في وسط وجنوب البلاد. ووعد بتحويل جذرى للسلطة وتقسيمها إلى عشر سلطات محلية، ولكنه اضطر عام ١٩٩٣ إلى منح أريتريا الإستقلال التام. ومع ذلك فقد ساءت العلاقات بين البلدين لدرجة أن أريتريا هاجمت منطقة أثيوبية صغيرة تعرف بمثلث ييرجا (yirga) عام ١٩٩٨. ورد الأثيوبيون بعنف ونشبت الحرب التى قتل فيها حوالى ٣٠,٠٠٠ مقاتل قبل أن تقبل أريتريا الهزيمة عام ١٩٩٨. وكانت أريتريا في عنفوان القتال تنفق ثلث دخلها القومى العام على الدفاع وهى نسبة لم تبلغها دولة أخرى في العالم كله.

وأثناء ذلك وعند الحدود الشرقية الأثيوبية انقسمت الأمة الصومالية - بالرغم من اشتراكها في اللغة والدين الإسلامى- إلى عشرين منطقة أو أكثر من المناطق التى يحكمها أمراء الحرب على أساس نظام حكم العشيرة الرعوية. وكان

الرعاة يتنقلون دائما بحثا عن المراعي، وخلال الحرب الباردة اســتطاع منجســتو بالمساعدة السوفيتية السيطرة على السكان الصوماليين فى منطقة أوجادن Ogaden فى أراضيه المنخفضة الشرقية. أما معظم الصوماليين المقيمين فى بلادهم الأصلية فإنهم قد اعترفوا إلى حد ما بالنظم البيروقراطية الضعيفة التــى ورثــت الحكــام الاستعماريين القدامى فى مقديشيو وبعض المدن الساحلية الأخرى. وسيطر الرئيس زياد برى خلال معظم العشرين عاما الأولى من الاستقلال الصومالى على معظــم تلك الجهات. ولكنه ازداد دكتاتورية تدريجيا وبالذات بعد اعتراف الولايات المتحدة به وإرسالها للمعونة الاقتصادية والعسكرية بعد ازدياد النفوذ السوفيتى فى أثيوبيــا. وبعد رحيل منجستو عاد الاهتمام الأمريكى بأثيوبيا، وفقد زياد برى أهميته. فهرب من مقديشيو عام ١٩٩١، وتوجه إلى المنفى فى كينيا فى العام التالى وأدى رحيــل برى إلى مواجهة أمراء الحرب كل منهم للآخر للسيطرة علــى المــدن الســاحلية والمزارعين المستقرين الأمنين المقيمــين بــين وادى شــبيلى (Wadi Shebele) ووديان جوبا (Juba) فى أقصى جنوب البلاد. وانفصل شمال الصومال- منطقــة الحماية البريطانية القديمة- وأعلن استقلاله باسم أرض الصومال (Somal Land). وفى عام ١٩٩٢ أعلن محمد إيجال وهو أحد مؤسسى دولة الصومال الموحدة عام ١٩٦٠ نفسه رئيسا للدولة المنفصلة الحديثة.

وشهدت الصومال بالإضافة إلى المناطق المجاورة فى أثيوبيا وكينيا وجنوب السودان موجة جفاف رهيبة عام ١٩٩٢. وحاولت الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة الدولية وكافحت من أجل إرسال الطعام والأدوية إلى السكان الجوعى والذين ساءت أحوالهم للغاية. ولذلك هبطت قوة متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحــدة غــداة انتصارها فى حرب الخليج الأولى إلى مقديشيو فى ديسمبر ١٩٩٢. وحاولت إيقاف الحرب بين أمراء الحرب المتعددين والتأكد من وصــول الــدعم والمعونــة إلــى مستحقيها. ولكن أدى هذا التدخل الأجنبى الكثيف والذى وصل عدد أفــراده إلــى ٣١,٠٠٠ جندي فى ذروته - وأكثر من الثلث كانوا أمريكيين- إلى إشعال الموقف

بين النزاعات السياسية بين العشائر الصومالية المختلفة. وقاتل أمراء الحرب في مقديشيو فيما بينهم للسيطرة على توزيع الطعام بأنفسهم وإرساله إلى مؤيديهم وأنصارهم فقط. وتورطت القوات المتعددة الجنسيات في معارك مدن كبرى وحيث قتل في إحداها ثمانية عشر جنديا أمريكيا، وشاهد المتفرجون الأمريكيون في التليفزيون في بلادهم كيف سحل الصوماليون جثث القتلى الأمريكيين في طرق مقديشيو. وسارع الرئيس كلينتون- الذى كان قد انتخب توا رئيسا للولايات المتحدة- بإصدار أمر انسحاب معظم القوات الأمريكية. ولذلك في نهاية ١٩٩٤ غادرت معظم قوات الأمم المتحدة الصومال كله. ووصلت تكاليف حملة الأمم المتحدة إلى الصومال إلى ١,٦ بليون دولار، كما أدى فشلها إلى نتائج بعيدة المدى في رفض الولايات المتحدة في الاشتراك في أى نزاع أفريقي آخر. وكان ذلك أيضا فشلا ذريعا للأمم المتحدة بمواردها القليلة ومسئولياتها المتزايدة على الدوام، ولم تغامر بعد ذلك أبدا في التورط في النزاعات الأكثر خطورة والتي تستلزم تدخلها. وبعد انسحاب الولايات المتحدة والأمم المتحدة انقسم الصومال ويشمل ذلك المدن مثل مقديشيو وكيسمايو (Kismayo) بين ستة وعشرين من أمراء الحرب كما استمرت المنازعات إلى القرن الحالي. ولكن عاد النشاط الاقتصادى السلمى ثانية وبالذات في تجارة الماشية. وفي عام ١٩٩٨ رفعت السلطات السعودية الحظر على استيراد الماشية الصومالية الحية والتى كانت قد فرضته قبل ذلك لانتشار طاعون الماشية بينها. وكان ذلك قد أثر تماما على اقتصاد المناطق الشمالية الغربية. وغادرت الشحنة الأولى المكونة من ٩٠٠٠ رأس ماشية ميَناء بربرة (Berbera) في شهر مايو ١٩٩٩. واسترد جنوب الصومال رويدا رويدا عافيته في فيضانات عام ١٩٩٧ في أنهار جوبا واشبيلى والتى كانت قد دمرت أراضي المزارع المجاورة. ويبدو أن الألفية الجديدة قد أتت بأمل جديد للشعب الصومالى. وعاد فرض النظام العام في جذور كونتها الوحدات الإدارية المحلية الصغيرة، مما

أدى حتى فى مجتمع لم يعد يعيش فى إطار دولة إلى عـودة الاقتصـاد والحيـاة الاجتماعية بالرغم من الفوضى الناشئة عن سياسات الميليشيات.

## مأساة رواندا والكونغو

وكانت أكثر النزاعات عنفا وانتشارا والتى أدمت القارة الأفريقية وأرهقتها خلال العقد الأخير من القرن العشرين حتى التى حدثت فى رواندا وبورندى وشرق زائير. وأخذت شكل حرب إبادة في فى رواندا على أيدى مجموعـة مـن الهوتـو المتعصبين ضد جيرانهم التوتسى وإخوانهم فى الوطن. ولم تكن تلك الحرب حربـا بين أمراء الحرب مثلما هى الحال فى الصومال وسيراليون. ولكنها كانت انفجـارا مفاجئا للمنافسة التى استمرت قرونا طويلة بين ملاك القطعان التوتسى والمزارعين الهوتو للسيطرة على الأراضى واستخدامها فى بقعة مـن أكثـر المنـاطق ثـراء وبالتالى أكثرها سكانا. ويكون الهوتو والتوتسى حوالى ١٥% من سـكان البلـدين ويتكلمان اللغة نفسها ويشتركان فى الديانة نفسـها والعـادات والتقاليـد. وكانـت الاختلافات بينهم خلافات طبقية وليست عرقية على الإطـلاق. وخـلال عصـر الاستعمار فضل الحكام البلجيكيون تدعيم الوضع السياسـى والاجتمـاعى المميـز للتوتسى ولكن وحتى قبل الاستقلال طرد الهوتو أعدادا كبيرة مـن التوتسـى مـن الأراضى المتنازع عليها، وهرب معظمهم إلى المناطق المجـاورة فـى جنـوب أوغندا. وامتد العنف إلى بوروندى فى بداية تسعينيات القرن العشـرين، وقامـت حكومة يقودها التوتسى عام ١٩٨٨ بالهجوم على الهوتو محاولة منهـا فـى قتـل المثقفين الذين يمكنهم تكوين حكومة بديلة. وفى نهاية عـام ١٩٩٣ كـان مئـات الآلاف من الناجين الهوتو قد هربوا إلى رواندا وزائير وتانزانيا، بينما أقام آخرون فى معسكرات للاجئين حول حدود بلادهم الأصلية. وخلال تلك الفتـرة واجهـت حكومة يقودها الهوتو فى رواندا ومنذ ١٩٩٠ حركة ثورية قام بها اللاجئون فـى أوغندا بقيادة الجنرال بول كاجامى Paul Kagame. وكان هو نفسه ابنا من أبنـاء

اللاجئين التوتسى فى عقد الستينيات وخدم فى جـيش المقاومـة بقيـادة موسـيفى Musevi ثم أصبح نائبا لرئيس المخابرات العسكرية. واستطاعت الجبهة الوطنيـة لرواندا بقيادة كاجامى قادرة على إنجاز نجاح كبير فى شرق البلاد.

وفى شهر أبريل ١٩٩٤ حضر رؤساء وأعضاء حكومتى البلدين اجتماعـا إقليميا فى دار السلام فى محاولة لرأب الصدع وتنفيذ اتفاقيات سلام سابقة لرواندا. وقد تم إقناع رئيس بوروندى بالعودة إلى دياره على طائرة رئيس رواندا. ثـم تـم إسقاط الطائرة بواسطة صاروخ أرض- جو عند اقترابهـا مـن مطـار كيجـالى Kigali وقتل جميع من كانوا على متنها. ولم يتم اكتشاف المجرمين أبـدا ولكـن انتشرت شائعات أنهم أعضاء من الجيش الرواندى الذين رغبوا فى إشـعال الفـتن الطائفية عمدا. وبعد تلك الكارثة قامت وحدات من الميليشيات الرئاسـية بمجـزرة ضد السكان التوتسى. وتم تحريض المواطنين الهوتو فى برامج إذاعيـة معاديـة تماما للتوتسى من محطة تسمى نفسها محطـة الألـف هضـبة الحـرة للإذاعـة والتليفزيون. وعرفت عامة بإذاعة الحقد إذ وجهت برامجها الشـعبية للمـزارعين الفقراء والعاطلين من شباب الهوتو فى المـدن وحثـتهم علـى حمـل السـكاكين والمشاعل لذبح جيرانهم التوتسى. وفعل الكثيرون ذلك بين أشهر أبريـل ويوليـو ١٩٩٤ لدرجة أن حوالى ٨٠٠,٠٠٠ من التوتسى قد قتلوا بينما هرب مئات الآلاف من ديارهم للنجاة بحياتهم. وانتهز ثوار كاجامى من أوغندا تلك الفرصـة الذهبيـة نظرا لانتشار الفوضى وزادوا فى هجماتهم العسكرية واسـتولوا علـى العاصـمة كيجالى ثم استولوا بعد ذلك على الأجزاء الجنوبية والغربية من البلاد.

ونتيجة لذلك تحرك ما بين مليون ومليونين من الهوتو، ومعهـم ميليشـياتهم وجنود جيشهم المهزوم إلى إقليم كيفو Kivu المجاور فى زائيـر، وأقـاموا فـى معسكرات من الخيام بدون إضاءة ومياه، واعتمدوا تماما على المساعدات الخارجية للحصول على الطعام ومياه الشرب. ولم تتمكن الموارد المحلية أبدا مـن مواجهـة ذلك النزوح الجماعى الهائل، ولذلك تـوفى عشـرات الآلاف مـن المرضـى أو

الجوعى قبل وصول المساعدات الدولية إليهم. وقدر حوالى نهاية شهر يوليو ١٩٩٤ أن ثلث سكان رواندا فقط قد ظلوا أحياء ويقيمون داخل حدود بلادهم وذلك من ٧,٥ مليون من السكان الذين كانوا يقيمون هناك قبل ثلاثة أشهر فقط. ولم يستطع العالم الخارجي - وبالذات أوروبا وأمريكا- أن يفعل شيئا سواء بالنسبة لحرب الإبادة ومأساة اللاجئين. ولم تفعل معظم الدول الأفريقية المجاورة الكثير، بل أدى تدخلها أحيانا إلى زيادة الأمور سوءا. وحينما قامت الأمم المتحدة بعمليات الإغاثة فى نهاية الأمر كان الوقت قد فات تماما. وادعت حكومة كاجامى الجديدة حيادها بين الفئتين ولكنها لم تفعل شيئا من الناحية العملية لتشجيع الهاربين على العودة. ووجد العائدون أرضهم وممتلاكتهم فى أيدى التوتسى وكثيرا ما تعرضوا لسوء المعاملة من العسكريين والشرطة على السواء. ولذلك ظل معظم اللاجئين فى شرق زائير تحت التأثير السياسى لميليشيات الهوتو الشديدة التعصب والتى كانت وراء أعمال القتل الجماعية قبل ذلك، ثم استعدت آنذاك للمقاومة المسلحة مما أغضب زائير ومنظمات الإغاثة العالمية المرسلة لمساعدتهم. ونظرت حكومة كاجامى بطبيعة الحال بعين الشك والارتياب لوجودهم بالقرب من حدودها واعتبرتهم تهديدا دائما ومباشرا. وشاركها فى هذا الشعور التوتسى وشعب قريب منهم يدعى البانيا مولنجى Banya mulunge المقيم عند شريط أراضى المراعى فى شرق زائير بين الغابة وبحيرة كيفو Kivu. وكان الرأى بين الجماعتين آنذاك هو إبعاد اللاجئين الهوتو عن الحدود إلى غابة إيتورى Ituri غير القابلة للحياة بها تقريبا فى ناحية الغرب. ورأت حكومة كيجالى بعد ذلك ونظرا لعدم مقاومة حكومة زائير أن عليها التصرف بمفردها وقامت بالغارات المفاجئة للوصول إلى هذا الهدف.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الموقف إثبات أن حكومة الرئيس موبوتو فى كينشاسا غير قادرة على مواجهة الموقف على الإطلاق، ولا يمكنها حتى حماية حدودها من هجمات من البلاد المجاورة. ولذلك سرعان ما قامت القوات الروندية

تدعمها وحدات من جيش أوغندا باحتلال كل المنطقة المكشوفة غرب الغابة وطاردت اللاجئين الهوتو إلى طريقي الغابتين المؤديتين إلى كيسانجانى kisangani على مسافة ٨٠٠ كم (٥٠٠ ميل) داخل زائير. ثم توغل أمراء حرب صغار من السودان فى الوقت نفسه داخل زائير شمال الغابة بينما وجد شعب البانيا مولونجى فى جنوب إقليم كيفو قائدا عسكريا موهوبا فى شخص لوران كابيلا Lurant Kabile. وكان كابيلا مساعدا سابقا للرئيس باتريس لومومبا وقائدا عسكريا فى الثورة الماوية بقيادة كريستوفر جيبينى Christphr Jbenye الذى عمل كأمير حرب فى الجبال الواقعة غرب بحيرة تنجانيقا منذ عام ١٩٦٤. وأصبحت رغبة كابيلا فى بداية عام ١٩٩٧ الإطاحة بحكومة موبوتو غير المحبوبة على الإطلاق، واستطاع أن يشن حربا ناجحة تماما، ووصل بجيشه الصغير العدد من مدينة بها مطار إلى أخرى، بينما كان ينضم إليه خلال ذلك العديد من الأنصار الجدد إلى أن وصل إلى مشارف العاصمة كينشاسا فى شهر مايو. وانضمت إليه أيضا وحدات من جيوش رواندا وأوغندا وبروندى. وكان موبوتو آنذاك رجلا مريضا أنهكت قواه فهرب مع عائلته إلى توجو فى البداية ثم وصل إلى المغرب حيث عاش ضيفا عند الملك الحسن الثانى، ولكنه سرعان ما توفى بعد بضعة أسابيع. وانضم كابيلا إلى قواته المنتصرة فى كينشاسا وأعلن نفسه رئيسا لجمهورية الكونغو الديمقراطية وهو الاسم الجديد لزائير بموافقة مؤيديه الروانديين والأوغنديين.

ولم يتوافر لكابيلا – كرئيس للجمهورية – تلك الشخصية الجذابة والذكاء السياسى الحاد الذى تمتع بهما جوزيف سيسى سيكو. وسرعان ما أثبت أنه أقل قدرة من سابقه على الحكم بطريقة مرضية فى بلاده الكبيرة. وسرعان أيضا ما واجه كابيلا حلفاءه فى البانيا مولنجى والروانديين وأوقف تقدم نفوذهم فى الجزء الشرقى من البلاد، وأعلن تأييده للثوار الهوتو هناك. ولذلك قام الروانديون والأوغنديون بإشعال ثورة جديدة ضده هناك عام ١٩٩٩، واستولوا بسرعة على

الأقاليم الشرقية وأرسلوا قوات عسكرية جوا للسيطرة على موانى الكونغو على المحيط الأطلنطى ومحطة توليد الطاقة عند سد إينجا Inga. واستعان كابيلا بدوره بالحكومات الأنجولية والناميبية والزيمباوية للحصول على قوات لمساعدة نظامه المنهار. وساعدته السودان أيضا وتشاد لفترة بسيطة كذلك. ولذلك تحولت جمهورية الكونغو الديمقراطية إلى مجال حرب أفريقية شاملة وحيث اشتركت جيوش ست دول أجنبية. وبدأ حلفاء كابيلا الجدد فى إعادة السيطرة على الغرب والجنوب بينما مد الروانديون والأوغنديون سيطرتهم على الشرق والجنوب الشرقى. ولكنهم اشتركوا جميعا فى نهب ثروات الكونغو إذ اهتمت أنجولا بحقول البترول أمام مصب نهر الكونغو، ورواندا وأوغندا بالماس والمعادن الثمينة والعاج والأخشاب من الجبال الشمالية الشرقية، والزيمبابويون بالنحاس والمنتجات الزراعية فى الجنوب.

وقتل لوران كابيلا على أيدى أحد حراسه فى بداية عام ٢٠٠١، ثم خلفه ابنه جوزيف البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما كرئيس للجمهورية. وأصبح بالتالى أصغر رؤساء الجمهورية فى العالم فى دولة تسودها الفوضى الكاملة. وكان يختلف اختلافا تاما عن والده إذ كان لوران مثيرا للحروب وكسولا وفاسدا وسكيرا ومتعدد الزوجات بينما كان جوزيف مفكرا نشطا لا يتناول الكحول، متزوج من واحدة وأدهش الكثيرين فى اعتداله وصواب رأيه. واستبدل تدريجيا أنصار والده الفاسدين فى دوائر الحكم بآخرين من المديرين المحترفين بينما أبلغ الدبلوماسيين الغربيين استعداده لقبول نصائح من أجانب. ولذلك أدت إصلاحاته الاقتصادية إلى وعد من البنك الدولى بإقراض الكونغو ٤٠٠ مليون دولار، وتحول الموقف العسكرى تدريجيا لصالح جوزيف كابيلا بحيث استطاع التخلى عن كل الجيوش الأجنبية التى أتت لمساعدته باستثناء حرسه الخاص من الزيمبابويين. أما من الناحية السياسية فإن حكومة جنوب أفريقيا برئاسة ثابو مبيكى Thabo Mbeki فقد تدخلت كوسيط بحيث سحبت رواندا وأوغندا بين شهر يوليو ٢٠٠٢ ونهاية العام قواتها من شرق

الكونغو. ووافق كابيلا على إنشاء حكومة انتقالية تشمل زعماء مختلف جماعات الثوار. على أن يشرف على إنهاء النزاع هيئة من الأمم المتحدة وأفراد من جنوب أفريقيا. ولكن للأسف سرعان ما بدأت تلك الجهود فى التهاوى إذ استمرت أوغندا ورواندا فى تسليح الميليشيات المتنافسة، كما كانتا على استعداد لإعادة غزو الأقاليم الشمالية الشرقية فى الكونغو التى أنهكتها الحرب. وتم توقيع اتفاق سلام آخر فى أبريل ٢٠٠٣ بين حكومة الكونغو والجماعات الثورية الرئيسية. ولكن سيطر آنذاك ستة أو سبعة من أمراء الحرب على مناطق تمتد من بونيا (Bunia) التى تحتلها أوغندا فى الشمال إلى بوكافو Bukavu التى يسيطر عليها الروانديون فى الوسط. وبعد انسحاب القوات الأوغندية في بونيا فى شهر مايو ٢٠٠٣ أدى النزاع بين جماعات الهيما (Hema) واللندو (Lendu) حول الأرض فى إقليم ابتورى الكثيف الغابات إلى انهيار تام فى القانون والنظام. وتم تجميع قوة تقودها فرنسا فى محاولة للفصل بين القوات المتنازعة. وبدا السلام أبعد ما يكون. وقدرت إحدى وكالات الإغاثة آنذاك أن ٤,٧ مليون إنسان قد قتلوا كنتيجة مباشرة للحرب الأهلية. وإذا كان هذا الرقم صحيحا فإن الحرب فى الكونغو قد كانت أكثر الحروب دموية فى تاريخ البشرية منذ الحرب العالمية الثانية.

## أمراء الحرب في ليبيريا وسيراليون

وتوجد منطقة أخرى فى القارة والتى عانت كثيرا من النزاعات الداخلية خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين وهى المنطقة الممتدة من أراضى الحدود بين ليبيريا وسيراليون. وبدأ العنف عام ١٩٨٩ فى ليبيريا حينما قام شارل تيلور بغزو البلاد. وكان مسئولا كبيرا سابقا فى الحكومة الليبيرية، وهرب إلى الخارج بعد اتهامه فى جريمة مالية خطيرة. وأثناء فترة هروبه كخارج عن القانون أصبح تايلور المتحدث الرسمى لمجموعة من رفاقه المنفيين الموزعين بين عدة دول

مجاورة وعرفت باسم الجبهة الوطنية الشعبية لليبيريا National Patriotic Front for Liberia (NPFL) وكان الزعيم السياسى لتلك الجبهة ضابطا سابقا فى جـيش ليبيريا ويدعى برنس جونسون Prince Johnson الذى جند جماعات من الشـباب العاطل- من الفتية والفتيات ومعظمهم من اليتامى- وحولهم إلـى قـوة عسـكرية شديدة العنف. وبلغ عدد تلك القوة من "الأطفال" حوالى ١٠,٠٠٠ وكثيرا ما تناولوا المخدرات مثل الكوكايين وتم تدريبهم على الوسائل الإرهابية فى القتـل والسـحل وبتر الأعضاء والاغتصاب وإشعال الحرائق. وتحرك الثوار من قواعد فى شـمال غرب البلاد واستولوا على العاصمة مونروفيا Monrovia فى يولية ١٩٩٠. ولكن وصلت قوات جونسون إلى العاصمة قبل تيلور واستولت علـى معظـم المدينـة. وأرسلت المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيـا Economic Community of West Africa States (ECOWAS) قوات حفظ سلام من قوات من دول ناطقـة بالإنجليزية بقيادة نيجيريا. ولكن بعد أسابيع من وصول تلك القوات استطاع جونسون اختطاف رئيس الجمهورية دوو Doe ونقله إلى معسكره حيث صور عملية تعذيبـه وقتله على شريط فيديو. ولذلك أحاط العار تيلور من تصرف زميله فـى السـلاح، وفشل فى سعيه لرئاسة الجمهورية، ولكنه ظل يسيطر علـى منـاطق حيويـة فـى الداخل. وأنشأ هناك اقتصادا لأمير حرب واعتمد علـى اسـتخراج المـاس وقطـع الأشجار والمطاط وخام الحديد مما مكنه من الحصـول علـى ٢٠٠- ٣٠٠ مليـون دولار سنويا. وتمزقت ليبيريا خلال الأعوام الخمسة الرهيبة التاليـة إلـى أشـلاء. ودمرت قوات قوامها ٦٠,٠٠٠ من الأطفال فى الريف كله وطردوا مئات الآلاف من اللاجئين المذعورين إلى سيراليون،وغينيا وبوركينافاسو. وتورطت كل الفئـات فـى ليبيريا فى معاملات مالية مشبوهة ويشمل ذلك أعضاء من قوات حفظ السلام. ولكن تم تثبيت عمليات وقف إطلاق النار ونزع السلاح تدريجيا بواسطة قوات حفظ السلام الأفريقية بحيث أمكن عقد انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧. وحصـل شـارل تيلور على ثلاثة أرباع الأصوات وحصل على الرئاسـة بالوسـائل السـلمية بعـد

محاولاته السابقة فى الحصول عليها عنوة وفشلت كلها. ولكن من سوء حظ تلك البلاد المدمرة أنه سرعان ما نشبت حركة مقاومة لحكومة تيلور مما أدى إلى تجدد الحرب الأهلية. وعادت أجزاء كبيرة من ليبيريا فى أيدى الثوار عام ٢٠٠٣ وامتد العنف إلى ساحل العاج المجاورة والذى تعرض أيضا لنزاعات مماثلة.

وخلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية الليبيرية أيد رئيس سيراليون جوزيف مومو Joseph Momoh وخليفته فالنتين ستراسر Valentine Strasser – وكلاهما من العسكريين– مجهودات حفظ السلام الأفريقية من أجل الاحتفاظ بحكومة شرعية فى مونروفيا. ولذلك كان من مصلحة تايلور تشجيع قيام حركة ثورية مماثلة فى سيراليون بالإضافة إلى السيطرة على المناطق المنتجة للماس الأكثر إنتاجية من تلك الموجودة فى ليبيريا. وشجع قيام حركة ثورية فى سيراليون باسم الجبهة الثورية المتحدة United Revolutionary Front (RUF) ومولها بالسلاح وقام بتدريب أفرادها. وبدأت العمل داخل الأراضى الليبيرية بقيادة فوداى سنكو Foday Sanko وهو أحد العرفاء السابقين فى جيش سيراليون. وهاجمت تلك القوات سيراليون فى شهر مايو ١٩٩١ وازدادت أعدادها أثناء الزحف بتجنيدها للشباب والأطفال. واشترك هؤلاء من أجل القيام بأعمال إرهابية ضد السكان المحليين. وانتشرت أعمال بتر الأعضاء كرسالة موجهة لأعضاء الحكومة الشرعية فى مونروفيا (Monrovia). وسيطرت الحركة الثورية المتحدة على معظم مناجم الماس عام ١٩٩٤ وتم تصديره كخام عبر معسكرات تايلور فى العمق إلى ليبيريا ومنه بطريق الجو إلى المشترين ومعظمهم من إسرائيل. واستطاع سنكو بفضل الأرباح من تلك التجارة المربحة أن يمد عملياته الحربية إلى مشارف العاصمة مونروفيا. ولكن ومثلما حدث فى ليبيريا قبل ذلك تم إرسال قوة حفظ سلام أفريقية معظمها من نيجيريا وإن تكبدت خسائر فادحة. وأرسلت الأمم المتحدة قوات دولية التى لم تكن أكثر نجاحا. وهنا وجدت سيراليون نفسها على حافة الهاوية والانهيار التام. فأرسلت بريطانيا آنذاك ألف جندى من القوات الخاصة

للدفاع عن العاصمة بينما وقفت قوة بحرية بريطانية أمامها. واستطاعت قوات حفظ السلام الانتصار تدريجيا بفضل تلك المعاونة وبدأت الحكومة التى تؤيدها بريطانيا وتساعدها فى نزع سلاح الثوار. وتم القبض على سنكو وتمت محاكمتــه لقيامــه بجرائم حرب. وبدأ أن الحرب الأهلية قد انتهت فى بداية عام ٢٠٠٢. وتم تجنيــد معظم الجنود الثوار إلى سوق الجيش النظامى، وفى شهر مايو ٢٠٠٢ تــم إعــادة انتخاب الرئيس الشرعى أحمد كبيا Ahmad Ķabbah بأغلبية كبيرة من الأصوات، ولا يمكن تقدير أعداد الخسائر البشرية فى تلك الحرب ولكن يعتقد أنه فــى أشــد مراحلها هرب حوالى ثلث سكان البلاد إلى غينيا والبلاد المجاورة.

## شمال أفريقيا الإسلامية

نجحت دول المغرب فى شمال غرب أفريقيا بالإضافة إلــى ليبيــا ومصــر والسودان فى مواجهة طلبات التغيير السياسى والاجتماعى والإصلاح الاقتصــادى أكثر بكثير من الدول الأفريقية جنوب الصحراء خلال عقد التسعينيات من القــرن العشرين. وكونت العلاقات الدولية والاجتماعية لتلك الــبلاد الإســلامية الناطقــة بالعربية مجموعة تشمل الشرق الأوسط بالإضافة إلى المناطق الإســلامية جنــوب الصحراء. وتظهر قوة تلك العلاقات الاجتماعية والدينية فى الزيــادة الهائلــة فــى أعداد الحجاج المتوجهين إلى مكة والمدينة من جميع أنحاء العالم الإسلامى الممتــد من المغرب إلى إندونيسيا. وفى بداية القرن العشرين توجه حوالى ٧٠,٠٠٠ حــاج فى رحلة شاقة إلى المدن المقدسة كل عام ولكن توجه خــلال تســعينيات القــرن العشرين حوالى ١,٣ مليون حاج إلى المدن المقدسة فى المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى ١,٤ مليون من داخل المملكة ذاتها. أما فى مكة المكرمة فلقد عمــل مخطط المدن بجهد على إزالة آلاف المبانى القديمة من فوق جبل عمر لتحل محلها بنايات شاهقة من فنادق وشقق سكنية يبلغ ارتفاعها من عشرين إلى أربعين طابقــا

لاستضافة الحجاج الأغنياء، كما امتد صيام شهر رمضان ليشمل الشهرين السابق واللاحق أيضا. ولا شك أن القليل فقط من هؤلاء الحجاج سوف يعود إلى بلاده متأثرا بأفكار ثورية إلا أن معظمهم سوف يشعرون بروح أخوة الإسلام العالمية التى تدعمت لديهم بفضل تلك التجربة. ولكن مهما كان الأمر فقد تأثرت كل بلاد شمال أفريقيا بالإسلام الراديكالى كحركة سياسية ودينية على السواء. وكان ذلك تهديدا للملك الحسن الثانى فى المغرب، وللحكومة المستبدة فى تونس وللرئيس مبارك فى مصر وذلك فى صور متعددة. أما فى الجزائر فأدى ذلك إلى حرب أهلية دامية. كما أن الشباب المسلم المتطوع من بلاد شمال أفريقيا قد ساهم بقوة فى حركة الطالبان لمقاومة الاحتلال السوفيتى لأفغانستان فى ثمانينيات القرن التاسع عشر. ولكن وبعد الانسحاب السوفيتى لم تعد هناك حاجة إلى خدماتهم وعادوا إلى بلادهم خلال عقد التسعينيات ودعموا المهارات العسكرية للحركات الثورية فى كل تلك البلاد.

وكانت أسوأ حركة ثورية بين حكومة مستقرة والنمو الجديد للراديكالية الإسلامية فى الجزائر، حيث حاولت الحكومة منذ الثمانينات فى تحرير الاقتصاد الاشتراكى الذى أقامه بن بيلا وخلفاؤه خلال العقود الثلاثة السابقة (انظر الفصل ١٧). وتم إعلان الحرب على البيروقراطية لإصلاح الحياة البيروقراطية فى إحدى وأقوى وأغنى بيروقراطيات القارة الأفريقية كلها.

ولكن انزعجت القيادة القديمة تماما حينما انتصرت جبهة الإنقاذ الإسلامية Islamic Salvation Front (ISF) فى الجولة الأولى من الانتخابات العامة التى انعقدت عام ١٩٩١. وقام الجيش والقادة المدنيون القدامى بالسيطرة بسرعة على الموقف وإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات وحل حركة الإنقاذ رسميا وسجن الآلاف من أعضاء الهيئة فى معسكرات نائية فى الصحراء الجزائرية، كما تم وضع المساجد تحت الرقابة. وتصرفت الحكومة المكونة من صفوة من قادة الجيش وزعماء الجيش ورجال الأعمال من أجل الحفاظ على مواقعهم وليس من أجل

الاهتمام الحقيقى بالإصلاح على الإطلاق. وأدى ذلك إلى بدء فترة من الفوضى المتزايدة مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية فى نهاية الأمر والتى بلغ عدد ضحاياها فى نهاية التسعينيات أكثر من ٨٠,٠٠٠ من المدنيين الجزائريين. وأصبح عبد العزيز بوتفليقة رئيسا عام ١٩٩٠، واستمر فى ذلك المنصب بعد انتخابات عام ٢٠٠٢ الذى أدى إلى عودة الأغلبية البرلمانية لأبطال جبهة التحرير الوطنية الذين حاربوا فرنسا فى الخمسينيات. ولكن وعند بداية الألفية الجديدة فإن معظم الجزائريين قد ابتعدوا تماما عن الحياة السياسية المليئة بالمناورات فى بلادهم وقاطعوا الانتخابات. واشتد غضب البربر فى منطقة القبائل بالذات والذين يكونون حوالى ثلث السكان. وسرعان ما بدأوا حركة تطالب بحريات الأقلية للبربر، ثم تحولت تلك الحركة إلى ثورة عارمة. واستمرت حركة العنف الراديكالية الإسلامية بطريقة متقطعة، بل لقد تم تصدير بعضها إلى فرنسا وأماكن أخرى فى أوروبا. أما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فإن الرئيس بوتفليقة قد تمكن من إرسال قائمة للأمريكيين تحتوى على عدة أسماء من المتطرفين والذين تعتقد المخابرات الجزائرية أن لهم صلات بتنظيم القاعدة.

وبالرغم من كونها أقل عنفا إلا أن وضعا مشابها تقريبا قد ساد أيضا فى البعدين الآخرين فى المغرب العربى الكبير. واحتفظ الملك الحسن الثانى على سيطرته القوية على مسرح الأحداث السياسى خلال تسعينيات القرن التاسع عشر وحكم بلاده بواسطة بطانة صغيرة من المساعدين والمسئولين الإداريين المعروفين باسمهم القديم من عصر ما قبل الاستقلال "بالمخزن". وركز الملك على تنمية ثروته الخاصة الهائلة التى تشمل خمس الأراضى المزروعة فى المغرب والسيطرة على مناجم الفوسفات والممتلكات المصادرة المملوكة سابقا للمستوطنين الفرنسيين. واستندت سياسة الحسن الثانى على ضم الصحراء الغربية بمناجم الفوسفات الموجودة بها واحتمالات اكتشاف البترول فى عرض البحر (انظر فصل ١٧). وبعد انتخابات عام ١٩٩٨ فإن الحسن قد عين زعيم المعارضة الاشتراكية كرئيس

للوزراء. وخلفه ابنه محمد السادس عام ١٩٩٩ وينتمى إلى جيل أكثر اتصالا بالغرب وتم تربيته ليتلاءم مع عصر الكمبيوتر. وظهر كحاكم مسلم معاصر شعبى، يسافر دائما بالطائرات ووعد باشتراك ديمقراطى أكبر فى سياسات بلاده وحرية أكبر للصحافة. واستفادت المغرب مثل تونس من صناعة السياحة المزدهرة. ولكن ظلت جماعة المخزن فى مواقعهم وسيطروا على الحياة العامة عمليا. وأبلغت المخابرات المغربية عام ٢٠٠٢ عن خطط سيقوم بها أعضاء القاعدة لنسف السفن الحربية الأمريكية والبريطانية العابرة عبر مضيق جبل طارق. وظهر ذلك على أنه عملية صديقة للأمريكيين نظرا لمساعدتهم لموقف المغرب حول الصحراء المغربية طوال العقد المنصرم.

وفحصت مجموعة من الأطباء الرئيس الحبيب بورقيبة الذى كان يحكم منذ عام ١٩٥٦ وذلك فى عام ١٩٨٧ بناء على طلب من حكومته. وأبلغت تلك اللجنة أن الرئيس مريض ومتقدم فى السن للغاية لاستمراره فى الحكم. ولذلك حل محله رئيس الوزراء زين العابدين بن على الذى بدأ سياسة إصلاحات ديمقراطية وليبرالية. وطورت تونس صناعة السياحة لديها وتحولت بالتالى إلى إحدى أكثر البلاد الأفريقية رخاء. ولكن ازداد بن على ديكتاتورية على مر الأيام ومنع كل الأحزاب باستثناء بعض أحزاب المعارضة المستأنسة وقبض على أنصار حقوق الإنسان ونكل بأنصار التيار السلفى الإسلامى. وأقام استفتاء عام ٢٠٠٢ لتعديل الدستور لكى يحصل على اثنى عشر عاما أخرى من الحكم وعدم المساءلة القانونية لبقية العمر كله.

ولعبت مصر دورا أكبر بكثير من شقيقاتها العربيات على الساحة الدولية، إذ لم يقتصر دورها على القارة الأفريقية فقط. فلقد زاد عدد سكانها عن ٦٠ مليونا أى أكثر من أى بلد عربى آخر وما زالت القائدة فى الشئون الثقافية أيضا. وكان العالم العربى يحترم المملكة العربية السعودية لثرائها وقوتها العسكرية ونفوذها الدينى ولكنه يقرأ الجرائد والكتب المصرية ويستمع إلى إذاعاتها أيضا. وامتلكت مصر

طبقة متوسطة مثقفة أكبر من أى بلد عربى آخر ولذلك تميزت الحياة العامة فى مصر بالاعتدال فى الشئون السياسية والدينية. وبدأ الرئيس حسنى مبارك فترة حكمه الطويلة بعد اغتيال السادات على أيدى المتطرفين الإسلاميين عام ١٩٨١، ونادى بالتحرر السياسى والاقتصادى. ولكنه أمام صمود الجماعات المتطرفة مثل الجماعة الإسلامية لجأ إلى سياسة العصا الغليظة مثل الرؤساء السابقين. وازدادت أعمال عنف الجماعات الإرهابية ليس فقط ضد الدولة وأعداء الجماعات بل أيضا ضد السياح الأجانب مما أدى إلى مقتل ستين سائحا فى الأقصر عام ١٩٩٧. وانتصر الرئيس مبارك فى حربه ضد الإرهاب فى نهاية التسعينيات. كما أدت سياسة الحكومة الخاصة بتخصيص وتحديث الاقتصاد إلى ظهور طبقة جديدة من الفنيين المتخصصين ورجال الأعمال مما أدى إلى تغيير أحوال الطبقة الوسطى تغييرا جذريا فى عشرة أعوام فقط أكثر من الثلاثين عاما التالية لوفاة الرئيس عبد الناصر. ولكن اهتمت تلك الطبقة الجديدة المتدنية بمصالحها الاقتصادية والاجتماعية أساسا أكثر بكثير من اهتماماتها الأيديولوجية. وأدى هذا التغيير الكبير فى المجتمع المصرى إلى إبعاد المفاهيم السياسية عن الدين مما أدى إلى ظهور جيل جديد من الدعاة الدينيين الذين استخدموا وسائل البث التليفزيونى مثل المبشرين الأمريكيين تماما. وكان أهمهم عمرو خالد وهو أحد المحاسبين تحول إلى داعية تليفزيونى. وكانت رسالته معتدلة ومريحة ولم يهتم بالوعظ الجامد الجاف بل مال إلى المرونة والذكاء. فذكر مثلا أنه يجب ارتداء الحجاب ليس مخافة من عذاب النار بل لأن الله سوف يحبها أكثر إذا فعلت ذلك. وجذب خالد الآلاف من الأنصار ومعظمهم من النساء إلى جلساته الأسبوعية المذاعة فى إحدى القنوات الفضائية الإسلامية، ووجهت إلى جميع أنحاء العالم العربى مع ترجمة إنجليزية لها. ويكى المشاهدون تأثرا. ولكن أيضا ومع تنامى حدة الأزمات الدولية مع بزوغ الألفية الثالثة فإن تلك المظاهر المدنية للدين فقد بدت على أنها تعبير عن تهديد يتعرض له الإسلام من جانب القوى الغربية التى بدأت آنذاك فى الانتقام من

الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويضع السودان فى موقف حرج بين شمال أفريقيا الإسلامى والبلاد المسيحية والوثنية جنوب الصحراء الكبرى. واشتدت حدة الصراع بين الحكومة السودانية ومعارضيها فى نهاية القرن العشرين. ولكن كانت السودان قد شهدت قبل ذلك انقلابا عسكريا عام ١٩٨٩ بقيادة اللواء عمر البشير وأطاح بحكومة الصادق المهدى. ولكن سرعان ما ظهر أن القوة الحقيقية وراء الانقلاب هو حسن الترابى والجبهة الإسلامية الوطنية التابعة له. وبدأت آنذاك أسلمة المثقفين فى جهاز الدولة كله بالإضافة إلى الجهاز الاقتصادى للبلاد. ولذلك كانت السودان أول البلاد الأفريقية التى تعتنق نظاما إسلاميا متشددا مما أدى إلى تدهور علاقاتها بالدول الأفريقية غير الإسلامية والدول الأوروبية على السواء. وهرب أسامة بن لادن من مضايقات الحكومة السعودية، ولجأ إلى السودان عام ١٩٩١ وأصبح زعيما كبيرا لتنظيم إرهابى لدرجة طرده من السودان عام ١٩٩٥ ثم انتقل إلى أفغانستان. وساند السودان العراق فى حرب الخليج عام ١٩٩٢/١٩٩١، وحينما هاجم إرهابيون سفارتى الولايات المتحدة فى نيروبى ودار السلام عام ١٩٩٨ ردت أمريكا واتهمت السودان مما أدى إلى ضرب أحد مصانع الأدوية بالقرب من الخرطوم بصواريخ كروز. واستطاعت الجبهة الوطنية الإسلامية التابعة للترابى إقناع الحكومة بإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية عام ١٩٩١ وإن كانت العقوبات لن تطبق أبدا فى الولايات الجنوبية الثلاث. ولكن كانت النية واضحة.

واشتدت حدة الحرب الأهلية وازدادت عنفا وضراوة، كما ساد الانقسام بين الثوار بعد اكتشاف واستغلال البترول فى مناطق الحدود المتنازع عليها بين الشمال والجنوب فى ولاية بحر الغزال. وكان قد تأكد وجوده بكميات تجارية عام ١٩٨١ وإن أدت الاضطرابات إلى تأخير عملية الاستغلال الأمثل إلى نهاية التسعينيات. ورغب جيش تحرير شعب السودان وباقى الفئات المتحاربة فى الجنوب أن يشمل أى اتفاق مقبل للتقسيم آبار البترول ولكن أصرت حكومة السودان على وحدة

السودان كله. كما أدت عملية إنشاء خط أنابيب بترول إلى البحر الأحمر إلى زيادة المنازعات والخلافات. ولذلك لجأت حكومة السودان كعادتها إلى وسائلها الوحشية لإعادة سيطرتها على مناطق إنتاج البترول فسلحت قبائل البقارة وباقي الجماعات الرعوية وحرضتها على الهجوم على المزارعين المستقرين الآمنين. وانقسم جيش تحرير شعب السودان آنذاك إلى فئتين متنازعتين، وحاربت الفئة الأولى المكونة من قبائل الدنكا Denka الجنوبية الحكومة وكانت بقيادة جون جارانج من أجل الحصول على الاستقلال التام للجنوب. أما الفئة الأخرى فمن قبائل النوير بقيادة ريك ماشار Rich Mechar ودخلت فى مفاوضات مع الحكومة السودانية. وبدأ تدفق البترول عام ١٩٩٩ مما أدى إلى زيادة دخل الحكومة كثيرا فزاد الإنفاق العسكرى إلى أكثر من ضعفين. وبالرغم من سيطرة الحكومة السودانية على اقتصاد الجنوب إلا أن شركات البترول الأجنبية قد فضلت العمالة الجنوبية المتحدثة بالإنجليزية وليس بالعربية. ولذلك تكون الأوضاع فى بداية الألفية الجديدة قد وصلت إلى نتيجة أن السودان سوف يظل دولة واحدة وأن على حكومة الخرطوم أن تتخلى عن خططها فى أسلمة الجنوب وتعريبه، وأن تمنحه قدرا كبيرا من السيادة فى شئونه الداخلية.

وبدأت محاولات عقد اتفاقيات سلام وانتهت. ولكن يبدو أن الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى نيروبى عام ٢٠٠٢ سوف ينجح، وتكون الحرب الأهلية السودانية آنذاك قد استمرت أربعة عقود وكلفت الجنوبيين أعدادا هائلة من القتلى والجرحى بالإضافة إلى الفوضى العارمة فى نسيج الجنوب الاقتصادى والسياسى على السواء.

وظلت ليبيا تحت قيادة معمر القذافى أكثر الدول إثارة فى شمال أفريقيا خلال عقد التسعينيات. وكان القذافى قد وجه اهتمامه إلى النزاع العربى الإسرائيلى خلال عقد الثمانينيات وقبل المهاجرين الفلسطينيين إلى ليبيا، كما قدم المساعدات المادية والمعنوية للإرهاب المعادى للأمريكيين عبر العالم كله. ولكنه غير اتجاهه

بعد ذلك وحاول إقامة علاقات اقتصادية أوثق مع ايطاليا وأن يمد نفوذه السياسى إلى أفريقيا جنوب الصحراء. ولم تمنع عقوبات الحظر الاقتصادى التى فرضتها الأمم المتحدة على الشركات الأجنبية العاملة فى ليبيا من أن تقوم مجموعة الطاقة الإيطالية العملاقة أجيب AGIP من توقيع عقد استيراد ٨ بلايين متر مكعب من الغاز الطبيعى. ويشمل ذلك أيضا بناء خط أنابيب بترول تحت مياه البحر المتوسط بين البلدين. أما فى عام ١٩٩٩ فلقد اشترت ليبيا ٨ % من أسهم رأسمال بنك روما Banco di Roma الذى أعيد هيكلته آنذاك. أما التدخل الليبى جنوب الصحراء فكان قد بدأ بتأييد القذافى لعيدى أمين Idi Amin فى أوغندا (انظر فصل ٢١) كما ساند شمال تشاد الإسلامى فى نزاعه ضد حكومة الجنوب المسيحية والوثنية. كما قام القذافى فى بداية التسعينات بإمداد أمراء الحرب فى ليبيريا وسيراليون بالسلاح. ثم امتد نشاطه أكثر ناحية الجنوب فى نهاية التسعينيات. وبدأت شركة تامويل Tamoil الحكومية الليبية بإمداد زيمبابوى المفلسة تقريبا بالبترول عام ١٩٩٨ وحصلت ليبيا آنذاك على أسهم فى شركة خط أنابيب البترول التى تربط زيمبابوى بميناء بيرا Beira فى موزمبيق. وتم تحويل ملكية أصول أخرى إلى تامويل الليبية ويشمل ذلك السيطرة على بنوك وشركات سياحة فى زيمبابوى.

وسرعان ما امتدت اهتمامات القذافى إلى جنوب أفريقيا ذاتها. وقام نلسون *مانديلا عام ١٩٩٩ بالتوسط بين الأمم المتحدة وليبيا بحل مشكلة حظر التجارة* الذى فرضته تلك الهيئة الدولية. وتمت مكافأته بدعوة شركات جنوب أفريقيا للبدء فى التنقيب على البترول واكتشاف حقول جديدة فى ليبيا. ثم طالب القذافى خلال اجتماع منظمة الوحدة الأفريقية فى يوليو ١٩٩٩ بالإسراع فى خطوات الوحدة الأفريقية. وطالب بعد شهرين بتنفيذ مشروعه المفضل وهو إنشاء الولايات المتحدة الأفريقية. ورفض ضيوفه ذلك الأمر فى البداية ولكنهم أصدروا إعلانا يطالب بإنشاء منظمة أفريقية جديدة باسم الاتحاد الأفريقى بدلا من منظمة الوحدة الأفريقية السابقة، كما يقوم برلمان أفريقى مشترك بحكم الاتحاد الأفريقى الجديد. ورغب

القذافى أن تكون طرابلس عاصمة الاتحاد ولكن فضلت الأغلبية أن تكـون أمانـة المنظمة الجديدة فى جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا.

## الطريق الوعر للديمقراطية البرلمانية

### ١- غرب أفريقيا

وباستثناء الصراعات فى ليبيريـا وسـيراليون فـإن دول غـرب أفريقيـا الاستوائية قد خرجت من عقد التسعينيات أقوى وأكثر ديمقراطية عما كانت عليـه فى بداية العقد. واستجابت النخب السياسية والعسكرية الصغيرة التى تولت مقاليـد الحكم منذ عصر الاستقلال لدعاوى الإصلاح الداخلية والخارجية. وتـوفى معظـم زعماء الاستقلال وأنصارهم أو تقاعدوا عن العمل العام تماما. وظهر جيل جديـد من الناخبين الأكثر ثقافة وتعليما عن الجيل السابق ويعيش نصفهم الآن فـى مـدن كبيرة تشمل سكانا من أعراق مختلفة. وتعلم الجيل الجديد أن يفكر على المسـتوى الإقليمى إن لم يكن الوطنى وأعطى صوته طبقا لـذلك. واقتصـر التعيـين فـى الوظائف السياسية على فترات محددة بحيث يمكن تغييرها دون الحاجة إلى تـدخل عسكرى. وحدثت أهم تلك التغيرات فى نهاية العقد فقط، أى بعد أربعين عاما مـن الحصول على الاستقلال السياسى.

ولذلك كانت السنغال الدولة الوحيدة فى غرب أفريقيا التى تمتعت بتغيـرين سلميين فى الرئاسة. فلقد تخلى ليدبولد سنجور طواعية عن رئاسته وتوجه للحيـاة فى قصر فى نورماندى فى فرنسا عام ١٩٨٠. وهزم خليفته عبده ضـيوف فـى انتخابات برلمانية عام ٢٠٠٠ حينما انتصر عبـدولاى وادى Abdoalaye Wade وأنهى احتكار الحزب الاشتراكى الديمقراطى الطويل للسلطة. وتمـت انتخابـات أخرى عام ٢٠٠١ وأدت إلى تغيير الحزب الحـاكم كلـه. وحـدث تنـاوب بـين الحكومات المدنية والعسكرية فى غانا، ثم تلا ذلك الحكم الرئاسى الطويل لجيـرى

رولنج الذى بدأ بانقلاب عسكرى عام ١٩٨٠ ولكنه انتهى عام ٢٠٠٢ بعد هزيمته على أيدى جون كوتور John Kutuor والحزب الوطنى الجديد التابع له، وذلك بعد العديد من الانتخابات التى فاز بها فى الماضى.

وحكم رئيس جمهورية ساحل العاج فيكلس هوفويه بونيه Felix Houphouet - Boigny البلاد إلى وفاته عام ١٩٩٣ دون منازع. وبدأت الانتخابات المتعددة الأحزاب منذ عام ١٩٩٠ بعد ضغوط دولية عديدة. وخلف هوفويه رئيس الجمعية الوطنية طبقا للدستور وهو هنرى بيديه Henri Bedi الذى تدعمت رئاسته فى الانتخابات البرلمانية التالية عام ١٩٩٥، وذلك بعد منع أى مرشح غير مولود فى ساحل العاج من دخول الانتخابات. وكان السبب وراء ذلك أن مزارعى الكاكاو فى الجنوب قد استعانوا بموظفين وعمال من الدول المجاورة وبالذات من بوركينافاسو وغانا وحتى مالى. وكان معظمهم من المسلمين الذين يمكنهم مساندة مسلمى الشمال فى الأمور السياسية والانتخابية. وتمت إزاحة بيديه Bedi عن الحكم بانقلاب عسكرى بقيادة الجنرال جويى Juei عام ١٩٩٩. ولكن اضطر الأخير وبعد ضغوط دولية عديدة إلى إجراء انتخابات عامة عام ٢٠٠٠ أدت إلى انتصار لوران جباكبو (Laurent Jbakbo) قائد الجبهة الشعبية الأيثورية. وأصبح لوران أول رئيس للبلاد فى أول عملية نقل سلطة ديمقراطية بها. ولكن أدت المناورات السياسية لبيديه وخلفائه إلى إثارة غضب وحنق منطقة الشمال الأكثر فقرا، مما أدى إلى قيام المسلمين الشماليين وأنصارهم المهاجرين بثورة عارمة عام ٢٠٠٢. وتدخلت القوات الفرنسية لمنع تدهور الأحوال مثل ما حدث ليبيريا وسيراليون كما حاولت الحكومة الفرنسية عقد معاهدة صلح بين الأطراف المتحاربة وإن كنا لا نعرف ذلك وقت الكتابة. ولكن من الواضح تماما أن اندلاع العنف يثير مخاطر الحروب الدينية ليس فقط فى ساحل العاج بل أيضا فى البلاد المجاورة المشتركة كلها فى خاصية وجود المسلمين فى الشمال والمسيحيين فى الجنوب، أما فى بنين فإن حكومة ماثيو كريكو التى تولت السلطة فى انقلاب

عسكرى عام ١٩٧٢ قد هزمت فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠١ لصالح نيسفور سوغلو Nicephore Soglu. وكان سوغلو مديرا تنفيذيا فى البنـك الـدولى ممـا أعطاه الخبرة الكافية لإزالة الجهاز الإدارى البيروقراطى للدولة الماركسية السابقة. وتحولت بنين إلى دولة ديمقراطية كاملة لدرجة أنه قد أعيد انتخاب الرئيس الأسبق كيريكو Kereku فى انتخابات عام ١٩٩٦ بينما أصبح منافسـه سـوغلو رئيسـا للوزراء.

وكانت نيجيريا طبقا لمساحتها الجغرافية وتنوع مواردها الطبيعيـة وعـدد سكانها البالغ ١٢٠ مليون نسمة أهم دولة فى غرب أفريقيا على الإطـلاق. ولكـن أدت تلك الأحوال ذاتها إلى خضوعها للحكم العسكرى أكثر من أى بلد آخر. وكون الرئيس بابا نجيدا Babangida الذى تولى الحكم فى نيجيريـا عـام ١٩٨٥ مـن الحكومة العسكرية السابقة غير المحبوبة على الإطـلاق لجنـة انتخابيـة قوميـة للإشراف على الانتقال إلى الحكم المدنى عام ١٩٩٥. ولكن ألغت الحكومة نتـائج العديد من الانتخابات قبل أن ينتصر الرئيس أو الزعيم مسعود أبيـولا Moshood Abiola من الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى الانتخابات الرئاسـية فـى يونيـة ١٩٩٣ بأغلبية أصوات الولايات. ورفضت الحكومة العسكرية قبول انتصار أبيولا. ولكن أقصى بابا نجيدا عن الحكم فى نهاية الأمر بعـد سلسـلة مـن المظـاهرات والاضطرابات، وتم تعيين أحد المدنيين غير المنتخبين. وعاد أبيولا من زيارة إلى بريطانيا واستقبل استقبال الأبطال وقام وزير دفاع بابا نجيدا الجنرال سانى أباشـا Sani Abacha بانقلاب عسكرى سلمى وأعاد الحكم العسكرى. ثم أصدر الـرئيس بيانات عديدة حول الانتقال إلى الحكم المدنى بعد أن واجـه تهديـدات بانقلابـات أخرى وفوضى اقتصادية عارمة بسبب إضرابات عمال صناعة البترول. ولـذلك أحكمت الحكومة قبضتها على السلطة. وتم القبض علـى الـرئيس القـادم أبيـولا ووضع فى الحبس الانفرادى إلى وفاته بعد أربعة أعوام. وشهد العام نفسه زيـادة حدة الحملة الشعواء لشعب الأوجونى Ogoni المطالب بالتعويض من شركة شـل

للبترول للأضرار البيئية التى سببتها لوطنه. ووصل العنف فى بلاد الأوجونى إلى ذروته فى شهر مايو ١٩٩٤ حينما قامت قوة الأمن الداخلى الحكومية بالقبض على كن سارو- ويرو Ken Saro- Wiro ورفاقه. وتمت محاكمة سارو- ويرو وخمسة من رفاقه فى النضال بواسطة محكمة عسكرية، وصدر الحكم عليهم وأعدموا فى نوفمبر ١٩٩٥، مما أدى إلى إيقاف عضوية نيجيريا فى منظمة الكومونولث. وبعد قضائه على كل أنواع المعارضة لحكمه عمل أباشا على نهب الدخل العام للبلاد وبالذات الدخل الوارد من إيرادات البترول بالعملة الصعبة. وتوفى أباشا بطريقة غامضة فى يونيو عام ١٩٩٨، ووجدت التحقيقات اللاحقة أنه قد أودع مع عائلته أكثر من ثلاثة بلايين دولار فى حسابات بنكية فى الخارج.

وبعد فترة بسيطة من الإدارة المؤقتة بواسطة الجيش تم الإعلان عن العودة إلى الحكم المدنى، وفاز أوليسجون أوباسنجو Olesegon Obasango وهو أحد الجنرالات المتقاعدين بالانتخابات. وكان أوباسنجو الحاكم العسكرى للبلاد- بالرغم منه- من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٩ قبل عودة البلاد إلى الحكم المدنى الذى لم يستمر كثيرا. وكان أوباسنجو من شعب اليوروبا Yoruba ومسيحيا، ولذلك واجه مشكلة معقدة وهى فرض سلطته على الأغلبية المسلمة فى الشمال الفقير. وأعلنت ولايات زمفارا Zamfara ثم النيجر وبورنو Borno فى نهاية عام ١٩٩٩، ثم تلتها ولاية كانو Kano الكبيرة المتعددة الأعراق نيتها ورغبتها فى تطبيق الشريعة الإسلامية وعقوباتها التى تصل إلى بتر الأعضاء والجلد (انظر خريطة ٢٨). وتصرف السياسيون المحليون كذلك نظرا لعدم وجود أية برامج اقتصادية واجتماعية واستخدموا الشريعة كوسيلة سهلة لكسب تأييد السكان الذين عانوا من أعوام طويلة من الإحباط والفساد، وأكثر من أى شىء آخر فقدان الأمل فى الحياة. ولذلك وفى العام الأول من الألفية الجديدة طبقت إحدى عشرة ولاية من الولايات النيجيرية الستة والثلاثين الشريعة الإسلامية. وذكر الزعماء الإسلاميون أن تطبيق الشريعة لن يؤثر على غير المسلمين، ولكن أدى ذلك إلى منع الخمور ودور العرض

السينمائية والجمع بين الجنسين فى معظم مجالات الحياة، مما أثر بالتأكيد على الجميع. ولذلك نشبت أعمال الشغب بسبب الكراهية الدينية فى الشمال والجنوب بالإضافة إلى العنف المتزايد المصاحب لاستغلال البترول فى الجنوب الشرقى قد أدت كلها إلى إضعاف حكم أوباسنجو. ولكن ذكر تقرير إحدى المنظمات الاقتصادية الدولية أن الوضع الاقتصادى لعام ٢٠٠٢/٢٠٠١ قد كان إيجابيا إلى حد ما نظرا لإعادة حكم القانون، وأن المحاكم تطبق حقوق الإنسان الأساسية ويشمل ذلك حرية التعبير والمشاركة، وأن وسائل الإعلام المستقلة قد استعادت حريتها ونشاطها وحيويتها. ولكن ضعف هذا التقدير المتفائل بانخفاض دخل الفرد فى البلاد من ١٦٠٠ دولار سنويا عام ١٩٨٠ (عام "الميزانية الضخمة" للرئيس شاجارى Shagari إلى ٢٧٠ دولار فقط عام ٢٠٠٠، مما أنزل نيجيريا إلى مرتبة دولة من أفقر ٢٠ دولة في العالم. وعقدت انتخابات تشريعية ورئاسية فى شهر أبريل ٢٠٠٣ والتى إذا ما وصلت إلى نتيجة دستورية ملائمة فإنها ستكون لأول مرة منذ استقلال البلاد عام ١٩٦٠ أن تنتقل السلطة من إدارة مدنية لأخرى بسلام دون تدخل الجيش. وكان الأخير قد حكم البلاد لمدة ثلاثين عاما من الثلاثة وأربعين عاما كدولة ذات سيادة. وأعيد انتخاب أوباسنجو وإن كان ذلك فى انتخابات مشكوك بها.

## ٢- شرق وجنوب شرق أفريقيا

وعاشت بلاد شرق وجنوب أفريقيا خلال عقد التسعينيات بدون اضطرابات خطيرة باستثناء حالة أو حالتين. وفى أوغندا سادت فترة طويلة من الرعب بواسطة طغاة فاسدين من منطقة الشمال الأقل تطورا من أيام ملتون أوبوتى Melton Obota عام ١٩٦٦ واستمرت فى عهد عيدى أمين من ١٩٧١ إلى ١٩٧٩، وعادت من جديد أثناء عصر الحكم الثانى لأوبوتى فيما بين ١٩٨٠

و١٩٨٥. ولكن حلت محلها حكومة يويرى موسيفينى Yoweri Musveni وحركة المقاومة القومية المناسبة له وهى أفضل بكثير عن نظام الحكم السـابق. وتخلـت حركة المقاومة القومية National Resistance Movement تدريجيا عن صيغتها العسكرية، وأبدت اهتماما بحقوق الإنسان وحكم القانون وإن اسـتمرت فـى منـع تكوين الأحزاب المنافسة. ولكن عقدت انتخابات عـام ١٩٩٥ بالانتخـاب العـام المباشر لإنشاء مجلس تشريعى الذى يكون أعضاؤه من الأفراد وليسوا من أعضاء الحزب ولكن مع إمكانية اشتراك رؤساء الأحزاب فى الانتخابات. وأدى ذلك إلـى إجراء انتخابات رئاسية عام ٢٠٠١ وفاز موسيفينى ولكن مع وجـود فتـرة حكـم أنقى: فترتان كلاهما خمسة أعوام. واستمر الجيش دائما فى حالـة نشـاط لـردع أعمال التوغل داخل الحدود التى تثيرها الحكومة السودانية فـى شـمال أوغنـدا، وأيضا توغل قوات أوغندا ذاتها فى شرق الكونغو. وأيدت حكومة الخرطوم جيش مقاومة محددة(Lord's Resistance Army (LRS والمكون مـن محـاربين مـن الأطفال الذين تدرب معظمهم فى معسكرات داخل الحدود السودانية. وكان زعـيم تلك الحركة هو جوزيف كونى Joseph Kuny أحد الشباب الكنسـيين الكاثوليـك سابقا والذى أدعى أن الرب قد اختاره للقضاء على الحكومة "الشـيطانية" ليـويرى موسفينى وإحلال الوصايا العشر كدستور للبلاد. وبدأ كونى عصر إرهـاب فـى أجزاء من شمال أوغندا عام ١٩٩٤، واستمر ذلك فترة من الزمن، ولكـن عـادت الحياة السياسية تدريجيا لمعظم أوغندا واستعادت البلاد عافيتها من الدمار والتدمير من أعوام حكم أمين وأبوتى. وكانت أوغندا، حالة استثنائية فـى أفريقيـا جنـوب الصحراء إذ استطاعت تخفيض نسبة الإصابة بالإيدز إلى ٢%.

واستمرت الأحزاب المسيطرة على الحكم منذ بداية عقد الستينيات فى حكـم كينيا وتانزانيا ولكن بنتائج مختلفة تماما. وكان الحزب القومى الأفريقـى الكينـى Kenya Africa National Union (KANU) حزب الصفوة الحضرية المكونة من محامين وكبار موظفى الدولة وضباط الجيش والشرطة ورجـال الأعمـال الـذين

أثروا جميعا كملاك وزعماء لطبقة متوسطة من الحرفيين والتجار والقائمين بأعمال النقل المقيمين فى نيروبى وممباسا وكيسومو Kisumu وذلك فى عصر الحكم الطويل للرئيس دانيل أراب موى Daniel Arap Moi وقبله جومو كينياتا Jomo Kenyata. وكانت صفوة منتجة وحيوية وإن شابها الفساد وعدم الرغبة فى النقد وبالذات فى أوقات الانتخابات. وحينما انسحب موى من الرئاسة بعد أربعة وعشرين عاما هزم حزب كانو فى الانتخابات العامة بواسطة حزب جديد يدعى تحالف قوس قزح القومى National Rainbow Coaltion الذى كونه نائب الرئيس مواى كيباكى Mwai Kibaki البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما. وتولى كيباكى الرئاسة بدلا من مرشح قوى لهذا المنصب. واستمرت تانزانيا طوال عقد التسعينيات فى التخلى تدريجيا عن السياسات الداعية للمساواة التى طبقها جوليوس نيريرى قبل اعتزاله الرئاسة. وكانت تلك السياسات كارثة اقتصادية وإن كانت صالحة أخلاقيا. ولذلك قبل خليفته على حسن موميني Ali Hassan Muminyi بسرعة نصائح صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وقام بتعويم العملة ومركزية الإشراف الحكومى وخصخص العديد من المؤسسات العامة. ودخل مفهوم تعدد الأحزاب إلى الحياة عام ١٩٩١، وإن لم يطبق عمليا إلا عام ١٩٩٥، حينما تم انتخاب رئيس الحزب الواحد السابق بن ماكبا Ben Makapa رئيسا للجمهورية بأغلبية قليلة وظلت تانزانيا دولة فقيرة للغاية فخورة بنفسها وبإحساس قوى بكيانها وشخصيتها القومية. وتدعم ذلك باستمرار فاعلية وانتشار لغة الكيسواهيلى كلغة أفريقية مشتركة والتى يتم تعليمها فى المدارس ويتكلمها معظم السكان.

أما فى وسط وجنوب أفريقيا فإن عقد التسعينيات قد شاهد انتهاء عصر رئاستين استمرتا منذ عصر الاستقلال عام ١٩٦٤. وهزم حزب كينيث كاوندا وهو حزب الإتحاد القومى فى انتخابات عام ١٩٩١. وانتصرت الحركة الديمقراطية المتعددة الأحزاب، وهو تحالف بين حوالى ثلاثين حزبا صغيرا قام بجمع عملهم فريدريك شيلوبا Frederich Cheluba وهو أحد زعماء نقابات العمال فى منطقة

حزام النحاس. وغير شيلوبا نظام الحكم كله وأحل محله الديمقراطية البرلمانية بدلا من حكم كاوندا الاستبدادى. وبدأ فعلا فى مواجهة المشكلة الاقتصادية الرئيسية فى البلاد وهى انهيار أسعار النحاس إلى النصف مما أدى إلى انهيار قيمة صادرات زامبيا إلى النصف أيضا. واستمر شيلوبا فى سياسة التطهير والتخصيص واستطاع فعلا موازنة الميزانية وإن أدى ذلك إلى ضعف شعبيته بطريقة هائلة مما أدى إلى انهيار تحالفه الحاكم فى نهاية الأمر. وانتصر أحد أنصاره وهو ليفى مواناواسا Levy Mwanawasa فى انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠١ وبدأ إجراءات محاكمة شيلوبا بتهم الفساد مثلما فعل الأخير قبل ذلك مع كاوندا فى الماضى. أما مالاوى فلقد تحولت إلى دولة بوليسية بائسة فى أواخر حكم هاستنج، ولكن تم إرغام الطاغية العجوز على التقاعد عام ١٩٩٤ بعد أن قبل رغما عنه مبدأ الانتخابات المتعددة الأحزاب فى العام السابق. وأعادت انتخابات عام ١٩٩٤ الجبهة الديمقراطية المتحدة إلى الحكم برئاسة باليكى مولوزى Baliki Muluzi أحد وزراء باندا السابقين والذى تولى رئاسة الجمهورية.

وكانت الدولة الناجحة دون شك هى موزمبيق التى دخلت عقد التسعينيات كمنطقة كوارث حربية. وقاتلت حكومة الفرملينو Fremlino الماركسية بقيادة جوزيف شيسانو Joseph Chissano ضد مقاومة مسلحة متعددة الأعراق (المعروفة باسمها المختصر Renamo) المسلحة والمدعمة من شرطة جنوب أفريقيا السرية إلى أن تولت حكومة حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى زمام السلطة هناك عام ١٩٩٤. وساد الخراب فى موزمبيق لدرجة أن ١,٥ مليونا من اللاجئين قد هربوا إلى مالاوى وزامبيا وزيمباوى من عدد السكان الكلى البالغ ١٦ مليونا. كما غادر ثلاثة ملايين آخرين ديارهم للإقامة فى الأحياء الآمنة للمدن الساحلية فى مابوتو وببيرا ونوفا سوفالا (Nova Sofala). وقامت الحكومة الإيطالية بعدة محاولات فاشلة بعقد اتفاق سلام بين الأطراف المتحاربة فى روما عام ١٩٩٢. وعقدت انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة عام ١٩٩٤ وبالرغم من موافقة

رينامو على انتصار فرملينو فإن السلام الهش قد استمر وازدهر. وكان لشيسانو علاقات مميزة مع نلسون مانديلا وثابو مبيكى Thabo Mbeki فى جنوب أفريقيا المجاورة. وانضم إلى منظمة الكومونولث البريطانية عام ١٩٩٥ بناء على اقتراحها. واستعادت موزمبيق عافيتها الاقتصادية كثيرا خلال الأعوام القليلة التالية من ويلات الحرب الأهلية. وظهرت حتى هجرة الناس من الريف إلى المدن كعامل إيجابى إذ تمت زراعة الأراضى الزراعية الخالية بالأساليب الزراعية الحديثة. وكون سكان المدن الجدد قوة عمل ملائمة للصناعات الجديدة التى أقامتها شركات استثمارية أجنبية فى بلد مستقر. وكان يمكن لتلك الصناعة الجديدة الاستفادة بطريقة أكثر ملاءمة إذا ما استطاعت موزمبيق الاستفادة من الطاقة الكهربائية لسد كابور باسا الهائل (انظر فصل ١٩). ولكن وبناء على اتفاق تم توقيعه عام ١٩٨٤ بين البرتغال وجنوب أفريقيا وموزمبيق فإن الشركة مرغمة على بيع إنتاجها من الطاقة إلى جنوب أفريقيا بأسعار منخفضة للغاية إلى عام ٢٠٣٠. ثم تعيد موزمبيق شراء طاقاتها الخاصة من جنوب أفريقيا بعشرة أضعاف السعر.

## ٣-جنوب أفريقيا

وازداد العنف المدنى فى أفريقيا فى جنوب نهر الزامبيزى فى زيمبابوى حيث استمر حكم روبرت موجابى منذ عام ١٩٨٠. وازدادت دكتاتورية حكمه خلال التسعينيات، واستعان بكل وسائل الحكم البوليسى ومنها على سبيل المثال لا الحصر: إساءة استخدام الشرطة، التدخل فى أعمال السلطة القضائية، كبت حرية الصحافة وطرد الصحفيين الأجانب. وكان الموضوع الرئيسى هو ملكية الأرض الزراعية فى البلاد؛ إذ تمتلك حفنة من المزارعين البيض نصف أراضى البلاد وأكثرها خصوبة، واستخدمت تلك الأراضى لزراعة المحاصيل النقدية وبالذات الشعير والطباق. أما قوة العمل الزراعية فلقد تكونت أساسا من مهاجرين من

موزمبيق المجاورة، إذ أن سكان زيمبابوى الريفيين قد هجروا أراضيهم الزراعية الفقيرة من فترة طويلة للعمل فى المناجم والصناعة والنقل والخدمات السياحية فى اقتصاد حضرى منوع للغاية. ورغب موجابى فى استخدام مزارع المزارعين البيض كمكافأة لأنصاره السياسين ولذلك صرح منذ بداية عام ١٩٩٧ لجماعات من الأوغاد واللصوص أن يهاجموا تلك المزارع والاستيلاء عليها عنوة. وآلت تلك المزارع بعد ذلك إلى أعضاء شباب عاطلين من حزب زانو الحاكم والذين ليس لديهم أدنى دراية بأعمال الزراعة الاقتصادية، كما لا يمتلكون أبدا رأسمال لتشغيل المزارع بكفاءة واقتدار. وكانت النتيجة كارثة؛ إذ انتشرت الأزمات الغذائية وزاد معدل التضخم نتيجة للاستيلاء على أراضى البيض بالذات. وعانى سكان المدن كثيرا مما أدى إلى زيادة المعارضة السياسية بينهم والتفافهم حول حركة التغيير الديمقراطى Movement In Democratic Change بقيادة مورجان تسافنجرى Morgan Tsvangirai. وشوهت انتخابات عام ٢٠٠٠ كثيرا نظرا لزيادة "عنف والتهديد الحكوميين، كما تكرر ذلك فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٢ حيث عاد روبرت موجابى رئيسا للمرة الخامسة.

وأدى تدهور الأوضاع الخطير فى زيمبابوى إلى ردود فعل فى جنوب أفريقيا المجاورة؛ حيث تعرض اقتصاد أكبر وأقوى بكثير إلى أخطاء محتملة ناشئة من التفاوت الهائل فى تقسيم الثروة حيث يسيطر المزارعون البيض على ٨٧ % من الأراضى الزراعية. وأظهرت حكومة المؤتمر القومى الأفريقى لجنوب أفريقيا اعتدالا كبيرا فى برنامج التطور وإعادة البناء الذى بدأ عام ١٩٩٤ والذى قرر إعادة ٣٠% فقط من الأراضى الزراعية إلى الملكية الأفريقية خلال خمسة أعوام. ووصلت نسبة سكان المدن فى ذلك التاريخ إلى ٧٠ % من السكان، ولذلك ربما كان ذلك هدفا موضوعيا على أساس التعويض العادل للملاك السابقين. ولكن بقى الخطر أن يتولى الفقراء المعدومون القانون بأيدهم، وتتطور الأمور إلى الأسوأ مثلما حدث فى زيمبابوى المجاورة. ويمكن أن يتأثر الاستثمار الخارجى القادم من

العالم المتقدم ويهرب المستثمرون من المخاطر المختلفة، مع العلم أن تجارة جنوب أفريقيا الخارجية هى مع أكثر بلاد العالم نموا وتطورا. وغضب العالم الخارجى من الرئيس مبيكى الذى تولى السلطة بعد نلسون مانديلا فى يونيه ١٩٩٩ لعدم إدانته لموجابى. ولكن كان ذلك نصف الصورة فقط أما النصف الآخر فيتعلق بسياسة مبيكى القائلة بأن على أفريقيا أن تحل مشاكلها بنفسها. وبلغ عدد سكان جنوب أفريقيا ٤٣ مليونا والدخل السنوى للفرد ٢٦٥٠ دولارا، كما امتاز جيشها وبحريتها وسلاحها الجوى بالكفاءة وحسن التدريب وتدعمهم صناعة وطنية قادرة قوية. ولذلك تمتعت جنوب أفريقيا بموقع الصدارة فى القارة مع ليبيا ونيجيريا. وعملت بهمة ونشاط لعقد السلام بين جمهورية الكونغو الديمقراطية الشعبية وجميعها من زيمبابوى ورواندا وأوغندا. وأصبحت أيضا العضو الرئيسى فى مجموعة تطور وتنمية أفريقيا الجنوبية والمحرك الرئيسي للشراكة الجديدة فى التطور الأفريقى. كما أصبحت مقرا للاتحاد الأفريقى الجديد ولا يمكنها بالتالى نقد أى عضو من أعضائه علنا.

# الخاتمة

لقد قمنا باستعراض أحداث منطقة بعد أخرى خلال عقد التسعينيات. ولذلك يمكن أن ننهى موضوعنا بعرض عام للعوامل الرئيسية الخاصة بالقارة الأفريقية ككل مثلما تظهر واضحة جلية فى نهاية هذا العقد. وفى البداية وبالرغم من أعداد الوفيات الكبيرة من وباء الإيدز وباقى الأمراض القاتلة فإن معدل زيادة سكان القارة الأفريقية قد بلغ ٢,٤ % سنويا. وبلغت نسبة سكان أفريقيا من سكان العالم عام ١٩٠٠ حوالى ٤,٥ بالمائة فقط، وارتفعت تلك النسبة عام ٢٠٠٠ إلى ١٠٠% من إجمالى عدد سكان العالم البالغ ستة بلايين نسمة. وأصبح سكان القارة من أفقر الناس فى العالم. فلقد بلغ دخل الفرد فى الولايات المتحدة ٣٤,١٠٠ دولار سنويا، ودخل الفرد فى المملكة المتحدة ٢٤,٤٣٠ دولار، أما فى "أغنى" الدول الأفريقية وهى ليبيا فنظرا لثروتها البترولية وعدد سكانها القليل حوالى ٧٦٤٠ دولار، سنويا فقط بينما بلغ الدخل السنوى فى جنوب أفريقيا ٢٦٢٠ دولارا ومصر ١٤٩٠ دولارا فقط لا غير. ولكن من ناحية أخرى فإن تسعة من عشرة فى أكثر الدول الأفريقية فقرا يعيشون على أقل من دولارين فى اليوم بينما يكافح ثلثى السكان للبقاء على قيد الحياة بأقل من دولار واحد يوميا.

وغير عامل نزوح السكان إلى المدن خلال عقد التسعينات نظام الحكم والمجتمع كله فى معظم البلاد الأفريقية. ويمكن أن تبدو أفقر الأحياء فى المدن الأفريقية بائسة للغاية للمسافر العابر إلا أن سكانها يرونها أفضل بكثير من المناطق الريفية التى لا يوجد بها كهرباء أصلا ولا مياه صالحة للشرب أو صرف صحى، وحيث تتم الحياة أثناء النهار فقط وينتهى كل شىء بحلول الليل. ويمكن أن تبدأ ضواحى المدن الأفريقية كمساكن من صفيح شيدها سكانها بأيديهم، ولكن سرعان ما ستكتشف السلطات البلدية أنه يجب إضاءتها، ومدها بالمياه والصرف

الصحى ثم رصفها وتنظيمها وربطها بالطرق لصالح سكان المدن الأغنياء أساسا. ثم سرعان أيضا ما ستقوم الدولة ببناء المدارس والمستشفيات فى تلك الضواحى الجديدة. ولكن المشكلة أنه ما تكاد الدولة تقوم بإصلاح ضاحية عشوائية حتى تكون ضاحيتان أو ثلاث قد نمت بجوارها. ولذلك فإن زيادة عدد سكان المدن رهيبة فعلا، إذ توجد الآن عشرون مدينة يزيد سكانها عن المليون نسمة. وأصبحت لاجوس أكبر مدن القارة الأفريقية بأكثر من ١٠ ملايين نسمة وازداد عدد سكانها عن القاهرة ذات الـ ٩,٦ مليون. أما الثالثة فهى كينساشا بـ ٤,٦ مليون نسمة. ويتضاعف عدد سكان العالم فى القارة فى معظم الدول الأفريقية كل ٢٠ عاما بينما يتضاعف سكان المدن كل عشرة أعوام فقط. وكان السبب أن المدن تحظى بالرعاية والأولوية المطلقة من جانب الدولة لكل الخدمات الحكومية وإلا لقامت أعمال شغب وجرائم عنف بالإضافة إلى انتشار الأمراض والأوبئة. وبعكس المفهوم السائد فإن معظم النازحين إلى المدن لا يأتون أبدا من أكثر المناطق فقرا بل من المناطق المجاورة لتلك المدن مباشرة. وتتمتع تلك المناطق برخاء نسبى لزراعتها الطعام الذى تحتاج إليه المدن المجاورة. وتستفيد كذلك من استخدامها لخدمات المدن فى التعليم والرعاية الطبية وبالذات كونها مصدرا للعمالة فى أوقات ذروة عمل الدورة الزراعية. وهكذا يمكن الاحتفاظ بمزرعة العائلة للجيل الأقدم للإقامة بعد الإحالة إلى التقاعد مع الحصول على بعض المساعدة الموسمية من جيل الشباب المقيم فى المدن.

ويوجد أفقر فقراء القارة الأفريقية بالعكس فى أكثر المناطق النائية. وهنا تغيب رعاية الدولة لاهتمامها بالذات بسكان المدن الحضرية وتترك تلك المناطق بحالها البائس. وتظل الطرق غير ممهدة ودون إصلاح والمستشفيات والمستوصفات دون أدوية والمدارس دون كتب وأقلام أو أوراق. ويظل الناس دون حماية الشرطة أو الجيش من هجمات قطاع الطرق والجيوش الخاصة القائمة بالسلب والنهب والرعاة المتنقلين الباحثين عن مراعى أكبر وأفضل. ولذلك كان

العديد من أفقر فقراء أفريقيا شبه لاجئين دائمين وهربوا من ميـادين القتـال فـي بلادهم الأصلية، واستقروا عند المناطق الحدودية لدولة مجـاورة. ونـذكر منهـا مناطق حدود مالاوى المجاورة لموزمبيق، والمناطق الشـمالية الغربيـة لتانزانيـا بجوار بوروندى ورواندا، ومنها أيضا المناطق الجنوبية لبوركينـا فاسـو وغينيـا ومالى المجاورة لليبيريا وسيراليون. كما توجد أماكن لا تسود بها سـلطة الدولـة على الإطلاق، وحيث تكون السيارات والمركبات المسافرة على الطرق الوعرة هى فقط تلك التابعة لمنظمات الإغاثة للعالم المتقدم. وتصور تلـك الوكـالات منـاظر البؤس والفقر للاطمئنان على المرضى والأمهات الجائعات من أجل الحصول على تبرعات إضافية للإغاثة. ولذلك خلق ذلك الأمر صورة لأفريقيا يسود بها العنـف والجوع والفقر والمرض.

ويعتبر وباء الإيدز أكبر كارثة تهدد أمن واستقرار القارة ويزداد فى مناطقها الجنوبية والشرقية ويقل فى البلاد الإسلامية القديمة شمال الصحراء. ومرض أكثر من ٢٨ مليون أفريقيا بالإيدز وتوفى ٢,٣ مليونا من ذلك المرض قبل ذلك. وتقدر نسبة الإصابة فى بعض الدول الأفريقية بـ ٤٠ % من السكان والـذين سـيتوفى معظمهم فى الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمرهم ولكن بعد أن يكونوا قـد نقلـوا المرض إلى أبنائهم. وسوف يشب هؤلاء كأيتام حينما يكونون فى سن المراهقة أو قبل ذلك، وتقع أعباء إعاشتهم على أجدادهم أو أقاربهم المسنين. ويبلغ عدد سـكان دولة بوتسوانا ١,٦ مليون نسمة منهم ٦٠٠,٠٠٠ مصابون بفيروس الإيـدز عـام ٢٠٠٢. ولذلك هبط احتمال سن الحياة من اثنين وستين عاما فى ثمانينيات القـرن الماضى إلى سبعة وثلاثين عاما اليوم. ويحدث ذلك فى دولة مـن أغنـى الـدول الأفريقية وأكثرها نظاما واستقرارا، وحيث يفوق دخل فردها السنوى نظيـره فـى جنوب أفريقيا الكبيرة وحيث تسود المجانية حتى فى التعلـيم الجـامعى والعنايـة الصحية أيضا. وتبلغ نسبة الإيدز بين شابات تسوانا Tswana البالغات من العمـر ١٥ إلى ١٩ عاما ٢٨ % فى بعض المناطق، أى أكثر من ضعف نسـبة إصـابة

الفتيان مما يؤدى إلى أخطار هائلة لمستقبل البلد الاقتصادى بل ولتوالى الأجيال أيضا. ويعتقد أن السبب يعود إلى الاتصالات الجنسية بين رجال بالغين وفتيات أصغر منهم بكثير اعتقادا منهم أن احتمال إصابتهن بالمرض قليل للغاية. ويحدث ذلك للأسف بين المدرسين وطالباتهن الإناث.

أما فى جنوب أفريقيا المجاورة البالغ عدد سكانها ٤٣ مليونا فإن الوضع بها مأساوى أيضا لكون ٢٠ % من البالغين من أعمار ١٥ إلى ٤٩ مصابين بالفيروس. كما أن احتمال حياتهم سوف ينخفض من ٦٥,٨ إلى ٤٧,٨ عاما فقط عام ٢٠٠٥. ويذكر أن أسباب ذلك تعود إلى الهجرة الموسمية فى أعمال الزراعة والتعدين مما يؤدى إلى حدوث علاقات جنسية عابرة. أما فى زيمبابوى المجاورة فإن احتمال الحياة سوف ينخفض من ٦٦,٥ عاما إلى ٤٢,٩ عام ٢٠٠٣. وازدادت نسبة المرض بين المدرسين والعاملين فى مجال الصحة بالذات. أما فى الشمال فى تانزانيا وكينيا فإن الإيدز قد انتشر بين الرجال الأثرياء فى المدن والعاهرات اللاتى يعاشرونهم بالإضافة إلى الأطفال الذين تحتاج أعمالهم إلى السفر والترحال مثل أعمال النقل. وكان رد فعل المسئولين فى البلاد الأفريقية والهيئات الدولية مثل هيئة الصحة العالمية تجاه ذلك الوباء القاتل هو الإنكار والحيطة الشديدة لمدة طويلة. ولكن اتخذت إجراءات فعالة بعد ذلك تدريجيا لوقف ذلك الوباء القاتل، وتعهد رئيس بوتسوانا فستوس موجاى Festus Mogai بوضع كل موارد الدولة ومنظمات الإغاثة ومنها شركات الأدوية الكبرى، وبيل جيتس Bill Gates من مايكروسوفت للقضاء على الوباء. وكانت بوتسوانا أول دولة أفريقية تمنح أدوية لمن يحتاج إليها من المصابين وإن كانت جارتها الكبيرة جنوب أفريقيا قد رفضت ذلك الأمر لأسباب أيديولوجية.

وكانت أكبر معضلة تواجه معظم الدول الأفريقية هى تلك الجحافل الكبرى من الموارد البشرية المتنامية – رجال ونساء فى سن ما قبل العشرين والعشرينات والثلاثينات والذين وجب أن يكونوا القوة المحركة للتطور الاقتصادى، ولكنهم

مرضوا جميعا بالإيدز أو بأمراض أخرى قاتلة مثل الملاريا والسل. ففـــى زامبيــا مثلا قتل الإيدز عددا من المدرسين يوازى عدد خريجى كلية التربية سنويا. ويهدد ذلك الأن القارة كلها بتخلفها فى الاشتراك فى الســباق الخـــاص بعصـــر ثــورة المعلومات الجديد. وامتلكت أوروبا عام ٢٠٠٠ من أجهزة التليفون ٢٠٤ تليفونات لكل ألف فرد بينما كان نصيب أفريقيا جنوب الصحراء ١٦ جهازا لكل ١٠٠٠ فرد فقط. ووجدت عشرة ملايين جهاز تليفون فى القارة كلها ولكن نصفها فى جنــوب أفريقيا كما أن الباقى كان موزعا على مسافات بعيدة لدرجة أن معظم الأفــريقيين يحتاجون لساعتين للوصول إلى أقرب جهاز. ولا يوجــد إلا ٢,٣ جهـــاز إنترنــت لخدمة ١٠,٠٠٠ شخص فى أفريقيا جنوب الصحراء بينما امتلكت أمريكا اللاتينيــة ومنطقة الكاريبى ضعف هذا العدد. ورأى أحد الخبراء فى الاقتصاديات النامية أن نقص البنية الأساسية فى أفريقيا والضرورة الملحة للانضمام إلى الشبكة العالمية قد يجعل من المستحيل وجود نظام متكامل لتطور القارة كلها. ولكن يعتبر هذا التشاؤم القاتم، وإن كان سائدا بين العديد من المعلقين الأجانب، أمرا مبالغا به للغاية، وربما يتميز بالخطأ أيضا، وإذا نظرنا من وجهة نظـــر المجتمعـــات الحضـــرية وشـــبه الحضرية فى أفريقيا كلها فإن النتيجة لن تكون قاتمة لهذا الحد وأن الإحصـــائيات المتشائمة قد تكون قد ضلت طريقها فعلا. ولكن كان العكس صـــحيحا إذ أن فـــى متناول معظم الأفريقيين الاتصال بشبكة الاتصال العالمية، وإن كان ذلك بطريقـــة جماعية وطبقا للأحوال وأن العدد المتصل الحقيقى ما زال صغيرا فعلا. ولكن يبدو أن الأعوام الأولى من الألفية الجديدة قد شهدت فعلا نموا هائلا فى أعداد الهواتـــف المحمولة حتى فى الدول التى تســود بهـــا الحـــروب مثـــل جمهوريـــة الكونغـــو الديمقراطية؛ حيث تتفاوض الحكومة مع شركات الاتصالات الدولية لبنــاء البنيـــة التحتية وعملية الإمداد بالهواتف بأسعار معقولة. وبالتالى بدأت أعداد الناس الـــذين يمتلكون– أو على الأقل الذين يمكنهم الوصول إلى – الكمبيـــوتر فـــى الارتفـــاع التدريجى، كما ازدادت أعداد المدارس والكليات التى تدرس تكنولوجيا المعلومات.

وقامت هيئة الاتصالات المغربية على سبيل المثال بتغيير شكل الاتصالات في البلاد كلها وبسرعة فائقة. فلقد ازداد عدد ملاك الهاتف المحمول من ١٥٠,٠٠٠ مشترك عام ١٩٩٩ إلى أكثر من ٤ ملايين عام ٢٠٠٢ أى فى فترة ثلاثة أعوام فقط. وازدادت أيضا قدرة هؤلاء الناس على استخدام وسائل الاتصالات الكبرى مثل الإنترنت والبرود باند Broad band.

وحينما كتب بول ريتشارد كتاباته البليغة عن الحرب الأهلية فى سيراليون فإنه قد وصف شباب البلاد الذين لعب الكثير منهم دورا بارزا وشريرا فى القتال أنهم لم يقعوا أبدا فريسة لمصيدة الفقر والتخلف والحرمان، ولكنهم انتموا فعلا إلى تلك الحضارة النابضة الموجودة عبر الأطلنطى. فلقد شاهدوا باستمرار أفلام السينما والفيديو وأفلام الحرب ورامبو والعميل جيمس بوند وأفلام الكونج فو وهى أفلامهم المفضلة. كما يستمع ٨٠ % من الناس فى دراسة ريتشارد إلى المذياع. واتجه الكثيرون فعلا إلى محطات الـ FM الشعبية الجديدة، ولكن ظل عديدون يهتمون بإذاعات الموجات المتوسطة الأقدم التى تقدم الأخبار والتعليق والأخبار الاقتصادية والاجتماعية. ويستمع الناس وبأغلبية ساحقة للبرنامج الأفريقى لهيئة الإذاعة البريطانية. وبالرغم من أن عينة البحث الريفية كانت صغيرة إلا أن الأرقام تدل على أن العزلة المقترحة لسكان القرى وغير المتعلمين كانت نسبية فقط. أما فى السنغال عام ٢٠٠٢ مثل فى معظم البلاد الأفريقية الأخرى فإن الجميع كانوا يشاهدون أو يستمعون إلى مباريات كأس العالم لكرة القدم فى الراديو أو التليفزيون. ومثلما لاحظ أحد المنفيين التونسيين ببعض المرارة قائلا "إننا أكثر نضجا سياسيا من زعمائنا".

ويعيش نصف سكان أفريقيا الآن فى المدن، ولذلك يجب مشاهدة حركة السير والمرور فى إحدى الطرق العامة فى الصباح أو ساعة الذروة المسائية. وسوف نرى مدى اختلاف وتنوع الناس والسلع كما سوف نفهم أنه حتى فى أفقر الدول ذات الدخل اليومى الإحصائى الأقل من ٢ دولار يوميا أن العديد من الناس

يتمتعون بمستوى حياة أفضل بكثير مما توحى به الإحصائيات. فلقد نشأ فعلا فى تلك المدن وحولها اقتصادا أفريقى جديد متنوع. ووجدت أكثر من نصف كل الوظائف فى المنشآت الصغيرة فى القطاع غير الرسمى وتوجد فى مجالات عدة مثل البناء والتشييد والنقل والتجارة والصناعة والصناعات التحويلية. وتعتبر إحدى مميزات إمبراطوريات أمراء الحرب فى الصومال إلى سيراليون هى تلك الكفاءة المميزة فى إدارة أعمال هؤلاء أمراء الحرب وأتباعهم.

أما الحدود الفاصلة بين الاقتصاد الرسمى وغير الرسمى فإنها هلامية تماما. وتفصلها اقتصاديات شبه إجرامية فى الصناعات والمجالات الثقافية والرياضية والترفيهية. ويشترك موسيقيون فى بلاد بعيدة للغاية مثل المغرب وجنوب أفريقيا إلى الكونغو ومالى فى مهرجانات الموسيقى العالمية بل يعملون أيضا فى تلك الصناعة الدولية المزدهرة بالإضافة إلى شهرتهم الطاغية فى بلادهم الأصلية. وتوحد رياضة كرة القدم بين الجميع وبين بلاد القارة كلها، من البلاد الإسلامية الشمالية إلى مناطق ما زالت توجد بها بقايا منشآت عن الاستعمار القديم إلى مدن الصفيح البائسة حول المدن مثل مدينة الكاب فى جنوب أفريقيا. ونعرف أن النجاح الباهر لفريق كرة القدم السنغالى فى كأس العالم قد فجر موجة من الفخر والاعتزاز هناك عام ٢٠٠٢. وكتب مامادو كاسى Mamadou Kasse مدير تحرير جريدة "الشمس" Le Soleil.

"ولا يتعلق الأمر بكرة القدم فقط، ولكن لأننا بينا للعالم كله أننا نعمل بكد ونشاط فى السنغال، كما يمكننا أن ننجح تماما مثل الناس فى أوروبا. إن فريق كرة قدم ناجح أفضل تعبير عن أمة واثقة فى نفسها وحيث توجد بها ديمقراطية واستقرار وحقوق إنسان. ولا يتوافر ذلك فى زيمبابوى أو الكاميرون التى لم تنجب فريق كرة ناجح. كما أن السنغال دولة صغيرة ولكن لديها قيادة سياسية وديمقراطية حكيمة وجيدة للغاية، كما تعتبر مثالا للديمقراطية الأفريقية الناجحة. ومهد لنا رئيسنا (عدولاى وادى) الطريق إلى الشراكة الجديدة لتطور أفريقيا. ويبلغ الرئيس الـ ٧٦ عاما من العمر ولكنه يرقص مثل الشباب".

ولذلك وجد رأسمال كبير يمكن استثماره فى كرة القدم الأفريقية لمختلف الأغراض. وكان الرئيس القذافى قد فهم تماما أهمية تلك الرياضة الشعبية. وعلم أن كرة القدم هى أسرع وأفضل وسيلة لعودة ليبيا إلى المجتمع الدولى. وذكر أحد المسئولين الليبيين "ترغب ليبيا فى المشاركة فى الساحة الدولية وأن تبين للعالم أجمع أنها ليست مثلما يعتقد الناس فيما يتعلق بالإرهاب وغير ذلك". وتتمتع رياضة كرة القدم بشعبية جارفة مثلا فى ليبيا، إذ أن المباريات بين الفرق الكبرى تجذب جماهيرا تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ متفرج. وكلف القذافى ابنه السعدى بتكوين شركة استثمار مالى لشراء حصة من نادى جوفنتوس Juventos الإيطالى العملاق ومحاولة شراء نادى باوك سالونيكا Paok Salonika اليونانى بحيث يمكن لليبيا الاشتراك فى الدورى اليونانى والتأهيل بالتالى لاستضافة كأس العالم ٢٠٠١.

ولا يمكن أن يجد الدخل الاقتصادى للموسيقيين الموهوبين مثل ليدى سميث بلاك مامبازو Lady Smith Black Membazo فى جنوب أفريقيا وفريق كرة القدم السنغالى المتميز فى كأس العالم مكانا لهما فى إحصائيات البنك الدولى وباقى منظمات الإغاثة. ويمكن ذكر الشيء نفسه عن الثروة والمزايا الناتجة عن الاقتصاد المخفى أو غير الرسمى فى كل دولة على حدة. ولذلك فإن نسبة كبيرة من الثروة الأفريقية المنتجة لم يتم ذكرها أبدا فى الإحصائيات، وقد اشترك بها الأغنياء والفقراء على السواء. ولذلك قيل إن البنك الدولى لا يعرف إلا الخطوط العامة فقط وكأنه يسير فى الطرق الرئيسية فى تاكسى فى أكرا عاصمة غانا دون أن يعرف شيئا عن طرقها الجانبية والفرعية على السواء كناية عن هذا الوضع. ولذلك فإن البنك الدولى حينما وضع أفريقيا فى ذيل قائمة كل الإحصاءات فإنه قد كان على حق من ناحية ولكن لا يعتبر ذلك الحقيقة كلها. فإنه توجد فعلا معايير لا يمكن تسجيلها بدقة ولكنها تعبر عن أوجه نشاط وناس يعملون بكفاءة إدارية وحسن تصرف وطموح ورحابة صدر وذكاء وقدرة على العمل الجاد. ويعيشون حياتهم

طبقا لذلك ويجدون الفرص لتحقيق ذاتهم بالرغم من العقبات الموجودة فى معظم البلاد من الناحية الاجتماعية والسياسية.

وتشير إحصائيات اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة لأفريقيا والدليل الاقتصادى الأفريقى لعام ٢٠٠١/٢٠٠٢ أملا كبيرا، إذ يظهر أن اقتصاديات القارة قد عملت بطريقة أفضل بالرغم من تباطؤ الاقتصاد العالمى آنذاك. ونما الدخل الأفريقى الإجمالى لعام ٢٠٠١ بنسبة ٤,٢ % مقارنة بـ ٣,٥ % فى العام السابق. وازداد متوسط دخل الفرد الأفريقى بـ ٢% تقريبا عام ٢٠٠١ بفضل انخفاض أسعار البترول، والتضخم ووسائل الزراعة الأفضل وزيادة الصادرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية طبقا لاتفاق التطور والنمو الأفريقى وإلى الاتحاد الأوروبى أيضا طبقا لاتفاقيات مشابهة. وازدهر اقتصاد أثيوبيا وارتيريا على السواء بعد انتهاء الحرب بينهما عام ١٩٩٩. ونما اقتصاد سيراليون بنسبة ٥ % بعد انتهاء الحرب الأهلية عام ٢٠٠٢. وأشاد أحد كبار المسئولين فى البنك الدولى بتحسن إدارة اقتصاديات رواندا وجمهورية الكونغو الشعبية حينما زار تلك البلاد عام ٢٠٠٢ وأوصى بإجراء تخفيض كبير لديون الكونغو كمكافأة له عن ذلك. ولكن تقدم تلك الإحصائيات- إذا أخذت بمفردها- تصورا غير دقيق على الإطلاق للواقع. ويجب أن نتذكر هنا أن أكبر اقتصاديات فى القارة وهى جنوب أفريقيا والمغرب والجزائر وتونس ومصر تمثل أكثر من نصف الدخل العام للقارة كلها. وجذبت تلك الدول الخمس مقدارا معقولا من الاستثمارات الأجنبية، ولكن القارة كلها لم تجذب إلا نسبة ٢,٣% من كل الاستثمارات العالمية، وهى نسبة ضئيلة للغاية فعلا. وعرف العالم الخارجى عوائق الاستثمار فى أفريقيا وتشمل العنف فى المدن وعدم الاستقرار السياسى وجنون العظمة للحكام المتقدمين فى السن والفساد على كافة المستويات، وبالذات عدم فاعلية النظم القانونية والقضائية مما يخيف المستثمرين من عقد عقود مع تلك الدول.

ولذلك يعتقد تماما أن مثل كل تلك المؤسسات فى خلق مجتمع مدنى لشعوبها يمكن أن يعالج على المدى الطويل بواسطة المؤسسات الإقليمية والدولية والعالمية على السواء.

ونذكر أن أنجح الأمثلة لتلك المنظمات هى المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا Economic Community of West Africa States (ECOWAS) والتى أدى وجودها إلى إرسال القوات العسكرية النيجيرية لمساعدة الحكومات الأضعف بكثير فى ليبيريا وسيراليون فى صراعها مع الحركات الثورية السياسية. وتوجد أيضا مجموعة تطور جنوب أفريقيا Southren African Development Community (SADC) التى لعبت دورا فعالا فى تقوية النظم الدفاعية للدول المجاورة أثناء الأعوام الأخيرة لحكومة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، ولكنها فشلت تماما فى مواجهة المشاكل الناشئة عن ازدياد طغيان موجابى فى زيمبابوى. أما من الناحية الدولية فإن منظمة الكومونولث قد أثبتت تماما أنها نادٍ شعبى ومعنوى فعال للغاية لأعضائها الأفريقيين، وهو أمر مثار دهشة. فلا توجد للكومونولث وسائل فعالة أو عقوبات رادعة لتطبيقها على الحكومات الجامحة المستبدة إلا تجميد عضويتها فى المنظمة. واستخدم ذلك العقاب ضد نيجيريا خلال رئاسة أباشا Abacha ثم ضد زيمبابوى بعد السلوك المشين لحكومتها أثناء انتخابات عام ٢٠٠٢. واشتركت موزمبيق فى منظمتين إذ انضمت إلى الكومونولث عام ١٩٩٥ كما كانت المحرك الرئيسى لإنشاء هيئة الدول الناطقة بالبرتغاليةCommunity of Protguas وتشمل أنجولا، البرازيل، كاب فردى، غينيا بيساو، موزمبيق، والبرتغال ومقرها مابوتو.

ولكن كانت أهم خطوة فى سبيل جمع شمل الدول الأفريقية هى إنشاء الوحدة الأفريقية التى عقدت جلستها الافتتاحية فى دربان (Durban) فى شهر يوليو ٢٠٠٢ مما أدى إلى انتهاء عمر منظمة الوحدة الأفريقية السابقة التى استمرت تسعة وثلاثين عاما على قيد الحياة. وكانت منظمة الوحدة الأفريقية قد أنشئت فى

عنفوان الحماس الوطنى الجارف فى عصر السيادة السياسية وعدم المساس بالحدود الموروثة عن الاستعمار. ولكنها أصبحت غير فعالة بالمرة لمواجهة الحكام الأفريقيين الطغاة أو جبروت أمراء الحرب. وتم اختيار ثابو مبيكى كأول رئيس للوحدة الأفريقية. وكان الغرض هو إنشاء برلمان أفريقى مشترك ومحكمة عدل أفريقية وبنك مركزى وعملة موحدة ووضع معايير انتخابية مشتركة ووجود مراقبين مستقلين خلال وقبل أى انتخابات وطنية. كما رغب أيضا فى إنشاء مجلس أمن وسلام أفريقى صغير، وأن تكون لديه سلطة إرسال القوات العسكرية لوقف جرائم الحرب وحروب الإبادة. وسوف يرفض أيضا اشتراك القادة الذين تولوا الحكم فى انقلابات عسكرية فى تلك الجلسات.

ولكن وفى وقت انعقاد مؤتمر دربان وفى اجتماع الدول الصناعية الثمانى الكبرى للدول المانحة فى كندا، تم إنشاء شركة جديدة لتطور أفريقيا New وكان المحرك الرئيسى هنا أيضا هو ثابو مبيكى لبدء البرنامج الجديد. وتم التخطيط لتلك الشراكة الجديدة على أن يكون لها اتجاهان أساسيان. فلقد وجب عليها فى البداية البدء فى مجموعة من المشاريع الاقتصادية المحددة مثل الترويج لوسائل الزراعة الجديدة وتمويل وتشييد سد لإنتاج الكهرباء عند إنجا (Inga) فى نهر الكونغو الأدنى. وكان عليها ثانيا إحداث تغيرات سياسية طويلة المدى مع محاولة جادة لتثبيت حكم القانون واتباع قواعد العمل الاقتصادى الصحيحة. كما وجب أيضا وضع مشاريع وأهداف وإن تم التركيز تماما على أن تلك الشراكة مجرد برنامج فقط وليست منظمة بأى حال من الأحوال. ولن يكون لها بيروقراطية معطلة كما سوف تعمل طبقا لنظام " النقد البناء من الرفاق"، ويعنى ذلك أن الحكومات سوف تخضع للنقد من رفاقها الأفريقيين طبقا لمعايير متفق عليها من البداية. ورغب مبيكى فى وجود هيئة صغيرة من الأفريقيين البارزين للقيام بأعمال المراجعة المذكورة، بينما كان زعماء آخرون أقل رغبة بطبيعة الحال للخضوع لمثل هذا النوع من الرقابة الخارجية.

وكان أهم موضوع آثار اهتمام المشاركين فى مؤتمر دربان هو ذلك الجفاف المميت الذى دمر الكثير من الجهات فى الجزء الجنوبى من القارة. وهددت المجاعة الملايين من الموت جوعا. وبخلاف الجفاف فى تلك المنطقة منذ عقدين من الزمان فإنه قد وجدت آنذاك مواجهات عنيفة بين الدول المانحة ودولتين فى حاجة ملحة للمساعدة وهما زيمبابوى ومالاوى مما أدى إلى تعطيل توزيع المساعدة للمنطقة كلها، كما رفضت بعض الدول استلام الشعير المعدل وراثيا 9H. (Maize). ولاحظ أحد المراقبين فى دربان أن رؤساء الدول الأفريقيين كانوا يعيشون في عالم آخر غير العالم الحقيقى. ولذلك ومن أجل أن تعيش أفريقيا وتزدهر فإن المنظمات مثل الوحدة الأفريقية والنيباد وجب عليها أن تثبت أنها تعيش فى العالم الحقيقى النابض بالحياة وليس أبدا فى عالم تسود به مجالات الخطابة والخيال.

ولكن إذا ما أخذنا القارة ككل فإن اقتصاديات أفريقيا بالرغم من عدم مجاراتها للنمو الهائل فى عدد السكان فإنها تقدمت وخرجت من حالة الكساد السائدة فى السبعينيات وتدهور الثمانينيات. ويدأ رجال الصناعة فى العالم الخارجى فى مشاهدة قارة يمكنهم الاستثمار بها أو على الأقل مساعدة بعض الحكومات على الوقوف على أقدامها مرة أخرى. وكان من الواضح أيضا مع ذلك أن أفريقيا سوف تستمر فى الخسارة إذا ما استمرت هجرة العقول إلى أوروبا وشمال أمريكا بتلك المعدلات المرتفعة. ويؤدى ذلك إلى خسارة الكفاءات الضرورية لإدارة وتنمية المجموعات المحلية القادرة على تكوين الحكومات الجيدة والاقتصاديات الناجحة فى بلادها. ونعرف من التجربة العملية لسوء الحظ أن معظم المهاجرين الناجحين لا يعودون أبدا.

وإن لم تكن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد أعادت أيديولوجية الحرب الباردة إلا أنها أوجدت قدرا كبيرا من الخطابة المعنوية على الساحة العالمية. وبدأت ردود فعل إدارة بوش على الهجمات الإرهابية على أنها أبعدت أفريقيا تماما عن إدارة

الاهتمام الأمريكي. فلم تهتم أمريكا على الإطلاق بتلك البلاد التي ليست في مقدمة الحرب ضد الإرهاب. ولذلك تحولت الحكومات الأفريقية التي كان لها سجل في محاربة الإرهاب مهما كان استبدادها وطغيانها مثل حكومة الملك محمد في المغرب وبوتفليقة في الجزائر إلى حلفاء وأصدقاء للولايات المتحدة. ولكن تراجعت الدول الموجودة على قائمة الأمم المنبوذة الأمريكية عن مواقفها السابقة تماما. ولذلك تم تشجيع الرئيس القذافي على التخلي عن الإرهاب بينما تخلت الحكومة السودانية عن بعض تطرفها الإسلامي واستعدت لعقد اتفاق سلام مع الجنوب. وإذا ما صدقنا تعليقات الصحافة فإن الرأي العام الأفريقي يراقب رغما عنه الحملة الأمريكية على أفغانستان ضد طالبان والقاعدة، إلا أنه أيضا كان معاديا تماما للحرب الوقائية الأمريكية ضد صدام حسين في العراق. وإذا ما تحول مفهوم الحرب الوقائية لتبرير الحرب العادلة مثلما كتب أحد أبرز كتاب الأعمدة في جنوب أفريقيا فإن ذلك سوف يجلب الدمار الرهيب للقارة، وشبه ذلك بفتح علبة يخرج منها طوفان من الدود. ولا يمكن أن يكون أي اتفاق سلام ناجح وإن وجب على الرؤساء الأفريقيين وضع تحفظاتهم على سياسة بوش جانبا ومحاولة التوصل إلى تفاهم مع ذلك التغيير الجذري الذي حدث في العالم والعلاقات الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة. فلقد أدركت الولايات المتحدة آنذاك قوتها الهائلة بصفتها القوة العالمية الكبرى الأولى وصممت على اتباع سياسات تعبر عن هذا التفوق الساحق.

وكان الاستثناء الوحيد على الدور الصغير الذي تلعبه أفريقيا على الساحة الدولية هو موضوع البترول. فلقد رغبت الولايات المتحدة وبشدة في إيجاد بديل لها عن بترول الشرق الأوسط مما أدى إلى تكثيف أعمال البحث في أفريقيا جنوب الصحراء. وركزت الشركات الأمريكية على اكتشافات حقول بترول جديدة في خليج غينيا بالذات في أنجولا وأفريقيا الاستوائية ونيجيريا. ولكن تقتصر النتائج الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لاستكشاف البترول واستغلاله مهما كانت خطورتها وآثارها على منطقة صغيرة نسبيا فقط (كما أن معظم حقول البترول

حقول بحرية) ويقتصر ذلك أيضا على عدد صغير من البلاد. ولكن أبدت الولايات المتحدة اهتماما جديدا في القارة في منتصف عام ٢٠٠٣. وتعهد الرئيس بوش بإنفاق ١٥ بليون دولار لمحاربة الإيدز في البلاد الفقيرة، بل فكر في إرسال قوات أمريكية إلى ليبيريا المضطربة. وزار بوش القارة الأفريقية لأول مرة في يوليو ٢٠٠٣ وتوجه إلى السنغال وجنوب أفريقيا وبوتسوانا وأوغندا ونيجيريا. وفي شهر أغسطس ٢٠٠٣ وبعد وصول قوات حفظ السلام النيجيرية إلى مونرفيا غادر شارل تايلور ليبيريا متوجها إلى المنفى في نيجيريا. واستمرت القوات الأمريكية في ليبيريا لبعض الوقت ثم غادرت بعد حضور قوات حفظ سلام نيجيرية كبيرة تحت لواء الأمم المتحدة. وتم اختيار جيود بريانت Jyude Bryant لرئاسة حكومة انتقالية استعدادا للانتخابات العامة. وبدا كما لو كانت ليبيريا على شفا عصر من السلام بعد عقدين من الصراعات الدامية. واتخذت الولايات المتحدة أيضا خطوات جادة لإنهاء الصراع الطويل في السودان، واستطاع وزير الخارجية كولين باول في أكتوبر ٢٠٠٣ إقناع الحكومة السودانية والثوار على الاجتماع في مدينة نايفاشا Naivasha الكينية لتوقيع اتفاق شامل قبل انتهاء العام.

وبعد انتهاء الحرب العراقية اتخذت الحكومة الأمريكية خطوات أكثر فاعلية فيما يتعلق بالمشاكل الأفريقية. ويشك الكثير من الناس بنوايا أمريكا ولكن سوف يستفيد الأفريقيون كثيرا على المدى الطويل في كونهم في الصف الأول ومقدمة عالم السياسة والمال، وسوف يكون ذلك في صالحهم. ويمكنهم أيضا الاستفادة العميقة من الانقسامات في صفوف بلاد العالم المميزة. وتوجد فعلا الكثير من المزايا المهمة فعلا. ولكن من المهم تماما أن تعيد أفريقيا إحياء إيمانها وثقتها بنفسها وأن تمسك زمام أمورها بيدها بدلا من تدخل الأجانب. ويتمنى أفريقيون كثيرون إعادة بعث النهضة الأفريقية الشاملة بطريقة منظمة بحيث يتكاتف الناس من كل أوجه الحياة في القارة كلها من أقصاها إلى أقصاها للوصول إلى ذلك. وبفضل الاستماع هنا إلى نصائح أكثر رجال أفريقيا خبرة واعتدالا. فلقد كتب

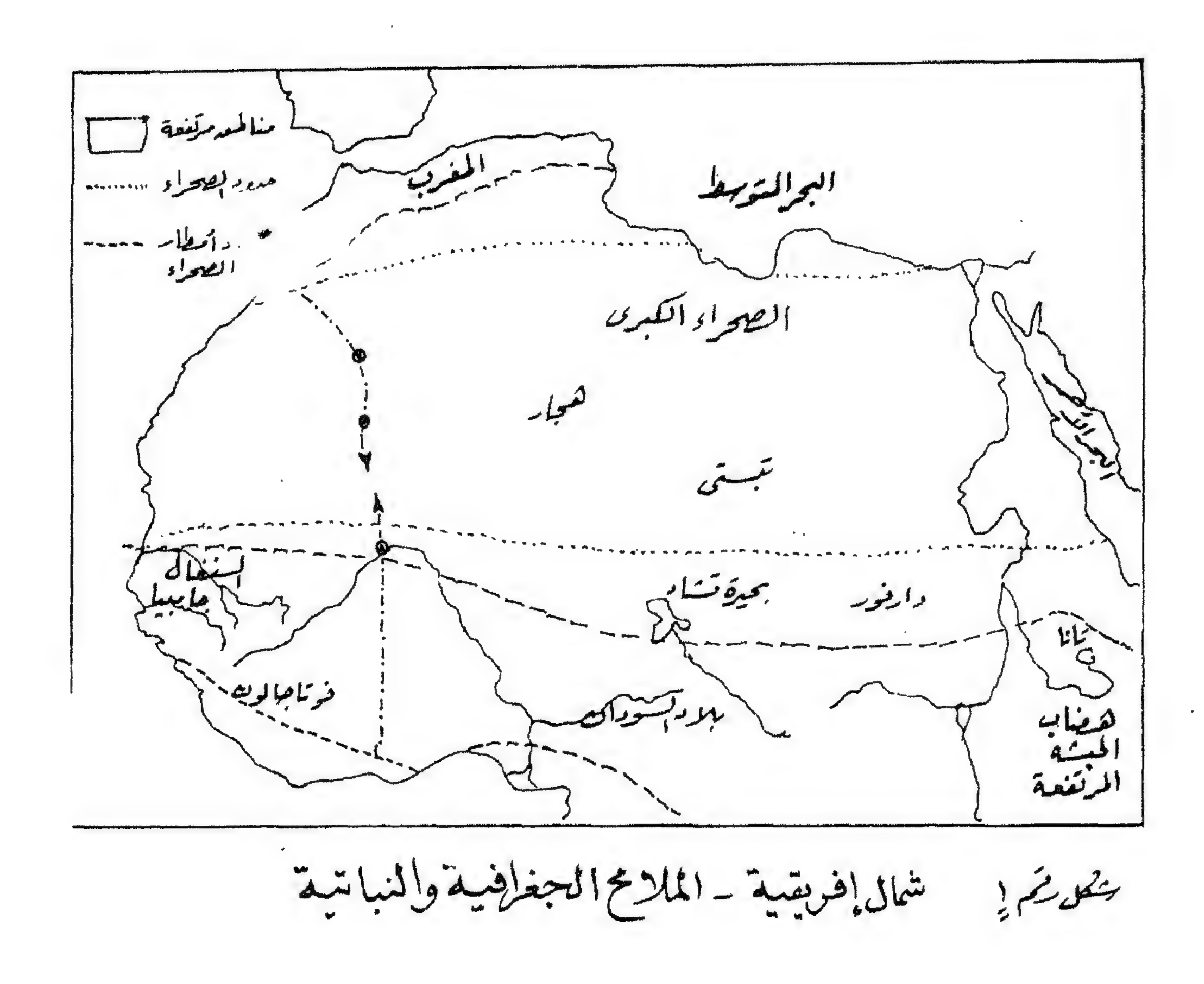
نلسون مانديلا: "إننا لم نصل أبدا إلى خاتمة المطاف ونهاية الطريق والرحلة، ولكننا سرنا فقط الخطوة الأولى فى طريق أكثر صعوبة. ولا تعنى الحرية أبدا التخلص من الأغلال ولكنها تعنى الحياة بطريقة تحترم وتنمى حرية الآخرين، كما أن الاختيار الحقيقى لإخلاصنا للحرية يبدأ الآن فقط.

## الأحداث الأخيرة فى السودان ودارفور

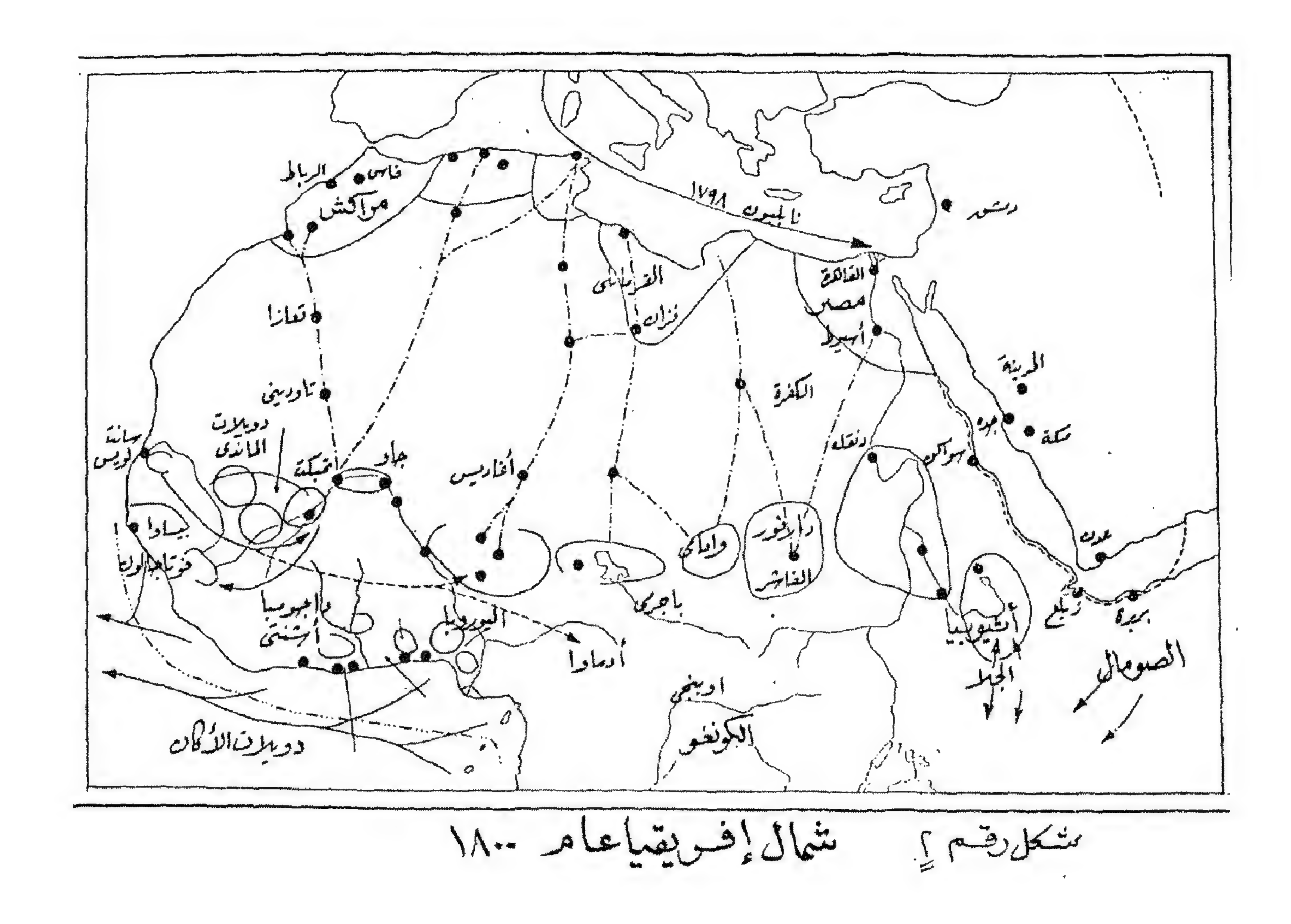
واستمرت المنازعات بين المجتمعات الزراعية والرعوية فى منطقة دارفور الكبيرة غرب السودان منذ عقد الخمسينيات من القرن الماضى إن لم يكن قبل ذلك بكثير. ولكنها ازدادت بعد انتشار الجفاف فى معظم أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء فى بداية الثمانينيات. وكان السبب الرئيسى لتلك النزاعات التصحر التدريجى للمنطقة؛ حيث توغلت الصحراء أكثر وأكثر داخل الأراضى الزراعية. ويشترك المزارعون فى المناطق الجبلية الأكثر خصوبة حول جبل مارا (Marra) مع الرعاة الذين يتجولون أيضا ناحية الشمال (رعاة جمال) وإلى الجنوب (رعاة قطعان ماشية). ويشترك هؤلاء الناس فى الحياة فى المنطقة نفسها ويتزوجون فيما بينهم ويتنافسون على الأرض والمياه. كما أن المجتمعين مسلمان ولا يمكن التفرقة بينهما عرقيا. ويتكلم الرعاة اللغة العربية كلغة أولى بينما تكون اللغة الثانية بين المزارعين. وقام الفور (Fur) وجماعات أخرى بشن مجموعة من الثورات ضد حكومة الخرطوم التى استعانت بالرعاة للقضاء عليها. وهنا بدأ الحديث عن الخلافات العرقية ووصف المزارعون بالأفريقيين والرعاة بالعرب. وشعر المزارعون فى دارفور باستبعادهم من توقيع اتفاق نابفاشا فى شهر مايو من عام ٢٠٠٤ بين الحكومة والثوار الجنوبيين. وقامت مجموعتان من الثوار بمجموعة من الهجمات ضد المواقع الحكومية فى بداية عام ٢٠٠٣.

وردت الحكومة بتسليح الميليشيات "العربية" المعروفة بلغة دارفور العربيـــة "بالجنجويد". وتصرفت تلك القوات بوحشية شديدة، ودمرت القــرى والمحاصــيل وقتلت الرجال والصبية واغتصبت النساء مما أدى إلى نزوح مئــات الآلاف مــن الناس من ديارهم وقتل عشرات الآلاف فى منتصف عام ٢٠٠٤. وهربت أعــداد كبيرة من اللاجئين إلى تشاد المجاورة وأقامت فى معسكرات بائسة فى الخيام حيث هاجمهم الجنجويد كثيرا. ولكن انشغل الرأى العام العالمى آنذاك بالعراق والحــرب على الإرهاب. وبدأت منظمات الإغاثة فى تنظــيم أعمـــال إغاثتهــا لمعســكرات اللاجئين فى دارفور وتشاد فى منتصف عام ٢٠٠٤. وحـــاول الاتحـــاد الأفريقـــى أيضا الوساطة، كما قام المجتمع الدولى بالضغط الشديد على حكومـــة الخرطـــوم لإنهاء العنف ونزع سلاح الجنجويد والتفاوض مع الثوار فى منتصف عــام ٢٠٠٤ أيضا.

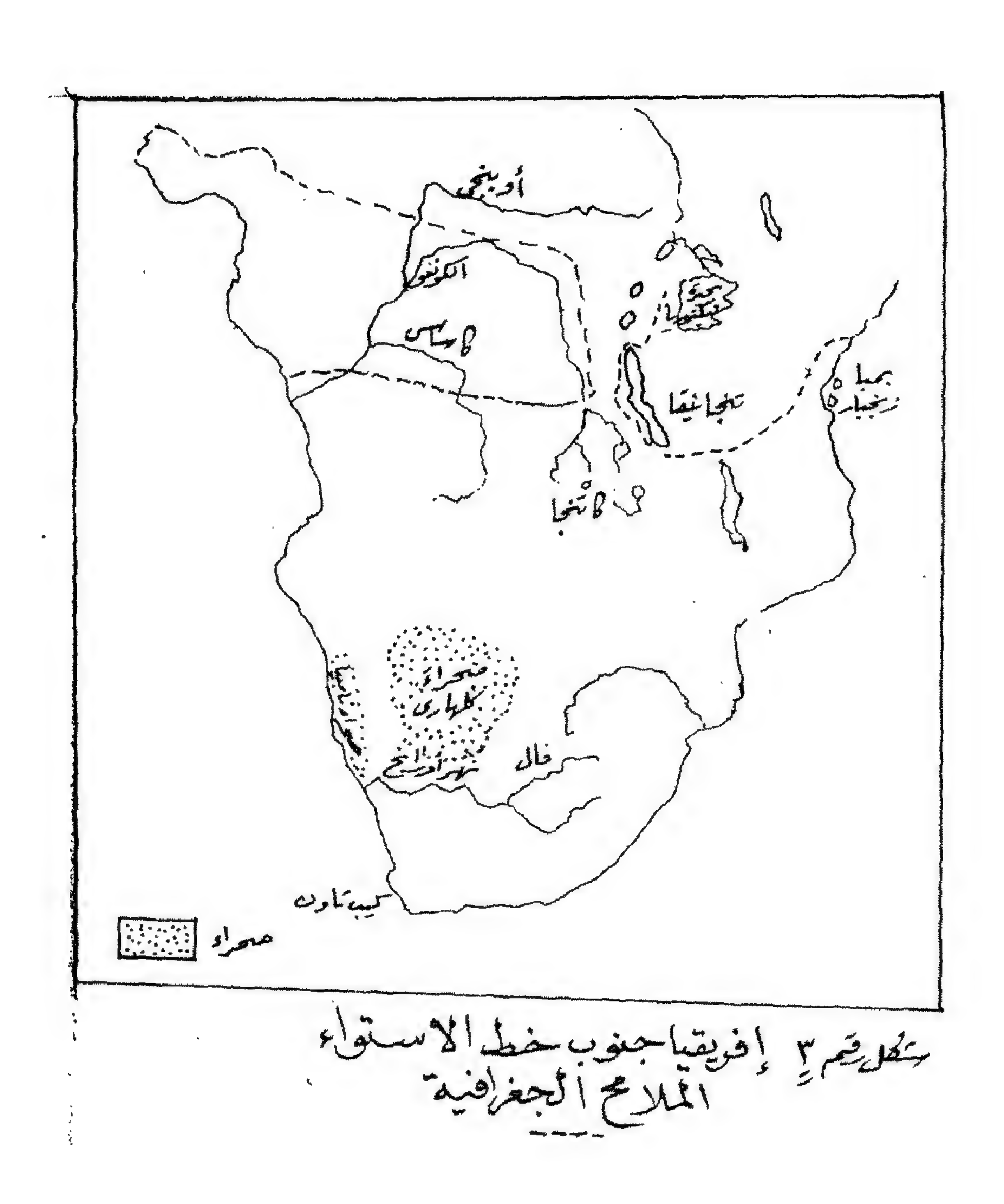
# ملحق الأشكال



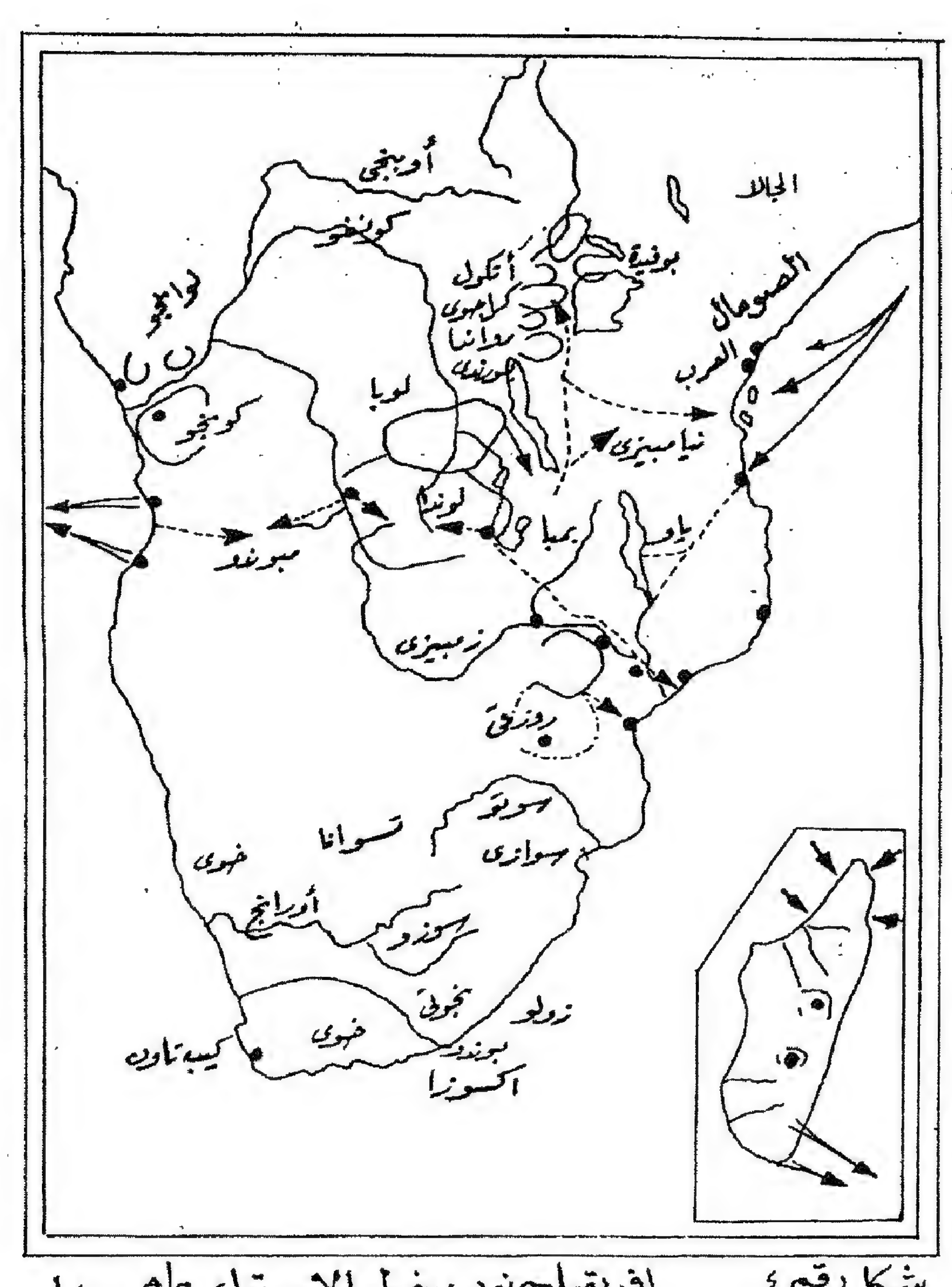

شكل رقم ١ شمال إفريقية - الملامح الجغرافية والنباتية



شكل رقم ٣ شمال إفريقيا عام ١٨٠٠

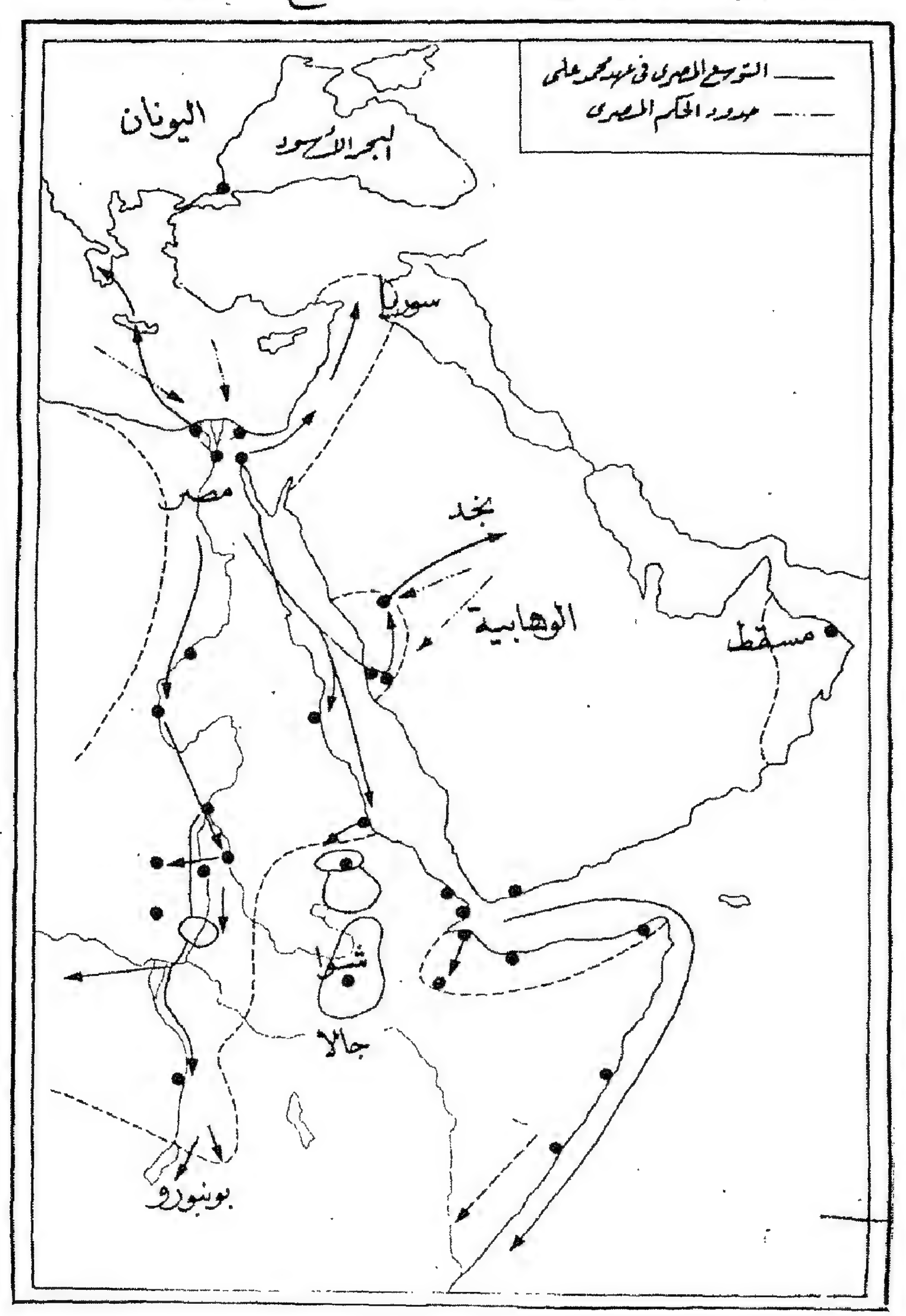


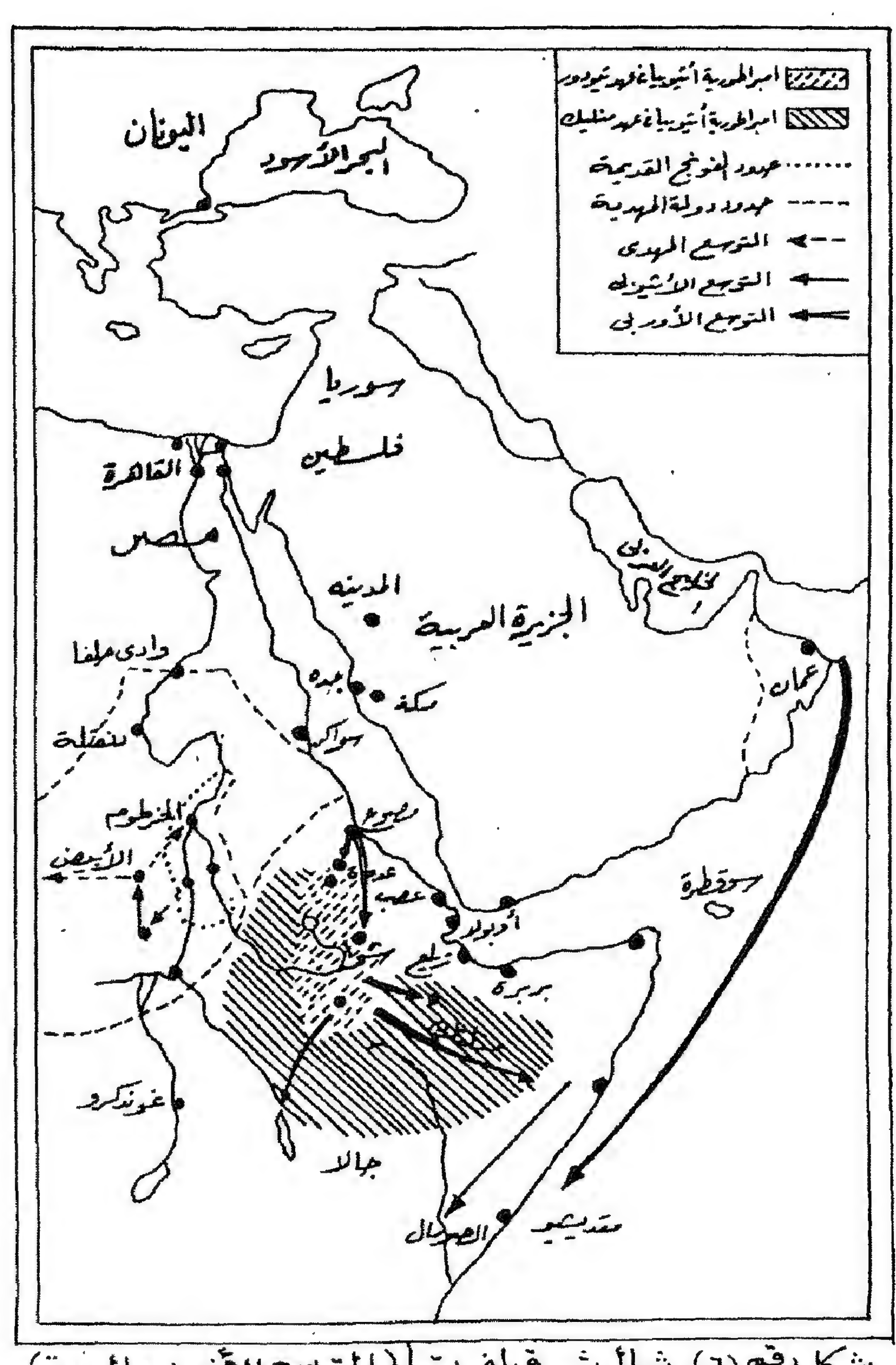

شكل رقم ٣ إفريقيا جنوب خط الاستواء
الملامح الجغرافية



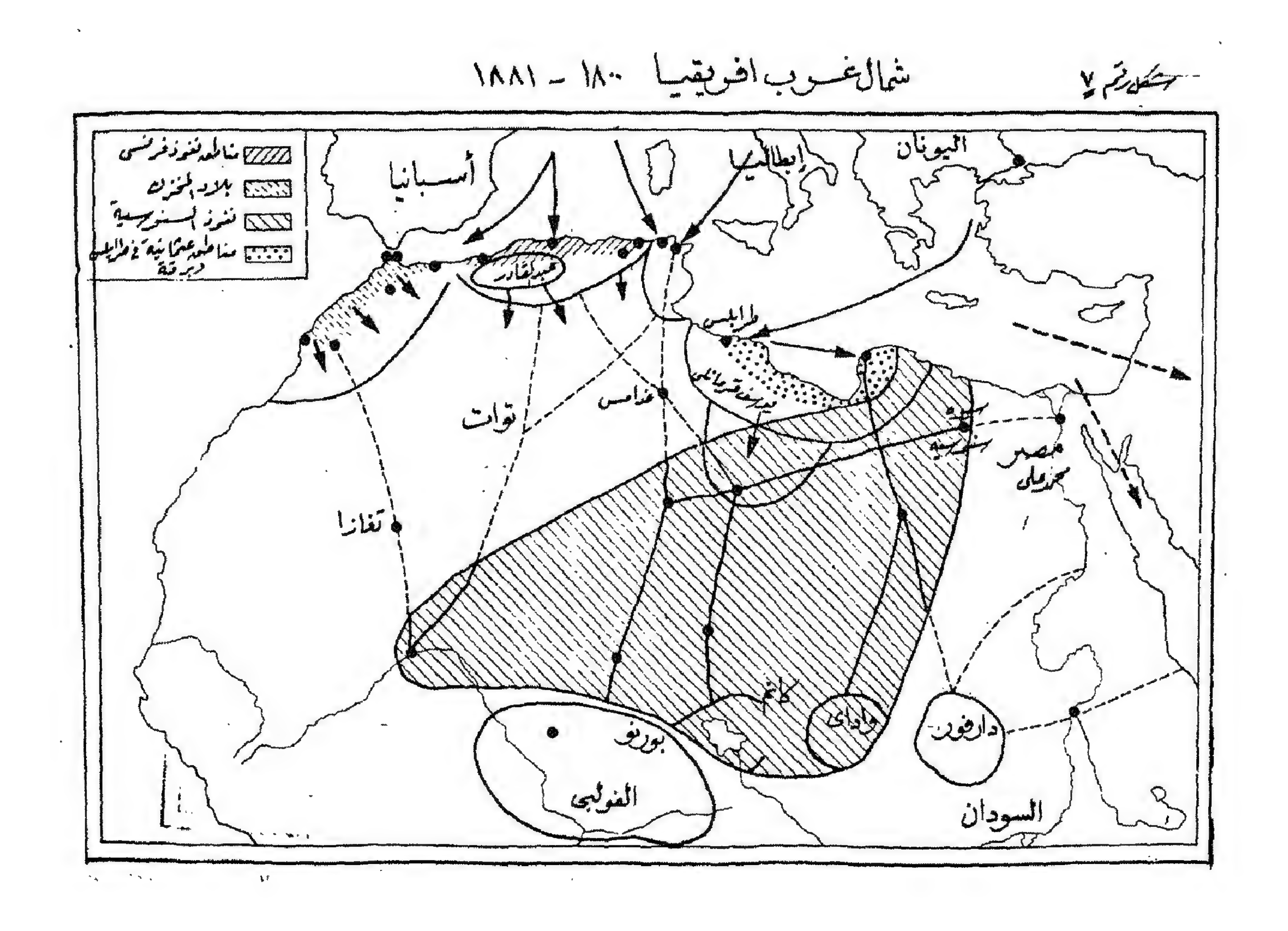

شكل رقم ٤ افريقيا جنوب خط الاستواء عام ١٨٠٠

شكل رقم ٥ شمال شرق افريقيا (التوسع المصري)





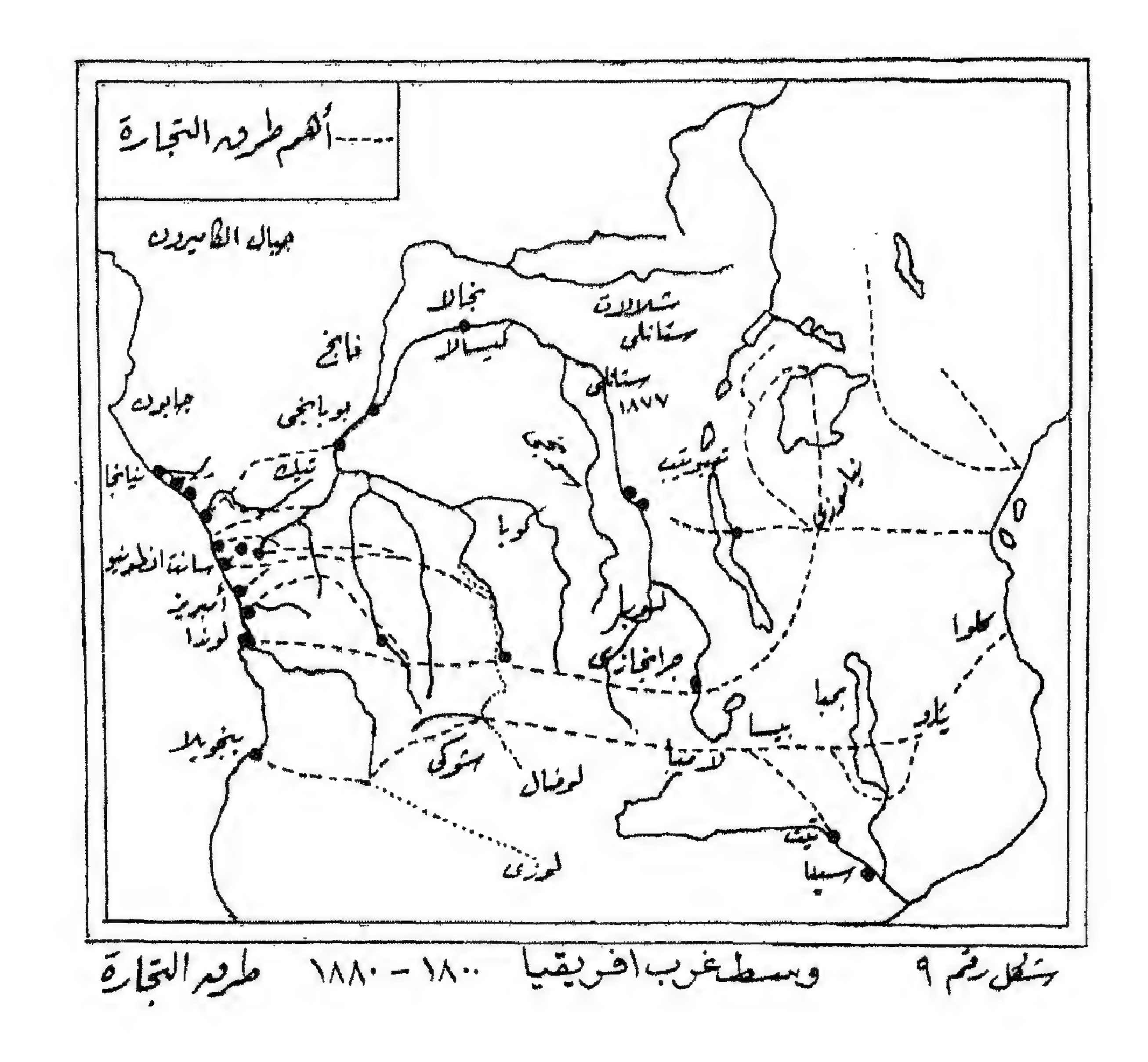

شكل رقم (٦) شمال شرق افريقيا (التوسع الأثيوبى والمهدية)



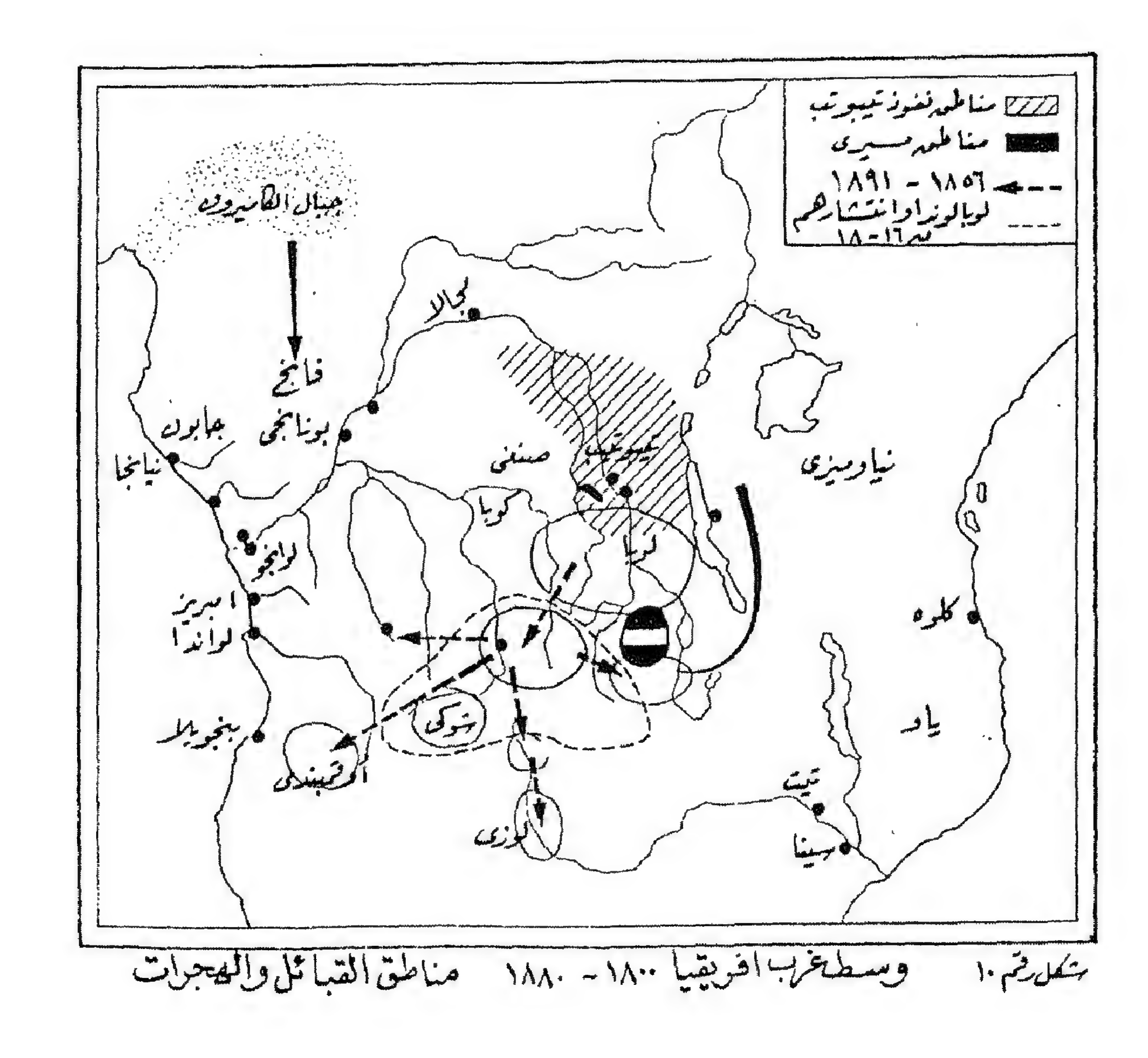
شكل رقم ٧
شمال غرب افريقيا ١٨٠٠ - ١٨٨١
مناطق نفوذ فرنسي
بلاد المخزن
نفوذ السنوسية
مناطق عثمانية في طرابلس وبرقة
أسبانيا
إيطاليا
اليونان
عبد القادر
توات
تغازا
غدامس
طرابلس
مصر
بورنو
الفولبي
واداي
دارفور
السودان



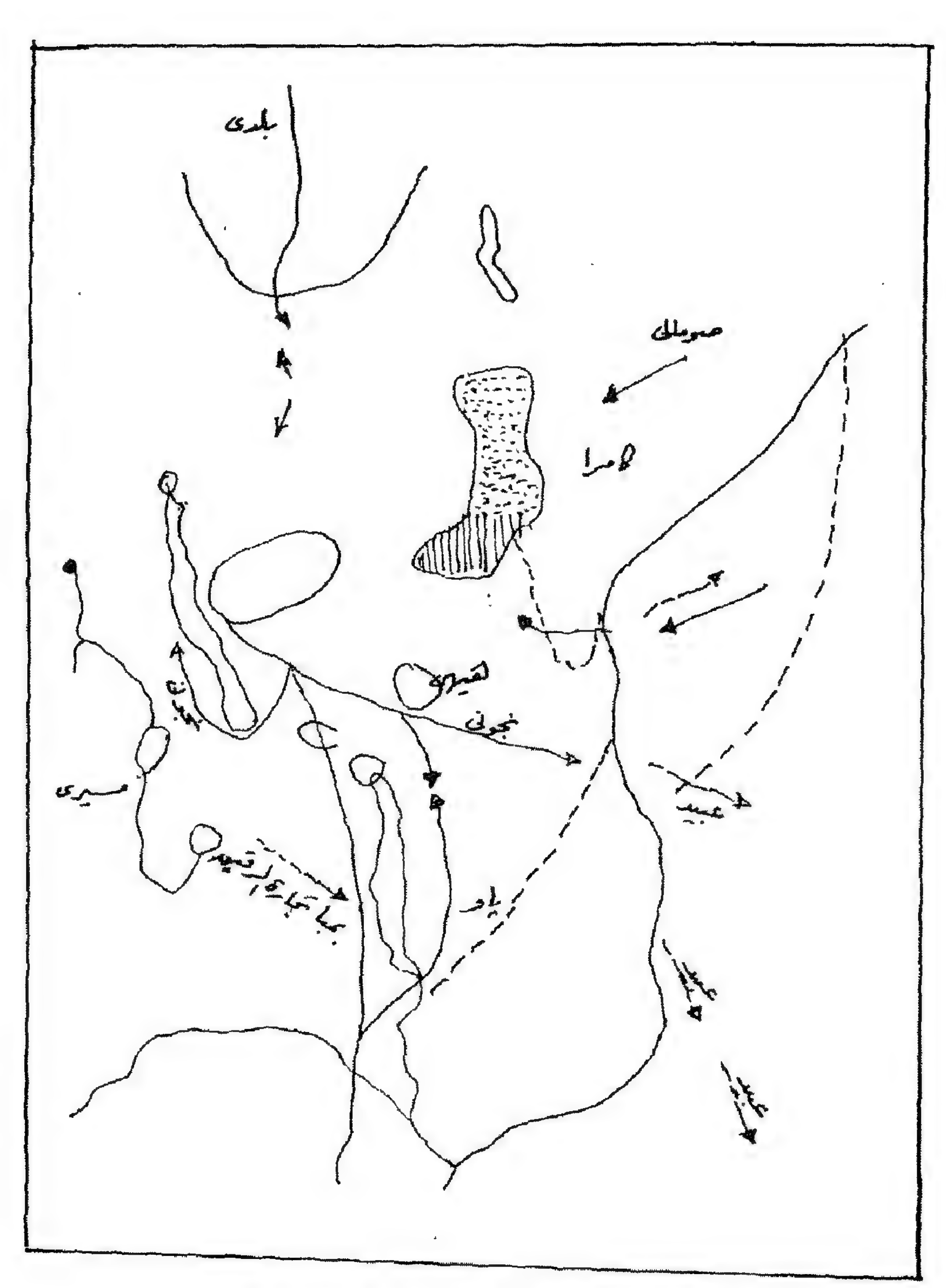

شكل رقم ٨ غرب إفريقيا ١٨٠٠ - ١٨٧٥



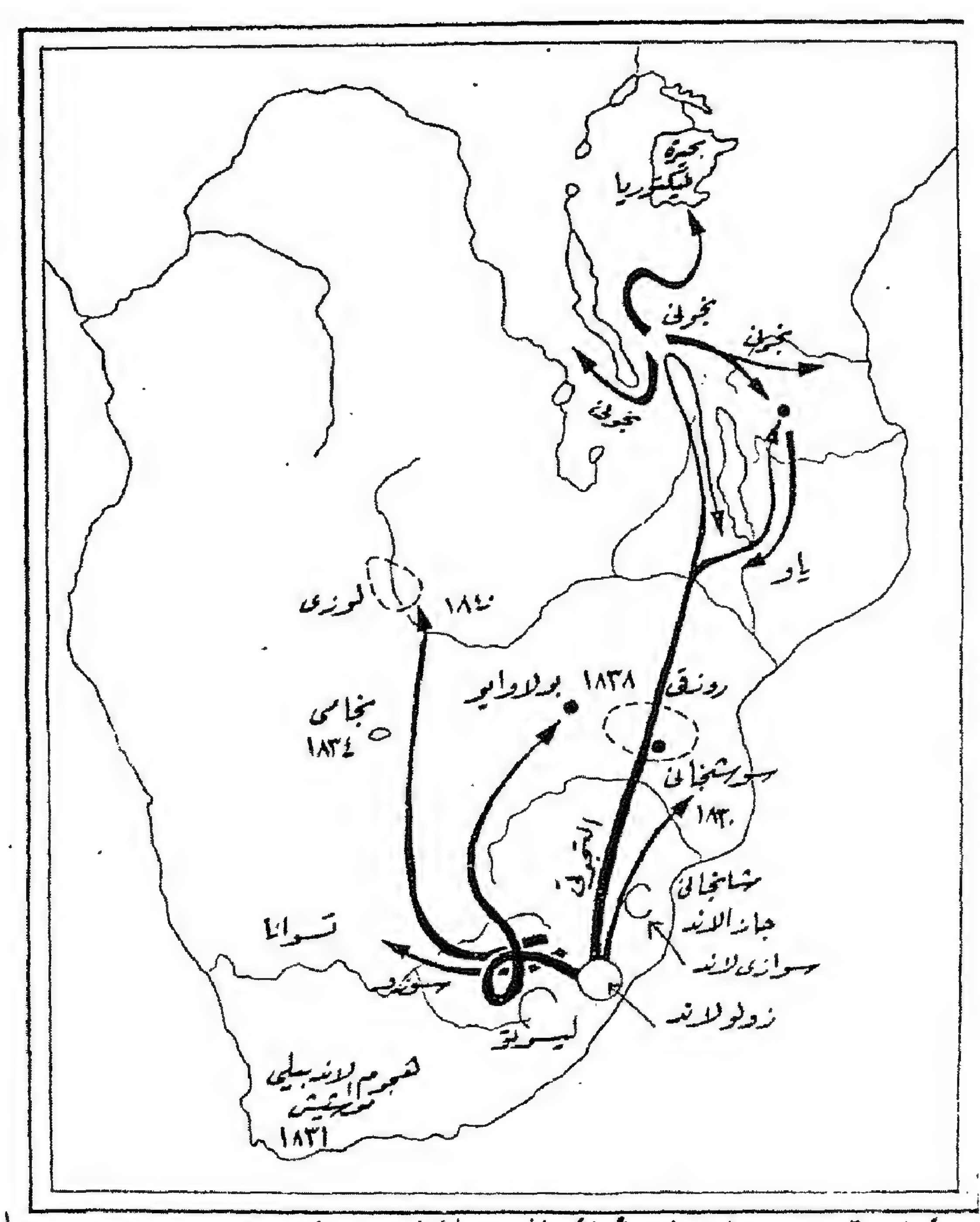

شكل رقم ٩ وسط غرب افريقيا ١٨٠٠ - ١٨٨٠ طرق التجارة



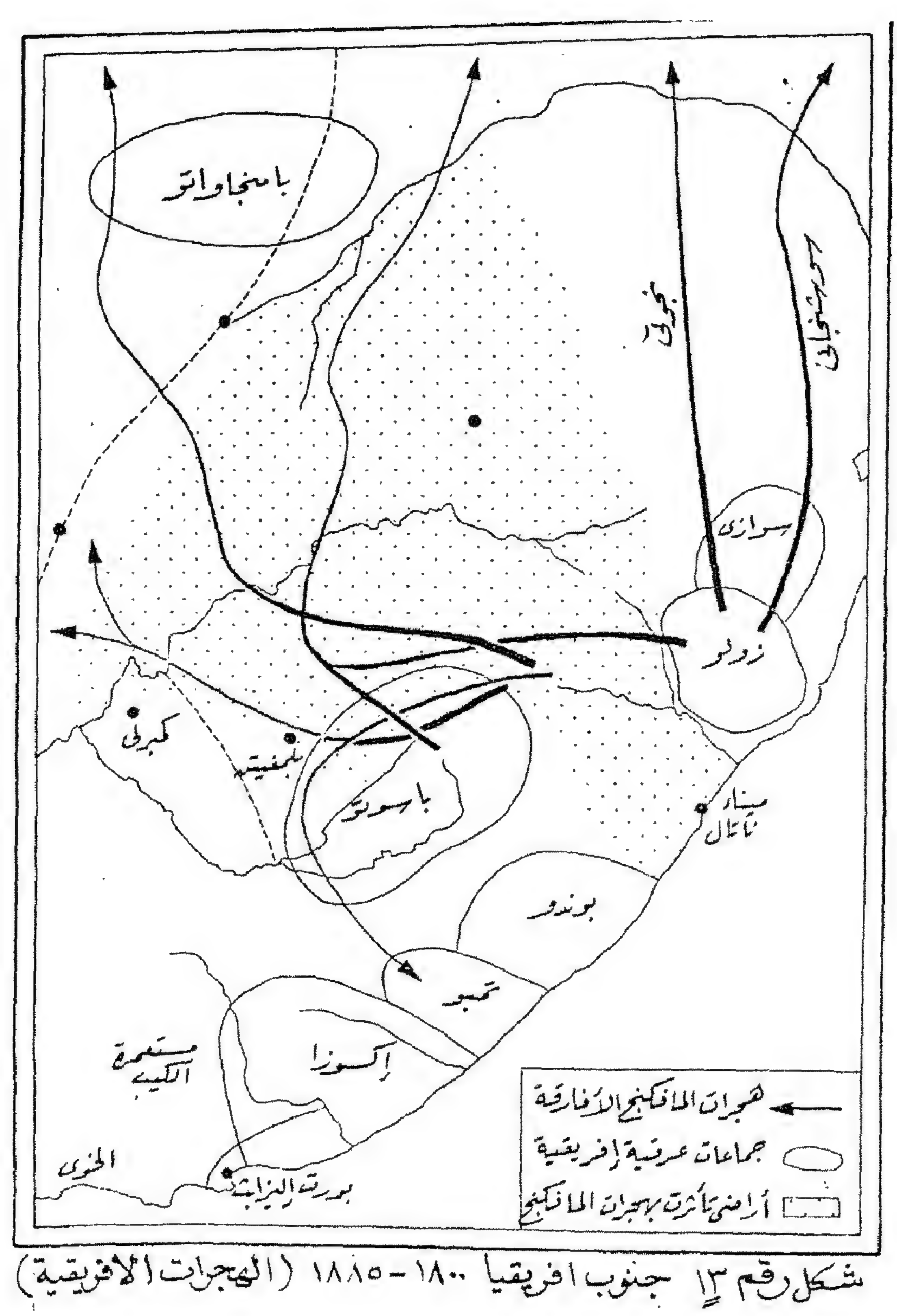

شكل رقم ١٠ وسط غرب افريقيا ١٨٠٠ - ١٨٨٠ مناطق القبائل والهجرات



شكل ١١ شرق ووسط إفريقيا ١٨٠٠- ١٨٨٤

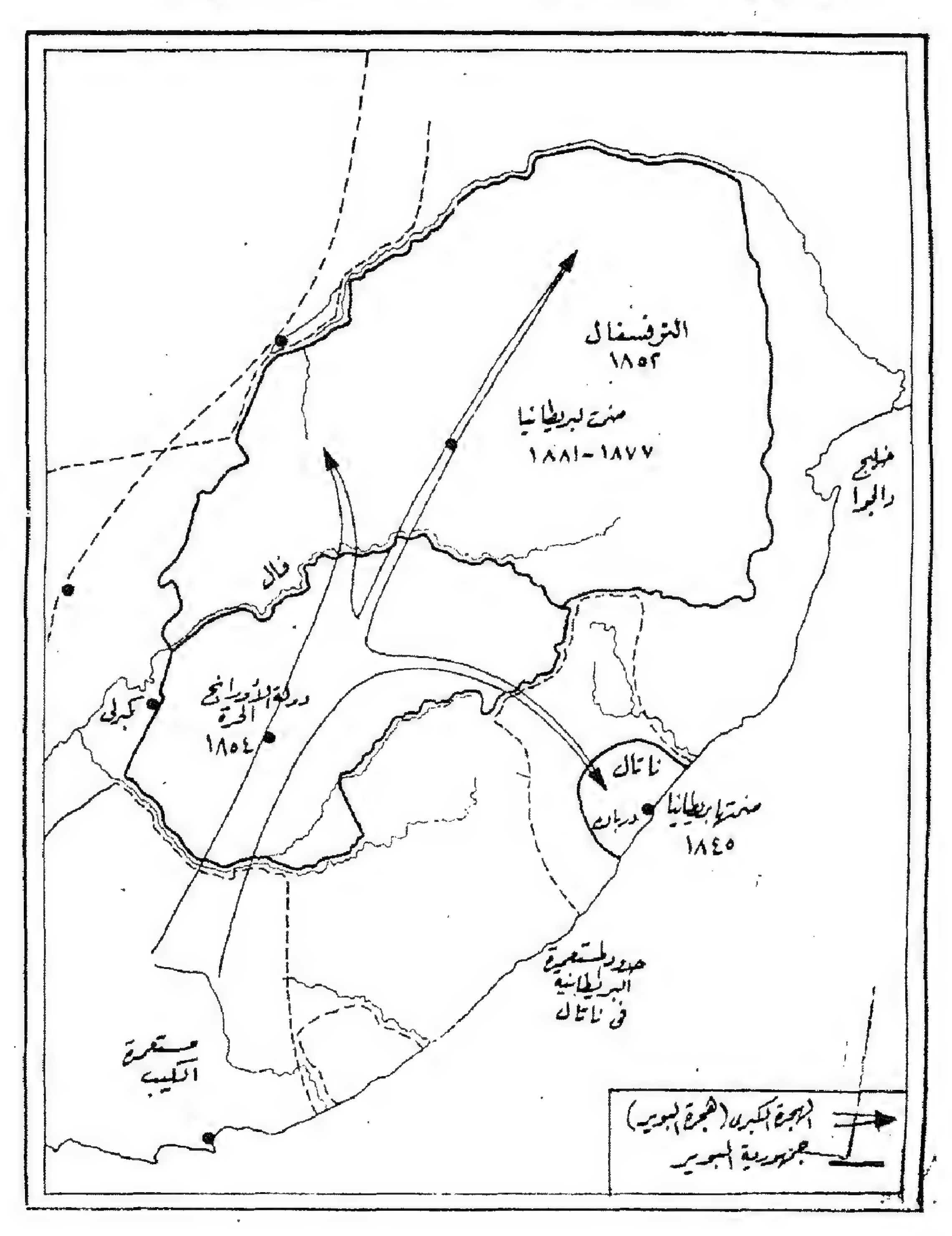


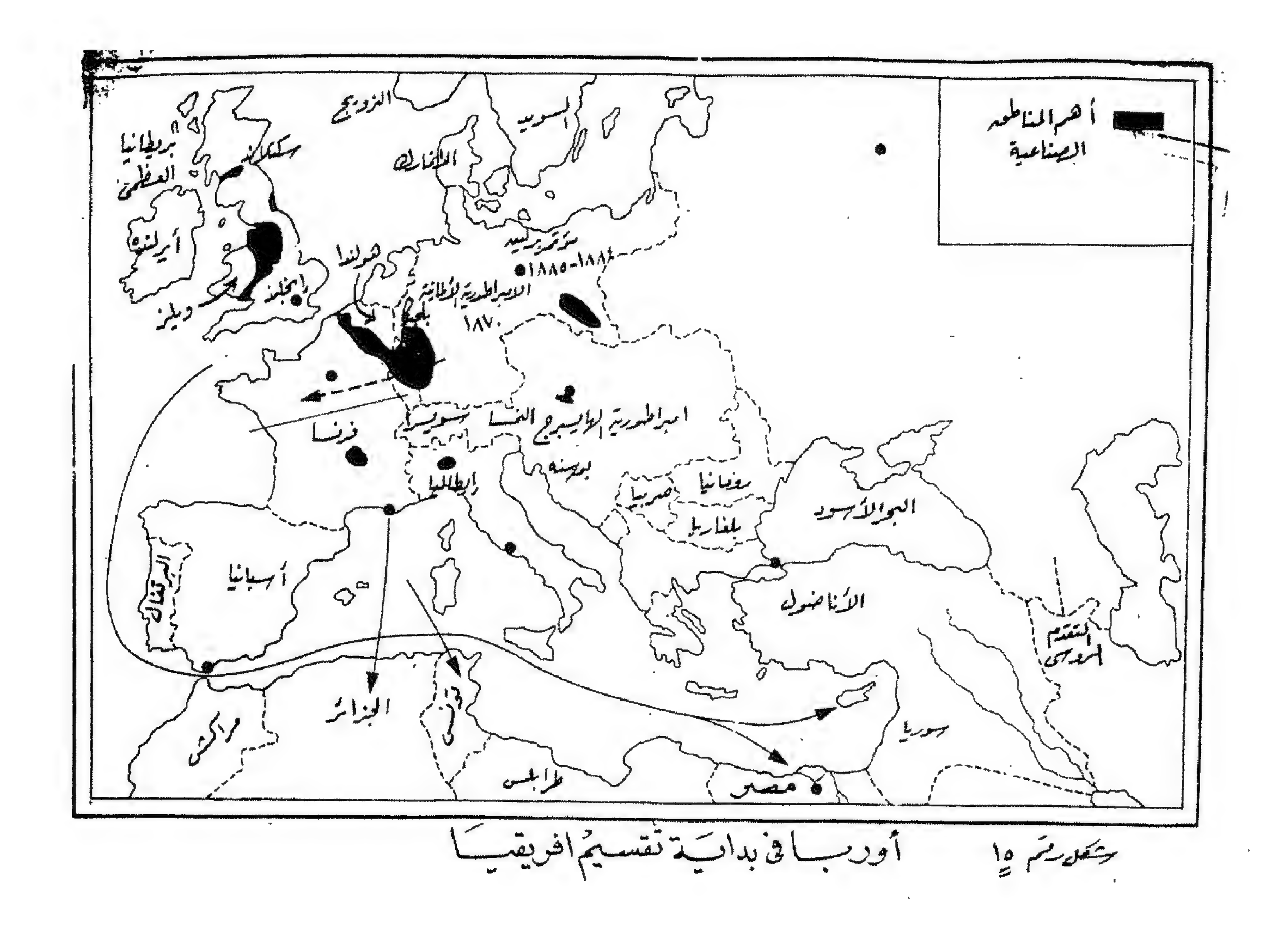

شكل رقم ١٢ الهجرات أوائل القرن التاسع عشر في جنوب وشرق افريقيا




شكل رقم ١٣ جنوب افريقيا ١٨٠٠ - ١٨١٥ (الهجرات الافريقية)

شكل رقم ١٤ جنوب افريقيا ١٨٨٠-١٨٨٥ هجرات البوير

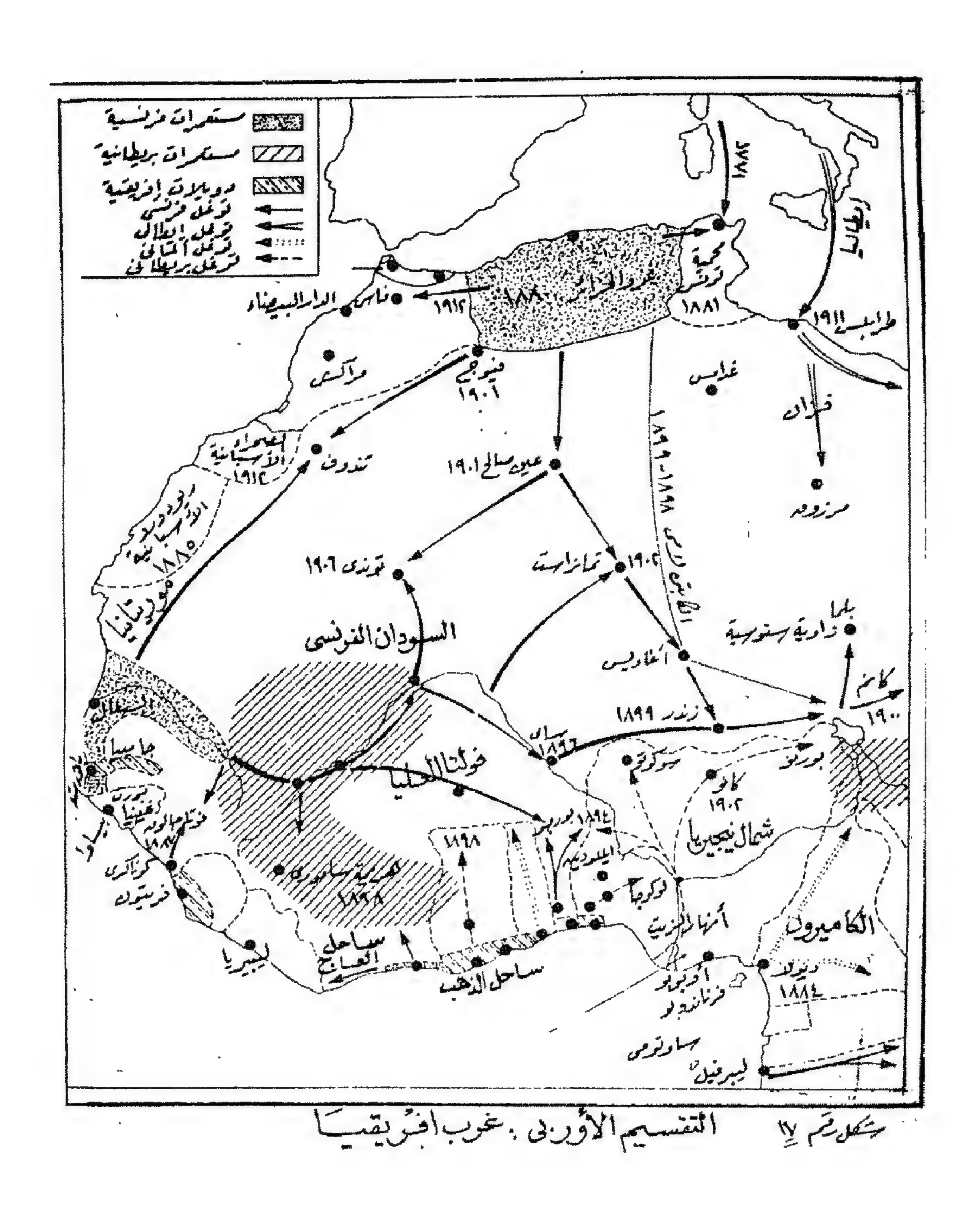




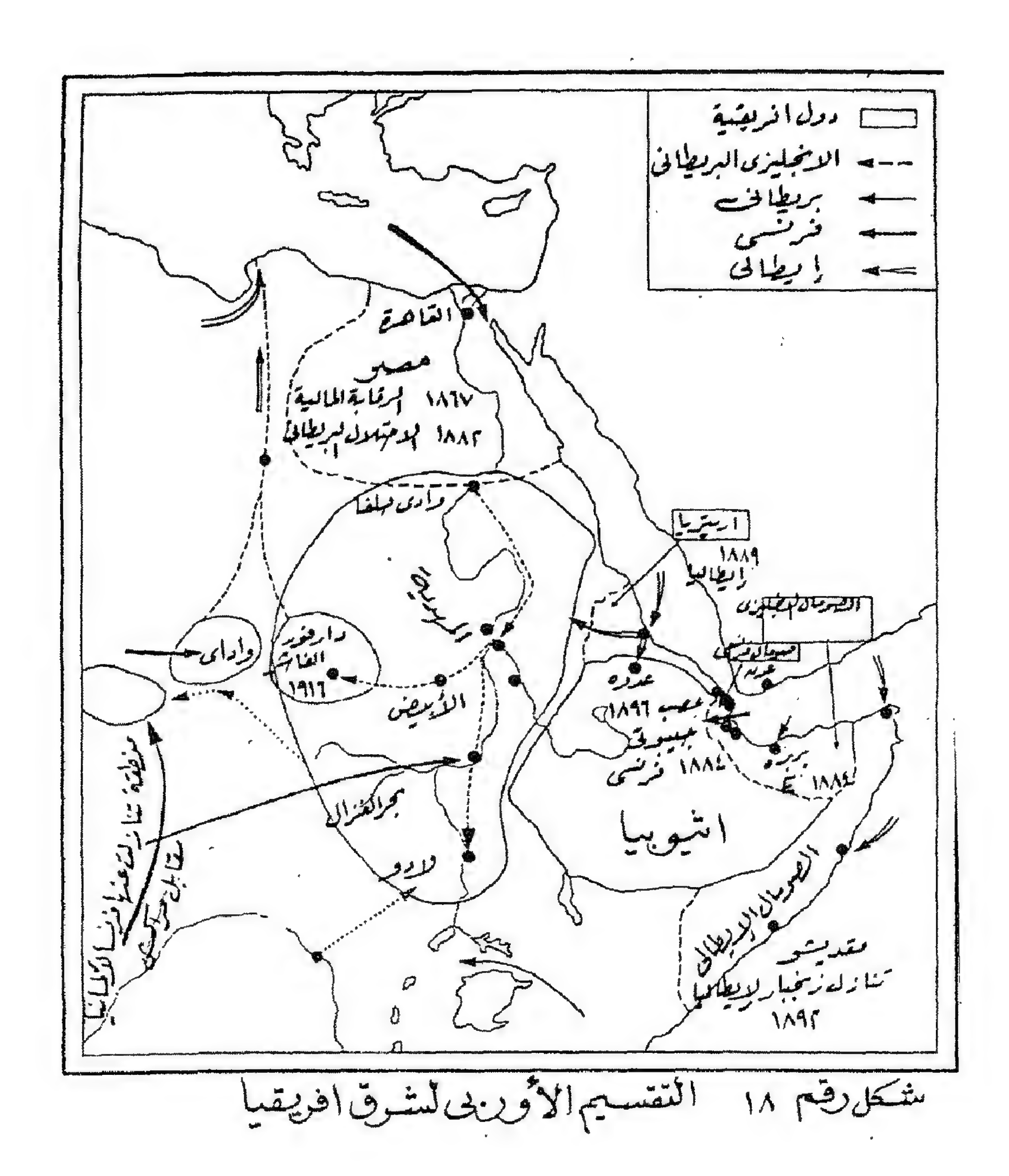

شكل رقم ١٥ أوربا في بداية تقسيم افريقيا



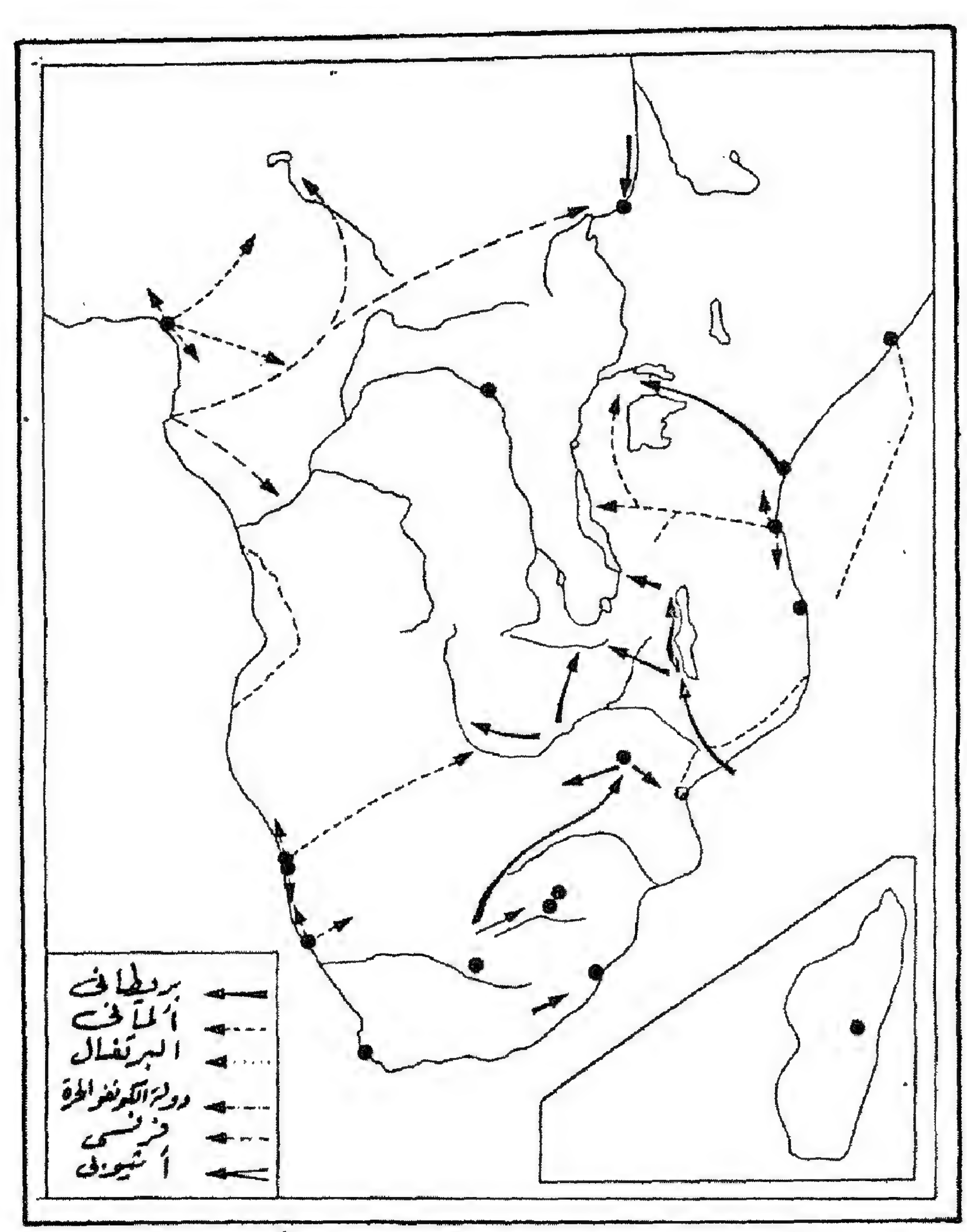

شكل رقم ١٦ افريقيا قبيل التقسيم : الدول الإفريقية والمستعمرات الأوربية



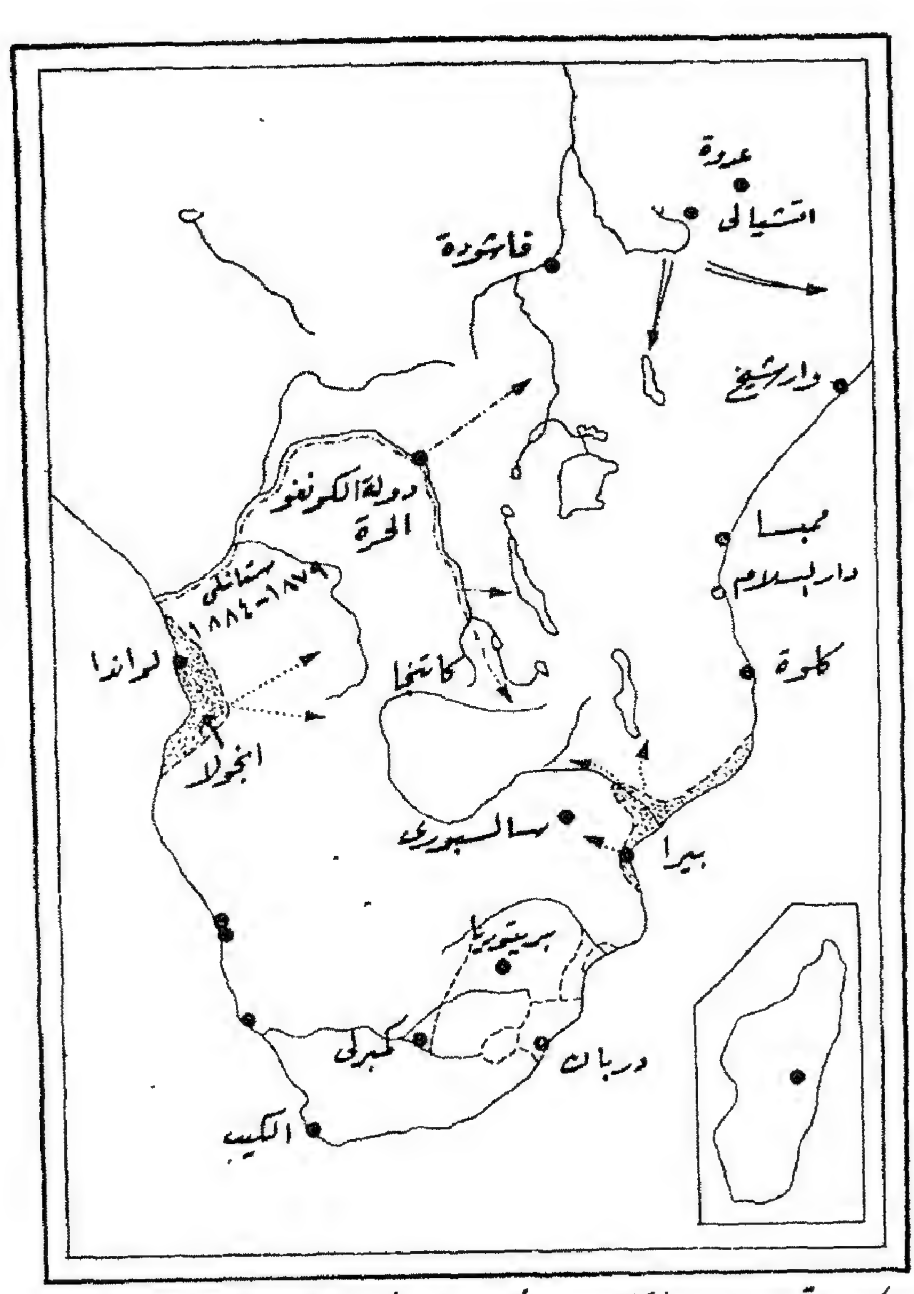
شكل رقم ١٧ التقسيم الأوربي : غرب أفريقيا



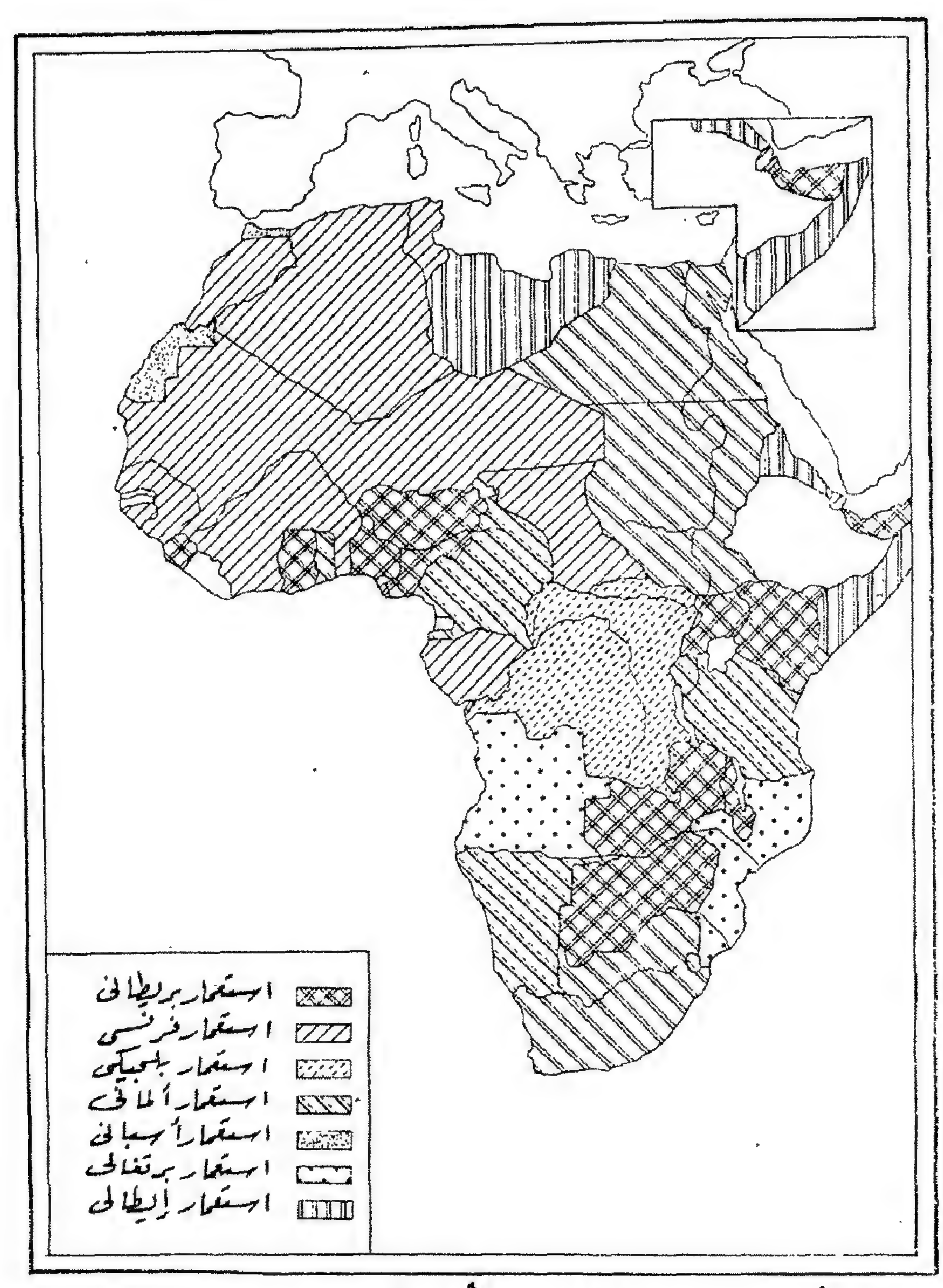

شكل رقم ١٨ التقسيم الأوربي لشرق افريقيا



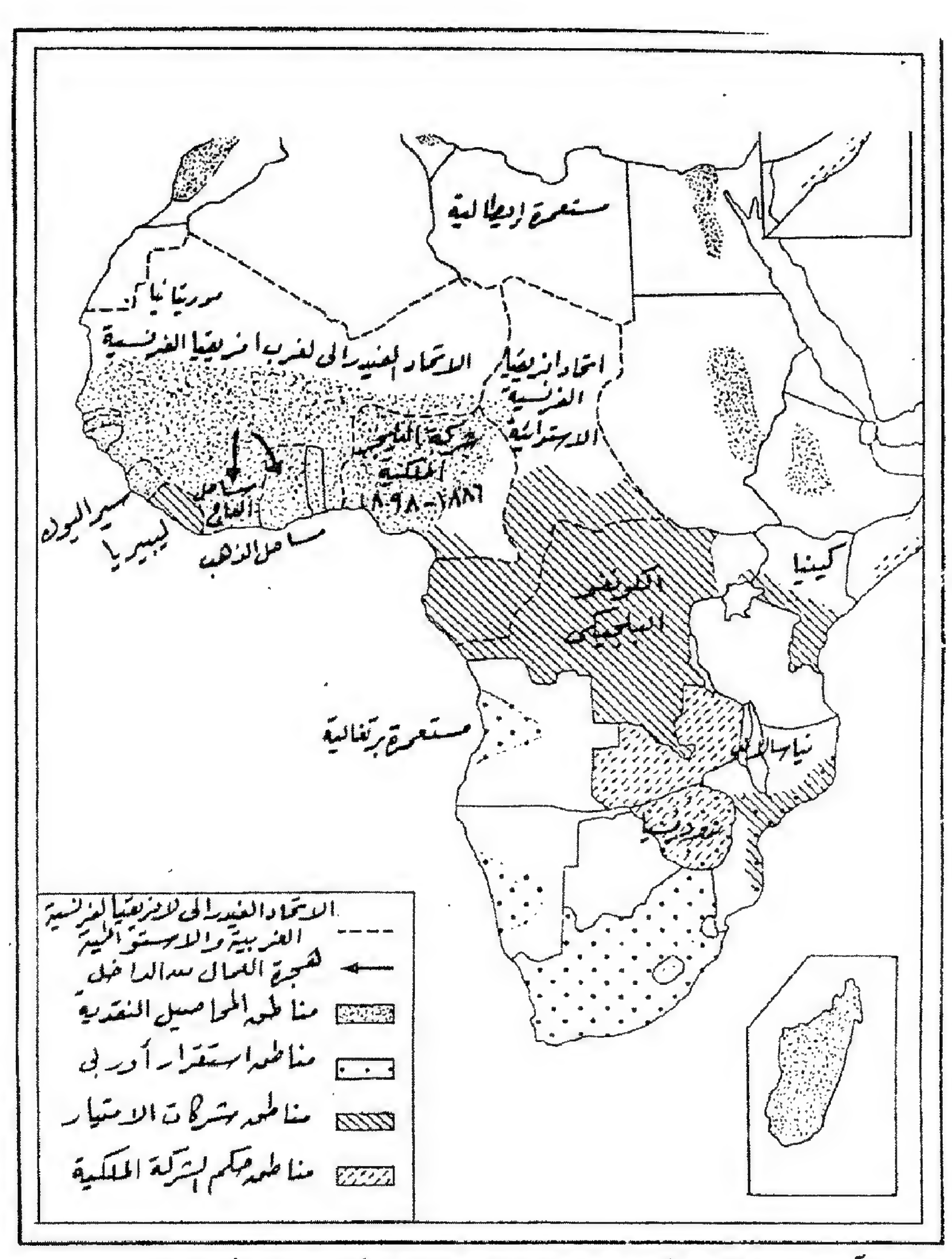

شكل رقم ١٩ جنوب افريقيا (التقسيم الأوربي)
(بريطانيا - فرنسا - ألمانيا)



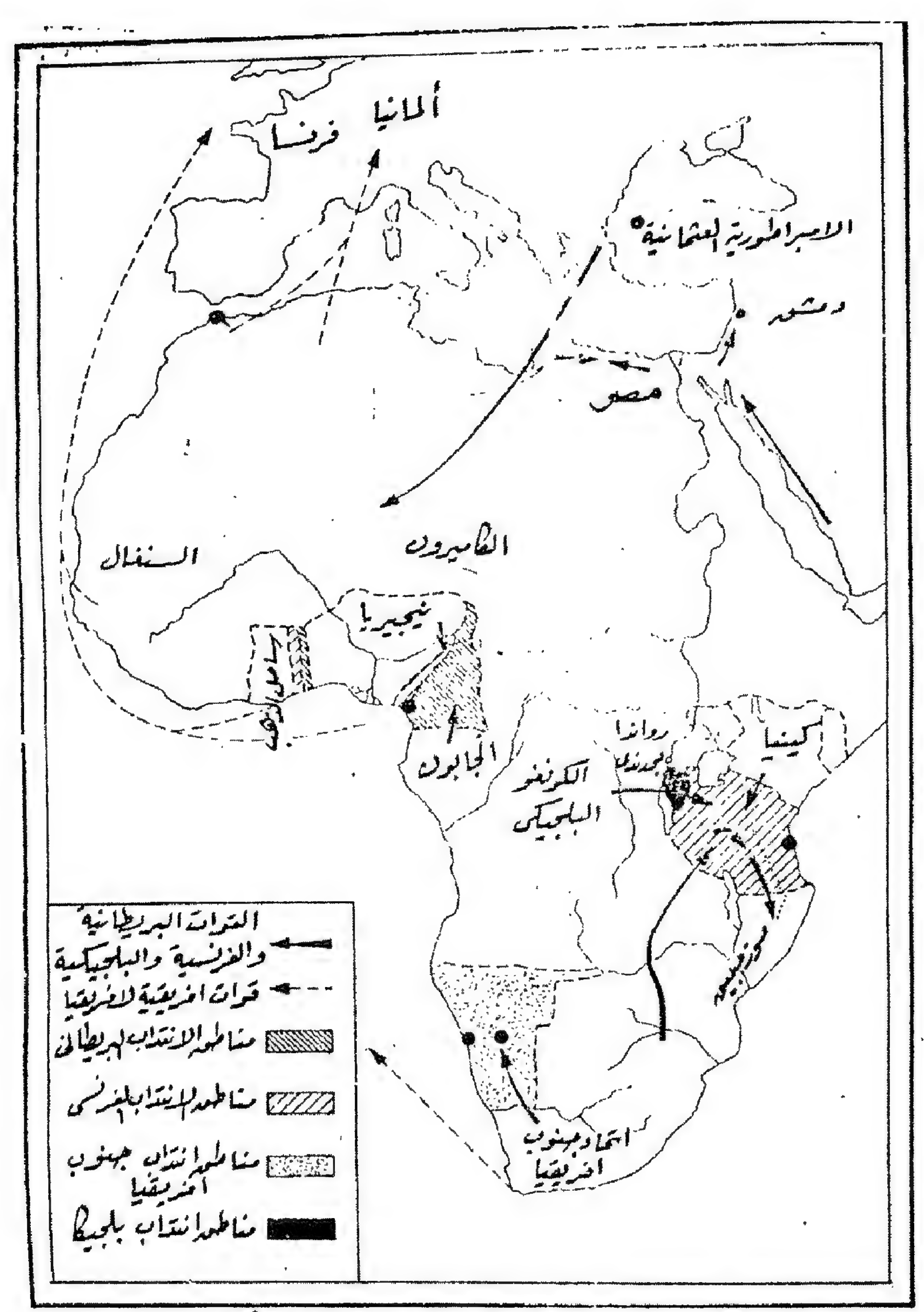

شكل رقم ٢٠ التقسيم الأوروبى ليوبولد والبرتغال - جنوب إفريقيا




شكل رقم (٢) افريقيا المرحلة الأخيرة للتقسيم ١٩١٤

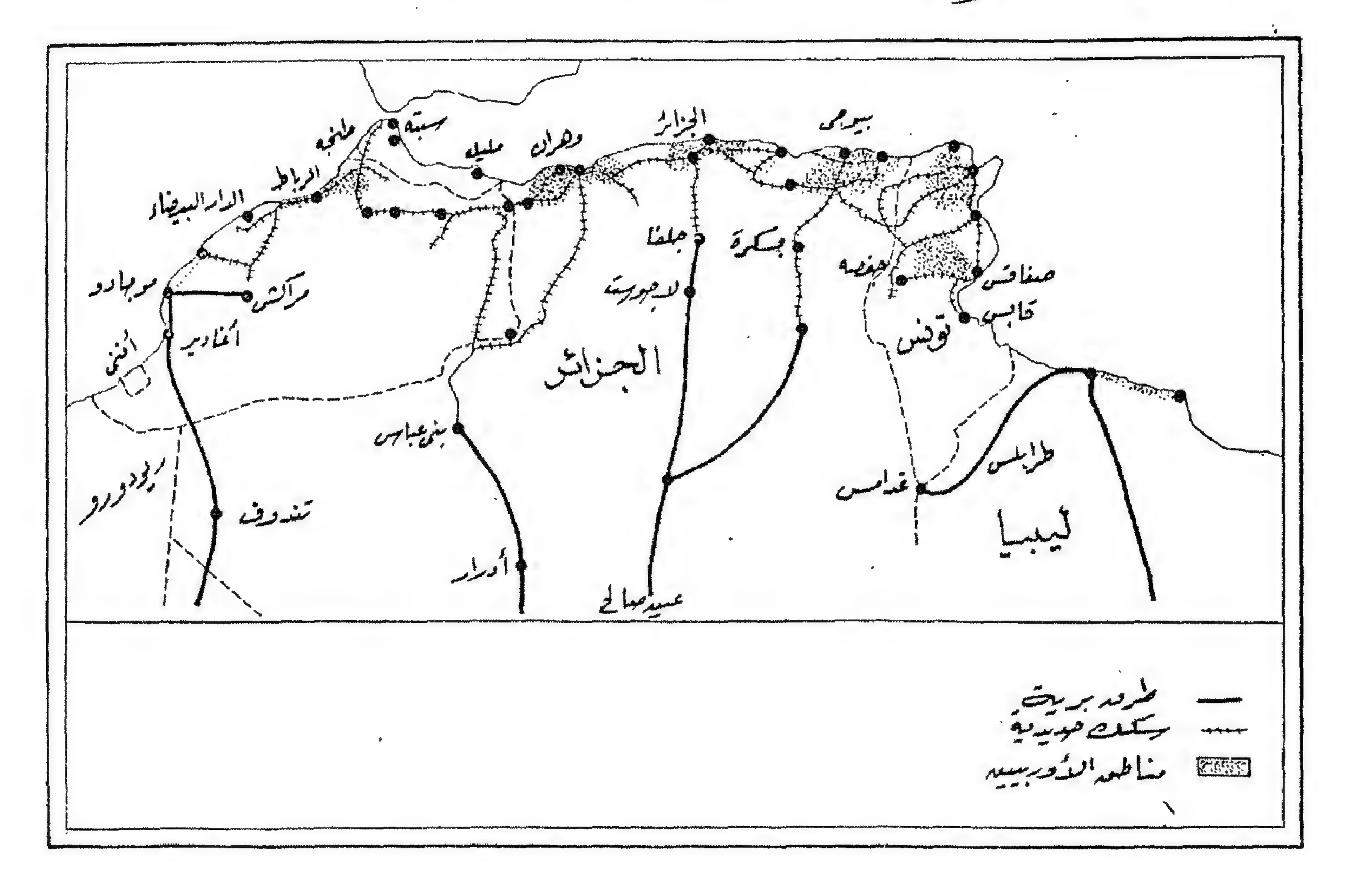



شكل رقم ٢٢ افريقيا اقتصاديات استعمارية وإدارية



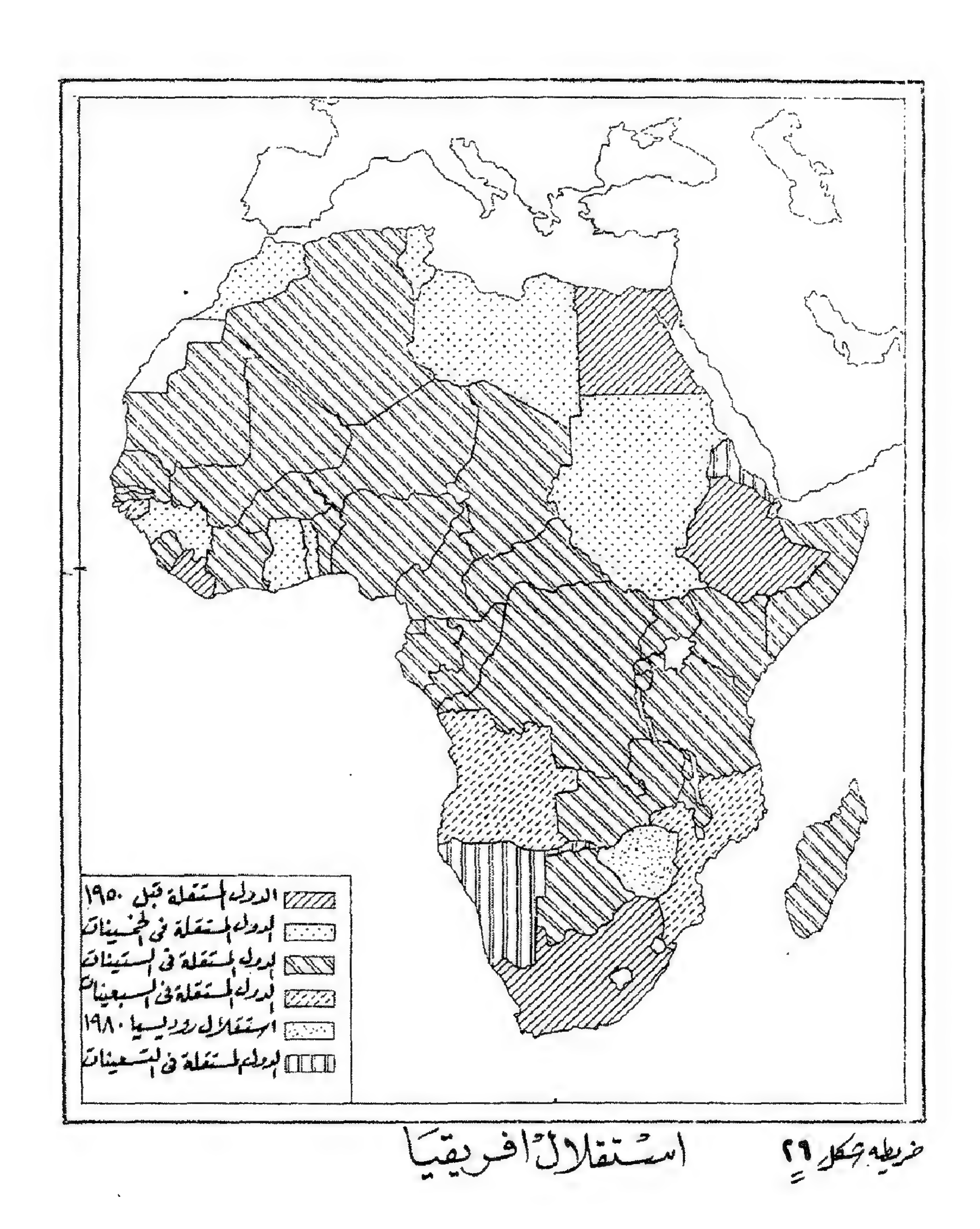

شكل رقم ٤٣ افريقيا والحرب العالمية الأولى

شكل رقم ٤٢ المغرب : التطور الاقتصادي خلال الفترة الاستعمارية

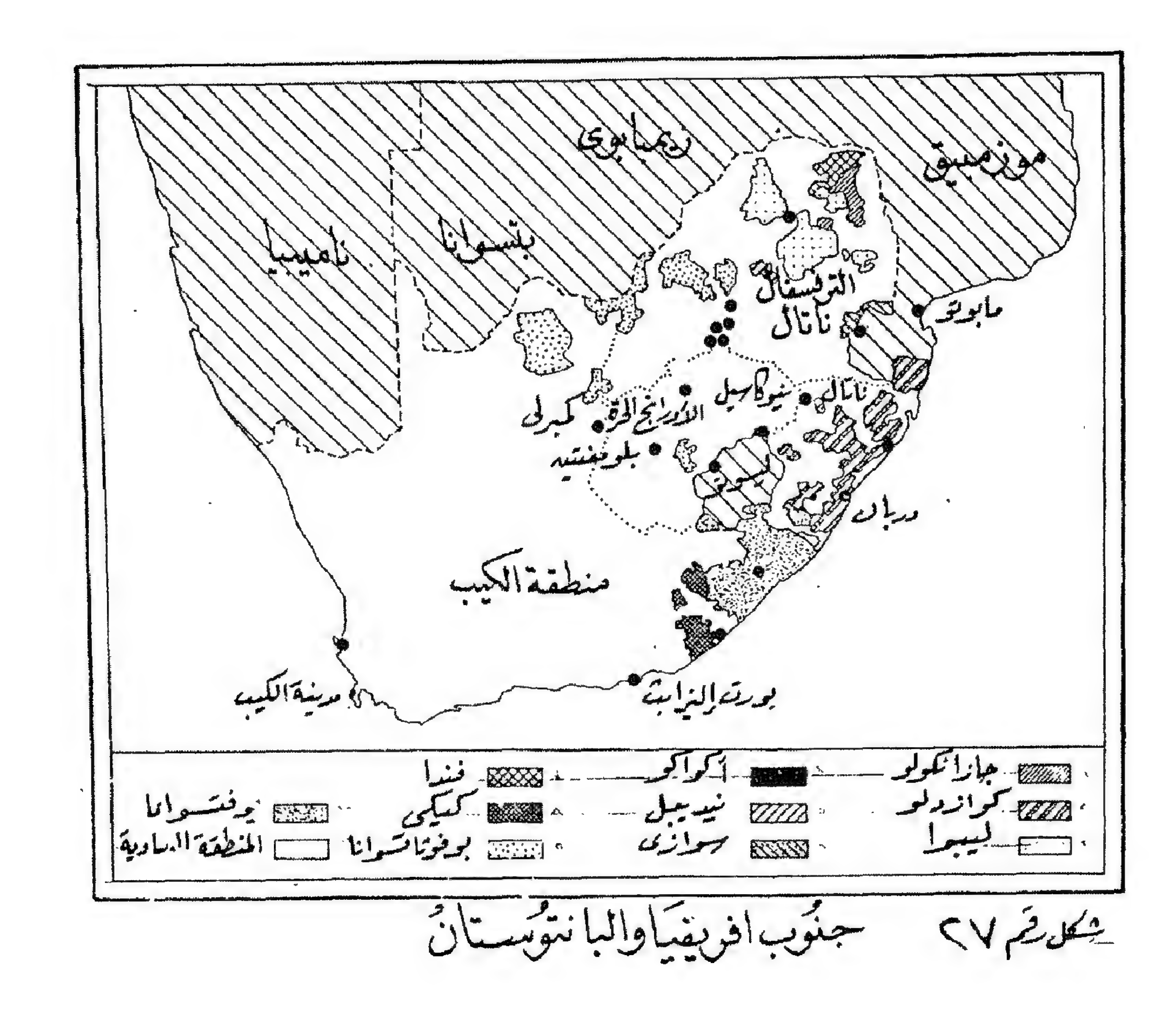





شكل رقم ٥٢ شمال شرق إفريقيا تحت الحكم الاستعماري
التطور الاقتصادي والسياسي




خريطة شكل ٢٩ استقلال افريقيا




شكل رقم ٢٧ جنوب افريقيا والبانتوستان

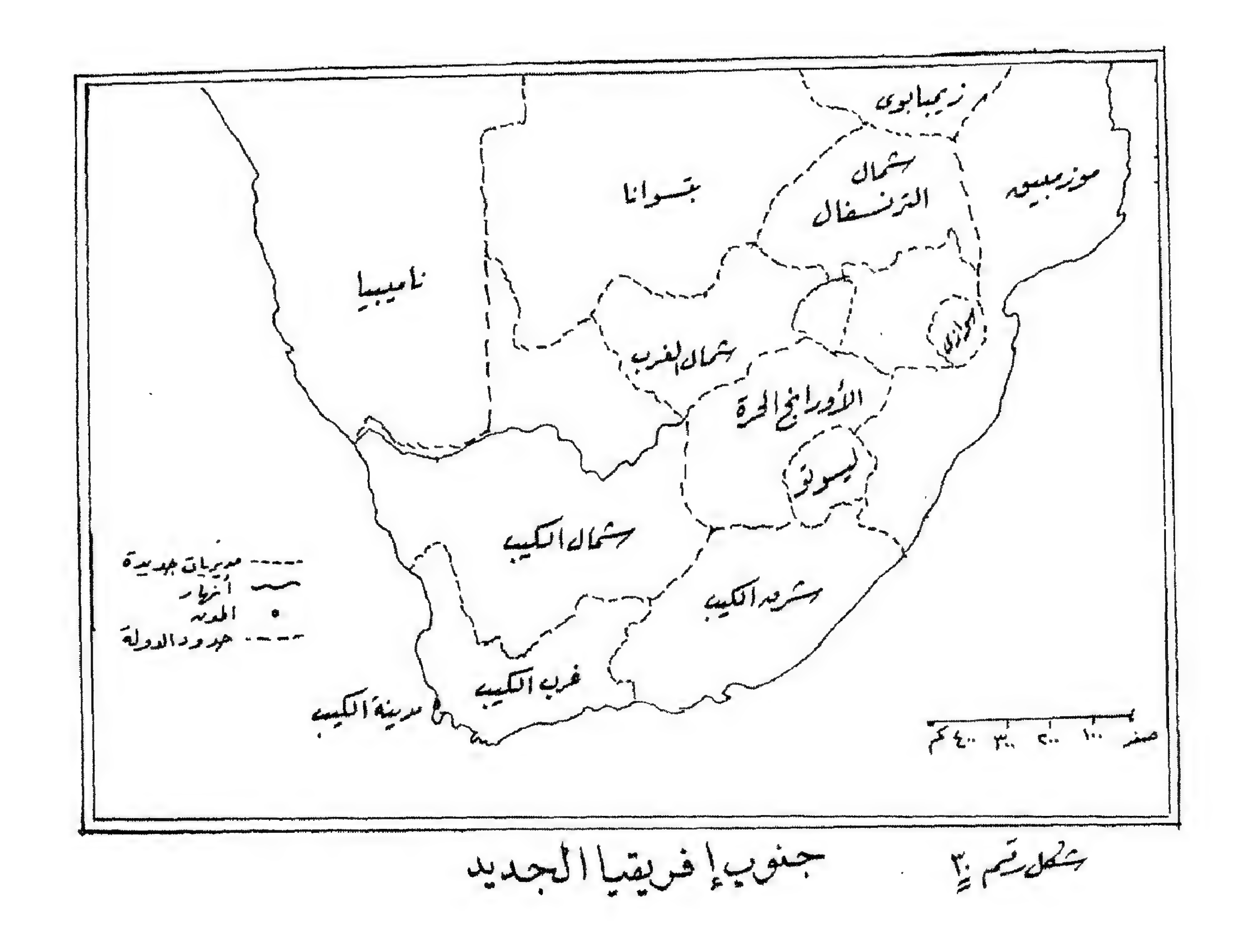



شكل رقم ٢٨ - نيجيريا أربعة عقود من الاستقلال

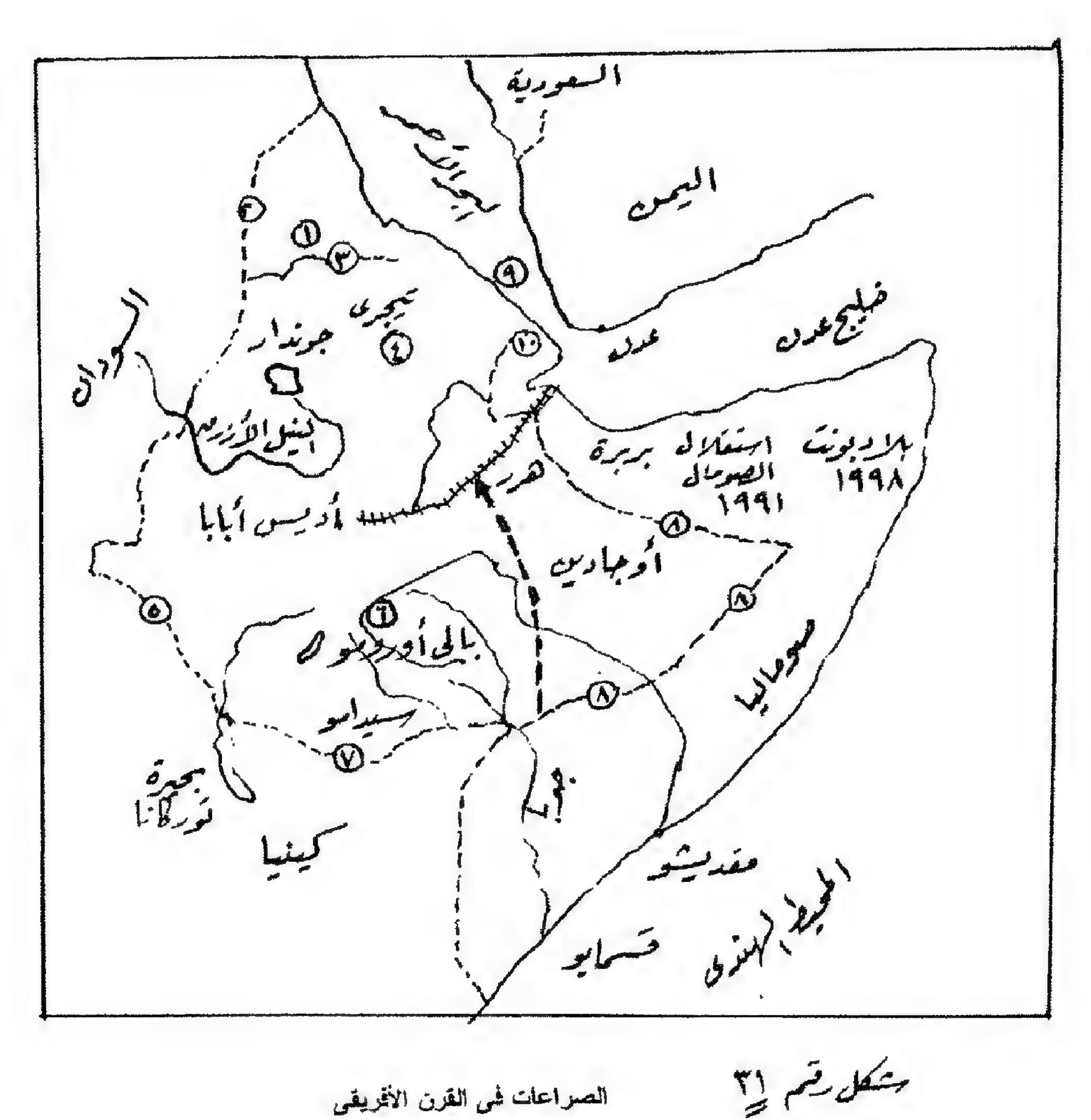
شكل رقم ٢٩ إفريقيا والحرب الباردة

حدود هندسية
حدود بحيرية
حدود نهرية

١- نظام اشتراكي وماركسي في الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٩٠
٢- تغيير الولاء من السوفيتية إلى الولايات المتحدة
٣- دعم أمريكي كامل
٤- الدول الإسلامية الاشتراكية
٥- منطقة الفرنك
٦- أبرز مناطق الحرب الباردة ٧- ⟵ تورط قوات جنوب افريقيا




شكل رقم ٣٠: جنوب إفريقيا الجديد




شكل رقم ٣١ الصراعات فى القرن الأفريقى

---

١- ١٩٦١ – ١٩٩٠ الصراع الوطنى الاريترى ضد أثيوبيا .

٢- الصراعات السودانية الأثيوبية ١٩٩٥ – ١٩٩٨ .

٣- الحرب الأثيوبية الارتيرية ١٩٩٨ – ١٩٩٩.

٤- جبهة تحرير شعب تيجرى ١٩٧٥ – ١٩٨٥ .

٥- التورط الأثيوبى فى الحرب الأهلية فى جنوب السودان .

٦- جبهة تحرير أورومو ١٩٧٥ – ١٩٩١ .

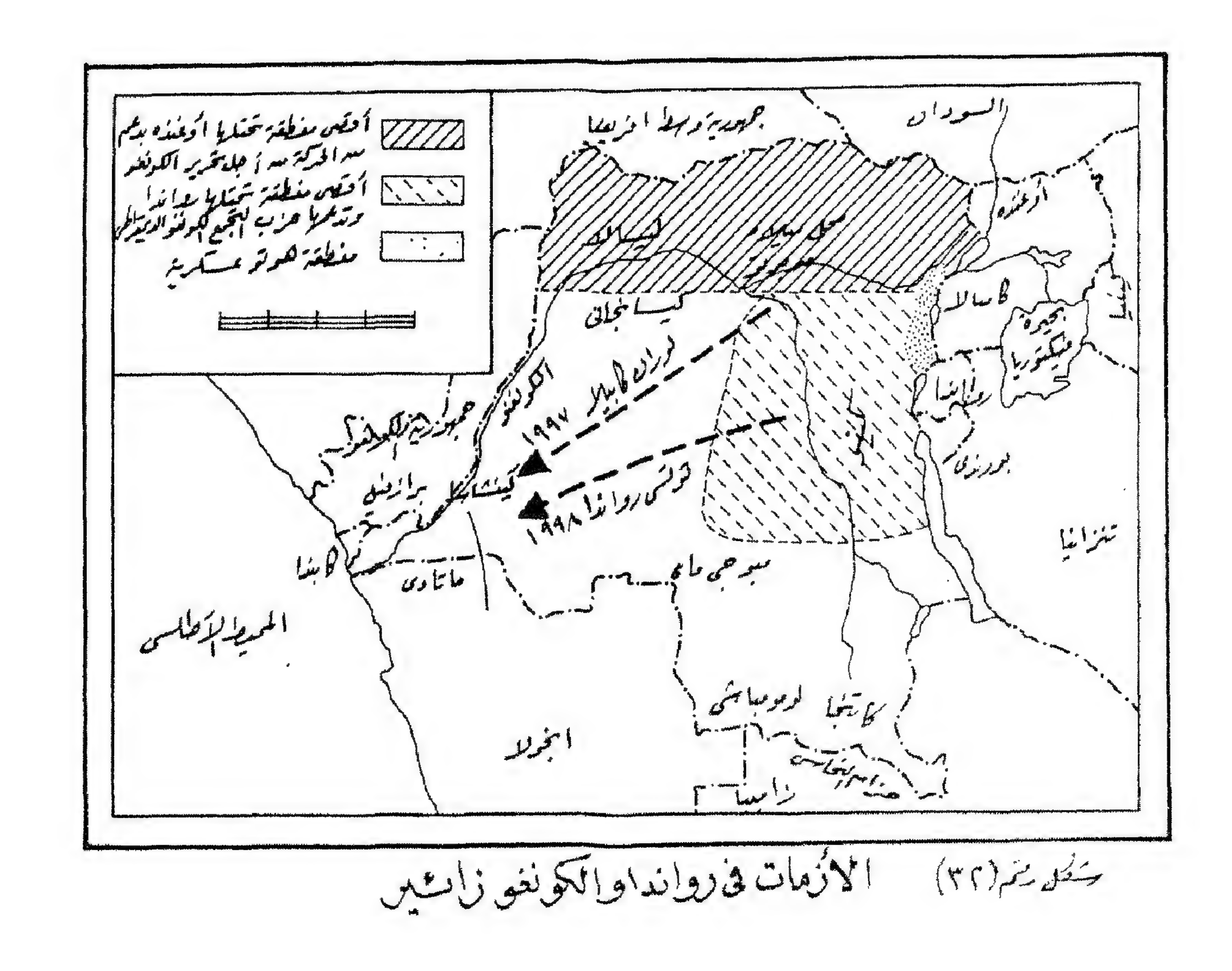
٧- التدخل الأثيوبى فى كينيا .

٨- الحروب الأثيوبية الصومالية فى السبعينيات والتسعينيات

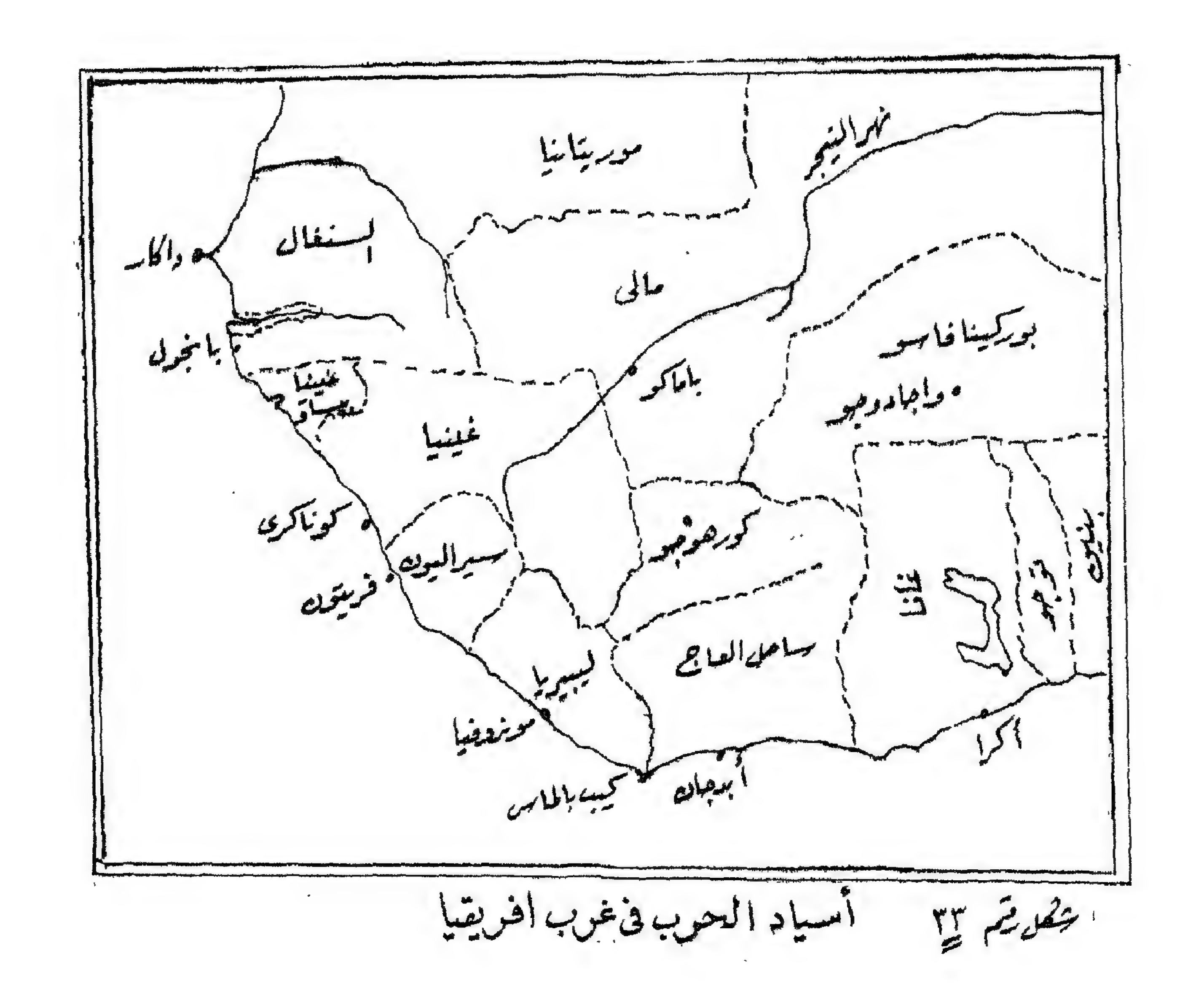
– جبهة تحرير أوجادين والوصول الى هرر و خط السكة الحديد.

٩- الصراع اليمنى الارتيرى واحتلال ارتيريا لجزر حنيش ١٩٩٥ .

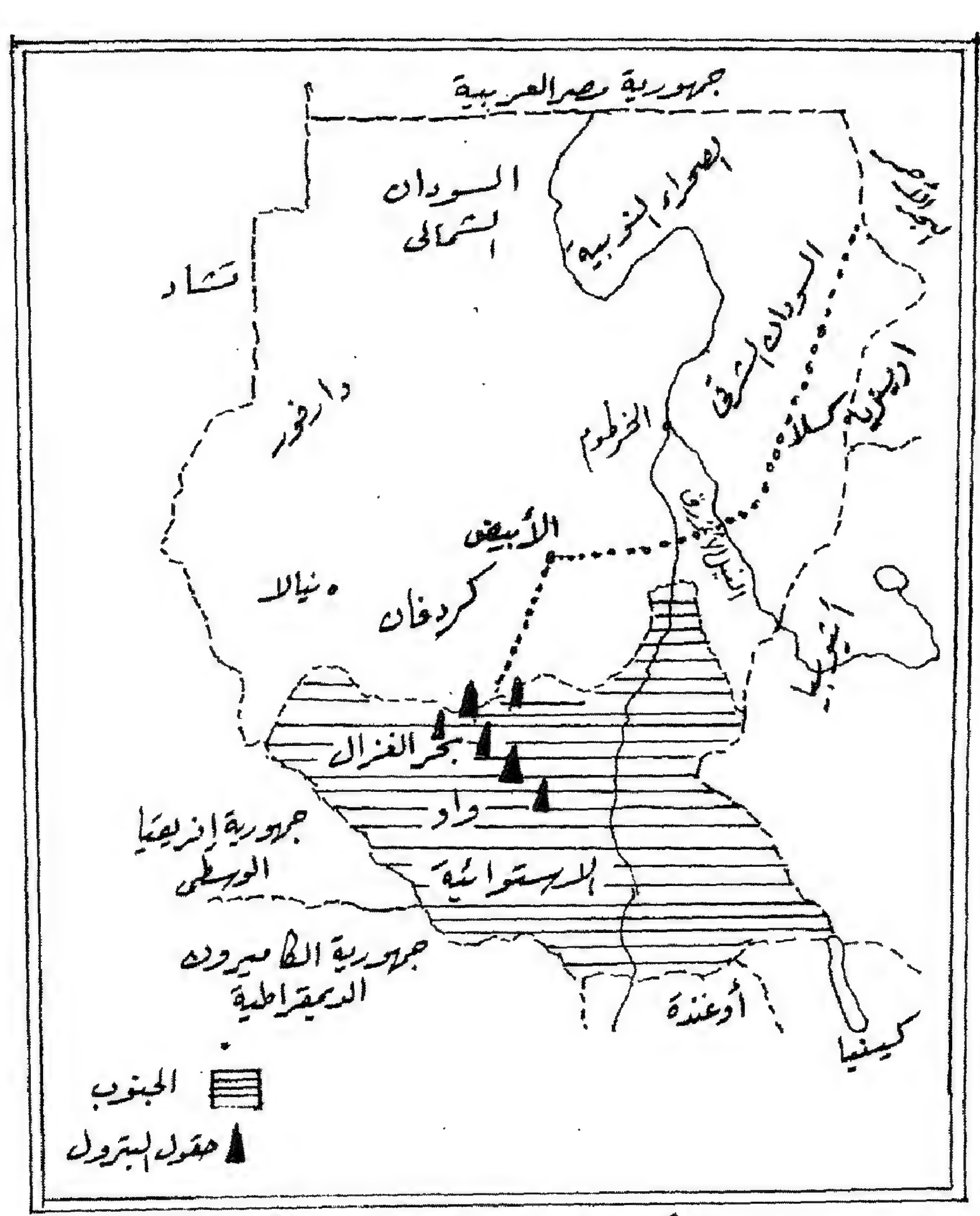
١٠- صراع الحدود بين جيبوتى واريتريا ١٩٩٥ .




شكل رقم (٣٢) الأزمات في رواندا والكونغو زائير




شكل رقم ٣٣ أسياد الحروب في غرب افريقيا




شكل رقم ٣٤ السُّودَانْ (الشمالْ مقابل الجَنُوبْ)




شكل رقم ٣٥ حقول البترول في إفريقيا

# المراجـــع

J. F. Ade Ajayi (ed.), *General History of Africa IV: Africa in the Nineteenth Century until the 1880s*, Paris, UNESCO, 1989.

John E. Flint (ed.), *Cambridge History of Africa V, c1780–c1870*, Cambridge, 1976.

Roland Oliver and G. N. Sanderson (eds.), *Cambridge History of Africa VI, c1870–c1905*, Cambridge, 1985.

A. A. Boahen (ed.), *General History of Africa VII: Africa under Colonial Domination 1880–1935*, Paris, UNESCO, 1985.

A. D. Roberts (ed.), *Cambridge History of Africa VII: 1905–1940*, Cambridge, 1986.

Michael Crowder (ed.), *Cambridge History of Africa VIII: 1940–1975*, Cambridge, 1984.

A. A. Mazrui (ed.), *General History of Africa VIII: Africa since 1935*, Paris, UNESCO, 1993.

Thomas Pakenham, *The Scramble for Africa*, London, 1991.

Suzanne Miers and Richard Roberts (eds.), *The End of Slavery in Africa*, Wisconsin, 1985.

L. H. Gann and Peter Duignan (eds.), *Colonialism in Africa 1870–1960*, 5 vols., Cambridge, 1969–75.

Bill Freund, *The Making of Contemporary Africa: The Development of African Society since 1800*, Boulder, CO, 1998.

Frederick Cooper, *Africa since 1940*, Cambridge, 2002.

John Iliffe, *The African Poor: A History*, Cambridge, 1987.

## Suggestions for Further Reading

Patrick Manning, *Francophone Sub-Saharan Africa, 1880–1995*, Cambridge, 1999.

David Killingray and Richard Rathbone (eds.), *Africa and the Second World*

*War*, New York, 1986.
Prosser Gifford and Wm Roger Louis (eds.), *The Transfer of Power in Africa: Decolonisation 1940–1960*, New Haven, CT, 1982.
David Birmingham, *Decolonisation in Colonial Africa*, London, 1995.
John D. Hargreaves, *Decolonisation in Africa*, 2nd ed., Harlow, 1996.
Adrian Hastings, *A History of African Christianity 1950–1975*, Cambridge, 1979.
Paul Darby, *Africa, Football and FIFA: Politics, Colonialism and Resistance*, London, 2002.
J. F. Ade Ajayi and Michael Crowder (eds.), *Historical Atlas of Africa*, London, 1983.
World Bank, *Can Africa Claim the 21st Century?*, Washington, 2000.

#### NORTH AND NORTH-EAST AFRICA

J. M. Abun-Nasr, *A History of the Maghrib*, 2nd ed., Cambridge, 1975.
C. R. Pennell, *Morocco since 1830: A History*, London, 1999.
Benjamin Stora, *Algeria, 1830–2000: A Short History*, Cornell UP, 2001.
John Ruedy, *Modern Algeria: The Origins and Development of a Nation*, Bloomington, 1992.
Charles-Robert Ageron, *Modern Algeria: A History from 1830 to the Present*, London, 1991.
Derek Hopwood, *Habib Bourguiba of Tunisia: The Tragedy of Longevity*, London, 1992.
Ali A. Ahmidam, *The Making of Modern Libya*, New York, 1994.
M. W. Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt II: Modern Egypt, from 1517 to the End of the Twentieth Century*, Cambridge, 1998.
Afaf Latfi al-Sayyid Marsot, *A Short History of Modern Egypt*, Cambridge, 1985.
Robert Collins and Robert Tignor, *Egypt and the Sudan*, Englewood Cliffs, 1967.
Douglas H. Johnson, *The Root Causes of Sudan's Civil Wars*, Oxford, 2003.
Deborah Scroggins, *Emma's War*, Atlanta/London, 2003.
Bahru Zewde, *History of Modern Ethiopia, 1855–1991*, Athens/Oxford, 2002.
Donald Crummey, *Land and Society in the Christian Kingdom of Ethiopia from the 13th to the 20th Century*, Oxford, 2002.
Ruth Iyob, *The Eritrean Struggle for Independence: Domination, Resistance, Nationalism, 1941–1993*, Cambridge, 1995.

I. M. Lewis, *A Modern History of the Somali*, Oxford, 2002.

## Suggestions for Further Reading

### WEST AFRICA

J. F. Ade Ajayi and Michael Crowder (eds.), *History of West Africa*, vol. 2, London, 1974.

A. G. Hopkins, *An Economic History of West Africa*, London, 1973.

Richard L. Roberts, *Two Worlds of Cotton: Colonialism and the Regional Economy in the French Soudan, 1800–1946*, Stanford, 1996.

Janet Vaillant, *Black, French, and African: A Life of Léopold Sédar Senghor*, Cambridge, MA, 1990.

John Peterson, *Province of Freedom: A History of Sierra Leone, 1787–1870*, Evanston, IL, 1969.

Paul Richards, *Fighting for the Rain Forest: War, Youth and Resources in Sierra Leone*, London, 1996.

Astride R. Zolberg, *One-Party Government in the Ivory Coast*, 2nd ed., Princeton, 1969.

Ivor Wilks, *Asante in the Nineteenth Century*, Cambridge, 1975.

David Kimble, *A Political History of Ghana: The Rise of Gold Coast Nationalism 1850–1928*, Oxford, 1963.

Dennis Austin, *Politics in Ghana 1946–1960*, London, 1964.

John Carmichael, *Gold Coast to Ghana*, London, 1993.

Richard Rathbone, *Murder and Politics in Colonial Ghana*, New Haven, 1993.

Richard Rathbone, *Nkrumah and the Chiefs: The Politics of Chieftaincy in Ghana, 1951–60*, Athens, 1999.

David Birmingham, *Kwame Nkrumah: The Father of African Nationalism*, Athens, 1998.

James S. Coleman, *Nigeria: A Background to Nationalism*, Berkeley, 1968.

J. D. Y. Peel, *Religious Encounters and the Making of the Yoruba*, Bloomington, 2000.

Julius O. Ihonvbere and Timothy Shaw, *Illusions of Power: Nigeria in Transition*, Rochester, 1998.

Toyin Falola, *Nigeria in the Twentieth Century*, Carolina Academic Press, 2002.

EASTERN AND WESTERN CENTRAL AFRICA

Vincent Harlow, E. M. Chilver, and Alison Smith (eds.), *History of East Africa*, vol. 2, Oxford, 1965.

D. A. Low and Alison Smith (eds.), *History of East Africa*, vol. III, Oxford, 1976.

Robert L. Tignor, *The Colonial Transformation of Kenya*, Princeton, NJ, 1978.

Bruce Berman and John Lonsdale, *Unhappy Valley: Conflict in Kenya and Africa*, London, 1992.

## Suggestions for Further Reading

Wunyabiri O. Maloba, *Mau Mau and Kenya: An Analysis of a Peasant Revolt*, Bloomington, 1998.

Valerie Cuthbert, *Jomo Kenyatta: The Burning Spear*, Harlow, 1982.

John Iliffe, *A Modern History of Tanganyika*, Cambridge, 1979.

Annie Smyth and Adam Seftel (eds.), *Tanzania: The Story of Julius Nyerere*, Kampala, 2000.

Michael Twaddle, *Kakungulu and the Creation of Uganda, 1868–1928*, Oxford, 1993.

René Lamarchand, *Rwanda and Burundi*, London, 1970.

Ruth Slade, *King Leopold's Congo*, London, 1962.

Osumaka Likaka, *Society and Cotton in Colonial Zaire*, Wisconsin, 1997.

Crawford Young, *Politics in the Congo: Decolonisation and Independence*, Princeton, NJ, 1965.

George Nzongola-Ntalaja, *The Congo, from Leopold to Kabila: A People's History*, New York, 2002.

Michela Wrong, *In the Steps of Mr Kurtz*, London, 2000.

SOUTHERN CENTRAL AFRICA

David Birmingham and Phyllis Martin (eds.), *History of Central Africa: The Contemporary Years since 1960*, Harlow, 1998.

R. J. Hammond, *Portugal and Africa 1815–1910*, Stanford, 1966.

Douglas L. Wheeler and René Pelissier, *Angola*, New York, 1971.

Tony Hodges, *Angola from Afro-Socialism to Petro-Diamond Capitalism*, Oxford, 2001.

Malyn Newitt, *A History of Mozambique*, London, 1995.

Allen F. Isaacman, *Cotton Is the Mother of Poverty: Peasants, Work and Rural Struggle in Colonial Mozambique, 1938–1961*, Portsmouth, NH, 1996.
Merle Bowen, *The State against the Peasantry: Rural Struggles in Colonial and Postcolonial Mozambique*, Charlottesville, VA, 2000.
Martin Chanock, *Law, Custom, and Social Order: The Colonial Experience in Malawi and Zambia*, New York, 1998.
Andrew Roberts, *A History of Zambia*, London, 1976.
B. S. Krishnamurthy, *The Making of Modern Malawi*, London, 1992.
John Flint, *Cecil Rhodes*, London, 1976.
Robert Blake, *A History of Rhodesia*, London, 1977.
T. O. Ranger, *Revolt in Southern Rhodesia 1896–7*, London, 1967.
Charles van Onselen, *Chibaro: African Mine Labour in Southern Rhodesia 1900–1933*, London, 1976.
Richard Gray, *The Two Nations: Aspects of the Development of Race Relations in the Rhodesias and Nyasaland*, London, 1960.
James P. Barber, *Rhodesia: The Road to Rebellion*, London, 1967.

## Suggestions for Further Reading

Patrick Bond, *Uneven Zimbabwe: A Study of Finance, Development and Underdevelopment*, Trenton, NJ, 1998.
Hevina S. Dashwood, *Zimbabwe: The Political Economy of Transformation*, Toronto, 2000.
W. Minter, *King Solomon's Mines Revisited*, New York, 1986.
Helmut Bley, *South-West Africa under German Rule*, London, 1971.
Raymond Kent, *From Madagascar to the Malagasy Republic*, Westport, CT, 1976.

### SOUTH AFRICA

Monica Wilson and L. M. Thompson, *The Oxford History of South Africa*, 2 vols., Oxford, 1969–71.
William Beinart, *Twentieth Century South Africa*, Oxford, 1994.
James Barber, *South Africa in the Twentieth Century*, Oxford, 1999.
Rodney Davenport and Christopher Saunders, *South Africa, A Modern History*, New York, 2000.
Noel Mostert, *Frontiers: The Epic of South Africa's Creation and the Tragedy of the Xhosa People*, London, 1992.

Colin Bundy, *The Rise and Fall of the South African Peasantry*, London, 1979.

Charles van Onselen, *Studies in the Social and Economic History of the Witwatersrand 1886–1914*, 2 vols., London, 1982.

W. K. Hancock, *Smuts*, 2 vols., Cambridge, 1962–8.

Peter Walshe, *The Rise of Nationalism in South Africa: The African National Congress 1912–1952*, London, 1970.

Francis Wilson, *Labour in the South African Gold Mines 1911–1969*, Cambridge, 1972.

H. J. and R. E. Simons, *Class and Colour in South Africa 1850–1950*, Harmondsworth, 1969.

Deborah Posel, *The Making of Apartheid, 1948–1961: Conflict and Compromise*, Oxford, 1991.

A. Adedeji (ed.), *South Africa and Africa: Within or Apart?*, London, 1997.

A. Guelke, *South Africa in Transition: The Misunderstood Miracle*, London, 1999.

Jack Spence (ed.), *After Mandela*, London, 1999.

Nelson Mandela, *Long Walk to Freedom*, London, 1994.

F. W. de Klerk, *The Last Trek*, Johannesburg, 1999.

**المترجم في سطور:**

**فريد بورى**

أتم دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة فرنسية في القاهرة (الجينرويت) ثم درس اللغات الرومانية والجرمانية في مصر وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا، وحصل على ليسانس في التاريخ وليسانس في اللغة الإنجليزية من كلية الآداب جامعة عين شمس، وعمل مترجما في مصر وسلطنة عمان،

**المراجع فى سطور:**

**أ. د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم**

- حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٢.
- وليسانس التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراسات الأفريقية عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢.
- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية السابق، تدرج فى الوظائف الجامعية حتى صار أستاذ التاريخ الحديث عام ١٩٩٢، وألف أكثر من عشرين كتابا وخمسين بحثا فى مؤتمرات علمية فى الداخل والخارج، وله أكثر من ثلاثين مقالا فى الدوريات والحوليات العلمية، وشارك فى عدد من المؤتمرات العلمية داخل ومصر وخارجها، ويشرف على عدد كبير من طلاب الدراسات العليا فى الماجستير والدكتوراه.
- يشارك بصفة دائمة فى التقارير الإذاعية والبرامج التليفزيونية التى تعالج مشكلات القارة الأفريقية. كما يساهم فى كتابة بعض المقالات والتقارير الأفريقية، كما يساهم فى كتابة بعض المقالات والتقارير الصحفية فى جريدة الأهرام.
- ويقوم حاليا بترجمة بعض الكتب التاريخية التى تدور حول رحلات اكتشاف أفريقيا وغيرها من القضايا التاريخية.

# المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

# المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|---|---|
| ١- اللغة العليا | جون كوين | أحمد درويش |
| ٢- الوثنية والإسلام (ط١) | ك. مادهو بانيكار | أحمد فؤاد بلبع |
| ٣- التراث المسروق | جورج جيمس | شوقى جلال |
| ٤- كيف تتم كتابة السيناريو | إنجا كاريتنيكوفا | أحمد الحضرى |
| ٥- ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | محمد علاء الدين منصور |
| ٦- اتجاهات البحث اللسانى | ميلكا إفيتش | سعد مصلوح ووفاء كامل فايد |
| ٧- العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | يوسف الأنطكى |
| ٨- مشعلو الحرائق | ماكس فريش | مصطفى ماهر |
| ٩- التغيرات البيئية | أندرو. س. جودى | محمود محمد عاشور |
| ١٠- خطاب الحكاية | جيرار جينيت | محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى |
| ١١- مختارات شعرية | فيسوافا شيمبوريسكا | هناء عبد الفتاح |
| ١٢- طريق الحرير | ديفيد براونيستون وأيرين فرانك | أحمد محمود |
| ١٣- ديانة الساميين | روبرتسن سميث | عبد الوهاب علوب |
| ١٤- التحليل النفسى للأدب | جان بيلمان نويل | حسن المودن |
| ١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥ | إدوارد لوسى سميث | أشرف رفيق عفيفى |
| ١٦- أثينة السوداء (جـ١) | مارتن برنال | بإشراف: أحمد عتمان |
| ١٧- مختارات شعرية | فيليب لاركين | محمد مصطفى بدوى |
| ١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية | مختارات | طلعت شاهين |
| ١٩- الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | نعيم عطية |
| ٢٠- قصة العلم | ج. ج. كراوثر | يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح |
| ٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى | صمد بهرنجى | ماجدة العنانى |
| ٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | سيد أحمد على الناصرى |
| ٢٣- تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | سعيد توفيق |
| ٢٤- ظلال المستقبل | باتريك بارندر | بكر عباس |
| ٢٥- مثنوى (٦ أجزاء) | مولانا جلال الدين الرومى | إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦- دين مصر العام | محمد حسين هيكل | أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧- التنوع البشرى الخلاق | مجموعة من المؤلفين | بإشراف: جابر عصفور |
| ٢٨- رسالة فى التسامح | جون لوك | منى أبو سنة |
| ٢٩- الموت والوجود | جيمس ب. كارس | بدر الديب |
| ٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | أحمد فؤاد بلبع |
| ٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب |
| ٣٢- الانقراض | ديفيد روب | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية | أ. ج. هوبكنز | أحمد فؤاد بلبع |
| ٣٤- الرواية العربية | روجر آلن | حصة إبراهيم المنيف |
| ٣٥- الأسطورة والحداثة | بول ب . ديكسون | خليل كلفت |
| ٣٦- نظريات السرد الحديثة | والاس مارتن | حياة جاسم محمد |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٣٧- | واحة سيوة وموسيقاها | بريجيت شيفر | جمال عبد الرحيم |
| ٣٨- | نقد الحداثة | آلن تورين | أنور مغيث |
| ٣٩- | الحسد والإغريق | بيتر والكوت | منيرة كروان |
| ٤٠- | قصائد حب | آن سكستون | محمد عيد إبراهيم |
| ٤١- | ما بعد المركزية الأوروبية | بيتر جران | عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد |
| ٤٢- | عالم ماك | بنجامين باربر | أحمد محمود |
| ٤٣- | اللهب المزدوج | أوكتافيو پاث | المهدى أخريف |
| ٤٤- | بعد عدة أصياف | ألدوس هكسلى | مارلين تادرس |
| ٤٥- | التراث المغدور | روبرت دينا وجون فاين | أحمد محمود |
| ٤٦- | عشرون قصيدة حب | بابلو نيرودا | محمود السيد على |
| ٤٧- | تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١) | رينيه ويليك | مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٤٨- | حضارة مصر الفرعونية | فرانسوا دوما | ماهر جويجاتى |
| ٤٩- | الإسلام فى البلقان | هـ . ت . نوريس | عبد الوهاب علوب |
| ٥٠- | ألف ليلة وليلة أو القول الأسير | جمال الدين بن الشيخ | محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى |
| ٥١- | مسار الرواية الإسبانو أمريكية | داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى | محمد أبو العطا |
| ٥٢- | العلاج النفسى التدعيمى | ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل | لطفى فطيم وعادل دمرداش |
| ٥٣- | الدراما والتعليم | أ . ف . ألنجتون | مرسى سعد الدين |
| ٥٤- | المفهوم الإغريقى للمسرح | ج . مايكل والتون | محسن مصيلحى |
| ٥٥- | ما وراء العلم | چون بولكنجهوم | على يوسف على |
| ٥٦- | الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١) | فديريكو غرسية لوركا | محمود على مكى |
| ٥٧- | الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢) | فديريكو غرسية لوركا | محمود السيد و ماهر البطوطى |
| ٥٨- | مسرحيتان | فديريكو غرسية لوركا | محمد أبو العطا |
| ٥٩- | المحبرة (مسرحية) | كارلوس مونييث | السيد السيد سهيم |
| ٦٠- | التصميم والشكل | جوهانز إيتين | صبرى محمد عبد الغنى |
| ٦١- | موسوعة علم الإنسان | شارلوت سيمور - سميث | بإشراف : محمد الجوهرى |
| ٦٢- | لذّة النّص | رولان بارت | محمد خير البقاعى |
| ٦٣- | تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢) | رينيه ويليك | مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٦٤- | برتراند راسل (سيرة حياة) | آلان وود | رمسيس عوض |
| ٦٥- | فى مدح الكسل ومقالات أخرى | برتراند راسل | رمسيس عوض |
| ٦٦- | خمس مسرحيات أندلسية | أنطونيو جالا | عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٦٧- | مختارات شعرية | فرناندو بيسوا | المهدى أخريف |
| ٦٨- | نتاشا العجوز وقصص أخرى | ڤالنتين راسبوتين | أشرف الصباغ |
| ٦٩- | العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين | عبد الرشيد إبراهيم | أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى |
| ٧٠- | ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية | أوخينيو تشانج رودريجث | عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد |
| ٧١- | السيدة لا تصلح إلا للرمى | داريو فو | حسين محمود |
| ٧٢- | السياسى العجوز | ت . س . إليوت | فؤاد مجلى |
| ٧٣- | نقد استجابة القارئ | چين ب . تومبكنز | حسن ناظم وعلى حاكم |
| ٧٤- | صلاح الدين والمماليك فى مصر | ل . ا . سيمينوڤا | حسن بيومى |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٧٥- | فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | أحمد درويش |
| ٧٦- | جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى | مجموعة من المؤلفين | عبد المقصود عبد الكريم |
| ٧٧- | تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢) | رينيه ويليك | مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٧٨- | العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | أحمد محمود ونورا أمين |
| ٧٩- | شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكى | سعيد الغانمى وناصر حلاوى |
| ٨٠- | بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | مكارم الغمرى |
| ٨١- | الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | محمد طارق الشرقاوى |
| ٨٢- | مسرح ميجيل | ميجيل دى أونامونو | محمود السيد على |
| ٨٣- | مختارات شعرية | غوتفريد بن | خالد المعالى |
| ٨٤- | موسوعة الأدب والنقد (جـ١) | مجموعة من المؤلفين | عبد الحميد شيحة |
| ٨٥- | منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكى أقطاى | عبد الرازق بركات |
| ٨٦- | طول الليل (رواية) | جمال مير صادقى | أحمد فتحى يوسف شتا |
| ٨٧- | نون والقلم (رواية) | جلال آل أحمد | ماجدة العنانى |
| ٨٨- | الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٨٩- | الطريق الثالث | أنتونى جيدنز | أحمد زايد ومحمد محيى الدين |
| ٩٠- | وسم السيف وقصص أخرى | بورخيس وآخرون | محمد إبراهيم مبروك |
| ٩١- | المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربرا لاسوتسكا - بشونباك | محمد هناء عبد الفتاح |
| ٩٢- | أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر | كارلوس ميجيل | نادية جمال الدين |
| ٩٣- | محدثات العولمة | مايك فيذرستون وسكوت لاش | عبد الوهاب علوب |
| ٩٤- | مسرحيتا الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | فوزية العشماوى |
| ٩٥- | مختارات من المسرح الإسبانى | أنطونيو بويرو باييخو | سرى محمد عبد اللطيف |
| ٩٦- | ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى | نخبة | إدوار الخراط |
| ٩٧- | هوية فرنسا (مج١) | فرنان برودل | بشير السباعى |
| ٩٨- | الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ |
| ٩٩- | تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠) | ديفيد روبنسون | إبراهيم قنديل |
| ١٠٠- | مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | إبراهيم فتحى |
| ١٠١- | النص الروائى: تقنيات ومناهج | بيرنار فاليط | رشيد بنحدو |
| ١٠٢- | السياسة والتسامح | عبد الكبير الخطيبى | عز الدين الكتانى الإدريسى |
| ١٠٣- | قبر ابن عربى يليه آياء (شعر) | عبد الوهاب المؤدب | محمد بنيس |
| ١٠٤- | أوبرا ماهوجنى (مسرحية) | برتولت بريشت | عبد الغفار مكاوى |
| ١٠٥- | مدخل إلى النص الجامع | جيرارجينيت | عبد العزيز شبيل |
| ١٠٦- | الأدب الأندلسى | ماريا خيسوس روبييرامتى | أشرف على دعدور |
| ١٠٧- | صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر | نخبة من الشعراء | محمد عبد الله الجعيدى |
| ١٠٨- | ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى | مجموعة من المؤلفين | محمود على مكى |
| ١٠٩- | حروب المياه | جون بولوك وعادل درويش | هاشم أحمد محمد |
| ١١٠- | النساء فى العالم النامى | حسنة بيجوم | منى قطان |
| ١١١- | المرأة والجريمة | فرانسس هيدسون | ريهام حسين إبراهيم |
| ١١٢- | الاحتجاج الهادئ | أرلين علوى ماكليود | إكرام يوسف |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١١٣- | راية التمرد | سادى بلانت | أحمد حسان |
| ١١٤- | مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع | وول شوينكا | نسيم مجلى |
| ١١٥- | غرفة تخص المرء وحده | فرجينيا وولف | سمية رمضان |
| ١١٦- | امرأة مختلفة (درية شفيق) | سينثيا نلسون | نهاد أحمد سالم |
| ١١٧- | المرأة والجنوسة فى الإسلام | ليلى أحمد | منى إبراهيم وهالة كمال |
| ١١٨- | النهضة النسائية فى مصر | بث بارون | لميس النقاش |
| ١١٩- | النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى | أميرة الأزهرى سنبل | بإشراف: رءوف عباس |
| ١٢٠- | الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط | ليلى أبو لغد | مجموعة من المترجمين |
| ١٢١- | الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية | فاطمة موسى | محمد الجندى وإيزابيل كمال |
| ١٢٢- | نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان | چوزيف فوجت | منيرة كروان |
| ١٢٣- | الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية | أنينل ألكسندرو فنادولينا | أنور محمد إبراهيم |
| ١٢٤- | الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية | چون جراى | أحمد فؤاد بلبع |
| ١٢٥- | التحليل الموسيقى | سيدرك ثورپ ديڤى | سمحة الخولى |
| ١٢٦- | فعل القراءة | ڤولفانج إيسر | عبد الوهاب علوب |
| ١٢٧- | إرهاب (مسرحية) | صفاء فتحى | بشير السباعى |
| ١٢٨- | الأدب المقارن | سوزان باسنيت | أميرة حسن نويرة |
| ١٢٩- | الرواية الإسبانية المعاصرة | ماريا دولورس أسيس جاروته | محمد أبو العطا وآخرون |
| ١٣٠- | الشرق يصعد ثانية | أندريه جوندر فرانك | شوقى جلال |
| ١٣١- | مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى | مجموعة من المؤلفين | لويس بقطر |
| ١٣٢- | ثقافة العولمة | مايك فيذرستون | عبد الوهاب علوب |
| ١٣٣- | الخوف من المرايا (رواية) | طارق على | طلعت الشايب |
| ١٣٤- | تشريح حضارة | بارى ج. كيمب | أحمد محمود |
| ١٣٥- | المختار من نقد ت. س. إليوت | ت. س. إليوت | ماهر شفيق فريد |
| ١٣٦- | فلاحو الباشا | كينيث كونو | سحر توفيق |
| ١٣٧- | مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر | چوزيف مارى مواريه | كاميليا صبحى |
| ١٣٨- | عالم التليفزيون بين الجمال والعنف | أندريه جلوكسمان | وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٣٩- | پارسيڤال (مسرحية) | ريتشارد ڤاچنر | مصطفى ماهر |
| ١٤٠- | حيث تلتقى الأنهار | هربرت ميسن | أمل الجبورى |
| ١٤١- | اثنتا عشرة مسرحية يونانية | مجموعة من المؤلفين | نعيم عطية |
| ١٤٢- | الإسكندرية : تاريخ ودليل | أ. م. فورستر | حسن بيومى |
| ١٤٣- | قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى | ديرك لايدر | عدلى السمرى |
| ١٤٤- | صاحبة اللوكاندة (مسرحية) | كارلو جولدونى | سلامة محمد سليمان |
| ١٤٥- | موت أرتيميو كروث (رواية) | كارلوس فوينتس | أحمد حسان |
| ١٤٦- | الورقة الحمراء (رواية) | ميجيل دى ليبس | على عبدالرءوف البمبى |
| ١٤٧- | مسرحيتان | تانكريد دورست | عبدالغفار مكاوى |
| ١٤٨- | القصة القصيرة: النظرية والتقنية | إنريكى أندرسون إمبرت | على إبراهيم منوفى |
| ١٤٩- | النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس | عاطف فضول | أسامة إسبر |
| ١٥٠- | التجربة الإغريقية | روبرت ج. ليتمان | منيرة كروان |

| | | |
|---|---|---|
| ١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١) | فرنان برودل | بشير السباعى |
| ١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى | مجموعة من المؤلفين | محمد محمد الخطابى |
| ١٥٣- غرام الفراعنة | فيولين فانويك | فاطمة عبدالله محمود |
| ١٥٤- مدرسة فرانكفورت | فيل سليتر | خليل كلفت |
| ١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر | نخبة من الشعراء | أحمد مرسى |
| ١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى | جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو | مى التلمسانى |
| ١٥٧- خسرو وشيرين | النظامى الكنجوى | عبدالعزيز بقوش |
| ١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢) | فرنان برودل | بشير السباعى |
| ١٥٩- الأيديولوچية | ديڤيد هوكس | إبراهيم فتحى |
| ١٦٠- آلة الطبيعة | بول إيرليش | حسين بيومى |
| ١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى | أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا | زيدان عبدالحليم زيدان |
| ١٦٢- تاريخ الكنيسة | يوحنا الآسيوى | صلاح عبدالعزيز محجوب |
| ١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١) | جوردون مارشال | بإشراف: محمد الجوهرى |
| ١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) | چان لاكوتير | نبيل سعد |
| ١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال) | أ. ن. أفاناسيفا | سهير المصادفة |
| ١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل | يشعياهو ليڤمان | محمد محمود أبوغدير |
| ١٦٧- فى عالم طاغور | رابندرنات طاغور | شكرى محمد عياد |
| ١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة | مجموعة من المؤلفين | شكرى محمد عياد |
| ١٦٩- إبداعات أدبية | مجموعة من المؤلفين | شكرى محمد عياد |
| ١٧٠- الطريق (رواية) | ميجيل دليبيس | بسام ياسين رشيد |
| ١٧١- وضع حد (رواية) | فرانك بيجو | هدى حسين |
| ١٧٢- حجر الشمس (شعر) | نخبة | محمد محمد الخطابى |
| ١٧٣- معنى الجمال | ولتر ت. ستيس | إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٧٤- صناعة الثقافة السوداء | إيليس كاشمور | أحمد محمود |
| ١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية | لورينزو فيلشس | وجيه سمعان عبد المسيح |
| ١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية | توم تيتنبرج | جلال البنا |
| ١٧٧- أنطون تشيخوف | هنرى ترويا | حصة إبراهيم المنيف |
| ١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث | نخبة من الشعراء | محمد حمدى إبراهيم |
| ١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال) | أيسوب | إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٠- قصة جاويد (رواية) | إسماعيل فصيح | سليم عبد الأمير حمدان |
| ١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات | فنسنت ب. ليتش | محمد يحيى |
| ١٨٢- العنف والنبوءة (شعر) | و.ب. ييتس | ياسين طه حافظ |
| ١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما | رينيه جيلسون | فتحى العشرى |
| ١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام | هانز إبندورفر | دسوقى سعيد |
| ١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ | توماس تومسن | عبد الوهاب علوب |
| ١٨٦- معجم مصطلحات هيجل | ميخائيل إنوود | إمام عبد الفتاح إمام |
| ١٨٧- الأرضة (رواية) | بُزرج علوى | محمد علاء الدين منصور |
| ١٨٨- موت الأدب | ألفين كرنان | بدر الديب |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٨٩- | العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر | پول دى مان | سعيد الغانمى |
| ١٩٠- | محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | محسن سيد فرجانى |
| ١٩١- | الكلام رأسمال وقصص أخرى | الحاج أبو بكر إمام وآخرون | مصطفى حجازى السيد |
| ١٩٢- | سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١) | زين العابدين المراغى | محمود علاوى |
| ١٩٣- | عامل المنجم (رواية) | پيتر أبراهامز | محمد عبد الواحد محمد |
| ١٩٤- | مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث | مجموعة من النقاد | ماهر شفيق فريد |
| ١٩٥- | شتاء ٨٤ (رواية) | إسماعيل فصيح | محمد علاء الدين منصور |
| ١٩٦- | المهلة الأخيرة (رواية) | ڤالنتين راسبوتين | أشرف الصباغ |
| ١٩٧- | سيرة الفاروق | شمس العلماء شبلى النعمانى | جلال السعيد الحفناوى |
| ١٩٨- | الاتصال الجماهيرى | إدوين إمرى وآخرون | إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ١٩٩- | تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداو | جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد |
| ٢٠٠- | ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل | چيرمى سيبروك | فخرى لبيب |
| ٢٠١- | الجانب الدينى للفلسفة | جوزايا رويس | أحمد الأنصارى |
| ٢٠٢- | تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤) | رينيه ويليك | مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| ٢٠٣- | الشعر والشاعرية | ألطاف حسين حالى | جلال السعيد الحفناوى |
| ٢٠٤- | تاريخ نقد العهد القديم | زالمان شازار | أحمد هويدى |
| ٢٠٥- | الجينات والشعوب واللغات | لويجى لوقا كافاللى- سفورزا | أحمد مستجير |
| ٢٠٦- | الهيولية تصنع علمًا جديداً | چيمس جلايك | على يوسف على |
| ٢٠٧- | ليل أفريقى (رواية) | رامون خوتاسندير | محمد أبو العطا |
| ٢٠٨- | شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى | دان أوريان | محمد أحمد صالح |
| ٢٠٩- | السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ |
| ٢١٠- | مثنويات حكيم سنائى (شعر) | سنائى الغزنوى | يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢١١- | فردينان دوسوسير | جوناثان كلر | محمود حمدى عبد الغنى |
| ٢١٢- | قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان | مرزبان بن رستم بن شروين | يوسف عبدالفتاح فرج |
| ٢١٣- | مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر | ريمون فلاور | سيد أحمد على الناصرى |
| ٢١٤- | قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | محمد محيى الدين |
| ٢١٥- | سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢) | زين العابدين المراغى | محمود علاوى |
| ٢١٦- | جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ |
| ٢١٧- | مسرحيتان طليعيتان | صمويل بيكيت وهارولد بينتر | نادية البنهاوى |
| ٢١٨- | لعبة الحجلة (رواية) | خوليو كورتاثار | على إبراهيم منوفى |
| ٢١٩- | بقايا اليوم (رواية) | كازو إيشجورو | طلعت الشايب |
| ٢٢٠- | الهيولية فى الكون | بارى پاركر | على يوسف على |
| ٢٢١- | شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | رفعت سلام |
| ٢٢٢- | فرانز كافكا | رونالد جراى | نسيم مجلى |
| ٢٢٣- | العلم فى مجتمع حر | پاول فيرابند | السيد محمد نفادى |
| ٢٢٤- | دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | منى عبدالظاهر إبراهيم |
| ٢٢٥- | حكاية غريق (رواية) | جابرييل جارثيا ماركيث | السيد عبدالظاهر السيد |
| ٢٢٦- | أرض المساء وقصائد أخرى | ديڤيد هربت لورانس | طاهر محمد على البربرى |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٢٧- | المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر | خوسيه ماريا ديث بوركى | السيد عبدالظاهر عبدالله |
| ٢٢٨- | علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | چانيت وولف | مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن |
| ٢٢٩- | مأزق البطل الوحيد | نورمان كيجان | أمير إبراهيم العمرى |
| ٢٣٠- | عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز چاكوب | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣١- | الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) | خايمى سالوم بيدال | جمال عبدالرحمن |
| ٢٣٢- | ما بعد المعلومات | توم ستونير | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٢٣٣- | فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى | آرثر هيرمان | طلعت الشايب |
| ٢٣٤- | الإسلام فى السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | فؤاد محمد عكود |
| ٢٣٥- | ديوان شمس تبريزى (جـ١) | مولانا جلال الدين الرومى | إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٣٦- | الولاية | ميشيل شودكيفيتش | أحمد الطيب |
| ٢٣٧- | مصر أرض الوادى | روبين فيدين | عنايات حسين طلعت |
| ٢٣٨- | العولمة والتحرير | تقرير لمنظمة الأنكتاد | ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد |
| ٢٣٩- | العربى فى الأدب الإسرائيلى | جيلا رامراز - رايوخ | نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق |
| ٢٤٠- | الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كاى حافظ | صلاح محجوب إدريس |
| ٢٤١- | فى انتظار البرابرة (رواية) | ج . م. كوتزى | ابتسام عبدالله |
| ٢٤٢- | سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | صبرى محمد حسن |
| ٢٤٣- | تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) | ليفى بروفنسال | بإشراف: صلاح فضل |
| ٢٤٤- | الغليان (رواية) | لاورا إسكيبيل | نادية جمال الدين محمد |
| ٢٤٥- | نساء مقاتلات | إليزابيتا آديس وآخرون | توفيق على منصور |
| ٢٤٦- | مختارات قصصية | جابرييل جارثيا ماركيث | على إبراهيم منوفى |
| ٢٤٧- | الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر | والتر أرمبرست | محمد طارق الشرقاوى |
| ٢٤٨- | حقول عدن الخضراء (مسرحية) | أنطونيو جالا | عبداللطيف عبدالحليم |
| ٢٤٩- | لغة التمزق (شعر) | دراجو شتامبوك | رفعت سلام |
| ٢٥٠- | علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ماجدة محسن أباظة |
| ٢٥١- | موسوعة علم الاجتماع (جـ٢) | جوردون مارشال | بإشراف: محمد الجوهرى |
| ٢٥٢- | رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | على بدران |
| ٢٥٣- | تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيميونوڤا | حسن بيومى |
| ٢٥٤- | أقدم لك: الفلسفة | ديف روبنسون وجودى جروفز | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٥- | أقدم لك: أفلاطون | ديف روبنسون وجودى جروفز | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٦- | أقدم لك: ديكارت | ديف روبنسون وكريس جارات | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٧- | تاريخ الفلسفة الحديثة | وليم كلى رايت | محمود سيد أحمد |
| ٢٥٨- | الفجر | سير أنجوس فريزر | عُبادة كُحيلة |
| ٢٥٩- | مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور | نخبة | فاروجان كازانجيان |
| ٢٦٠- | موسوعة علم الاجتماع (جـ٣) | جوردون مارشال | بإشراف: محمد الجوهرى |
| ٢٦١- | رحلة فى فكر زكى نجيب محمود | زكى نجيب محمود | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٦٢- | مدينة المعجزات (رواية) | إدواردو مندوثا | محمد أبو العطا |
| ٢٦٣- | الكشف عن حافة الزمن | چون جريبين | على يوسف على |
| ٢٦٤- | إبداعات شعرية مترجمة | هوراس وشلى | لويس عوض |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٦٥- | روايات مترجمة | أوسكار وايلد وصمويل جونسون | لويس عوض |
| ٢٦٦- | مدير المدرسة (رواية) | جلال آل أحمد | عادل عبدالمنعم على |
| ٢٦٧- | فن الرواية | ميلان كونديرا | بدر الدين عرودكى |
| ٢٦٨- | ديوان شمس تبريزى (جـ٢) | مولانا جلال الدين الرومى | إبراهيم الدسوقى شتا |
| ٢٦٩- | وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١) | وليم جيفور بالجريف | صبرى محمد حسن |
| ٢٧٠- | وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢) | وليم جيفور بالجريف | صبرى محمد حسن |
| ٢٧١- | الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ | توماس سى. باترسون | شوقى جلال |
| ٢٧٢- | الأديرة الأثرية فى مصر | سى. سى. والترز | إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ٢٧٣- | الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر | چوان كول | عنان الشهاوى |
| ٢٧٤- | السيدة باربارا (رواية) | رومولو جاييجوس | محمود على مكى |
| ٢٧٥- | ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً | مجموعة من النقاد | ماهر شفيق فريد |
| ٢٧٦- | فنون السينما | مجموعة من المؤلفين | عبدالقادر التلمسانى |
| ٢٧٧- | الجينات والصراع من أجل الحياة | براين فورد | أحمد فوزى |
| ٢٧٨- | البدايات | إسحاق عظيموف | ظريف عبدالله |
| ٢٧٩- | الحرب الباردة الثقافية | ف.س. سوندرز | طلعت الشايب |
| ٢٨٠- | الأم والنصيب وقصص أخرى | بريم شند وآخرون | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٢٨١- | الفردوس الأعلى (رواية) | عبد الحليم شرر | جلال الحفناوى |
| ٢٨٢- | طبيعة العلم غير الطبيعية | لويس وولبرت | سمير حنا صادق |
| ٢٨٣- | السهل يحترق وقصص أخرى | خوان رولفو | على عبد الرءوف اليمبى |
| ٢٨٤- | هرقل مجنوناً (مسرحية) | يوريبيديس | أحمد عتمان |
| ٢٨٥- | رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى | حسن نظامى الدهلوى | سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٢٨٦- | سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣) | زين العابدين المراغى | محمود علاوى |
| ٢٨٧- | الثقافة والعولمة والنظام العالمى | أنتونى كنج | محمد يحيى وآخرون |
| ٢٨٨- | الفن الروائى | ديڤيد لودج | ماهر البطوطى |
| ٢٨٩- | ديوان منوچهرى الدامغانى | أبو نجم أحمد بن قوص | محمد نور الدين عبدالمنعم |
| ٢٩٠- | علم اللغة والترجمة | چورج مونان | أحمد زكريا إبراهيم |
| ٢٩١- | تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١) | فرانشسكو رويس رامون | السيد عبد الظاهر |
| ٢٩٢- | تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢) | فرانشسكو رويس رامون | السيد عبد الظاهر |
| ٢٩٣- | مقدمة للأدب العربى | روچر آلن | مجدى توفيق وآخرون |
| ٢٩٤- | فن الشعر | بوالو | رجاء ياقوت |
| ٢٩٥- | سلطان الأسطورة | چوزيف كامبل وبيل مويرز | بدر الديب |
| ٢٩٦- | مكبث (مسرحية) | وليم شكسبير | محمد مصطفى بدوى |
| ٢٩٧- | فن النحو بين اليونانية والسريانية | ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى | ماجدة محمد أنور |
| ٢٩٨- | مأساة العبيد وقصص أخرى | نخبة | مصطفى حجازى السيد |
| ٢٩٩- | ثورة فى التكنولوجيا الحيوية | چين ماركس | هاشم أحمد محمد |
| ٣٠٠- | أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١) | لويس عوض | جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال |
| ٣٠١- | أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢) | لويس عوض | جمال الجزيرى و محمد الجندى |
| ٣٠٢- | أقدم لك: فنجنشتين | چون هيتون وجودى جروفز | إمام عبد الفتاح إمام |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٣٠٣- | أقدم لك: بوذا | چين هوب وبورن فان لون | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٤- | أقدم لك: ماركس | ريوس | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٥- | الجلد (رواية) | كروزيو مالابارته | صلاح عبد الصبور |
| ٣٠٦- | الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ | چان فرانسوا ليوتار | نبيل سعد |
| ٣٠٧- | أقدم لك: الشعور | ديڤيد بابينو وهوارد سلينا | محمود مكى |
| ٣٠٨- | أقدم لك: علم الوراثة | ستيف چونز وبورين فان لو | ممدوح عبد المنعم |
| ٣٠٩- | أقدم لك: الذهن والمخ | أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت | جمال الجزيرى |
| ٣١٠- | أقدم لك: يونج | ماجى هايد ومايكل ماكجنس | محيى الدين مزيد |
| ٣١١- | مقال فى المنهج الفلسفى | ر.ج كولنجوود | فاطمة إسماعيل |
| ٣١٢- | روح الشعب الأسود | وليم ديبويس | أسعد حليم |
| ٣١٣- | أمثال فلسطينية (شعر) | خايير بيان | محمد عبدالله الجعيدى |
| ٣١٤- | مارسيل دوشامب: الفن كعدم | چانيس مينيك | هويدا السباعى |
| ٣١٥- | جرامشى فى العالم العربى | ميشيل بروندينو والطاهر لبيب | كاميليا صبحى |
| ٣١٦- | محاكمة سقراط | أى. ف. ستون | نسيم مجلى |
| ٣١٧- | بلا غد | س. شير لايموڤا- س. زنيكين | أشرف الصباغ |
| ٣١٨- | الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ |
| ٣١٩- | صور دريدا | جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس | حسام نايل |
| ٣٢٠- | لمعة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | محمد علاء الدين منصور |
| ٣٢١- | تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١) | ليڤى برو ڤنسال | بإشراف: صلاح فضل |
| ٣٢٢- | وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى | دبليو بوچين كلينباور | خالد مفلح حمزة |
| ٣٢٣- | فن الساتورا | تراث يونانى قديم | هانم محمد فوزى |
| ٣٢٤- | اللعب بالنار (رواية) | أشرف أسدى | محمود علاوى |
| ٣٢٥- | عالم الآثار (رواية) | فيليب بوسان | كرستين يوسف |
| ٣٢٦- | المعرفة والمصلحة | يورجين هابرماس | حسن صقر |
| ٣٢٧- | مختارات شعرية مترجمة (جـ١) | نخبة | توفيق على منصور |
| ٣٢٨- | يوسف وزليخا (شعر) | نور الدين عبد الرحمن الجامى | عبد العزيز بقوش |
| ٣٢٩- | رسائل عيد الميلاد (شعر) | تد هيوز | محمد عيد إبراهيم |
| ٣٣٠- | كل شىء عن التمثيل الصامت | مارڤن شبرد | سامى صلاح |
| ٣٣١- | عندما جاء السردين وقصص أخرى | ستيفن جراى | سامية دياب |
| ٣٣٢- | شهر العسل وقصص أخرى | نخبة | على إبراهيم منوفى |
| ٣٣٣- | الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥ | نبيل مطر | بكر عباس |
| ٣٣٤- | لقطات من المستقبل | أرثر كلارك | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٣٣٥- | عصر الشك: دراسات عن الرواية | ناتالى ساروت | فتحى العشرى |
| ٣٣٦- | متون الأهرام | نصوص مصرية قديمة | حسن صابر |
| ٣٣٧- | فلسفة الولاء | چوزايا رويس | أحمد الأنصارى |
| ٣٣٨- | نظرات حائرة وقصص أخرى | نخبة | جلال الحفناوى |
| ٣٣٩- | تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣) | إدوارد براون | محمد علاء الدين منصور |
| ٣٤٠- | اضطراب فى الشرق الأوسط | بيرش بيربروجلو | فخرى لبيب |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤١- | قصائد من رلكه (شعر) | راينر ماريا ريلكه | حسن حلمى |
| ٢٤٢- | سلامان وأبسال (شعر) | نور الدين عبدالرحمن الجامى | عبد العزيز بقوش |
| ٢٤٣- | العالم البرجوازى الزائل (رواية) | نادين جورديمر | سمير عبد ربه |
| ٢٤٤- | الموت فى الشمس (رواية) | بيتر بالانجيو | سمير عبد ربه |
| ٢٤٥- | الركض خلف الزمان (شعر) | يونه ندائى | يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٢٤٦- | سحر مصر | رشاد رشدى | جمال الجزيرى |
| ٢٤٧- | الصبية الطائشون (رواية) | جان كوكتو | بكر الحلو |
| ٢٤٨- | المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١) | محمد فؤاد كوبريلى | عبدالله أحمد إبراهيم |
| ٢٤٩- | دليل القارئ إلى الثقافة الجادة | أرثر والدهورن وآخرون | أحمد عمر شاهين |
| ٢٥٠- | بانوراما الحياة السياحية | مجموعة من المؤلفين | عطية شحاتة |
| ٢٥١- | مبادئ المنطق | چوزايا رويس | أحمد الانصارى |
| ٢٥٢- | قصائد من كفافيس | قسطنطين كفافيس | نعيم عطية |
| ٢٥٣- | الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية | باسيليو بابون مالدونادو | على إبراهيم منوفى |
| ٢٥٤- | الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية | باسيليو بابون مالدونادو | على إبراهيم منوفى |
| ٢٥٥- | التيارات السياسية فى إيران المعاصرة | حجت مرتجى | محمود علاوى |
| ٢٥٦- | الميراث المر | بول سالم | بدر الرفاعى |
| ٢٥٧- | متون هرمس | تيموثى فريك وبيتر غاندى | عمر الفاروق عمر |
| ٢٥٨- | أمثال الهوسا العامية | نخبة | مصطفى حجازى السيد |
| ٢٥٩- | محاورة بارمنيدس | أفلاطون | حبيب الشارونى |
| ٢٦٠- | أنثروبولوچيا اللغة | أندريه چاكوب ونويلا باركان | ليلى الشربينى |
| ٢٦١- | التصحر: التهديد والمجابهة | آلان جرينجر | عاطف معتمد وآمال شاور |
| ٢٦٢- | تلميذ بابنبرج (رواية) | هاينرش شبورل | سيد أحمد فتح الله |
| ٢٦٣- | حركات التحرير الأفريقية | ريتشارد چيبسون | صبرى محمد حسن |
| ٢٦٤- | حداثة شكسبير | إسماعيل سراج الدين | نجلاء أبو عجاج |
| ٢٦٥- | سأم باريس (شعر) | شارل بودلير | محمد أحمد حمد |
| ٢٦٦- | نساء يركضن مع الذئاب | كلاريسا بنكولا | مصطفى محمود محمد |
| ٢٦٧- | القلم الجرىء | مجموعة من المؤلفين | البرّاق عبدالهادى رضا |
| ٢٦٨- | المصطلح السردى: معجم مصطلحات | چيرالد پرنس | عابد خزندار |
| ٢٦٩- | المرأة فى أدب نجيب محفوظ | فوزية العشماوى | فوزية العشماوى |
| ٢٧٠- | الفن والحياة فى مصر الفرعونية | كليرلا لويت | فاطمة عبدالله محمود |
| ٢٧١- | المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢) | محمد فؤاد كوبريلى | عبدالله أحمد إبراهيم |
| ٢٧٢- | عاش الشباب (رواية) | وانغ مينغ | وحيد السعيد عبدالحميد |
| ٢٧٣- | كيف تعد رسالة دكتوراه | أومبرتو إيكو | على إبراهيم منوفى |
| ٢٧٤- | اليوم السادس (رواية) | أندريه شديد | حمادة إبراهيم |
| ٢٧٥- | الخلود (رواية) | ميلان كونديرا | خالد أبو اليزيد |
| ٢٧٦- | الغضب وأحلام السنين (مسرحيات) | چان أنوى وآخرون | إدوار الخراط |
| ٢٧٧- | تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤) | إدوارد براون | محمد علاء الدين منصور |
| ٢٧٨- | المسافر (شعر) | محمد إقبال | يوسف عبدالفتاح فرج |

| | | |
|---|---|---|
| ٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية) | سنيل باث | جمال عبدالرحمن |
| ٣٨٠- حديث عن الخسارة | جونتر جراس | شيرين عبدالسلام |
| ٣٨١- أساسيات اللغة | ر. ل. تراسك | رانيا إبراهيم يوسف |
| ٣٨٢- تاريخ طبرستان | بهاء الدين محمد اسفنديار | أحمد محمد نادى |
| ٣٨٣- هدية الحجاز (شعر) | محمد إقبال | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال | سوزان إنجيل | إيزابيل كمال |
| ٣٨٥- مشترى العشق (رواية) | محمد على بهزادراد | يوسف عبدالفتاح فرج |
| ٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى | جانيت تود | ريهام حسين إبراهيم |
| ٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر) | جون دن | بهاء جاهين |
| ٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر) | سعدى الشيرازى | محمد علاء الدين منصور |
| ٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى | نخبة | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى | إم. فى. روبرتس | عثمان مصطفى عثمان |
| ٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية) | مايف بينشى | منى الدروبى |
| ٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية | فرناندو دى لاجرانجا | عبداللطيف عبدالحليم |
| ٣٩٣- فى قلب الشرق | ندوة لويس ماسينيون | زينب محمود الخضيرى |
| ٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون | بول ديفيز | هاشم أحمد محمد |
| ٣٩٥- آلام سياوش (رواية) | إسماعيل فصيح | سليم عبد الأمير حمدان |
| ٣٩٦- السافاك | تقى نجارى راد | محمود علاوى |
| ٣٩٧- أقدم لك: نيتشه | لورانس جين وكيتى شين | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٣٩٨- أقدم لك: سارتر | فيليب تودى وهوارد ريد | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٣٩٩- أقدم لك: كامى | ديفيد ميروفتش وآلن كوركس | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٠٠- مومو (رواية) | ميشائيل إنده | باهر الجوهرى |
| ٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات | زياودن ساردر وآخرون | ممدوح عبد المنعم |
| ٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج | ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت | ممدوح عبدالمنعم |
| ٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان) | تودور شتورم وجوتفرد كولر | عماد حسن بكر |
| ٤٠٤- تعويذة الحسى | ديفيد إبرام | ظبية خميس |
| ٤٠٥- إيزابيل (رواية) | أندريه جيد | حمادة إبراهيم |
| ٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ | مانويلا مانتاناريس | جمال عبد الرحمن |
| ٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه | مجموعة من المؤلفين | طلعت شاهين |
| ٤٠٨- معجم تاريخ مصر | جوان فوتشركنج | عنان الشهاوى |
| ٤٠٩- انتصار السعادة | برتراند راسل | إلهامى عمارة |
| ٤١٠- خلاصة القرن | كارل بوبر | الزواوى بغورة |
| ٤١١- همس من الماضى | جينيفر أكرمان | أحمد مستجير |
| ٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢) | ليفى بروفنسال | بإشراف: صلاح فضل |
| ٤١٣- أغنيات المنفى (شعر) | ناظم حكمت | محمد البخارى |
| ٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب | باسكال كازانوفا | أمل الصبان |
| ٤١٥- صورة كوكب (مسرحية) | فريدريش دورينمات | أحمد كامل عبدالرحيم |
| ٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر | أ. أ. رتشاردز | محمد مصطفى بدوى |

| | | |
|---|---|---|
| ٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥) | رينيه ويليك | مجاهد عبدالمنعم مجاهد |
| ٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية | جين هاثواى | عبد الرحمن الشيخ |
| ٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية | چون مارلو | نسيم مجلى |
| ٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية) | ڤولتير | الطيب بن رجب |
| ٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول | روى متحدة | أشرف كيلانى |
| ٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١) | ثلاثة من الرحالة | عبدالله عبدالرازق إبراهيم |
| ٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف | نخبة | وحيد النقاش |
| ٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) | نور الدين عبدالرحمن الجامى | محمد علاء الدين منصور |
| ٤٢٥- من طاووس إلى فرح | محمود طلوعى | محمود علاوى |
| ٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى | نخبة | محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب |
| ٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) | باى إنكلان | ثريا شلبى |
| ٤٢٨- الخزانة الخفية | محمد هوتك بن داود خان | محمد أمان صافى |
| ٤٢٩- أقدم لك: هيجل | ليود سپنسر وأندزجى كروز | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٣٠- أقدم لك: كانط | كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٣١- أقدم لك: فوكو | كريس هوروكس وزوران جفتيك | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللى | پاتريك كيرى وأوسكار زاريت | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٣٣- أقدم لك: جويس | ديڤيد نوريس وكارل فلنت | حمدى الجابرى |
| ٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية | دونكان هيث وچودى بورهام | عصام حجازى |
| ٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة | نيكولاس زربرج | ناجى رشوان |
| ٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) | فردريك كوبلستون | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى | شبلى النعمانى | جلال الحفناوى |
| ٤٣٨- بطلات وضحايا | إيمان ضياء الدين بيبرس | عايدة سيف الدولة |
| ٤٣٩- موت المرابى (رواية) | صدر الدين عينى | محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب |
| ٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة | كرستن بروستاد | محمد طارق الشرقاوى |
| ٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) | أروندانى روى | فخرى لبيب |
| ٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية | فوزية أسعد | ماهر جويجاتى |
| ٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها | كيس فرستيغ | محمد طارق الشرقاوى |
| ٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة | لاوريت سيجورنه | صالح علمانى |
| ٤٤٥- حول وزن الشعر | پرويز ناتل خانلرى | محمد محمد يونس |
| ٤٤٦- التحالف الأسود | ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير | أحمد محمود |
| ٤٤٧- ملحمة السِّيد | تراث شعبى إسبانى | الطاهر أحمد مكى |
| ٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة) | الأب عيروط | محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس |
| ٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية | نخبة | جمال الجزيرى |
| ٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية | صوفيا فوكا وريبيكا رايت | جمال الجزيرى |
| ٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية | ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون | إمام عبد الفتاح إمام |
| ٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية | ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت | محيى الدين مزيد |
| ٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة | چان لوك أرنو | حليم طوسون وفؤاد الدهان |
| ٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية | رينيه بريدال | سوزان خليل |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٤٥٥- | تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥) | فردريك كوبلستون | محمود سيد أحمد |
| ٤٥٦- | لا تنسنى (رواية) | مريم جعفرى | هويدا عزت محمد |
| ٤٥٧- | النساء فى الفكر السياسى الغربى | سوزان موللر أوكين | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٥٨- | الموريسكيون الأندلسيون | مرثيديس غارثيا أرينال | جمال عبد الرحمن |
| ٤٥٩- | نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية | توم تيتنبرج | جلال البنا |
| ٤٦٠- | أقدم لك: الفاشية والنازية | ستوارت هود وليتزا جانستز | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٦١- | أقدم لك: لكان | داريان ليدر وجودى جروفز | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٤٦٢- | طه حسين من الأزهر إلى السوربون | عبدالرشيد الصادق محمودى | عبدالرشيد الصادق محمودى |
| ٤٦٣- | الدولة المارقة | ويليام بلوم | كمال السيد |
| ٤٦٤- | ديمقراطية للقلة | مايكل بارنتى | حصة إبراهيم المنيف |
| ٤٦٥- | قصص اليهود | لويس جنزبيرج | جمال الرفاعى |
| ٤٦٦- | حكايات حب وبطولات فرعونية | ڤيولين فانويك | فاطمة عبد الله |
| ٤٦٧- | التفكير السياسى والنظرة السياسية | ستيفين ديلو | ربيع وهبة |
| ٤٦٨- | روح الفلسفة الحديثة | چوزايا رويس | أحمد الأنصارى |
| ٤٦٩- | جلال الملوك | نصوص حبشية قديمة | مجدى عبدالرازق |
| ٤٧٠- | الأراضى والجودة البيئية | جارى م. بيرزنسكى وآخرون | محمد السيد النتة |
| ٤٧١- | رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢) | ثلاثة من الرحالة | عبد الله عبد الرازق إبراهيم |
| ٤٧٢- | دون كيخوتى (القسم الأول) | ميجيل دى ثربانتس سابيدرا | سليمان العطار |
| ٤٧٣- | دون كيخوتى (القسم الثانى) | ميجيل دى ثربانتس سابيدرا | سليمان العطار |
| ٤٧٤- | الأدب والنسوية | پام موريس | سهام عبدالسلام |
| ٤٧٥- | صوت مصر: أم كلثوم | ڤرچينيا دانيلسون | عادل هلال عنانى |
| ٤٧٦- | أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى | ماريلين بوث | سحر توفيق |
| ٤٧٧- | تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين | هيلدا هوخام | أشرف كيلانى |
| ٤٧٨- | الصين والولايات المتحدة | ليوشيه شنج و لى شى دونج | عبد العزيز حمدى |
| ٤٧٩- | المقهـــى (مسرحية) | لاو شه | عبد العزيز حمدى |
| ٤٨٠- | تساى ون جى (مسرحية) | كو مو روا | عبد العزيز حمدى |
| ٤٨١- | بردة النبى | روى متحدة | رضوان السيد |
| ٤٨٢- | موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية | روبير چاك تيبو | فاطمة عبد الله |
| ٤٨٣- | النسوية وما بعد النسوية | سارة چامبل | أحمد الشامى |
| ٤٨٤- | جمالية التلقى | هانسن روبيرت ياوس | رشيد بنحدو |
| ٤٨٥- | التوبة (رواية) | نذير أحمد الدهلوى | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٤٨٦- | الذاكرة الحضارية | يان أسمن | عبدالحليم عبدالغنى رجب |
| ٤٨٧- | الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية | رفيع الدين المراد آبادى | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٤٨٨- | الحب الذى كان وقصائد أخرى | نخبة | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٤٨٩- | هُسِرل: الفلسفة علمًا دقيقًا | إدموند هُسِرل | محمود رجب |
| ٤٩٠- | أسمار الببغاء | محمد قادرى | عبد الوهاب علوب |
| ٤٩١- | نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى | نخبة | سمير عبد ربه |
| ٤٩٢- | محمد على مؤسس مصر الحديثة | جى ڤارچيت | محمد رفعت عواد |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٤٩٣- | خطابات إلى طالب الصوتيات | هارولد بالمر | محمد صالح الضالع |
| ٤٩٤- | كتاب الموتى: الخروج فى النهار | نصوص مصرية قديمة | شريف الصيفى |
| ٤٩٥- | اللوبى | إدوارد تيفان | حسن عبد ربه المصرى |
| ٤٩٦- | الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١) | إكوانو بانولى | مجموعة من المترجمين |
| ٤٩٧- | العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط | نادية العلى | مصطفى رياض |
| ٤٩٨- | النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث | جوديث تاكر ومارجريت مريودز | أحمد على بدوى |
| ٤٩٩- | تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع | مجموعة من المؤلفين | فيصل بن خضراء |
| ٥٠٠- | فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية | تيتز رووكى | طلعت الشايب |
| ٥٠١- | تاريخ النساء فى الغرب (جـ١) | آرثر جولد هامر | سحر فراج |
| ٥٠٢- | أصوات بديلة | مجموعة من المؤلفين | هالة كمال |
| ٥٠٣- | مختارات من الشعر الفارسى الحديث | نخبة من الشعراء | محمد نور الدين عبدالمنعم |
| ٥٠٤- | كتابات أساسية (جـ١) | مارتن هايدجر | إسماعيل المصدق |
| ٥٠٥- | كتابات أساسية (جـ٢) | مارتن هايدجر | إسماعيل المصدق |
| ٥٠٦- | ربما كان قديسًا (رواية) | آن تيلر | عبدالحميد فهمى الجمال |
| ٥٠٧- | سيدة الماضى الجميل (مسرحية) | بيتر شيفر | شوقى فهيم |
| ٥٠٨- | المولوية بعد جلال الدين الرومى | عبدالباقى جلبنارلى | عبدالله أحمد إبراهيم |
| ٥٠٩- | الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك | آدم صبرة | قاسم عبده قاسم |
| ٥١٠- | الأرملة الماكرة (مسرحية) | كارلو جولدونى | عبدالرازق عيد |
| ٥١١- | كوكب مرقّع (رواية) | آن تيلر | عبدالحميد فهمى الجمال |
| ٥١٢- | كتابة النقد السينمائى | تيموثى كوريجان | جمال عبد الناصر |
| ٥١٣- | العلم الجسور | تيد أنتون | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٥١٤- | مدخل إلى النظرية الأدبية | جونثان كولر | مصطفى بيومى عبد السلام |
| ٥١٥- | من التقليد إلى ما بعد الحداثة | فدوى مالطى دوجلاس | فدوى مالطى دوجلاس |
| ٥١٦- | إرادة الإنسان فى علاج الإدمان | آرنولد واشنطون ودونا باوندى | صبرى محمد حسن |
| ٥١٧- | نقش على الماء وقصص أخرى | نخبة | سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٥١٨- | استكشاف الأرض والكون | إسحق عظيموف | هاشم أحمد محمد |
| ٥١٩- | محاضرات فى المثالية الحديثة | جوزايا رويس | أحمد الأنصارى |
| ٥٢٠- | الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع | أحمد يوسف | أمل الصبان |
| ٥٢١- | قاموس تراجم مصر الحديثة | آرثر جولد سميث | عبدالوهاب بكر |
| ٥٢٢- | إسبانيا فى تاريخها | أميركو كاسترو | على إبراهيم منوفى |
| ٥٢٣- | الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن | باسيليو بابون مالدونادو | على إبراهيم منوفى |
| ٥٢٤- | الملك لير (مسرحية) | وليم شكسبير | محمد مصطفى بدوى |
| ٥٢٥- | موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى | دنيس جونسون | نادية رفعت |
| ٥٢٦- | أقدم لك: السياسة البيئية | ستيفن كرول ووليم رانكين | محيى الدين مزيد |
| ٥٢٧- | أقدم لك: كافكا | ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب | جمال الجزيرى |
| ٥٢٨- | أقدم لك: تروتسكى والماركسية | طارق على وفلِ إيفانز | جمال الجزيرى |
| ٥٢٩- | بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى | محمد إقبال | حازم محفوظ |
| ٥٣٠- | مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية | رينيه جينو | عمر الفاروق عمر |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٥٣١- | ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟ | جاك دريدا | صفاء فتحى |
| ٥٣٢- | المغامرُ والمستشرق | هنرى لورنس | بشير السباعى |
| ٥٣٣- | تعلُّم اللغة الثانية | سوزان جاس | محمد طارق الشرقاوى |
| ٥٣٤- | الإسلاميون الجزائريون | سيفرين لابا | حمادة إبراهيم |
| ٥٣٥- | مخزن الأسرار (شعر) | نظامى الكنجوى | عبدالعزيز بقوش |
| ٥٣٦- | الثقافات وقيم التقدم | صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون | شوقى جلال |
| ٥٣٧- | الحب والحرية (شعر) | نخبة | عبدالغفار مكاوى |
| ٥٣٨- | النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى | كيت دانيلر | محمد الحديدى |
| ٥٣٩- | خمس مسرحيات قصيرة | كاريل تشرشل | محسن مصيلحى |
| ٥٤٠- | توجهات بريطانية - شرقية | السير رونالد ستورس | رءوف عباس |
| ٥٤١- | هى تتخيل وهلاوس أخرى | خوان خوسيه مياس | مروة رزق |
| ٥٤٢- | قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث | نخبة | نعيم عطية |
| ٥٤٣- | أقدم لك: السياسة الأمريكية | باتريك بروجان وكريس جرات | وفاء عبدالقادر |
| ٥٤٤- | أقدم لك: ميلانى كلاين | روبرت هنشل وآخرون | حمدى الجابرى |
| ٥٤٥- | يا له من سباق محموم | فرانسيس كريك | عزت عامر |
| ٥٤٦- | ريموس | ت. ب. وايزمان | توفيق على منصور |
| ٥٤٧- | أقدم لك: بارت | فيليب تودى وآن كورس | جمال الجزيرى |
| ٥٤٨- | أقدم لك: علم الاجتماع | ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون | حمدى الجابرى |
| ٥٤٩- | أقدم لك: علم العلامات | بول كوبلى وليتاجانز | جمال الجزيرى |
| ٥٥٠- | أقدم لك: شكسبير | نيك جروم وبيرو | حمدى الجابرى |
| ٥٥١- | الموسيقى والعولمة | سايمون ماندى | سمحة الخولى |
| ٥٥٢- | قصص مثالية | ميجيل دى ثربانتس | على عبد الرءوف البمبى |
| ٥٥٣- | مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر | دانيال لوفرس | رجاء ياقوت |
| ٥٥٤- | مصر فى عهد محمد على | عفاف لطفى السيد مارسوه | عبدالسميع عمر زين الدين |
| ٥٥٥- | الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين | أناتولى أوتكين | أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى |
| ٥٥٦- | أقدم لك: جان بودريار | كريس هوروكس وزوران جيفتك | حمدى الجابرى |
| ٥٥٧- | أقدم لك: الماركيز دى ساد | ستوارت هود وجراهام كرولى | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٥٥٨- | أقدم لك: الدراسات الثقافية | زيودين ساردار وبورين ڤان لون | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٥٥٩- | الماس الزائف (رواية) | تشا تشاجى | عبدالحى أحمد سالم |
| ٥٦٠- | صلصلة الجرس (شعر) | محمد إقبال | جلال السعيد الحفناوى |
| ٥٦١- | جناح جبريل (شعر) | محمد إقبال | جلال السعيد الحفناوى |
| ٥٦٢- | بلايين وبلايين | كارل ساجان | عزت عامر |
| ٥٦٣- | ورود الخريف (مسرحية) | خاثينتو بينابينتى | صبرى محمدى التهامى |
| ٥٦٤- | عُش الغريب (مسرحية) | خاثينتو بينابينتى | صبرى محمدى التهامى |
| ٥٦٥- | الشرق الأوسط المعاصر | ديبورا ج. جيرنر | أحمد عبدالحميد أحمد |
| ٥٦٦- | تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى | موريس بيشوب | على السيد على |
| ٥٦٧- | الوطن المغتصب | مايكل رايس | إبراهيم سلامة إبراهيم |
| ٥٦٨- | الأصولى فى الرواية | عبد السلام حيدر | عبد السلام حيدر |

٥٦٩- موقع الثقافة — هومى بابا — ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى — سير روبرت هاى — يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر — إيميليا دى ثوليتا — السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة — برونو آليوا — كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد — ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى — جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين — حسن بيرنيا — علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة — نجير وودز — أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس — أمريكو كاسترو — ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو — كارلو كولودى — محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت — أيومى ميزوكوشى — محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى — چون ماهر وچودى جرونز — محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١) — چون فيزر وبول سيترجز — بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية) — ماريو بوزو — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية) — هوشنك كلشيرى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية) — أحمد محمود — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية) — محمود دولت آبادى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية) — هوشنك كلشيرى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية — ليزبيث مالكموس وروى آرمز — سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى — مجموعة من المؤلفين — عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث — أنييس كابرول — ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة — فيلكس ديبوا — عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية — نخبة — محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر — هوراتيوس — على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١) — محمد صبرى السوربونى — مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة — پول ڤاليرى — بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال) — سوزانا تامارو — أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢) — إكواير بانولى — مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم — روبرت ديجارليه وآخرون — إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة — خوليو كاروباروخا — جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل — دونالد ريدفورد — بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق — هرداد مهرين — محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ — برنارد لويس — مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة — ريان ڤوت — أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية — چيمس وليامز — إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى — آرثر أيزابرجر — وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١) — پاتريك ل. آبوت — توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب — إرنست زيبروسكى (الصغير) — مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر — ريتشارد هاريس — محمود إبراهيم السعدنى

| العنوان | المؤلف | المترجم |
|---|---|---|
| ٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١) | هارى سينت فيلبى | صبرى محمد حسن |
| ٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢) | هارى سينت فيلبى | صبرى محمد حسن |
| ٦٠٩- الانتخاب الثقافى | أجنر فوج | شوقى جلال |
| ٦١٠- العمارة المدجنة | رفائيل لوبث جوثمان | على إبراهيم منوفى |
| ٦١١- النقد والأيديولوجية | تيرى إيجلتون | فخرى صالح |
| ٦١٢- رسالة النفسية | فضل الله بن حامد الحسينى | محمد محمد يونس |
| ٦١٣- السياحة والسياسة | كولن مايكل هول | محمد فريد حجاب |
| ٦١٤- بيت الأقصر الكبير( رواية) | فوزية أسعد | منى قطان |
| ٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩ | أليس بسيرينى | محمد رفعت عواد |
| ٦١٦- أساطير بيضاء | روبرت يانج | أحمد محمود |
| ٦١٧- الفولكلور والبحر | هوراس بيك | أحمد محمود |
| ٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة | تشارلز فيلبس | جلال البنا |
| ٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس | ريمون استانبولى | عايدة الباجورى |
| ٦٢٠- السلام الصليبى | توماش ماستناك | بشير السباعى |
| ٦٢١- رباعيات الخيام (ميراث الترجمة) | عمر الخيام | محمد السباعى |
| ٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين | آى تشينغ | أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى |
| ٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى | سعيد قانعى | يوسف عبدالفتاح |
| ٦٢٤- شعر المرأة الأفريقية | نخبة | غادة الحلوانى |
| ٦٢٥- الجرح السرى | چان چينيه | محمد برادة |
| ٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) | نخبة | توفيق على منصور |
| ٦٢٧- حكايات إيرانية | نخبة | عبدالوهاب علوب |
| ٦٢٨- أصل الأنواع | تشارلس داروين | مجدى محمود المليجى |
| ٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية | نيقولاس جويات | عزة الخميسى |
| ٦٣٠- سيرتى الذاتية | أحمد بللو | صبرى محمد حسن |
| ٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر | نخبة | بإشراف: حسن طلب |
| ٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا | دولورس برامون | رانيا محمد |
| ٦٣٣- الحب وفنونه (شعر) | نخبة | حمادة إبراهيم |
| ٦٣٤- مكتبة الإسكندرية | روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين | مصطفى البهنساوى |
| ٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر | جودة عبد الخالق | سمير كريم |
| ٦٣٦- حج يولندة | جناب شهاب الدين | سامية محمد جلال |
| ٦٣٧- مصر الخديوية | ف. روبرت هنتر | بدر الرفاعى |
| ٦٣٨- الديمقراطية والشعر | روبرت بن وارين | فؤاد عبد المطلب |
| ٦٣٩- فندق الأرق (شعر) | تشارلز سيميك | أحمد شافعى |
| ٦٤٠- ألكسياد | الأميرة أنّاكومنينا | حسن حبشى |
| ٦٤١- برتراند رسل (مختارات) | برتراند رسل | محمد قدرى عمارة |
| ٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور | چوناثان ميلر وبورين ڤان لون | ممدوح عبد المنعم |
| ٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر) | عبد الماجد الدريابادى | سمير عبدالحميد إبراهيم |
| ٦٤٤- العلوم عند المسلمين | هوارد د.تيرنر | فتح الله الشيخ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٦٤٥- | السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية | تشارلز كجلى ويوچين ويتكوف | عبد الوهاب علوب |
| ٦٤٦- | قصة الثورة الإيرانية | سيهر ذبيح | عبد الوهاب علوب |
| ٦٤٧- | رسائل من مصر | چون نينيه | فتحى العشرى |
| ٦٤٨- | بورخيس | بياتريث سارلو | خليل كلفت |
| ٦٤٩- | الخوف وقصص خرافية أخرى | چى دى موپاسان | سحر يوسف |
| ٦٥٠- | الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط | روچر أوين | عبد الوهاب علوب |
| ٦٥١- | ديليسبس الذى لا نعرفه | وثائق قديمة | أمل الصبان |
| ٦٥٢- | آلهة مصر القديمة | كلود ترونكر | حسن نصر الدين |
| ٦٥٣- | مدرسة الطغاة (مسرحية) | إيريش كستنر | سمير جريس |
| ٦٥٤- | أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١) | نصوص قديمة | عبد الرحمن الخميسى |
| ٦٥٥- | أساطير وآلهة | إيزابيل فرانكو | حليم طوسون ومحمود ماهر طه |
| ٦٥٦- | خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان) | ألفونسو ساسترى | ممدوح البستاوى |
| ٦٥٧- | محاكم التفتيش والموريسكيون | مرثيديس غارثيا أرينال | خالد عباس |
| ٦٥٨- | حوارات مع خوان رامون خيمينيث | خوان رامون خيمينيث | صبرى التهامى |
| ٦٥٩- | قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية | نخبة | عبداللطيف عبدالحليم |
| ٦٦٠- | نافذة على أحدث العلوم | ريتشارد فايفيلد | هاشم أحمد محمد |
| ٦٦١- | روائع أندلسية إسلامية | نخبة | صبرى التهامى |
| ٦٦٢- | رحلة إلى الجذور | داسو سالديبار | صبرى التهامى |
| ٦٦٣- | امرأة عادية | ليوسيل كليفتون | أحمد شافعى |
| ٦٦٤- | الرجل على الشاشة | ستيفن كوهان وإنا راى هارك | عصام زكريا |
| ٦٦٥- | عوالم أخرى | بول دافيز | هاشم أحمد محمد |
| ٦٦٦- | تطور الصورة الشعرية عند شكسبير | وولفجانج اتش كليمن | جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب |
| ٦٦٧- | الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى | ألفن جولدنر | على ليلة |
| ٦٦٨- | ثقافات العولمة | فريدريك جيمسون وماساو ميوشى | ليلى الجبالى |
| ٦٦٩- | ثلاث مسرحيات | وول شوينكا | نسيم مجلى |
| ٦٧٠- | أشعار جوستاف أدولفو | جوستاف أدولفو بكر | ماهر البطوطى |
| ٦٧١- | قل لى كم مضى على رحيل القطار؟ | چيمس بولدوين | على عبدالأمير صالح |
| ٦٧٢- | مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال | نخبة | إبتهال سالم |
| ٦٧٣- | ضرب الكليم (شعر) | محمد إقبال | جلال الحفناوى |
| ٦٧٤- | ديوان الإمام الخمينى | آية الله العظمى الخمينى | محمد علاء الدين منصور |
| ٦٧٥- | أثينا السوداء (جـ٢، مج١) | مارتن برنال | بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى |
| ٦٧٦- | أثينا السوداء (جـ٢، مج٢) | مارتن برنال | بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى |
| ٦٧٧- | تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١) | إدوارد جرانفيل براون | أحمد كمال الدين حلمى |
| ٦٧٨- | تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢) | إدوارد جرانفيل براون | أحمد كمال الدين حلمى |
| ٦٧٩- | مختارات شعرية مترجمة (جـ٢) | وليام شكسبير | توفيق على منصور |
| ٦٨٠- | المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة) | كارل ل. بيكر | محمد شفيق غربال |
| ٦٨١- | هل يوجد نص فى هذا الفصل؟ | ستانلى فش | أحمد الشيمى |
| ٦٨٢- | نجوم حظر التجوال الجديد (رواية) | بن أوكرى | صبرى محمد حسن |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٦٨٣- | سكين واحد لكل رجل (رواية) | تى. م. الوكو | صبرى محمد حسن |
| ٦٨٤- | الأعمال القصصية الكاملة (أنا كنا) (جـ١) | أوراثيو كيروجا | رزق أحمد بهنسى |
| ٦٨٥- | الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢) | أوراثيو كيروجا | رزق أحمد بهنسى |
| ٦٨٦- | امرأة محاربة (رواية) | ماكسين هونج كنجستون | سحر توفيق |
| ٦٨٧- | محبوبة (رواية) | فتانة حاج سيد جوادى | ماجدة العنانى |
| ٦٨٨- | الانفجارات الثلاثة العظمى | فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار | فتح الله الشيخ وأحمد السماحى |
| ٦٨٩- | الملف (مسرحية) | تادوش روجيفيتش | هناء عبد الفتاح |
| ٦٩٠- | محاكم التفتيش فى فرنسا | (مختارات) | رمسيس عوض |
| ٦٩١- | ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته | (مختارات) | رمسيس عوض |
| ٦٩٢- | أقدم لك: الوجودية | ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت | حمدى الجابرى |
| ٦٩٣- | أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة) | حاثيم برشيت وآخرون | جمال الجزيرى |
| ٦٩٤- | أقدم لك: دريدا | جيف كولينز وبيل مايبلين | حمدى الجابرى |
| ٦٩٥- | أقدم لك: رسل | ديف روبنسون وجودى جروف | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٦٩٦- | أقدم لك: روسو | ديف روبنسون وأوسكار زاريت | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٦٩٧- | أقدم لك: أرسطو | روبرت ويفين وجودى جروفس | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٦٩٨- | أقدم لك: عصر التنوير | ليود سبنسر وأندرزيجى كروز | إمام عبدالفتاح إمام |
| ٦٩٩- | أقدم لك: التحليل النفسى | إيفان وارد وأوسكار زارايت | جمال الجزيرى |
| ٧٠٠- | الكاتب وواقعه | ماريو بارجاس يوسا | بسمة عبدالرحمن |
| ٧٠١- | الذاكرة والحداثة | وليم رود ڤيڤيان | منى البرنس |
| ٧٠٢- | مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة) | جوستينيان | عبد العزيز فهمى |
| ٧٠٣- | تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢) | إدوارد جرانڤيل براون | أمين الشواربى |
| ٧٠٤- | فيه ما فيه | مولانا جلال الدين الرومى | محمد علاء الدين منصور وآخرون |
| ٧٠٥- | فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام | الإمام الغزالى | عبدالحميد مدكور |
| ٧٠٦- | الشفرة الوراثية وكتاب التحولات | جونسون ف. يان | عزت عامر |
| ٧٠٧- | أقدم لك: ڤالتر بنيامين | هوارد كاليجل وآخرون | وفاء عبدالقادر |
| ٧٠٨- | فراعنة من؟ | دونالد مالكولم ريد | رءوف عباس |
| ٧٠٩- | معنى الحياة | ألفريد أدلر | عادل نجيب بشرى |
| ٧١٠- | الأطفال والتكنولوجيا والثقافة | إيان هاتشباى وجوموران - إليس | دعاء محمد الخطيب |
| ٧١١- | درة التاج | ميرزا محمد هادى رسوا | هناء عبد الفتاح |
| ٧١٢- | الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة) | هوميروس | سليمان البستانى |
| ٧١٣- | الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة) | هوميروس | سليمان البستانى |
| ٧١٤- | حديث القلوب (ميراث الترجمة) | لامنيه | حنا صاوه |
| ٧١٥- | سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة) | إدمون ديمولان | أحمد فتحى زغلول |
| ٧١٦- | جامعة كل المعارف (جـ٢) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين |
| ٧١٧- | جامعة كل المعارف (جـ٣) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين |
| ٧١٨- | جامعة كل المعارف (جـ٥) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين |
| ٧١٩- | مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة | م. جولدبرج | جميلة كامل |
| ٧٢٠- | مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية | دونام جونسون | على شعبان وأحمد الخطيب |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٧٢١- | فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١) | هـ. أ. ولفسون | مصطفى لبيب عبد الغنى |
| ٧٢٢- | الصفيحة وقصص أخرى | يشار كمال | الصفصافى أحمد القطورى |
| ٧٢٣- | تحديات ما بعد الصهيونية | إفرايم نيمنى | أحمد ثابت |
| ٧٢٤- | اليسار الفرويدى | پول روبنسون | عبده الريس |
| ٧٢٥- | الاضطراب النفسى | چون فيتكس | مى مقلد |
| ٧٢٦- | الموريسكيون فى المغرب | غيرمو غوثالبيس بوستو | مروة محمد إبراهيم |
| ٧٢٧- | طعم البحر (رواية) | باچين | وحيد السعيد |
| ٧٢٨- | العولمة: تدمير العمالة والنمو | موريس آليه | أميرة جمعة |
| ٧٢٩- | الثورة الإسلامية فى إيران | صادق زيباكلام | هويدا عزت |
| ٧٣٠- | حكايات من السهول الأفريقية | آن جاتى | عزت عامر |
| ٧٣١- | النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف | مجموعة من المؤلفين | محمد قدرى عمارة |
| ٧٣٢- | قصص بسيطة (رواية) | إنجو شولتسه | سمير جريس |
| ٧٣٣- | مأساة عطيل (مسرحية) | وليم شيكسبير | محمد مصطفى بدوى |
| ٧٣٤- | بونابرت فى الشرق الإسلامى | أحمد يوسف | أمل الصبان |
| ٧٣٥- | فن السيرة فى العربية | مايكل كوبرسون | محمود محمد مكى |
| ٧٣٦- | التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١) | هوارد زن | شعبان مكاوى |
| ٧٣٧- | الكوارث الطبيعية (مج٢) | پاتريك ل. أبوت | توفيق على منصور |
| ٧٣٨- | دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية | چيرار دى چورج | محمد عواد |
| ٧٣٩- | دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر | چيرار دى چورج | محمد عواد |
| ٧٤٠- | خطابات السلطة | بارى هندس | مرفت ياقوت |
| ٧٤١- | الإسلام وأزمة العصر | برنارد لويس | أحمد هيكل |
| ٧٤٢- | أرض حارة | خوسيه لاكوادرا | رزق بهنسى |
| ٧٤٣- | الثقافة: منظور دارويني | روبرت أونجر | شوقى جلال |
| ٧٤٤- | ديوان الأسرار والرموز (شعر) | محمد إقبال | سمير عبد الحميد |
| ٧٤٥- | المآثر السلطانية | بيك الدنبلى | محمد أبو زيد |
| ٧٤٦- | تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١) | چوزيف أ. شومبيتر | حسن النعيمى |
| ٧٤٧- | الاستعارة فى لغة السينما | تريڤور وايتوك | إيمان عبد العزيز |
| ٧٤٨- | تدمير النظام العالمى | فرانسيس بويل | سمير كريم |
| ٧٤٩- | إيكولوچيا لغات العالم | ل.ج. كالڤيه | باتسى جمال الدين |
| ٧٥٠- | الإلياذة | هوميروس | بإشراف: أحمد عتمان |
| ٧٥١- | الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى | نخبة | علاء السباعى |
| ٧٥٢- | ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف | جمال قارصلى | نمر عاروری |
| ٧٥٣- | التنمية والقيم | إسماعيل سراج الدين وآخرون | محسن يوسف |
| ٧٥٤- | الشرق والغرب | أنّا مارى شيمل | عبدالسلام حيدر |
| ٧٥٥- | تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين | أندرو ب. دبيكى | على إبراهيم منوفى |
| ٧٥٦- | ذات العيون الساحرة | إنريكى خارديل بونثيلا | خالد محمد عباس |
| ٧٥٧- | تجارة مكة | پاتريشيا كرون | آمال الروبى |
| ٧٥٨- | الإحساس بالعولمة | بروس روبنز | عاطف عبدالحميد |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٧٥٩- | النثر الأردى | مولوى سيد محمد | جلال الحفناوى |
| ٧٦٠- | الدين والتصور الشعبى للكون | السيد الأسود | السيد الأسود |
| ٧٦١- | جيوب مثقلة بالحجارة (رواية) | فيرجينيا وولف | فاطمة ناعوت |
| ٧٦٢- | المسلم عدواً و صديقاً | ماريا سواليداد | عبدالعال صالح |
| ٧٦٣- | الحياة فى مصر | أنريكو بيا | نجوى عمر |
| ٧٦٤- | ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل) | غالب الدهلوى | حازم محفوظ |
| ٧٦٥- | ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف) | خواجه مير درد الدهلوى | حازم محفوظ |
| ٧٦٦- | الشرق المتخيل | تييرى هنتش | غازى برو وخليل أحمد خليل |
| ٧٦٧- | الغرب المتخيل | تسيب سمير الحسينى | غازى برو |
| ٧٦٨- | حوار الثقافات | محمود فهمى حجازى | محمود فهمى حجازى |
| ٧٦٩- | أدباء أحياء | فريدريك هتمان | رندا النشار وضياء زاهر |
| ٧٧٠- | السيدة بيرفيكتا | بينيتو بيريث جالدوس | صبرى التهامى |
| ٧٧١- | السيد سيجوندو سومبرا | ريكاردو جويرالديس | صبرى التهامى |
| ٧٧٢- | بريخت ما بعد الحداثة | إليزابيث رايت | محسن مصيلحى |
| ٧٧٣- | دائرة المعارف الدولية (جـ٢) | چون فيزر وبول ستيرجز | بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى |
| ٧٧٤- | الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات | مجموعة من المؤلفين | حسن عبد ربه المصرى |
| ٧٧٥- | مرآة العروس | نذير أحمد الدهلوى | جلال الحفناوى |
| ٧٧٦- | منظومة مصيبت نامه (مج١) | فريد الدين العطار | محمد محمد يونس |
| ٧٧٧- | الانفجار الأعظم | چيمس إ. ليدسى | عزت عامر |
| ٧٧٨- | صفوة المديح | مولانا محمد أحمد ورضا القادرى | حازم محفوظ |
| ٧٧٩- | خيوط العنكبوت وقصص أخرى | نخبة | سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى |
| ٧٨٠- | من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠ | غلام رسول مهر | سمير عبد الحميد إبراهيم |
| ٧٨١- | الطريق إلى يكين | هدى بدران | نبيلة بدران |
| ٧٨٢- | المسرح المسكون | مارفن كارلسون | جمال عبد المقصود |
| ٧٨٣- | العولمة والرعاية الإنسانية | ڤيك چورج وبول ويلدنج | طلعت السروجى |
| ٧٨٤- | الإساءة للطفل | ديڤيد أ. وولف | جمعة سيد يوسف |
| ٧٨٥- | تأملات عن تطور ذكاء الإنسان | كارل ساجان | سمير حنا صادق |
| ٧٨٦- | المتنبة (رواية) | مارجريت أتوود | سحر توفيق |
| ٧٨٧- | العودة من فلسطين | جوزيه بوفيه | إيناس صادق |
| ٧٨٨- | سر الأهرامات | ميروسلاف فرنر | خالد أبو اليزيد البلتاجى |
| ٧٨٩- | الانتظار (رواية) | هاچين | منى الدروبى |
| ٧٩٠- | الفرانكفونية العربية | مونيك بونتو | جيهان العيسوى |
| ٧٩١- | العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة | محمد الشيمى | ماهر جويجاتى |
| ٧٩٢- | دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ | منى ميخائيل | منى إبراهيم |
| ٧٩٣- | ثلاث رؤى للمستقبل | چون جريفيس | رءوف وصفى |
| ٧٩٤- | التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢) | هوارد زن | شعبان مكاوى |
| ٧٩٥- | مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١) | نخبة | على عبد الرءوف اليمبى |
| ٧٩٦- | آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن | نعوم تشومسكى | حمزة المزينى |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر) | نخبة | طلعت شاهين |
| ٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال | كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد | سميرة أبو الحسن |
| ٧٩٩- سلم السنوات | آن تيلر | عبد الحميد فهمى الجمال |
| ٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى | ميشيل ماكارثى | عبد الجواد توفيق |
| ٨٠١- نحو مستقبل أفضل | تقرير دولى | بإشراف: محسن يوسف |
| ٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية | ماريا سوليداد | شرين محمود الرفاعى |
| ٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين | توماس باترسون | عزة الخميسى |
| ٨٠٤- سوسيولوجيا الدين | دانيل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام | درويش الحلوجى |
| ٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية) | كازو إيشيجورو | طاهر البربرى |
| ٨٠٦- الطبقة العليا المصرية | ماجدة بركة | محمود ماجد |
| ٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى | ميريام كوك | خيرى دومة |
| ٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة | ديفيد دابليو ليش | أحمد محمود |
| ٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١) | ليو شتراوس وجوزيف كروبسى | محمود سيد أحمد |
| ٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢) | ليو شتراوس وجوزيف كروبسى | محمود سيد أحمد |
| ٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢) | جوزيف أ.شومبيتر | حسن النعيمى |
| ٨١٢- تأمل العالم الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية | ميشيل مافيزولى | فريد الزاهى |
| ٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية) | آنى إرنو | نورا أمين |
| ٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية | نافتال لويس | آمال الروبى |
| ٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢) | هـ. أ. ولفسون | مصطفى لبيب عبدالغنى |
| ٨١٦- العدو الأمريكى | فيليب روجيه | بدر الدين عرودكى |
| ٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب | أفلاطون | محمد لطفى جمعة |
| ٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١) | أندريه ريمون | ناصر أحمد وباتسى جمال الدين |
| ٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢) | أندريه ريمون | ناصر أحمد وباتسى جمال الدين |
| ٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة) | وليم شكسبير | طانيوس أفندى |
| ٨٢١- هفت بيكر (شعر) | نور الدين عبد الرحمن الجامى | عبد العزيز بقوش |
| ٨٢٢- فن الرباعى (شعر) | نخبة | محمد نور الدين عبد المنعم |
| ٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر) | نخبة | أحمد شافعى |
| ٨٢٤- لغة الدراما | دافيد برتش | ربيع مفتاح |
| ٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة) | ياكوب بوكهارت | عبد العزيز توفيق جاويد |
| ٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة) | ياكوب بوكهارت | عبد العزيز توفيق جاويد |
| ٨٢٧- أهل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات | دونالد ب.كول وثريا تركى | محمد على فرج |
| ٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة) | ألبرت أينشتين | رمسيس شحاتة |
| ٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم | إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى | مجدى عبد الحافظ |
| ٨٣٠- رق العشق | حسن كريم بور | محمد علاء الدين منصور |
| ٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة) | ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد | محمد النادى وعطية عاشور |
| ٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣) | جوزيف أ.شومبيتر | حسن النعيمى |
| ٨٣٣- الفلسفة الألمانية | فرتز شميدرس | محسن الدمرداش |
| ٨٣٤- كنز الشعر | ذبيح الله صفا | محمد علاء الدين منصور |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٨٣٥- | تشيخوف: حياة فى صور | بيتر أوريان | علاء عزمى |
| ٨٣٦- | بين الإسلام والغرب | مرثيدس غارثيا | ممدوح البستاوى |
| ٨٣٧- | عناكب فى المصيدة | ناتاليا فيكو | على فهمى عبدالسلام |
| ٨٣٨- | فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى | نعوم تشومسكى | لبنى صبرى |
| ٨٣٩- | أقدم لك: النظرية النقدية | ستيوارت سين وبورين فان لون | جمال الجزيرى |
| ٨٤٠- | الخواتم الثلاثة | جوتهولد ليسينج | فوزية حسن |
| ٨٤١- | هملت: أمير الدانمارك | وليم شكسبير | محمد مصطفى بدوى |
| ٨٤٢- | منظومة مصيبت نامه (مج٢) | فريد الدين العطار | محمد محمد يونس |
| ٨٤٣- | من روائع القصيد الفارسى | نخبة | محمد علاء الدين منصور |
| ٨٤٤- | دراسات فى الفقر والعولمة | كريمة كريم | سمير كريم |
| ٨٤٥- | غياب السلام | نيكولاس جويات | طلعت الشايب |
| ٨٤٦- | الطبيعة البشرية | ألفريد أدلر | عادل نجيب بشرى |
| ٨٤٧- | الحياة بعد الرأسمالية | مايكل ألبرت | أحمد محمود |
| ٨٤٨- | تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة) | يوليوس فلهاوزن | عبد الهادى أبو ريدة |
| ٨٤٩- | سونيتات شكسبير | وليم شكسبير | بدر توفيق |
| ٨٥٠- | الخيال، الأسلوب، الحداثة | مقالات مختارة | جابر عصفور |
| ٨٥١- | الطب التجريبى (ميراث الترجمة) | كلود برنار | يوسف مراد |
| ٨٥٢- | العلم والحقيقة | ريتشارد دوكنز | مصطفى إبراهيم فهمى |
| ٨٥٣- | العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١) | باسيليو بابون مالدونادو | على إبراهيم منوفى |
| ٨٥٤- | العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢) | باسيليو بابون مالدونادو | على إبراهيم منوفى |
| ٨٥٥- | فهم الاستعارة فى الأدب | چيرارد ستيم | محمد أحمد حمد |
| ٨٥٦- | القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى | فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا | عائشة سويلم |
| ٨٥٧- | نادچا (رواية) | أندريه بريتون | كامل عويد العامرى |
| ٨٥٨- | جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية | ثيو هرمانز | بيومى قنديل |
| ٨٥٩- | السياسة فى الشرق القديم | إيف شيمل | مصطفى ماهر |
| ٨٦٠- | مصر وأوروبا | ڤان بملن | عادل صبحى تكلا |
| ٨٦١- | الإسلام والمسلمون فى أمريكا | چين سميث | محمد الخولى |
| ٨٦٢- | بيقاء الكاكادو | أرتور شنيتسلر | محسن الدمرداش |
| ٨٦٣- | لقاء بالشعراء | على أكبر دلفى | محمد علاء الدين منصور |
| ٨٦٤- | أوراق فلسطينية | دورين إنجرامز | عبد الرحيم الرفاعى |
| ٨٦٥- | فكرة الثقافة | تيرى إيجلتون | شوقى جلال |
| ٨٦٦- | رسائل خمس فى الآفاق والأنفس | مجموعة من المؤلفين | محمد علاء الدين منصور |
| ٨٦٧- | المهمة الاستوائية (رواية) | ديڤيد مايلو | صبرى محمد حسن |
| ٨٦٨- | الشعر الفارسى المعاصر | ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى | محمد علاء الدين منصور |
| ٨٦٩- | تطور الثقافة | روبن دونبار وآخرون | شوقى جلال |
| ٨٧٠- | عشر مسرحيات (جـ١) | نخبة | حمادة إبراهيم |
| ٨٧١- | عشر مسرحيات (جـ٢) | نخبة | حمادة إبراهيم |
| ٨٧٢- | كتاب الطاو | لاوتسو | محسن فرجانى |

| | | | |
|---|---|---|---|
| -٨٧٣ | معلمون لمدارس المستقبل | تقرير صادر عن اليونسكو | بهاء شاهين |
| -٨٧٤ | النهر الخالد (مج١) | جاويد إقبال | ظهور أحمد |
| -٨٧٥ | النهر الخالد (مج٢) | جاويد إقبال | ظهور أحمد |
| -٨٧٦ | دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١) | هنرى جورج فارمر | أمانى المنياوى |
| -٨٧٧ | أدب الجدل والدفاع فى العربية | موريتس شتينشنيدر | صلاح محجوب |
| -٨٧٨ | ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١) | تشارلز دوتى | صبرى محمد حسن |
| -٨٧٩ | ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢) | تشارلز دوتى | صبرى محمد حسن |
| -٨٨٠ | الواحات المفقودة | أحمد حسنين بك | عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه |
| -٨٨١ | المستنيرون : خدمة وخيانة | جلال آل أحمد | سلوى عباس |
| -٨٨٢ | أغانى شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة) | حافظ الشيرازى | إبراهيم الشواربى |
| -٨٨٣ | أغانى شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة) | حافظ الشيرازى | إبراهيم الشواربى |
| -٨٨٤ | تعلم الأطفال الصغار | باربرا تيزار ومارتن هيوز | محمد رشدى سالم |
| -٨٨٥ | روح الإرهاب | جان بودريار | بدر عروبكى |
| -٨٨٦ | الترجمة والإمبراطورية | دوجلاس روبنسون | ثائر ديب |
| -٨٨٧ | غزليات سعدى (شعر) | سعدى الشيرازى | محمد علاء الدين منصور |
| -٨٨٨ | أزهار مسك الليل (رواية) | مريم جعفرى | هويدا عزت |
| -٨٨٩ | سارتورس (ميراث الترجمة) | وليم فوكنر | ميخائيل رومان |
| -٨٩٠ | منتخبات أشعار فراغى | مختومقلى فراغى | الصفصافى أحمد القطورى |
| -٨٩١ | مفاوضات مع الموتى | مارجريت آتوود | عزة مازن |
| -٨٩٢ | تاريخ المسيحية الشرقية | عزيز سوريال عطية | إسحاق عبيد |
| -٨٩٣ | عبادة الإنسان الحر | برتراند راسل | محمد قدرى عمارة |
| -٨٩٤ | الطريق إلى مكة | محمد أسد | رفعت السيد على |
| -٨٩٥ | وادى الفوضى (رواية) | فريدريش دورينمات | يسرى خميس |
| -٨٩٦ | شعر الصقاف الأخرى | نخبة | زين العابدين فؤاد |
| -٨٩٧ | اختراق الجزيرة العربية | ديفيد جورج هوجارث | صبرى محمد حسن |
| -٨٩٨ | الإسلام والعلم | برويز أمير على | محمود خيال |
| -٨٩٩ | الدبلوماسية الفاعلة | بيتر مارشال | أحمد مختار الجمال |
| -٩٠٠ | تيارات نقدية محدثة | مقالات مختارة | جابر عصفور |
| -٩٠١ | مختارات من شعر لى جاو شينج | لى جاو شينج | عبد العزيز حمدى |
| -٩٠٢ | آلهة مصر القديمة وأساطيرها | روبرت أرنولد | مروة الفقى |
| -٩٠٣ | أفلام ومناهج (مج١) | بيل نيكولز | حسين بيومى |
| -٩٠٤ | أفلام ومناهج (مج٢) | بيل نيكولز | حسين بيومى |
| -٩٠٥ | تراث الهند | ج. ت. جارات | جلال السعيد الحفناوى |
| -٩٠٦ | أسس الحوار فى القرآن | هيربرت بوسه | أحمد هويدى |
| -٩٠٧ | آرثر.. متعة الحياة (رواية) | فرانسواز چيرو | فاطمة خليل |
| -٩٠٨ | الحلقة النقدية | ديفيد كوزنز هوى | خالدة حامد |
| -٩٠٩ | الفنون والآداب تحت ضغط العولمة | چوويست سمايرز | طلعت الشايب |
| -٩١٠ | بروميثيوس بلا قيود | داڤيد س. لينس | مى رفعت سلطان |

| الرقم | العنوان | المؤلف | المترجم |
|---|---|---|---|
| -٩١١ | غبار النجوم | جون جريبين | عزت عامر |
| -٩١٢ | ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة) | روايات مختارة | يحيى حقى |
| -٩١٣ | ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة) | مسرحيات مختارة | يحيى حقى |
| -٩١٤ | ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة) | ديزموند ستيوارت | يحيى حقى |
| -٩١٥ | المرأة فى أثينا: الواقع والقانون | روجر چست | منيرة كروان |
| -٩١٦ | الجدلية الاجتماعية | أنور عبد الملك | سامية الجندى وعبدالعظيم حماد |
| -٩١٧ | موسوعة كمبريدج (جـ١) | نخبة | إشراف: أحمد عتمان |
| -٩١٨ | موسوعة كمبريدج (جـ٤) | نخبة | إشراف: فاطمة موسى |
| -٩١٩ | موسوعة كمبريدج (جـ٩) | نخبة | إشراف: رضوى عاشور |
| -٩٢٠ | خليل جبران: حياته وعالمه | چين جبران و خليل جبران | فاطمة قنديل |
| -٩٢١ | لله الأمر (رواية) | أحمدو كوروما | ثريا إقبال |
| -٩٢٢ | الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى | ميكيل دى إيبالثا | جمال عبد الرحمن |
| -٩٢٣ | ملحمة حرب الاستقلال (شعر) | ناظم حكمت | محمد حرب |
| -٩٢٤ | حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض | كريستيان دى روش نوبلكور | فاطمة عبد الله |
| -٩٢٥ | رمسيس الثانى: فرعون المعجزات | كريستيان دى روش نوبلكور | فاطمة عبد الله |
| -٩٢٦ | ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١) | تشارلز دوتى | صبرى محمد حسن |
| -٩٢٧ | ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢) | تشارلز دوتى | صبرى محمد حسن |
| -٩٢٨ | سجون الضوء | كيتى فرجسون | عزت عامر |
| -٩٢٩ | نشأة الإنسان (مجـ١) | تشارلس داروين | مجدى المليجى |
| -٩٣٠ | نشأة الإنسان (مجـ٢) | تشارلس داروين | مجدى المليجى |
| -٩٣١ | نشأة الإنسان (مجـ٣) | تشارلس داروين | مجدى المليجى |
| -٩٣٢ | حلائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة) | رشيدالدين العمرى | إبراهيم الشواربى |
| -٩٣٣ | اللاعقلانية الشعرية | كارلوس بوسونيو | على منوفى |
| -٩٣٤ | محنة الكاتب الأفريقى | تشارلز لارسون | طلعت الشايب |
| -٩٣٥ | تاريخ الفن الألمانى | فولكر جيبهارت | علا عادل |
| -٩٣٦ | بيولوجيا الجحيم | إد ريجيس | أحمد فوزى عبد الحميد |
| -٩٣٧ | هيا نحكى (قصص أطفال) | أحمد ندالو | عبدالحى سالم |
| -٩٣٨ | الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر | پيير بورديو | سعيد العليمى |
| -٩٣٩ | سجن العقل | ستيفن چونسون | أحمد مستجير |
| -٩٤٠ | اليابان الحديثة: قضايا وآراء | مجموعة مقالات | علاء على زين العابدين |
| -٩٤١ | الجماليات لم يولدن بعد | أى كويئى أرماه | صبرى محمد حسن |
| -٩٤٢ | القرن الجديد | إريك هوبسبوم | وجيه سمعان عبد المسيح |
| -٩٤٣ | لقاء فى الظلام | مختارات من القصص الأفريقية | محمد عبد الواحد |
| -٩٤٤ | الكونترابا | پاتريك زوسكيند | سمير جريس |
| -٩٤٥ | أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة) | چان چاك روسو | ثريا توفيق |
| -٩٤٦ | الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا | ميشيل ليريس | محمد مهدى قناوى |
| -٩٤٧ | ماوراء المعنى والحقيقة | برتراند راسل | محمد قدرى عمارة |
| -٩٤٨ | أفريقيا منذ عام ١٨٠٠ | رونالد أوليڤر وأنتونى أتمور | فريد چورج بورى |

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣١٥٢ / ٢٠٠٦





يعالج هذا الكتاب تاريخ القارة الأفريقية منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى مطلع الألفية الثالثة ، ويقع فى ثلاثة أجزاء ، يحاول الجزء الأول دراسة تاريخ القارة قبل الفترة الاستعمارية ، بينما يختص الجزء الثانى بدراسة تقسيم القارة ونظام الحكم الاستعمارى ، أما الجزء الثالث فيركز على تاريخ الدول الأفريقية الحديثة ، وطوال قرنين من الزمان يركز الكتاب على القارة الأفريقية باعتبارها محور الدراسة. ويهتم المؤلفان باستمرارية التاريخ الأفريقى والتغيرات التى حدثت طوال هذه الفترة وتغطى هذه الطبعة ولأول مرة الأحداث التاريخية حتى منتصف عام ٢٠٠٣ ، دراسة أحداث الحرب الباردة والوضع الدولى الجديد القارة والصراعات التى يشن أسياد الحرب للسيطرة على موارد القارة النادرة ، أنه مرجع أساسى وشامل ومفص لأحداث قرنين من الزمان تحت سقف كتاب واحد .

الغلاف : هشام نوار